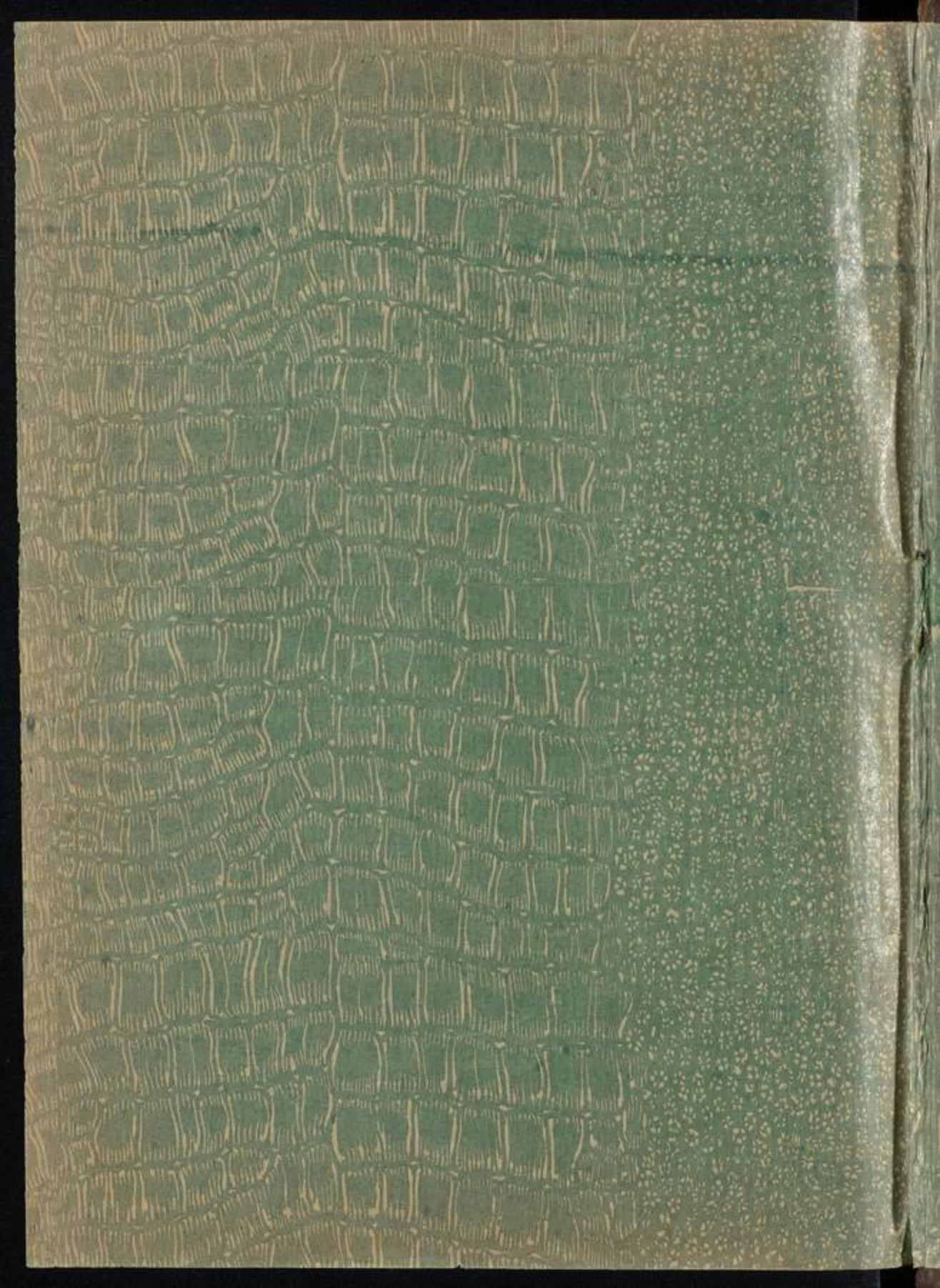
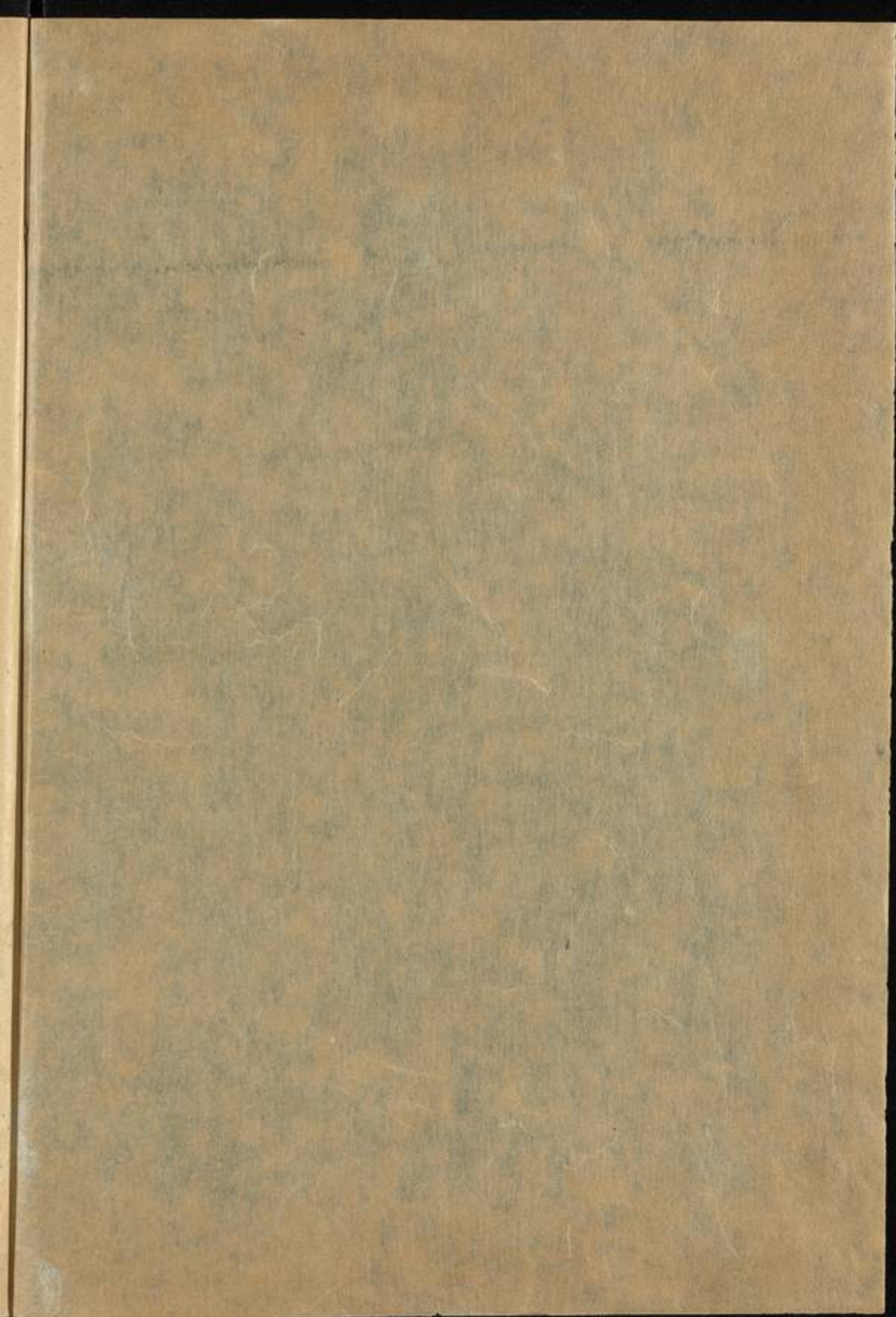


Columbia University  
in the City of New York

THE LIBRARIES







تاريخ الحركة القومية

وتطور نظام الحكم

في مصر

بقلم

عبد الرحمن الرافعي

الجزء الأول

(يتضمن ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الأول  
(من أدوارها في عهد الحملة الفرنسية ، وتاريخ مصر القومي في هذا العهد)

الطبعة الرابعة

١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م

ثمن الجزء الأول

٣٥

ماترمة الطبع والنشر

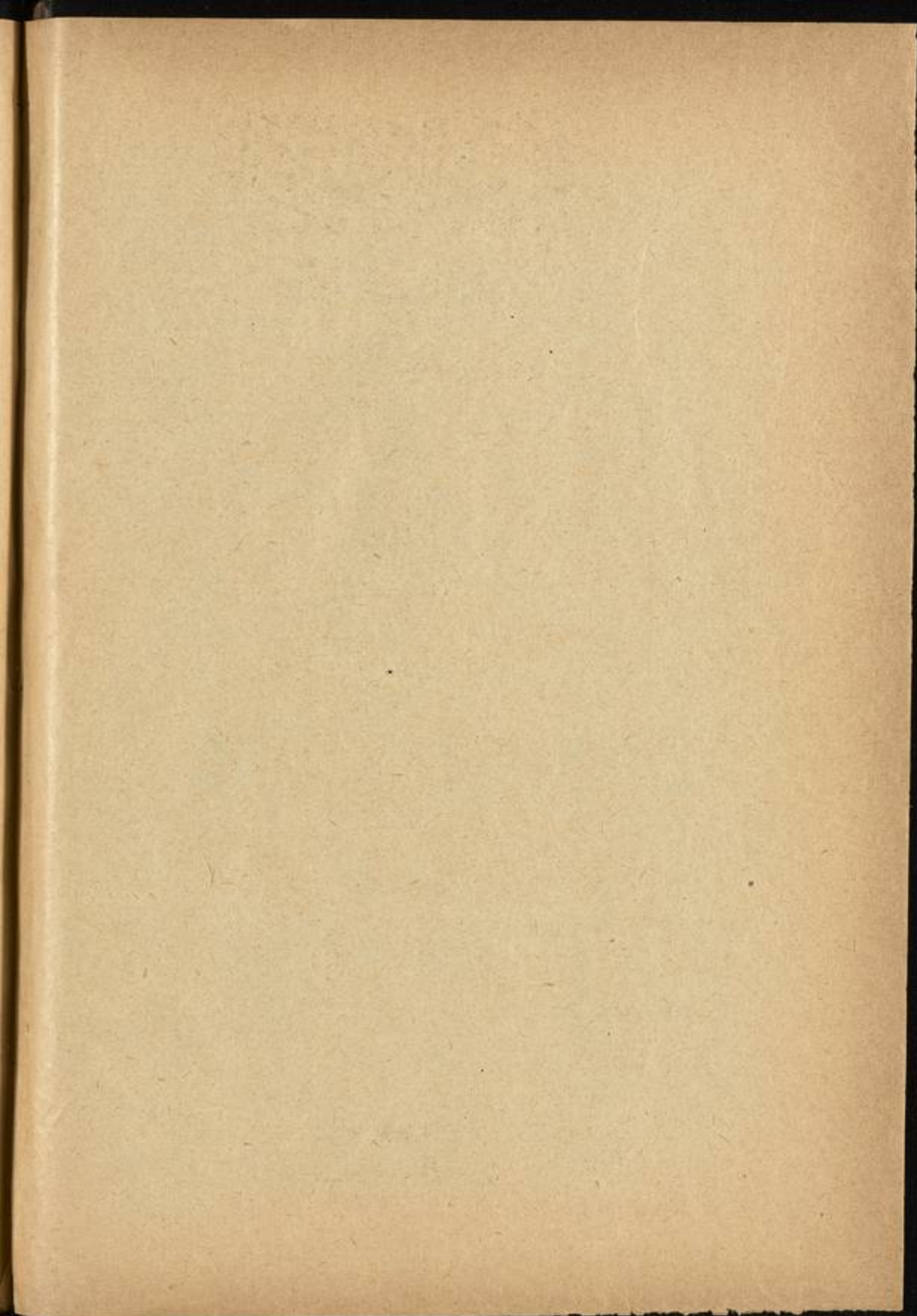
مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع مرسى تاجا ، القاهرة

Coil 26682

س

vol I



## مقدمة الطبعة الرابعة

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الجزء في غرة يناير سنة ١٩٢٩ ، والطبعة الثانية سنة ١٩٤٤ ، والثالثة سنة ١٩٤٨

وهاهي ذى الطبعة الرابعة ، وهي لا تختلف عن الطبعات السابقة ، وكلها طبق الأصل من الطبعة الأولى . ولم أزد عليها سوى نبذة بعنوان ( تخليد ذكرى السيد محمد كريم ) أضفتها إلى الحديث عن بطولة السيد محمد كريم في مقاومة الفرنسيين . وقد دعاني إلى إضافة هذه النبذة أنها جديدة ، إذ هي تتضمن تخليد حكومة الثورة وتكريمها لذكراه في سنة ١٩٥٣ مع صورة المسجد الذي أسمته باسمه في تلك السنة ، وهذا التكريم يتمشى مع ما سجلته عن بطولة هذا المجاهد العظيم في الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٢٩ ، ولم أزد على ذلك شيئاً

أسأل الله أن يلهمنا السداد والتوفيق

عبد الرحمن الرفاعي

يناير سنة ١٩٥٥

## مقدمة الطبعة الثالثة

بينتُ في مقدمة الطبعة الثانية ( مايو سنة ١٩٤٤ ) المراحل التي تطورت إليها الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث . وبيان الأقسام التي تتألف منها هذه المجموعة ، من الجزء الأول منها إلى كتاب محمد فريد ، وقلت في ختام هذه المقدمة انه لم يبق إلا كتاب «ثورة ١٩١٩» ، ثم كتاب «في أعقاب الثورة المصرية» وقد أخرجت بعون الله كتاب «ثورة ١٩١٩» في ابريل سنة ١٩٤٦ . ويشتمل على تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ . في جزئين . يتضمن أولهما شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى . وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة . وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ . ثم وقائع الثورة في القاهرة والأقاليم . ويشتمل الجزء الثاني على مهادنة الثورة . واستمرارها ، ومحاولات الثورة ، ولجنة ملنر والحوادث التي لابستها ، ومفاوضات سنة ١٩٢٠ ، واستشارة الأمة في مشروع ملنر . والتبليغ البريطاني بأن الحماية علاقة غير مرضية . ثم نتائج الثورة .

وفي يولية سنة ١٩٤٧ أخرجت الجزء الأول من كتاب «في أعقاب الثورة المصرية» ، ويشتمل على تاريخ مصر القومي من ابريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة المغفور له سعد زغلول في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ . ولم يبق إلا الجزء ان الثاني ثم الثالث من هذا الكتاب (١)

وقد أردت من هذا البيان أن يجد القارىء في هذه المقدمة وفي مقدمة الطبعة الثانية ايضاحا لأقسام هذه المجموعة . مرتبة بحسب ظهورها وموضوعاتها

والله أسأل أن يوفقني إلى إخراج ما بقي منها . والحمد لله أولا وأخيرا

عبد الرحمن الرفاعي

يناير سنة ١٩٤٨

(١) هامش الطبعة الرابعة - ظهر الجزء الثاني من كتاب «في أعقاب الثورة» سنة ١٩٤٩ ، والثالث ١٩٥١



## مقدمة الطبعة الثانية

هذه هي الطبعة الثانية للجزء الأول من تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، . والحركة القومية كما عيبتها وشارت إليها في مقدمة الكتاب هي الجهود التي بذلتها الأمة في سبيل تحرير مصر من النير الأجنبي ، وفك قيود الاستعباد عنها ، وتقرير حقوق الشعب السياسية . هي التضحيات التي عانتها ، والآلام التي احتملتها في سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة

لقد أتيت لي بعون الله أن أخرج من هذه المجموعة حتى الآن تسعة مجلدات ، تتناول تاريخ مصر القومي الحديث مبحوثا ومعروضا على ضوء الحركة القومية . ذلك أن التاريخ الحقيقي للأمم هو تاريخ نهضاتها القومية ، فهي أساس وجودها ، ومبعث تطورها . ولقد تبينت هذه الحقيقة منذ بدأت أبحث في تاريخ المغفور له مصطفى كامل ، ، إذ وجدت تلازما وارتباطا بين تاريخ الحركة القومية والتاريخ الحقيقي لمصر ، ولم أشأ أن أقف بالحركة الوطنية الحديثة عند ظهور مصطفى كامل ، بل وجدتها تتألف من أدوار عدة يتصل بعضها ببعض ، ويشتمق بعضها من بعض ، وبذلك تطورت الفكرة في ذهني ، من وضع تاريخ لبطل من أبطال النهضة ، إلى تاريخ للنهضة القومية الحديثة في مجموعها ، وازدادت اعتقادا مع الأيام بالتلازم التام بين تاريخ الأمة وتاريخ نهضتها ، فمن هذا التلازم يتألف التاريخ القومي ، والنهضة القومية هي معالم لهذا التاريخ ، وينبوعه الفيض ، والتاريخ القومي هو كالمراة تنطبع عليها صور النهضة وأطوارها ، وحوادثها وأبطالها ، وأفراحها وأحزانها ، وأهدافها وآمالها

على هذا النحو كان بحثي ، وكانت دراستي ، وإني معترف بأن هذه الطريقة قد وسعت أمامي آفاق البحث ، فإن دراسة الحركة القومية تقتضي إلى جانب استقراء الحوادث في كلياتها وجزئياتها ، تعريف نظم الحكم التي تعاقبت على البلاد ، والإحاطة بعوامل التطور في الأمة كافة ، من سياسية واقتصادية . وعملية وأدبية واجتماعية ، ولا يتسنى للباحث أن يلم بتاريخ الأمة إلا ماصححا ، ويرسم منه صورة حية

واضحة . مالم يتبين حالتها في هذه النواحي . وهذا ما دعاني إلى دراستها فيما أخرجت  
من حلقات هذه المجموعة

يشمل الجزء الأول على ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث . وبيان  
الدور الأول من أدوارها ، وهو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية  
في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر . ووقائع التاريخ القومي في  
ذلك العهد

بليه الجزء الثاني ، وقوامه استمرار المقاومة الأهلية حتى جلاء الفرنسيين عن  
البلاد ، وتأنج بزوغ العامل القومي على مسرح الحوادث السياسية ، خلال الحملة  
الفرنسية ، وبعد انتهائها ، إلى ارتقاء محمد علي الكبير أريكة مصر بإرادة الشعب

بلى ذلك عصر محمد علي ، وهو دور مجيد من أدوار الحركة القومية ، ففيه نشأت  
الدولة المصرية الحديثة ، وفيه تحقيق استقلالها ، وتألقت وحدتها القومية بفتح  
السودان وضمه إلى حظيرة الوطن ، وفيه أسس الجيش المصري ، والأسطول  
المصري ، والثقافة المصرية ، ووضعت أسس النهضة العلمية والاقتصادية في البلاد

بليه عصر إسماعيل ، وقد جعلته كتابا مستقلا في جزئين ، يشتملان على  
عهد عباس الأول ، ويصح اعتباره عهد الرجعة والنكسة ، لأن فيه وقفت  
حركة التقدم ، وفترت النهضة التي ظهرت في عهد محمد علي الكبير . فعهد سعيد ، ويمتاز  
بظهور نهضة وطنية جديرة بأن تعد من أدوار الحركة القومية ، ثم عهد إسماعيل ،  
ويتمثل فيه تاريخ مصر القومي في إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر ،  
وبعد عصر آهاما ، له أثره النافع ، كما له أثره الضار في تطور الحركة القومية ،  
لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من نهضة وعمران ، ثم ما تخلله واقترن به  
من أخطاء وأرزاء أدت إلى التدخل الأجنبي وتصدع لها بناء الاستقلال

وإلى عهد إسماعيل ترجع المقدمات الأولى للشورة العرابية ، التي ظهرت أوائل  
سنة ١٨٨١ ، واستمرت إلى نهاية سنة ١٨٨٢ ، وكانت غايتها تحرير البلاد من  
التدخل الأجنبي ، ومن الحكم المطلق معا ، ولكنها أخفقت فيما قامت من أجله ،

وجاء الاحتلال الأجنبي في أعقابها . وقد أفردت لها كتاب « الثورة العراقية  
والاحتلال الإنجليزي » ،

يليه كتاب « مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال » ، ويتناول عهد الانحلال  
القومي الذي أصاب البلاد في السنوات العشر الأولى للاحتلال ، من سنة ١٨٨٢ إلى  
سنة ١٨٩٢

ثم كتاب « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » ، ويتناول عهد البعث الوطني ،  
من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ . فكتاب « محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية » ،  
ويشتمل على تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩  
ولم يبق إلا كتاب « ثورة ١٩١٩ » ، ثم كتاب « في أعقاب الثورة المصرية » ،  
وبهما تكمل هذه المجموعة

أسأل الله أن يهيء لي إتمامها ، وأن يهدينا سبيل الحق والسداد ، ويلهمنا  
الإخلاص والرشاد

عبد الرحمن الرفاعي

مايو سنة ١٩٤٤

## مقدمه الطبعه الأولى

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله فاتحه كل خير وتمام كل نعمة

- ١ -

لكل أمة صفحة من الحياة القومية تحوى تاريخ الجهود التي بذلتها والآلام التي عانتها في سبيل حريتها واستقلالها

تلك الصفحة أول ما تعنى كل أمة بتدوينه ، ففيها ذكريات لجهاد الماضي ، وعبر لجهاد الحاضر ، وعظات لجهاد المستقبل ، فيها بيان لنصيب الأجيال المتعاقبة في أداء الأمانة القومية ، تلك الأمانة المقدسة ، وديعة السلف للخلف ، ووصية الآباء للابناء

وهذا كتاب دونت فيه تاريخ الحركة القومية المصرية ، أضع بين أيدي القراء الجزء الأول منه ، راجياً أن أتبعه بالأجزاء الباقية ، لأحقق أملاً تعلقت به نفسي ، وأتم عملاً شرعت فيه منذ سنين

- ٢ -

كان في نيتي من سنوات عدة إن أضع تاريخاً لفقيد الوطن العظيم المغفور له مصطفى كامل ، ، على مثال كتاب « بول دوشانيل ، عن « جامبيتا » ، خدمة للقضية الوطنية ، وأداءً لواجب الوفاء نحو من تلقيت عنه مبادئ الوطنية الأولى أعددت مواد الكتاب ، وكتبت بعض فصوله ، لكن تاريخ مصطفى كامل استتبع الكلام في مبدأ ظهور الحركة القومية بمصر في تاريخها الحديث ، والتطورات التي تعاقبت عليها ، فاستوقفني هذا البحث ، وأخذت أعالج إيماءه في الكتاب ،

كفصل من فصوله ، فلم أستطع ، لتشعب الموضوع وانفساح مدها ، ورأيت الإيجاز فيه لا يشق غليلا ولا يؤدي إلى الغاية التي أنشدها من وضع الكتاب ، فتغيرت وجهة نظري في العمل ، وتاقت نفسي إلى دراسة الحركة القومية من بدء ظهورها إلى اليوم ، فعزمت على تضيير برنامج الكتاب ، ووضعت له تبويبا يجعل تاريخ مصطفى كامل جزءا من أجزاءه

إن مصطفى كامل يمثل دورا من أدوار الحركة القومية ، سبقته أدوار ، وتلتها أخرى ، ولا تكون دراسة الحركة القومية وافية إذا اقتصرنا على عصر واحد من عصورها ، بل يجب أن يتناولها البحث بأجمعها ، من أجل ذلك عزمت على أن أقرن دراسة هذا العصر بالعصور التي خلت من قبله ، والأدوار التي تلت من بعده ، فإنما هي سلسلة متصلة الحلقات من جهاد الأجيال المتعاقبة لتحقيق آمال مصر وإدراك مطمحها الأسمى

اعتزمت إذن أن أكتب عن تاريخ الحركة القومية في مصر ، فترامت سُقَّةُ البحث ، وتشعبت أمامي مسالك العمل ، وطويت أوراق الأولى ، وشرعت أبحث مواضيع الكتاب من جديد ، فأخذت في الرجوع إلى الأدوار التي تقدمت عصر مصطفى كامل ، لأقف عند حد يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية ، رجعت إلى الحركة العرابية ، فإذا بها ترجع أسبابها ومقدماتها إلى حركة الاستياء من نظام الحكم القديم ، وإلى الحركة الفكرية والسياسية التي ظهرت على عهد إسماعيل ، وهذه الحركة الأخيرة لم تظهر فجأة ، ولم تكن الأولى في تاريخ مصر القومي ، بل هي تطور جديد للروح القومية التي بدأت تظهر في البلاد أواخر القرن الثامن عشر ، فإلى هذا العهد يجب أن يرجع مبدأ الحركة القومية المصرية ، وأول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، فإن هذه المقاومة كانت أول شرارة أشعلت سجذوة الروح القومية في نفوس المصريين ، وهي أول صفحة من صفحات الجهاد الأهلي في تاريخ مصر الحديث

بدأ العامل القومي يظهر على مسرح الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، ذلك حين نهضت الأمة لمقاومة الاحتلال الفرنسي بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وجادت بكل تضحية ، واحتملت ضروب العنت وصنوف الأذى لتتلخص من احتلال الفرنسيين ، وظل العامل القومي محتفظاً بقوته بعد جلاء الجيش الفرنسي ، فلم يستطع الترك ، ولا المماليك ، ولا الإنجليز ، أن يهزموه ، أو يقهروه ، أو يبعده عن الميدان ، وكان من نتائجها بعد انتهاء الحملة الفرنسية ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم على الوالي التركي ، ثم المناذرة بمحمد علي والياً مختاراً أعلى مصر ، ثم إخفاق الحملة البريطانية التي جردتها إنجلترا لتحقيق أطماعها في وادي النيل ، وهزيمتها في ( رشيد ) و ( الحماد )

فالحركة القومية المصرية يرجع ظهورها إلى مائة وثلاثين سنة ، من ذلك الحين ولدت وظهرت ، ثم أخذت في النمو والتطور ، شأن الكائن الحي ، وتعاقت عليها الأدوار ، فحيناً كانت تقوى ، وآونة تضعف ، وطوراً تشتد وتندشط ، وتارة تخمد وتفتت ، على أنها طوال هذه السنين سائرة في الجملة إلى الأمام ، ولئن أصابها أطوار تراجع ، من ضعف أو فتنه ، فإنها لا تلبث أن تعود إلى النشاط والتقدم ، مجددة قواها ، منتفعة من التجارب ، طامحة إلى المثل الأعلى

يرجع بدء الحركة القومية إذن إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ولإثبات هذه الحقيقة ودراستها على ضوء الوقائع التاريخية وبحيث مقدماتها ونتائجها ، قد خصصت الجزئين الأول والثاني من الكتاب ، فهما تتألف الحلقة الأولى من سلسلة الحركة القومية

وتمت بحث آخر استتبعه تاريخ الحركة القومية ، وهو دراسة نظم الحكم التي تخللت أدوارها ، ذلك أن سياسة الحكم وأساليبه كانت في مختلف العصور والبلدان من

الأسباب الرئيسية لظهور الانقلابات والحركات القومية ، كما أن لهذه الحركات أثراً فعالاً في تطور نظام الحكم ، بحيث تجد بينهما اتصالاً طبيعياً ، يجعل الاشتراك في بحثهما أمراً لا مندوحة عنه ، لذلك جعلت دراسة 'نظم الحكم في مصر وتطورها قسماً من أقسام الكتاب ، وأومات إليها في عنوانه

على هذا النحو شرعت في بحث أقسام الكتاب ومواضيعه ، ومهدت له بدراسة الحركات القومية في أوروبا وأمريكا ، للوقوف على ما بها من حقائق وعظات ، وما بينها وبين حركتنا القومية من ملاسبات ومشابهات ، ووضعت سنة ١٩٢٢ كتاباً<sup>(١)</sup> في تاريخ النهضات القومية في بعض البلدان ، كمقدمة لدراسة الحركة القومية في مصر

ماهى الجهود التي بذلتها الأمة في سبيل تحرير مصر من النير الأجنبي وفك قيود الاستبداد عنها وتقرير حقوق الشعب السياسية ؟ ماهى الجهود التي بذلتها والآلام التي احتملتها في سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة ؟ ماهى الحوادث التي ارتبطت بهذه الجهود أو وقعت خلالها وناصرتها أو عرقلتها ؟ ماهى الأدوار التي تطورت إليها الحركة القومية من بدء ظهورها إلى اليوم ؟ ماهى نظم الحكم التي تعاقبت على البلاد في خلال تلك الأدوار وما مبلغ أثرها في تطور الحركة القومية ؟

هذا هو موضوع الكتاب ، وتلك هى المسائل التي بحثتها جهد المستطاع على هدى الحقائق التاريخية

وبعد ، فلست مدعياً في هذا الكتاب أنني وفيت الموضوع حقه وكفايته من الدرس والبحث ، فإنني مقر بأن هذا التاريخ بعيد الأفق ، واسع المدى ، يحتاج إلى دراسة مستطيلة ، في مباحث مستفيضة ، ومؤلفات عديدة ، وحسبك أن تلقى نظرة على ما لا يحصى من الكتب التي ظهرت ، ولا تزال تظهر إلى اليوم في تاريخ

(١) « الجمعيات الوطنية ، صحيفة في تاريخ النهضات القومية »

الانقلابات والحركات القومية في مختلف البلدان ، لتري أن كتاباً واحداً لا يمكن  
أن يفي بتدوين صفحات الجهاد القومي

والآن أقدم لمواطني الأجزاء الأولى من الكتاب ، وأرجو من القاري  
أن يتجاوز عما به من زلات القلم وهفوات الكتابة ، والله يعصمنا من الشيطان والهوى ،  
ويلهمنا الصدق والإخلاص في خدمة الوطن العزيز .

عبد الرحمن الرافعي

أول يناير سنة ١٩٢٩



## إهداء الكتاب

إلى أخي العزيز المرحوم أمين بك الرافعي ، من فقدته أحوج ما أكون  
إلى حبه وعطفه ، إلى ذكره المجيدة ، إلى روحه الطاهرة أهدى هذا الكتاب  
أهديك يا أخي العزيز كتابي وقد حال الحول وانقضى العام على انتقالك  
إلى الرفيق الأعلى ، ولم كنت أرجو أن أهديه وأنت مني قريب ، في عالم الدنيا ،  
أما وقد فرق الموت بيني وبينك فلتقبل رُوحك الطاهرة هدية أخيك الحزين  
اللهم بارئ تلك النفس العالية ، ومُرسلها من نورك كوكباً إنسانياً ومُعیدها  
إلى جوارك كوكباً أزلياً ، أَدْخِلْ عليها رَوْحاً من عندك ، وسلاماً مني ،  
يا قريب الدعاء . ٩

عبد الرحمن الرافعي

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨

# الفصل الأول

## نظام الحكم في عهد المماليك

يبدأ كتابنا بظهور الروح القومية المصرية في أواخر القرن الثامن عشر وتطور نظام الحكم من ذلك الحين ، على أن من الواجب أن نقول كلمة عن نظام الحكم في مصر قبل ذلك العصر ، أي في عهد البكوات المماليك<sup>(١)</sup> ، لتكون تلك الكلمة بمثابة تمهيد لبيان التطور الذي طرأ من بعد ذلك النظام

دخلت مصر في حوزة الحكم العثماني ابتداء من سنة ١٥١٧ ( ١٥٢٣ هـ ) باستيلاء السلطان سليم على البلاد وزوان سلطنة المماليك الشراكسة منها ، فاستتبع الفتح العثماني وضع نظام جديد للحكم في مصر ، وهو النظام الذي رزحت تحته البلاد نحو ثلاثة قرون متعاقبة من سنة ١٥١٧ إلى سنة ١٧٩٨

### من هو الواضع لهذا النظام

إن الفكرة السائدة في هذا الصدد أن واضع هذا النظام هو السلطان سليم ، وهذه الفكرة تراها مبسطة في معظم كتب التاريخ ، وفي رحلات الأفرنج الذين ساحوا في مصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر ودونوا ما شاهدوه عن نظام الحكومة المصرية ، لكن فريقاً من علماء الحملة الفرنسية الذين درسوا هذا النظام أثناء إقامتهم بمصر يذهبون إلى أن السلطان سليمان هو الواضع له ، فلمسيو فوريه Fourier سكرتير المجمع العلمي المصري في عهد نابليون يقول إن السلطان سليمان ، هو الواضع لنظم الحكم التي عرفت في مصر من عهد الفتح العثماني ، وإن السلطان

(١) عبرنا عنهم بالبكوات المماليك تمييزاً لهم عن سلاطين المماليك الذين تألفت منهم الدولتان البحرية ، والبرجية ( الشراكسة )

« سليم » لم يكن رجلاً من رجال النظم والقوانين ، بل رجل حرب وكفاح ، ولم يطل مقامه في مصر طويلاً حتى يضع نظام الحكم فيها ، وإن السلطان سليمان الذي سن للدولة العثمانية نظمها وقوانينها حتى لقب بالقانوني هو أيضاً الواضع لنظم الحكم في مصر ، لكن شهرة السلطان سليم في الحرب ، وكون الفتح العثماني تم على يده ، ودخوله في مصر ظافراً ، كل ذلك جعل الناس ينسبون إليه هذه النظم تسامحاً وتجاوزاً (١) ، وقد أيد هذا الرأي كل من الميسو لانكري Lancret (٢) والمسيو استيف Esteve (٣) في دراستهما لتلك النظم (٤)

ويقول استيف إن السلطان (سليم) لم يكده يشرع في وضع نظام الإدارة المصرية حتى عاجلته منيته

هذا هو رأي علماء الحملة الفرنسية . ولا يمكننا أن نقبل هذا الرأي على إطلاقه ، بل يجب أن نرجع إلى الوقائع التاريخية لنتبين مبلغه من الصحة . وهنا يجب أن نرجع إلى المصادر العربية وبخاصة التي شهد أصحابها وقائع الفتح العثماني أو عاشوا في عهد الحكم التركي ، وأهم هذه المصادر تاريخ ابن إياس الذي أدرك الفتح العثماني ومخطوطات ابن أبي سرور البكري الذي عاش في عهد الحكم التركي وكتب عنه لغاية سنة ١٠٥٥ هجرية (١٦٤٥ ميلادية )

مختلصة ما ذكره ابن إياس في تاريخه (٥) أن مدة إقامة السلطان سليم بمصر ثمانية أشهر إلا أياماً قلائل ، وأنه لما استقر له الأمر في مصر عين وزيره يونس باشا نائباً عنه ، وكان يلقب بنائب السلطنة ، وظل في هذا المنصب فترة من الزمن مدة إقامة سليم في مصر ، لكن السلطان (سليم) قبل أن يغادر الديار المصرية بدا له أن يعزل يونس باشا من نيابة السلطنة ويوسدها إلى « خير بك » ، وخير بك هذا

---

(١) أنظر كتاب تخطيط مصر Description de l'Egypte وهو مجموعة مباحث علماء الحملة الفرنسية الجزء الأول

(٢) من مهندسي الحملة الفرنسية (٣) مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية في عهد الحملة الفرنسية

(٤) كتاب تخطيط مصر الجزء الحادي عشر « إدارة مصر وحكومتها وضرائها في عهد البكوات

المهايك » بقلم لانكري ، والجزء الثاني عشر « النظام المالي لمصر » بقلم الميسو استيف

(٥) الجزء الثالث من تاريخ مصر لابن إياس المعروف ببداية الزهور في وقائع الدهور

هو أحد أمراء السلطان الغورى وكان نائبه في حلب لما وقعت الحرب ، فخرج على سيده ، وانضم إلى السلطان سليم ، وكان من عوامل انتصاره على الغورى ، فكافأه سليم على خيائه بتوليته نائباً عن السلطنة في مصر وكان يلقب في عهد الغورى بملك الأمراء فلزمه بعد تعيينه نائب السلطنة . ويقول ابن إياس إن السلطان ( سليم ) لما رحل من مصر ترك بها من عسكره بالقاهرة نحو خمسة آلاف فارس ومن الرماة بالبندق نحو خمسمائة رام . وعين من أمراء جنده خير الدين باشا قائداً للحامية العسكرية وجعله نائب القلعة يقيم بها ولا ينزل إلى المدينة . وكان الأمر والنهي لخير بك وسكن القلعة . لكن جنود الحامية ثاروا عليه غير مرة وكادوا يفتكون به . وذكر ابن إياس الفتن التي بين الفريقين والتي شغلت جزءاً كبيراً من نيابة خير بك ، ومنها يتبين أن التنازع بين نائب السلطنة ( الوالى ) ورؤساء الجند قد ظهرت بوادره في أوائل العصر العثمانى . وهذا ما كان يرمى إليه السلطان سليم من إيجاد سلطتين متنازعتين ليضمن بقاء الفوضى في البلاد ويطمئن على تبعيتها للسلطنة العثمانية

وذكر ابن أبي السرور البكرى ، أن السلطان ( سليم ) اختار من أمراء الجراكسة أربعين أميراً وجعل لكل منهم أربعين عثمانياً وأمر أن لا يكتبوا في سفر ولا سواه غير حراسة الجسور وعم الذين يقال لهم الآن أمراء الجراكسة (١) .

يؤخذ من ذلك أن السلطان ، سليم ، قد وضع فعلاً قاعدة النظام السياسى للحكومة ، وهى إيجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاها الأخرى . الأولى سلطة نائب السلطان ( الوالى ) ، والثانية سلطة رؤساء الجند . ووضع أيضاً نواة السلطة الثالثة وهى سلطة البسكوات المماليك الذين رجع إليهم حكم مديريات القطر المصرى . فمن الحق إذن أن نقول بأن السلطان ( سليم ) هو واضع نظام الحكم السياسى فى مصر من عهد الفتح العثمانى . أما النظم المالية والقضائية فهى فى مجموعها من وضع السلطان سليمان لأنها احتاجت زمناً طويلاً حتى استقرت قواعدها . ولم يكن لدى السلطان سليم من الوقت ما يجعله يقرر هذه النظم .

(١) الروضة المأنوسة فى أخبار مصر الخروسة لابن أبي السرور البكرى

## نظام الحكم السياسى

والآن فلنتكلم تفصيلا عن السلطات الثلاث التى كانت أساساً لنظام الحكم السياسى من عهد الفتح العثمانى

الوالى - فالسلطة الأولى هى سلطة الوالى العثمانى . ويلقب بالباشا ومقره القلعة . وهونائب السلطان فى حكم البلاد . كان يمثله ويبلغ أوامره لرجال الحكومة ويراقب تنفيذها ، وله الرياسة على عمالها ، على أن سلطته محدودة مقيدة . ذلك أن السلطان (سليم) خشى لبعد مصر عن مركز السلطنة أن يطمح ولانها إلى الاستقلال بها والخروج على حكومة الاستانة ، فجعل مدة الوالى سنة تنتهى ولايته بنهايتها مالم يصدر فرمان بتجديدها لسنة أخرى

رؤساء الجند - والسلطة الثانية هى سلطة رؤساء الجند وهم قواد الفرق التى غادرها فى مصر بعد احتلالها . كانت الحامية العثمانية التى تركها السلطان سليم تتألف فى بدء الفتح العثمانى من نحو اثنى عشر ألفاً وظيفتهم حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وكانوا موزعين بين القاهرة وأمهاة مدن القطر ومنتظمين فى ست فرق تسمى كل فرقة «وجاق» لكل وجاق اسم خاص ، وإليك بيان أسمائها : وجاق « المتفرقة » المؤلف من خيرة حرس السلطان ، ووجاق الانكشارية ويسمون بالمستحفظان (المستحفظين) لما عهد إليهم فى حفظ الأمن ، ووجاق العزب ، ووجاق الشاويشية ، ووجاق الهجانة ، ووجاق التفكجية ، وأضاف إليهم السلطان سليمان وجاقا سابعاً وهو وجاق الشراكسة

وكان لكل فرقة ضباط يسمون «الوجاقلية» نسبة إلى وجاق . وهذه الكلمة سيرد ذكرها كثير فى فصول الكتاب . فكبيرهم يسمى «الأغا» أى رئيس الفرقة . ونائبه ويسمى الكخنيا أو الكتخدان . وأقدم الضباط ويسمى «باش اختيار» . والدقردار وهو مدير الشؤون المالية ، والحازندار أى أمين الخزانة ، والروزنامجى أى حافظ السجلات

ومن اجتماع أولئك الضباط أو الوجاقلة، يتألف مجلس شورى الباشا المسمى

( بالديوان )

ولهذا الديوان سلطة كبيرة في إدارة الحكومة ، لأن الباشا (الوالى) لا يستطيع أن يبرم أمراً إلا بموافقة أعضائه ، وإذا وقع خلاف بينه وبينهم يؤجل البت فيه إلى أن يرفع إلى الاستانة ، ولهم أن يطلبوا عزله ، فكانت سلطة ضباط الفرق بمثابة رقابة وإشراف على سلطة الوالى

ولما مات السلطان سليم أنشأ السلطان سليمان بدل مجلس شورى الباشا ديوانين . الأول الديوان الكبير ، والثانى الديوان الصغير ؛ فالديوان الكبير مؤلف من رؤساء الفرق (أغاواتها) ودفترداريها ووزنناجيتها وأمير الحج وقاضى مصر ورؤساء المشايخ والأشراف ورؤساء المذاهب الأربعة . ولهذا الديوان سلطة البت في شئون الحكومة الرئيسية ، وله نقض أوامر الوالى ، ولا ينعقد إلا نادراً بأمر الوالى والديوان الصغير ، أو الديوان فقط ، ويتألف من كتخدا ( نائب ) الباشا والدفتردار والروزنامجى ومندوب عن كل وجاق ، والأغا (الرئيس) وكبار الضباط من وجاق المتفرقة ووجاق الشايشية . وينعقد كل يوم في قصر الوالى وينظر فيما تحتاج إليه البلاد . وكان الباشا يبلغ أوامره للديوان الكبير والديوان الصغير بوساطة كتخدائه (نائبه) وعليه تنفيذ قرارات الديوانين . وكان يحضر جلساتهم من وراء ستار دون أن يشترك في مداولاتهما

وقد صار وجاق الانكشارية مع الزمن أهم الوجاقات فكان رئيسه المسمى (أغا الانكشارية) بمثابة القائد العام للحامية العسكرية (١) . وما يجدر ملاحظته أن

---

(١) كلمة « انكشارية » مأخوذة من الكلمة التركية « بكى جرى » أى الجند الجديد ، والكاف التركية تطلق نونا . والجيم المعطشة تطلق شينا . وابن أبى السرور البكرى يكتبها « ينكجيرية » وكذلك الجيرتى . ويقول ابن أبى السرور في كتابه « الروضة الأنوسة في أخبار مصر المحروسة » عن أصل كلمة « أغاة الينكجيرية » إن السلطان سليم لما خرج من مصر « فرر من أمرائه شخصاً يقال له خير الدين باشا جعله نائب القلعة يقيم بها ولا ينزل المدينة وهو الآن في زماننا يسمى « أغاة الينكجيرية » وكتاب الروضة للأنوسة تنتهى حوادثه سنة ١٠٥٥ هجرية (توافق ١٦٤٥ ميلادية) ففي هذا الزمن إذن كان رئيس وجاق الانكشارية أو « أغاة الينكجيرية » هو قائد عموم الجند في مصر ثم صار أيضاً مع الزمن بمثابة محافظ القاهرة .

الوجاقات بعد أن استقرت في البلاد انتظم فيها كثير من المصريين ودخلوا في عدادها فصار لها صبغة محلية وبخاصة بعد أن انصرفت تركيا في عهد تقهقرها عن إرسال الجنود إلى مصر ، فسد المصريون على توالي السنين الفراغ الذي حدث في صفوف الحامية العثمانية ، ومن بقي منها استوطنوا مصر واندمجت سلالاتهم في أهلها ، ويلاحظ أيضاً أن عدد الوجاقات قد تناقص مع الزمن أو اندمج بعضها في بعض . فقد كتب المسيو دي مايليه De Maillet قنصل فرنسا في مصر في أواخر القرن السابع عشر (١) وأوائل الثامن عشر بياناً عن الوجاقات التي شاهدها في ذلك العصر ، ووصفها كما رآها فقال إنها خمس وجاقات وهي :

١ - وجاق المتفرقة ، وذلك أعرقها أصولاً ، وإن كان أقلها أهمية وعدده من ألف إلى ألفين من الفرسان وهو مؤلف من حرس الباشا وبعض البكوات وبعض سراة التجار الذين يناصرون الباشا وينتمون إليه . ومن بعض الأجناد الذين انفصلوا عن الوجاقات الأخرى . ومعظم أفراد هذا الوجاق ليسوا من الجنود المدربين على القتال

٢ - وجاق العزب ، وهو من المشاة وعدده يتراوح من ثلاثة إلى أربعة آلاف . وهو دائم التنافس مع وجاق الانكشارية

٣ - وجاق الأسباهية ، وهم الفرسان وعددهم نحو ثلاثة آلاف ، وهذا الوجاق مستقل عن الباشا

٤ - وجاق الشاوشية ، وهو مؤلف من المشاة وعدده لا يتجاوز خمسمائة ويتبعهم كتيبتيان من الجنود لا يتجاوز عددهم خمسمائة أيضاً ، منهم بعض النساء اللاتي مات أزواجهن في الخدمة العسكرية

٥ - وجاق الانكشارية ، وهم مستقلون عن الوالي ولهم في القلعة معسكر منفصل عن قصره ، ولهذا الوجاق استقلال حتى عن السلطان ، وله نفوذ كبير وسلطته واسعة . وله أملاك في مصر وينخرط في سلكه كثير من التجار والأعيان ، وله

(١) في كتابه وصف مصر - رسائل السيد مايليه De Maillet قنصل فرنسا في مصر سنة ١٦٩٢ .

عليهم إتاوات وعوائد يدفعونها له. ونظامه قريب الشبه بنظام طائفة فرسان مالطة، (١) ويقول الرحالة فانسليب (٢) Vanslep الذي جاء مصر سنة ١٦٧٢ إن الوجاقات السبع لم يبق منها إلا خمس وعدد أسماءها بما لا يخرج عن رواية دي مايليه De Maillet وإن وجاق الأسباهية يشمل (المهجانة) والتفكجية والشرا كسة المماليك -- أوجد السلطان سليم بجانب سلطة الوالي ورؤساء الجند سلطة ثالثة تحفظ الموازنة بين الاثنين وهي سلطة الأمراء المماليك الذين قدموا طاعتهم للسلطان فعينهم حكاماً للمديريات ويسمهم الجبرقي والأمراء المصرية ، كانت البلاد مقسمة إلى مديريات أو (أقاليم) تسمى كل مديرية «إقليم» أو «سنجقية» يحكم كلا منها حاكم يقال له «سنجق» أو بك يعينه ديوان مصر من بين أمراء المماليك إن المماليك الذين أقرهم السلطان سليم حكاماً لمديريات مصر هم بقايا الدولتين اللتين كان إليهما الحكم في مصر على التعاقب نيفاً ٢٦٧ سنة ، فالأولى هي دولة المماليك البحرية ، وأصلهم من سكان أواسط آسيا وشمالها الذين كان التتاريغزون بلادهم فيقعون أسرى في أيديهم أو يفرون من بلادهم فيتفرقون في الأقطار ويباعون في أسواق الرقيق ، وكان الملك الصالح نجم الدين الأيوبي أحد سلاطين الدولة الأيوبية قد استكثر منهم وجعلهم خاصة جنده وحاشيته واتخذ منهم أمراء دولته وأسكنهم جزيرة الروضة بالنيل وبنى لهم قلعة وقصوراً بالقرب من المقياس ، وكان النيل يسمى عند نقطة تفرعه بالبحر لعظم اتساعه ، ولذلك سمي هؤلاء المماليك البحرية ، وهم الذين حكموا مصر من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٣٨٢ والثانية هي دولة المماليك البرجية ؛ وأصلهم من بلاد الشركس والقوقاز وسبب تسميتهم البرجية أن المنصور قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية عهد إليهم حماية القلاع والحصون وأسكنهم في الأبراج فسموا البرجية ويسمهم بعض المؤرخين ملوك الشرا كسة نسبة إلى أصلهم ، وهم الذين تولوا سلطنة مصر من سنة ١٣٨٢ إلى سنة ١٥١٧ وانقرضت دولتهم بالفتح العثماني

(١) انظر الكلام عن «فرسان مالطة» في الفصل الثاني

(٢) رحلة فانسليب إلى مصر سنة ١٦٧٢ - ١٦٧٣



فالممالك من بقايا هاتين الدولتين هم الذين أقرهم السلطان سليم على حكم مديريات القطر المصرى وجعل منهم السلطان سليمان ٢٤ بيكا أو سنجقاً تتألف منهم الإدارة المحلية للبلاد . فمنهم حكام المديريات «السنجق» (١) ومنهم بعض كبار موظفى الحكومة وهم «الكخياء» (٢) أى نائب الوالى . و«الدفتردار» ووظيفته إدارة الشؤون المالية وضبط الخرج والدخل ، ويده سجلات ملكية الأراضى وهذه السجلات حجة الملكية وانتقالها . وكانت وظيفته تشبه وظيفة وزير المالية

والروزنامجى ووظيفته إدارة الخراج (٣) وضبط حساباته وأمير الحج ووظيفته مرافقة الحجاج وتوزيع الصدقات والهدايا التى ترسل سنوياً إلى الحرمين الشريفين

و«الخازندار» (أمين الخزانة) ووظيفته حمل الخراج سنوياً إلى الاستانة والقبودانات الثلاثة قباطين ثغور دمياط والسويس والاسكندرية وكانت هذه الثغور على جانب عظيم من الأهمية لأنها بمثابة أبواب مصر ومنهم البكوات الخمسة حكام مديريات جرجا والغربية والشرقية والمنوفية والبحيرة ، أما مديريات القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم فكان حكامها يسمون الكشاف (٤) وهم وكلاء البكوات فى حكم المديريات ، والكشاف وإن كانوا أقل مرتبة من «السنجق» إلا أن سلطتهم واحدة وكان لكل مديرية ديوان خاص بها مؤلف من الشورى بجمية وغيرهم من الوجاقلية (ضباط الفرق) يستشيرهم البيك أو الكاشف ، ولكن العمل جرى على غير ذلك ، فلم يكن ثمت دواوين ولا استشارة

(١) سمو سنجاق لأنهم عند رفعهم إلى هذه المرتبة كانوا يتسلمون بيرقا أو سنجقاشارة البكوية

(٢) الكخياء معرفة عن كلمة كمتخدا ومعناها الوكيل أو النائب

(٣) ضرائب الأطنان أو أموال المبرى

(٤) كلمة كاشف مأخوذة من فعل كشف لأن الأصل فى وظيفة الكشاف أن يكشفوا أحوال المديريات ، ولما اتسعت سلطتهم وصار ليهيهم الحكم وأخذوا المديرات التزاما بقى الإهم القديم ملازما لهم وصار الكاشف يحكم المديرية أو جزءاً منها باسم البيك فالكاشف هو بمثابة (المدير) اليوم إذا كان يحكم المديرية كلها وبمناوبة وكيل المديرية أو مأمور المركز إذا كان يحكم جزءاً منها

وكان تعيين الكتبخدا وقباطين ثغور دمياط والسويس والاسكندرية يصدر به رأساً مرسوم من السلطان، أما باقى البكوات والسناجق فيعينهم الديوان بتصديق الوالى نيابة عن السلطان. وإذا خلا مركز أحد البكوات عين بدله من بين الكشاف والظاهر أن عدد البكوات كان ينقص فى بعض الأزمنة عن ٢٤ بيكا، فقد ذكر الرحالة فانسليب Vansleb الذى ساه فى مصر سنة ١٦٧٢ أن عدد البكوات الذين كانوا بمصر فى ذلك العهد ١٦ بيكا، ويقول الميسو سونينى Sonnini الذى ساه فى مصر سنة ١٧٧٧ إن عددهم نقص فى القرن الثامن عشر (١)

ويقول الجيرتى إن السناجق صاروا ٢٤ سنة ١١٣٥ هجرية (١٧٢٢ ميلادية) ولإنهم كانوا قبل ذلك اثنين وعشرين سنجقاً (٢)

### تطور هذا النظام وانفراد المماليك بالحكم

لم يستمر نظام الحكم السياسى كما وضعت قواعده من عهد الفتح العثمانى، ولم يكن للديوان الكبير ولا للديوان الصغير عمل منظم فى إدارة الحكومة، بل تركت البلاد تقسمها أهواء رؤساء الجند والولاية. واتهنز المماليك فرصة استمرار التنازع والحروب بين الفريقين فأخذوا يعملون على الانفراد بالحكومة، فنظام الحكم السياسى فى مصر قد تطور مع الزمن، وانتهى التنافس بين السلطات الثلاث إلى تغلب سلطة البكوات المماليك

حدث هذا التطور فى النصف الثانى من القرن السابع عشر. فاستأثر المماليك بالنفوذ والحكم. وساعدهم على ذلك ما صارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة واختلال شؤونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها، وزاد فى نفوذهم كثرة تغيير الولاية العثمانية وعزلهم فضعف شأنهم وتراجع نفوذهم فى حين أن المماليك احتفظوا بعصبيتهم بما استكثروا من الجند والأتباع الذين كانوا يشترونهم من بلاد الشركس

(١) رحلة فى مصر العليا والوجه البحرى سنة ١٧٧٧ بقلم سونينى

(٢) الجيرتى الجزء الأول

والقوقاز والكرج ، واستمالوا إلى جانبهم أفراد الحامية العسكرية إذ كان رجال  
« الوجاقات » قد استوطنوا مصر واستقروا بها واندمجوا في أهلها واقتنوا الأملاك  
وتأثروا فيها ، فضعف ارتباطهم بعاصمة السلطنة العثمانية . وكانت إدارة الحكومة  
المدنية والمالية بيد المماليك ، وإليهم توزيع الأعطية والأرزاق على الجنود .  
فصار هؤلاء تبعاً لهم بحكم الروابط المادية ثم صاروا رؤساء الوجاقات وأغلب  
ضباطها من المماليك ، فانحصرت السلطة العسكرية والمدنية في أيديهم ، واتصل  
ضباط الوجاقات وأفرادها بالمماليك بأواصر المصاهرة ولحمة القرين فأصبحوا ضمن  
حزبهم ، ومن أهلهم وعشيرتهم وأتباعهم ، بعد أن كانوا معادين لحزبهم وإخصائهم .  
فتلاشت سلطة الولاية العثمانية وعظم نفوذ البسكوات المماليك واسترجعوا مع الزمن  
سلطة الحكم التي كانت للسلطين البحرية والشراكسة . وصار لرئيس المماليك الذي  
يختارونه زعيماً لهم ويلقبونه « شيخ البلد » النفوذ الذي لا يعارض والكلمة التي  
لا ترد ، وصارت « مشيخة البلد » بمثابة إمارة مصر ، وعبث المماليك بالولاية وأخذوا  
يعزلون من لا يرضون عنه . فإذا اجتمعوا على عزله أفندوا إليه رسولا اسمه  
« أوده باشي » (١) (من ضباط الوجاقات) يذهب إليه حاملاً قرار الديوان بعزله  
فيدخل إلى مجلسه ويحجبه بكل احترام ثم يثنى طرف السجادة التي يجلس عليها الباشا  
ويعلن إليه قرار العزل بقوله « انزل يا باشا » . فتكون هذه الكلمة بمثابة أمر  
الخلع . وينزل الباشا من القلعة ويصبح كأحد الأفراد لا حول له ولا طول .  
وصارت القلعة في خلال القرن الثامن عشر بمثابة السجن للباشوات الذين كانت  
تعينهم تركيا وولاية لمصر ، وأصبح الديوان مؤلفاً من الأربعة والعشرين بيكا الذين  
كانوا زعماء المماليك ، وعبث المماليك أيضاً بالجزية فكانوا لا يدفعون منها إلا ما يروق  
لهم دفعه ويقتطعون منها ما يشاءون بحجة الانفاق على مصالح البلد  
قال الرحالة فانسليب Vansleb يصف ما شاهد في مصر سنة ١٦٧٢ من استئثار  
المماليك بالحكم:

(١) اسمه عند العامة « أبو طوق » لأنه كان يلبس فوق رأسه لبادة سوداء كالقبة ولها حافة  
تشبه الطبق .

، إن كلمة البسكوات في الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا يخالف لهم  
أمراً ، وكانوا يملكون عزله ،

وقال المستشرق مارسيل Marcel : « انحصر تاريخ مصر من منتصف القرن السابع  
عشر إلى آخره في تعاقب الباشوات على ولايتها فتولاها ٢٢ والياً لم يكن لهم شأن  
يذكر في حكومتها ، فكان الواحد منهم يشتري منصب الولاية من ديوان الاستانة  
ويبقى شاغلاً هذا المنصب عاماً أو عامين ولا يستقر هذه المدة في منصبه إلا إذا  
ترك الأمور للبسكوات المماليك الذين كان منهم شيخ البلد وهو الحاكم الفعلي للبلاد  
ويظل الباشا في منصبه لا عمل له إلا جمع المال واستصفاؤه من أهله بمختلف  
وسائل النهب إلى أن يغادر منصبه . وهو في الغالب لا يخرج منه إلا مسجوناً ، أو  
مطروداً أو منفيماً أو مقتولاً ،

### موظفو الحكومة في عهد المماليك

تتمثل السلطة الفعلية للحكومة في « شيخ البلد ، فهو كبير المماليك ورئيس  
الحكومة المحلية . والباشا ( الوالي ) بجانبه لا حول له ولا قوة ، ويلي في الأهمية  
أمير الحج ، ويليها « الدفتردار ، أو مدير الشئون المالية ، فالروزنجي وهو مدير  
إدارة الخراج ، فكتخدا الباشا وهو وكيل الوالي وكاتم أسراره ، ويلي هؤلاء  
البسكوات حكام المديرات وأولهم حاكم جرجا وتمتد سلطته من المنيا لأسوان ،  
فبقي موظفي الحكومة الممتازين كالحازندار ، و مترجم الديوان وأمين الضربخانه  
( دار الضرب التي تسك فيها النقود )

وأغاوات ( رؤساء ) الوجاقات . والمعارجي باشا ، ووظيفته مباشرة العمارات  
التابعة للحكومة وترميم القلاع

والقافل باشي ، ووظيفته التفتيش على القوافل القادمة إلى مصر أو الصادرة عنها

وأمين الاحتساب أو المحتسب ووظيفته مراقبة الأسواق والتفتيش على الباعة

والتجار لمنع وقوع الغش في المعاملات

وأمين العنابر وهو مدير المخازن التابعة للحكومة التي تخزن فيها الغلال من  
الضرائب التي تؤخذ نوعا

وسردار جرجا وهو نائب البك حاكم جرجا  
وقومندانات (أغاوات) القلاع

وولاية الشرطة الثلاثة في القاهرة ومصر القديمة ووظيفتهم إدارة قوة الدرك  
وهي تشبه وظيفة حكمدار البوليس ويسمى الواحد منهم «الوالى» ،  
وأفندية الروزنامة أى كتاب إدارة الخراج

### سياسة على بك الكبير

يتبين مما تقدم أن إدارة الحكومة العسكرية والمدنية كانت في يد المالك من  
أواخر القرن السابع عشر ، وقد ساعدتم على الاستتار بالحكم تقهر السلطنة  
العثمانية وانصرافها إلى محاربة النمسا والروسيا خلال القرن الثامن عشر ، فطمحت  
نفوسهم إلى التخلص من تركيا والاستقلال بمصر . وظهرت هذه السياسة جهره  
في عهد على بك الملقب بالكبير . وهو مملوك وصل بقوة أشياعه وأتباعه إلى مشيخة  
البلد سنة ١٧٦٣ وطمحت نفسه إلى الاستقلال بمصر . فلما نشبت الحرب بين تركيا  
والروسيا سنة ١٧٦٨ جاهر بخلع يده من طاعة الدولة وأعلن استقلال مصر ،  
وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩ (١١٨٣ هـ) ، وعزل الوالى التركى ومنع ورود  
الولاية العثمانين ، وضرب النقود باسمه (١) ودانت له مصر بحريها وقبليها ، وكان  
من مماليسكه وأتباعه أحمد (باشا) الجزائر ومحمد بك أبو الذهب وإسماعيل بك ،  
وحسن بك الجداوى وإبراهيم بك ومراد بك وغيرهم مما كانت لهم الأدوار الكبيرة  
على مسرح الحوادث كما سيأتى ذكره في فصول الكتاب

وكان على بك طموح النفس واسع المطامع ، فجرد الجيوش وفتح معظم

(١) يلاحظ على نقود على بك الكبير أنه منقوش عليها سنة ١١٨٣ هجرية وهى السنة التى جاهر  
فيها باستقلاله عن تركيا

جزيرة العرب ونادى به شريف مكة (سلطان مصر وخاقان البحرين) وأوفد محمد بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها . ولكنه لم يكد يتم له إفتح دمشق حتى انقلب على علي بك واتفق مع الباب العالي ، وعاد إلى مصر ليستأثر بالحكم فيها . وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بقتل علي بك سنة ١٧٧٣ . وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت إمارتها محمد بك أبو الذهب واستقر (شيخاً للبلد) وكافأته تركيا بفرمان تثيته في مشيخة البلد وتوليته حكم مصر . وصار له الأمر والنهي في البلاد ورجعت تركيا إلى إرسال الولاة كما كان الأمر قديماً

غير أن الوالى كان محجوراً عليه مسلوباً حوله وقوته ومحمد بك أبو الذهب يختار الوالى الذى يرتضيه ، والأمراء وقواد الجند وأعيان الدولة كافة بماليكه وأتباعه إلى أن مات سنة ١٧٧٥ م (١١٨٩ هـ) خلفه في مشيخة البلد إبراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك ، ثم وقعت فتنة بين المماليك تولى على أثرها إسماعيل بك مشيخة البلد لكنه لم يلبث فيها إلا قليلاً ثم خلعه إبراهيم بك ومراد بك وعادا إلى اقتسام سلطة الحكم ثانية ، وكان إبراهيم بك شيخاً للبلد فكانت له الرياسة ، ثم حاولت تركيا أن تسترجع سلطتها في مصر فجدت سنة ١٧٨٦ حملة عسكرية بقيادة القبودان حسن باشا الجزائرلى انتهت بفرار إبراهيم بك ومراد بك إلى الصعيد ، وعاد إسماعيل بك إلى مشيخة البلد . لكن نشوب الحرب بين روسيا وتركيا صرفها عن الاستمرار في محاربتهم . ورجع حسن باشا إلى الاستانة ثم مات إسماعيل بك بالطاعون سنة ١٧٩١ م (١٢٠٥ هـ) وعادت السلطة إلى إبراهيم بك ومراد بك وتلاشى بجانبهما نفوذ الوالى واستقر إبراهيم بك شيخاً للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨

وخلاصة ما تقدم أن مصر في خلال العصر العثماني كانت ولاية عثمانية تتنازع الحكم فيها السلطات الثلاث التى تكلمنا عنها ثم آل الحكم فيها في أواخر القرن السابع عشر إلى البكوات المماليك ، فصارت من جهة نظام الحكم السياسى أقرب ماتكون شهاً بالملكات المستقلة التابعة الآن للإمبراطورية البريطانية والمعروفة بالدمنيون مع الفرق العظيم الذى تمتاز به المستعمرات الإنجليزية بأنها تتمتع بحكم دستورى

قائم على قاعدة سلطة الامة ، فالحاكم الإنجليزي في المستعمرات المستقرة ليس له نفوذ أكبر مما كان للوالى العثمانى فى مصر ، لكن سلطة الحكم فى تلك المستعمرات مستقرة على نظام نيابى يجعل للشعب الأمر والنهى فى شئون البلاد الداخية ، أما مصر فكان زمام حكومتها الى طائفة المماليك وفى أيديهم ، وليس للشعب عليهم من نفوذ أو سلطان

### مظاهر الحكم فى ذلك العصر

كما وصفها شهودها

بينما فيما تقدم القواعد العامة لنظام الحكم فى مصر ، والآن نضع أمام القارىء صورة لبعض مظاهر ذلك الحكم نقلا عن شهودها ووصفوها من شهود العيان كيف يعين الولاية .

قال المسيو دى مايليه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر سنة ١٦٩٣ (١):

« إن مصر يحكمها أحد الباشوات يعينه السلطان ، ومدة ولايته سنة واحدة ويجوز تجديدها ، وجرت العادة أن تدوم ولايته ثلاث سنوات ، واستمر بعض الباشوات فى الولاية أربع سنوات والبعض لم يبق بها إلا سنة أو سنتين ، وولاية مصر من أهم ولايات السلطنة العثمانية ، ولذلك لا يحصل عليها الباشوات إلا فى مقابل إتاوة من المال ، والباشا يدفع على الأقل من أربعائة إلى خمسمائة ألف ريال قبل أن يصل إلى القاهرة ، ولا يوفق الباشا إلى تجديد مدة ولايته سنة أخرى دون أن يرسل للاستانة هدايا تربو على مائة ألف ريال ، وعلى الباشا أن يرسل الخراج السنوى إلى الاستانة وقدره ستمائة ألف ريال ، وعليه أن يرسل هدايا من السكر والبن والأرز والشراب والحلوى والغلال لا تقل قيمتها عن ستمائة ألف ريال عدا نفقات قافلة الحج ونفقات الجنود فى مصر

« وفى مقابل هذه النفقات يتصرف الباشا فى الإيرادات التى تخص السلطان

(١) فى كتابه وصف مصر

في مصر ويحصل منها كل سنة بعد سد نفقات الجند على أكثر من اثني عشر مليون فرنك وإلى الباشا تؤول تركات المتوفين بلا عقب ، ويكثر دخله من هذه الناحية إذا وقع وباء في البلاد .

### وصف استقبال الوالى

ترى في الجبرقى وصف استقبال الولاية في القرن الثامن عشر ، ومحصل ما ذكر أن الوالى كان يصل عن طريق النيل من رشيد أو الاسكندرية و يرسو في بولاق فتذهب اليه الملاقاة لاستقباله ثم يصعد إلى القلعة في موكب حافل ، وتضرب له المدافع عند قدومه ، ولم يصف الجبرقى هذا الاحتفال تفصيلاً لأن حضور الولاية واستقبالهم كان أمراً عادياً ومألوفاً في ذلك العصر لكن كتاب الإفرنج عنوا بوصفه وصفاً دقيقاً في رحلاتهم

ذكر الرحالة الفرنسى سافارى<sup>(١)</sup> Savary ماشاهده في استقبال الوالى في المدة التى قضاها في مصر من سنة ١٧٧٧ إلى نهاية سنة ١٧٧٩ قال :

« عندما يصل الباشا الجديد إلى الإسكندرية يبلغ الديوان نبأ وصوله ، فيرسل شيخ البلد (رئيس المالك) وفداً من أذكى البكوات لاستقباله والحفاوة به ، فيقدمون له الهدايا ويظهرون له الطاعة ، وفي خلال ذلك يتحسسونه ويستطلعون نيته وأسراره مما يتسقطونه من أقواله وأقوال حاشيته ويتمتعون بالأمور التى جاء بها من الاستانة . فإذا رأوا أنه لا يوافق أهواءهم أرسلوا بذلك رسولا إلى شيخ البلد في القاهرة فيعقد الديوان ويبلغ الباشا أنهم لا يريدونه ثم يرسل إلى الباب العالى بأن الباشا الجديد جاء بنيات عداوية تؤول إلى حدوث الفتنة بين رعاياه المخلصين إذ هو أطلق له منصبه ، ويطلبون استدعاءه فلا يرفض الباب العالى لهم طلباً ، أما إذا آنس الرسل من الباشا أن لاخيفة منه فإنهم يدعونه إلى القاهرة ، فيركبه الوفد سفينة فخمة وينحدرون في معيته تحيط به المراكب المزينة بالأعلام وفيها الطبول والزمور ، فيتقدم الباشا هذا الأسطول مستقلاً سفينة تحتال

(١) في كتابه (رسائل عن مصر)



في سيرها ، وما صادفهم في النيل من مراكب انحدر معهم وماج في حاشيتهم ، الى أن يصلوا الى الحلبي ( بيولاق ) وهناك ترسو المراكب وينفذ شيخ البلد بعض السناجق لاستقبال الباشا في الميناء أو يستقبله بنفسه . فبينته أمراء المالك بالقدوم ويقدم له أغا الإنكشارية ( محافظ المدينة ) مفاتيح القلعة ويدعوه الى الإقامة فيها . قال : وقد شاهدت بعيني وصول الباشا ودخوله المدينة في موكبه وزينته ، ورأيت الموكب تتقدمه فصائل من الجنود المشاة يسرون صفين وموسيقيهم أمامهم وأعلامهم تحف فوق رؤوسهم ، يليهم الفرسان وعددهم من خمسة آلاف الى ستة آلاف فارس يسرون بنظام حسن ويحملون الرماح الطويلة تزينهم ملابسهم الفضفاضة اللامعة وشواربهم الكبيرة ، فكان لهم منظر حربي يبعث الروعة في النفوس ، ويلي هؤلاء ، مرتدين الملابس البديعة وحولم حاشيتهم من المالك يمتطون صهوات الجياد العربية الاصلية وعليها غواشي موشاة بالذهب والفضة . رأيت خيول الأمراء مرصعة باللؤلؤ والأحجار الكريمة وعلى خيولهم السروج تتلألأ من الذهب ، وكل يلك يسير في موكب على هذه الصفة ، فكانت مواكبهم مجتمعة غاية في الرونق والفضامة يزينا جمال الفرسان وشكل ملابسهم وحسن استوائهم على متون جيادهم . ويلهم الباشا يسير الهوينا وتتقدمه كوكبة من مائتي فارس وفرقة من الموسيقى وأمامه أربعة من الجياد يقودها أربعة من السواس وعليها غواشيتها موشاة بالذهب مرصعة بالأحجار الكريمة ، وكان الباشا ممتطياً جواداً كريماً وقد وضع على عمامته ريشة من قطع الماس الكبيرة يتوهج سناها في أشعة الشمس ، رأيت في هذا الموكب صورة من مظاهر الأبهة الشرقية التي كانت تحيط بملوك آسيا وسلاطينها عندما يبرزون للجواهر ، وبدأ الموكب في الساعة الثالثة صباحاً واستمر الى الظهر . وفي اليوم التالي جمع الباشا الديوان بالقلعة ودعا البسكوات الى حضوره وجلس هو على منصة قد نصت له أمام شباك ، فكانه السلطان على عرشه ، وتلا كحياه ( وكيه ) كتاب الباب العالي فظاًطاً السناجق (البسكوات) احتراماً لولي الأمر وأمره ، وتعهدوا بتنفيذ ما لا يعارض امتيازاتهم . وبعد انفضاض الديوان أهدى الباشا الى شيخ البلد كرك سمور

فاخراً ، وجواداً مطهما ، وخلع على كل بيك قَبَاءَ (قَفْطَاناً) وبذلك تمت حفلة  
تنصيب الباشا ،

### سلطة الوالى

قال المسيو سافارى يصف مدى سلطة الباشا بعد الاحتفال الفخم الذى دخل  
به المدينة :

« إن منصب الباشا هو فى الواقع نوع من أنواع النفى ، فهو لا يستطيع أن  
يخرج من القلعة إلا بإذن من شيخ البلد ، وهو سجين يرى نفسه قد أحيط بمظاهر  
الآهة ، ومن خلال هذه المظاهر يشعر بثقل القيود التى يرسف فيها . فهو لا يدل له  
فى شئون الحكومة ، ومرتبته محدود بما يدخل من رسوم جمرك السويس والمتاجر  
التى ترد من البحر الأحمر . على أن البسكوات يبذلون له أكثر من ذلك ، فالباشا  
الحاذق يستطيع بمهارته ودسائسه أن يستجلب عطف الحزب الغالب من المماليك  
فيدر عليه أخلاف الثروة ، وللباشا منبع آخر للمال فإن المماليك الذين يعينهم  
الديوان سناجق يدفعون إلى الباشا اتاوة لإقرار هذا التعيين ، وإليه يؤول ميراث  
الملاك الدين يموتون بلا عقب ، وبهذه الطريقة يستطيع الباشا أن يستقر فى مركزه  
ويجد منه الغنى فى سنوات قليلة ، لكنته فى حاجة إلى الحذر الشديد فى كل ما يأتى  
وما يدع ، لأن أصغر هفوة تورده موارد الخنف وقد يحدث أحياناً أنه مع  
حذره ودهائه ينقلب عليه قصده وذلك إذا طغى بعض السناجق على الحزب الغالب  
من البسكوات الذى ينتمى إليه الباشا فيسلبه السلطة ويرفع إلى مشيخة البلد ،  
ومن ثم لا يكون إلا أن يطرد الباشا فيخرج منها مذؤوماً مدحوراً ،

### عزل الوالى

ذكر المسيو سافارى طريقة عزل الوالى ، وهى طريقة فى غاية السهولة  
والفوضى : « يجتمع الديوان المؤلف من البسكوات المماليك فإذا رأى عزل الوالى  
أنفذ إليه رسولا يلبس رداء أسود ويسمى (الأوده باشى) . فيحمل قرار العزل  
ويذهب إلى قاعة الاستقبال حيث يوجد الوالى فيدخل عليه ويأطى احتراماً له

ثم يلبس طرف السجادة ويطويها ويقول مناديا للوالى : انزل يا باشا ( وقد ذكرها سافارى بنطقها العربى ) ثم يخرج من المجلس ، فعند ما تسك هذه الكلمة سمع الباشا يعلم أنه أصبح معزولا ويبدأ فى حزم أمتعته والتوجه إلى بولاق فى مدة لا تتجاوز أربعاً وعشرين ساعة على أن ينتظر ما يؤمر به من الاستانة ، وفى حالة العزل لا يمس شخص الوالى المعزول بسوء ، ولكن يحدث أحياناً إذا كان للبكوات شكاوى على الوالى أن يحاسبوه حساباً شديداً عما وقع فى حوزته مدة ولايته من الأموال والهدايا ، وكثيراً ما يقتسمون ما جمعه قبل عزله ، وبعد أن يعزل الوالى يعين الديوان ( قائمقاماً ) يتولى هذا المنصب إلى أن يصل الباشا الجديد وهلم جرا ،

### انعقاد الديوان

قال المسيو دى مايليه Malliet قنصل فرنسا فى مصر سنة ١٦٩٢ يصف انعقاد الديوان فى عصره : « إن مصر على فقدها سلاطينها قد استبقت شيئاً من الأبهة التى كانت من مميزات السلطنة ، وقد شاهدت مراراً انعقاد الديوان بالقلعة . وهذا الديوان ينعقد مرتين كل أسبوع ( الأحد والثلاثاء ) ، فى يوم انعقاده يغص القناء الذى بين يدي قاعة الديوان - وتبلغ مساحته نصف حديقة التويلرى بباريس - بالفرسان من اتباع البكوات وكبار الضباط راكبين جيادهم العربية المظهمة على سروج مغطاة بالذهب موهة بالفضة مرصعة بالأحجار الكريمة ، وان أهبة بهذا المنظر لتبعث الإعجاب فى النفس ، وقد سمعت فى مصر أن السلطان سليم منع انعقاد الديوان فى القاعة التى كان يلبس بها سلاطين مصر قبل الفتح العثمانى ، وذلك رجاء أن يقلل من أهبته ، والواقع أن الديوان لا ينعقد الآن فى قاعة سلاطين مصر ، ومع ذلك فديوان القاهرة أكثر أهبة من ديوان الاستانة ، وقد أتيح لى أن أشهد انعقاد الديوان بالقلعة فى جلسة غير اعتيادية ، وهو مالا يتيسر لأحد القناصل إلا نادراً . فدعيت إلى حضور الديوان لأسأل عن شكاوى بعض التجار الإفرنج الذين صودرت متاجرهم فى جمرک الإسكندرية فشكوا أمرهم إلى السلطان فأمر بالفحص والتحقيق وطلب من قاضى العسكر ( قاضى قضاة مصر ) أن يقضى فى الشكاوى . وقد رأيت بقاعة الديوان نحو أربعة آلاف

شخص مجتمعين . وبعد تلاوة أمر السلطان وبيان الباشا صاح هذا الجمع بأن السلطان قد خدع وأنه من الواجب رفع الحقيقة إليه ، فلهج التجار الإفرنج والتراجمة الذين حضروا الديوان من تعسف القوم وعدوانهم وارتعدت فرائصهم وظنوا أنه قضى عليهم ، لكن الباشا كان حريصاً أن لا يمس أحد منا بسوء وكان متفقاً معي قبل الديوان على أن يكون الغرض من هذا كله تبرير مركزه أمام السلطان وانهى الاجتماع بحسم الخلاف على طريقة رضيناها ورضوا عنها ،

### نظام الملكية والضرائب

لم يكن النظام المالي في مصر خيراً من النظام السياسي ، فقد اعتبر السلطان سليم نفسه مالكا لأراضي مصر وسار على هذا الاعتبار ابنة السلطان سليمان ، وهذه النظرية كان صاحب الأرض لا يملك رقبته بل حق الانتفاع بها ، فإذا مات آلت أملاكه إلى الحكومة غير أن لورثته ردها إلى حوزتهم لقاء مبلغ معين تقدره أهواء الولاة ، على أن مزاعم السلاطين في تملكهم رقبة الأراضي ما لبثت أن تلاشت مع الزمن تلقاء نفوذ المالك ، فكانوا يتصرفون في الأراضي على ماشاؤوا وبيسطون أيديهم على ما يروق لهم منها ، فصار معظم أراضي مصر مقسمة بينهم وآلت إليهم بهذه الوسيلة ملكية ثلثي ما يزرع من الأراضي أو نحو ذلك ، أما الباقي فوزع بين الفلاحين والمليئين والأوقاف

### أنواع الملاك

فالفلاحون يملكون النزر اليسير من الأراضي ينتفعون بها ويتوارثونها ولهم أن يتصرفوا فيها ، ولكن ملكيتهم لها معلقة على دفع الضرائب والأتاوات المفروضة عليها ، وهذه الضرائب والأتاوات تدفع للمليئين . والمليئون هم الملاك الذين يأخذون القرى ، التزاماً ، ويتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه على أن يتكفلوا للحكومة بدفع نصيبها من الضرائب

### نظام الالتزام

وأصل نظام الالتزام أنه لما فسدت إدارة الحكومة انصرف الناس عن الزراعة

وتعطلت الأعمال وهبطت قيمة الأراضي فانكسر الخراج وقلت الجباية ،  
فعمد الحكام إلى طريقة (الالتزام) وهي تضمين الضرائب لأناس يتولون جمعها عن  
الحكومة ويشاركونها فيما يغلونه من الأهلين ، وكانت الحكومة تعرض جباية  
الخراج بالمزايدة لمن يضمنه من ذوى النفوذ ، فمن يقع عليه المزداد سمي « الملتزم » ،  
ويلتزم بضريبة بلد أو عدة بلاد عن سنة أو أزيد ، ويدفع للحكومة سلفاً مال سنة  
والالتزام يقرر إما بالمزايدة كما تقدم وإما بالاتفاق على الثمن بين الملتزم وإدارة  
(الروزنامة) بالنيابة عن الحكومة ، فإذا تمت الصفقة أعطاه كبير المالك المسمى  
شيخ البلد عهداً بذلك يسمى « تقسيطاً » ، أى عقد الالتزام ، وبصحة بأمر يسمى  
« فاميك » ، وهو خطاب من الحكومة إلى أهل البلد الداخلى فى التزام الملتزم تفرض  
عليهم أن يطيعوه ويؤدوا له الخراج ثم يكون له الحق أن يحصل من أصحاب  
الأرض على المال الذى يجمله للحكومة زائداً فيه الربا وملحقاته حسب إيشاء وهوى ،  
وتطور الالتزام ، فبعد أن كان يعطى لسنة أو عدة سنوات جعلوا يعطونه للملتزمين  
مدى الحياة فلا ترجع البلاد إلى الحكومة إلا بعد وفاة الملتزم بها

وإذا مات الملتزم فلورثته أن يستبقوا البلاد فى أيديهم إذا دفعوا الأتاوة  
للحكومة وإلا صارت حقاً لبيت المال ، وتوصل بعض الملتزمين إلى إبقاء الالتزام  
إرثاً لذريتهم بما دفعوا للحكومة من هذه الأتاوة

والملتزمين سلطة مطلقة على الفلاحين ، فكانوا يعسفونهم ويسومونهم الظلم  
والجور ، ويفرضون على أملاكهم ما شاءت أهواؤهم من ضرائب واتاوات ، ولهم  
أن يبيعوا حق الالتزام لغيرهم من الملتزمين ، وإذا مات أحد الفلاحين بلا عقب  
آل ما يملكه إلى الملتزم

ولهذا الملتزم أن ينتزع الأرض من يد الفلاح ويعطيها لفلاح آخر إذا ضاقت  
يده أو قصر فى دفع الضرائب ، ولما كانت الضرائب والاتاوات تجرى على أهواء  
الملتزمين فملكية الفلاحين كانت تحت رحمة هؤلاء ، وهناك نوع آخر من الأملاك  
يعرف بأطيان (الوسية) وجمعها « أوامى » ، وهى الأراضي التى تعطيها الحكومة

للملتزمين منحة لمساعدتهم على واجبات الالتزام ونفقاته من الصرف على المساجد والمدارس وإيواء المسافرين والموظفين وضيافتهم في دائرة التزامهم ، وهذه الأقطان معفاة من كل ضريبة وعلى فلاحى الجهة أن يعملوا فيها سخرة للملتزم بلا أجر ولا جزاء .

وعدا أقطان الأواشى توجد أقطان أخرى معفاة من الضرائب وهى أراضى الرزق جمع (رزقة) وهى التى كان ينعم بها السلاطين على بعض الناس يتصرفون فيها كيف شاموا ، وهذه الأراضى معفاة من الضرائب ولذلك تسمى بأرض رزقة بلا مال ، وكانت إدارة الروزنامة تعطى المنعم عليه بمثل هذه الأراضى بتقسيماً ، أو سند التملك يخوله ملكها ملكاً مطلقاً والتصرف فيها

ويقول المسيو استيفه (١) إن السلطان د سليم ، لما فتح مصر وجد أقطان الرزقة مخصصة لجهات البر ، فأبقاها كما هى ولم يعطها للملتزمين وظلت فى أيدي مالكيها

يتبين مما تقدم أن نظام الملكية العقارية بالمعنى الصحيح لم يكن معروفاً فى ذلك العصر ، فلكية الفلاحين عرضة لأن تنتزع منهم فى كل وقت ، وملكية الملتزمين كانت تحت رحمة البسكوات المماليك بحيث كانت تنتزع منهم إذا تصدى لهم من هم أوسع نفوذاً وأعظم ناصرأ وأقوى سلطاناً ، ونظام الالتزام يشبه أن يكون كنظام الاقطاعات الذى رزحت أوروبا تحت نيره القرون المتوالية

أما الوقف فيشمل الأملاك المحبوسة أصلاً على المساجد وأعمال البر والخير ، وقد انتشر الوقف فى العصر العثمانى لأنه كان الوسيلة التى يأمن بها الملاك على أملاكهم من عسف المماليك ، فعمدوا إلى الوقف يحبسونه على جهة من جهات البر والإحسان ويجعلون لأبنائهم أو من يوصون إليهم من ذى نسب أو صلة أو خدمة حق الانتفاع بالأرض بعد وفاتهم ، فيجد الموقوف عليهم من ريعها غلة ثابتة لا تمتد إليها مطامع المماليك بالسلب والاعتصاب

(١) گناب تخطيط مصر الجزء ١٣

هذه هي أنواع ملكية الأقطان في ذلك العصر ، فلنبحث الآن عن أنواع  
الضرائب المفروضة عليها

### الضرائب

كانت الأراضي مشغلة بالضرائب والأتاوات ومعظمها واقع على كاهل الفلاحين ،  
والمقرر أصلا من الضرائب ثلاثة أنواع :

الأولى : ضريبة الخراج وتسمى المال الميرى أو الميرى فقط وهي المخصصة  
أصلا للسلطان

والثانية : ضريبة الكشوفية وهي مخصصة للبك أو الكاشف حاكم المديرية

والثالثة : الفاض أو فائض الالتزام وهو ما يستولى عليه الملتزمون بعد وفاء  
الميرى والكشوفية ، وبمجموع هذه الضرائب الثلاث يسمى « المال الحر » وهو  
المقرر أصلا على الأقطان ، أو الضرائب القانونية ، يدفعها الفلاحون للملتزمين  
وهؤلاء يدفعون الميرى والكشوفية وما بقى فهو لهم

لكن الملتزمين لم يكتفوا بهذه الضرائب بل فرضوا على أقطان الفلاحين  
أتاوات أخرى ضربتها أهواؤهم ومطامعهم ، فمنها « المضاف » و « البرانى » ، والمضاف  
على نوعين : المضاف القديم والمضاف المستجد ، والبرانى على نوعين : البرانى القديم  
والبرانى الجديد ، وهذه الضرائب يقدرها الملتزمون بحسب الظروف والآهواء

وللملتزمين سلطة مطلقة فى القرى الداخلة فى التزامهم ، ولكل منهم فيها وكيل  
يسمى « قائم مقام » ينوب عنه وهم الذين يعينون فيها مشايخ البلاد وهؤلاء هم وسطاء  
الملتزمين فى جباية الضرائب من الفلاحين ، أما البكوات المالك وكبار الملتزمين  
فلهم مع مشايخ البلاد وكلاء يسمون « المباشرين » تمتد سلطتهم على عدة قرى  
ومقاطعات ، وقد اختص الأقباط بهذه الوظيفة وتحت سلطتهم الصيارف  
والكتبة والمساحون فى القرى وكل أولئك يعينون بمعرفتهم وارشادهم وبأيديهم  
سجلات الضرائب

## الكشوفية والميرى

كان البسكوات المماليك يتداولون حكم المديرىات ، والعادة أن يبقى البك فى المديرية لمدة سنة ، ووظيفتهم حفظ الأمن وحسم المنازعات التى تنشأ بين القرى وحماية الفلاحين من سطوة العربان وحماية الملتزمين فى تحصيل الضرائب ليدفعوا لهم نصيبهم منها ، ولكل بيك عدة كشاف أو وكلاء فى حكم المديرية أو جزء منها ، والبيك يقضى فى المديرية التى يحكمها ثلاثة أو أربعة أشهر ثم يعود إلى القاهرة خوفاً أن تؤدى غيبته إلى دس الدسائس من زملائه ومنافسيه من المماليك ، وفى أثناء إقامته بالقاهرة يقوم عنه بالأمر كشافه الذين يجوبون أنحاء المديرية لتحصيل الضرائب وضبط الأمن ومعهم القوة الكافية من الجنود

فالكشوفية هى نصيب البيك وكشافه من الضرائب على الأتبان ، يدفع معظمها الفلاحون ويدفع الملتزمون جزءاً منها ، أما الميرى فهو مخصص أصلاً للسلطان وله إدارة مستقلة بتحصيله وضبط حسابه تعرف بالروزنامة يرأسها «الروزنامجى» الذى يعينه الباشا (الوالى) بناء على طلب الديوان ، وبعد تعيينه يصبح بحكم وظيفته عضواً بالديوان ، وتحت يديه جماعة من الكتبة يسمون «الأفندية» أو أفندية الروزنامة ومن بينهم يعين الروزنامجى ، فوظيفة الروزنامجى هى إدارة الخراج أو أموال الميرى ، وهى تقرب أن تكون كوظيفة مدير الأموال المقررة فى العصر الحاضر ، وفى يد الأفندية سجلات الأراضى التى تدفع الميرى لمعرفة مقدار ما هو مفروض عليها وما يحصل منها وما يصرف على تحصيلها ومقدار ما يخلص بعد ذلك ، والروزنامجى مسئول عن حساب الميرى وعليه تقديم هذا الحساب كل سنة للوالى (الباشا) وللدفتردار (مدير الشؤون المالية) ولشيخ البلد (زعيم المماليك) وبعد أن يخلص صافى الميرى من حساب النفقات المختلفة يرسل إلى الاستانة وهذا الصافى هو المعروف بالخزانة وهو من حق السلطان ويحمله إلى الاستانة أحد البسكوات المماليك ويسمى «خزنة دار» أى أمين الخزنة وحرقت إلى «خازندار» وقد تناقص صافى الميرى بعد استئثار المماليك بحكم البلاد حتى إنه فى بعض السنين لا يكاد يبقى معه شئ. يذكر ، ذلك أن الميرى تؤخذ منه الأموال الآتية :



أولاً : نفقات الباشا والبكوات ، وجامكية العسكر أى عطاء الجنود والوجاقلية  
ونفقات المؤن والدخائر ورواتب أفندية الروزنامة ومعاشات الأرامل  
والأيتام والمكفوفين

ثانياً : ما يخرج للحرمين الشريفين

ثالثاً : نفقات المحمل وأمير الحج

رابعاً : المصاريف الأخرى التى لا تدخل فى حساب كإصلاح الترع وتطهيرها  
وترميم القلاع ( ولم يكن يصرف من ذلك شئ ) والإنفاق على الأزهر وصيانة  
المساجد والأضرحة وأرزاق المشايخ ومصاريف مقياس النيل وحفلة وفاء النيل  
وغير ذلك ، وكانت تدبر كل هذه الأوضاع الحسابية بحيث لا يبقى من هذا الميرى  
إلا النزر اليسير يرسل إلى الاستانة ، وانقطع فعلا إرسال الخزنة فى عهد  
على بك الكبير ثم استوفت إرسالها بطريقة غير منتظمة فى عهد مراد بك  
وإبراهيم بك ، وكان صافى ما يرسل سنويا إلى الاستانة فى عهدهما يبلغ ٣٦٤٠٥٥٠  
فرنك (١) أى نحو ١٠٠٥٨٠ جنيتها

### الضرائب الأخرى

#### ومقدار دخل الحكومة

كانت البيوت والمنازل معفاة من الضرائب لأن الخراج فى الأصل مقرر على  
الأطيان ، على أن الحكومة فرضت الضرائب غير العقارية والمسكوس والاتاوات  
على الصناعات والمأكولات والمتاجر بما فى ذلك رسوم الجمارك وعلى الوكلاء  
والسفن والقوافل وكذلك على الرؤوس وعلى الوظائف الرئيسية

وقد أحصى المسيو استيف دخل الحكومة السنوى فى أواخر عهد المالك  
بمبلغ ٢١٠٦١٩٩٠٠٠ فرنك أى ١٣٠٣٠٣٠٧٧ جنيهه تقريبا ، وقدره

(١) إحصاء المسيو استيف مدير الشؤون المالية فى أواخر عهد الحملة الفرنسية . كتاب تخطيط  
مصر الجزء الثانى عشر

الجنرال رينه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية في كتابه<sup>(١)</sup> بمبلغ يتراوح بين ٣٥ إلى ٤٠ مليون فرنك في السنة ، ومن ذلك يتبين أنه مع إسراف حكومة المماليك في المظالم وإرهاق الأهالي بمختلف الاتاوات والضرائب فإن مقدار دخل الحكومة يدل على ما كانت عليه حالة البلاد الاقتصادية والمالية من التأخر والفاقة ، على أنه من الواجب أن نعجل بالقول بأن حالة البلاد الاقتصادية والمالية قد ازدادت سوءاً في عهد الحملة الفرنسية ، وقد بسطنا الكلام في هذا الصدد بالفصل السادس من الجزء الثاني من هذا الكتاب

### النظام القضائي

بقي النظام القضائي فترة من الزمن كما كان قبل الفتح العثماني ، فكان يتولى القضاء قضاة أربعة من المذاهب الأربعة يسمى كل منهم « قاضي القضاة » . الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي ، ولم يغير السلطان سليم شيئاً من هذا النظام وإنما عين قاضياً عثمانياً جعله « أميناً على قضاة مصر » (٢) ،

ولكل من أولئك القضاة الأربعة أن يعين نوابه في القضاء ، ذكر ابن إياس أن ملك الأمراء خير بك أنقص عدد نواب القضاة فرسم لقاضي القضاة الشافعي بخمسة من النواب وقاضي القضاة الحنفي بأربعة وقاضي القضاة المالكي بثلاثة وقاضي القضاة الحنبلي باثنين من غير زيادة على ذلك (٣)

ولما تولى السلطان سليمان أبطل نظام قضاء القضاة الأربعة ، وأسر بتنصيب قاض تركي من درجة « قاضي عسكر » ، يسمى « قاضي مصر » ، يرسلونه من الاستانة وهو بمثابة قاضي القضاة

(١) مصر بعد واقعة عين شمس

(٢) قال ابن إياس (الجزء الثالث) في حوادث سنة ٩٢٤ هـ (١٥١٨ م) إنه لما تزايدت مظالم جنود الأتراك في القاهرة « دخل جماعة من الناس إلى القاضي الذي جملة ابن عثمان في المدرسة الصالحية أميناً على قضاة مصر . فشكوا له من أفعال العثمانيين وما يفعلونه بالناس . فلما سمع هذا الكلام ركب وتوجه إلى بيت الأمير قايتباي الدوادار وأركبه وطلع به إلى القلعة وأخبروا ملك الأمراء خير بك بهذه الأحوال التي تصدر من العثمانيين ، وقال ما خلاصته إن خير بك وعد القاضي والأمير قايتباي بالفحص والتحقيق

(٣) ابن إياس الجزء الثالث

قال ابن أبي السرور البكري : « إن أول من ولي قضاء مصر من قضاة  
العسكر ، مصطفى أفندي الرومي ( التركي ) وأنه استولى على قضاء مصر سنة ٥٩٢٩  
في المحرم منها بعد أن أرسل السلطان سليمان أمره الشريف لحاكم الديار المصرية  
بإبطال القضاة الأربعة ، فنفذ أمره الشريف وجاء مصطفى أفندي إلى مصر وجعل  
له نوابا من الثلاثة المذاهب المالكي وشافعي وحنبلي ، (١)

واستمر قضاء العسكر يهبطون من الاستانة في عهد الحكم التركي ، ولم يتنازع  
الماليك الحكومة العثمانية في هذه الناحية من السلطة ولم يتعرضوا لها لأنهم لم يخشوا  
بأسا من قضاة الاستانة ولم يكن هؤلاء ينافسونهم النفوذ والجاه كما كان يفعل  
الولاة ، فتركهم الماليك وشأنهم . وكانت مراسيم التعيين تصدر من الاستانة لقاضي  
القضاة ولعدد من القضاة يشبه أن يكونوا رؤساء محاكم يبلغون خمسة وثلاثون  
قاضيا (٢) ، ومراسيم التعيين لا تصدر إلا في مقابل اتاوة من المال يدفعها طلاب  
مناصب القضاء لحكومة الاستانة ، وبعض هؤلاء القضاة كانوا زمنا ما أتركا ،  
فكانوا يستعينون بالتراجمه ، ولذلك عمت الفوضى في إدارة القضاء ، على أن مناصب  
القضاء خلا منصب قاضي القضاة قد آلت مع الزمن إلى القضاة المصريين ، ذلك  
أن القضاة الأتراك الذين تصدر لهم مراسيم التعيين كانوا يتنازلون عن هذه المناصب  
لمن يطلبها من المصريين تلقاء جعل من المال ، ثم صارت مراسيم التعيين تصدر  
رأسا للقضاة المصريين

كانت مناصب القضاء تباع وتشتري وتعرض في سوق المساومة فترسو على  
من يدفع الثمن الأعلى ، ولا يمكن أن يصل النظام القضائي في بلد من البلدان إلى

---

(١) كتاب الروضة المسأوسة في أخبار مصر المحروسة لابن أبي السرور البكري . وفي ابن لباس  
أن أول قاضي عسكر عينه السلطان سليمان هو القاضي جايي وذلك سنة ٩٢٨ هـ ، وروايته كما ترى  
تختلف ورواية ابن السرور البكري في تاريخ التعيين واسم القاضي . على أننا نرجح رواية  
ابن أبي السرور لأن كتابه خاص بالبحث في أسماء وأخبار ولاة مصر وقضاة في عهد الحكم العثماني  
( لغاية سنة ١٠٥٤ )

(٢) تخطيط مصر الجزء الثاني عشر

مثل هذا الدرك من التدهور، ولاجرم كانت وظيفة القضاء في ذلك العصر موضع الزرابة في نظر الجمهور والعلماء

وكان قاضي القضاة في الغالب تركيا لا يعرف العربية فكان يتخذ ترجماناً يترجم له الأوراق وينقل أقوال الخصوم، والترجمات على ذلك هو صاحب الحول والطول ومدة القاضي سنة واحدة أو سنتان متى جاء أجلها تعين حكومة الاستانة قاضياً آخر أو تمتد مدة القاضي القديم، ويجوز أن تمتد مدة قاضي القضاة بنزول القاضي الجديد له عن مدته ببيعه إياها بالثمن عن تراض بينهما، وبهذه المساومة يجوز أن تمتد مدة قاضي القضاة إلى أربع أو خمس سنوات متعاقبة، وله أن يعين من دونه من النواب، ولمن يصدر له أمر التعيين أن ينزل عنه لغيره، وغنى عن البيان أن هذا النظام كان مصدراً للجور وأكل أموال الناس بالباطل، ذلك أن القضاة الذين يشترطون مناصبهم إنما ينظرون إليها كوسيلة لا ابتزاز الأموال، فالفرق كبير جداً بين مكانة القضاة في ذلك العصر ومكانتهم قبل الفتح العثماني، فإن قضاة القضاة الأربعة كانوا موضع إجلال السلاطين كما أنهم كانوا على جانب عظيم من العلم والتقوى (١)، أما في عهد الحكم التركي فقد وصل النظام القضائي إلى درجة لا نظير لها من الانحطاط، لذلك كان كبار العناء يتورعون عن تقلد مناصب القضاء، اعتبر ذلك في تراجم العلماء المعدودين الذين ذكرهم الجبرتي في وفياته، فإنك لا ترى من بينهم عالماً معدوداً تولى منصب القضاء في مصر، وهذا وحده دليل كاف على انحطاط منزلة القضاء في عهد الحكم التركي

ويحكم قاضي القضاة في الخصومات التي تعرض عليه في القاهرة، وبولاق ومصر القديمة، وله أن يعين نواباً في خطط القاهرة فكان بها تسعة نواب وبولاق نائب وبمصر القديمة نائب، وهؤلاء النواب يحكمون بين الناس بالنيابة عن قاضي القضاة ويشترطون منه مناصبهم بالمال وإذا تغير قاضي القضاة أمكنهم أن ينالوا إذناً يقرارهم على مناصبهم لقاء جعل يدفعونه للقاضي الجديد

(١) كانوا في الأغلب هم أئمة مذاهبيهم علماء وفقهاً واجتهاداً وبصراً بالحكم

ولم يكن للتقاضى رسوم معلومة ولا مرتب محدود ، بل كان كل قاض يتقاضى في كل دعوى ما يقدره من الأجر بحسبها وكما يقدر ، يدخل في ذلك أجور الكتبة أو الترجمة ، وإذا كان قاضى القضاة متورعا فإنه لا يطلب أجراً معلوماً بل يكتفى بما يعرضه أرباب القضايا وبذلك ينال احترام الناس ومحبتهم ، وكان القضاة لقلّة بضاعتهم من العلم يرجعون إلى فتاوى العلماء للفصل فى القضايا ، فكانت هذه الفتاوى تقدم كستندات فى الدعوى ، ولفتاوى العلماء قيمة فى نقض الأحكام بعد صدورها ، ومن ذلك جاءت كثرة الفتاوى فى ذلك العصر

وكان القضاة بمصر متعددى المذاهب ، فمنهم الحنفى والشافعى والمالكي والحنبلية ، وكل قاض يحكم بحسب أحكام مذهبه وبحسب القول الذى يختاره من أقوال المذهب ، ولا ريب أن تعدد مذاهب القضاة وتعدد الأقوال فى كل مذهب من أسباب الفوضى فى الأحكام والمعاملات ؛ ذلك أن المتقاضين لم يكونوا يعرفون مصير دعاوهم أمام مختلف المحاكم وبخاصة مع ما جرى عليه العمل من أن للمدعى الخيار فى أن يذهب إلى أى قاض أراد جرياً على بعض الأقوال ، فكان المدعى يختار الذى يعرف عن مذهبه أو القول الذى يأخذ به من أقوال هذا المذهب ما يؤيد دعواه ، وهذا النظام من شأنه أن يززع الثقة فى المعاملات ، وقد ظل تعدد مذاهب القضاة فى مصر إلى أن تخصص القضاء بمذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، وذلك فى عهد محمد على باشا

ذكر الجبرتي طرفاً من شكوى الناس من فساد النظام القضائى ، وكلامه وإن كان منصرفاً إلى أوائل عصر محمد على إلا أنه يتضمن وصف هذا النظام فى عهد البكوات المماليك ، وكيف كانت وظائف القضاء تباع وتشترى ، وكيف زادت الحالة سوءاً لما عادت السلطة للأتراك بعد انقراض حكم المماليك وانتهاء عصر الحملة الفرنسية ، وإليك ما ذكره الجبرتي ننقله لما فيه من تفصيل لبعض ما أجهلناه وتوضيح للنظام القضائى فى مصر فى عصر الحكم التركى كما وصفه شاهد عيان . قال :

د فى يوم الخميس (٢٠ ربيع الثانى سنة ١٢٣١) (١) حصلت جمعية بيت البكرى

(١) يوافق ٢٠ مارس سنة ١٨١٦

وحضر المشايخ وخلافهم وذلك بأمر باطنى من صاحب الدولة (محمد على باشا) وتذكروا مايفعله قاضى العسكر من الجور والطمع فى أخذ أموال الناس والمحاصيل وذلك أن القضاة الذين يأتون من باب السلطنة كانت لهم عوائد وقوانين قديمة لا يتعدونها فى أيام الأمراء المصريين (المماليك) فلما استولى هؤلاء الأروام (الأتراك) على الممالك والقاضى منهم فحش أمرهم وزاد طمعهم وابتدعوا بدعا وابتكروا حيلة لسلب أموال الناس والأيتام والأرامل . وكلها ورد قاض ورأى ما ابتكره الذى كان قبله أحدث هو الآخر أشياء يمتاز بها عن سلفه حتى فحش الأمر وتعدى ذلك لقضايا أكبر الدولة وكتخدا بيك بل والباشا (محمد على) وصارت ذريعة وأمرآ محتما لا يحتشمون منه ولا يراعون خليلا ولا كبيرآ ولا جليلا

وكان المعتاد القديم أنه إذا ورد القاضى فى أول السنة التوتية التزم بالقسمة بعض المميزين من رجال المحكمة بقدر معلوم يقوم بدفعه للقاضى . وكذلك تقرير الوظائف كانت بالفراغ أو المحلول، وله شهرات على باقى المحاكم الخارجة كالصالحية وباب سعادة والخرق (باب الخلق) وباب الشعرية وباب زويلة وباب الفتوح وطيلون وقناطر السباع وبولاق ومصر القديمة ونحو ذلك ، وله عوائد وإطلاقات وغلال من الميرى ، وليس له غير ذلك إلا معلوم الإمضاء ، وهو خمسة أنصاف فضة ، فإذا احتاج الناس فى قضاياهم وموارثهم أحضروا شاهداً من المحكمة القريبة منهم فيقضى فيها مايقضيه ويعطونه أجرته ، وهو يكتب التوثيق أو حجة المبايعه أو التورث ، ويجمع العدة من الأوراق فى كل جمعة أو شهر ثم يمضيها من القاضى ويدفع له معلوم الإمضاء لاغير ، وأما القضايا لمثل العلماء والأمراء فبالمساحة والإكرام<sup>(١)</sup>

(١) معنى ما تقدم أن دخل قاضى القضاة يتألف من الموارد الآتية : ١- ما يدفعه له كل سنة موظفو المحكمة ٢- جعل شهرى يدفعه له قضاة أخطاط العاصمة ٣- ما تؤديه له الحكومة من العوائد والغلال ٤- رسوم الإمضاء ٥- الهدايا الاختيارية التى يقدمها له الأعيان والعلماء «بالمساحة والإكرام» بعد الفصل فى قضاياهم

وكان القضاة يخشون صولة الفقهاء. وقت كونهم يصدعون بالحق ولا يداهتون فيه ، فلما تغيرت الأحوال وتحكمت الأثران وقضاتها ابتدعوا بدعاً شتى ، منها إبطال نواب المحاكم وإبطال القضاة الثلاثة خلاف مذهب الحنفي وأن تكون جميع الدعاوى بين يديه ويدي نائبه . وبعد الانفصال يأمرهم بالذهاب إلى كتبخانه (نائبه) ليدفع المحصول فيطلب منهم المقادير الخارجة عن العقول ، وذلك خلاف الرشوات الخفية . والمصالحات السرية . وأضاف التقرير والقسمة لنفسه (١) . ولا يلتزم بها أحد من الشهود كما كان في السابق . وإذا دعي بعض الشهود لكتابة توثيق أو مبايعة أو تركة فلا يذهب إلا بعد أن يأذن له القاضي ويصحبه بجوخدار (وكيل) ليشاشر القضية ، وله نصيب أيضاً ، وزاد طمع هؤلاء الجوخدارية حتى لا يرضون بالقليل كما كانوا في أول الأمر وتخلف منهم أشخاص بمصر عن مخاديمهم وصاروا عند المتولى لما انفتح لهم هذا الباب

وإذا ضبطت تركة من التركات وبلغت مقداراً أخرجوا للقاضي العشر من ذلك ومعلوم الكاتب والجوخدار والرسول ، ثم التجهيز والتكفين والمصرف والديون ، وما بقى بعد ذلك يقسم بين الورثة ، فيتفق أن الوارث واليتم لا يبقى له شيء . ويأخذ (القاضي) من أرباب الديون عشر ديونهم أيضاً ويأخذ من محاليل وظائف التقارير معلوم سنتين أو ثلاثة (٢) ، وقد كان يصالح عليها بأدنى شيء . وإلا إكراماً . وابتدع بعضهم الفجص عن وظائف القبانية والموازن وطلب تقاريرهم القديمة ومن أين تلقوها ، وتعلل عليهم بعدم صلاحية المقرر وفيها ماهو باسم النساء وليسوا أهلاً لذلك ، وجمع من هذا النوع مقداراً عظيماً من المال ثم محاسبات نظار الأوقاف والعزل والتولية فيهم والمصالحات على ذلك ، وقرر على نصارى الأقباط والأروام قدراً عظيماً في كل سنة بحجة المحاسبة على الديور والكنائس . وما هو زائد الشناعة أيضاً أنه إذا ادعى مبطل على إنسان دعوى لا أصل لها

(١) أى أضاف لنفسه الرسوم التي تدفع على ذمة إثبات الورثة وقسمة الموارث

(٢) معناه أن القاضي كان يأخذ من الموظفين الجدد معلوم سنتين أو ثلاثة

بأن قال أدعى عليه بكذا وكذا من مال وغيره كتب المقيد ( كاتب المحكمة ) ذلك القول ، حقاً كان أو باطلاً معقولا أو غير معقول . ثم يظهر بطلان الدعوى أو صحة بعضها فيطالب الخصم ( المدعى عليه ) بمحصول ( رسوم ) القدر الذى ادعاه المدعى وسطره الكاتب يدفعه المدعى عليه للقاضى (١) على دور النصف الواحد أو يحبس عليه حتى يوفيه . وذلك خلاف ما يؤخذ من الخصم الآخر ، وحصل نظير ذلك لبعض من هو ملتجئ . لكتبخدا بك ( نائب محمد على باشا ) فحس على المحصول فأرسل الكتبخدا يترجى فى إطلاقه والمصالحة عن بعضه فأبى ، فعند ذلك حنق الكتبخدا بيك وأرسل من أعوانه من استخرجه من الحبس

ومن الزيادات فى نعمة الطنبور كتابة الإعلانات . وهو أنه إذا حضر عند القاضى دعوى بقاصد من عند الكتبخدا أو الباشا ( محمد على ) ليقضى فيها وقضى فيها لأحد الخصمين طلب المقضى له إعلاما بذلك إلى الكتبخدا أو الباشا يرجع به مع القاصد تقييداً وإثباتاً ، فعند ذلك لا يكتب له ذلك الإعلام إلا بما عسى لا يرضيه إلا أن يسليخ من جلده طاقاً أو طاقين . وقد حكمت عليه الضرورة . وتابع الباشا أو الكتبخدا ملازم له ويستعجله ويساعد كتبخدا القاضى عليه ويسليه على ذلك الظفر والنصرة على الخصم . مع أن الفرنسية الذين كانوا لا يتدينون بدين لما قلدوا الشيخ أحمد العريشى القضاء بين المسلمين فى المحكمة حددوا له حداً فى أخذ المحاصيل لا يتعداه بأن يأخذ على المائة اثنين فقط له منها جزء والكتاب جزء .

فلما زاد الحال وتعدى إلى أهل الدولة رتبوا هذه الجمعية ، فلما تكاملوا بمجلس بيت البكرى كتبوا عرضاً محضراً ذكروا فيه بعض هذه الاحداثات والتمسوا من ولى الأمر رفعها ويرجون من المرحم أن يجرى القاضى ويسلك فى الناس طبقاً من إحدى الطرق الثلاث : إما الطريقة التى كان عليها القضاة فى زمن الأمراء المصريين . وإما الطريقة التى كانت فى زمن الفرنسية . أو الطريقة التى كانت أيام محبى الوزير (٢) وهى الأقرب والأوفق وقد اخترناها ورضيناها بالنسبة لما هم

(١) أى أن المدعى عليه إذا حكم لصالحه يلزم مع ذلك بدفع رسوم الدعوى وهذا يخالف القاعدة المشهورة أن المدعى إذا حكم برفض دعواه يلزم هو بمصاريفها ولا يلزم المدعى عليه بشئ منها  
(٢) يوسف باشا ضيا الذى جاء عند جلاء الفرنسيين



عليه الآن من الجور ، وتمموا العرض محضراً وأطلعوا عليه الباشا فأرسله إلى القاضى فامتثل للأمر وسجل بالسجل على مريض منه ولم تسعه المخالفة ، (١)

## نتائج نظام الحكم

في حالة مصر السياسية والعمرانية

كان لنظام الحكم الذى رزحت تحته البلاد من عهد الفتح العثمانى أسوأ الأثر فى حالتها السياسية والعمرانية ، فقد زال عنها الاستقلال الذى كان مصدر عزها وعظمتها ، وصارت مسرحاً للفتن والمشادة بين السلطات الثلاث التى تنازعت الحكم فيها ، فخل ذلك دون قيام حكومة ثابتة مستقرة ترفع من شأن مصر وتقيم العدل وتحفظ الأمن بين ربوعها وتعنى بمراقبتها ، فلا غرو أن اقترن نظام الحكم بعد الفتح العثمانى بتأخر البلاد وتقهرها وتناقص عدد سكانها ، ولو قارنت بين حالتها فى ذلك العهد وحالتها من قبل حينما كانت مملكة مستقلة فى عهد الدول الفاطمية والأيوبية والبحرية والبرجية لرأيت أن البلاد قد رجعت القهقرى خطوات واسعة

## في الحالة الاقتصادية

فقد أهمل الولاة العثمانيون والبكوات المماليك أمر الري وتوزيع المياه وإقامة القناطر والجسور وحفظ الأمن ، فحقت الترع ، وتلفت الأراضى ، وتعطلت الزراعة وفقد الأمن ، وذهبت ثروة البلاد وهاجر الكثير من سكان القطر إلى البلاد المجاورة واضمحلت الصناعات والفنون التى كانت تزدهر بها مصر فى سالف العصور ، بدأت فى الاضمحلال عقب الفتح العثمانى مباشرة بسبب اضطراب الأحوال وكثرة الفتن وفقد الأمن وإسراف الجنود العثمانية فى السلب والنهب ، أضف إلى ذلك أن السلطان سليما بعد أن استقر له الأمر فى القاهرة جمع رؤساء الصناعات المتخصصين فى الفن والصناعة ونقلهم إلى الاستانة لينشروا فيها صناعاتهم وفنونهم ، فكان ذلك

(١) الجبرتي الجزء الرابع

سبباً في نضوب معين الصناعة والفن في البلاد ، وتلاشت صناعات كانت عامرة ،  
وفي ذلك يقول ابن إياس :

وإن السلطان سليم خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة من الذهب والفضة  
فضلا عن التخف والسلاح وأعمدة الرخام والصيني والنحاس، وأخذ من مصر من كل  
شيء أحسنه ، وذلك عدا ما غنمه وزراؤه من الأموال الجزيلة ، وكذلك عسكره  
فأنهم غنموا من الذهب ما لا يحصى ، وبطل من مصر نحو خمسين صنعة (١) ،

وجاء الولاة والحكام المماليك الذين تركت لهم إدارة البلاد فكان حكمهم آفة  
على الصناعة والتجارة ، وكانت مصادرتهم لأموال التجار من أهم أسباب ركود  
الحركة التجارية فاخفت رؤوس الأموال من أيدي الأهالي وغلب عليهم الفقر  
وصار الشعب إلى حالة محزنة من الضنك والفاقة

### في الحالة الصحية

وفتكت بهم الأمراض والأوبئة التي كانت تتحيف البلاد وتحتاج مئات الآلاف  
من الناس . وتأخذهم أخذاً وبيلاً ، كل ذلك والحكام يصر فهم الجهل عن  
مقاومتها (٢) وليس في البلاد طب ولا أطباء والناس متروكون لرحة المنجمين  
والخلاقين

(١) الجزء الثالث من تاريخ مصر لابن إياس

(٢) في سنة ١٠٢٨ هـ أصيبت مصر بطاعون جارف في زمن الوزير جعفر باشا لبث أربعة أشهر  
مات فيه ستمائة ألف نفس . وفي سنة ١٠٣٥ هـ أصيبت البلاد بوباء مات فيه ٣٠٠ ألف نفس . وفي سنة  
١٠٥٠ (١٦٤١ ميلادية) في زمن مقصود باشا حصل طاعون لم يسمع بمثله وخرب بهذا الطاعون ٢٣٠  
بلدة من الوجه البحري كما قال ابن أبي السرور البكري . وحدث طاعون آخر في شياخة ذي الفقار  
بك سنة ١١٤٢ (١٧٢٩ ميلادية) وطاعون في شياخة عثمان بك ، وفي سنة ١٢٠٥ (١٧٩١ ميلادية)  
أصيبت البلاد بطاعون فظيع سماه أهل مصر طاعون إسماعيل لأنه وقع في عهد مشيخته كان يموت في  
القاهرة زيادة عن ألف نفس في اليوم ومات به إسماعيل بك ومعظم مماليكه وتغيرت الحكام في اليوم  
الواحد ثلاث مرات لموتهم ومات به من سكان القاهرة نحو ستين ألفاً

## في العلوم والآداب

وفشا الجهل في البلاد ورزح الشعب تحت نير العبودية وظلام الجهالة ، وحرمت البلاد من معاهد العلم والتعليم ، ولم يبق بها سوى الجامع الأزهر الذي كان قائماً قبل عصر البسكوات المماليك وبعض المدارس الملحقة بالمساجد ، فكان الأزهر هو المعهد الوحيد الذي تدرس فيه العلوم ، ولولاه لانطفأت آخر شعلة للعلم في مصر ، وكان بالقاهرة وبعض البنادر والثغور كتابيب ينفق عليها من أموال الصدقات والأوقاف ، ولكنها كانت قليلة النفع ضعيفة الأثر في تبيد ظلام الجهالة في البلاد وذوت العلوم والآداب في مصر بعد أن كانت زاوية زاهرة ، فقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والبرجية ( الشراكسة ) حافظة مكاتها التي كانت لها من قبل ، وإليهم يرجع الفضل في إنقاذ آداب اللغة العربية من غزوات المغول التي كادت تقضي على العلوم والآداب العربية في الشرق ، فكانت مصر ملجأً للمناطقين بالضاد من فروا أمام التتار في العراق وفارس وسوريا وخراسان. وبقيت لغة حكومتها عربية في عهد تينك الدولتين ، واستظلت العلوم والآداب بحماية الملوك والسلاطين في مصر ، ونبغ فيها طائفة من فضاحل الشعراء والأدباء والعلماء ، كالבוصري صاحب البردة ، والسراج الوراق ، وابن نباتة المصري ، والقلقشندي صاحب صبح الأعشى ، والأبشيهي صاحب المستطرف ، وابن منظور صاحب لسان العرب ، وابن هشام النحوي العظيم الذي يقال فيه إنه أنجى من سيويه ، وابن عبد الظاهر ، والنواجي (١) صاحب حلبة الكميت ، والقسطلاني المحدث المشهور ، وشمس الدين السخاوي صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الأعيان ، والصفدي صاحب الوافي ، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ المحدثين في زمانه ، والعيني المؤرخ والمحدث ، وابن وصيف شاه ، وابن دقاق ، والمقريزي صاحب الخطط ، والمسكين بن العميد ، وأبو الفداء (٢) المؤرخ الجغرافي المشهور

(١) نسبة لإ نواج إحدى قرى مديرية الغربية

(٢) هو الملك المؤيد صاحب حماة ، ولاحظ أن الدولة المصرية كانت في ذلك العصر تضم سوريا إلى أملاكها

صاحب تقويم البلدان ، والذهبي ، والنويرى صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب ،  
وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الألبصار في ممالك الأمصار ، وابن عقيل ،  
وابن تفرى بردى صاحب النجوم الزاهرة ، وجلال الدين السيوطى صاحب  
التآليف الشهيرة فى التفسير والعلوم الشرعية والتاريخ والأدب واللغة ، وهو آخر  
من ظهر فى ذلك العصر من كبار العلماء بمصر ، والدميرى صاحب حياة الحيوان ،  
وابن إياس المؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى

وقد استضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة فى الشرق ،  
كالإمام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون

أما فى عهد الولاية العثمانية والبسكوات المماليك فقد اضمحلت الآداب العربية  
وجمدت القرائح وركدت حركة العلم ، ولاغرابة فى ذلك فإن القاهرة صارت مركز  
ولاية تابعة للإستانة بعد أن كانت عاصمة دولة مستقلة ، بل عاصمة العالم العربى كله ،  
وصارت مخاطبات السلاطين والولاية باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان  
الحكومة اذغاية انتهاء دولة السلاطين البرجية ، وتقهقرت البلاد وساءت إدارتها ،  
فأثرت هذه الأسباب مجتمعة فى حالة العلوم والآداب وآلت إلى الاضمحلال  
والذواء ، واندثرت المدارس التى كانت زاهرة فى عهد الفاطميين والأيوبيين  
وخلفائهم السلاطين البحرية والبرجية ، وتبددت خزائن الكتب التى يرجع إنشاؤها  
إلى عهد الفاطميين ولم يبق منها إلا بعض المسكاتب الملحقة بالمساجد كمكتبة الأزهر  
التى كان بها إلى عهد الحملة الفرنسية نحو ٣٣٠٠٠ مجلد

قال المرحوم على باشا مبارك يصف إهمال شأن المدارس فى مصر مدة ثلاثة  
قرون متوالية :

« من ابتداء القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر (١) يعنى مدة ثلاثة قرون قد  
أهمل أمر المدارس وامتدت أيدي الأطماع إلى أوقافها ، وتصرف فيها النظر على  
خلاف شروط وقفها ، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا

(١) وهذه المدة يقع معظمها فى عهد الحكم العثمانى

مفارقها، وصار ذلك يزيدنى كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد حتى انقطع التدريس فيها بالكلية، وبيعت كتبها وانتهت، ثم أخذت تتشعث وتتخرب من عدم الالتفات إلى عمارتها ومرمتها، فامتدت أيدي الناس والظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمباني الجميلة إلى زاوية صغيرة تراها مغلقة في أغلب الأيام وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشاً أو غير ذلك، والله عاقبة الأمور (١)،

هذه صورة لما آلت إليه العلوم والآداب من الاضمحلال والذواء في عهد الحكم العثماني، من أجل ذلك قلنا نبغ من عهد الفتح للتركي شاعر أو عالم أو أديب، ولا تكاد تعد في هذا العصر سوى شهاب الدين الخفاجي . والسيد محمد مرتضى الزبيدي العالم اللغوي المشهور صاحب تاج العروس في شرح جواهر القاموس، وأصله من اليمن واستوطن مصر وتوفي بها، وعبد الوهاب الشعراني صاحب الطبقات وغيرها من المصنفات الكثيرة، وابن أبي السرور البكري الصديقي صاحب الروضة المأنوسة، والصبان، وعبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور. ولو تأملت في تراجم من ذكرهم الجبرتي في كتابه من علماء ذلك العصر لما رأيت منهم من يصح اعتباره عالماً ناهياً في الفلسفة أو العلوم والآداب، واقتصر التدريس في الأزهر على العلوم الفقهية واللسانية، وبطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التي كان يدرسها أسلافهم والتي كانت تزدهر بها جامعات بغداد وقرطبة في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، واعتزل الأزهر النهضة العلمية الأوروبية الحديثة فبعدت، الشقة بينه وبين التقدم العلمي القديم والحديث، واقتصر المؤلفون من علمائه على النقل ووضع الشروح والحواشي والتقارير والتعليقات ونحوها مما لا يمكن أن يكون أساساً لنهضة علمية صحيحة، وانحط أسلوب الكتابة حتى قرب من العامية وكان المجيدون من الكتاب والأدباء لا يتوخون في كتابتهم إلا تنميق العبارات بالسجع الركيك والمحسنات البديعة كالجناس والتورية، واضمحلت روح البلاغة، ولم يبق في متناول

الجمهور من آثار الآداب العربية سوى قصص أبي زيد الهلالي وعنترة والزنادي خليفة  
وما إلى ذلك ، وتضاءلت مكانة الشعر والأدب لدرجة أن كاتبة وشاعر ، كانت تطلق  
على جماعة يجلسون في القهوات ويلقون على مسامع الجماهير قصص أبي زيد والظاهر  
بيبرس وينشدونها على نفحات الربابة

هذا التقهقر هو نتيجة حكم الولاة الأتراك والبكوات المماليك ، ومن الواجب  
أن نفرق بين عهد البكوات المماليك وعهد السلاطين المماليك من الدولتين البحرية  
والبرجية ، فإن عهد هؤلاء كان عهد عمران وحضارة ، وعلى ما كان يتخلله من المظالم فقد  
كان كثير من السلاطين ذوى علم وأدب وثقافة لقرب عهدهم بعصر الحضارة الإسلامية  
أما حكم البكوات المماليك فكان عصر تأخر وجهالة ، وكانوا هم والولاة الأتراك  
علة ما أصاب البلاد من التقهقر ، ومن الخطأ أن يظن بعض المؤرخين أن البكوات  
المماليك ظلوا على توالى السنين سلالة الدولتين البحرية والبرجية ، فإن المعروف أن  
أفواج المماليك كانت ترد إلى مصر من بلاد الشركس والقوقاز ، فالصلة التي كانت  
تربط المماليك بالدولتين البحرية والبرجية عند الفتح العثماني قد انقطعت مع الزمن ،  
أضف إلى ذلك أن المماليك كان معروفاً عنهم العقم وقلة النسل ، وكانت ذريتهم  
تنقرض ونسلهم ينقطع في جيل أو جيلين فكانوا يسدون النقص الذي يبدو في  
صفوفهم بشراء أفواج الأرقاء من أسواق الرقيق ، وإذا تأملت في تراجم البكوات  
المماليك الذين ذكروهم الجبرتي في تاريخه تجد أنهم ليسوا من سلالة الدولتين البحرية  
والبرجية بل هم مجلوبون من أسواق الرقيق ، وليس فيهم أحد لم يكن أصله مملوكاً  
اشتراه أحد المماليك

والآن وقد اتهمنا من الكلام على نتائج نظام الحكم في ذلك العصر ، فلننتقل  
إلى وصف الحالة في مصر عند مجيء الحملة الفرنسية

### الحالة الاجتماعية والاقتصادية في مصر

عند مجيء الحملة الفرنسية

من الواجب أن ندرس الهيئة الاجتماعية التي كانت تتألف منها الأمة المصرية

في أواخر القرن الثامن عشر ، لأن في هذه الهيئة نبتت الفكرة الأولى للروح القومية في مصر عند اصطدامها بالحملة الفرنسية

يبلغ عدد سكان مصر في ذلك الحين ثلاثة ملايين ، ينقسمون إلى حكام ومحكومين . فالمحكومون هم الشعب المصري والحكام هم فئة المماليك الذين استبدوا بحكم البلاد وكان عدد المقاتلة منهم يتراوح بين تسعة وعشرة آلاف مملوك (١) ما بين مقدمين وأمراء وكشاف وضباط وجاقات وأجناد وأتباع . وكان عددهم لا يزيد بالتناسل لأنهم قليلو النسل كما قدمنا ، فكانوا يتممون نقصهم ويحفظون عددهم وعصبيتهم بالأرقاء يشترونهم قتياناً وفتيات من الشركس الذين كانوا يباعون في أسواق الرقيق بالاستانة فيعتنون بتربيتهم وكثيراً ما يعتقونهم فيصبحون أحراراً ولكنهم يحفظون عهد أسيادهم ويكونون من حزبهم وعصبيتهم ، فمن هؤلاء المماليك أحراراً أو أرقاء يتكون جيش المماليك في مصر

أما الشعب المصري فهو سلالة الفراعنة والعرب ، امتزج به الدم المصري القديم بالدم العربي ، وكان يتألف من عدة طبقات اجتماعية نذكر حالة كل منها

### العلماء

فأولاها طبقة العلماء ورجال الشرع ، وكان لهم في ذلك العهد تأثير عظيم في نفوس الأمة وقيادة أفكارها ، ولهم الزعامة الأدبية والسياسية بين الجماهير ، وإليهم يرجع تدبير الحركات التي ظهرت على مسرح الحوادث السياسية في مصر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر كما تراه مبسوطاً في فصول الكتاب

### الملاك والتجار

وطبقة الملاك والتجار ، وهي تشمل الحضريين سكان المدن والأقاليم ذوى الثروات المتوسطة ، وفيهم عدد قليل من أغنياء الملاك والتجار ، ويلحق بهذه الطبقة بعض الوجافلية ، أى ضباط الفرق وكذلك الأفندية ، كتاب الدواوين وغيرهم

(١) تجد تفصيلاً وافياً عن عدد المماليك في الفصل السابع

من سلالة العثمانيين الذين استوطنوا البلاد واقتنوا بها البيوت والأماكن وصاهروا أهلها وناسبواهم فاندمجوا مع الزمن في الشعب المصري وصاروا في عداد أفرادهم ، وبعد كثير من العلماء من طبقة الملاك بما كانوا يملكون من الدور والأراضي ، ومن الملاك طبقة الأعيان في البنادر والأقاليم ، وفيهم فئة من كبار الأعيان عرفوا بسعة الثروة وبسطة الجاه وهم سلالة البيوت المصرية القديمة الذين احتفظوا بعصبيتهم نما استكثروا من الأتباع والأشياء والأرقاء وما اقتنوه من الأملاك والضياع الواسعة التي كانت تعد بالقرى ، وسيرد أسماء بعضهم في خلال فصول الكتاب ، وكانت لهم سطوة يرهبا الحكام المماليك فكانوا يتقونهم ويحاملونهم بالمدارة ويتركون لهم في مناطقهم شبه استقلال ذاتي

أما التجار فكانوا يشغلون حيزاً كبيراً في المجتمع المصري ، وكانوا أغنى طبقات الشعب ، ذلك أن الزراعة كانوا أكثر استهدافاً لمظالم الحكام وفداحة الضرائب التي تحرمهم ثمرة كدهم وتجعلهم في حالة فقر مستمر ، والصناع كانوا عادة من الطبقات الفقيرة ، لكن شأن التجار غير هذا الشأن ، فكانوا إلى حد ما أحسن حالا وأرقى مستوى من الطبقات الأخرى ، ووصل بعضهم إلى درجة عظيمة من الثراء والجاه وابتنوا القصور والوكالات ، واتسعت تجارتهم الخارجية ، وكانوا يستمدون ثروتهم من نشاطهم ومن مركز مصر التجاري ، فغير خاف أن مركز مصر الجغرافي يجعل منها الملتقى الطبيعي للقارات الثلاث أفريقيا وآسيا وأوروبا ، وكانت متاجر الهند لا تصل إلى أوروبا إلا معرجة بمصر ، فنالت مصر من هذه الوجهة مركزاً تجارياً ممتازاً وصارت تجارة الشرق بيدها ، وربحت منها المكاسب الطائلة ، لكنها بدأت تفقد هذا المركز الممتاز من يوم أن تم للرحالة البرتغالي فاسكو دي جاما الطواف حول القارة الإفريقية واجتياز طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند (سنة ١٤٩٧ - ١٤٩٨) فقد أخذت تجارة الهند تتحول من مصر إلى طريق المحيط الأطلنطي فبدأت منزلة مصر التجارية تضمحل من أوائل القرن السادس عشر ، وزاد في اضمحلالها زوال الاستقلال عنها بدخولها في حوزة الحكم العثماني سنة ١٥١٧ ، وضياع أسطولها الذي كان لها في عهد السلطنة المصرية ، وتقهرها



في عهد الولاة العثمانيين والبكوات والماليك ، على أنها وإن أصابها ما أصابها من  
التقهقر والاضمحلال كانت في ذلك العهد سوقا للمتاجر الواردة إليها من الشرق  
والغرب ، فكانت ترفأ إليها السفن قادمة من أوروبا وسوريا والأناضول وثور  
البحر الأحمر ، وتصل إليها قوافل التجارة من السودان والحبشة وبطن أفريقيا  
ومراكش والجزائر وتونس وطرابلس . وكذلك كانت تصل إليها القوافل والسفن  
من فلسطين وسوريا وبلاد العرب ، فكانت بكل ذلك ملتقى التجارة من سائر  
الأقطار ، تجميعها القوافل من السودان ودارفور حاملة العاج والتبر والصبغ العربي  
وريش النعام والتمر الهندي والجلود والرقيق والكحل وقرن الخرتيت والشب  
والنظرون ، وتنقل حاملة منسوجات مصر وحاصلاتها وحاصلات البلاد الأخرى  
التي تستوردها ، وكذلك تجيء القوافل من فزان وبلاد المغرب حاملة الأصواف  
والشيلان البيضاء والطرايش والأحذية (البليغ) والأردية الصوفية المعروفة  
(بالبرانس) وأغطية الصوف المعروفة بالأحرمة ، وزيت الزيتون ، والعسل والشمع  
والسمن ، وتجلب من الهند ومن بلاد السلطنة العثمانية ( الأناضول وسوريا واليمن  
والحجاز) الحرير والبن والبهار وأنواع الطيب والعطور والتوابل والأبارير والعقاقير  
والتبغ والخشب والصابون والزيت والشيلان الكشمير والفواكه ، وتستورد من  
أوروبا الأجواخ والقطيفة والحرير والساتان والورق والجواهر والحلي والحديد  
والنحاس والخشب والرخام والزجاج والمرايا والخزف والصيني والأسلحة وغير  
ذلك ، كما كانت تصدر إلى أوروبا الأرز والغلل وبعض المنسوجات القطنية التي  
تصنع في القاهرة والمحلة الكبرى ورشيد ، وتصدر إليها كذلك الحاصلات والبضائع  
التي كانت ترد إليها من أفريقيا وآسيا وأهم هذه الأصناف البن الذي كان يرد لها  
من اليمن

قال المسيو جيرار Girard وكيل إدارة الري في عهد الحملة الفرنسية يصف  
مركز مصر التجاري في أواخر القرن الثامن عشر :

« إن الحاصلات التي تنتجها أنحاء القطر المصري تتبادلها المدن والقرى فتأخذ  
منها حد كفايتها ، وما فضل منها يصدر من مصر مع ما تنتجه الصناعة المصرية إلى

الأقطار الأفريقية وبعض البلاد الأوروبية، فيباع فيها بثمانه أو بعوض منه بضائع من التجارة أو عروضها، وقد كان لمركز مصر فضل كبير في جعلها ملتقى ومستودعاً للتجارة الخارجية،

وقد اجتذب هذا المركز التجارى عدداً من الجاليات الأجنبية سوادهم من الإيطاليين وبخاصة سكان البندقية (فينيسيا) والفرنسيين والأروام وكانوا يقيمون في القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط

ثم كان لمصر جمارك في ثغورها التجارية وهي القاهرة، ومصر القديمة، وبولاق والقصير، والسويس، ودمياط، ورشيد، والاسكندرية، فأما جمرك القصير فكان متروكا لحكام الجهات القبلية، وأما جمارك باقي الثغور فكانت مقسمة بين مراد بك وإبراهيم بك، فاختص مراد بك بجمارك القاهرة، وبولاق، ومصر القديمة ورشيد، ودمياط، والاسكندرية. واختص إبراهيم بك بجمرك السويس وكان أكثر حركة وإيراداً لأن إليه ترد معظم بضائع الهند وبلاد العرب، وكان إيراده وحده يعدل إيراد جمارك القاهرة ودمياط ورشيد والاسكندرية جميعاً، وكان إبراهيم بك يقيم من أتباعه عمالاً يحصلون مكوس الجمرك بخلاف مراد بك فإنه أعطى جمارك الثغور التي كانت في قسمته لأربعة دملتزمين، وجعل على كل منهم خراجاً معيناً يؤدي إليه في أوقاته وينالون هم إيراد الجمارك لأنفسهم ويتكفلون بمصاريف إدارتها كرتبات الكتبة والعمال، وكان إيراد جمارك القطر المصرى وقتئذ نحو ثلاثة ملايين فرنك (١) (١٢٠٠.٠٠٠ جنيه) تحتسب فيها المصاريف وأرباح الملتزمين

### طبقة المزارعين « الفلاحين »

ومنهم يتكون الشطر الأكبر من الأمة، وكانوا في حالة يرثى لها من الجهل والفاقة وكانت الزراعة في تقهقر وتأخر بسبب حرمان البلاد من منشآت للرى

(١) كما يقدرها السيو واستيف في كتاب تخطيط مصر الجزء الثاني عشر

والصرف تضمن استخدام مياه النيل وتوزيعها ، ولخرمان البلاد من حكومة عادلة توطن الأمن وتضمن حقوق الأفراد ، كانت الزراعات المعروفة في مصر هي الحبوب وما إليها كالقمح ، والأرز ، والذرة ، والشعير ، والفول ، والعدس ، والخص ، والترمس ، والحلبة ، والحنا ، والزعفران ، والبرسيم ، والنيلة ، والقنب ( التيل ) والسكتان ، والبصل ، والسوسم ، والسليج ، والقرطم ، والعصفر ، والخضر ، والفواكه . والثمار كالبطخ على اختلاف أنواعه ، والغنم ، والبطيخ ، والشمام ، والضميرى ، والموز ، والرمان ، والتين ، والبرتقال ، والليمون ، وكان البلح - ولم يزل - أكثر فواكه مصر وفرة

وكان القطن يزرع في بعض جهات الوجه البحرى والصعيد ، ذكر المسيو ( جيرار ) Girard في رسالة له عن حالة الزراعة في مصر عهدئذ أنه شاهد زراعة القطن في الدلتا والوجه القبلى ، فقطن الوجه القبلى كان يزرع ويبقى قائماً على سوقه مدة تتراوح بين ثمانى وعشر سنوات ، ففي السنوات الثلاث الأولى يزرع بين شجيرات بعض الخضر وبخاصة البامية ، وفي السنوات السبع الباقية تبقى شجيرات القطن قائمة وحدها ، وقال عن قطن الدلتا إنه كان يزرع سنويا وكان يروى ثلاث مرات في السنة خلال خمسة أشهر ، وقال إن محصول الفدان بجهة سمبود يغل قنطاراً ونصفاً أو قنطارين كل قنطار ١٢٠ رطلاً وإن ثمن القنطار ١٦ ريالاً

وقال إن قطن الوجه القبلى كان ينسج في مصانع الأقمشة في القطر المصرى (١) وذكر طريقة حليج القطن فقال إنها في غاية البساطة يتخذ لها اسطواناتان تدوران حول محورهما متقابلتين . وهذه المشاهدات رآها جيرار في خلال رحلاته في الوجه البحرى والقبلى سنة ١٧٩٩ سنة ١٨٠٠ وأوائل سنة ١٨٠١

وغنى عن البيان أن هذا القطن كان من صنف ردىء ، أما القطن الحديث فلم تدخل زراعته في مصر إلا في عهد محمد على الكبير حوالى سنة ١٨٢٠ وكذلك كان يزرع قصب السكر ولكن بمقادير قليلة ، ذكر المسيو جيرار في

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء ١٧

رسالته المتقدمة أن زراعة القصب كانت كثيرة النفقات لا يقبل عليها إلا قليل من الزراع وكانت منحصرة تقريباً في مديرية جرجا بجحات فرشوط (١) واخميم وفيها مصانع للسكر ، وكان يزرع أيضاً في مديرية اطفيح بمقادير كثيرة ويزرع القليل منه في بعض بلاد البحري ولكنه لا يصنع منه السكر بل يباع كفاكة ، وكانت مصر تصدر السكر لبعض بلاد السلطنة العثمانية ، ويزرع التبغ في بعض جهات الصعيد ، ويزرع الورد بكميات وافرة في الفيوم ومنه يستقطر ماء الورد في مدينة الفيوم والقاهرة

### الصناع والصناعات

لم تكن البلاد تعرف الصناعات الكبرى ، واقتصر الشأن فيها على الصناعات الصغرى ، وكان الصناع العمال يذتظمون في طوائف تشبه نقابات الصناع الحالية لكل حرفة طائفة يرأسها شيخ يسمى ( شيخ الطائفة ) وإليه النظر في شؤونها ، ولمشاخ الطوائف الصناعية نواب أو وكلاء يعرفون بالنقباء يختارهم إما حكام المدن التي يقيمون بها وإما السلطة العليا في القاهرة ، فكلما أرادت الحكومة النظر في نظام تلك الطوائف أو تحصيل ما تفرضه عليها من الفرض خاطبت في ذلك مشيختها فيتمولون توزيع الغرم المطلوب على أفراد الطائفة ، وكان لنظام الطوائف بعض المزايا في ترقية شؤون الصناعة والصناع وتعليم المبتدئين منهم أسرار الصناعة فكان لكل صناعة مدة تمرين يتدرب العمال خلالها على العمل فيها فإذا أراد الصبي المتعلم أن يصير معلماً ، أو أسطى ، بعد حذقه الصناعة التي اختارها ذهب إلى شيخ الطائفة مصحوباً بعمله ويشهد له المعلم بأنه أتقن الصناعة ومهر فيها وعندئذ ينادى به الشيخ عضواً من أعضاء الطائفة

وكانت الصناعات الصغرى منتشرة ومتفرعة إلى فروع عدة (٢)

(١) فرشوط التابعة الآن لمديرية قنا

(٢) رجعتنا في التقسيم ( مع شيء من التصرف ) إلى بحث لسيو جومار الذي شاهد صناعات

مصر في ذلك العصر

فباب الناصرية فباب السيدة زينب ، وكان موقع المدينة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل وبينها وبينه مزارع

وإذا أردت أن تعرف الفرق بين عمرانها في ذلك العصر وحدوده في العصر الحاضر فحسبك ملاحظة بعض المعالم المعروفة في العصرين ، فجامع الظاهر مثلاً وهو الكائن الآن بميدان الظاهر كان خارج باب الحسينية وخارج مباني القاهرة ، وكان باب الحديد نهاية حدود مباني القاهرة من الشمال الغربي . والأزبكية والمباني التي حولها نهاية العمران غرباً ، والطريق بينها وبين بولاق مقفرة خالية من العمران لذلك كانت بولاق تعد من ضواحي العاصمة ، كما كانت مصر القديمة أيضاً ، وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق ولم يكن على شاطئ النيل سوى بعض مباني قليلة كقصر إبراهيم بك ( قصر العيني ) تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرنؤوطي وعن شماله بيت لمصطفى بك

وكانت بولاق مرفأ القاهرة في الشمال ، ومصر القديمة مرفأها من الجنوب ، فبولاق هي فرضة تجارة الوجه البحري ، ومصر القديمة فرضة تجارة الوجه القبلي ، وكانت مقر أبحر القاهرة ، وصفها المسيو جومار أحد مهندسي الحملة الفرنسية في رسالته عن تخطيط القاهرة ، وما لفت نظره فيها كثرة وكائنها التجارية ووفرة الغلال التي كانت تكس على ساحل النيل دون جراسة وبغير أن توضع في مخازن ، قال المسيو جومار إن الثقة بين الناس في مصر كانت على أتم ما يكون بحيث لم يكن ثم خوف من أن تمتد يد إلى تلك الغلال (١) ، وهذا يدل على أن الصدق والأمانة كانا من فضائل الخلق المصري

وكانت شوارع القاهرة ضيقة كثيرة التعاريج ، وأطولها هو الموصل بين باب الحسينية إلى باب السيدة نفيسة وطوله أربعة آلاف وستماية وأربعة عشر متراً ، ولم يكن بها سوى أربعة ميادين وهي ميدان قراميدان تحت القلعة ، وميدان الرميطة

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

المجاور لقراميدان ويفصلهما باب اسمه باب قراميدان، وميدان بركة الفيل، وميدان الأزبكية، ويسمى بركة الأزبكية، وعفست الميادين والرحاب والمنتزهات التي تكلم عنها المقرئ في خطه كما درست قصور الخلفاء والسلاطين وما شيدوه من العماير والمناظر والدواوين والمدارس ودور الكتب وغيرها من معالم الحضارة والعمران

وكان ميدان الأزبكية (أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها) أجمل الميادين الأربعة تحيط به القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان، وفي أيام الفيضان يمتلئ بمياه النيل فيصير لجة من الماء يتنزه فيها الناس بالزوارق في النهار والليل؛ وفي المساء توقد المصابيح من البيوت المطلة عليه فيكون منظر الميدان من أهبج المناظر ولا سيما في الليالي المقمرة، وقد نقل الجبرتي في كتابه ما قاله الشيخ حسن العطار أحد أدباء ذلك العصر في وصف ميدان الأزبكية قال:

«وأما بركة الأزبكية فهي مسكن الأمراء وموطن الرؤساء، وقد أهدقت بها البساتين الوافرة الظلال، العديمة المثال، فترى الخضرة في خلال تلك القصور المبيضة، كثياب سندس خضر على أبواب من فضة، يوقد بها كثير من السرج والشموع، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع، وجمالها يدخل على القلب السرور ويذهل العقل حتى كأنه من المشوة مخمور،

فهذا الوصف يعطيك فكرة عما كانت عليه الأزبكية في ذلك العصر وأنها كانت كما هي الآن مثابة الحظوظ والمسرات

وكان بالقاهرة كثير من الأبنية المتخربة، ولا غرو فقد تناقص عمرانها في خلال حكم الولاة الأتراك والبسكوات المماليك، واستمر الهدم والتخريب في عهد الحملة الفرنسية كما سيحكي بيانه، وكانت مقسمة إلى أثمان وأخطاط كل خط يحتوي على شوارع والشوارع بها دروب وحرارات وعطفات وأغلب الحرارات والعطفات غير نافذة إلا إلى الدرب، فكانت المدينة أشبه بعدة قرى مجتمعة، والدروب والعطفات والحرارات عليها (بوابات) بكل بوابة تعلق عند العشاء وينام

خلفها بواب يؤجر من أهلها ، ولا يتأخر أحد بعد العشاء وراء الحارة إلا لضرورة ولم يكن للحكام أية فكرة في العناية بأمر النظافة والصحة العامة فسامت حالة المدينة من هذه الجهة وشاعت فيها الأمراض

وبالرغم مما أصاب البلاد والعاصمة من التأخر في خلال العصور فإن عظمتها القديمة قد تغلبت على عوامل الفناء وسوء الإدارة ، فقد كانت أعظم بلاد الشرق قاطبة بعد الاستانة ، وكان بها كثير من المساجد والمعابد الجميلة وكثير من القصور والمعاهد ودور الكتب الملحقة بها والحمامات ، وبها كثير من الأسواق التجارية الكبيرة والخانات والمخازن (الوكائل) التي تجلب إليها البضائع من مختلف الأقطار ويبلغ عدد سكان القاهرة في ذلك العصر حوالي ٣٠٠.٠٠٠ نسمة ؛ وهذا الإحصاء مأخوذ عن تقدير الإفرنج الذين كانوا يسكنون العاصمة قبيل الحملة الفرنسية وفيه بيان الطبقات التي يتألف منها هذا العدد كما يلي (١) :

جهادية ومماليك	١٢ر٠٠٠
ملاك وفيهم العلماء	٦ر٠٠٠
تجار الجملة	٤ر٠٠٠
صناع ورؤساء حرف	٢٥ر٠٠٠
صغار التجار	٥ر٠٠٠
قهوجية وكان بالقاهرة ١٢٠٠ قهوة وفي بولاق ١٠٠ وفي مصر القديمة ٥٠	٢ر٠٠٠
سقاءون وخدم وأتباع وسراري وجواري	٣٠ر٠٠٠
عمال وحاملون	١٥ر٠٠٠
نساء	١٢٦ر٠٠٠
أطفال ذكور وإناث	٧٥ر٠٠٠
المجموع	٣٠٠ر٠٠٠

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر

ويقول المسيو جومار Jomard (١) إن في هذا العدد شيئاً من المبالغة لأنه لم يكن مبنياً على إحصاء فعلي ويقدر هو عدد سكان العاصمة بـ ٢٦٣.٠٠٠ نسمة (٢) ويقدرهم الكولونيل جاكوتان Jacotin (٣) بـ ٢٥٣.٢١٠ نسمة ، وكان أهم المدن بعد العاصمة الإسكندرية وعدد سكانها ٨.٠٠٠ نسمة ، ورشيد ١٣.٠٠٠ نسمة ، ودمياط ٢.٠٠٠ ، والمحلة الكبرى ١.٧٥٠ . وسمنود ٥.٠٠٠ ، والمنصورة ٧٥٠٠ ، وقلوب ٤.٥٠٠ ، وبلبيس ٣.٠٠٠ ، ومنوف ٤.٠٠٠ ، وطنطا ١.٠٠٠٠ ، وأسيوط ١٢.٠٠٠ ، وجرجا ٧.٠٠٠ ، وبني سويف ٥.٠٠٠ ، ومدينة الفيوم ٥.٠٠٠ ، واطفيح ٤.٠٠٠ ، والجيزة ٣.٠٠٠ ، وقنا ٥.٠٠٠ ، وادفو ٢.٠٠٠

وهذا التعداد مأخوذ معظمه عن إحصاء مهندسى الحملة الفرنسية

---

(١) أحد مهندسى الحملة الفرنسية . انظر ترجمته في الفصل الرابع

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

(٣) من مهندسى الحملة الفرنسية . انظر ترجمته في الفصل الرابع



## الفصل الثاني

### تطور نظام الحكم

في عهد الحملة الفرنسية

تبدلت الحال غير الحال في عهد الحملة الفرنسية وطراً على نظام الحكم في مصر  
تغييرات ذات خطر وشأن كان لها نتائج بعيدة المدى في حالة البلاد السياسية  
والاجتماعية

قبل أن نتكلم عن هذه التغييرات يحفل بنا أن نقول كلمة عن الحملة الفرنسية  
ووقائعها لنقرن الأسباب بمسبباتها ، ونصل النتائج بمقدماتها

### أسباب الحملة الفرنسية

الحملة الفرنسية هي دور من أدوار التنازع الذي قام بين فرنسا وإنجلترا على  
الفتح والاستعمار ، ذلك التنازع الذي يرجع عهده إلى القرن السابع عشر ، واستمر  
خلال القرن الثامن عشر ، ثم اتخذ طوراً جديداً بعد الانقلاب العظيم المعروف  
بالثورة الفرنسية

إن الثورة الفرنسية قد دكت معالم النظام القديم في فرنسا وكان من نتائجها  
سقوط الملكية وإعلان الجمهورية سنة ١٧٩٢

تألبت الدول الملكية في أوروبا على الجمهورية الفرنسية واثمرت بها للقضاء  
على الثورة وقتلها في مهدها قبل أن يظفي تيارها ، ولما دخلت إنجلترا في الميدان  
كانت هي روح التحالف وقوام تلك المؤامرة ، واستمرت الحرب سجالاتاً بين  
الفریقین إلى سنة ١٧٩٥ ، فلما جاءت سنة ١٧٩٦ زحفت الجنود الفرنسية على شمال

إيطاليا بقيادة نابليون بونابرت (١) ، فظهرت عبقرية ذلك القائد العظيم في ميادين القتال بما أحرزه من الانتصارات الساحقة على الجيوش النمساوية في «حروب إيطاليا» ، تجلت مواهبه الحربية وبهر القواد بخطظه الحديثة وابتكاراته العظيمة ، وذاع صيته في الآفاق بما ناله من الفوز في وقائع عديدة أهمها واقعة منتوت Montenotte (أبريل سنة ١٧٩٦) ، ولودي Lodi (مايو) وكاستجليون Castiglione (أغسطس) ، وأركول Arcole (١٥ - ١٧ نوفمبر) وريفولي Rivoli (١٤ يناير سنة ١٧٩٧) (٢) وفتح مملكة السيمونت ، وPiemont واكتسح سهول لومبارديا ، ودانت له إيطاليا وظل يتابع انتصاراته حتى تهدد فينا عاصمة النمسا ، فاضطرت إلى طلب

(١) ولد نابليون بونابرت في مدينة اجا كسيو Ajaccio عاصمة مدينة فرسقة (كورسكا) في ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ واسم أبيه كارلو ماريادي بونابارته Carlo Maria di Bunaparte وهو من أسرة أصلها إيطالي ، وكانت جزيرة كورسكا تابعة لجمهورية جنوى واستولت عليها فرنسا سنة ١٧٦٨مى قبل ولادة نابليون بسنة ، فهو إيطالي الأصل فرنسى المولد والجبرتي يسميه (بونابرت) وهذه التسمية تنطبق كما ترى على النطق الإيطالي لاسمه واسم والده ، وقد عرف في مصر بهذا الاسم ولم يذكره الجبرتي باسم نابليون قط ، لأنه إلى ذلك العهد كان يعرف بالجنرال بونابرت ، ولم يقل عليه اسم نابليون إلا من يوم أن نودي به إمبراطوراً سنة ١٨٠٤ ثم صار هذا الاسم عملاً له في التاريخ تلقى نابليون دروسه الأولى في مدرسة أجا كسيو ثم التحق بمدرسة بريين Brienne الحربية بفرنسا ، وكانت تحايل الذكاء والنبوغ تبدو عليه في صباه ثم دخل مدرسة باريس الحربية سنة ١٧٨٤ وانتظم في سلك المدفعية وجاز الامتحان سنة ١٧٨٥ والتحق بالجيش ، ولما شبت الثورة الفرنسية انضم إليها وبعد أن أعلنت فرنسا الحرب على النمسا على إنجلترا وهولانده وأسبانيا تخرج مركز فرنسا وأحاط بها الأعداء من كل جانب ، واحتل الإنجليز ستة ١٧٩٣ طولون ميناء فرنسا البحرية على البحر الأبيض المتوسط فظهر نبوغ نابليون الحربي في حصار طولون وكان له الفضل في اسرجاعها ، وعهدت إليه الحكومة بمهمة الدفاع عن الجمعية الوطنية وإخماد فتنة الخارجين عليها سنة ١٧٩٥ فأخمد الفتنة وأقصد الجمعية الوطنية ، ثم عينته الحكومة قائداً للجيش الفرنسي في حرب إيطاليا سنة ١٧٩٦ فظهرت فيها عبقرته الحربية ، وبعد انتهاء الحملة على إيطاليا أعقبها الحملة على مصر كما ترى في سياق الكلام ، وبعد أن عاد نابليون من مصر سنة ١٧٩٩ قلب نظام الحكم في فرنسا ونودي به قنصلاً أول ثم إمبراطوراً سنة ١٨٠٤ ، وساق جيوشه على أوروبا فقلها على أمرها إلى أن أخذ نجمه في الأقول وانتهت حروبه بهزيمة في واقعة واترلو سنة ١٨١٥ ووقوعه أسيراً في يد الإنجليز ، فنقوه إلى سنت هيلين وبقي في هذه الجزيرة النائية بالاقيانوس يعانى غصص النفي وإدبار الدهر إلى أن مات بها سنة ١٨٢١

(٢) أسر نابليون من الجيوش النمساوية في تلك الوقائع ١٥٠٠٠ أسير وغنم منهم ١٧٠ راية و٥٥٠ مدفعاً من مدافع الحصار و٦٠٠ مدفع من مدافع الميدان ، عدا السفن الحربية التي استولى عليها.

الصلح وعقدت وإياه هدنة ليوبن في ١٨ أبريل سنة ١٧٩٧ وأملى عليها شروط الصلح في كامبو فورميو Compo Formio (١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٧) فخرجت فرنسا من الحرب وقد تملكّت بلاد البلجيك وماينس Mayence . وامتدت حدودها إلى نهر الرين وبسطت نفوذها في ربوع إيطاليا ، وامتد نفوذها إلى بحر الأدرياتيك واستولت على الجزائر الأيونية Ioniennes ، وأصبح لها المقام الأسمى في القارة الأوروبية ، كل ذلك بفضل الانتصارات التي أحرزها نابليون وهو بعد لم يتجاوز الثامنة والعشرين

فازت فرنسا على الحلفاء في القارة الأوروبية ، لكن إنجلترا التي كانت أقوى الحلفاء شكّمة وأشدّهم مراساً بقيت بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها في البحار بما من من ضربات نابليون وانتصاراته . ففكر في ميدان حرب يقهر فيه إنجلترا ، فوجد أن مصر هي ذلك الميدان

اتجهت أطباع نابليون إلى فتح مصر عقب انتصاراته في حروب إيطاليا، وحدثته نفسه أن يعدّ المعدات ويمهد الطريق لإنفاذ حملة كبيرة تخترق البحر الأبيض المتوسط وتحتل مصر فتتخذها قاعدة عسكرية تصل منها إلى الأملاك الإنجليزية في الهند ، وهو مشروع بعيد المدى كثير العقبات يكاد يكون أقرب إلى الأمان والأحلام ، ولا غرو فإن انتصارات نابليون في إيطاليا قد مكنت له في الأرض وطيرت ذكره في الخائفين وجعلته يطمح إلى انتصارات أعظم . وفتوحات أكبر ، فاتجهت آماله إلى الشرق موطن الفتوحات العظيمة ، ولعل مقامه في إيطاليا موطن يوليوس قيصر ، وعلى مقربة من مقدونية موطن الإسكندر قد أوحى إليه أن يقلد قيصر الروماني والإسكندر المقدوني في فتوحاتهما الواسعة ، فاختر مصر ليجعلها ميداناً لانتصارات جديدة . واجتذبت عظمة مصر القديمة ، فخيّل له أن يشيد على ضفاف النيل دولة شرقية عظيمة تحقق ما كان يحير في صدره من الآمال الكبار ويصل منها إلى ضرب إنجلترا عدوة فرنسا اللدود في ذلك الحين ، فالحملة الفرنسية كما ترى هي دور من أدوار التنازع بين فرنسا وإنجلترا

اختمرت الفكرة في ذهن نابليون وهو بعد في إيطاليا ، وأخذ يكد فكره

ويعد الوسائل لتحقيق مشروعه العظيم ، فوجه عنايته إلى كل ما يمهده له سبيل الحملة على مصر ، فرأى أن يضمن لفرنسا السيادة على البحر الأبيض المتوسط ليتخذ سبيله إلى مصر ويجعله بحيرة فرنسية ، كما يقول في مذكراته ، وتحقيقاً لهذه الغاية استولى على أسطول جمهورية البندقية وضمه إلى أسطول فرنسا واستولى على أنكونا وسيطر على جنوا ، واحتل كورفو والجزر الأخرى من الجزائر الأيونية ليتخذها قاعدة بحرية لفرنسا في البحر الأبيض ، وطمح إلى الاستيلاء على جزيرة مالطة للغرض نفسه ، وأفضى إلى حكومة الديركتوار (١) وهو بعد في إيطاليا بمشروعه في الحملة على مصر

فكتب إليها من ميلان بتاريخ ١٦ أغسطس سنة ١٧٩٧ أى قبل عقد صلح كامبوفورميو بشهرين وبعد احتلاله الجزائر الأيونية يقول :

« إن المواقع التي نحتلها على شواطئ البحر الأبيض المتوسط تجعل لنا السيادة على هذا البحر ، والآن يجب علينا أن نرقب تطورات السلطنة العثمانية التي أخذت تنهار دعائمها من كل جانب ، فعلينا إما أن نؤيدها ونمنع انحلالها ، أو نأخذ مانستطيع من أسلحتها ، ويمكننا أن نحرّم إنجلترا مزايا سيادتها في الاقيانوس الأعظم ، فإذا كانت تنازعتنا طريق رأس الرجاء الصالح في مفاوضات دلييل ، فلنتجاوز عنه ولنحتل مصر فسيكون لنا فيها الطريق المفضى إلى الهند ويسهل علينا أن ننشئ بها مستعمرة من أجل مستعمرات العالم ، وإذا أردنا أن نهاجم إنجلترا فلنهاجمها في مصر ،

وكتب إلى المسيو تاليران Talleyrand وزير الخارجية الفرنسية رسالة بهذا المعنى

وكان يفوه في بعض المواطن بتصريحات تم عما يجيش في صدره من

---

(١) يطلق اسم حكومة الديركتوار ( الإدارة ) على الحكومة التي تأسست في فرنسا على نظام دستور سنة ١٧٩٥ . وتجد تفصيل هذا النظام في كتابنا (الجمعيات الوطنية) ص ٨٠ وقد بقيت قائمة إلى أن أسقطها نابليون بعد عودته من مصر سنة ١٧٩٩ وحل محلها نظام القنصلية حيث صار نابليون فيها القنصل الأول

المشروعات والآمال ، قال يخاطب جنوده في باسانو<sup>(١)</sup> Bassano يوم ١٠ مارس سنة ١٧٩٧ :

« إن أعلام فرنسا تحقق لأول مرة على ضفاف الأديرياتك على مقربة من مقدونية القديمة التي نبت فيها الإسكندر واتجه منها إلى الشرق ، وإن مهمة كبيرة تنتظركم فلم تلتها بعد مأموريتكم ، وإن عليكم أن تعاقبوا سكان الجزيرة الخبيثاء ( يعنى الإنجليز) الذين لم تصبهم حروب القارة بسوء وظلوا يهزأون لمصائبها ،

وقال في سبتمبر سنة ١٧٩٧ مخاطباً رجال أسطول الأدميرال برويس Brueys :

« أيها الرفقاء . عندما انتهت من إخضاع القارة سنجتمع بكم لنحصل على حرية البحار ، وبدونكم لانستطيع أن نحمل مجد فرنسا إلا في مكان ضيق من القارة . أما بكم فسنجتاز البحار وننشر عظمة الوطن في البلاد النائية . »

ففي إيطاليا إذن فكر نابليون في مشروع الحملة على مصر ، واختمرت الفكرة في ذهنه قبل أن يعود إلى فرنسا ، وكانت موضع دراسته وأبحاثه ومطالعته ، ففي أثناء مفاوضات الصلح التي انتهت بمعاهدة كامبوفورميو كان يستحضر من مكتبة ميلان جميع الكتب الخاصة بالشرق ، ويكب على مطالعة كل ماله علاقة بالديار المصرية في دور كتب ميلان وبولوني وفلورانس

وقد لوحظ على معظم تلك الكتب بعد ردها أن بها إشارات وملاحظات بقلم نابليون على ماورد فيها خاصة بمصر ، واستقدم كذلك من فرنسا بعض وثائق وزارة البحرية الخاصة بمصر وأخذ يراجعها ويدرسها ، وكان في خلال المفاوضات شديد الاهتمام بأن يصل إلى اعتراف النمسا بتملك فرنسا للجزائر الأيونية تحقيقاً لبرنامجها ، ونجح في مسعاه واعترفت النمسا في المعاهدة بأن هذه الجزائر أصبحت ملكاً لفرنسا

(١) بلدة في ولاية البندقية (فيصيا) على شاطئ البرنتا

### فكرة الحملة الفرنسية في خلال العصور

رجع نابليون إلى باريس عقب إمضاء معاهدة الصلح واحتفلت فرنسا باستقبال قائدها العظيم ، وأخذ يتابع فكرة الحملة على مصر ، وأكب على محفوظات وزارة الخارجية والبحرية يطالع الوثائق الخاصة بالقطر المصرى والإغارة عليه إن فكرة الحملة الفرنسية على مصر لم تنبت في رأس نابليون وحده بل كانت تتردد في الأذهان في مختلف العصور

#### في عهد لويس التاسع

في القرن الثالث عشر تملكك هذه الفكرة مشاعر لويس التاسع ملك فرنسا مدفوعاً إليها بعامل الدين ، وجر د فعلاً جيشاً جراراً بقصد الإغارة على مصر في حملة عرفت في التاريخ بالحرب الصليبية السابعة، ونزل لويس التاسع إلى دمياط سنة ١٢٤٩ م . في نحو خمسين ألفاً من المقاتلة ، فملكها ثم زحف على المنصورة واشتبك مع جيش المسلمين في معركة كبيرة عرفت بواقعة المنصورة ( سنة ١٢٥٠ ) انتهت بهزيمة الفرنسيين وقتل منهم نحو ٢٠ ألفاً وغرق كثير منهم في النيل وأسر ملكهم لويس التاسع وسجن بالمنصورة في دار ابن لقمان التي لا تزال باقية إلى الآن ، ثم اقتدى لويس نفسه وبقية جنوده بمبلغ عشرة ملايين فرنك وخرج من دمياط مهزوماً وانتهت تلك الحملة بالخيبة والفشل

#### في عهد لويس الرابع عشر

ثم تجددت الفكرة في القرن السابع عشر إذ نصح الفيلسوف الألماني الشهير ليبنتز Leibniz إلى الملك لويس الرابع عشر أن يغزو مصر ، ذلك أن فرنسا كانت في ذلك الحين على أهبة الزحف على هولاندا بسبب ما بينهما من التنافس على السيادة فقدم ليبنتز إلى لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ تقريراً يرغب إليه العدو عن الزحف على هولاندا ويشير عليه بالزحف على مصر بحجة أن امتلاك فرنسا للقطر المصرى يؤدي إلى استحواذها على متاجر الهند ، وبذلك يتوصل لويس السابع عشر إلى هزيمة الهولانديين الذين كانوا يصرفون زمام التجارة الهندية في ذلك العصر

قال لينتز في تقريره إلى لويس الرابع عشر (١) : « إنكم لانهزمون الهولنديين في عقر دارهم فإنكم لاستطيعون تخطى السدود التي تحيط ببلادهم ، وإذا أعلنتم عليهم الحرب فان أوروبا تنضم إلى جانبهم ، لكن مصر هي الميدان الذي تضربونهم فيه فهناك تجدون الطريق الحقيقي لتجارة الهند ، وهناك تستطيعون امتلاك زمام تلك التجارة وانتزاعها من يد الهولنديين وتضمنون بسط سلطان فرنسا وسيادتها في بلاد المشرق إلى ماشاء الله ، وتكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثنائها ، وهنالك لاتخسرون عطف أوروبا بل تجدونها مجمعة على الإعجاب بكم ،

ولم يكد لينتز يقدم تقريره حتى كانت الجيوش الفرنسية قد أغارت على الحدود الهولندية ، على أن لويس الرابع عشر لم يفته التفكير في الحملة على مصر ، لكنه رغب عنها لمارآه وقتئذ من أن الزحف عليها يفقد فرنسا صداقة تركيا أو على الأقل حيدتها ويحملها إلى الانضمام إلى الدول الأوروبية المعادية لها ، وكانت تركيا في ذلك العصر لم تزل مرهوبة الجانب يحسب لصدقتها وعداوتها حساب كبير

### في عهد لويس الخامس عشر والسادس عشر

وفي خلال القرن الثامن عشر طافت الفكرة بأذهان بعض رجال الدولة في فرنسا وترددت في تقاريرهم ومذكراتهم ، ذلك حين أخذت الدولة العثمانية في الاضمحلال وطمعت روسيا والنمسا في أملاكها ففكروا في أن تشترك فرنسا في اقتسام أسلاب تركيا وأن تكون مصر نصيبها من ولايات السلطنة العثمانية

ففي عهد لويس الخامس عشر كان الدوق دي شوازل De Choiseul كبير وزراءه من أنصار فكرة احتلال فرنسا لمصر ، لكنه في الوقت نفسه كان متبعاً خطة فرنسا القديمة في المسألة الشرقية وهي مصادقة تركيا وموالاتها ، فكان يطمع في أن تحتل فرنسا مصر عن طريق المفاوضات مع تركيا والانفاق معها ولم يكن يرى

(١) بقي هذا التقرير محفوظاً في مكتبة هانوفر إلى سنة ١٨٠٢ حيث عثر عليه الجنرال مورتيه قائد جنود الاحتلال في هانوفر فبعث به إلى نابليون حيث كان (قنصلاً أول)

غضاضة على تركيا في هذا التنازل لأن الحكومة العثمانية لم يبق لها في مصر سلطة فعلية في ذلك الحين .

كتب المسيو تاليران Talleyrand في هذا الصدد يقول إن الدوق دي شوازل الذي يعد بين رجال السياسة في القرن الثامن عشر أبعدهم نظراً وأقوام فكر آكان يسمى سنة ١٧٦٩ (١) في أن تنازل تركيا لفرنسا بطريق المفاوضات السياسية عن مصر لتستعيب بها من مستعمراتها في أمريكا وتجدد في حاصلاتها وتجارتها ما يغنيها عن تلك المستعمرات (٢) ، لكن الفكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ ولم يفتح شوازل تركيا يوماً في هذا الصدد ، وظل المشروع أملاً يهيج في صدره إلى أن سقطت وزارته سنة ١٧٧٠ ، ثم تجددت الفكرة في عهد لويس السادس عشر (٣) ، ذلك حين كان سفير فرنسا في الاستانة الكونت سان بريست Saint Priest من أشد أنصار الفكرة فكتب عنها عدة مذكرات إلى وزارة الخارجية الفرنسية

وكان التنافس التجاري بين فرنسا وإنجلترا قد بدأ يتجه إلى الديار المصرية لمحاولة كل منهما احتكار متاجر الهند عن طريق مصر والاستغناء بها عن طريق رأس الرجاء الصالح . فلفت هذا التناقس أنظار فريق من رجال السياسة وأخذوا يبحثون عن الوسائل الفعالة لتوطيد مركز فرنسا التجارية في مصر ، وقد ظهر رجلا ن اتجهت مساعيها إلى تحقيق فكرة الدوق دي شوازل ، وهما الكونت سان بريست والبارون دي توت De Tott

تولى سان بريست سفارة فرنسا في الاستانة سنة ١٧٦٨ وأقام بها نحو ستة عشر عاماً (٤) يرقب شؤون السلطنة العثمانية ويشهد أعراض اضمحلالها ويتنبأ بقرب تفككها واقتسام أسلابها ، فهو بحكم مركزه السياسي كان كثير الاهتمام بمصير مصر

(١) أي عقب نشوب الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨

(٢) تقرير تاليران الذي تلاه بالجمع العلمي الفرنسي سنة ١٧٩٧ عن المزاي التي تعود على فرنسا من

مستعمرات جديدة

(٣) تولى عقب وفاة لويس الخامس عشر سنة ١٧٧٤

(٤) أنهت سفارته سنة ١٧٨٤



وتطور الأحوال فيها ، فكتب إلى حكومته غير مرة يرغب إليها احتلالها . أما البارون دي توت فهو نبيل من سلالة أسرة من المجر استوطن فرنسا وأخلص لها فأوفدته إلى تركيا ولما عاد منها سنة ١٧٧٦ قدم تقريراً إلى الحكومة الفرنسية بسط فيه رأيه في حالة تركيا وانتهى إلى أنه لاسبيل إلى الخيلولة دون تفككها ونصح إلى الحكومة الفرنسية أن تحتل مصر لتوطيد تجارة فرنسا في الشرق

كان من نتائج هذه الفكرة أن أوفدت الحكومة الفرنسية البارون دي توت إلى ثغور السلطنة العثمانية بقصد التفتيش على مراكز التجارة الفرنسية فيها والغرض الحقيقي هو درس سواحل مصر ومواقعها ومشروع احتلالها

بدأ توت رحلته سنة ١٧٧٧ (١) وكان يرافقه ضابط في البحرية يدعى سونيني له كتاب عن مصر (٢) ولما عاد من رحلته قدم إلى الحكومة تقريراً بين فيه مزايا مشروع احتلال مصر وسهولة إنفاذه

لكن الحكومة الفرنسية انصرفت عن هذا المشروع لدخولها في الحروب المعروفة بحرب استقلال أمريكا سنة ١٧٧٨ فطوى المشروع مؤقتاً، وظلت فرنسا ترقب تطور المسألة الشرقية دون أن تقدم فيها على عمل يهدد كيان السلطنة العثمانية ولما انتهت سفارة سان بريست وعاد من الاستانة قدم تقريراً جديداً إلى حكومته عاد فيه إلى تأييد فكرته القديمة وهي احتلال مصر ونصح حكومته بأن تحقق هذه الفكرة قائلاً إنها تكسب فرنسا مركزاً ممتازاً في العالم

وكذلك قدم المسيو مور Mure الذي كان قنصل فرنسا في الاسكندرية تقريراً إلى وزارة الخارجية سنة ١٧٨٣ تنبأ فيه بقرب تفكك السلطنة العثمانية ونصح بضرورة احتلال مصر فجاء مؤيداً لتقارير دي سان بريست والبارون دي توت . على أن الكونت فرجين Vergennes وزير خارجية فرنسا في ذلك العهد لم يوافق على

(١) تجد وصف رحلته في مصر في الجزء الرابع من كتابه المسمى «مذكرات البارون دي توت عن الترك والتتار» Memoires du baron de Tott sur les Turcs et les Tartares

(٢) سياحة في مصر العليا والوجه البحري لسونيني Sonnini سنة ١٧٧٧

الفكرة وكان يعتقد أن السلطنة العثمانية لم تكن وشيكة الانحلال بالسرعة التي يومية اليها سان بريست في تقاريره ، فضلا عن أنه كان مؤيدا لسياسة فرنسا القديمة نحو تركيا وهي سياسة الصداقة والود ، ولذلك أعرض عن فكرة الاشتراك في اقتسام تركيا وعلى العكس عارض فيها وأخذ في مساعدة تركيا على الاحتفاظ بكيانها وأوفد اليها بعثة من الضباط والمهندسين لتقوية جيشها وأسطولها وثغورها، على أن وزارة الخارجية الفرنسية أخذت تعنى بتلشيط تجارة فرنسا في مصر والشرق وسعت لدى حكومة الاستانة من جهة ولدى البكوات المماليك من جهة أخرى لحماية المتاجر الفرنسية في مصر ووقايتها من عبث الحكام المماليك ، وسعت كذلك لضمان مرور متاجرها من أوروبا والهند عن طريق مصر ، لكن تصرفات الحكام المماليك حيال التجار من سائر الأجناس وفرضهم الاتاوات المختلفة على متاجرهم جعل التجار الفرنسيين يشكون إلى حكومتهم سوء معاملتهم

وقفت الحكومة الفرنسية وقفة المتردد حيال مصر والمسألة الشرقية وبخاصة بعد أن تولى الكونت مونت موران Montmorin وزارة الخارجية ، ذلك حين بدأت أحوال الحكومة الملكية تضطرب لارتباك شؤونها المالية وظهور أعراض الثورة الفرنسية فانصرفت عن نية الفتح والاستعمار

ولما قامت الثورة وسقطت الملكية انصرفت حكومة الثورة اضطراراً إلى الدفاع عن كيان فرنسا في وجه الدول الملكية المتحالفة وإخماد الفتن الداخلية ، على أن التجار الفرنسيين في مصر ما فتئوا يرفعون شكاوهم إلى حكومتهم الجديدة من سوء معاملة الحكام المماليك ويطلبون إليها العناية بشأنهم ، فأضغت إلى شكاوهم وعينت الميسو شارل مجالون Magallon قنصلا عاما لفرنسا في مصر سنة ١٧٩٣ ، والميسو مجالون هذا تاجر فرنسي من سكان مرسلية رحل إلى مصر وأقام بها نيفاً وثلاثين سنة مشتغلا بالتجارة فاكسب خبرة واسعة في الشؤون المصرية ، وكان من أنصار احتلال فرنسا لمصر ، فلما عينته الحكومة قنصلا عاما لها أخذ يرسل إلى وزارة الخارجية التقارير والمذكرات أبان فيها عبث الحكام المماليك بمصالح التجار الفرنسيين في مصر وصرح بأن هذا العبث لا يمكن أن يزول إلا إذا استخدمت

الجمهورية الفرنسية القوة حيالهم ورغب إلى حكومته أن تعمل على احتلال مصر ونوه بما تناله فرنسا من المزايا السياسية والاقتصادية من استثمار مواردها ومد سلطانها إلى البحر الأحمر وتهديد إنجلترا في الهند

مهد مجالون بتقاريره الأفكار لمشروع الحملة الفرنسية ، وذهب إلى فرنسا سنة ١٧٩٧ وأخذ يدعو رجال الدولة إلى تحقيق هذا المشروع وبين لهم سهولة انفاذه وقدم لوزارة الخارجية تقريراً جديداً في هذا الصدد وكان المسيو تاليران Talleyrand السياسي الشهير قد تولى وزارة الخارجية الفرنسية فاقنع بآراء مجالون وأخذ يدافع عنها ، والتقى في هذه الفسكرة مع نابليون بونابرت ، وقدم عنها تقريراً إلى حكومة الديركتوار استند فيه إلى تقرير المسيو مجالون ونصح فيه إلى الحكومة بإنفاذ الحملة

من هذه الخلاصة الوجيزة يتبين كيف تطورت فكرة الحملة الفرنسية على مصر في خلال العصور إلى أن نفذت على يد نابليون بونابرت

### نابليون وانفاذ الحملة

#### وموقف إنجلترا

فاتح نابليون حكومة الديركتوار في إنفاذ الحملة على مصر ودافع عنها وأوضح لها المزايا التي تعود منها على فرنسا ، وكانت حكومة الديركتوار تفضل غزو إنجلترا في جزيرتها ، وقد قررت فعلاً تأليف جيش أسمته جيش إنجلترا ، واختارت نابليون لقيادته ، وكانت راغبة عن الحملة على مصر لعدة أسباب ، منها أن هذه الحملة ستكون عرضة للاضطدام بالأسطول الإنجليزي في طريقها إلى مصر وأنها ستثير غضب الحكومة العثمانية وتفقد فرنسا صداقة تركيا القديمة ، وتحمل روسيا على التدخل في المسألة الشرقية ، كما أنها تبعد عن فرنسا جيشاً من خيرة جيوشها قد تكون في حاجة إليه إذا تجدد القتال بينها وبين أعدائها في القارة الأوروبية لكن نابليون كان معارضاً في مشروع غزو إنجلترا ، مقتنعاً باستحالة نجاحه لعظم استعداد الإنجليز في الدفاع عن جزيرتهم وحشدهم الأساطيل في البحار المجاورة لها ، وكان يرى أن انصراف إنجلترا إلى رد غزوة فرنسا بصرفها عن جمع

قواتها في البحر الأبيض المتوسط وبذلك تستطيع العمارة الفرنسية أن تسلك سبيلها إلى سواحل مصر ، وكانت وجهة نظره أن الحملة الفرنسية إذا دهمت مصر سهل عليها فتحها وإنشاء مستعمرة فيها في مدة لا تتجاوز بضعة أشهر وأن فرنسا تجني مزايا كبيرة في توطيد قدمها في مصر لأنها بطبيعة موقعها الجغرافي مركز الاتصال بين الشرق والغرب وملتقى المتاجر التي تتبادلها القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقية ، وأنه بإنشاء قناة تصل مياه البحر الأحمر بالبحر الأبيض يمكن السفن الفرنسية أن تصل إلى البحر الأحمر وتهاجم أملاك الإنجليز في الهند ، وعلى كل حال تستطيع فرنسا أن تنشئ في مصر مستعمرة ترسل إليها متاجرها ومصنوعاتها وتمحول إليها تجارة الهند والشرق وتكون طريقاً لها إلى أوروبا بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح ، فتصبح مصر مستودعاً لمتاجر العالم ، وتعوض فرنسا ما فقدته من المستعمرات وتكون في الوقت نفسه قاعدة لضرب إنجلترا في الهند وبسط سيادة فرنسا في البحر الأبيض المتوسط ، وقد أشاد نابليون في حججه للحكومة بعظمة مصر القديمة وقال إنها أخصب بلاد العالم وإنها كانت أهراء الغلال للعالم القديم ، وفي الإمكان ترقية زراعتها وغرس الحاصلات الأمريكية بها وإعادة منزلتها القديمة إذا وجدت بها حكومة حديثة وإدارة صالحة ، وفي مذكرات نابليون التي أملاها في منفاه بسانت هيلين أنه حين عزم على إنفاذ مشروع الحملة على القطر المصري كان يقصد إنشاء دولة شرقية كبيرة وينوى بعد توطيد مركزه في مصر أن يفزو الهند ، وكان يقدر لوصوله إليها شهر مارس سنة ١٨٠٠

اقتنعت حكومة الديركتوار بحجج نابليون ، وكانت شخصيته وانتصاراته في إيطاليا أكبر مؤيد له في وجهة نظره ، وأخيراً قررت الحكومة في ٥ مارس سنة ١٧٩٨ إنفاذ الحملة ، وتكتمت أمر المشروع حتى لا يتسرب خبره إلى الحكومة الإنجليزية ، وتمت معدات الحملة دون أن يعلم أحد في فرنسا وجهتها إلا نابليون ورؤساء حكومة الديركتوار والمسيو تاليران وزير الشؤون الخارجية ، وتولى المسيو مرلين Merlin الذي كان رئيساً للديركتوار كتابة العهود والقرارات بخط يده ، وكتبت القرارات بعبارات عامة لا يفهم منها غرض الحملة ، ويؤخذ من

ظاهرها أن الغرض منها تحصين شواطئ فرنسا على البحر الأبيض المتوسط ومع ذلك بقيت هذه القرارات في طي السكتان ، وظل المشروع سراً مكتوماً حتى عن القواد الذين اختارهم نابليون لمرافقته ، وبالغت الحكومة في كتمان وجهه الحملة حتى أنها أطلقت على الجيش الذي أعدته لها واسم الجناح الأيسر لجيش إنجلترا ، لتوهم الحكومة الإنجليزية أنها مصممة على غزوها في جزيرتها

ولما أوشكت معدات الحملة أن تتم أصدرت حكومة الديركتوار قرارها بتاريخ ١٢ أبريل سنة ١٧٩٨ بتسمية الجيش المعد لها « جيش الشرق » وأسندت قيادته إلى الجنرال نابليون بوناپرت وأصدرت في اليوم نفسه قراراً عهدت إليه فيه بالحملة على مصر ، وبينت في مقدمة القرار أسباب الحملة بقولها : « إن حكومة الديركتوار لما رآته من أن البكوات المالك الذين استولوا على حكومة مصر قد اتصلوا بالإنجليز بأمتن الروابط وجعلوا أنفسهم تحت مطلق تصرفهم ، وأنهم يرتكبون الأعمال العدائية والمظالم الفظيعة ضد الفرنسيين ويضطهدونهم وينهبون أموالهم ويعتدون على أرواحهم . ولما كان من واجب الحكومة أن تقتص من أعداء الجمهورية أينما وجدوا ، وإذا كانت الطريقة المنظوية على الغدر التي استولت بها إنجلترا على رأس الرجاء الصالح قد جعلت وصول السفن الفرنسية إلى الهند محفوفاً بالمصاعب في الطريق المعتادة ، فمن المهم فتح طريق جديد لقوات الجمهورية للوصول إلى الهند » (١) .

هذه خلاصة ما ذكرته حكومة الديركتوار في أسباب الحملة ، ومنه يتبين أن التنازع بين إنجلترا وفرنسا هو المحرك للحملة الفرنسية وأن الغرض النهائي منها كان الوصول إلى الهند ، وعهدت الحكومة في قرارها إلى نابليون « بتسيير القوات البرية والبحرية التي تحت قيادته إلى مصر والاستيلاء عليها ، وطرد الإنجليز من جميع البلاد الشرقية التي يستطيع الوصول إليها ، وهدم المراكز التجارية التي لهم في البحر الأحمر وعهدت إليه حفر برزخ السويس واتخاذ كل الوسائل اللازمة ليضمن للجمهورية الفرنسية امتلاك البحر الأحمر » (٢) وقررت الحكومة عدم

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٤٩٥

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٤٩٥

نشر هذا القرار او طبعه حتى يبقى في طي الکتبان وظل نابليون يصدر أوامره الخاصة بالحملة على مصر باسم بوناپرت القائد العام ( لجيش انجلترا ) ظنت انجلترا أن فرنسا عقدت عزما على غزوها في جزيرتها وأنها أعدت لهذا الغرض أسطولها في الأقيانوس وأن استعداداتها في ثغور البحر الأبيض المتوسط كان الغرض منها إمداد ذلك الأسطول عن طريق بوغاز جبل طارق ، فعهدت إلى الأميرال اللورد سان فنسان Saint vincent مراقبة بوغاز جبل طارق وتعقب أسطول فرنسا في الأقيانوس ومواصلة حصار أسطول أسبانيا في قادس وعهد اللورد سان فنسان إلى الأميرال نلسن Nelson بأن يتجول في البحر الأبيض المتوسط لمراقبة حركات الأسطول الفرنسي به

فمكرة انجلترا كانت إذا متجهة في ذلك الحين إلى توقع الحملة على جزيرتها

### معدات الحملة

### ووقائعها الأولى

أخذ نابليون عقب قرار الحكومة يعد معدات الحملة ويبدل في سبيل ذلك ما أوتي من المقدرة وقوة التنظيم ، فاختار معظم جنوده من جيش إيطاليا ، الذي خاض به المعارك وأحرز به الانتصارات العظيمة وضم إليهم بعض كتائب من جيش الرين ، وبلغ عدد من تألفت منهم الحملة ٣٦٠٠٠ مقاتل<sup>(١)</sup> ووقع اختيار

---

(٢) جاء في تقرير وزارة الحربية الفرنسية إلى حكومة الديركتوار المؤرخ ٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨ إحصاء دقيق لجيش الحملة بعد إقلاعه يؤيد الإحصاء الذي ذكرناه ، ومنه يبين أن عدده ٣٦٨٢٦ مقاتلا وهذا التقرير نشره القومندان دى لاجونكبير في كتابه ( حملة مصر ) نقلا عن وزارة الحربية الفرنسية ويؤيده كذلك إحصاء المسيو مارتان Martin أحد مهندسي الحملة وشاهدعيان لوقائعها فقد ذكر في كتابه ( تاريخ الحملة الفرنسية في مصر ) أن جيش الحملة كان مؤلفا من ٣٦٠٠٠ مقاتل ، وهذا العدد يختلف عن إحصاء نابليون في مذكراته التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين فنابليون يقول إن عدد جيش الحملة هو ٣٢٣٠٠ مقاتل ، وفي اعتقادنا أن إحصاء نابليون في مذكراته لا يمكن أن يكون موضع الدقة لأن المعروف أن نابليون أملى مذكراته عن مصر في سانت هيلين بعد أكثر من ستة عشر عاما من وقوع الحوادث التي كتب عنها مذكراته ، ولم يكن تحت يده الوثائق التي نرجوع إليها في ضبط الأرقام ، هذا فضلا عن أن نابليون كان يعمل في بعض المواطن إلى ذكر إحصاءات عن جيشه أقل من العدد الحقيقي ، وربما كان الدافع له على ذلك التباهي بكفاءة جيشه =

نابليون على صفوة القواد الذين ظهرت كفايتهم وخبرتهم وتجلت مواهبهم في حروب إيطاليا وحرب الرين أمثال برتنيه Berthier وكافريللي Caffarelli وكليبر Kleber ورينيه Reynier ، ودينيه Desaix ، ودوجا Dugua وفوبوا Vaubois ، وبون Bon ، ومورا Murat ، وبليار Belliard .

واختار الجنرال كافريللي Caffarelli رئيساً لفرقة المهندسين والجنرال دومارتن Dommartin لقيادة المدفعية والجنرال برتنيه Berthier الذى كان رئيساً لأركان حرب الجيش الفرنسى بإيطاليا رئيساً لأركان حرب الحملة ، وعهد بالإدارة الصحية للحملة إلى الطبيبين الشهيرين لارى Larrey كبير الجراحين وديجننت Desgenette كبير أطباء الحملة ، وعهد إلى القوميسير سوسى Sucy بإدارة مهمات الجيش ، وإلى القوميسير لروا Le Roy بإدارة مهمات البحرية ، وجهاز الحملة بمطبعة عربية وأخرى فرنسية وأخرى يونانية .

واصطحب معه طائفة من علماء فرنسا ونوابها في الرياضة والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والأدب والكيمياء ، والاقتصاد السياسى والآثار والمعادن ، وطبقات الأرض والحيوان والنبات وفن المعمار وهندسة الرى والقناطر والجسور والميكانيكا ، وطائفة من رجال الفنون من المصورين والرسمين والموسيقين والنقاشين والمثالين ، فبلغ عدد هؤلاء ١٤٦ عضواً مابين عالم وأديب ومهندس ومثال تتألف منهم لجنة العلوم والفنون (١) التى كان لها شأن يذكر في تاريخ الحملة كما سيبنى بيانه ، وجهزهم بمجموعة كاملة من الآلات الطبيعية والرياضية ، وكان من بينهم جماعة من أقطاب العلوم بمن يشار إليهم بالبنان في فرنسا أمثال مونج Monge العالم الرياضى ، وبورتليه Berthollet العالم الكيمياى ، وهما اللذان عهد إليهما نابليون اختيار أعضاء البعثة ، وفوريه ، ودلوميو ، وجوفروا سان هيلبر ، وغيرهم ممن سنأتى على ذكرهم وتكلم عن أشخاصهم عند الكلام على المجمع العلمى (٢)

وبعقرته الحربية وقد ذكر المسيو مارتان في كتابه أن نابليون في تقريره إلى حكومة الديركتوار عن واقعة شبراخيت يقول إنه كان يقاوم قوات أكثر منه عدداً مع أن الواقع كما يقول مارتان أن قوى المالك كانت أقل عدداً من الجيش الفرنسى

(١) نشرنا في قسم الوثائق فروع هذه اللجنة وأسماء أعضاء كل فرع منها

(٢) انظر الفصل الرابع

قال المسيو تيررس (١) : « إن نوابغ فرنسا في الحروب والعلوم والفنون قد صحبوا نابليون في الحملة وجذبتهم إليها ثقته في قائدها الفتى العظيم وركبوا البحر دون أن يعرفوا إلى أي جهة يقصدون ،

اجتمعت العمارة الفرنسية المعدة لنقل الحملة في « طولون » ، وفي ثغور « جنوا » ، و « أجاكسيو » ، و « سيفيتافكيا » ، وعددها نحو ثلاثمائة سفينة يحرسها أسطول الفيس أميرال برويس Brueys المؤلف من ٥٥ سفينة حربية (٢)

أقلعت العمارة من طولون يوم ١٠ مايو سنة ١٧٩٨ . وانضم إليها باقي السفن القادمة من جنوا وأجاكسيو وسفيتافكيا ، وجرت كلها تمخر عباب البحر ورست بجزيرة مالطة يوم ٩ يونيه ، وكانت هذه الجزيرة يحكمها من عهد شارل كان طائفة من الرهبان يعرفون بفرسان القديس حنا الأورشليمي ثم عرفوا بعد ذلك ( بفرسان مالطة ) ، وكان موقعها على جانب كبير من الأهمية الحربية ، فاحتلها نابليون بعد دفاع ضعيف واحتل حصونها ومعقلها ونظم حكومتها وترك بها قوة من ثلاثة آلاف جندي بقيادة الجنرال فوبوا Vaubois لتوطيد سلطة فرنسا في الجزيرة والدفاع عنها إذا ما أراد الإنجليز احتلالها ، وقد استعاض نابليون من هذه القوة بجزء من الجنود المالطيين الذين ضمهم إلى جيشه وساروا معه إلى مصر وألف منهم ( السكتيبة المالطية ) وكان عددهم نحو الألفين

وأقلعت العمارة من مياه مالطة يوم ١٩ يونيه ووصلت تجساه الإسكندرية يوم أول يوليه . ( ١٧ محرم سنة ١٢١٣ ) أي بعد شهر ونصف من إقلاعها من طولون

\*\*\*

(١) في كتابه تاريخ الثورة الفرنسية الجزء العاشر

(٢) منها ١٣ بارجة كبيرة احداها السفينة « أوريان » ( المشرق ) وسلاحها ١٢٠ مدفعا وهي سفينة الأميرال التي أقلته وأقلت نابليون القائد العام وأركان حربه ويولوانه وبعض العلماء ، والاثنتا عشرة بارجة الأخرى يتراوح سلاح كل منها بين ٨٠ و ٧٤ مدفعا ، وخمس فرقاطات كبيرة سلاح كل منها أربعون مدفعا ، وثلاث أخرى سلاح كل منها ٣٦ مدفعا ، وسفینتان أخريان من نوع البريق ، وسفینتان كبيرتان ، وست فرقاطات غير مسلحة والباقي من المراكب الخفيفة المسلحة بالمدافع



أخذ جنود الحملة ينزلون غرب الاسكندرية ليلة ٢ يوليه سنة ١٧٩٨ ( ١٨ محرم سنة ١٢١٣ ) وزحفوا على المدينة فاحتلوها في ذلك اليوم ، وبعد أن ثبت نابليون قدمه في الاسكندرية أخذ يزحف على القاهرة بطريق دمنهور

كان أمام الجيش الفرنسي طريقان يسلكهما من الاسكندرية إلى القاهرة يلتقيان في الرحمانية على النيل ، الأول من الاسكندرية إلى رشيد برأ على ساحل البحر ومن رشيد إلى القاهرة على شاطئ النيل ، والثاني من الاسكندرية إلى الرحمانية بطريق دمنهور مخترباً جهات كانت في ذلك العهد صحراء قاحلة ثم من الرحمانية إلى القاهرة على البر الغربي للنيل ، وكان الطريق الأخير أقصر من الأول (١) وإن كان أكثر مشقة فأثره نابليون ليصل إلى القاهرة بأسرع ما يمكن فأمر جنوده بالزحف بطريق دمنهور وفي الوقت نفسه كلف الجنرال دوجا بأن يحتل رشيد ويتقدم إلى الرحمانية ليلتقي هناك بالجيش القادم من طريق دمنهور

وفي مساء ٣ يوليه سنة ١٧٩٨ - غداة نزول الجنود بالاسكندرية - بدأت طلائع الجيش تتحرك نحو « البيضاء » (٢) وتبعها بقية الفرق المعدة للزحف على القاهرة ، فغادرت الاسكندرية في الأيام التالية قاصدة دمنهور ومر الجيش بالبيضاء والعكريشة (٣) والسكريون (٤) وبركة غطاس (٥) محاذياً الترععة المعروفة وقتئذ بخليج الإسكندرية ( ترعة المحمودية الآن ) والتي كانت في ذلك الوقت جافة لأن النيل لم يكن يدها بمائه إلا في زمن الفيضان ، فلاقى الجنود عناء كبيراً من القىظ والعطش ولم يكن في تلك الجهات من الماء سوى مياه الآبار ومع ذلك فقد غور الأهالي معظم الآبار التي في الطريق وأتلفوها

تلاقت الفرق في دمنهور يوم ٧ يوليه ، وفي الساعة الخامسة من مساء هذا

(١) الطريق الأول يسير من الإسكندرية إلى رشيد ماراً بأبو قير وكانت بحيرة « أبو قير » تتصل بالبحر ببوغاز اسمه العديلة لا بد أن تتنازه الجنود في السير فكان هذا البوغاز يعطل سير الجنود

(٢) البيضاء بلدة صغيرة تابعة الآن لمركز كفر الدوار على الشاطئ الغربي لترعة المحمودية ، وتطلق « البيضاء »

(٣) و (٤) و (٥) العكريشة والسكريون من بلاد مركز كفر الدوار الآن وبركة غطاس بمركز أبي حمس

اليوم تحرك نابليون وأركان حربه من الاسكندرية فبلغ دمنهور في صباح اليوم التالي ، ثم غادر الجيش دمنهور ليلة ١٠ يوليه قاصداً الرحمانية ، فبلغها يوم ١٠ واحتلها في ذلك اليوم

أما الجنرال دوجا فقد سار من الاسكندرية إلى رشيد فاحتلها يوم ٦ يوليه ثم سار منها إلى الرحمانية وانضم بفرقته إلى باقى قوات الجيش

التقى مراد بك بالجيش الفرنسى بالقرب من شبراخيت يوم ١٣ يولية سنة ١٧٩٨ (٢٩ محرم سنة ١٢١٣) فهزمه نابليون واضطره إلى التقهقر فالتقى مراد راجعاً إلى القاهرة استعداداً للمعركة الفاصلة ، فالتقى الجيشان في امبابه ، وهناك على مقربة من الأهرام هزم جيش مراد بك في معركة فاصلة كان فيها القضاء على قوة البلاد الحربية وهى المعركة المعروفة عند المصريين بواقعة امبابه وعند الفرنسيين بواقعة الأهرام (١) (٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ - ٧ صفر سنة ١٢١٣)

فر مراد بك بالبقية الباقية من فلول جيشه المهزوم إلى الجيزة ، أما إبراهيم بك الذى كان مرابطاً بالبر الشرقى من النيل فانه لما رأى الهزيمة قد حلت بصاحبه غادر القاهرة ومعه من تبعه من مماليك ومصريين ويبلغ عددهم نحو ألف وخمسمائة واصطحب معه أبا بكر باشا الوالى التركى وانسحبوا جميعاً قاصدين بلبس وخلت العاصمة من قوة الدفاع ، وصارت وجهاً لوجه أمام الجيش الفرنسى

سياسة نابليون إزاء الشعب

وقاعدة الحكم التى وضعها فى مشوره

لم تكن مهمة نابليون فى مصر حربية فحسب ، بل كان مفروضاً عليه أن يواجه أمة شرقية ذات حضارة قديمة تختلف اختلافاً كبيراً عن الشعوب الأوروبية التى عرفها وخالطها ودرس عاداتها وطباعها وأخلاقها

(١) إن تسمية الواقعة بواقعة امبابه أقرب إلى الحقيقة لأنها وقعت حول قرية امبابه ولكن الفرنسيين أسموها واقعة الأهرام تفضيها لها وتخليداً لاسمها فى التاريخ ، وقد ورد اسمها فى يوميات الجنرال كليبر بأنها واقعة « امبابه » أو « الأهرام » ولكن الاسم الذى صار علماً لها فى التاريخ هو معركة الأهرام ، وذلك سمينها باسمها التاريخي

كان مطلوباً منه أن يواجه الأمة المصرية يحكمها البكوات المماليك الذين استبدوا بإدارة شئونها السنين الطوال وعلى رأس حكومتها وال عثمانى يمثل تبعية البلاد الاسمية لسلطان تركيا دون أن يكون له نفوذ فعلي بجانب سلطة المماليك فكان من المفروض على نابليون أن يرسم لنفسه سياسة يتبعها حيال هذه العناصر المشتبكة في أرض الفراعنة إن الغرض الذي كان يرمى إليه هو توطيد سلطة فرنسا على ضفاف النيل ، وتحقيقاً لهذا الغرض رأى أن خير سياسة يتبعها إزاء مصر أن يجامل تركيا بقدر المستطاع وأن يجتذب إليه قلوب الشعب ويتجنب إلى الأهلئ بإفهامهم أنه إنما جاء لمحاربة طائفة المماليك الغرباء عن البلاد الذين يستنزفون ثروة مصر ويظلمون أهلها وأنه يرمى إلى إنشاء حكومة أهلية، يكون النفوذ فيها للمصريين ، هذه هي الخطة السياسية التي رسمها نابليون وجعلها أساساً لمشروعه العظيم وهو تأسيس دولة عربية في مصر تساعد على تحقيق آماله وأطماعه في الشرق والغرب

ظهرت هذه الخطة في منشوراته وبياناته الأولى للمصريين ومفاوضته لزعمائهم ومسلكه حيالهم وفي النظم الحكومية التي أسسها في مصر أمر نابليون عندما احتل الإسكندرية بإذاعة أول منشور باللغة العربية إلى أهل البلاد أوضح فيه أغراضه من الحملة الفرنسية وضمنه نداء إلى الشعب يدعوهم فيه إلى الاطمئنان على مصيرهم ، ويعدهم بأن تكون حكومة البلاد في أيديهم كتب نابليون هذا المنشور يوم ٢٧ يونيه سنة ١٧٩٨ على ظهر البارجة (أوريان) أي قبل أن ترسو العمارة بعدة أيام ، وصاغه في قلبه العربي جماعة المستشرقين والتراجمه الذين أحضرهم معه وبخاصة المسيو فانتور والمسيو مارسل ، وطبع على ظهر البارجة بالمطبعة العربية التي جاء بها ، وقد أمر بطبع المنشور قبل رسو العمارة ، فكان أول وثيقة عربية طبعت على هذه المطبعة ، وأمر قبل مغادرته الإسكندرية أن تنقل المطبعة العربية والمطبعتان اليونانية والفرنسية من البارجة (أوريان) إلى منزل قبصل البندقية بالإسكندرية ، وأن تهبأ هذه المطابع بحيث تكون معدة للعمل في ثمان وأربعين ساعة وأن يطبع على المطبعة العربية أربعة آلاف نسخة من المنشور عدا ما طبع منه على ظهر البارجة (أوريان) ، وأمر كذلك بالإفراج عن البحارة

الترك والعرب والمغاربة الذين فك إسارهم في مالطة (١) وأحضرهم معه على ظهر  
العمارة الفرنسية وسمح لهم بالذهاب أنى شاءوا ومع كل منهم عدد من المنشورات  
لتفريقها في أنحاء البلاد

إن تاريخ هذا المنشور هو ٢ يوليه سنة ١٧٩٨ الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣  
و١٤ مسيدور من السنة السادسة للجمهورية الفرنسية. أى أن نابليون بادر بإذاعه  
هذا المنشور يوم احتل نجر الاسكندرية وكان المنشور معداً ومطبوعاً على المطبعة  
العربية قبل رسو العمارة الفرنسية ، وهذا يدل على مبلغ اهتمامه بتبليغ المصريين  
مقاصده من الحملة ورغبته في اكتساب قلوبهم ، وإليك صورة المنشور ننقله هنا كما  
هو وارد في الجبرتي مع مقارنته بالأصل الفرنسي

### منشور نابليون إلى المصريين

« بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه . من  
طرف الفرنسية المبني على أساس الحرية والتسوية (٢) ، السر عسكر الكبير أمير

---

(١) هم البحارة المسلمون الذين كانت أسرهم سفن مالطة في جولاتها في البحر الأبيض ويعتبر  
فرسان مالطة أن أسرهم واجب ديني ، وكانوا يقضون عليهم بالسجن على ظهر السفن الحربية ويجبرونهم  
على الأشغال الشاقة فيقضون بقية عمرهم في هذا النقاء ، فلما احتل نابليون مالطة أمر بإطلاق سراح هؤلاء  
الأسرى وكان عددهم نجر السبعماية وأحضرهم معه إلى الإسكندرية وسمح لهم بالذهاب أنى شاءوا فحفظوا  
لفرنسيين هذا الجميل وكان غرض نابليون من إطلاق سراحهم أن يظهر للبلاد الإسلامية مبلغ عطفه على المسلمين  
وإليك ما كتبه الجبرتي عن أولئك الأسرى وعن منشور نابليون إلى المصريين: « كانت الفرنسيين  
حين حلولهم بالإسكندرية كتبوا مرسوماً وطبعوه وأرسلوا منه نسخاً إلى البلاد التي يقدمون عليها  
تطمئناً لها ، ووصل هذا المکتوب مع جملة من الأسارى الذين وجدوهم بمالطة وحضروا ضجبتهم  
وحضر منهم جملة إلى بولاق ، وذلك قبل وصول الفرنسيين يوم أوينيوين ، ومعهم منه عدة نسخ  
ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس وهم على شكلهم من كفار مالطة ويعرفون بالفاغات »

(٢) هذه العبارة ليست واردة في الأصل الفرنسي ، وإنما وردت في النسخة العربية ووزعت في البلاد  
والإزادة في الجبرتي ، ولعلها عنوان للنسخة العربية المنشور أما الأصل الفرنسي فمتمداً بالعبارة الآتية:  
« للمعسكر العام بالإسكندرية في ١٤ مسيدور من السنة السادسة الموافق ١٨ محرم ١٢١٣ هجرية ،  
بونابرت عضو المحمم العلمى الأعلى والقائد العام » وكلمة التسوية يقصد منها المساواة ، ومعروف أن  
الحرية والمساواة شعار للجمهورية الفرنسية ، والسر عسكر كلمة تركية معناها رئيس العسكر أو القائد  
العام ، والمنشور كما يراه القارىء مملوء بالأغلاط والعبارات العربية الركيكة ، أما أصله الفرنسي فليد

الجيش الفرنسي ساوية بونابرت يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد السناجق (١) الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنسية ، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي ، فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا ، من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة (٢) والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها ، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريين قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه . وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقاكم من يد الظالمين وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا أيضاً لهم إن جميع الناس متساوون عند الله ، وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ويحتصوا بكل شيء أحسن فيها من الجوار الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ، فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رؤف وعادل وحليم ، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعد لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور (٣) وبذلك يصلح حال الأمة كلها ، وسابقاً كان في الأرض المصرية المدن العظيمة والخليجان (٤) الواسعة والمتجر المتكاثر ، وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك

وهو منشور في مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٣٢ ولم نشأ أن نعرّبه عن الأصل لأن الصيغة العربية التي نشرت في البلاد والازدة في الجبرتي أصبحت وثيقة تاريخية يجب المحافظة عليها فنقلناها كما هي (١) حكام المديرية جمع سنجق ، راجع الفصل الأول

(٢) الإبازة من شعوب القوقاز وفي الأصل الفرنسي للمنشور «المجلوبون من جورجيا والقوقاز» وجورجيا من بلاد القوقاز واقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين

(٣) في الأصل الفرنسي «سينتولون الحكيم» gouverneront (٤) الترع

« أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجرمجية وأعيان البلد ، قولوا لأمتكم إن  
الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون (١) وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روميه  
الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا (٢) الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة  
الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطه وطردها منها الكوالريه (٣) الذين كانوا يزعمون  
أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ، ومع ذلك فرنساوية في كل وقت من  
الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله  
ملكه (٤) ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممثلين لأمره فما  
أطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم

« طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلاتأخير فيصلح حالهم وتعلو  
مراتبهم

« طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائنين لأحد من الفريقين المتحاربين  
فإذا عرفونا بالآكثر تسارعوا إلينا بكل قلب ، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون  
على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر  
المادة الأولى - جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات (٥) عن  
المواضع التي يمر بها عسكر فرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسرا عسكر من

(١) في الأصل الفرنسى « محبون للمسلمين المخلصين »

Que nous sommes amis des vrais musulmans

(٢) بشرى إلى الحملة الفرنسية التي زحفت على روما أثناء حرب إيطاليا وطردها البابا من روما

(٣) الكوالريه أو الكفالريه مأخوذة من الكلمة الفرنسية Chevaliers وهم طائفة دينية  
كانت تعرف بفرسان القديس حنا الأورشليمي وقد تولوا حكم مالطه من عهد شارل لكان ، وصار اسمهم  
« فرسان مالطه » فلما رست العمارة الفرنسية بمالطه في طريقها إلى مصر احتلها الفرنسيون واتقضى  
حكم فرسان مالطه واستولى الفرنسيون على ما بالجزيرة من استحكامات ومهمات وذخائر وتخف  
ثمينه ومجوهرات مما كان يهدى إلى الطائفة من أنحاء العالم وقد أحضر نابليون معه إلى مصر الكثير  
من هذه النفائس لينتفع بثمنها

(٤) ترجمة الأصل الفرنسى هكذا : ألسنا نحن الذين كنا على الدوام في خلال العصور أصدقاء  
السلطان العثماني أدام الله ملكه .

(٥) في الأصل الفرنسى ثلاثة فراسخ

عندها وكلاء كما يعرف المشار إليهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم فرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر

المادة الثانية - كل قرية تقوم على العسكر فرنساوى تحرق بالنار

المادة الثالثة - كل قرية تطيع العسكر فرنساوى أيضاً تنصب صنجاق السلطان

العثماني محبنا دام بقاءه

المادة الرابعة - المشايخ (٢) في كل بلد يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت

والأملاك التي تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شيء منها

المادة الخامسة - الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون

وظائفهم ، وعلى كل أحد من أهالي البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئناً ، وكذلك

تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة ، والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا

الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك ، قائلين بصوت عال أدام الله إجلال

السلطان العثماني ، أدام الله إجلال العسكر فرنساوى ، لعن الله المماليك ،

وأصلح حال الأمة المصرية . تحريراً بمعسكر اسكندرية في ١٣ (٢) شهر

مسيدور من إقامة الجمهور فرنساوى يعنى في آخر الشهر محرم سنة ١٢١٣

هجريه ،

\*\*\*

هذا هو المنشور الذي أذاعه نابليون في مصر وأوضح فيه السياسة التي عزم على اتباعها ، فهو أولاً أراد أن يفهم المصريين أنه إنما جاء ليحارب المماليك دون سواهم عقاباً لهم على معاملتهم الفرنسيين بالإذلال والاحتقار واعتدائهم على التجار وإساءتهم إلى أهل البلاد بالمظالم التي يرتكبونها ، وأظهر من جهة أخرى أنه يحترم شعور الأهالي ويحترم الاسلام ونييه الكريم والقرآن العظيم ، وأشاد بعظمة مصر

(١) المقصود هنا مشايخ البلاد وكانوا بمثابة العمدة الآن

(٢) الواقع أنه ١٤ مسيدور وربما كان رقم ١٣ خطأ من الجبرتي في النقل ، وحقيقة التاريخ الهجري

القديمة ونوه بما كان لها في العصور الماضية من حضارة وعمران ، كل ذلك ليستميل إليه قلوب المصريين  
ووضع في منشوره أساس حكومة أهلية يدير شؤونها العلماء والفضلاء وبذلك  
تصلح حال الأمة كلها ،

إن فكرة إنشاء حكومة أهلية من المصريين هي أظهر ما في المنشور من الوعود التي أراد أن يجتذب بها قلوب المصريين ، والواقع أن نابليون في هذا المنشور قد استثار الروح القومية المصرية ، ولم يسبق لفتاح قبل ذلك العصر أن يشيد بمكانة مصر وعظمتها ويوجه خطابه إلى المصريين ويعددهم بأن يكونوا أصحاب الحل والعقد في البلاد

على أنه لا يفوتنا القول بأن منشور نابليون مع ما فيه من الوعود والعبارات الجميلة قد حوى مبدأ التهديد والوعيد وإنذار المصريين باستهدافهم لأشد أنواع الأذى إذا هم لم يذعنوا للحكم الفرنسي ، لأن إنذار القرى بإحراقها بالنار إذا هي خرجت على الجنود الفرنسية أمر لا يتفق والقواعد الإنسانية في معاملة الشعوب ، ولم تر في منشورات نابليون للإيطاليين أثناء حروب إيطاليا تهديداً من هذا النوع ، وسيرى القارىء في خلال الفصول القادمة أن الفرنسيين قد استعملوا طريقة إحراق القرى في كثير من المواطن ، فكان ذلك تنفيذاً لما حواه منشور نابليون من التهديد والوعيد ، ولنا أن نفهم من هذا أن نابليون كان ينظر إلى الأمة المصرية بغير العين التي ينظر بها إلى الأمم الأوروبية ، وأنه مع رغبته في إظهار الود نحو المصريين فإنه أعقب هذه الرغبة بتهديدهم بهذا الإنذار الرهيب ، وهذا وحده كاف ليصرفهم عن الاطمئنان لوعود نابليون ، وقد أورد ريبو في كتابه<sup>(١)</sup> منشور نابليون وحذف منه هذه المادة وأشار إليها إشارة مهمة ، ولعله تعمد حذفها ليكتم عن القارىء مبلغ ما فيها من القسوة والخروج على قواعد الحضارة والانسانية

المفاوضات بين نابليون وزعماء الشعب

غداة معركة الأهرام

قام المصريون بقسطهم في الدفاع عن البلاد كما تراه مفصلاً في الفصل الخامس

(١) التاريخ العلمى والحربى للعملة الفرنسية الجزء الثالث



والفصول التي تليه ، لكنهم غلبوا على أمرهم وأصبحت القاهرة بعد واقعة الأهرام مفتحة الأبواب أمام الجيش المغير ، فساد فيها الذعر وعم أهلها الفزع والاضطراب لتوقعهم المكاره واحتمال العنت والأذى عند دخول الفرنسيين المدينة ، وكان رؤساء الممالك قد فروا تاركين العاصمة بلا دفاع ، فأخذ علياؤها وأعيانها يفكرون في الخطة التي يتبعونها حيال هذه الكارثة لتخفيف مصاب التسليم بالأمر الواقع ، شأن كل مدينة كبيرة هزم الجيش المدافع عنها

ففي صباح يوم الأحد ٢٢ يوليه سنة ١٧٩٨ (غداة معركة الأهرام) اجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا في الأمر ، وكان الجيش الفرنسي لم يزل بالبر الغربي للنيل ولم يدخل المدينة بعد ، فاتفق رأيهم على أن يبعثوا برسالة إلى الفرنسيين يستفهمون فيها عن قصدهم ويتظرون ما يكون جوابهم ، فقام رسولان يحملان الرسالة إلى معسكر الجيش الفرنسي بالجيزة (١) ثم عادا فأخبرا أنهما قابلا القائد العام وأعطياه الرسالة وقرأها عليه ترجمانه ، فقال على لسان الترجمان : « وأين عطاؤكم ومشايخكم ولم تأخروا عن الحضور إلينا لترتب لهم ما يكون فيه الراحة ، وطمانهم وبش في وجوههم فقالوا نريد أماناً منكم ، فقال أرسلنا لكم كتاباً سابقاً (٢) ، فطلبوا وثيقة أخرى لأجل اطمئنان الناس فكتبوا لهم رسالة أخرى هذا مضمونها كما جاء في الجبرتي :

---

(١) اتخذ نابليون قصر مراد بك في الجيزة معسكراً للقيادة العامة يصدر منه الأوامر إلى أن انتقل إلى القاهرة يوم ٢٤ يوليه سنة ١٧٩٨  
(٢) يقصد المنشور الذي أذاعه في الاسكندرية ووسلت منه عدة نسخ إلى القاهرة قبل معركة الأهرام ، ولعله يقصد كذلك بيان آخر نشره عقب معركة الأهرام لم يرد ذكره في الجبرتي وقد ورد نصفه مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨١٨

« من معسكر الجيزة في ٤ ترميدور ( ٢٢ يوليه ) إلى أهل القاهرة :

« لاني مسرور من سلوككم وقد أحسنتم صنعا بعدم مقاومتي ، لاني جئت لإبادة جيش الممالك وحماية التجارة وأهالي البلاد الأصليين ، فليطمئن الخائفون وليرجع الفارون إلى بيوتهم ، وليستمر الأهالي على إقامة الشعائر الدينية كالعتاد ، واطمئنوا على عائلاتكم وبيوتكم وأملاككم واطمئنوا على دينكم الذي أحترمه ، ولما كان من غرضي أن لا يخل الأمن وأن يسود النظام فسيأتى (ديوان) من سبعة أعضاء يجتمعون في الأزهر يتصل منهم اثنان بقومندان الموقع ويتخصص أربعة بالمحافظة على الراحة والنظام وتديير شؤون البوليس »

« من معسكر الجيزة خطاباً لأهل مصر ، اتنا أرسلنا لكم في السابق كتاباً فيه الكفاية ، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد إزالة الممالك الذين يستعملون الفرنسية بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ، ولما حضرنا إلى البر الغربي خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسروا بعضهم ونحن في طلبهم حتى لا يبقى أحد منهم بالقطر المصري ، وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب والرعية فيكونون مطمئنين وفي مساكنهم مرتاحين ،

ثم قالوا للرسولين : « لا بد أن يحضر إلينا المشايخ والشوربجية لترتب لهم ديواناً ننتخبه من سبعة أشخاص من العقلاء يدبرون الأمور ، ورجع الرسولان بهذا الجواب إلى القاهرة فاطمأن الناس وركب وفد مؤلف من الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي ( من العلماء ) إلى الجيزة فتلقاهم نابليون بالترحاب وسألهم « هل أتم كبار المشايخ ، فأجابوه أن المشايخ الكبار قد غادروا المدينة خوفاً من الاحتلال ، فكلفهم بأن يكتبوا لهم بالحضور لتأسيس الديوان ، لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة ، فاستكتبوه عدة مكاتبات بالحضور والأمان ، ثم عادوا من معسكر الجيزة بعد العشاء وحضروا إلى مصر وأطمأن برجعهم الناس وكانوا في وجل وخوف لغيابهم ، وأرسلوا الأمان إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرفاوي والمشايخ ومن انضم إليهم من الفارين من ناحية المطرية ، أما السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فإنه لم يحضر وهاجر إلى سوريا في صحبة أبو بكر باشا الديالي وإبراهيم بك

هذه خلاصة ما رواه الجبرتي عن مفاوضة نابليون لزعماء الشعب غداة معركة الأهرام ، ويجدر بنا أن نذكر رواية المراجع الفرنسية عن هذه المفاوضات ونقارن بينها وبين رواية الجبرتي

يقول ريمو (١) إن مراد بك أمر قبل واقعة الأهرام باعتقال التجار الفرنسيين في القاهرة وكان ينوى قتلهم لولا تدخل المسيوروستي Rosetti فنصل النمسا ناكتفي

(١) التاريخ العلي والحرب للحملة الفرنسية الجزء الثالث

باعتقالهم (١) وفي غداة واقعة الأهرام قابل المسيو بودوف Baudeuf أحد التجار الفرنسيين في القاهرة مصطفى بك (نائب الوالى) ومعه جماعة من التجار الأجانب وطلبوا منه أن يتوجه لمقابلة نابليون بالجيزة وعرضوا وساطتهم لديه ، وجاء ترجمان من المعسكر الفرنسى ، فسار مصطفى بك مصحوباً بوفد وقابل نابليون وعرض عليه تسليم المدينة فى مقابل عهد بحماية الأرواح والأموال وطمأنينة السكان ، فصارحه نابليون بأن أول أغراضه المحافظة على سعادة الشعب المصرى واحترام شعائره الدينية وأمواله ، وانتهت المقابلة وكانت على صفاء ، وبعد انتهائها سار الجنرال ديوى Dupuy على رأس طليعة من الجنود لاحتلال المدينة ، وفى اليوم التالى ( ٢٣ يولى ) دخل الجيش المدينة على أثر تلك الطليعة ، وفى أثناء عبور الجنود النيل استدعى نابليون بعض علماء الجامع الأزهر وأغا الإنكشارية (المحافظ) لمقابلته بمعسكره بالجيزة وناولهم منشوره إلى سكان القاهرة . فهذه الرواية تختلف فى بعض وقائعها عن رواية الجبرتى وإن كانت تتفق فى جوهرها ، على أن رواية الجبرتى فى هذا الصدد أدعى للثقة لأنها رواية شاهد عيان لحوادث ذلك العصر كان يدون معظم مشاهداته فى حينها ، أما رواية ريبو فقد دونت عقب وقوع تلك الحوادث بمدة طويلة ، وليس يخلو هذا التدوين من خطأ أو تحريف ، وقد رجعنا إلى مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى منفاه بسانت هيلين فوجدناه يروى عن هذه المفاوضات أن ترجماناً من قبله ذهب غداة معركة الأهرام لمقابلة علماء الأزهر ومشايخه ، وأن هؤلاء تولوا زمام الحكومة بعد المعركة واجتمعوا ليتشاوروا فانفقوا رأياً على التسليم ، فذهب وفد من المشايخ على رأسه كخيا الباشا (نائبه) وقابلوا نابليون بالجيزة ، وهذه الرواية كما ترى أقرب إلى رواية الجبرتى ولا تنافى فيها ، والذى يفهم من تقارب الروايتين أن نابليون أرسل ترجمانه لمقابلة العلماء باعتبارهم زعماء الشعب ، ولمقابلة الوالى باعتبار نائب السلطان ( وكان نابليون كثير الاهتمام بالمتنبقاء علاقات الود مع سلطان تركيا ) فقابل

(١) يقول الجبرتى فى هذا الصدد : « طلب الأمراء ( المماليك ) التجار من الافرنج غيبوا بعضهم بالقلعة وبعضهم بأماكن الأمراء وصاروا يفتشون فى علات الافرنج على الأسلحة وغيرها »

الترجمان العلماء الذين كانوا بالأزهر ولم يقابل الوالى لأنه ارتحل عقب معركة الأهرام إلى سوريا صحبة إبراهيم بك رئيس الماليك ، ولا بد أن يكون الترجمان قابل مصطفى بك ( نائب الوالى ) فذهب الرسولان اللذان أشار إليهما الجبرقى ولما عادا وسمع العلماء حديثهما مع نابليون أرسلوا وفداً منهم لمقابلته فقابلوه وجرى بينهم الحديث الذى رواه الجبرقى

وترى من خلال المناقشة التى دارت بين نابليون والمشايخ أن أول ما فكر فيه هو تأسيس ( الديوان ) من كبار العلماء والأعيان ، لتدبير الأمور والنظر فى راحة الرعية وإجراء الشريعة ، أى أنه فاضهم فى فكرة تأسيس حكومة أهلية يكون العنصر السائد فيها من المصريين

فلنبحث إذن تفصيلاً فى نظم الحكومة التى أسسها نابليون تنفيذاً لهذه الفكرة وما استتبعها من تأسيس الهيئات واللجان الأخرى

## الفصل الثالث

نظم الحكم التي أسسها نابليون في مصر

ديوان القاهرة — دواوين الأقاليم — الديوان العام — المجمع العلمي

١

### ديوان القاهرة

انتقل نابليون من معسكره بالجيزة وعبر النيل ودخل القاهرة يوم ٢٤ يولييه سنة ١٧٩٨ (١) مصحوباً بضباطه وأركان حربه ، ونزل بقصر محمد بك الألفي بالأزبكية وشرع في تأسيس الديوان

### تأليف الديوان

يؤخذ من رواية الجبرتي في تأسيس الديوان أنه بعد أن استقر نابليون في القاهرة أمر باستدعاء المشايخ والوجاقلية عند قائم مقام صارى عسكر ، فذا استقر بهم الجلوس خاطبهم وتشاوروا معهم في انتخاب عشرة من المشايخ للديوان وفصل الحكومات ، فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرفاوى ، والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ

(١) ذكر «ريبو» في كتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية أن دخول نابليون القاهرة كان يوم ٢٥ يولييه ، والصحيح ما ذكره القومندان دى لاجونسكيير في كتابه (حملة مصر) أن دخوله كان يوم ٢٤ يولييه ، وهى الرواية التي اعتمدها ، لأنها مؤيدة بالوثائق الرسمية ، وذلك أن نابليون أرسل عقب دخوله القاهرة إلى حكومة الديرا كتوار تقريراً عن واقعى شبراخيت والأهرام ، وتاريخ هذا التقرير ٢٤ يولية كما هو ثابت في مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٢٤ ، وكذلك الأمر الذى أصدره باعداد المستشفيات والواردة في مراسلاته (وثيقة رقم ٢٨٢٥) صدر في القاهرة بتاريخ ٢٤ يولية ، فالوثائق الرسمية تدل على أن نابليون دخل القاهرة يوم ٢٤ يولييه لا ٢٥ ، والجبرتي يقول أن نابليون عدى إلى القاهرة يوم الثلاثاء ١٠ صفر سنة ١٢١٣ وهذا يوافق ٢٤ يولية سنة ١٧٩٨ ، ورواية الجبرتي كما ترى صحيحة تؤيدها الوثائق الأصلية.

موسى السرسى ، والشيخ مصطفى الدمهورى ، والشيخ أحمد العريشى ، والشيخ يوسف الشبرخيتى ، والشيخ محمد الدواخلى ،

ومفهوم رواية الجبرقى أن المشايخ والوجاقلية هم الذين اختاروا أعضاء الديوان أى أن هذا الديوان تألف بطريقة تشبه طريقة الانتخاب ذى الدرجتين ، وهو يمثل فى تأليفه المصريين الأصليين من أهالى البلاد ، وأن عدد أعضاء الديوان عشرة ، لكن إذا رجعنا إلى النص الفرنسى للأمر الذى أصدره نابليون بتأليف الديوان (١) نجد أنه يختلف ورواية الجبرقى فى بعض النقط ومنها عدد الأعضاء وبيان أسمائهم

وهذا نص الأمر نثبته هنا للمقابلة بينه وبين ما ذكره الجبرقى :

« معسكر القاهرة فى ٧ ترميدور من السنة السادسة للجمهورية ( ٢٥ يوليه سنة ١٧٩٨ )

« بونا بارت عضو المجمع العلمى الأهلى (٢) والقائد العام للجيش بأمر بما يأتى :

أولاً : تحكّم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة أعضاء

ثانياً : يتألف هذا الديوان من المشايخ : السادات ، والشرقاوى ، والصاوى ، والبكرى ، والفيومى ، والعريشى ، وموسى السرسى ، والسيد عمر نقيب الأشراف ومحمد الأمير ، وعليهم أن يجتمعوا اليوم فى الساعة الخامسة مساءً فى منزل كخيا الشاوشية ، وعليهم أن ينتخبوا من بينهم رئيساً لهم وأن يختاروا سكرتيراً (كاتب سر) من غير الأعضاء ، ويعينوا اثنين من الكتبة والتراجمه يعرفان الفرنسية والعربية

« ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من الأغوات (رؤساء الجند) لإدارة البوليس وعليه أن ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الأسواق وتموين المدينة ، ولجنة من ثلاثة آخرين يكلفون بمهمة دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها إلى فرسخين منها

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٣٧

(٢) يريد المجمع العلمى الفرنسى الذى كان نابليون عضواً به منذ ديسمبر سنة ١٧٩٧ ، وكان يفخر

بعضيته فيه كما تراه من تقديم عضويته بالمجمع على مرتبة القائد العام فى أوامره

ثالثاً : يجتمع الديوان كل يوم من الظهر ويبقى ثلاثة أعضاء على الدوام بدار المجلس

رابعاً : يقام على باب الديوان حرس فرنسي وآخر تركي

خامساً : على الجنرال برتييه Berthier (رئيس أركان الحرب) وقومندان المدينة (الجنرال ديوي) أن يكونا في الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لإجراء ما يلزم لأعضائه ولكي يأخذا عليهم عهداً ألا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش ، فهذا الأمر كما ترى ينص على أن الديوان مؤلف من تسعة أعضاء لامن عشرة كما رواه الجبرتي ، وأن هؤلاء الأعضاء هم : السادات ، والشرقةوى ، والضاوى ، والبكري ، والفيومي ، والعريشي ، والسرمي ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ومحمد الأمير ، فهناك إذن اختلاف بين رواية الجبرتي وأمر نابليون في عدد الأعضاء وفي أسمائهم ، فان في أمر نابليون ثلاثة لم يرد ذكرهم في رواية الجبرتي وهم : السادات والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، والشيخ محمد الأمير ، ونعتقد أن السبب في ذلك أن هؤلاء الثلاثة قد أختارهم المشايخ والوجاقلية يوم اجتماعهم وأصدر نابليون أمره بإقرارهم أعضاء للديوان ، لكنهم لم يقبلوا العضوية إما لرفضهم الاشتراك في مهزلة الحكم مع الفرنسيين أو لأي سبب آخر ، ولذلك لم ترد أسماءهم في رواية الجبرتي ، يؤيد ذلك ان السيد عمر مكرم كان من بين الأشخاص الذين لم يرضوا البقاء في القاهرة عند دخول الفرنسيين فيها فإنه خرج منها والتقى براهيم بك وأبي بكر باشا الوالي وارتحل معهما إلى بلبس ثم إلى سوريا ، ولم يعد إلا بعد احتلال الفرنسيين يافا كما سيحىء بيانه في الفصل الثاني من الجزء الثاني ، والظاهر أنه وقع الاختيار عليه ليكون عضواً بالديوان دون أن يعلم نابليون بنيته في الرحيل إلى سوريا ، فلما تحقق رحيلة خلا محله في العضوية كما خلا محل السادات والأمير ، فتعين بدل هؤلاء الثلاثة المنهوري ، والشبراخيتي ، والدواخلى الذين وردت أسماءهم في رواية الجبرتي ، والمعروف عن الشيخ السادات أنه لم يكن عضواً في هذا الديوان وفي الديوان الذي تألف في أواخر ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، مع أن السادات كان من كبار العلماء في ذلك الحين ، وكان له من النفوذ والجاه ما لم يكن

لأحد من أعضاء الديوان ، فيظهر لنا أنه لم يقبل عضوية الديوان مع صدور أمر نابليون باعتماد عضويته ، ولعله تورع عن قبول هذه العضوية لأنها لا تتناسب مع مقامه في البلاد ، على أنه كان مع ذلك موضع احترام نابليون ، اعتبر ذلك فيما أمر به من تعيينه على رأس لجنة عهد إليها فحص شكاوى الأفراد من مصادرة أموالهم ، وهذه اللجنة مؤلفة من الشيخ السادات والمسيو روسقى قنصل النمسا والجنرال جونو (١) وقد زاره نابليون في بيته وكان يحترمه احتراماً عظيماً ، وذكر الجبرتي عن موقفه حيال الفرنسيين ، انه لما قدمت فرنسا إلى الديار المصرية لم يتعرضوا له في شيء وراعوا جانبه وأفرجوا عن تعلقانه وقبلوا شفاعته وتردد إليه كبيرهم وأعاضهم (٢) ،

على أن نابليون مع احترامه له لم يطمئن يوماً إليه ، وقد اتهمه بزعمه ثورة القاهرة كما سيحكيه بيانه في موضعه (٣) ثم اضطهده الفرنسيون اضطهاداً شديداً في عهد كليبر ثم في عهد منو كما تراه مفصلاً في الفصل التاسع من الجزء الثاني ، فالسادات إذن مع انتخابه عضواً بالديوان لم يقبل هذه العضوية أنفة وتورعاً

بقي أن نعرف السبب فيما ذكره الجبرتي أن عدد أعضاء الديوان عشرة مع أن أمر التأسيس ينص أنهم تسعة ، وأن منهم المهدي مع أنه لم يذكر في الأمر ، ويظهر أن الجبرتي ذكر الشيخ المهدي باعتباره عضواً من الأعضاء فصاروا على روايته عشرة أعضاء ، وهذا خطأ في رواية الجبرتي ، والصحيح أنهم تسعة أعضاء لا عشرة ، أما الشيخ المهدي فلم يكن عضواً بالديوان وإنما كان سكرتيراً له ، وكان أمر نابليون يقضى بأن يعين الأعضاء سكرتيراً للديوان من غير الأعضاء ، فوقع الاختيار على الشيخ محمد المهدي ، فهو لم يكن من الأعضاء التسعة ، وعذر الجبرتي في هذا الخطأ أن الشيخ المهدي وإن لم يكن عضواً بالديوان إلا أنه كان له النفوذ في الديوان

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٩٣-٣٠ ، وليس في المراجع الفرنسية ما يدل على أن هذه اللجنة انعقدت أو عملت عملاً ما ، ولعل السادات لم يقبل أيضاً عضوية تلك اللجنة

(٢) الجبرتي الجزء الثالث

(٣) أطر الفصل الثالث عشر



وفي غير الديوان أكثر مما كان الأعضاء ، فقد ذكر الجبرتي عن نفوذه في ذلك العصر أن الفرنسيين أحبوه وأكرموه وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار إليه في دولتهم مدة إقامتهم بمصر وعلى يده تقضى عندهم حوائج الناس وقضاياهم ، وكانت أوامره نافذة عند ولاة أعمالهم حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر ، ولما رتبوا الديوان كان هو المشار إليه فيه والموظفون في الديوان من دونه وإذا ركب حفوا به ومشوا حوله وبين يديه وفي أيديهم العصى يوسعون له الطريق (١) ، فالمهدي كان إذن السكرتير العام المعين للديوان ، ومن ذلك كانت له الرياسة على موظفي الديوان ، وإذا ركب يمشون حوله ، كما يقول الجبرتي ، لكنه لم يكن عضواً به

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن المهدي صار بعد ذلك عضواً في الديوان الذي تأسس في ديسمبر سنة ١٧٩٨ على نظام آخر كما سيأتي بيانه في الفصل الأول من الجزء الثاني

### اختصاص الديوان

قضى أمر نابليون «بإسناد حكومة القاهرة إلى الديوان، أى أن السلطة المدنية للحكومة كانت من اختصاصه بوجه عام ، لكن لا يعزب عن الذهن أنه لم تكن له سلطة قطعية في أى من الأمور ، بل كان المرجع الأعلى للسلطة العسكرية الممثلة في جيش نابليون

ويقضى الأمر الصادر بتأسيس الديوان أن للأعضاء حق اختيار رئيس من بينهم وتعيين سكرتير (كاتم السر) من غير الأعضاء ، وسكرتيرين مترجمين اثنين يعرفان الفرنسية والعربية ، وللديوان صوت مسموع في تعيين كبار الموظفين ، فقد ذكر الجبرتي أنهم عينوا محمد المسلماني أغا مستحفظان (٢) (محافظة المدينة) وعلى أغا الشعراوي والي دريس ، الشرطة ، وحسن محرم وأمين احتساب ، وذلك بإشارة

(١) الجبرتي الجزء الثالث  
(٢) وكان يسمى «الأغا» فقط

أعضاء الديوان، وقال الجبرتي إن الفرنسيين كانوا معارضين في تقليد هذه المناصب لأولئك الأشخاص لأنهم من جنس المالك، لكن أعضاء الديوان أقنعوهم بأن هؤلاء المذكورين من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم، وبأن السوق لا يخافون إلا منهم، فافتتح الفرنسيون بهذه الحججة، ويقول «ريبو» (١)، إن هذا التعيين كان بنصيحة المسيو ماجالون Magallon قنصل فرنسا في مصر والمسيو فاتتور Venture كبير ترجمة نابليون وبودوف Baudeuf التاجر الفرنسي بالقاهرة، ومعنى ذلك أنهم وافقوا أعضاء الديوان على رأيهم وأيدوه لدى نابليون

ويقضى الأمر بأن من حق الديوان تعيين اثنين من الأغاوات (رؤساء الجند) لإدارة البوليس، وتعيين لجنة من ثلاثة أشخاص يتولون الإشراف على الأسواق وملاحظة تموين المدينة، وهي وظيفة المحتسب القديمة، ولجنة أخرى تتولى دفن الموتى في القاهرة وماحولها، وأصدر نابليون أمراً آخر في ٢٨ يولييه سنة ١٧٩٨ (٢) بأن يعين الديوان «أغا» (رئيساً) للانكشارية لكل من بولاق ومصر القديمة يكونان تابعين لأغا القاهرة، وأن يعين «أغا» (رئيساً) يتولى إدارة الشرطة في النيل وأمر بأن يكون هذا الأغا تحت رئاسة الكونتيراميرال بيرى Perrée الذي عهد إليه بشئون الملاحة النهرية

فتعيين رؤساء الموظفين يدخل إذن في خصائص الديوان، على أن هؤلاء الموظفين كانوا تابعين للرؤساء الفرنسيين ومجردين من كل سلطة وقد احتفظ الفرنسيون بتعيين بعض كبار الموظفين دون استشارة الديوان، فعهد نابليون إلى المسيو بوسايج إدارة الشؤون المالية للحكومة ويقول عنه الجبرتي (مدير الحدود) ويعبر عنه بالروزنامجي أى مدير الروزنامه، وعينوا برتلى الرومي (٣) ككتخدا مستحفظان (وكيل المحافظ)، وقسموا القاهرة وبولاق ومصر القديمة إلى عشرة أخطاط عينوا لكل خط حاكماً (قومنداناً) فرنسياً

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٦٧

(٣) سياتى الكلام عنه في الفصل الثالث عشر

ويقول الجبرتي إنهم عينوا أحد الإفرنج أمين البحرين ( مدير الجمارك ) وآخر  
دأغا الرسالة ، أي مدير البريد ، وفي مراسلات نابليون (١) أن نابليون عهد إلى  
المسيو سوسى مدير مهمات الجيش أن ينظم مكاتب البريد في القاهرة والإسكندرية  
ورشيد ودمياط والرحمانية والمنصورة ومنوف والمحلة الكبرى ، على أن يتولى  
إدارة البريد مدير يتصل بالجيش ، وجاء في تقويم الجمهورية الفرنسية عن السنة  
الثامنة (١٨٠٠) أن مدير البريد في مصر وقتئذ هو المسيو مونتيكو Monticault .

### نظام الديوان

يجتمع الديوان ظهر كل يوم ويبقى من الأعضاء ثلاثة على الدوام في دار  
المجلس ويقوم على حراسة الديوان حرس فرنسي وآخر تركي  
وقد أبلغ نابليون نص الأمر القاضى بتأسيس الديوان إلى الجنرال برتييه  
Berthier رئيس أركان حرب الجيش الفرنسي وأصدر إليه التعليمات الآتية :  
• يجب أن تعنى أولاً بأن تستكتب أعضاء الديوان رسالة إلى أمير الحج  
بالحضور بالحجاج في أمان ، وأن يكتبوا إلى زعماء العرب بالإخلاء إلى السكنية  
والكف عن محاربة الفرنسيين وأن يصدروا منشوراً إلى الشعب يدعوونه إلى  
الطمأنينة ويبينون له مقاصدنا الحسنة نحو الأهالى ،

وأصدر أمره في ٢٨ يولييه بتعيين الأادجودان جنرال بوفوازان Beauvoisins  
قوميسيرا لدى الديوان وعهد إليه حضور جلساته على الدوام وأن يرفع إليه  
عقب كل جلسة كل ما يدور فيها ، وكان نابليون حريصاً على تتبع مداولات  
الديوان حتى في أثناء تغيبه عن العاصمة ، فإنه لما ارتحل عن القاهرة لتعقب جيش  
ابراهيم بك ببليبس أصدر أمره إلى الجنرال ديزيه Desaix بأن ينوب عنه في شؤون  
القيادة وكلفه بأن يتلقى من بوفوازان تقارير يومية عن جلسات الديوان (٢) ولما  
أوفد نابليون بوفوازان في مهمة لدى الجزائر عين بدله المسيو تاليان Tallien قوميسيرا

(١) الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٣٩ و ٢٩٤٠

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٣٠٧

لدى الديوان (٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨) ، ويؤخذ من أمر نابليون القاضى بهذا التعيين أن مهمة القوميسير هي التجسس على الأعضاء فإن نابليون يقول في أمره (١) «على الستويان (٢) تاليان أن يحضر جميع جلسات الديوان وأن يسعى في معرفة أخلاق أعضائه ومبلغ الثقة التي يمكننا أن نوليهم إياها ، وعليه أن يبلغنى كل يوم بالشكاوى التي ترفع إلى الديوان والمسائل التي بحث فيها والطلبات التي يبدىها ، هذه هي الأوامر والعهود الخاصة بتأسيس الديوان وبيان اختصاصاته ، ومنها يتبين أن سلطته لم تكن تتعدى مدينة القاهرة وأن هذه السلطة لم تكن إلا استشارية ومقيدة بتعهد الأعضاء أن لا يعملوا شيئاً ما ضد مصلحة الجيش فضلاً عن أنهم كانوا يعملون ويتداولون بعين من الفرنسيين تحت المراقبة المستمرة وقد جعل مقر الديوان ببيت قائد أغا بالأزبكية قرب الرويعي (٣) وسكن به رئيس الديوان ، وتداول المجلس في جلسته الأولى في الوسائل اللازمة لإعادة الأمن والنظام إلى المدينة

- ٢ -

### دواوين الأقاليم

عمم نابليون نظام الديوان في مديريات القطر المصرى فأصدر في ٢٧ يوليه سنة ١٧٩٨ الأمر الآتى (٤) :

أولاً : يتألف في كل مديرية من مديريات القطر المصرى ديوان من سبعة

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٠٧

(٢) كلمة ستويان مأخوذة من الفرنسية Citoyen ومعناها « مواطن » وهي من مصطلحات الثورة الفرنسية ، وتؤدى معنى كلمة « مسيو » الحالية

(٣) يبتدى شارع الرويعي من أول شارع البكرية وينتهى لشارع وجه البركة ، وجامع الرويعي بأوله ، ويقول العلامة على باشا مبارك في المخطط التوفيقية عن جامع الرويعي إنه بالقرب من جامع البكرى أنشأه السيد أحمد الرويعي رئيس تجار مصرف القرن التاسع ، وأما قائد أغا فهو من مماليك محمد بك أبى الذهب وكان أغات مستحفظان ( محافظ القاهرة ) سنة ١١٩٨ هجرية

(٤) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٨٥٨

أعضاء يسهرون على مصالح المديرية ويعرضون عليه كل الشكاوى التي تصل إليهم  
ويمنعون اعتداء القرى بعضها على بعض ، وعليهم مراقبة الأشخاص السيء السيرة  
ومعاقبتهم والاستعانة على ذلك بالقوات التي تحت إمرة القواد الفرنسيين ، وإرشاد  
الأهالى إلى ما تقتضيه مصلحتهم

ثانياً : يعين فى كل مديرية آغا ( رئيس ) الانكشارية يتصل دائماً بالقومندان  
الفرنسى ، ويكون تحت إمرته قوة مسلحة من ستين رجلاً من الأهالى يحافظ بهم  
على النظام والأمن والسكينة

ثالثاً : يعين فى كل مديرية مباشر ، لجباية أموال الميرى والضرائب وإيراد  
أملاك المالك التي صارت ملكاً للجمهورية ويكون تحت رياسته العمال الذين  
يحتاجهم العمل

رابعاً : يعين بجانب هذا المباشر وكيل فرنسى للخبرة مع مدير المالية ومراقبة  
تنفيذ الأوامر التي يصدرها وتكون من اختصاص الإدارة المالية  
وأرسل نابليون صورة هذا الأمر إلى قواد الجيش الفرنسى الذين تولوا حكم  
المديريات فى عهد الحملة الفرنسية

-- ٣ --

### الديوان العام

أراد نابليون أن يستشير آراء أعيان العاصمة والأقاليم فى المسائل التي تفرعت  
عن النظام الجديد ، وفى ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ دعاهم إلى الاجتماع فى جمعية عامة تمثل  
أعيان البلاد ليستشيرها فى النظام النهائى للدواوين التي أسسها وفى إدارة الحكومة  
ووضع نظامها الإدارى والمالى والقضائى ، وحدد لانعقاد هذه الجمعية بالقاهرة  
يوم أول أكتوبر ثم عدل الميعاد إلى ٥ أكتوبر ، وسميت هذه الجمعية بالجمعية بالقاهرة  
تميزاً لها عن ديوان القاهرة

توخى نابليون اختيار هؤلاء الأعيان من الأشخاص الذين لهم نفوذ بين  
الأهالى ومن الذين امتازوا بمركزهم العلمى وكفائتهم وطريقة استقبالهم للفرنسيين ، (١)

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٣٨

احتوت هذه الجمعية العامة مندوبين من القاهرة ومن الاسكندرية ، ورشيد ،  
ودمياط ، والبحيرة ، والغربية ، والمنصورة ، والشرقية ، والمنوفية ، والقليوبية ،  
والجيزة ، واطفيح ، وبنى سويف ، والفيوم ، والمنيا ، وأسيوط وجرجا ، وكان مندوبو  
كل مديرية مؤلفين من ثلاثة من العلماء ، وثلاثة من التجار وثلاثة من الأهالي (مشايخ  
البلاد ورؤساء العربان) وكان مندوبو القاهرة في الديوان العام ثلاثة أمثال كل  
مديرية ولكل من الشرقية والمنوفية الضعف

### رسالة نابليون في الغرض من الديوان

أصدر نابليون أمره إلى العالمين مونغ Monge وبرتوليه Berthollet عضوي  
المجمع العلمي بالاشتراك في جلسات «الديوان العام» على أن يكون لهما صفة  
«قوميسيرين» لحضور المناقشات وعرض مشروعات الحكومة على الأعضاء ،  
وتلقيا منه تعليماته في رسالة قال فيها (١) :

« إن الغرض من عقد «الديوان العام» هو تعويد الأعيان المصريين تنظيم  
المجالس الشورية والحكم ، فقولوا لهم إنى دعوتهم لاستشارتهم وتلقى آرائهم فيما  
يعود على الشعب بالسعادة والرفاهية : وما يفكرون في عمله إذا كان لهم حق الفتح  
الذي حزنناه في ميدان القتال

« اطلبوا من الديوان العام أن يبدي رأيه في المسائل الآتية :

أولاً : ما هو أصلح نظام لتأليف مجالس «الديوان» في المديريات وما هو  
المرتب الذي يجب تحديده للأعضاء

ثانياً : ما هو النظام الذي يجب وضعه للقضاء المدني والجنائي

ثالثاً : ما هو التشريع الذي يكفل ضبط الموارد ومحو أنواع الشكارى  
والإجحاف الموجودة في النظام الحالي

رابعاً : ما هي الإصلاحات والاقتراحات التي يراها الديوان لإثبات ملكية  
العقارات وفرض والضرائب

ويجب أن تفهموا الأعضاء بأننا لا نقصد إلا توفير السعادة والرفاهية للبلاد التي تشكو من سوء نظام الضرائب الحالي كما تشكو من طريقة تحصيلها ، وعليكم أن تضعوا للديوان نظامه الداخلي كما يأتي : أن ينتخب الأعضاء رئيساً له ، ونائب رئيس ، وسكرتيرين مترجمين اثنين ، وثلاثة مراقبين ، وأن يكون ذلك بطريقة الاقتراع وبكل مظاهر الانتخاب ، وعليكم أن تتبعوا المناقشات وتدونوا أسماء الأعضاء الذين يمتازون عن زملائهم في الديوان سواء بنفوذهم أو بكفائتهم ،

من هذه الرسالة نعرف بيان المسائل الأربع التي عرضها نابليون على الديوان العام لأخذ رأيه فيها ، وقد رجعنا إلى الجبرتي فوجدناه قد أوجز كثيراً في الكلام عن الديوان العام ومداولاته ، ولذلك اعتمدنا على المراجع الفرنسية لأنها في هذا الصدد أوفى وأدق بيانا ، قال الجبرتي في بيان المسائل الأربع المطروحة عليه : ولما تكامل الجمع شرع القاضي ملطى في قراءة المنشور ، وتعداد ما به من الشروط مسطور ، وذكر من ذلك أشياء منها أمر المحاكم والقضايا الشرعية . وحجج العقارات ، وأمر المواريث ، وتناقشوا في ذلك حصة من الزمن ، وكتب هذه الأربعة أشياء أبواب ديوان الخاصة ( أعضاء الديوان ) يدبرون رأيهم في ذلك وينظرون المناسب والأحسن وما فيه الراحة لهم وللرعية ثم يعرضون ما دبروه يوم الخميس ،

### اجتماع الديوان العام وقراراته

وفي أوائل شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ حضر إلى القاهرة نواب الأقاليم الذين دعوا إلى حضور الديوان العام ، ففي يوم الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ( ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٢١٣ ) نبه عليهم وعلى نواب القاهرة من المشايخ ، والأعيان ، والتجار بالحضور إلى الديوان العام في اليوم التالي ( السبت ) بدار محكمة القضايا ببيت مرزوق بك بحارة عابدين ، لكن الديوان لم ينعقد بهذا المكان وأعيد التنبيه على الأعضاء بالاجتماع بدار ديوان القاهرة وهو بيت قائد أغا بالأزبكية

ذهب الأعضاء إلى دار الديوان وحضر الاجتماع المسيو مونج والمسيو برتوليه

متدبين من قبل نابليون لافتتاح الديوان والاتصال بالأعضاء وعرض أفكار الحكومة ومشروعاتها عليهم لأخذ رأيهم فيها

### خطبة الافتتاح

ولما استقر بالأعضاء المقام شرع القاضي ملطى رئيس محكمة القضايا في قراءة (فرمان الشروط) وقام كبير المندبين (مونج) وناول الترجمان خطبة الافتتاح وتليت مترجمة إلى اللغة العربية ، ننقل هنا خلاصتها كما وردت في الجبرتي لأن هذه الخلاصة هي التي تليت بالديوان

« إن قطر مصر هو المركز الوحيد<sup>(١)</sup> ، وإنه أخصب البلاد ، وكان يجلب إليه المتاجر من البلاد البعيدة ، وإن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التي يعرفها الناس في الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأول ، ولسكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الامم في تملكه ، فملكه أهل بابل ، وملكه اليونيون والعرب والترك الآن ، إلا أن دولة الترك شددت في خرابه لأنها إذا حصلت الثمرة قطعت عروقها ، فلذلك لم يبقوا بأيدي الناس إلا القدر اليسير وصار الناس لأجل ذلك محتفين تحت حجاب الفقر وقايه لأنفسهم من سوء ظلمهم ثم إن طائفة الفرنسية بعد ما تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحروب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هي فيه وإراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة فقدموا وحصل لهم النصر ، ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد من الناس ولم يعاملوا الناس بقسوة وان غرضهم تنظيم أمور مصر وإجراء خلعها التي دثرت ، فيصير لها طريقان طريق إلى البحر الأسود<sup>(٢)</sup> وطريق إلى البحر الأحمر فزداد خصها ورعيها ، ومنع القوى من ظلم الضعيف ، وغير ذلك استجلاباً لخواطر أهلها وإبقاء للذكر الحسن فالمناسب من أهلها ترك الشغب وإخلاص المودة ، وان هذه الطوائف المحضرة من الأقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة لأنهم أهل خبرة وعقل ، فيسألون عن

(١) ترجمة الأصل الفرنسي ... « إن مصر بلاد لا نظير لها » وفي الترجمة الواردة في الجبرتي  
بعض عبارات ركيكة أبقيناها لأنها وثيقة تاريخية يجب المحافظة عليها  
(٢) كذا في الجبرتي والصحيح البحر الأبيض كما جاء في الأصل الفرنسي



أمور ضرورية ويجيبون عنها فينتج لصارى عسكر ( نابليون ) من ذلك ما يليق  
صنعه (١)

هذا هو الخطاب الذى أفتتح به الديوان العام ، والمتأمل فيه يرى نابليون  
يشيد بعظمة مصر القديمة ومركزها الممتاز فى العالم ويعترف بأن مصر كانت  
معلمة الأمم وحاملة لواء الحضارة والعرفان ، وجميل أن يصدر هذا الاعتراف  
من قائد دانت له الممالك وخضعت له الرقاب ، على أن هذه اللهجة من شأنها أن  
تبعث فى نفوس سامعيها من أعضاء الديوان روح العزة القومية فتحدو بهم إلى  
التطلع لإحياء عظمة مصر القديمة وتصرفهم عن الإذعان لحكم الفرنسيين وغير  
الفرنسيين ، والواقع ان مصر لم تدعن للحملة الفرنسية كما سيراه القارىء  
فيما يلي

وفى خطاب نابليون إشارة إلى طمع الدول فى مصر ، وتصريح بما اقترن به  
الحكم التركى فى مصر من الظلم والخراب ، وهذا الوصف لا يخالف الحقيقة فى شيء ،  
ولكن الأمر الذى يلفت النظر أن نابليون فى خطابه هذا قد خالف خطته القديمة  
فى مجاملة تركيا والتظاهر بالمودة للسلطان العثمانى فخاهر لأول مره فى خطاب رسمى  
عنى بعدائه لتركيا ، والسبب فى تغيير خطته بالنسبة لتلك الدولة أنها اتحدت مع  
انجلترا والروسيا لمحاربة فرنسا وإخراج جنودها من مصر ، وأعلن الباب العالى  
الحرب على فرنسا فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فلم ير نابليون بدا من أن يجاهر بعدائه  
للأتراك وبصراح المصريين بالظعن فى تركيا ويذكرهم بما اتصف به حكمها من الظلم  
والجهل والغباوة ليصرفهم عن التعلق بها ، على أن المصريين كانوا يرون أن تركيا  
تعمل وقتئذ بمساعدة حلفائها على إجلاء الفرنسيين من مصر ، وجلاؤهم عنها  
يؤدى إلى ترك البلاد لأهلها ، وقد حققت الأيام صحة هذا النظر لأن محمد على لم  
يحقق استقلال مصر إلا بعد طرد الفرنسيين ثم الإنجليز من البلاد

## رأسه الديوان العام

كتب الجبرتي ما يأتي في وصف انتخاب رئيس الديوان العام ننقله لأنه كحضر جلسة أو مضبطة لما دار بشأن انتخاب الرئيس . قال الترجمان ، نريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصاً منكم يكون كبيراً ورئيساً عليكم ممثلين أمره وإشارته ، فقال بعض الحاضرين الشيخ الشرفاوي ، فقال نو نو ( لا لا ) وإنما ذلك يكون بالقرعة فعملوا قرعة بأوراق فطلع الأكثر على الشيخ الشرفاوي ، فقال حيثئذ يكون الشيخ عبدالله الشرفاوي هو الرئيس ، فما تم هذا الأمر حتى زالت الشمس فأذنوا لهم في الذهاب فانتخاب الرئيس كان إذن بالاقتراع السري كما يحصل في المجالس النيابية ، ومن كلام الجبرتي يتبين أن طريقة الاقتراع السري لم تكن مألوفة للأعضاء ، وأنهم أرادوا انتخاب الشرفاوي رئيساً بالتصويت العلني ولكن الترجمان نبههم إلى أن يكون الانتخاب سرياً ، ومن أظرف ما في أسلوب الجبرتي أنه ذكر ما دار بالجلسة حرفياً حتى كلمة ( نو نو ) ، وهذا يدل على دقته في الوصف والرواية

## قرارات الديوان

من الواجب أن نعرف أن الديوان العام لم تكن له سلطة قطعية في الأمور التي عرضت عليه ، بل كان الغرض من انعقاده استشارته والوقوف على آراء أعضائه

إن خطاب افتتاح الديوان مفهوم منه أن عمل الأعضاء مقصور على الإجابة عما يسألون عنه من النظم المراد وضعها ويكون لنا بليون القول الفصل فيما يليق صنعه ، وعلى هذه القاعدة انعقد الديوان

ومن جهة أخرى فقد كانت المسائل التي تعرض على الديوان تدرس في الوقت نفسه في لجنة ألفها نابليون برأسته وبعضوية مدير مهيات الجيش (١) ومدير الشؤون المالية (٢) وكبير المباشرين (٣) وأمر بأن تنعقد هذه اللجنة يومياً وتقرر القرارات النهائية فيما يتداول فيه الديوان ،

(١) المسيو سوسي Suci (٢) المسيو بوسليج

(٣) هو المعلم جرجس الجوهري الذي كان كبير المباشرين في عهد المايك فابقاء نابليون في منصبه وتجد في مراسلات نابليون الجزء الرابع أمر نابليون بتعيينه كبيراً المباشرين (وثيقة رقم ٢٨٩٥)

فقرارات الديوان كانت أشبه «برغبات» تعرض على اللجنة التي ألفها نابليون  
ولهذه اللجنة القول الفصل

(المسألة الأولى) - نظام مجالس الديوان

لم يقل الجبرتي شيئاً عما قرره الديوان في المسألة الأولى وهي (ما هو أصلح  
نظام لتأليف مجالس الديوان، في المديرية)  
ويقول دي لا جونكيير (١) إن رأى الديوان العام في هذا النظام أن يكون  
لكل من الإسكندرية ودمياط ورشيد وديوان، مؤلف من ١٢ إلى ١٥ عضواً  
وذلك نظراً لأهمية هذه الثغور، أما باقي المديرية فيكون بكل منها ديوانان  
أو ثلاثة أو أربعة «دواوين» ينعقد كل ديوان في بندر من البنادر المهمة فيها  
ويوفد كل ديوان ثلاثة مندوبين لتمثيله في الديوان العام بالقاهرة  
وقد عرض هذا الرأي على نابليون فعدل فيه بعض التعديل وقرر بتاريخ  
٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ أن يكون نظام الديوان كما يأتي:

أن يكون الديوان العام مؤلفاً من ٢٥ عضواً منهم تسعة عن القاهرة وواحد  
عن كل مديرية من المديرية الست عشرة التي كان يتألف منها القطر المصري،  
ويكون للديوان اثنان من السكرتيرين المترجمين واثنان من الحجاب و ١٠ من الحراس  
ويكون ثلث أعضاء الديوان العام من مشايخ البلاد وثلثهم من التجار والثلث من  
العلماء، ويجتمع كلها دعاه القائد العام إلى الاجتماع، ويختار من بينه تسعة أعضاء  
يتألف منهم الديوان الخصوصي الذي يجتمع باستمرار في القاهرة (٢)، ويكون  
في كل مديرية ديوان مؤلف من تسعة أعضاء ينتخبون بمعرفة جمعية عمومية  
مؤلفة في كل مديرية من العلماء والأئمة ومشايخ البلاد وأكابر وأعيان التجار  
والصناع، وهؤلاء يعينهم قومندان المديرية، ويكون لديوان القاهرة الرئاسة على

(١) كتاب حملة مصر . الجزء الثالث

(٢) لم ينفذ هذا التعديل لقيام ثورة القاهرة وإبطال الديوان كما تراه في الفصل الثالث عشر من هذا  
الجزء، ولما أعيد الديوان في شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨ أدخل نابليون في نظامه تعديلاً آخر كما تراه في  
الفصل الأول من الجزء الثاني

دواوين المديرية ، ولكل ديوان في مديريته الرأسة والإشراف على القضاة  
ومشاخ البلاد

### (المسألة الثانية) - النظام القضائي المدني والجنائي

رأى الديوان أن يبقى نظام القضاء على ما كان عليه وأن لا يتغير شيء من  
ترتيب المحاكم ونظامها ، لكنه طلب أن تحدد رسوم التقاضي التي تدفع للقضاة  
وموظفي المحاكم ، وطلب أيضا أن يكون تعيين القضاة في كل مديرية من حقوق  
الدواوين ، المؤلفة بها

هذا ما ورد في المراجع الفرنسية ، وإليك ما قاله الجبرتي في هذا الصدد  
« واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الخميس الموعود سنة ١٢١٣ (١) واجتمعوا  
بالديوان ومعهم ما لخصوه واستأصلوه في الجملة ، فأما أمر المحاكم والقضايا فالأولى  
أبقاؤها على ترتيبها ونظامها ، وعرفوهم عن كيفية ذلك ، ومثل ذلك ما عليه أمر  
محاكم البلاد ، فاستحسنوا ذلك إلا أنهم قالوا يحتاج ضبط المحاصيل وتقريرها إلى  
أمر لا يتعداه القضاة ولا نوابهم . فقرروا ذلك وهو أنه إذا كان عشرة آلاف فما  
دونها يكون على كل ألف ثلاثون نصفاً ، وإذا كان المبلغ مائة يكون على الألف خمسة  
عشر ، فإن زاد على ذلك فعشرة . وانفقوا على تقرير القضاة والنوب على ذلك ،

### (المسألة الثالثة) - التشريع الخاص بالمواريث

تباحث الديوان العام في نظام التوريث ، فسئل العلماء من الأعضاء عن قسمة  
المواريث فقالوا إنها تقسم بحسب القواعد الشرعية في تقسيم الميراث ، فسألهم  
القاضي ملطى عن مصدر تلك القواعد ، فقالوا من القرآن الكريم وتلوا بعض  
آيات المواريث ، فقال المندوبان الفرنسيان إن لهم في تقسيم المواريث قواعد  
أخرى ، ويظهر أن الجدل في هذه المسألة قد طال ، فتداخل ميخائيل كحيل أحد  
أعضاء الديوان وأيدوجهة نظر العلماء وقال نحن والقبط يقسم لنا مواريثنا  
المسلمون ، فطلب المندوبان الفرنسيان أن يكتب العلماء قواعد تقسيم المواريث

وإليك مقاله الجبرتي عن محكمة القضايا ونظام التسجيل :

« وفيه شرعوا في ترتيب ديوان آخر سموه محكمة القضايا ، وكتبوا في شأن ذلك طوماراً ( منشوراً ) وشرطوا فيه شروطاً ورتبوا فيه ستة أنفار من القبط وستة أنفار من تجار المسلمين ، وجعلوا قاضيه الكبير ملطي القبطي الذي كان كاتباً عند أيوب بك الدفتردار ، وفوضوا إليهم القضايا في أمور التجار والعامّة والمواريث والدعاوى ، وجعلوا لذلك الديوان ( المحكمة ) قواعداً وأركاناً من البدع السيئة ، وكتبوا نسخاً في مفارق الطرق ورؤوس العطف وأبواب المساجد ، وشرطوا ضمنه شروطاً ، ومن ضمن تلك الشروط شروط أخرى بتعبيرات سخيصة يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية ، ومحصله التحايل على أخذ الأموال كقولهم بأن أصحاب الأملاك يأتون بحججهم وتمسكاتهم ( مستنداتهم ) الشاهدة لهم بالتملك ، فإذا أحضروها وبينوا وجه تملكهم لها إما بالبيع أو الانتقال لهم بالإرث لا يكتفى بذلك ، بل يؤمر بالكشف عليها في السجلات ، ويدفع على ذلك الكشف دراهم بقدر عينوه ، فإن وجد تمسكه مقيداً بالسجل طلب منه بعد ذلك الثبوت ، ويدفع على ذلك الإشهاد بعد ثبوته وقبوله قدر آخر ، ويأخذ بذلك تصحيحاً ، ويكتب له بعد ذلك تمكين ، وينظر بعد ذلك في قيمته ويدفع على كل مائة اثنين ، فإن لم يكن له حجة أو كانت ولم تكن مقيدة بالسجل أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد فإنها تضبط لديوان الجمهور ( الجمهورية ) وتصير من حقوقهم (١) .

ولاشك أن مثل هذا النظام يؤدي بالناس في ذلك العهد إلى العنت والإرهاق وكثيراً ما يفضى إلى ضياع الملكية ومصادرتها لجانب الحكومة ، لأن الملكية قد تنشأ عن الميراث وقد يتعذر إحضار الشهود عليها فتصادر وتسلب من صاحبها ، ولم يسمع في أي نظام من نظم التسجيلات العقارية أن يسرى على العقود القديمة ، لأن القوانين لا تسرى على الماضي ، وليس مما تسيغه العدالة اعتبار أن عدم إثبات

الملكية بالطرق التي يفرضها النظام الجديد يؤدي إلى مصادرتها وضمها للحكومة ، فالغرض من وضع هذا النظام هو كما يقول الجبرتي ، والتحايل على أخذ الأموال ، وضع نابليون هذا النظام قبل انعقاد الديوان العام ، فلما اجتمع الديوان للمباحثة فيه أبدى الأعضاء استياءهم منه واعترض المشايخ على إكراه جميع الملاك على تقديم مستندات تملكهم القديمة لتسجيلها وقالوا إذا كان الغرض وضع ضريبة على الأملاك فلتفرض على العقارات نفسها ، وقد وافقهم نابليون على اعتراضهم ، وكانت موافقته بنصيحة المسيو بوسليج Poussielgue مدير الشؤون المالية ، فإنه أشار على نابليون في تقرير قدمه في هذا الصدد بإجابة الديوان إلى طلبه وأوضح في تقريره بأنه يتعذر تسجيل مستندات التملك القديمة عن البيوت والمنازل لأن معظمها بناها ملاكها وليس بأيديهم حجج بها ، ولأن إجراء التحقيق عن مصدر الملكية لكل منزل عمل شاق لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة ، ولا يمكن أن يتم في الثلاثين يوماً المحددة لتقديم الحجج وتسجيلها وقد ذكر في تقريره أن عدد منازل القاهرة وبولاق ومصر القديمة في ذلك الحين زهاء مائة ألف منزل وعدد الملاك من خمسين إلى ستين ألف مالك ، واستنتج في تقريره استحالة تنفيذ مشروع التسجيل ، فاستعاض الفرنسيون عن هذا المشروع بفرض ضريبة على العقارات ذاتها

وخلاصة هذه الضريبة أنهم قسموا المباني إلى أنواع وكل نوع إلى درجات لكل نوع ضريبة تقدر بحسب درجاته كما تراه في البيان الآتي (١)

الدرجة الأولى	الثانية	الثالثة	
١٨ ريال	٩ ريالات	٤ ريالات	الوكائل
١٥	١٠	٥	الحمامات
٨	٤	١	معاصر الزيت
٣	١	١	معاصر السمسم

(١) نقلنا هذا البيان عن الأمر الذي أصدره نابليون في ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ والمنشور في

الدرجة الأولى	الثانية	الثالثة
٢ ريال	١ ريال	٠ ريال
٢	١	٠
٢	١	١
٢	١	١
٢	١	٠
٨	٤	٢

وقرروا على بيوت الدرجة الرابعة ربع ريال.

ويقضى الأمر بأن تدفع الضريبة في السنة على قسطين وبأن يعين مدير الشئون المالية المهندسين لتقسيم المباني والعمارات إلى الدرجات التي تناسبها ، وأن تعمم هذه الضريبة في الإسكندرية ورشيد وفوه ودمياط مع إنقاصها في هذه المدن إلى النصف ، وعبداً ذلك تؤخذ رسوم تتراوح بين ٢ و٥ في المائة عن العقود الجديدة في المبيعات وعقود نقل الملكية والتنازل عنها والتصرفات والإيجارات والمداينات والهبات وعقود الزواج ، ورسوم أخرى محددة عن التوكيلات وجوازات السفر وشهادات الميلاد وإثبات الوفيات والتركات والإشهادات وغير ذلك ، أصدر نابليون أمره بهذه الضرائب الجديدة دون أن يفتظر رأى الديوان فيها وصدر الأمر والديوان منعقد في جلسته الأخيرة

وإليك ماقاله الجبرتي في هذا الصدد : « وفي يوم السبت ١٠ جمادى الأولى (٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨) عملوا (عقدوا) الديوان وأحضرها قائمة مقررات الأملاك والعقار ، فجعلوا على الأعلى (الدرجة الأولى) ثمانية (ريالات) فرانسه ، والأوسط ستة ، والأدنى ثلاثة . وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافى ، وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين (ريالا) بحسب الحسة والرواج والاتساع ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وأصقوها بالمفارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخاً للأعيان ، وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى ، وشرعوا في الضبط والإحصاء وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها ،

ورواية الجبرتي فيما يتعلق بقيمة الضرائب تختلف كما ترى عن نص الأمر الذي أصدره نابليون في صددها ، ولعل سبب الاختلاف أن المنشورات التي أصدرها الفرنسيون بهذه الضرائب وألصقوها بالمفارق والطرق واطلع عليها الجبرتي قد حوت من الضرائب أكثر مما فرضه نابليون في أمره

وظاهر من رواية الجبرتي أنه لم تحصل مناقشة في الديوان بشأن هذه الضريبة وقيمتها لأن الفرنسيين كانوا مصممين على فرضها فلم يسمحوا بمناقشة فيها ووضعوا الديوان أمام الأمر الواقع

كان تقرير هذه الضرائب الفادحة من أهم الأسباب التي نفرت المصريين من حكم الفرنسيين ، لأن هذه الضرائب على فداحتها قد عمّت الأغنياء والفقراء ، ولم يكن أصحاب الدكاكين والحوانيت يدفعون ضريبة عقارية في عهد المماليك ، فعظم استياءهم واشتد سخطهم ، وهم أغلبية السكان ، وتجاوز الاستياء إلى الأغنياء لأن الضرائب الجديدة أثقلت العبء على الملاك وفرضت عليهم أموالاً لم يكونوا يغمونها في عهد المماليك ، فكانت فداحة تلك الضرائب من أكبر العوامل التي أدت إلى ثورة القاهرة

انفض الديوان العام يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ (١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣) دون أن يستطيع تخفيف فداحة الضرائب التي استحدثها الفرنسيون ، لذلك لم يكذب ينفذ حتى شبت نار الثورة في القاهرة كما تراه في الفصل الثالث عشر  
والآن وقد انتهينا من الكلام عن الديوان العام فلنتكلم عن المجمع العلي وقد أفردنا له الفصل الآتي



## الفصل الرابع

### المجمع العلمي

معهد للعلوم ومجلس استشاري للحكومة

أسس نابليون بجانب الديوان مجلساً له صبغة علمية وله علاقة بإدارة الحكومة وهو (المجمع العلمي المصري) Institut d'Egypte، اختار لعضويته خلاصة أعضاء بعثة العلوم والفنون، التي صحبها معه إلى مصر وتكلمنا عنها في الفصل الثاني (ص ٧٩) تضم هذه البعثة علماء الحملة الفرنسية ورجال الفن فيها، وقد كانوا منتظمين فروعاً بحسب العلوم والأعمال التي انقطعوا لها أو توفروا عليها، وإلى القارىء بيان هذه الفروع: الرياضة والهندسة، الفلك، الميكانيكا، الكيمياء، طبقات الأرض والمعادن، النباتات، حياة الحيوان، الطب والجراحة، الصيدلة، الاقتصاد السياسي، الآثار القديمة، هندسة المعمار، التصوير، الرسم، هندسة الري والطرق والجسور، الهندسة الجغرافية، الهندسة البحرية والميكانيكية، النقش، الحفر، الأدب، الموسيقى، طلبة مدرسة الهندسة العالية، الطباعة العربية والفرنسية

فلما جاء أعضاء البعثة إلى الإسكندرية صحبة الحملة بقوا فيها بلا عمل حتى انتهت الحركات الحربية ودخل نابليون القاهرة، فاعتمز بعد موقعة الأهرام الارتفاع بمواهب أولئك العلماء والفنيين وتمكينهم من العمل في النواحي التي تخصصوا لها، فاستدعاهم إلى القاهرة وفكر في إنشاء «المجمع العلمي المصري»، على مثال المجمع العلمي الفرنسي الذي كان هو عضواً فيه<sup>(١)</sup>، وانتخبه من نوابغ البعثة وضم إليهم نخبة من كبار القواد والضباط ممن لهم باع في العلوم عزم نابليون على إنشاء هذا المجمع عقب انتهائه من مطاردة إبراهيم بك إلى

(١) أنشئ المجمع العلمي الفرنسي سنة ١٧٩٥ وانتخب نابليون عضواً به في ديسمبر سنة ١٧٩٧

سوريا وعقب وصول نبا كارثة العمارة الفرنسية في موقعة «أبو قير»، وعهد إلى سبعة من أقطاب لجنة العلوم والفنون وقواد الجيش اختيار أعضائه، وهؤلاء السبعة هم العلماء مونج Monge وبرتوليه Berthollet وجوفروا سان هيلير Geoffoi Saint Hilaire وكوستاز Costaz والطبيب ديجنت Desgenettes وكل من الجنرال كافريللي Caffarelli وأندريوسى Andreossi

ثم أصدر أمره بإنشاء هذا المجمع في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ (١) وضمنه الغرض من إنشائه وبيان اختصاصاته، وهذا الأمر يتألف من ست وعشرين مادة تلتخص فيما يلي:

الغرض من المجمع -- يتألف في مدينة القاهرة بمجمع للعلوم والفنون الغرض منه: (١) تقدم العلوم والمعارف في مصر (٢) دراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ونشر هذه الأبحاث (٣) إبداء رأيه للحكومة في المسائل التي تستشيرها فيها

أقسام المجمع -- يتألف المجمع من أربعة أقسام: قسم الرياضيات، وقسم الطبيعيات، وقسم الاقتصاد السياسي، وقسم الآداب والفنون ويتألف كل قسم من اثني عشر عضواً

انعقاد المجمع -- يجتمع المجلس مرتين في الشهر، ويجوز لقواد الجيش الفرنسي وضباطه أن يحضروا جلساته

مكتب المجمع -- ينتخب المجلس بين أعضائه هيئة مكتب المجلس وتتألف من الرئيس، ونائب الرئيس، ويعاد انتخابهما كل ثلاثة أشهر، وسكرتير دائم، ومدير يعاد انتخابه كل سنة، وأمين دائم لمكتب المجلس ومترجم عربي ويجوز أن يكون من الأعضاء

أبحاث المجمع -- ينشر المجلس مجموعة أبحاثه كل ثلاثة أشهر، وتشمل هذه المجموعة مذكرات أعضائه وتقارير اللجان التي يؤلفها لدرس المسائل التي تعرضها عليه الحكومة

يقرر المجلس إعطاء جائزتين كل سنتين، الأولى لأهم بحث خاص بتقديم الحضارة والمدنية في مصر، والثانية لأهم بحث خاص بتقديم الصناعة، وتتألف لتوزيع الجائزتين لجنة تنتخب بالاقتراع مؤلفة من خمسة أعضاء يدرسون الأبحاث المقدمة في المسابقة ويقررون البحث الذي يستحق الجائزة، وتطبع الأبحاث التي أجزت في مجموعة المجلس وكذلك الأبحاث التي لم تنل الجائزة متى رأت اللجنة أنها جديرة بالنشر

### أعضاء المجمع العلمي

قلنا إن نابليون اختار لعضوية المجمع العلمي خلاصة أعضاء بعثة العلوم والفنون الذين صحبهم معه حين مجيئه إلى مصر، وانتظم هو معهم في سلك المجمع، فصار مؤلفاً من ستة وثلاثين عضواً موزعين على أربعة أقسام:

قسم الرياضيات - مونج Monge، نابليون بونابارت، فورييه Fourier، كوستاز Costaz، نوي Nouet، كينو Quesnot، لوپير Le Père، جيرار Girard، لروا Le Roy، الجنرال أندريوسى Andreossi، ساي Say، مالوس Malus، قسم الطبيعيات - برتوليه Berthollet، دولوميو Dolmieu، كوتى Conté، جوفروا سان هيلير Geoffroi Saint Hilaire، ديكوتيل Descotils، سافيني Savigny، دييوا Dubois، ديجينيت Desgenettes، شامبي Champy، دليل Delile، قسم الاقتصاد السيامي - الجنرال كافاريلي Caffarelli، جلوتيه Gloutir، سوسى Sucey مدير مهمات الجيش، سولكوسكى Sulkowsky، تاليان Ta en، بوسليج Poussielgue

قسم الآداب والفنون - برسفال دجرانميزون Perseval De Grandmaison، عضو الأكاديمية الفرنسية، فانتور Venture، نوري Norry، دوترتر Dutertre، فيفان دينون Vivant Denon، ريجل Rigel، ردوتى Redouté، القسيس رفايل دموناخيس Raphael de Monachis

وقد تغير بعض أعضاء المجمع العلمي وحل محلهم غيرهم، وهذه هي التغييرات التي حدثت مدة وجود نابليون في مصر:

قسم الرياضيات - عين المهندس لانكري Lancret بدلا من ساي الذي قتل  
في الحملة على سوريا

قسم الطبيعيات - عين الدكتور لاري Larrey رئيس الجراحين بدلا من ديبوا  
وأضيف عضو جديد وهو بوشان Beauchamps

قسم الاقتصادى السياسى - عين كورانسر Corrancez بدلا من الجنرال  
كافاريلى الذى قتل فى حصار عكا ، وبوريين Bourrienne سكرتير نابليون الخاص  
بدلا من سومى

قسم الآداب والفنون - عين المهندس المعمارى لويير Lepère بدلا من نورى ،  
وعين ريبول Ripault أمين مكتبة المجمع بدلا من فاتور ، وأضيف إليهم الرسام  
ريجو Rigo

### دار المجمع العلمى

اختار نابليون قصر حسن كاشف شركس بالناصرية مقراً للمجمع العلمى ،  
وألحق به القصور المجاورة له التى ابتناها المالك وخصصها لسكن أعضاء المجمع  
وبعثة العلوم والفنون كقصر قاسم بك (١) ، وبيت ابراهيم كتحدا السنارى ، وبيت  
أمير الحج المعروف بأبى يوسف

كانت سراى حسن كاشف من أجمل قصور المالك بالقاهرة (ومكانها الآن  
المدرسة السنية بالناصرية) ، وصفها الجبرق خلال كلامه عن حسن كاشف فقال :  
« إنه عمر الدار العظيمة بالناصرية وصرف عليها أموالا عظيمة ، وقبل بياضها  
وصل الفرنسيين إلى الديار المصرية فسكنها الفلكيون والمدبرون وأهل الحكمة  
والمهندسون ( أعضاء المجمع العلمى ) فلذلك صيئت من الخراب كما وقع لغيرها من  
الدور لكون عسكرهم لم يسكنوا بها ، وذكرها المسيو جوفرواسان هيلير أحد  
كبار أعضاء المجمع العلمى فى رسائله المنشورة بكتابه (رسائل عن مصر) ، وظاهر

---

(١) مكان قصر قاسم بك الآن عمارة الأوقاف السكائنة بشارع الكوى ، جاء فى كتاب  
تخطيط مصر الجزء الثامن عشر أن بيت قاسم بك كان يسكنه أعضاء لجنة المعلوم والفنون وأنه محاور  
لقصر حسن كاشف الذى كان مقراً للمجمع العلمى

مما كتبه عنها أنها كانت غاية في الفخامة فقد كتب بتاريخ ٣٠ اغسطس سنة ١٧٩٨ رسالة إلى العلامة كوفيه Cuvier يقول فيها :

« عدت من المجمع العلمي بالقاهرة وهو يتألف من قصرين من قصور البسكوات (قصر حسن كاشف وقصر قاسم بك) ويبتين من بيوت الأغنياء ، وهذه الدور المتجاورة يسكنها العلماء والفنيون ، وفيها من أسباب الفخامة ما لا يقل عن اللوفر ، وإنما لنجد فيها من أسباب الراحة أكثر مما في اللوفر ، وبجوارها حديقة فسيحة يبلغ مساحتها نحو ٣٥ فداناً جيدة الغراس ، وقد خصصناها للزراعة والنبات ، أما قاعة جلسات المجمع فإنها مزودة بأجمل ما في قصور المماليك من الأثاث ، وباسم حسن كاشف سميت الحارة المعروفة الآن بحارة حسن الكاشف الواقعة



المجمع العلمي بالقاهرة سنة ١٧٩٨ — انظر ص ١١٨

( سراي حسن كاشف شركس بالناصرية حيث المدرسة السنية الآن )  
وترى نابليون واقفاً في قاعة الجلسات يحيط به ليف من أعضاء المجمع

بجوار المدرسة السنوية ، وتنتهى هذه الحارة قريباً من دار ابراهيم كتبخدا السنارى (١) التى خصصها أعضاء المجمع العلمى للرسم والتصوير والباقية إلى اليوم ، وسميت الحارة التى بها هذه الدار حارة مونغ Monge تخليداً لاسم مونغ الذى كان رئيساً للمجمع العلمى فى عهد بوناپارت

وقد أنشأ المسيو جلياردو بك سنة ١٩١٧ فى دار ابراهيم كتبخدا السنارى متحفاً أسماه ( متحف بوناپارت ) وبقي هذا البيت إلى الآن كما بناه صاحبه ابراهيم ابراهيم كتبخدا السنارى وهو مثال قائم لبيوت المالك ، وقد أدخلته لجنة حفظ الآثار العربية ضمن الآثار التى تعنى بها وتحافظ عليها ، وصرحت للمسيو جلياردو بك بأن ينشئ به متحفه وهو يحوى كثيراً من الصور والخرائط والطرف والآثار والكتب والمستندات والوثائق والمخطوطات عن عهد الحملة الفرنسية فى مصر ، وقد زرت هذا المتحف غير مرة وأطلعنى المسيو جلياردو بك على ما جمعه فيه من النفائس وأذن لى بأن أنقل بعض الصور التى يزين بها متحفه وبعض الوثائق التى جمعها (٢)

### طائفة من أعضاء المجمع العلمى

#### ولجنة العلوم والفنون

نذكر هنا طرفاً من حياة بعض من اشتهروا أو ترددت أسماءهم فى فصول الكتاب من أعضاء المجمع العلمى ولجنة الفنون ليكون لدينا فكرة عامة عن أخصائهم

### علماء الرياضيات والمهندسون

#### مونغ

سنة ١٧٤٦ - ١٨٠٨

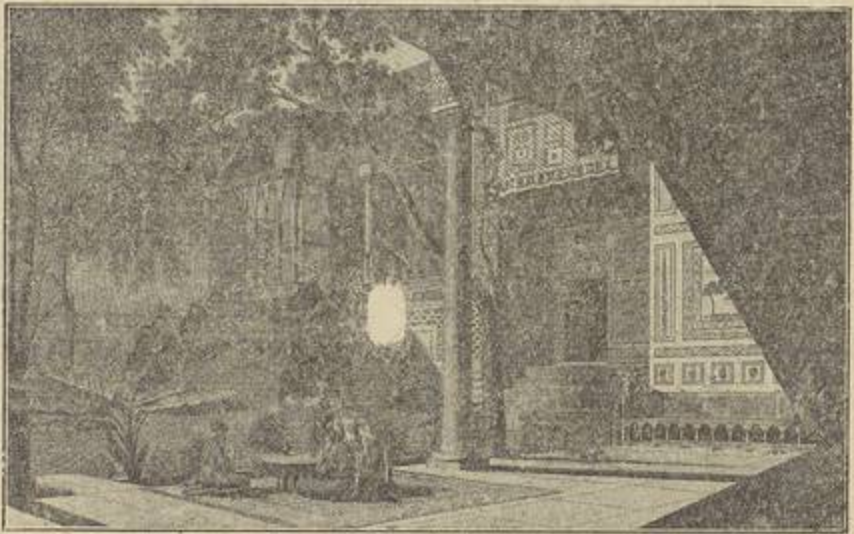
هو جاسبار مونغ Gaspard Monge أكبر علماء الرياضيات بفرنسا فى ذلك

---

(١) هو وكيل مراد بك ولذلك سمي ( كتبخدا ) وسنارى سبه إلى سنار بتشديد التون وهى بلدة بالسودان على النيل الأزرق

(٢) توفى المسيو جلياردو بك سنة ١٩٢٧

العصر ، وله فيها شهرة عالمية ، وهو مؤسس الهندسة الوصفية وأحد مؤسسي مدرسة الهندسة بفرنسا وأحد أساتذتها المشهورين ، وعضو بالمجمع العلمي بفرنسا ، تقلد منا وزارة الحربية في عهد الجمعية التشريعية ؛ وقد تلقى عليه نابليون علوم الطبيعة في مدرسة باريس الحربية ، وكان موضع احترامه وإجلاله ، ووقع عليه الاختيار لرئاسة المجمع العلمي بمصر ، وكان هو روح أبحاث المجمع العلمية ، ولما عاد إلى فرنسا رجع إلى التدريس في مدرسة الهندسة وبذل جهداً كبيراً في جمع أبحاث علماء الحملة الفرنسية ، وعينه نابليون في عهد الأمبراطورية عضواً بمجلس الشيوخ ، ومنحه لقب «كونت بيلوز» تذكراً لأعماله وأبحاثه في مصر ، وله مؤلفات ومذكرات عديدة في العلوم الرياضية وبخاصة الهندسة ، وباسمه سميت (حارة مونج) بالناصرة بجوار المدرسة السنية الآن



سراي قاسم بك بالناصرة حيث كان يسكن أعضاء لجنة العلوم والفنون . انظر ص ١١٨

« كوستاز » Costaz

١٧٧٦ — ١٨٤٢

من علماء الرياضيات وعضو بالمجمع العلمي الفرنسي ، كان مدرسا بمدرسة الهندسة العالية (السنترال) بفرنسا حينما اختاره نابليون لعضوية لجنة العلوم

والفنون ، وبعد انتهاء الحملة عاد إلى فرنسا وعين سنة ١٨١٣ مديراً عاما لإدارة  
الرى والقناطر والجسور بفرنسا ومنح بلقب بارون

لويير « Le Père »

١٧٦٣ - ١٨٤١

هو كبير مهندسى الرى والطرق والجسور فى عهد الحملة الفرنسية ، وواضع  
التقرير المشهور عن إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ، عهد إليه  
نابليون أن يدرس هذا المشروع فمضى عامين فى فحصه ودراسته ، وعاونه فيه  
بعض مهندسى الحملة ، وقدم به تقريراً إلى نابليون بعد مغادرته مصر ( وكان قنصلاً  
أول ) ، وتصميم المشروع كما وضعه المسيو لويير أن تحفر ترعة من السويس إلى  
البحيرات المرة ويعاد حفر الخليج القديم المعروف بخليج أمير المؤمنين (١) إلى أن  
يتلاقى مع بحر موسى بقرب بوباسط (٢) ومن بحر موسى إلى فرع دمياط ومنه  
إلى الترعة الفرعونية ، ومنها إلى فرع رشيد ، ومنه إلى الاسكندرية بواسطة ترعة  
الاسكندرية ، وقد حذب المسيو لويير كذلك فكرة وصل البحرين رأساً بواسطة  
ترعة أخرى تخترق برزخ السويس فيما بين بيلوز (٣) ( الطينة ) على البحر الأبيض  
ومدينة السويس على البحر الأحمر ، غير أنه اعتقد خطأ أن البحر الأحمر يعلو  
عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار ، وقد نشر مشروعه فى كتابه تخطيط  
مصر ، الجزء الحادى عشر ، وفيه بحث مستفيض عن تخطيط ترعة الفراعنة القديمة  
وخليج أمير المؤمنين وتخطيط الجهات التى ينفذ فيها المشروع ونفقات إنفاذه ويقع  
هذا البحث فى أكثر من ثلاثمائة صفحة ، وهو من أجل الأبحاث التى وضعها علماء

---

(١) هو الخليج الذى حفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ٢٣ هـ  
وكان يصل النيل بالبحر الأحمر ، يبدأ من مصر القديمة حيث يبتدىء خليج مصر اليوم حتى القاهرة  
ومنها إلى المطرية ومنها إلى العباسية ثم يتم أنار ترعة الفراعنة القديمة التى كانت تخرج من فرع النيل  
البيلوزى القديم وتسير بمحاذاة وادى الطميلات ثم تنثنى جنوباً فتحترق البحيرات المرة ثم تصب فى  
البحر الأحمر

(٢) قرب الرقايق

(٣) شرقى الموضع الذى به بور سعيد الآن



الحملة الفرنسية ، والمسيو لوبيير هو الذى تولى إصلاح بناء المقياس بالروضة  
وكتب له الديوان لمناسبة عمله كتاب شكر نشرناه فى قسم الوثائق التاريخية ، وله  
بحث مستفيض عن مقياس الروضة نشر فى كتاب تخطيط مصر الجزء الثانى عشر

جراتيان لوبيير « Gratién Le Père »

هو أخو المسيو لوبيير المتقدم ذكره ، وهو من مهندسى الحملة الفرنسية ، شارك  
أخاه فى بعض أبحاثه ، وله بحث خاص مستفيض فى تخطيط مدينة الاسكندرية  
نشر فى كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر ، وبحث آخر فى بحيرات مصر  
وصحاريها نشر فى الجزء السادس عشر ، وقد رسم لوبيير الكبير خريطة الاسكندرية  
الحديثة ورسم المسيو جراتيان لوبيير خريطة الاسكندرية القديمة ، وكلتاهما  
مطبوعة فى مصور كتاب تخطيط مصر

جيرار « Girard »

١٧٦٥ - ١٨٣٦

زميل المسيو لوبيير كبير المهندسين ووكيله فى إدارة أعمال الري ، درس ترع  
القطر المصرى ، وله رسالة بديعة عن حالة مصر الزراعية والصناعية والتجارية  
نشرت فى كتاب تخطيط مصر الجزء السابع عشر ، وانتخب عضواً فى المجمع  
العلمى الفرنسى

جومار

١٧٧٧ - ١٨٦٢

هو المسيو إدم فرنسوا جومار Edme François Jomard ولد سنة ١٧٧٧  
وتعلم الهندسة فى مدرسة القناطر والجسور ثم فى مدرسة الهندسة ، وجاء إلى مصر  
ضمن المهندسين الجغرافيين من أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وله فى مصر أبحاث  
جغرافية وأثرية على جانب كبير من القيمة ، وقد اشترك فى رسم خريطة مصر ، وعاد  
إلى فرنسا سنة ١٨٠١ بعد مقتل الجنرال كليبر ، واشترك من سنة ١٨٠٣ فى وضع  
كتاب (تخطيط مصر) وكان عضواً من أهم أعضاء اللجنة التى ألفتها الحكومة للعمل  
فى وضع هذا الكتاب الجليل ، وتولى تنظيم العمل بعد وفاة المسيو لانكرى

وقضى سبعة عشر عاما مشغولا في إظهار الكتاب ، وله فيه أبحاث متمعة هندسية وجغرافية وأثرية شغلت عدة أجزاء من الكتاب ، ومن أهمها بحث مستفيض عن تخطيط القاهرة القديمة والحديثة نشر في الجزء التاسع عشر منه ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي مكافأة له على أبحاثه في الآثار المصرية ، واشترك في إنشاء الجمعية الجغرافية بفرنسا ، وكان من يوم أن عاد من مصر لا يألو جهداً في دراسة الأبحاث العلمية الخاصة بها ، وفي سنة ١٨٢٦ تولى رئاسة أول بعثة مصرية أرسلها محمد علي الكبير إلى فرنسا لتلقي العلوم في مدارسها فأمد تلاميذ هذه البعثة والبعثات التي تلتها برعايته العلمية والأدبية ، وقد أنجبت هذه البعثات طائفة من علماء مصر الذين كان لهم فضل كبير في نهضتها ، وكان للمسيو جومار مكانة كبيرة عند محمد علي باشا وكذلك عند سعيد باشا ، وأنعم عليه بلقب بك فكان يعرف في مصر باسم « جومار بك » ، وأنعم عليه كذلك بالوسام المجيدي ، ولما أعيد إنشاء المجمع العلمي المصري أسندت إليه رياسته الفخرية سنة ١٨٦١ فكان صلة الاتصال الباقية بين المجمع العلمي المصري القديم وبين الحديث ، وظل مكباً على أبحاثه العلمية إلى ان توفى سنة ١٨٦٢ وله من العمر خمس وثمانون سنة ، وهو معدود في فرنسا من كبار علماء الجغرافية والآثار القديمة

فورييه «Fourier»

١٧٦٨ — ١٨٣٠

من علماء الرياضيات ، كان مدرساً في مدرسة الهندسة قبل انتظامه في سلك لجنة العلوم والفنون ، وانتخب سكرتيراً دائماً للمجمع العلمي ، وتولى رئاسة الإدارة القضائية في أواخر عهد الحملة الفرنسية ، وله أبحاث متمعة في كتاب تخطيط مصر وهو واضح مقدمة الكتاب ، أنعم عليه نابليون برتبة بارون ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨١٦ ثم عضواً باكاديمية الآداب سنة ١٨٢٧ وأقيم له تمثال في بلدة أوكسير Auxerre مسقط رأسه

لانكري «Lancret»

١٧٧٤ — ١٨٠٧

من علماء الرياضيات ومن مهندسي القناطر والجسور ومن علماء الآثار ، وله

أبحاث مستفيضة عن آثار الوجه القبلي وتخصيها نشرت في كتاب تخطيط مصر ،  
وله بحث جغرافي عن الفرع الكانوبي من فروع النيل القديمة نشر في الجزء الأول  
من كتاب تخطيط مصر ، وتولى إدارة العمل لتأليف الكتاب بعد وفاة كونتي سنة  
١٨٠٥ ، ومات هو سنة ١٨٠٧

كورانسز «Corrancez»

من خريجي مدرسة الهندسة العالية (السنترال) انتخب عضواً في المجمع العلمي  
المصرى خلفاً للجنرال كافريللي ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨١١  
وله كتاب في تاريخ الوهابية من بدء ظهورها إلى سنة ١٨٠٩

جالوا «Jallois»

١٧٧٦ — ١٨٤٢

مهندس رى تخرج في مدرسة الهندسة بفرنسا ، ومنقب في الآثار وله «يوميات»  
عن الحملة وله عدة أبحاث عن الآثار المصرية نشرت في كتاب تخطيط مصر

دفيليه «De Villiers»

١٧٨٠ — ١٨٥٥

مهندس قناطر ورى وآثار ، وله يوميات<sup>(١)</sup> دون فيها مشاهدته في مصر خلال  
الحملة الفرنسية ، نشرها حفيده البارون دفيليه ، وكان جالوا ودفيليه متلازمين  
في أبحاثهما الأثرية ، وأبحاثهما المشتركة منشورة في كتاب تخطيط مصر

الكولونل جا كوتان «Jacotin»

١٧٦٥ — ١٨٢٧

هو من المهندسين الجغرافيين الذين جاءوا مع الحملة وقد تولى رأسهم بعد مقتل  
كبيرهم المسيو تستفيود في ثورة القاهرة ، وعهد إليه نابليون في وضع خريطة  
مصر العامة فاشترك في تخطيطها مع المهندسين الجغرافيين ومهندسى الرى في عهد  
الحملة الفرنسية ، وهي عبارة عن مجموعة خرائط كبيرة مفصلة طبعت في مصورات

(١) يوميات وذكريات عن حملة مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١)

كتاب تخطيط مصر ، وقد تم وضعها بعد انسحاب الفرنسيين من مصر وقدمت إلى نابليون ( وكان قنصل أول ) في شهر أكتوبر سنة ١٨٠٣ فأمر بطبعها على نفقة الحكومة الفرنسية واستدعى ذلك جهداً كبيراً لإعداد معدات الحفر والطبع وتدوين أسماء البلاد والمواقع باللغة الفرنسية والعربية ، وإلى الكولونل جا كوتان يرجع الفضل في إخراج هذه الخريطة ولذلك نسبت إليه وسميت «خريطة جا كوتان» وهي مؤلفة من ٤٧ خريطة كبيرة طوبوغرافية غاية في الدقة والتفصيل منها ٤٢ خاصة بمصر وخمس بالأقاليم السورية التي فتحها نابليون وثلاث خرائط أخرى جغرافية عن مصر وخريطة أخرى عامة تجمع الخرائط الطوبوغرافية وللكولونل جا كوتان بحثان جغرافيان جليلان في كتاب تخطيط مصر الأول عن تخطيط خريطة القطر المصري نشر في الجزء السابع عشر ، والثاني عن مساحة القطر المصري نشر في الجزء الثامن عشر ، وقد عين وهو في مصر عضواً بالمجمع العلمي بالقاهرة

ديبوا ايمى «Dubois Aymé»

من مهندسى الحملة الفرنسية ، له بحث جغرافى مستفيض عن فروع النيل القديمة نشر في الجزء الثامن من كتاب تخطيط مصر وله خريطة دقيقة عن تخطيط هذه الفروع

نوى «Nouet»

١٧٤٠ -- ١٨١١

من علماء الفلك ويعتبر أكبر علماء الحملة الفرنسية فى الفلك والميقات ، نشرت أبحاثه الفلكية الخاصة بمصر فى كتاب تخطيط مصر الجزء الأول ، وعلى بياناته اعتمد مهندسو الحملة فى وضع المصورات التى رسموها فى مصر

نورى «Norry»

١٧٥٦ -- ١٨٣٢

مهندس معمارى عينه نابليون رئيس مكتب الفنون ، وعاد إلى فرنسا فى خلال الحملة لاعتلال صحته فخلفه فى المجمع العلمى المصرى المهندس المعمارى لوبيير ، وله بحث مستفيض عن عمود السوارى نشر فى كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس ، وله

رسالة عن الحملة الفرنسية (١) وله رسوم عديدة في كتاب تخطيط مصر

« Lepère » لو بير

١٧٦٢ -- ١٨٤٤

مهندس معمارى وهو الذى خلف نورى فى المجمع العلمى وله رسوم كثيرة  
فى كتاب تخطيط مصر

علماء الطبيعيات

« Berthollet » برتوليه

١٧٤٨ -- ١٨٢٢

عالم من كبار علماء الكيمياء ، يضارع فى شهرته الكيمياءى الشهير لافوازيه  
ويليه فى المنزلة ، وهو صديق حميم للمسيو مونج ، وقد اشتركا معاً فى تأسيس  
مدرسة الهندسة بباريس وإلهما عهد نابليون اختيار علماء الحملة الفرنسية ، وكان  
من أعضاء المجمع العلمى الفرنسى ، قبل حضوره إلى مصر صحبة نابليون ، وبعد  
رجوعه إلى فرنسا دأب على أبحاثه واكتشافاته فى الكيمياء وله فيها نظريات  
واكتشافات وأبحاث ومؤلفات جعلته فى عداد كبار علماء الكيمياء

« Geoffroi saint Hilaire » جوفروا سان هيلير

١٧٧٢ — ١٨٤٤

هو إثنين جوفروا سان هيلير ، عالم كبير فى التاريخ الطبيعى ومن أساتذة حياة  
الحيوان فى معهد التاريخ الطبيعى بباريس وزميل كوفيه Cuvier ولامارك Lamark  
فى العلوم الطبيعىة ، وله أبحاث مستفيضة ورسوم عديدة فى حيوانات مصر  
وحشراتهما وأسماكها ، عين بعد عودته من مصر أستاذاً لعلم الحيوان فى السوربون  
علاوة على تدريسه فى معهد التاريخ الطبيعى وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى

(١) تاريخ حملة مصر . وهى رسالة وجيزة طبعت سنة ١٧٩٩ بباريس إذ عاد إليها قبل انتهاء الحملة

وله شهرة عالمية في التاريخ الطبيعي ، وله رسائل عن مشاهداته في مصر جمعت وطبعت سنة ١٩٠١ باسم (رسائل من مصر)

سافيني « Savigny »

١٧٧٧ -- ١٨٥١

عالم في التاريخ الطبيعي ومساعد لجوفروا في أبحاثه بمصر ، درس حيوانات مصر وطيورها وحشراتا ونباتها ، وله فيها أبحاث مستفيضة ورسوم عديدة غاية في الدقة طبعت في كتاب ( تخطيط مصر ) وانتخب عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨٢١ ، وضحي ببصره في سيل بحوثه ورسومه

دولوميو « Dolomieu »

١٧٥٠ -- ١٨٠٢

من علماء طبقات الأرض والمعادن ، كان أستاذاً في مدرسة المناجم وعضواً بالمجمع العلمي الفرنسي قبل مجيئه إلى مصر ، عاد إلى فرنسا أثناء الحملة لمرض أصابه وانكسرت به السفينة التي نقله وجنحت على شاطئ \* (تارنت) جنوبي إيطاليا فأسر وألقي في السجن وبقى سجيناً إلى أن انتصر نابليون في معركة مارنجو سنة ١٨٠١ فجعل إطلاق سراحه من شروط الصلح ، ولكن صحته ساءت من أثر السجن فلم يعيش بعد خروجه طويلاً ، وكتب في السجن رسالة في فلسفة علم المعادن وهي من أهم مؤلفاته

دليل « DeLille »

١٧٧٨ -- ١٨٥٠

هو العالم دليل المشهور في علم النباتات ، وله في النباتات المصرية كتاب يرجع إليه العلماء ، عين مديراً لحديقة النباتات في القاهرة ( في عهد منو ) واشترك في وضع كتاب تخطيط مصر ، وتولى التدريس في كلية العلوم بمونبلييه بفرنسا ، وهو أول من درس نباتات مصر في العصر الحديث وله فيها رسوم بديعة ، وأكمل عمله من بعده العلماء في عصر محمد علي وعصر اسماعيل

كوتى « Conté »

١٧٥٥ - ١٨٠٥

عالم كيميائى وميكانيكى ومبتكر لطائفة من المخترعات الميكانيكية ، استخدم المناطقيد فى حروب الثورة الفرنسيه قبل مجيئه إلى مصر وعين قومنداناً لكتيبة الطيران ومديراً لمدرسة الطيران فى مودون Meudon ، ولما جاء إلى مصر أسس عدة مصانع تولى إدارتها ، وأنشأ طواحين الهواء فى القاهرة ، وأنشأ مصنعاً ميكانيكياً ، وعهد إليه نابليون صب أحرف الطباعة وكان يعتمد عليه كثيراً فى استثمار موارد مصر الطبيعیه لاستيفاء حاجات الجيش وبخاصة بعد تحطيم العارة الفرنسية فى واقعة (أبو قير) ، وقد شرع فى صنع منطاد يطير فى القاهرة ، ولكنه لم يوفق فى طيرانه ، وروى الجبرتى حكاية هذا المنطاد وما صار إليه من الفشل ، وشبهه بالطيارة التى يعملها الفراشون فى المواسم والأفراح ، قال فى هذا الصدد :

« وفى عشرين جمادى الثانية سنة ١٢١٣<sup>(١)</sup> كتبوا<sup>(٢)</sup> عدة أوراق مطبوعة وألصقوها بالأسواق مضمونها أنه فى يوم الجمعة حادى عشر ينة قصدنا أن نظير مركبا بركة (ميدان) الأذبكية فى الهواء بحيلة فرنساوية ، فكثرت لغط الناس فى هذا كعادتهم ، فلما كان ذلك اليوم قبل العصر تجمع الناس والكثير من الأفرنج ليروا تلك العجيبة ، وكنت بجملتهم ، فرأيت قماشاً على هيئة الاوية على عمود قائم ، وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثال دائرة الغربال ، وفى وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الأدهان ، وتلك المسرجة مصلوبة بسلك من حديد منها إلى الدائرة وهى مشدودة ببكر وأحبال ، وأطراف الأحبال بأيدى أناس قائمين بأسطحة البيوت القريبة منها ، فلما كان بعد العصر بنحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة فصعد دخانها إلى ذلك القماش وملأه ، فانتفخ وصار مثل السكره ، وطلب الدخان الصعود إلى مركزه فلم يجد منفذاً ، فجذبها معه إلى العلو ، فجذبوها بتلك الأحبال مساعدة لها حتى ارتفعت عن الأرض ، فقطعوا تلك الأحبال ، فصعدت إلى الجو مع

(٢) الفرنسيون

(١) يوافق ٢٩ نوفمبر سنة ١٧٩٨

الهواء ، ومشت هنية لطيفة ثم سقطت طارتها بالفتيلة ، وسقط أيضاً ذلك القماش وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الأوراق المصومة ، فلما حصل ذلك انكسف طبعم لسقوطها ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات ، بل ظهر أنها مثل الطائرة التي يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح .. (١) ،

وقد أعاد المسيو كوتى تجربة المنطاد لكنه أخفق في تجربته الثانية ، قال الجبرتي في هذا الصدد « وفي يوم الأربعاء ٩ شعبان سنة ١٢١٣ (١) كتبوا أوراقاً بتطير طائرة بركة الأزيكيه مثل التي سبق ذكرها وفسدت ، فاجتمعت الناس لذلك وقت الظهر وطيروها ، وصعدت إلى الأعلى ومرت إلى أن وصلت تلال البرقية وسقطت ، ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لمت الحيلة وقالوا إنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم (٣) ،

ولما رجع كوتى إلى فرنسا بذل جهداً كبيراً في إخراج كتاب تخطيط مصر وهو الذي تولى إعداد معدات طبع خرائطه ورسومه ومصوارته العديدة

شامبي « Champy »

عالم في الكيمياء ومدير مصنع البارود الذي أنشأه الفرنسيون في الروضة ، وبعد انتهاء الحملة عين في فرنسا مديراً لمصانع البارود بها ومات سنة ١٨١٦ وابنه شامبي الصغير كان يعاونه في مصر ومات بها بالطاعون سنة ١٨٠١

ديكوتيل « Descotils »

١٧٧٣ - ١٨١٥

عالم في الكيمياء ، عين بعد الحملة الفرنسية كبيراً لمهندسي المناجم بفرنسا

(١) الجبرتي الجزء الثالث

(٢) يوافق ١٦ يناير سنة ١٧٩٩

(٣) الجبرتي الجزء الثالث



روزير «Rozière»

مهندس مناجم له أبحاث مستفيضة عن أحجار مصر ومعادنها وجيولوجيتها  
نشرت في كتاب تخطيط مصر وقد رسم أحجارها وصخورها ومعادنها  
الاقتصاديون

بوسليج « Poussielgue »

ولد في باريس سنة ١٧٦٤ وتقلد بعض المناصب المالية في عهد الثورة  
الفرنسية ، وكان قوميسيراً للإيرادات سنة ١٧٩٤ ، وفي سنة ١٧٩٥ عين سكرتيراً  
للوزير فيبول Faypoult ، وجاء إلى مصر ضمن الحملة الفرنسية مراقباً لنفقات  
الجيش ، وعهد إليه نابليون إدارة الشؤون المالية ، وكان يثني عليه ، ولكنه غضب  
عليه بعد عودته إلى فرنسا لما اطلع على رسائله إلى حكومة الدبر كتوار انتقد فيها  
سياسته ، ولما عاد إلى فرنسا أهمله نابليون ، ويسميه الجبرقي بوسليك مدير الحدود  
ويعبر عنه بالروزناجي

استيف « Esteve »

مدير خزانة الحملة أولاً ثم مدير الشؤون المالية في أواخر عهد الحملة الفرنسية  
وقد درس مالية الحكومة في عهد الماليك وكتب عنها بحثاً مستفيضاً في كتاب  
تخطيط مصر

تاليان « Tallien »

١٧٦٧ - ١٨٢٠

هو أحد أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية وخصم روبسبير الشهير ومثير غبار  
الحملة التي انتهت بأسقاطه في الجمعية الوطنية (١) وانتظم في سلك أعضاء لجنة العلوم  
والفنون وعهد إليه نابليون وقتاً ما بمهمة مندوب ( قوميسير ) لدى الديوان ،  
فكان بمثابة جاسوس على أعضائه ، ولكنه لم يكن موضع ثقة نابليون ولا احترامه  
وغادر مصر في عهد الجنرال منو ، وفقد بعد عودته إلى فرنسا مكانته السياسية

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا الجمعيات الوطنية ص ٦٥

## القواد والضباط

كافرييللى « Caffarelli »

هو الجنرال كافرييللى ، من أسرة إيطالية استوطنت فرنسا في عهد لويس الثالث عشر ، وهو من أكفأ قواد الجيش الفرنسى وأغزرهم علماً ، ضرب بسهم وافر في الفلسفة والتشريع ، وقاتل في حروب الثورة الفرنسية وفقد إحدى قدميه في حصار ماينس Mayence سنة ١٧٩٥ جاء مصر بقدوم واحدة ، ولذلك يسميه الجبرتي « كفرلى المسمى بأبي خشبة » وقد اختاره نابليون رئيساً لفرقة المهندسين في الجيش وهو مركز يتطلب كفاية فنية كبيرة وهو من أفراد الحملة القلائل الذين تكلم عنهم الجبرتي بالاسم ، وإليك ماقاله في صدده : « ومن جملة من انتقل من الدرب الأحمر إلى الأزبكية كفرلى المسمى بأبي خشبة ، وهو يمشى بها بدون معين ، ويصعد الدرج ويهبط منها أسرع من الصحيح ، ويركب الفرس ويرحله ... وهو على هذه الحالة ، وكان من جملة المشار إليهم فيهم والمدبر لأمور القلاع وصفوف الحروب ، ولهم به عناية عظيمة واهتمام زائد ، (١) ، وقد قتل في حصار عكا كما سيذكره بيانه في الفصل الثاني من الجزء الثاني

الجنرال اندريوسى « Andreossi »

١٧٦١ - ١٨٢٨

من القواد ومن رجال السياسة معاً ، وله أبحاث ورحلات جغرافية في مصر أهمها رحلاته إلى بحيرة المنزلة ووادي النطرون ، وقد كتب عنها أبحاثاً تالاهها في المجمع العلمى ونشرت في كتاب تخطيط مصر الجزء الحادى عشر والثانى عشر عاد إلى فرنسا مع نابليون وعاونه على قلب نظام الديركتورار وعينه بعد معاهدة (أميان) سفيراً لفرنسا في لندن ثم في فيينا ثم في الأستانة حيث بقى بها إلى سنة ١٨١٤ وانتخب عضواً في أكاديمية العلوم (المجمع العلمى) وفى مجلس النواب

(١) الجبرتي الجزء الثالث

هوراس ساي « Horace Say »

رئيس أركان حرب فرقة الهندسة ، كان أستاذاً لفن الاستحكامات في مدرسة الهندسة بفرنسا ، وهو أخو جان باتست ساي العالم الاقتصادي المشهور ، ومن أكفأ ضباط الجيش الفرنسي وأكثرهم علماً ، وله عدة رسائل في المجمع العلمي المصري عن الحالة الاقتصادية والطوبوغرافية في مصر ، قتل في حصار عكا

مالوس « Malus »

١٧٧٥ — ١٨١٢

عالم في الطبيعيات وضابط كبير في الجيش الفرنسي ، تلقى العلوم في مدارس الهندسة بفرنسا وانتظم في سلك فرقة الهندسة بالجيش ، وجاء إلى مصر ضمن هذه الفرقة ، وكان صديقاً للجنرال كافريللي وتلميذاً للعلامة مونغ ومعدوداً من أعضاء المجمع العلمي المصري النابيين ، ولما عاد من مصر ظل في فرقة الهندسة مع اشتغاله بالأبحاث الطبيعية ، وله فيها رسائل ومؤلفات عظيمة القيمة ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨١١ بقسم الطبيعيات ، وله يوميات (١) عن الحملة الفرنسية نشرت سنة ١٨٩٢ تحوى وقائع الحملة إلى جلاء الفرنسيين عن مصر ، وله عدا ذلك « أفكار » ضمنها خواطره في مصر

الأطباء والجراحون

ديجننت « Desgenttes »

١٧٦٢ — ١٨٣٧

كبير أطباء الحملة الفرنسية في إيطاليا وفي مصر ، وله عدة أبحاث طبية عن مصر وله كتاب قيم أسماه « التاريخ الطبي لجيش الشرق » وقد وضع في مصر رسالة في مرض الجدري طبعها في المطبعة العربية التي أحضرها الفرنسيون وأهداها إلى أعضاء الديوان وهي الرسالة التي يشير إليها الجبرتي بقوله :

« وفي شعبان سنة ١٢١٥ أرسل رئيس الأطباء الفرنسيين نسخاً من رسالة

(١) يوميات مالوس « Agenda de Malus »

ألفها في علاج الجدري لأرباب الديوان لكل واحد نسخة على سبيل المحبة والهدية ليتناقلها الناس ويستعملوا ما أشار إليه فيها من العلاجات لهذا الداء العضال ، فقبلوا منه ذلك وأرسلوا له جواباً شكرياً له على ذلك، وهي رسالة لأبأس بها في بابها (١) ، وله إحصاءات دورية عن وفيات القاهرة في مدة الحملة الفرنسية نشرت في كتاب تخطيط مصر الجزء السادس عشر ، ومنح بعد الحملة لقب بارون وعين كبير أطباء الأنفاليد

لارتي ، Larrey ،

١٧٦٦ - ١٨٤٢

كبير جراحى الحملة الفرنسية وله شهرة عالمية في الطب والجراحة ، وظل بعد الحملة كبير جراحى الجيش الفرنسى فى عهد نابليون وكان موضع ثقته وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى وبأ كاديمية الطب ، وأنعم عليه نابليون برتبة بارون فصار يعرف بالبارون لارى ، وهو من كبار الأساتذة فى العلوم الطبية ، عين كبيراً لجراحى مستشفى الأنفاليد ، وله مؤلفات عظيمة فى الطب والجراحة منها كتاب خاص بمصر نشر سنة ١٨٠٣ وله فى كتاب تخطيط مصر الجزء الثالث عشر أبحاث مستفيضة عن الأمراض الخاصة بمصر

ديبوا ، Dubois ،

١٧٥٦ - ١٨٣٧

من نوابغ الأطباء فى الجراحة وبخاصة الولادة ولم يزل مكثه فى مصر أمداً مرضه فعاد إلى فرنسا وخلفه فى المجمع العلمى الجراح لارى وصار ديبوا طبيب نابليون الخاص

(١) الجبرتي الجزء الثالث . وجاء فى كتاب ( التاريخ الطبى لجيش المشرق ) لمؤلفه الدكتور ديجيت أنه أهدى ٢٥٠ نسخة من رسالته فى الجدري إلى الديوان و ٥٠ نسخة إلى السيدة فهيسة المرادية .

## الأدباء والمترجمون والفنانون

فيغان دينون «Vivant Denon»

١٧٤٧ - ١٨٢٧

كاتب وفنان ، صحب نابليون في حملة مصر وعاد بمجموعة نفيسة من الصور التي رسمها، وله في رحلته بمصر كتاب نفيس «رحلة في الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجزائر بونابرت» ، نشر بعد عودته من مصر وطبع لأول مرة سنة ١٨٠٢ وأهداه إلى نابليون وكان إذ ذاك «قنصلا أول»

وأهمية هذا الكتاب راجعة إلى المصور الكبير الملحق به ويتضمن رسوماً عظيمة القيمة عن مصر والآثار المصرية جعلت ليكتابه مكانة كبيرة وترجم إلى الإنجليزية والألمانية ، وقد رسم في كتابه بعض معارك الحملة الفرنسية التي شهد هاور سمها أثناء وقوعها وكان دينون من المولعين بالفنون الجميلة وتولى في عهد امبراطورية نابليون إدارة المتاحف ، وانتخب عضواً في المجمع العلمى الفرنسى

فاتتور «Venture»

هو المستشرق فاتتور أكبر أعضاء المجمع العلمى سنأ وكبير تراجمة الحملة الفرنسية ومستشار نابليون ومرجعه في المسائل الخاصة بالشرق والشرقين، قضى نحو أربعين سنة في بلاد الشرق وكان قبل حضوره لمصر ترجماناً لسفارة فرنسا في الأستانة ، ثم مترجماً للحكومة الفرنسية في اللغات الشرقية ومدرساً للتركية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ومن تلاميذه المسيو مارسل والمسيو جويير ، وسيأتى ذكرهما ، مات بالدسنطاريا في الحملة على سوريا ونعاه نابليون إلى الديوان ، وذكره الجبرتى في كتابه فقال عنه : « إن فاتتوره هذا ترجمان سارى عسكر وكان لبيباً متبحراً يعرف اللغات التركيه والعرييه والروميه والطلليانى والفرنساوى ،

مارسل «Marcel»

١٧٧٦ - ١٨٥٤

هو المستشرق مارسل مدير المطبعة الفرنسية والعربية التي أحضرها نابليون

إلى مصر ، وقد درس اللغة العربية واشترك في تأليف كتاب تخطيط مصر وكتاب التاريخ الحربى للحملة الفرنسية ، وله رسالة عن المارستان الكبير بالقاهرة وبسميه الناصرى نسبة للملك الناصر محمد بن قلاوون الذى أتم بناءه ، وله أبحاث مستفيضة عن مقياس الروضة وعن الآثار العربية بمصر وما عليها من الخطوط الكوفية منشورة فى الجزء الخامس عشر من كتاب تخطيط مصر ، وكان فى خلال الحملة الفرنسية مديراً للمطبعة الأهلية التى أنشأها نابليون وعضواً بالمجمع العلمى بالقاهرة وعين بعد عودته من مصر مديراً للمطبعة الأهلية بفرنسا

جوير «Jaubert»

١٧٧٩ - ١٨٤٧

اختاره نابليون كبيراً لتراجمة الحملة الفرنسية بعد وفاة المستشرق فاتتور ، وله بحث عن العرب وقبائلهم فى مصر منشور فى الجزء السادس عشر من كتاب تخطيط مصر ، وعين بعد الحملة مدرساً للتركية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ثم مدرساً للفارسية فى الكوليج دى فرنس ثم ناظراً لمدرسة اللغات الشرقية

برسفال دجر نيمزون « Perseval De Grandmaison »

١٧٥٩ - ١٨٣٤

عضو بالأكاديمية الفرنسية ، عين وقتاً ما فى عهد الحملة الفرنسية مديراً لبحرك السويس وغادر مصر ضمن من صحبوا نابليون فى عودته إلى فرنسا

رفائيل

قسيس شرقى عين « ترجماناً أول » للديوان وبعد الحملة عين مدرساً للعربية الدارجة فى مدرسه اللغات الشرقية بباريس

فيلوتو « Villoteau »

١٧٥٩ - ١٨٣٩

موسيقى فنان ، برع فى فنون الموسيقى علماً وعملاً ودرس فى مصر الموسيقى المصرية القديمة والحديثة والموسيقى الشرقية فى مختلف بلاد الشرق ، وله فى ذلك

أبحاث مستفيضه شغلت بعض الجزء السادس ومعظم الجزء الثالث عشر وكل  
الجزء الرابع عشر من كتاب تخطيط مصر

ريجو « Rigo »

هو الرسام ريجو ، ويسميه الجبرتي « أريجو » وهو الذي عهد إليه نابليون  
بإقامة أقواس النصر والأعمدة في ميدان الأزبكية احتفالاً بعيداً للجمهورية سنة ١٧٩٨  
ورسم الرسوم الفنية على قواعدها ، وعهد إليه نابليون أيضاً برسم رجالات مصر  
في ذلك العصر على اختلاف مراكزهم وأزيائهم ، وترى هذه الرسوم في كتاب  
( تخطيط مصر )

ردوتيه « Redouté »

مصور في التاريخ الطبيعي وأخو المصور المشهور « ردوتيه » الملقب بمصور  
الزهور ، رسم معظم حيوانات مصر وأسمائها ، وتزين رسومه البديعة كتاب تخطيط مصر

دوتتر « Dutertre »

١٧٥٣ — ١٨٤٢

رسم معظم أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وترى صور الناشرين منهم في كتاب  
« يوميات » المسيو دفيليه De Villiers المتقدم ذكره ، وله رسوم عديدة عن  
الآثار المصرية القديمة في كتاب ( تخطيط مصر )

أعمال المجمع العلمي

هي المسائل التي بحثتها هيئة المجمع وكذلك أعمال أعضائه جماعة أو فرادى في  
المدة التي انقضت بين تأسيس المجمع ورحيل الفرنسيين ، وهي الأعمال التي نستعرضها  
في هذا البيان

كانت أولى جلسات المجمع العلمي يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ (١) ، فاجتمع  
الأعضاء وانتخبوا المسيو مونغ العالم الرياضي رئيساً للمجمع ، ونابليون بونابارت  
نائب الرئيس ، وفورييه سكرتيراً دائماً وكوستاز نائب السكرتير ، وعرض نابليون  
على المجمع في هذه الجلسة درس المسائل الآتية :

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٩١

أولاً - ماهي الوسائل التي يمكن اتباعها لتدبير مواد الوقود اللازمة لأفران الجيش وقد أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه، وكافاريللي ومونج، وسأى ثانياً - هل يوجد وسيلة يمكن اتباعها في مصر لاستبدال خشب شدة الدينار في صنع البيرة، أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه، وكوستاز، وديجنيت، وجلو تيه ثالثاً - ماهي الوسائل الناجعة لترشيح وتبريد ماء النيل

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه، وكوستاز، ومونج، وفاتور المسألة الرابعة - ما هو الأنفع للبلاد بحسب الحالة الراهنة في مصر، طواحين الماء أم طواحين الهواء ؟

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من أندريوسى، وكافاريللي، وكوستاز ومالوس، وسأى

المسألة الخامسة - هل في مصر مواد أولية لصنع البارود وماهي هذه المواد ؟ أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من أندريوسى، وبرتوليه، ومالوس ومونج، وفاتور

المسألة السادسة - ماهي حالة التشريع والقضاء المدني والجنائي في مصر ؟ وحالة التعليم ؟ وماهي الاصلاحات التي يمكن إدخالها على هذه النظم ويرغبها أهالى البلاد أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من كوستاز، وسولسكوشكى، وسوسى وتالبيان وعرضت على المجلس في جلسات متعاقبة مسائل أخرى فنية لدراستها، كالوسائل التي يجب اتخاذها لزراعة العنب في مصر، ودرس طريقة زراعة القمح في مصر ومقارنتها بطريقة زراعته في أوروبا، وتموين القلعة بمياه النيل والتدرع إلى ذلك بإصلاح قناطر السباع، وحفر الآبار في الصحراء، والاستفادة من المواد المتخلفة من مدينة القاهرة وسائر مدن القطر المصرى، وإنشاء مرصد، وبحث هزات الإبرة المغناطيسية في مصر

وبحث نابليون كذلك في إمكان جلب الأخشاب من الحبشة بطريق النيل لصناعة السفن في مصر

وكان أعضاء المجمع العلمى وبعثة العلوم والفنون لا يدخرون وسعاً في متابعة



جهودهم العلمية في مختلف الفروع والفنون ؛ فأنشأوا في المجمع مكتبة تحوى  
أنفس الكتب التي أحضرها من فرنسا أو جمعوها من خزائن الكتب في القاهرة  
وأنشأوا به معملا للطبيعة والكيمياء وجهزوه بالآلات والأدوات الخاصة بدراسة  
العلوم الطبيعية والرياضية ، وأخذوا يجوبون البلاد ، فأكتشفوا الآثار وأزاحوا  
الستار عن عظمة مصر القديمة ، ورسموا خرائط مفصلة للبلاد ، ونيلها وترعها  
وسواحلها ، وبخشوا في طبائع الحيوانات والنباتات والمعادن المصرية ، ودرسوا  
مياه النيل وطميه وطبقات الأرض ، وجابوا واحاتها وبحيراتها

### الطباعة

وأنشأوا بالقاهرة مطبعة عربية وفرنسية وهي التي أحضرها نابليون إلى مصر  
بعد أن جمع لها الأحرف الفرنسية والعربية واليونانية من باريس وأستكمل لها  
الأحرف العربية من مطبعة البروجندا بروما ، وعهد بإدارتها إلى المسيو مارسل  
المستشرق أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وجعل للمستشرق فانطور الإشراف  
على مطبوعاتها<sup>(١)</sup> وكانت تسمى (مطبعة جيش الشرق) ولما نقلت من الإسكندرية  
إلى القاهرة أمر بتسميتها (المطبعة الأهلية) واتخذ لها دار عثمان بك الأشقر بالأزبكية  
على مقربة من بيت الألباني الذي سكنه نابليون ، ثم نقلت إلى الجزيرة أثناء ثورة  
القاهرة الثانية ، ثم إلى القلعة إلى أن جلا الفرنسيون عن مصر ، وفي هذه المطبعة  
كانت تطبع منشورات نابليون بالعربية ، وجريدة الكوريه دليجيت ، والديكاد  
وبعض المطبوعات العربية والفرنسية

وكان للفرنسيين مطبعة أخرى خاصة حروفها أفرنجية فقط لصاحبها المسيو  
مارك أوريل Marc Aurel طبعت الأعداد الأولى من جريدة (كوريه دليجيت)  
إلى أن نقلت المطبعة الرسمية من الإسكندرية إلى القاهرة ؛ ولما عاد مارك أوريل  
إلى فرنسا في خلال الحملة باع مطبعته إلى الحكومة

(١) ورد في أمر نابليون الرقيم ١٤ سنة ١٧٩٩ المنشور في مراسلات نابليون الجزء الخامس أنه  
جعل المسيو فانطور مفتشاً للمطبعة بحيث لا يقطع فيها شيء إلا بأمره

و (المطبعة الأهلية) هي أول مطبعة أنشئت في مصر في العصر الحديث ؛ وقد أخذها الفرنسيون معهم عند جلائهم عن البلاد ؛ ولم تعد الطباعه إلى مصر إلا في عهد محمد علي الكبير

### الصحافة

وأنشأوا جريدتين فرنسيتين إحداهما سياسية والأخرى علمية ، فالأولى هي جريدة « كوريه دليجيبت » ، Courrier de l' Egypte (الجوائب المصرية) وهي جريدة سياسية تصدر بالفرنسية كل أربعة أيام في أربع صفحات من القطع الصغير طبع منها بمطبعة مارك أوريل الثلاثون عدداً الأولى ، ثم طبع باقي ماظهر منها في المطبعة الأهلية ، وصدر منها ١١٨ عدداً . ظهر العدد الأول منها في ١٢ فركتيدور من السنة السادسة للجمهورية ( ٢٩ اغسطس سنة ١٧٩٨ ) والأخير في يونيه سنة ١٨٠١ قبيل جلاء الفرنسيين عن البلاد وتولى تحرير الأعداد الأولى المسيو كستاز Costaz أحد أعضاء المجمع العلمي ، ثم فورييه سكرتير المجمع ، ثم دييجنت Desgnsttes كبير أطباء الحملة ، وكانت هذه الجريدة هي الصحيفة شبه الرسمية للحملة الفرنسية

وجريدة « لاديكاد اجيبسين » ، La Decade Egyptienne (العشرية المصرية) تصدر مرة كل عشرة أيام ، وهي جريدة علمية اقتصادية تنشر أبحاث المجمع العلمي ومناقشات أعضائه . صدر العدد الأول منها في أكتوبر سنة ١٧٩٨ وتولى تحريرها وإدارتها الدكتور دييجنت وكانت تطبع في المطبعة الأهلية (١)

### الأعمال الصحفية

وأنشأ واحاجر صحفية في القاهرة ( بجزيرة بولاق ) والاسكندرية ودمياط

ورشيد (٢)

(١) عزم الجنرال منو في أواخر عهد الحملة الفرنسية على إصدار جريدة عربية باسم «التفتيه» لكنها لم تظهر ولم يحقق عزمه كما تراه في الفصل الحادي عشر من الجزء الثاني من الكتاب  
(٢) ذكر الجبرتي بحجر القاهرة بقوله « إن الفرنسيين عملوا ( كرنيلة ) بجزيرة بولاق وبنوا هناك بناء يحجزون به القادمين من السفار أيا ما معدودة كل جهة من الجهات القبلية والبحرية » وذكر الدكتور لارى كبير جراحی الحملة أنهم أنشأوا بحجرا آخر في جزيرة الروضة خاصاً بالوباء

وأمر نابليون بإنشاء مستشفى عسكري في قصر مراد بك بالجيزة ثم عدل عنه ونقل المستشفى إلى قصر ابراهيم تجاه الروضة (مكان مدرسة الطب الآن) ، لكن هذا المستشفى كان خاصاً بالجنود الفرنسية ، وأنشأ عدة مستشفيات أخرى عسكرية خاصة بالجنود أيضاً ، وفكر في إنشاء مستشفى للوطنيين ، وألف لهذا الغرض لجنة من الجنرال كافريلي والطبيين ديچنيت ولارى والعالمين مونج وبرتوليه والمسيو دور Daure مدير مهمات الجيش لفحص هذا المشروع فأخذت اللجنة تدرس المشروع وبحث حالة المستشفى الذى كان بالقاهرة قبل الحملة الفرنسية وهو المسمى بالمارستان الكبير المنصوري الذى أسسه الملك المنصور قلاون وأمه ابنة الملك الناصر سنة ٧١٠ هجرية (١٣١٠ ميلادية) وأجرى عليه سلاطين مصر الأوقاف والهبات من عهد إنشائه . وكان في عهده الأول مستشفى كبيراً من أعظم المستشفيات شأناً وكان يلحق به مدرسة لتخريج الأطباء في مصر ولكن حالته اضمحلت في عهد الحكم العثماني والبكوات المالك حتى آل أمره إلى التدهور والتلف ، وقد زاره الدكتور ديچنيت كبير أطباء الحملة الفرنسية مصحوباً بالشيخ عبد الله الشرفاوى رئيس الديوان وقدم تقريراً إلى نابليون (١) عن سوء حالته وسوء حالة المرضى الذين كانوا يعالجون به . وأشار بإنشاء مستشفى جديد في بيت عثمان بك الطنبورجى ببركة الفيل واقترح كذلك إنشاء مدرسة للطب تلحق بالمستشفى ، لكن المشروع لم ينفذ شيء منه في عهد الحملة الفرنسية

وبما تجب الإشارة إليه أنه كان بالقاهرة مستشفيات أخرى موجودة من قبل بحجى . الحملة الفرنسية ، فقد ذكر المسيو جومار أحد مهندسى الحملة فى بحثه الممتع عن تخطيط القاهرة (٢) أنه كان بالقاهرة مستشفى للنساء أنشأه الأمير عبد الرحمن كتحدا بالقرب من شارع تحت الربع ، وكان به ٢٦ من المريضات ، وكان يطلق عليه اسم ( تكية ) ، وقد تكلم العلامة على باشا مبارك عن هذه التكية فى خطظه التوفيقية وقال إن الظاهر أنها تكية الجلشانية (٣) ويقول المسيو جومار أيضاً أنه كان

(١) فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ (٢) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

(٣) المخطط التوفيقية الجزء الأول

بالقاهرة تكايا أخرى للمرضى وهى تكية الجبانية وتكية الأعجام بشارع الصليبية وقد زار هذه التكية ورأى بها ١٦ مريضاً ، وتكية بشارع سوق السلاح وأخرى بشارع قيسون

ويدخل فى الأعمال الصحية التى أجراها الفرنسيون ماقروه من إنشاء لجنة لإدارة الشئون الصحية فى القاهرة ومصر القديمة وبولاق ووضع اللوائح لنظافة المدينة وتقرير الوسائل الصحية فيها

### أعمال أخرى

وبما عمله أعضاء المجمع العلمى أنهم أنشأوا طواحين الهواء (١) ، إحداهما فى جزيرة الروضة والثانية بباب الحديد على التل المجاور لقنطرة الليمون وفى ذلك يقول الجبرقى : «ومهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون ، وجعلوا فى أعلاه طاحوناً تدور فى الهواء عجيبة وتطحن الأراب من البر وهى بأربعة أحجار وطاحوناً أخرى بالروضة تجاه مساطب الشباب ، ، وظاهر من عبارة الجبرقى أنه لم يكن رأى طواحين الهواء من قبل فظن أن الفرنسيين استحدثوها ، على أن طواحين الهواء لم تكن ابتكاراً من الفرنسيين بل كانت موجودة فى مصر قبل الحملة الفرنسية ، فقد ذكر المسيو سان جنيس Saint Genis أحد مهندسى الحملة (٢) أنهم وجدوا بالإسكندرية على شاطئ البحر فى شبه جزيرة رأس التين طاحوناً تدار بالهواء بثمانى أجنحة ، ووصف المهندس جراتيان لويير Gratien Le Pére زميل المسيو سان جنيس هذ الطاحون ، وتراها مرسومة بخريطة الإسكندرية الملحقه بكتاب تخطيط مصر . ويقول المسيو جيرار أحد مهندسى الحملة أنه كان بالاسكندرية قبل الحملة الفرنسية سبع أو ثمانى طواحين هواء (٤)

وأصلحو دار الصناعة (الترسانة) التى أنشأها مراد بك فى الجزيرة لصنع المدافع والسفن والآلات الحربية ، وعنى بإصلاحها المسيو كوتى والمسيو شامبى Shampy وولده

(١) أنشأها المسيو كونتى Conté

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس

(٤) كتاب تخطيط مصر الجزء السابع عشر

وأنشأوا مصنعاً للبارود في جزيرة الروضة وعهدوا بإدارته للمسيو شامبي  
يعاونه فيه ابنه الذي مات بالطاعون

وأنشأوا مصنعاً للجوخ وآخر لصنع القبعات وآخر لصناعة البيرة وآخر لدبغ  
الجلود وأنشأوا مصنعاً ميكانيكياً ومصنعاً للتجارة زارهما الجبرتي ووصفهما بقوله:  
« وأفردوا أيضاً مكاناً للنجارين وصناع الآلات والأخشاب وطواحين الهواء  
والعربات واللوازم لهم في أشغالهم وهندساتهم وأرباب صنائعهم ، ومكاناً آخر  
للحدادين بنوا فيه كوانين عظيماً وعليها منافيع كبار يخرج منها الهواء متصللاً كثيراً  
بحيث يجذبه النافخ من أعلى بحركة لطيفة ، وصنعوا السندانات والمطارق العظام  
لصناعات الآلات من الحديد والمخارط ، وركبوا مخارط عظيمة لخرط القلوزات  
الحديدية العظيمة ، ولهم فلكات مثقلة يديرها الرجال للمعلم الخراط للحديد بالأقلام  
المتينة الجافية ، وعليها حق صغير معلق مثقوب وفيه ماء يقطر على محل الخراط  
لتبريد النارية الحادثة من الاصطكاك ، وبأعلى هذه الأمكنة صناعات الأمور الدقيقة  
( الميكانيكيون ) مثل البركارات ( البراجل ) وآلات الساعات والآلات الهندسية  
المتقنة وغير ذلك ،

وأصلحوا بناء المقياس مما أصابه حين القتال من العطب ، تولى المسيولوبيير  
« Le Père » كبير مهندسى الرى في عهد الحملة ترميمه ، وجعلوا للمقياس باباً خارجياً  
نقشوا فيه بالعربية والفرنسية ما يشير إلى هذا الترميم الذى تم في عهد الجنرال منو ،  
وقد أرسل الديوان كتاب شكر للجنرال منو ، وآخر للمسيولوبيير ، وتجد نص  
الكتاب في قسم الوثائق التاريخية نقلناه عن كتاب تخطيط مصر ، وقد ذكر الجبرتي  
إصلاح بناء المقياس فى حوادث سنة ١٢١٥ هجرية فقال فى هذا الصدد : « ومنها  
أنهم غيروا معالم المقياس وبدلوا أوضاعه ، وهدموا قبته العالية ، والقصر البديع  
الشاهق ، والقاعة التى بها عمود المقياس ، وبنوها على شكل آخر لا بأس به ، لكنه  
لم يتم وهى على ذلك باقية إلى الآن ، ورفعوا قاعة العامود العليا ذراعاً وجعلوا تلك  
الزيادة من قطعة من رخام مربعة ورسموا عليها من جهاتها الأربع قراريط الذراع ،  
وأقاموا جسراً من المراكب من القصر العينى إلى الروضة ، وجسراً آخرأ

كبيراً من الروضة إلى الجزيرة ، تم في أثناء الحملة على سوريا ، وكانوا معجبين بجمال جزيرة الروضة وحسن موقعها حتى فكر نابليون في أن يجعلها مقراً للجلالية الفرنسية وينشئ فيها مدينة فرنسية لكن مشروعه لم ينفذ ، وكذلك وضع الجنرال «منو» تخطيطاً لمدينة يبنشها بها ، ولكن فكرته لم تخرج عن حيز الآمال وأصلحوا شارع الفجالة وكانت أرضه من قبل يعسر المرور بها فهدوه وجعلوه

ممتداً من باب الحديد إلى باب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب ومهدوا طريقاً مستقيماً غرسوا على جانبيه الأشجار من الأزبكية إلى بولاق يبلغ طوله ١٢٠٠ متر يبدأ من قنطرة المفرى ويتجه إلى بولاق رأساً ويتفرع بقرب بولاق إلى فرعين : الأول إلى طريق أبي العلاء ، والثاني إلى التبانة وساحل النيل ومدوا الطريق بين باب الحديد وباب العدوى إلى جهة المذبح خارج الحسينية وصار ممهداً بين الأزبكية وقبة النصر المعروفة بقبة العرب جهة العادلية

وأنشأوا منتدياً للتنزه (كازينو) سموه «التيفولى» تشبهاً بنظيره ببيريس أنشأوه بالأزبكية ، وسماه الجبرتي «دار الخلاعة» ووصفها بقوله «وأحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة في أوقات مخصوصة وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً يدفعه أو يكون مأذوناً ويده ورقة ،

وأقاموا مسرحاً لتمثيل الروايات ، تم انشاؤه في عهد الجنرال «منو» وهو الذى سماه الجبرتي «كبرى» (يريد كمدى Comedie) وصفه بقوله : «وفي شعبان سنة ١٢١٥ كمل المكان الذى أنشأوه بالأزبكية عند المكان المعروف بباب الهواء ، وهو المسمى فى لغتهم بالكبرى ، وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشرة ليال ليلة واحدة يتفرجون به على ملاعب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلية والملاهى مقدار أربع ساعات من الليل ، وذلك بلغتهم ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة ،

وخلاصة ما تقدم أن أعضاء المجمع العلمى قد بذلوا جهوداً كبيرة فى خدمة العلم والفن ، وكانوا دائمي النشاط مجدين فى أعمالهم مثابرين فى أبحاثهم ، فكان المجمع العلمى من أعظم المجامع العلمية قدراً وأكثرها ثمرة

كتب المسيو جوفروا سان هيلير - وكان من أعضائه الناهين - في رسالته إلى العلامة كوفيه Cuvier يقول :

« إن المجمع العلي المصري في نشاط دائم ، وإنى أؤكد أن جلساته تعادل بالأقل جلسات المجمع العلي الفرنسي في أعمالها وثمراتها ، وقد قررنا بناء على اقتراح زميلنا بونا بارت ( نابليون ) أن نرسل إلى بجمعكم محاضر جلساتنا ، فهل لكم أن تقرروا إزاءنا مثل هذا القرار ، وبذلك نقفوننا على تطور حركة العلوم في أوروبا (١) ،

يتبين من تشكيل المجمع العلمي ومن المسائل التي بحثها والأعمال التي عملها أنه معهد للعلوم والفنون ومجلس استشاري فني مؤلف من أعضاء اخصائين لدرس المسائل والمشروعات التي تعرضها عليه الحكومة ، فهو في الشق الأخير من مهمته شبيه بالمجلس الاقتصادي الذي أنشأته الحكومة المصرية سنة ١٩٢٣ إلا أنه يزيد في اختصاصه أنه يتناول عدا المسائل الاقتصادية والمالية المسائل الخاصة بالتشريع ، وهو عدا ذلك معهد أو أكاديمية للعلوم والفنون

ولاشك أن فكرة تأسيس هذا المجمع العلمي هي فكرة جليلة تدل على عبقرية نابليون ونبوغه في التنظيم والإثناء ، كنبوغه في الحروب ، وتدل أيضا على قوة عزمته وعلو همته ، لأنه أسس هذا المجلس بعد أن وصلته أنباء الكارثة التي حطمت عمارته في معركة ( أبوقير ) وقطعت كل صلة بينه وبين فرنسا وجعلته هو وجيشه محصورين في الديار المصرية ، ومع هول هذه الكارثة وعظم آثارها وما ضربت به نفوس الفرنسيين من اليأس فإنه قابلهما بالجلد والصبر وأسس المجمع العلمي ليجد من خبرة أعضائه وكفاءتهم ما يجعله يكتب بموارد البلاد الطبيعية وأخذ يقيم النظم في مصر كأنه باق فيها إلى ما شاء الله

وإذا نظرنا إلى هذا المجلس من الوجهة العلمية البحتة نجد أنه قد نفع البلاد بآثاره وأعماله ، وتعد مذكرات أعضائه نواة للأبحاث العلمية الخاصة بمصر

(١) رسالة جوفروا سان هيلير إلى كوفيه بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ الواردة في كتاب (رسائل من مصر)

فلاغرو أن يكون المجمع العلمي هو الأثر الوحيد الباقي من آثار الحملة الفرنسية،  
ويكفي أن نمنع النظر في أعمال أعضاء المجمع وأبحاثهم المنشورة في كتاب (تخطيط  
مصر) لنقدر مبلغ ما قاموا به من الأعمال وما يستحقونه من الإعجاب والثناء  
وقد انتهى العهد الأول من المجمع العلمي بعد رحيل الفرنسيين ، ثم أعيد  
انشاؤه سنة ١٨٥٩ بالاسكندرية ، وانتخب المسيو جومار Jomard آخر من بقي  
من أعضاء المجمع العلمي الأول رئيساً شرفياً للمجمع الجديد ، وهذا المجمع  
قائم الى اليوم ، فالمجمع العلمي الحالي هو استمرار للمجمع العلمي القديم ، وقد  
انتقل من الاسكندرية الى القاهرة سنة ١٨٨٠ ، ومقره الآن بحديقة وزارة الأشغال  
وله نشرة دورية تحوى مجموعة المحاضرات والأبحاث التي تلقى فيه

### زيارة الجبرتي للمجمع العلمي

وما قاله في وصفه

نرى من الواجب أن نختتم كلامنا عن المجمع العلمي بإيراد ما ذكره الجبرتي  
عنه وما قاله في وصفه وما رآه فيه ، ننقل ذلك لأن في وصف الجبرتي صورة  
دقيقة لما رآه وما شاهده ، وفي كلامه صورة جليلة للمستوى العلمي في ذلك العصر  
وصف الجبرتي للمجمع العلمي وصفا عاما بقوله : « وأفردوا للمدبرين  
والفلسكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالمهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات  
والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية حيث الدرب الجديد  
وما به من البيوت مثل بيت قاسم بك وأمير الحج المعروف بأبي يوسف وبيت  
حسن كاشف جركس القديم والجديد الذي أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه  
أموالا عظيمة من مظالم العباد ، وعند تمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة  
ففر مع الفارين وتركه ،

### مكتبة المجمع العلمي

وقال عن مكتبة المجمع : « وفيه ( بيت حسن كاشف ) جملة كبيرة من كتبهم  
وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة فيراجعون  
فيها مرادهم ، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة



المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن ، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر ، وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا ينعونه التدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم ، وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار ، ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعوني على ذلك ، فن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظر إلى السماء كالمرهب للخليفة ويده اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة رضی الله عنهم بأيديهم السيوف ، وفي صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين ، وفي الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس وصورة بيت المقدس والحرم المكي والمدني . وكذلك صورة الأئمة المجتهدين وبقية الخلفاء والسلاطين ، ومثال اسلامبول وما بها من المساجد العظام كأياصوفية وجامع السلطان محمد ، وهيئة المولد النبوي وجمعية أصناف الناس لذلك ، وكذلك جامع السلطان سليمان وهيئة صلاة الجمعة فيه ، وأنى أيوب الأنصاري وهيئة صلاة الجنائز فيه ، وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام ويران الصعيد والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنبات والأعشاب وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الأثقال ، وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم ، ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضي عياض ويعبرون عنه بقولهم شفاء شريف ، والبردة للبوصيري ويحفظون جملة من آياتها وترجموها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن ولهم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، واجتهاد كبير

في معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون في ذلك الليل والنهار ، وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أي لغة كانت إلى لغتهم في أقرب وقت ،

### قسم الفلك

وقال عن قسم الفلك :

« وعند توت (١) الفلكي وتلامذته في مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتفنة الصنعة ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن المصنوعة من الصفر المموه ، وهي تركيب ببراريم مصنوعة محكمة كل آلة منها عدة قطع تركيب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة بحيث إذا ركبت صارت آلة كبيرة أخذت قدراً من الفراغ ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئي ، وإذا انحل تركيبها وضعت في ظرف صغير ، وكذلك نظارات للنظر في الكواكب وأرصادها ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها وأنواع المنكبات والساعات التي تسير بثواني الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن وغير ذلك ،

### قسم الرسم والتصوير

وقال عن قسم الرسم والتصوير :

« وأفردوا جماعة منهم بيت ابراهيم كمتخدا السناري ، وهم المصورون لكل شيء . ومنهم أريجو (٢) المصور وهو يصور الآدميين تصويراً يظن من يراه أنه بارز في الفراغ مجسم يكاد ينطق حتى أنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته في دائرة وكذلك غيرهم من الأعيان وعلقوا ذلك في بعض مجالس ساري عسكر وآخر (٣) في مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر (٤) يصور الأسماك

(٢) يريد الرسام ريجور Rigo

(١) لعاه يريد نوي Nouet

(٣ و ٤) يريد بالأول سافيني Savigny والثاني ردوتيه Redouté وقد تكلفنا عنهما من ١٢٨

و ١٣٧ والآنان مساعدا العلامة جوزفروا سان هيلير في أبحاثه في التاريخ الطبيعي ولهما رسوم جديدة في كتاب تخميط مصر ، فسافيني رسم حيوانات مصر وحشراتها وردوتيه رسم أسماك مصر

والحيتان بأنواعها وأسمائها ، ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذي لا يوجد بملاذهم فيضعون جسمه بذاته في ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيأته لا يتغير ولا يبلى ولو بقى زمناً طويلاً ،

### قسم الهندسة

#### والطب والكيمياء

« وكذلك أفردوا أما كن للهندسين وصناع الدقائق ، وسكن الحكيم روبا (١) بيت ذى الفقار كتخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه في ناحية وركب له تناير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح وقدوراً عظيمة وبرامات ، وجعل له مكاناً أسفل وأعلى وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة ، وبها كذلك عدة من الأطباء والجراحية ( الجراحين ) ، وأفردوا مكاناً في بيت حسن كاشف جر كس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى وبنوا فيه تناير مهندمة وآلات تقاطير عجيبه الوضع ، وآلات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه ، وخلاصات المفردات ، وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات ، واستخراج المياه الجلاءة والحلالة ، وحول المكان الداخلى قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلف الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات وبدخلها أنواع المستخرجات ، ومن أغرب ما رأته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئاً في كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس وصار حجراً أصفر فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتياً ، وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه على السندان وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القربانه ( البندقية ) انزعجنا منه فضحكوا

(١) يريد رويه Royer كبير صيادلة الجيش الفرنسى

منا ، وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص وأدخل معها أخرى على غير هيأتها وأنزلها في الماء وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء في إحداهما وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء وقرب الآخر الشعلة إليها في الحال ، فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضاً ، وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ، ومثل الفلسفة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف ، ويظهر له صوت وطقطقة ، وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجلة سريعة ، ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئاً متصلاً به حصل له ذلك ولو كانوا ألفاً أو أكثر ... ، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا ... ،

## نظرة عامة

### في نظام الحكم الذي أسسه نابليون

لاجدال في أن تأسيس «الديوان» ، على النحو الذي شرحناه كان نواة النظام شورى لم تكن تعرفه البلاد من قبل ، ولا سيما إذا لاحظنا أنه وضع سنة ١٧٩٨ أي في أواخر القرن الثامن عشر ، ففي ذلك الحين لم يكن النظام الدستوري مألوفاً في الشرق . بل كان الحكم المطلق القائم على الظلم والاستبداد وأهواء الحكام هو السائد في بلاد الشرق قاطبة، بل في أغلب بلاد أوروبا ، فإن شعوب الأوروية لم تكن إلى ذلك العهد تعرف الحياة الدستورية الصحيحة عدا إنجلترا التي كانت تتمتع بالنظام الدستوري من عهد القرن السابع عشر، وفرنسا التي قوضت دعائم الاستبداد في أواخر الثامن عشر ، أما معظم الأمم الأوروية فكانت لا تزال ترزح تحت نير الحكومات المطلقة

فالنظام الذي أنشأه نابليون في مصر كان إذن نظاماً جديداً في الحكم ، فضلاً عن أنه يشبه أن يكون شورياً فإنه كان يجعل للعنصر المصري صوتاً في حكومة البلاد كان العنصر المصري في خلال حكم المماليك بعيداً عن كل نفوذ لأن هؤلاء المماليك استأثروا بسلطة الحكم من جميع نواحيه ، فنظام «الديوان» بالرغم من أنه ترك السلطة العليا للفرنسيين قد أشرك العنصر الأهلي في إدارة الحكومة ، وهذا شيء جديد كان له أثره في التطورات التي ظهرت في البلاد أوائل القرن التاسع عشر ، ولا شك أن نابليون بوضعه نظام «الديوان» في مصر كان متأثراً بعض التأثير بالافكار والمبادئ الجديدة التي أوحى بها الثورة الفرنسية إلى أذهان الناس إن نابليون كان قبل كل شيء قائداً عظيماً طموحاً إلى الفتح والسيادة ، ولكنه في الوقت نفسه وليد الثورة الفرنسية ، كما كان جنود فرنسا أبناء ذلك الانقلاب العظيم الذي أعلن حقوق الإنسان وقرر حرية الشعوب . فعلم الثورة كان لم يزل يخفق على الجيوش التي ساقها الجمهورية الفرنسية إلى ميادين القتال ،

يحمل في طياته مبادئ الحرية الجديدة ، وهذا وحده كان كافيا لفتح عيون الأمم والجماعات وتشوفها لنظام جديد قائم على أساس الحرية والحق ، ومهما تغلبت فكرة الفتح والاستعمار في رؤوس القواد والفاتحين فإنهم مضطرون أن يجاروا الروح الجديدة التي ولدتها الانقلابات والثورات في نفوس الجماهير والجماعات ، اعتبر ذلك فيما أعلنته جيوش الثورة الفرنسية للبلاد التي فتحها كالبلجيك والبيمونت ولومبارديا وإيطاليا من أنها جاءت لنصرة مبادئ الحرية وتحطيم أغلال الاستعباد لتجذب إليها قلوب الشعوب في تلك البلاد ، كذلك فعل نابليون حينما جاء مصر ، فإنه عمل على اجتذاب قلوب المصريين بخطابهم بلهجة الود ووعدهم في منشوراته وبياناته بأن يجعل زمام الحكم في أيديهم ، وبذلك استثار الروح القومية في نفوس المصريين ، فكان في هذه المنشورات شبها بالرئيس ويلسن الذي قام في الحرب العالمية الأولى يعلن للأمم مبادئه المشهورة في حرية الشعوب وحقها في تقرير مصيرها ، فان إعلان هذه المبادئ والعهود قد استثار روح الاستقلال والحرية في الشعوب قاطبة بالرغم من إخلاف ويلسن لوعوده وعهوده للأمم

فنا بليون قد استثار الروح القومية المصرية في منشوراته وبياناته للمصريين ، على أنه في الوقت نفسه قد أثارها باعتدائه واعتماده جنوده على البلاد وأهلها لأن هذه الاعتداءات أثار كراهية الأمة للاحتلال الفرنسي وحملتها على مقاومته بكل الوسائل ، فكانت هذه المقاومة هي النواة التي انبثقت منها الروح القومية المصرية ومما قيل في مبلغ ما كانت عليه الأمة المصرية في ذلك الحين من التأخر في العلم والمدنية فان الحملة الفرنسية وما احتاجته في نفوس المصريين من روح المقاومة قد هزت أعصاب الأمة هزة عنيفة أزاحت عن أبصارها شيئا من الغشاوة التي رانت عليها في خلال العصور

أراد نابليون إذن أن يجتذب إليه قلوب المصريين ويتودد إليهم ويكسب ثقتهم لأنه كان على يقين أنه ما لم يفز بثقتهم وميلهم فلا يستطيع أن يذشى على ضفاف النيل دولة عربية تخضع لحكمه ، مهما أوتي من قوة الجند والسلاح

لكن نابليون قد خاب في تحقيق هذا الأمل ، وكان إخفاقه راجعاً إلى أن الأمة المصرية لم تدعن للحكم الفرنسي ولم تطمئن إليه بحال من الأحوال ، ولم تخضع في حقيقة الأعراض التي كان يرمى إليها نابليون من الحملة ، وتلك فضيلة تدل على مبلغ الحيوية الكامنة في الأمة ، والواقع أن نابليون مع تلك الوعود التي كان يعنى بها المصريين في منشوراته وبياناته لم يكن يقصد في الحقيقة إلا فتح مصر وإخضاعها لتكون أداة لتحقيق أطماعه في الشرق والغرب ، فالحملة الفرنسية قامت على أساس الفتح والاستعمار ، ومهما تعددت أساليب القوة والفتح فالأمم التي تشعر بشيء من الحياة والكرامة تأبى أن تكون مطية لاهواء الفاتحين

فنظام الحكم الذي وضعه نابليون في مصر لم يكن ليصرف نظر المصريين عن أن يروا في الحملة الفرنسية اعتداء دولة أجنبية على بلادهم بدون حق أو مسوغ ، فهذا الاعتداء في ذاته قد أثار الروح القومية في نفوس المصريين ، وتلك أول مرة من نحو مائة وثلاثين عاماً (في تاريخ مصر الحديث) ظهرت فيها الروح القومية المصرية لمقاومة اعتداء دولة أجنبية ، والواقع أنك إذا تتبعنا تاريخ الحملة الفرنسية في مصر نجد أنها سلسلة مقاومات مستمرة من جانب المصريين ضد الحكم الفرنسي ، بحيث لم يستقر للفرنسيين حكم ولم يهدأ لهم روع في السنوات الثلاث التي قضاها في مصر

ولا نزاع في أن إعراض الأمة المصرية عن السكون لنابليون والاستنامة لوعوده هو في ذاته برهان على صدق نظر الأمة أو بالأقل على ما انطوت عليه من سلامة الفطرة إذ لم تقبل أن تكون أداة مسخرة لتحقيق أطماع نابليون ، ولقد دل تاريخ هذا الفاتح العظيم على أنه لم يبر بوعده لأمة من الأمم التي فتح بلادها بل كان يهزأ بحرية الأمم ويتخذ من الشعوب سلعة يساوم بها تحقيقاً لأطماعه في الفتح والسلطان ، فالأمة المصرية قد برهنت إذن على حيوية كبيرة في مقاومتها للحملة الفرنسية ولم يفث مؤرخي الحملة حتى هؤلاء الفرنسيين التنويه بهذه الحقيقة وحسبانها فضيلة للشعب المصري

وفي هذا الصدد يقول المسيو مارتان Martin أحد مهندسي الحملة وأحد أعضاء

لجنة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون إلى مصر (١) : بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار في البلاد ، وكان مركزهم فيها مزعزعا ومخفوقا بالمتاعب ، ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتباعوها ، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة ،

وقال في موضع آخر : « إن دعاة الفتنة ما فتئوا يشعلون نار الثورة في مختلف أنحاء القطر المصري ، وقد اتخذ المصريون شعارهم ذلك المبدأ المشهور الذي أعلنته فرنسا وهو أن مقاومة الاضطهاد هي أقدس واجبات الشعب ، ويقول المسيو ريبو Reybaud (٢) :

« كانت هناك عقبات وطنية ودينية تحول دون ثقة المصريين بحكامهم الجدد (الفرنسيين) ، فقد كان من الصعب أن توجد أمة تبلغ بها السذاجة مبلغ أن تنتظر الخير من جيش يركب متن البحار ويستهدف للأخطار ويحتل بلادها ويخوض فيها غمار الحرب لمجرد الدفاع عن مصالحها . ولا يمكن أن تؤثر المنشورات والكلمات الفخمة في تغيير حالة الشعب النفسية ، لذلك كان الوجه البحري بالرغم من احتلاله وانزاهه غير خاضع ولا مستسلم ، وكثيرا ما تمردت القرى التي مر بها الجيش الفرنسي ورفعت عكلم الثورة ،

هذا ما كتبه كاتبان فرنسيان في وصف الحالة النفسية للأمة ، وفيه كما ترى تمجيد لروح المقاومة التي ظهرت في نفوس المصريين والآن وقد انتهينا من الكلام عن نظم الحكم التي أسسها نابليون فلنشكلم تفصيلا عن المقاومة الأهلية في عهد الحملة الفرنسية

(١) في كتابه ( تاريخ الحملة الفرنسية في مصر ) الجزء الثاني  
(٢) في كتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية جزء ٣



# الفصل الخامس

## المقاومة الأهلية

في عهد الحملة الفرنسية

كانت حكومة الديركتوار تظن قبل تجريد الحملة على مصر أنها إن تلقى مقاومة من جانب المصريين لما وقع في الأذهان وقتئذ من ميلهم إلى الهدوء وخفض الجناح ، وصبرهم على مظالم الحكام ، هذه الفكرة تراها ماثلة في التقرير الذي قدمه المسيو د تاليران ، وزير الخارجية الفرنسية إلى حكومة الديركتوار في ١٤ فبراير سنة ١٧٩٨ عن مشروع الحملة (١) وهو تقرير مطول بحث فيه علاقات فرنسا بمصر والأسباب التي تبرر الحملة الفرنسية في نظره والمقاومة الحربية التي ينتظر أن تلقاها في مصر ، بدأه بقوله : « كانت مصر فيما مضى ولاية من ولايات الجمهورية الرومانية والآن يجب أن تكون ولاية تابعة للجمهورية الفرنسية »

وقال في كلامه عن قوة مصر الحربية : « إن أهالي مصر قاطبة يكرهون حكامهم المماليك الذين يسومونهم الظلم والاضطهاد ، وهم عزل لاسلح معهم ، وإذا أعطاهم المماليك سلاحا بحجة الدفاع عن البلاد من الغارة الأجنبية فينهم لا شك سيحاربون به طائفة المماليك أنفسهم ، فليس ثمت خوف من مقاومة أو وثبة من الأهالي »

وقال في موضع آخر : « إن الشعب المصري سيتلقانا باحترام لأنه يأمل من زمن مديد أن يتخلص من حكامه الظالمين »

هذا ما كتبه تاليران في تقريره عن مشروع الحملة ، وذلك ما كان يتوقعه أقطاب الحكومة الفرنسية حينما قرروا إنفاذ المشروع ، لكن الحوادث قد

خيبت ظنونهم ، فإن المقاومة التي لقيها الفرنسيون من جانب الأهالي كانت أشد من مقاومة المماليك

والواقع أن من يتتبع سلسلة المقاومات التي لقيها الجيش الفرنسي من المصريين يعجب لشدة مقاومة الأمة وقتئذ للاحتلال الفرنسي واستمرار هذه المقاومة وانفساح مداها في أنحاء القطر المصري ، حتى كأن ثورة عامة قد اندلعت في وجه الفرنسيين وامتد هيبها من أقصى البلاد إلى أقصاها ، ولو قلبت صحائف الحركة القومية المصرية في خلال المائة سنة الأخيرة لما وجدت لهذه المقاومة شها سوى الحركة العامة التي ظهرت سنة ١٩١٩ عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى قلنا إن الحملة الفرنسية قد هزت أعصاب الأمة المصرية ، فأخذت تنفض عنها غبار انجمود الذي كان يخيم عليها من ركود العصور ، وإن هذه الحملة قد استثارت روح القومية واهتاجت شعور المقاومة الأهلية في نفوس المصريين ، فبدأوا يشعرون أن لبلادهم مركزاً ممتازاً في العالم وأن لهم كياناً يدعوهم للحفاظ عليه ، لم يكن هذا الشعور مصبوغاً بالصبغة العلية المهدبة التي نفهمها اليوم ، وذلك لما كانت عليه البلاد من التأخر في العلوم والأفكار ، لكن شعوراً طبيعياً قد طاف بالنفوس واستفزها للدفاع عن كيان البلاد ، فكان من نتائج هذا الشعور سريان روح المقاومة في البلاد كلها من الاسكندرية إلى أسوان ، وقد أفردنا هذا الفصل والفصول التي تليه لسرد حوادث المقاومة في البلاد التي مر بها الجيش الفرنسي وما لقيه الأهالي من ضروب العنت والإرهاق ، وما أصابهم في سبيل المقاومة من الشدائد والأهوال ، وسنفضل ذلك متتبعين من جهة سير الحملة ومن جهة أخرى حوادث كل مدينة وكل مديرية من مديريات القطر المصري بقدر المستطاع ، ليكون تحت نظر القارئ صورة مفصلة لحوادث المقاومة الأهلية في ذلك العصر ، ولنبدأ بالاسكندرية وهي أول بلد نزل به الجيش الفرنسي

### الاسكندرية

يجسن بنا قبل أن نذكر دفاع أهل الاسكندرية عن مدينتهم أن نمهد بكلمة عن حالتها عند مجيء الحملة الفرنسية ، لتمثلها كما كانت في ذلك الحين

## الإسكندرية عند مجيء الحملة

كانت الإسكندرية مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها نحو ثمانية آلاف نسمة (١) عمرانها متهدم ، وبيوتها أشبه بمباني القرى ، وشوارعها ضيقة كثيرة التعاريج ، ومعظم سكانها فقراء ، فالفرق كبير جداً بين حالتها في ذلك العصر وماصارت إليه الآن من العظمة والثراء والاتساع والجمال ، أو ما كانت عليه قديماً في عهد البطالسة ، إذ كانت عروس المدائن ومركز تجارة العالم يسكنها نحو ستائة ألف نسمة ، ففقدت على مرّ العصور ما كان لها من الجلال والعظمة ، وما كان بها من عمران وحضارة ، وتجارة وصناعة ، وعلوم وفنون

ومع انتفاض معالم الحضارة فيها فقد احتفظت بمكاتها إلى القرن الخامس عشر من الميلاد ، ثم أخذت تفقد مكاتها بعد اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند ( سنة ١٤٩٧ ) فقد تحول الشطر الأول الأكبر من تجارة الهند إلى طريق المحيط الأطلنطي ، وحرمت مصر مرور تجارة الشرق ، وبعد أن كانت الإسكندرية مستودع المتاجر وطريقها بين الشرق والغرب اقتصرت تجارتها على واردات أفريقية وجزيرة العرب وثور السلطنة العثمانية والنزول السير من واردات الهند ، فأخذت تنزل عن مكاتها التجارية ، وأمعت في التأخر والاضمحلال من عهد الفتح العثماني ( سنة ١٥١٧ ) إلى آخر القرن الثامن عشر حيث لم يكن باقياً من الإسكندرية القديمة سوى الاسم والأطلال الدارسة ، درست معالم تلك المدينة العظيمة وتحولت إلى بلدة صغيرة تقع شمالي المدينة وتنحصر في شبه الجزيرة التي بين الميناء الشرقية والميناء الغربية المعروفة بالقديمة

كانت الميناء الشرقية تعرف وقتئذ بمرمى السلسلة وهذه الميناء واقعة كما هي الآن شرقي المدينة ولا تصلح لمرمى السفن أثناء اضطراب البحر ، وعلى شاطئ هذه الميناء كان يوجد الجمرك ودور القناصل ، وكانت السفن الإفريقية لا ترسو إلا بها ، وفي

(١) عدد سكان الإسكندرية اليوم (منتصف سنة ١٩٥٤) ١٠٠٠٠٠٠ (مليون ومائة وستة وأربعين ألفاً وخمسةائة) نسمة

النهاية القصوى من لسان الأرض الواقع لهذه الميناء توجد القلعة المعروفة بطابية « قايتباى »، التي بناها السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى فى القرن الخامس عشر، ويسمىها الفرنسيون قلعة المنارة، سموها كذلك لأنها أنشئت فى المكان الذى كان به منارة الإسكندرية القديمة المعدودة إحدى عجائب الدنيا السبع، وعلى مدخل الميناء الشرقية من الجهة المقابلة لطابية قايتباى يوجد برج السلسلة القائم أثره إلى اليوم وكان فى داخل الميناء طابية (قلعة) أخرى صغيرة على الساحل ترى مكانها على الخريطة الملحقه بهذا الفصل

أما الميناء الغربية أو المرفأ الكبير فهى الواقعة إلى الغرب بين شبه جزيرة رأس التين والبر، وفى طرف رأس التين غربا كان يوجد بطارية من المدافع لحماية الميناء وفى داخل الميناء برج آخر ترى موقعه على الخريطة، وكانت هذه الميناء تصلح لمرسى السفن، لكن المداخل المؤدية لها كان يتعذر مرور السفن الكبيرة منها، ولم يجر إصلاحها إلا فى عهد محمد على وإسماعيل، ومع أن الميناء الغربية أصلح لمرسى السفن التجارية من الميناء الشرقية، إلا أن السفن الأوروبية كان محظوراً عليها الرسو إلا فى الميناء الشرقية بأمر حكومة المالك، وبالميناء الغربية توجد الترسانة ومخازن البحرية التى كانت على درجة كبيرة من التأخر والإهمال، وفى النهاية القصوى للشاطئ خارج الميناء يوجد اللسان المعروف بجهة العجمى، والمسافة بينه وبين رأس التين ٨٣٠٠ متر على خط مستقيم، وتجاه هذا اللسان الجزيرة المعروفة بجزيرة العجمى وكان بها برج يسمىه الفرنسيون برج المراتب Marabout، واسمه الصحيح برج العجمى

ويسمى الفرنسيون جزيرة العجمى (جزيرة المراتب)، وهذا الإسم وارد بالفرنسية والعربية هكذا فى خريطة الإسكندرية التى خططها مهندسو الحملة الفرنسية، وهذه التسمية فيما نعلم لا أصل لها اللهم إلا أن تكون وصفاً لا إسماً (١)، والاسم الصحيح هو جزيرة العجمى، ويقول المسيو فيفان دنيون الذى جاء إلى

(١) كلمة مراتب كثيرة الذبوع عند المقاربة وتطلق على الأولياء الصالحين والشيوخ المجاهدين

مصر من الحملة الفرنسية (١) إن هذه التسمية ترجع إلى اسم المسجد الذي كان بالجزيرة ،  
والصحيح أن هذا المسجد معروف باسم مسجد الشيخ العجمي ، لا باسم المرباط ،  
ويقول الجنرال رينيه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية في كتابه (مصر بعد واقعة  
عين شمس ) إن القلعة التي أنشأها الفرنسيون في جزيرة ( المرباط ) أقاموها حول  
مسجد قديم في جزيرة منفصلة عن اليابسة وقد رسم رينيه هذه الجزيرة في خريطته  
وهي جزيرة العجمي بعينها ، ويقول إن القلعة قد تحربت أثناء القتال الذي دار بين  
الإنجليز والفرنسيين في أغسطس سنة ١٨٠١ وانتهى بتسليمها ، والمعروف أن محمد  
على الكبير قد أعاد بناءها ، ولا تزال آثار القلعة التي بناها باقية إلى الآن بالجزيرة ،  
كما لا يزال مسجد العجمي مزاراً للناس إلى وقتنا هذا ، وقال لنا كبار السن في  
جزيرة العجمي إن هذا المسجد معروف بهذا الاسم وموجود قبل عهد محمد علي باشا  
وقبل الحملة الفرنسية

#### حدود عمران المدينة

أما عمران الإسكندرية في أواخر القرن الثامن عشر فكان منحصرأ بين  
المينائين كما تراه في الخريطة ، وحدود هذا العمران ينتهي في مقابلة شبه جزيرة رأس  
التين ، فكانت جميع الجهات الواقعة بين البحر شمالا وشارع أبي وردة إلى جامع أبي  
العباس بعضها مدافن وبعضها تقع ولم يكن بها مساكن سوى بعض بيوت للصيادين  
بالجهة المعروفة بالسيالة ، وكان حد المدينة من الجهة القبليية الحارة المعروفة الآن  
بجارة المغاربة قريبا من ميدان محمد علي

ويكفيك لتحكم على تناقص عمران المدينة في ذلك العصر أن تعرف موضع عمود  
السوارى فإنه كان يبعد عن المدينة بنحو الف وخمسمائة متر جنوبا  
وكان للإسكندرية سور طوله الدائرى ٧٨٩٣ متر ، يتخلله مائة برج ، وبعض  
هذه الأبراج غاية في الفخامة والمناعة لافرق بينها وبين القلاع الحصينة ، وهذا السور  
مشيد على الراجح في عهد أحمد بن طولون ، وجدد بناءه السلطان صلاح الدين

(١) في كتابه ( رحلة في الوجه البحرى ومصر العليا )

الأيوبي ، ثم السلطان بيبرس (١) ويسميه الأفرنج سور العرب وهو الذي امتنع به الإسكندريون عند هجوم الجيش الفرنسي على المدينة ، وبين هذا السور حدود عمرانها في عهد الدول الطولونية والأيوبية والبحرية والبرجية ، وهو يحد من العمران نصف ما كان ما يحده سور البطالسة القديم

خطط العالم المصري محمود باشا الفلكي معالم سور البطالسة القديم ، ومن المقارنة بينه وبين معالم سور العرب يتبين أن عمران الإسكندرية وإن كان قد تناقص بعد انقراض عهد البطالسة إلا أن المدينة ظلت عامرة إلى القرن الخامس عشر ، وقد أخذ عمرانها يتقلص في بدء القرن السادس عشر ، وصار سور المدينة في عهد البكوات المماليك لا يحيط إلا بفضاء عظيم من الخرائب قد خلا من المساكن ، فيسير الإنسان فيه عدة ساعات دون أن يرى من معالم العمران سوى الأطلال الدارسة ، ولم يبق سوى صهاريج المياه وأربعة كفور يسكنها خدام البساتين التي بداخل السور وحراس القلاع والأبراج ، وكان معظم هذه الأبراج متخربا ، وفي السور ثغرات وفتحات سببها الإهمال وسوء الإدارة

### رسالة محمود باشا الفلكي عن الإسكندرية القديمة

ولمناسبة الكلام عن خريطة محمود باشا الفلكي نقول إنه أول عالم عصرى كشف عن موقع سور الإسكندرية القديم وآثارها ، وله في ذلك رسالة بديعة باللغة الفرنسية عن الإسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وهي رسالة تتضمن نتائج مكتشفاته وما قام به من النقب والحفر وما وصل إليه من كشف معالمها القديمة ، كأسوارها وشوارعها وأقنيتها ومراسحها ومتحفها ومكتبتها الشهيرة وقصورها ومبانيها وضواحيها ، ولم يسبقه إلى هذه المكتشفات المؤسسة على عمليات الحفر عالم عصرى من الأفرنج ، لأن مهندسى الحملة الفرنسية لم يكن لديهم الوقت ولا الوسائل الكافية للحفر والتنقيب ، وقد بحث اثنان منهم في مواقع الإسكندرية ، أولهما المسيو سان جنيس Saint Genis أحد مهندسى الحملة ، وله في الإسكندرية القديمة

(١) الفريرى الجزء الأول

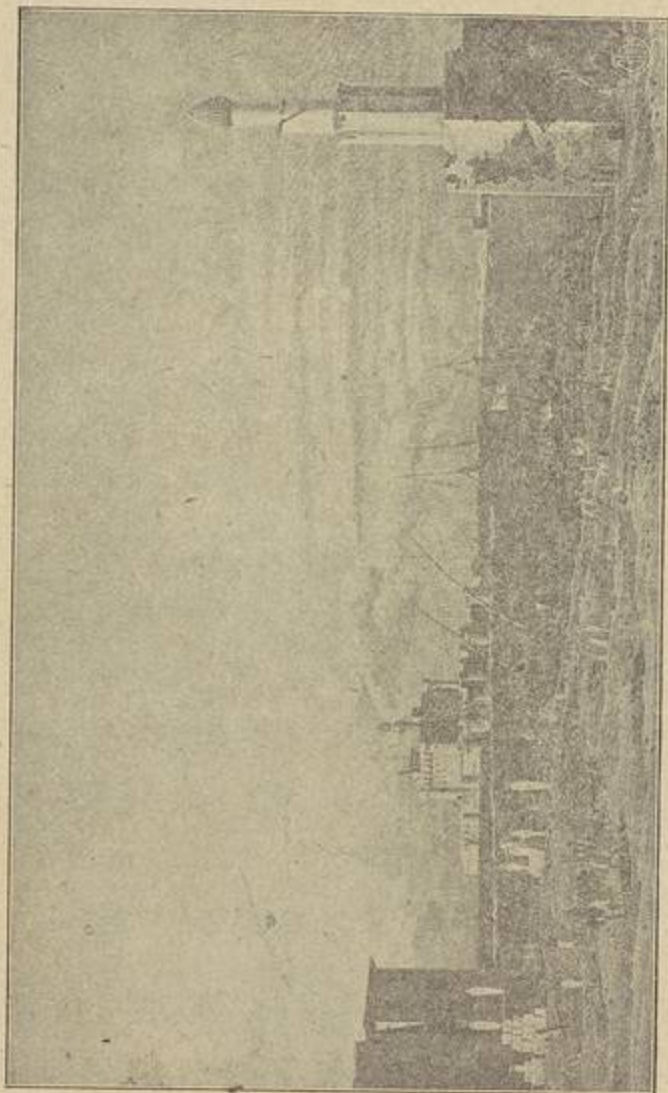
بحث مستفيض منشور في الجزء الخامس من تخطيط مصر ، ولكن المسيو سان جنيس لم ينقب ولم يحفر الأرض كما فعل محمود باشا الفلكي بل اكتفى بذكر نتائج مشاهداته وآرائه التاريخية ، وكذلك كتب المسيو جراتيان لوبيير Grasién Le Pere بحثاً في وصف الاسكندرية نشر في الجزء الثامن عشر ، اقتصر فيه على تدوين مشاهداته وما نقله عن مؤرخي الافرنج والعرب ، وللمسيو نوري Norry وللمسيو مارتان Martin وكلاهما من مهندسي الحملة الفرنسية بحثان أقل أهمية من أبحاث سان جنيس وجراتيان لوبيير منشوران في الجزء الخامس عشر من كتاب تخطيط مصر ، وكل هذه المباحث لم تكن مقرونة بأعمال الحفر والتنقيب

فمحمود باشا الفلكي هو أول عالم عصرى خطط معالم الاسكندرية القديمة على ما كشفت له أعمال الحفر تحت الأرض ، وقد بذل في مكشوفاته جهوداً كبيرة ، وكان تحت إمرته جماعة من المهندسين المصريين ونحو مائتي عامل يشتغلون في النقب والحفريات ، وما أفرد عمله وميزه أنه استثار الأرض في عهد الخديو اسماعيل باشا أى قبل أن تغطى بالمباني الحديثة وتضيع معالم الآثار ، فهو أول من خطط سور البطالسة القديم تخطيطاً مبنياً على الاكتشاف والفحص الدقيق ورسالة محمود باشا الفلكي مقرونة بخريطة هي أبداع مارسمه العلماء والمهندسون عن الاسكندرية القديمة ، وإليها يرجع علماء أوروبا في أبحاثهم وقد خالف علماء الحملة الفرنسية في بعض آرائهم ، فعين لمدينة كانوب مكاناً غير الذى عينوه ، وكشف أطلال تابوزيريس (١) التى يسمى الفرنسيون برجها برج العرب

### حالة المدينة من الوجهة الحربية

وصف الكاتب الفرنسى « فولني Volney » حالة الاسكندرية من الوجهة الحربية كما شاهدها عام رحلته إليها سنة ١٧٨٣ أى قبل الحملة الفرنسية بخمس عشر سنة ، فقال إنها من الوجهة الحربية لاقيمة لها ولا يوجد بها قلعة ذات شأن

(١) بوضير عربى الاسكندرية



الاسكندرية — البناء الصليبي سنة ١٧٩٨ ويرى في الصورة طابية (قلعة) قايتباي القديمة والمدائن التي  
كانت على الشاطئ في ذلك العهد (س ١٥٨)



أو خطر ، أما قلعة المنارة ( طابية قايتباى ) بأبراجها العالية فانها لاتصلح للدفاع إذ ليس بها سوى أربعة مدافع صالحة للضرب ، وليس فيها رماة يحسنون الرمي بالقنابل ، وحاميتها المؤلفة من خمسمائة من الإنكشارية هبط عددهم إلى النصف ، وإن فرقاطة واحدة لتسكني لهدم المدينة (١)

وقد زارها الرحالة الفرنسى سافارى Savary سنة ١٧٧٧ فقال إن قلعة المنارة لاتقوى على صد بارجة واحدة (٢) ، وكتب المسيو مور Mure قنصل فرنسا فى تقريره (٣) الذى قدمه سنة ١٧٨٣ إلى الحكومة الفرنسية يرغبها فى الحملة على مصر : « إن مرافى الاسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر ، وليس بها من الجنود سوى الأهلين الذين انتظموا فى سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهد الفتح العثمانى أما قلعة المنارة فهى فى ظاهرها فخمة ، لكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية ، والمدافع الباقية بها لاتصلح للضرب ، ولا تستعمل إلا فى أيام الأعياد ،

فى هذه الأقوال صورة صحيحة لما آلت إليه حالة الدفاع عن الاسكندرية من الضعف والإهمال فى عهد الولاة الأتراك والبكوات المماليك ، ويفهم من كلام المسيو مور أن حامية الاسكندرية كانت مؤلفة من الأهلين دون سواهم ، وبهذا نفس قول فولنى أن حامية قلعة قايتباى كانت خمسمائة من الإنكشارية ، فإن هؤلاء الإنكشارية ، كانوا إذن من الأهالى لا من الأتراك . وهذا يؤيد ما ذكرناه فى الفصل الأول من أن المصريين انتظموا فى سلك الوجقات ( الفرق العسكرية ) التى تألفت فى عهد الحكم العثمانى وبذلك اكتسبت الصبغة المحلية القومية

(١) رحلة فى مصر وسوريا بقلم فولنى Volney

(٢) رسائل عن مصر بقلم المسيو سافارى

(٣) أشرنا إلى تقريره ص ٧٣

## ترعة الاسكندرية

تردد اسم ترعة الإسكندرية كثيراً في الوقائع التي حدثت بالإسكندرية والبحيرة، لذلك يجدر بنا أن نكتب كلمة عنها

كانت الإسكندرية تأخذ ماها من ترعة تنبثق من الرحمانية الواقعة على النيل وتسير مغربة شمال دمنهور ثم تنثنى شمالاً بغرب وتمر بين بحيرة مريوط وبحيرة (أبو قبر) إلى أن تبلغ الإسكندرية، وكانت هذه الترعة تسمى (خليج الإسكندرية) اتباعاً لتسمية الترع في ذلك العصر وما قبله بالخلجان، وفي مكانها أنشئت ترعة المحمودية في عهد محمد علي الكبير مع اختلاف في المأخذ والمصب (١)، وترعة الإسكندرية كانت موجودة في عهد الفراعنة كما ذكر ذلك استرابون (٢) Strabon مع اختلاف في التخطيط، وعنى بها البطالسة لأهميتها التجارية للإسكندرية لأنها كانت طريق الملاحه بينها وبين النيل، ونقل المقرئ في خطه أن أحمد بن طولون أمر بحفرها سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ - ٨٧٣ م) وإن السلطان الظاهر بيبرس جدد حفرها سنة ٦٦٢ هـ، وذكر أيضاً أنه في سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) جدد حفرها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون واشتغل ٤٠٠٠٠ عامل في حفرها وتطهيرها وأقيمت عليها القناطر والسدود وجرت فيها السفن طول السنة وأستغنى أهل الإسكندرية عن شرب ماء الصحاريح وعمرت أراض وبلاد كثيرة على جانبيها (٣) كانت ترعة الإسكندرية أعظم ترع مصر، وقد أهمل شأنها في عصر الولاية الأتراك والبكوات المماليك حتى جفقت وارتفع قاعها عن ضعف عمقها الأصلي فكان لا يدخلها الماء في معظم السنين إلا في وقت زيادة النيل ثم تجف باقي السنة، وفي مدة زيادة النيل أي في شهر سبتمبر من كل سنة تصل مياهها إلى الإسكندرية فيملاً أهلها الصحاريح ليجدوا منها حاجتهم من الماء طول السنة، وكان أهل الإسكندرية يحتفلون بمجنى مياه الترعة وخرن الماء في الصحاريح ويتهجون لذلك

(١) تأخذ ترعة المحمودية مياهها من النيل عند العطف  
(٢) العالم الجغرافي اليوناني الشهير ولد سنة ٦٠ قبل الميلاد  
(٣) المقرئ الجزء الأول

ابتهاجاً عظيماً كما يتهيج سكان القاهرة بمهرجان وفاء النيل (١) وبطلت الملاحة فيها بعد أن كانت طريق المواصلات النيلية إلى الثغر ، فانزلت الاسكندرية عن القاهرة وداخلية البلاد وانحطت منزلتها التجارية القديمة ، على أنها ظلت ميناء القطر المصري التجارية في البحر الأبيض المتوسط ، لا ينافسها في هذا المركز إلا دمياط ، فكانت متاجر أوروبا ترد إليها وحاصلات مصر تصدر منها ، وظلت مقصد السفن الأوروبية بسبب صلاح مينائها لإيواء السفن ، فكانت السفن تصل إليها قادمة من ثغور البندقية وليفورن وراجوز ومارسليا وثغور السلطنة العثمانية ثم تنقل المتاجر منها إلى رشيد بمرآ في المراكب المصرية المعدة للملاحة بالنيل ، أما السفن الأوروبية فلم تكن ترسو برشيد رأساً لصعوبة اجتياز البوغاز

### عدد سكان الاسكندرية

تناقص عدد سكان الإسكندرية إلى درجة عجيبة من القلة ، فإن المسيو جومار Jomard (٢) قدرهم في ذلك العصر بخمسة عشر ألفاً ، ولكن المسيو جراتيان لويير يقدرهم بثمانية آلاف ، ويلوح لنا أن تقدير جراتيان لويير أدنى إلى الحقيقة ، لأن جومار قدر عدد سكان الإسكندرية ضمن تقديره مدن القطر المصري أما جراتيان لويير فقد أوفر على درس حالة الإسكندرية درساً خاصاً وأقام فيها طويلاً زمن الحملة الفرنسية وخطط مواقعها وآثارها ، وله فيها رسالة مطولة نشرت في كتاب تخطيط مصر (٣) ، فتقديره فيما نعتقد أدعى إلى الثقة به ، أضف إلى ذلك أن المسيو سافاري Savary الذي زار الإسكندرية سنة ١٧٧٧ قبل الحملة الفرنسية بعشرين سنة أحصى عدد سكانها بستة آلاف نسمة (٤) ، فالأمر قريب من قريب كما ترى ،

(١) ذكر الميوسان جنيس S. Genis أحد مهندسي الحملة الفرنسية في البحث المنشور بكتاب تخطيط مصر الجزء الخامس أن عدد هذه الصهاريج في عهد الحملة كان ٣٠٨ وأنها كانت تسع من المياه ما يكفي المدينة مائة مائة عشر شهراً ، وذكر محمود باشا القلبي في رسالته عن الاسكندرية أن صهاريجها بلغت ٧٠٠ في عهد اسماعيل باشا

(٢) راجع ما كتبناه عنه ص ١٢٣

(٣) الجزء الثامن عشر

(٤) رسائل عن مصر

ومما يدل على دقة لوبيير في الإحصاء قوله إن عدد سكان الاسكندرية قد نقص في عهد الحملة الفرنسية فنزل إلى سبعة آلاف ، فهذه الملاحظة قوية الدلالة على أنه لا يتحيز في إيراد الحقائق ، ويظهر أن السبب في هذا النقص يرجع إلى اضطراب الأحوال في الاسكندرية عقب الاحتلال الفرنسي وكثرة مافرضه الفرنسيون من الغرامات والمصادرات ، وإلى الحصر البحري الذي ضربه الإنجليز عليها ، ثم ركود حركة التجارة وظهور الوباء فيها وحصار الإنجليز والأتراك لها برأ وبحراً ، فبكل ذلك نقصوا وقلوا ، ولا زيادة على فقر أو موت أو هجرة ، فكيف بها كلها ؟

### حضور الأميرال نلسن إلى الاسكندرية

#### ثم إقلاعه

كانت الاسكندرية أول مدينة قصدها الحملة الفرنسية ، وهي كذلك أول من علم باقتراب العارة الفرنسية قبل أن تصل إلى الثغر ، ذلك أنه بالرغم من تكتم نابليون وجهة العارة فقد تسربت أخبارها إلى البلاد ، ولا سيما بعد أن وصل نبأ استيلاء الفرنسيين على مالطة (١) في طريقهم إلى مصر ؛ فطارت إشاعة عزم الفرنسيين على احتلال البلاد ، وعم السخط والهياج طبقات الشعب واستعد الناس للمقاومة ، وبيناهم كذلك حضر أسطول الأميرال نلسن إلى مياه الإسكندرية ، يوم ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨ يفتش عن العارة الفرنسية ، لكنه لم يلتق بها لأنها تأخرت في طريقها بسبب احتلال مالطة ، فأرسل إلى حاكم الاسكندرية الوطني السيد محمد كريم يذبه إلى احتمال حضور العارة الفرنسية ، وسأله أن يأذن له دخول الثغر ليمتار منه ، لكن الحاكم رفض طلبه ، ولعل السبب في الرفض أنه أساء الظن في مقاصد الأميرال نلسن ، لأن الإشاعات التي كان الناس يخوضون فيها ذلك الحين تنبئ أن الإفرنج ، يعتزمون احتلال مصر ، وكلة إفرنج كانت تتناول الفرنسيين والأوروبيين على السواء ، ومع أن الإشاعات ذاعت بأن الحملة المنتظرة حملة فرنسية إلا أن حاكم المدينة

(١) بعد أن رست العارة الفرنسية في مالطة ذاعت الإشاعات أن وجهة الحملة مصر فنقل قباطين بعض السفن التجارية هذه الإشاعات إلى الثغور المصرية قبل مجيء العارة الفرنسية

توجس خيفة لما رأى أسطولاً كبيراً يقترب من الشاطئ، وكان لا يعلم شيئاً عن الحالة السياسية في أوروبا، فخشى أن يكون طلب الأميرال نلسن خدعة لها صلة بالحملة المقبلة، فرفض، وظل الأميرال نلسن ينتظر بأسطوله أربعاً وعشرين ساعة. ثم أقلعت بوارجه يوم ٢٩ يونيه متجهة إلى شواطئ الأناضول

وإليك ما كتبه الجبرتي عن حضور الأسطول الإنجليزي :

وردت مكاتبات على يد الساعة من ثغر الاسكندرية ومضمونها أنه في يوم الخميس حضر إلى الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنجليز ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أيضاً، فانتظر أهل الثغر ما يريدون وإذا بقاياق (مركب) صغير واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار فوصلوا البر، واجتمعوا بكبار البلد، والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض السيد محمد كريم، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم، فأخبروا أنهم إنجليز حضروا للتفتيش عن الفرنسيين لأنهم خرجوا بعارة عظيمة يريدون جهة من الجهات، ولاندرى أين قصدهم فر بما دهموكم فلا تقدرتون على دفعهم ولا تمكنون من منعهم، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول، وظن أنها مكيدة وجاوبوهم بكلام خشن فقالت رسل الإنجليز نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين على الثغر لانحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمانه، فلم يجيبوهم لذلك، وقالوا هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا، فعندها عادت رسل الإنجليز وأقلعوا في البحر ليمتاروا من غير الاسكندرية وليقضى الله أمراً كان مفعولاً، (١)

في ذلك الحين كانت العمارة الفرنسية تمخر العباب قادمة إلى سواحل مصر. وهكذا شاءت الأقدار أن ينجو نابليون وجنوده من أسطول الأميرال نلسن، فاقتربت العمارة من مياه الاسكندرية يوم ٣٠ يونيه، وعندئذ أمر نابليون بأن تنفصل عن العمارة السفينة (جونون) Junon التي كانت في طليعة الأسطول لتصل إلى الثغر

وتلتقى بقنصل فرنسا (١) وتنبئ الفرنسيين في الاسكندرية بوصول الحملة، وظلت العمارة في عرض البحر دون أن تصل إلى الشاطئ، وفي اليوم التالي (أول يولييه) عادت السفينة جونون تحمل قنصل فرنسا بالاسكندرية (٢) فأنبأ نابليون بحالة الهياج الذي عم الأهالي من يوم أن علموا باقتراب الحملة وأن الفرنسيين الذين في الثغر أصبحوا كالرهائن وأن كثيراً من سكان المدينة مسلحون يستعدون للدفاع وأنهم قد استنجدوا بمن حولهم من الأهالي والعرب المجاورين للثغر، وأخبره كذلك بقدم أسطول الأميرال نلسن وإقلاعه

### الحالة النفسية للشعب

#### عند مجيء الحملة الفرنسية

إذا أردت أن تعرف نفسية الأهالي قبيل وصول الحملة الفرنسية إلى الاسكندرية فتأمل فيما كتبه في هذا الصدد الكاتب الفرنسي فيفان دينون Vivant Denon كان المسيو فيفان دينون أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون على ظهر السفينة (جونون) التي كلف نابليون رباتها بالتقدم إلى مياه الاسكندرية لمقابلة قنصل فرنسا في الثغر، فسمع حديث القنصل وأثبتته في كتابه (٣) وإليك ما ذكره في هذا الصدد قال:

وقدم إلينا قنصلنا يصحبه ترجمانه وقد خالطه الرعب بعد أن نجا من القتل ومن هياج الشعب، وأخبرانا أن أسطولا إنجليزياً مؤلفاً من أربع عشر بارجة حربية كان بالثغر ولم يغادره إلا عشية أمس الأول وأن الإنجليز صرحوا بأنهم قامون للتفتيش عنا ومحاربتنا، وقد ظنهم الأهالي الفرنسيين، فانفجر بركان الهياج في البلاد كلها

(١) هو مجالون الصغير ابن أخ المسيو شارل مجالون القنصل العام الذي كان في فرنسا وجاء مع الحملة  
(٢) يقول الجنرال برنويه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في كتابه إن شواطئ مصر ظهرت في الأفق يوم ١٢ مسيدور (٣٠ يونيه) صباحاً حيث كانت الحملة الفرنسية تتجه بارج العرب (بوصير) التي تبعد عن الإسكندرية غرباً بنحو ٣٦ كيلومتراً وأن نابليون أرسل يستدعي قنصل فرنسا في الثغر فوصل يوم ١٣ مسيدور (أول يولييه) إلى بارجة الأميرال  
(٣) رحلة في الوجه البحري ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بوناپارت

لشعورهم باقتربنا ، وكانوا يتوقعون ذلك من يوم أن علموا باحتلالنا لما لاطه ، وقد استعدوا للمقاومة فأخذوا يحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود بالمتطوعين للقتال ويجمعون جيشا من العرب ، وأن حاكم الاسكندرية ( السيد محمد كريم ) لم يأذن للقنصل بمقابلةنا إلا مصحوباً بجماعة من نوتية الاسكندرية وعهد إليهم إرجاعه إلى الثغر (١) ،

وجاء في مذكرات الكولونل سلكوسكي أحد ضباط الحملة ما يأتي :  
« وصلت منذ شهرين عن طريق الأستانة أنباء الحملة فأخذ الأمراء ( المماليك ) يستعدون ، ولا نعلم إلى أي حد بلغ استعدادهم ، ولكن الخبر الذي أزعجنا هو قدوم الأسطول الإنجليزي إلى الاسكندرية ومغادرته إياها قبل وصولنا ، وقد انزعجت له البلاد وظنه الناس أسطول الفرنسيين الذين يتوقعون حضورهم منذ مدة ، ومن يومئذ أخذ جميع الأهالي يعدون العدة للمقاومة ، فحملوا السلاح وانضم إليهم المغاربة من ضواحي الثغر وتحصنوا بالأسوار بينما كان أربعمائة من الفرسان يجوبون الضواحي استعداداً للقتال ، ولم يمكث الإنجليزي بمياه الاسكندرية إلا يوماً واحداً ثم غادروها متجهين شمالاً بشرق ، هذا كل ما استطعنا معرفته ، وعلينا أنهم اقتصروا على السؤال أمستعدة البلاد لاستقبال الفرنسيين أم هي مُعدة لهم الحرب والمقاومة ؟ »

### دفاع أهالي الثغر

#### واحتلال الاسكندرية

لما سمع نابليون حديث القنصل خشي عودة الأميرال نلسن ومباغتته بأسطوله في عرض البحر ، فأمر بالمبادرة إلى إنزال الجنود للبر ، واختار لمرسى عمارته ونزول جنوده جهة للعجمي (٢) التي تبعد عن الاسكندرية غرباً نحو اثني عشر

(١) ذكر نقولا الترك الذي شهد وقائع الحملة الفرنسية ودونها في كتابه أن السيد محمد كريم كان معارضا في هذه المقابلة وأن أدريس بك قومندان السفينة العثمانية التي كانت راسية بالثغر هو الذي أقتع السيد محمد كريم بالتصريح للقنصل فرنسا بمقابلة القادمين  
(٢) بالشاطيء المتد بين العجمي والدخيلة

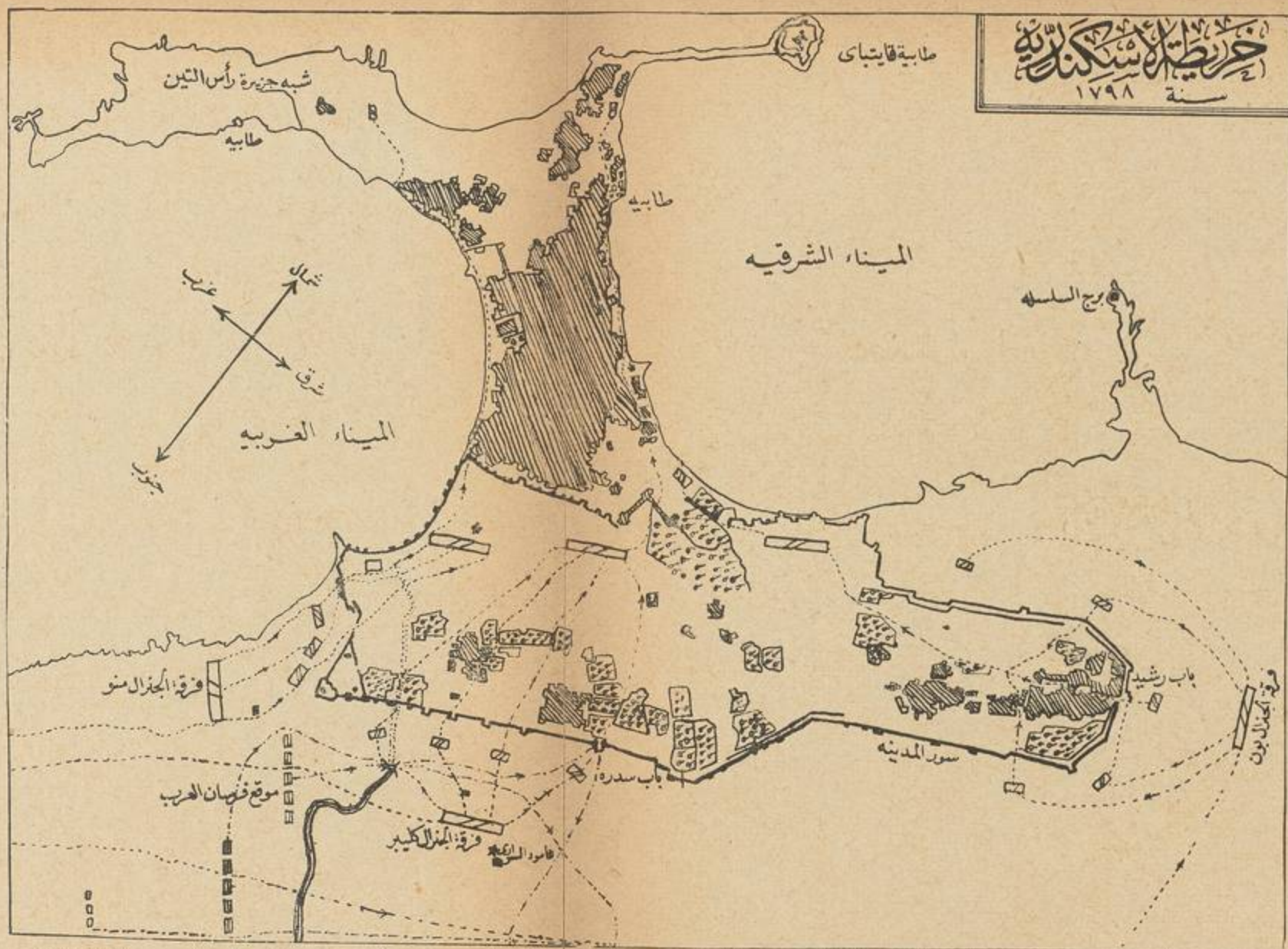
كيلو متراً ، وبدأت الجنود تخرج إلى البر ليلاً ( ليلة ٢ يولييه سنة ١٧٩٨ ) ، ونزل نابليون الساعة الحادية عشرة مساءً كما ذكر ذلك في تقريره إلى حكومة الديركتوار ، وظل نزول الجنود متراسلاً طول الليل ، وفي نحو الساعة الثانية من صبيحة يوم ٢ يولييه كان عدد الذين نزلوا بالبر نحو خمسة آلاف مقاتل من فرق الجنرالات كليبر Kleber وبون Bon وبنو Menou (١) ، وبعد أن استراحوا قليلاً أمر نابليون أن تزحف هذه القوة على الاسكندرية من غير إبطاء لتباغت الاسكندريين فلا تدع لهم وقتاً لتنظيم الدفاع عن المدينة ، وسارت القوة منتصف الساعة الثالثة من صبيحة يوم ٢ يولييه بحذاء الشاطئ ، فوصلت تجاه أسوار المدينة عند شروق الشمس وأخذت تحاصرهما في الضحى (٢) ووقف نابليون على قاعدة عمود السوارى واتخذها معسكره العام يرقب منها حركة الهجوم ويصدر أوامره لقواد جيشه

أما أهالى الاسكندرية فن ساعة أن ظهرت العماره الفرنسية عند غروب الشمس وقع فيهم الرعب وتولاهم الفزع حين نظروا وجه البحر تغطى بالمراكب ، فبادر السيد محمد كريم حاكم المدينة إلى إخبار مراد بك بقدوم العماره ، وطلب منه النجدة ، وأرسل في تلك الليلة إلى مراد بك ثلاثة عشر ساعياً ، على أن الاسكندريين قد بذلوا ما في مقدورهم دفاعاً عن المدينة ، فحصبوا الأسوار وشحنوا القلاع بالميرة والذخيرة جهد ما وصلوا اليه ، وفزعوا إلى السلاح فحمله القادرون منهم ، وركبوا المدافع العتيقة على أسوار المدينة استعداداً للكفاح ، وعهدوا إلى جماعة من الفرسان مناوشة القوات الفرنسية قبل اقترابها ، فحدثت مناوشات

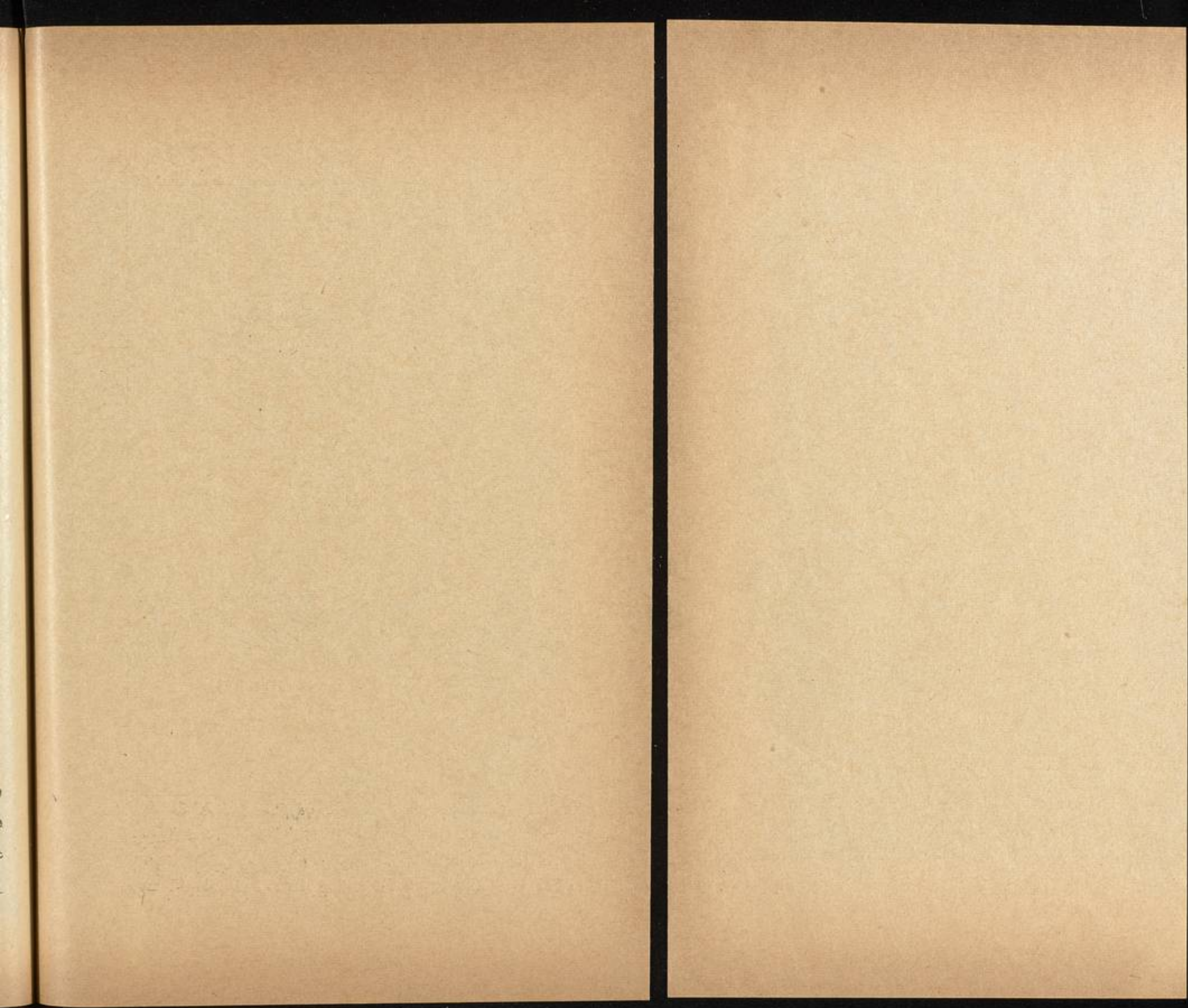
(١) كان الجيش مؤلفاً من خمس فرق وهى فرقة الجنرال كليبر وفرقة الجنرال ديزيه وفرقة الجنرال بون وفرقة الجنرال بنو وفرقة الجنرال ريبه عدا الفرسان الذين كانوا تحت قيادة الجنرال دumas ثم الجنرال مور Marat

(٢) جاء في مذكرات الجنرال كليبر ما يأتى : « نزلنا إلى البر على شاطئ المرابط ( العجوى ) الساعة ١١ ليلاً فبدأنا نرتوى من ماء بئر قريبة ثم استرحنا ساعة واستغرقت في النوم الى أن أيقظني البرد وسرنا نحو الساعة الأولى بعد منتصف الليل صوب الاسكندرية وبدأنا نهاجها يوم ١٤ مسيدور ( ٢ يولييه ) في نحو الساعة العاشرة صباحاً »





خريطة الإسكندرية سنة ١٧٩٨ — وتجد بها بعض المعالم القديمة والحديثة، كسور الإسكندرية، وباب سدرة، وباب رشيد، وعمود السواري، وطابية قايتباي، وبرج السلسلة، والخطوط المائلة تمثل حدود عمران المدينة في أواخر القرن الثامن عشر (أنظر ص ١٥٩)، والخطوط المنقوطة تمثل خط سير فرق الجرالات (منو) و (كليب) و (بون) من قواد الجيش الفرنسي في هجومهم على السور الذي كان أهالي الإسكندرية يدافعون عنه كما تراه مفصلاً في (ص ١٧٠)، وتجد أيضاً بالخريطة موقع فرسان العرب الذين كانوا يناوشون القوات الفرنسية قبل اقترابها من المدينة ثم انسحابهم جنوباً.



بين الفرنسيين والعرب ارتدت على أثرها العرب جنوبا وتابع الفرنسيون زحفهم على المدينة

احتشد الأهالي الذين يحملون السلاح على الأسوار وفي الأبراج التي تتخللها للدفاع ، فلما اقترب الجيش الفرنسى وقبل أن يبدأ هجومه صعد نابليون على الرتبة المقام عليها عمود السوارى ( وكان العمود قبلى سور الاسكندرية ) وشاهد أسوار المدينة ومآذنها وقلاعها ، ولاحظ أن بالسور رغم ارتفاعه وضخامته ثغرات كبيرة رمت حديثا ترميما يدل على العجلة ، ورأى أهالى الاسكندرية محتشدين بأعلى الأسوار مشاة وركبانا ، رجالا ونساء ، كبارا وصغارا ، ومعظمهم مسلحون بالبندق والرمح ، فأصدر أمره بالهجوم العام ، وأخذ الأهالى يطلقون النار من المدافع المركبة على الأبراج والأسوار إطلاقا من غير إحكام ، فأحاط الجنود بأسوار المدينة وهاجموها من ثلاث جهات ، الجزال متو من الغرب حذاء الشاطىء ، والجزال بون من جهة باب رشيد ، والجزال كبير من باب سدره ، واندفعوا إلى الأسوار ، فقابلهم الأهالى بإطلاق النار إطلاقا شديدا من المدافع والبنادق ، وقاومت الأبراج مقاومة عنيفة ، لكن المدافعة لم تدم طويلا ، فالتحم الجنود الأسوار ودخلوا المدينة ووصلوا إلى الجهة المسكونة منها ، وكانت مقاومة الأهالى قد فدحتهم بالخسائر ، فهاجموا الناس فى بيوتهم ، فدافع هؤلاء عن أنفسهم وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين ، وكاد نابليون نفسه يصاب برصاصة قاتلة ، لولا الحظ الذى نجاه من الموت ، قال بوريين Bourienne سكرتيره الخاص فى هذا الصدد : « دخل بونابارت المدينة من حارة لا تكاد لضيقها تسع اثنين يمران جنباً لجنب ، وكنت أرافقه فى سيره ، فأوقفنا طلقات رصاص صوبها علينا رجل وامرأة من إحدى النوافذ ، واستمررا يطلقان الرصاص فتقدم جنود الحرس وهاجموا المنزل برصاص بنادقهم وقتلوا الرجل والمرأة (١) ، وخشى نابليون حدوث المذابح فى المدينة وهو الذى أعلن أنه إنما جاء لمحاربة

(١) مذكرات بوريين سكرتير نابليون الخامس الجزء الأول

الماليك ، فأمر جنوده أن يكفوا أيديهم ، واستدعى ادريس بك قومندان السفينة العثمانية التي كانت راسية بالشجر ، وطلب إليه أن يقنع أهل المدينة بالكف عن القتال ويبلغهم أنه انما جاء لمحاربة الماليك (١) ، فبلغهم القومندان الرسالة ، وكف الأهالي عن المقاومة مدعين للقوة القاهرة ، وظل السيد محمد كريم يدافع بعد دخول الفرنسيين المدينة معتصماً بطابية قايتباي ومعه فريق من المقاتلة ، إلى أن كفت قواه ورأى المقاومة عبثاً لا يجدى ، فكف عن القتال وسلم القلعة ، فتلقاه نابليون لقاء كريماً ، وأبقاه حاكماً للاسكندرية ، وبذلك سلمت المدينة بقلعها وأسوارها ومرافقها إلى الفرنسيين ، ولم يكن بد من التسليم ، لأن قوة الدفاع كانت أضعف من أن تقاوم جيش نابليون وهو في عنقوانه وقوته ، وشرعت السفن الفرنسية في مساء اليوم الذي احتلت فيه المدينة تنزل بقية جنودها وأحمالها في الميناء الغربيه

كتب الجنرال برتنيه (٢) في رسالته إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٦ يوليه سنة ١٧٩٨ يصف احتلال الفرنسيين للاسكندرية فقال ، « إن الأهالي دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت ، وقد أصيب في هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار نارى في جبهته ، فخرج جرحاً بليغاً ، وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة ، وأصيب الأجدودان جنرال إسكال Escale بجرح بليغ في ذراعه من عيار نارى ، وقتل اللواء ماس Mas وخمسة ضباط آخرون ،

وكتب الجنرال منو إلى نابليون يقول : « إن الجنود يستحقون الثناء العظيم على ما بذلوه من الإقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التي كانت تحيط بهم لأن الأعداء (الأهالي) قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم ،

---

(١) قبل أن يحتل نابليون الاسكندرية أرسل إلى الوالى التركى (أبو بكر باشا) وإلى ادريس بك قومندان السفينة العثمانية رسالتين يرب فيهما عن مقاصده الودية نحو السلطان ويعلن أنه انما جاء لمحاربة الماليك وقد نشرنا هاتين الرسالتين في قسم الوثائق التاريخية

(٢) رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية

وقدر نابليون خسائر الجيش الفرنسي في مهاجمة الاسكندرية في رسالته إلى حكومة الديركتوار بثلاثين إلى أربعين قتيلا ، وثمانين إلى مائة جريح ، وقدرها بعد ذلك في مذكراته بثلاثمائة بين قتيل وجريح ، وقدر خسائر الاسكندريين بسبعائة إلى ثمانمائة بين قتيل وجريح ، وأمر بدفن قتلى الفرنسيين حول عمود السواري باحتفال عسكري كبير ، ونقشت أسماءهم على قاعدة العمود

### رواية الجبرتي عن احتلال الاسكندرية

اليك ما ذكره الجبرتي عن رسو العارة الفرنسية واحتلال الاسكندرية :  
« فلما كان يوم الأربعاء العشرون من الشهر المذكور ( محرم سنة ١٢١٣ (١) ) وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأنه في يوم الاثنين ثامن عشر وردت مراكب وعمارات للفرنسيس كثيرة ، فأرسوا في البحر وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل وبعض أهل البلد ، فلما نزلوا اليهم عوقوهم عندهم ، فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلى جهة العجمي وطلعو إلى البر ومعهم آلات الحرب والعساكر ، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد فعندها خرج أهل الثغر ومن انضم اليهم من العربان المجتمعة وكاشف ( حاكم ) البحيرة ، فلم يستطيعوا مدافعتهم ، ولا أمكنهم ممانعتهم ، ولم يثبتوا لخرابهم وانهمز الكاشف ومن معه من العربان ، ورجع أهل الثغر إلى التترس في البيوت والحيطان ، ودخلت الافرنج البلد ، وانبت فيها الكثير من ذلك العدد ، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرعي يدافعون ، وعن أنفسهم وأهلهم يقاتلون ويمانعون فلما أعيام الحثال ، وعلمو أنهم مأخوذون بكل حال وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته طلب أهل الثغر الأمان فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال ومن حصونهم أنزلوهم ونادى الفرنسيين بالأمان في البلد ورفع بنديراته عليها ،

## سياسة نابليون

### في الاسكندرية

كانت الاسكندرية أول مدينة مصرية نزحها نابليون وواجه فيها المصريين ، فعزم على أن يتبع فيها السياسة التي رسمها من قبل ، وهي مجاملة الأهالي ومحاسنتهم واجتذابهم إليه بالكلم الطيب والوعود الحسنة ، لذلك بادرعقب احتلاله الاسكندرية الى دعوة مشايخ المدينة وأعيانها لمقابلته ، فلما اجتمع بهم أعرب لهم عن تمنييه السعادة والرفاهية للشعب المصري ، وأوضح لهم أنه لا يقصد بالأهالي سوءاً ، وطارحهم الرأي في إصلاح حالة البلاد ، وواثقهم على الاطمئنان على حياتهم وأموالهم وأن لا يجاروا الجيش الفرنسي وأن يكونوا موالين للجمهورية الفرنسية ، ورد إلى السيد محمد كريم الذي استبسل في الدفاع عن المدينة سلاحه وقال له في مجلس من أعيان المدينة : « لقد أخذتك والسلاح في يدك وكان لي أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكنك استبسلت في الدفاع ، والشجاعة متلازمة مع الشرف ، لذلك أعيد إليك سلاحك وأمل أن تبدى للجمهورية الفرنسية من الإخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة » (١)

حضر المسيو فيفان دينون هذا المجلس وأثبت في كتابه (٢) أقوال نابليون للسيد محمد كريم ووصفه بقوله : « لقد لاحظت على ملامح هذا الرجل الذكاء والدهاء وكأنما كان يكتم عواطفه عنا ، على أنه بدت عليه علامات التأثر من العفو الذي أسداه إليه القائد العام ، وصوره في مجموعة رسومه

وعقب اجتماع نابليون بأعيان المدينة أذاع منشوره الذي كان أعده من قبل ، وقد بسطنا الكلام عنه في الفصل الثاني ، وأطلق سراح أسرى مالطة ليوزعوا نسخاً منه في البلاد ، فلم يكن من الأهالي إلا أن قابلوا هذا المنشور بالإذعان ، لا اقتناعاً به ، ولكن نزولاً على حكم القوة ، وأذاع نابليون أمره في الجند

(٢١) كتاب رحلة في الوجه البحرى ومصر العليا

وحذرهم عقابه إذا لم يحترموا الشعائر الدينية للأهالي ، ونهاهم أن يتعرضوا لهم في أموالهم وأملأكمهم

وقبل أن ترسو العمارة على سواحل الاسكندرية بعدة أيام أمر نابليون بإذاعة منشور على الجنود يوصيهم فيه باحترام شعائر المصريين الدينية وعدم التعرض لنسائهم ويحذرهم من الاعتداء على أموالهم وبيوتهم ، وفرض عقوبات شديدة لجرائم النهب والاعتداء (١) ، وبعد احتلال الاسكندرية أصدر الجنرال برتية رئيس أركان الحرب أمراً بتاريخ ٣ يوليه يتضمن تعليمات القائد العام في هذا الصدد وأهمها ، أن القائد العام يريد أن يستمر الأهالي يؤدون شعائرهم الدينية في المساجد كما كانوا من قبل ، ويحظر على الفرنسيين جميعاً من عسكريين وملكيين دخول المساجد أو الاجتماع على أبوابها ، وعليكم أن تأمروا ضباط الفرق بأن يتلوا هذا الأمر على جنودهم وأن يعيدوا تلاوة أمر القائد العام الخاص بمعاينة النهب والتعدي على النساء ، وعليكم أن تعدموارمياً بالرصاص كل من يخالف هذه الأوامر ، ومن المهم أن يدفع كل جندي من الجنود ثمن ما يبتاعه في المدينة وأن يحافظوا على أموال الأهالي وكرامتهم ، وعلينا أن نكتسب صداقتهم وأن لا نعادي سوى المماليك ،

كانت نتيجة مقابلة نابليون لزعماء الأهالي أن كتبت في يوم ٤ يوليه وثيقة بالعهود التي أخذها الفريقان كلاهما على الآخر ، وإليك نص الوثيقة :

« هذا ماتم الاتفاق عليه بين أعيان الاسكندرية الموقعين بأسمائهم وبين رئيس الأمة الفرنسية والقائد العام للجيش المعسكر بالمدينة

« يستمر الأعيان على العمل بقوانينهم والقيام بشعائرهم الدينية وفض المنازعات بينهم مع مراعاة العدل والابتعاد عن مسالك الهوى ولهم أن يختاروا القاضى الذى يتولى القضاء فى محكمة الشرع من خيار العلماء المشهود لهم بالاستقامة والتقوى وعليه أن لا يقضى فى أمر إلا بعد الرجوع إلى رأى مجلس العلماء

(١) نشرنا هذا المنشور فى قسم الوثائق التاريخية

« ويجتهد الموقعون على هذا في إقامة العدل وبيذلون ما في وسعهم لتحقيق هذا الغرض ، وسيعملون جهودهم لمفاهيمه صالح البلاد وتوفير أسباب السعادة للأهالي ومحاربة الأشرار والمفسدين ، ويتعهدون كذلك أن لا يخونوا الجيش الفرنسي وأن لا يعملوا عملاً يضر مصالحه وأن لا يشتركوا في مقاومة تدبر ضده ، وتعهد لهم القائد العام من جهته بأن يمنع كل جندي من جنوده من التعدي على أهالي الاسكندرية ويعلن أن من يرتكب من الجنود عدواناً أو ظلماً ينكل به ويعاقب بأشد أنواع العقوبة ، ويتعهد القائد العام علناً بأن لا يجبر أيّاً من الأهالي على تغيير دينه وتغيير شعائره الدينية فإن مقصده هو إقرار الأهالي في دينهم واطمئنانهم على أنفسهم وأموالهم وسيبذل في هذا السبيل كل ما لديه من قوة ماداموا لا يقصدون به ولا يبيحونه سوءاً .

هذا الاتفاق مؤرخ ٢٠ محرم سنة ١٢١٣ ( الموافق ٤ يولييه سنة ١٧٩٨ ) وموقع عليه بالاسماء الآتية :

« ابراهيم البرجي مفتي الحنفية . سليمان الكلاف مفتي المالكية . محمد المسيري . احمد عبد الله الشافعي . حسن كائيد . عباس القويضي . مصطفى محمد ،

لم نجد لهذا الاتفاق ذكراً في تاريخ الجبرتي ولا في أي مرجع آخر من المراجع العربية ، ولذلك ترجمناه عن الأصل الفرنسي الوارد في لاجونكيير (١) ، وقد أورد الجبرتي مقابلة نابليون لأعيان الاسكندرية ولم يذكر فيها إلا طلبه جمع السلاح وتعليق الشارة الفرنسية المثلثة الألوان ( السكوكارد ) على صدورهم ، وإليك مقالة الجبرتي :

« وطلب أعيان الشجر فحضرنا بين أيديهم فالزمهم بجمع السلاح وإحضاره إليه وأن يضعوا الجوكار في صدورهم فوق ملبوسهم ، والجوكار ، ثلاث قطع من جوخ أوحيرير أوغير ذلك مستديرة في قدر الريال سوداء وحمراء وبيضاء توضع

(١) حلة مصر الجزء الثاني وهذا الكتاب مطبوع سنة ١٨٩٩ ، وقد رجعنا إلى كتاب المسويثيودو Thiboudeau المطبوع سنة ١٨٢٨ فوجدنا به هذه الوثيقة مع زيادة بعض العبارات التي أضفناها في الترجمة ومع اختلاف بسيط في أسماء الموقعين عليها ، فإن تيبودو لم يذكر سوى أسماء ابراهيم البرجي مفتي الحنفية ، ومحمد السيري ، وأحمد ( ولعله أحمد عبد الله الشافعي ) . وسليمان الكلاف مفتي المالكية



بعضها فوق بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التي تحتها حتى تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيطة ببعض ، ولم نجد في الجبرقي ذكراً ولا بطريق الإشارة لأحد من الموقعين على هذا الاتفاق سوى الشيخ محمد المسيرى ، فقد ذكره في عرض الكلام عن ولاية على باشا الطرابلسى ؛ فأثنى عليه ووصفه بالعلم وقال عنه إنه « أجل مذكور في الثغر »

### أوامر نابليون وتعليماته قبل مغادرته الاسكندرية

قبل أن يزحف نابليون بجيشه على القاهرة عين الجنرال كبير قومنداناً وحاكماً لدائرة الاسكندرية وضواحيها والجنرال مانسكور Manscourt قومنداناً للموقع ، والقبطان لبلاى Le Pelley قومنداناً للبناء ، وعهد إلى الكولونل كريتان Cretin تحصين ثغر الاسكندرية وترميم قلاعه القديمة وإنشاء قلاع جديدة لجعلها بأمن من البوارج الانجليزية

وبعد الجنرال كبير من أكفأ قواد الحملة الفرنسية وكان قائد فرقة من الفرق المعدة للزحف على القاهرة ، لكن الجراح التي أصابته يوم احتلال الاسكندرية حالت دون اشتراكه في الزحف فأبقاه نابليون بالاسكندرية إلى أن يشفى من جراحه ، ووكل إليه شئون الدفاع عنها والاشراف على إدارتها ، وترك بها حامية من الجنود (١) ، وعين في الوقت نفسه الجنرال منو Menou حاكماً لرشيد ، وكانت إصابته كذلك سبباً في تخلفه عن اللحاق بالجيش الزاحف في داخلية البلاد ، وقد شامت الأقدار أن كبير ومنو قد توليا على التعاقب القيادة العامة للجيش الفرنسى عقب سفر نابليون إلى فرنسا كما سيحىء بيانه

ولما أزمع نابليون مغادرة الاسكندرية (يوم ٧ يوليه سنة ١٧٩٨) أوصى الجنرال كبير أن يبذل كل ما فى وسعه لاستبقاء العلاقات الحسنة مع الأهالى وإبداء كل أنواع الاحترام للمفتين ورؤساء المشايخ فى المدينة ، ومع ذلك فإن نابليون قد

(١) تتألف هذه الحامية من ٦٥٠٠ جندي يضاف إليهم ٣٠٠٠ من بحارة السفن التي أقلت الجنود أى أن مجموع الحامية بلغ نحو ٩٥٠٠

فرض على المدينة بعد احتلالها غرامة حربية قدرها ١٥٠ ألف فرنك (ستة آلاف جنيه) ، وهي غرامة فادحة إذا قيست بما كانت عليه المدينة في ذلك الحين من الفقر والتأخر الاقتصادي

وقبل أن يغادر الاسكندرية أمر بإبقاء السيد محمد كريم حاكماً لها وأعرب له عن ارتياحه لمسلكه الذي اتخذه من يوم قدوم الجيش الفرنسي ، وكتب له الخطاب الآتي يوم مغادرته الاسكندرية:

« إلى السيد محمد كريم

« المعسكر العام بالاسكندرية في ١٩ مسيدور من السنة السادسة (٧ يوليه

سنة ١٧٩٨ )

« لقد سر القائد العام سروراً تاماً من الخطة التي سلكها السيد محمد كريم منذ قدوم الجيش الفرنسي ، وإعجاباً عن هذا السرور يعينه في وظيفة محافظ دائرة الاسكندرية . وستصل إليه أوامره بواسطة الجنرال كبير القائد العام للجهة ، وهذا لا يمنع من أن يرسل القائد العام راساً متى شاء ، وعلى الجنرال كبير أن يطلب منه كل ماتقتضيه مهام الجيش الفرنسي وبوليس دائرة العرب .  
بونابارت (١) ،

### موقف كبير في الإسكندرية

بذل الجنرال كبير ما في طوقه واستخدم كفايته وجهده لتوطيد مركز الفرنسيين في الاسكندرية من الوجهتين العسكرية والإدارية ، على انه فشل في مهمته ، ولم يكن ينظر إلى مقامه بالاسكندرية بعين الارتياح لأنه كان من القواد الذين بطمحوون إلى نيل المجد في ميادين القتال لا بين أسوار المدن . ولقد كتب إلى نابليون يقول (٢) إنه يعتبر الاسكندرية منقبة له ويرجو منه أن ينقذه من منقاه في عاجل الوقت ، وإنه وإن كانت جراحه لا تتم قبل شهر بسند أن ذلك لا يمنع من السفر إلى القاهرة والحقاق بفرقة

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٨٥

(٢) رسالة كبير إلى نابليون بتاريخ ١٢ يوليه ١٧٩٨

إن مهمة كبير في الاسكندرية كانت شاقة لأن حالة الحرب جعلت الاسكندرية في شبه حصار بحري شل حركة السفن وعطل التجارة التي هي أكبر مورد لثروة الأهالي ، لذلك أخذ الكساد يضرب في المدينة وتشتد الفاقة والضيق بالأهالي فيزداد تدميرهم وسخطهم من الاحتلال الفرنسي ، ولقد شكوا كبير غير مرة من هذه الحال الى نابليون وأعرب عن حيرته في دفع عطاء الجنود ، لأن موارده المالية لا تتسع لمرتباتهم ، وكان الأهالي من ناحيتهم لا ينفكون ينظرون إلى الفرنسيين بعين المقت والكرهية ، والجنود من جهتهم لا يكبحون لأنفسهم جماحا ، بل كانوا يقتربون من المنكر والعدوان ما يؤجج نار الكراهية ويثير الحفيظة عليهم في نفوس الناس ، ذكر كبير في رسالته إلى بليون (١) أن بحارة الأسطول قد خربوا ضواحي (أبو قير) فكانوا يغتصبون ثمار الأشجار ويقطعون النخيل من جذوعه وقد لفت كبير نظر الأميرال «برويس» قومندان الأسطول إلى كفهم عن هذا العدوان قائلاً له : «إنكم تقدرون عواقب هذا السلوك في إثارة روح الكراهية في نفوس الأهالي في الوقت الذي نحن محتاجون فيه إلى كسب قلوبهم ، وكان بعض الجنود في المدينة يخرج على النظام ويرتكب السرقات ، وبالرغم من حكمة الجنرال كبير وأناته وبذله الجهد في تحسين علاقة السلطات الفرنسية بالأهالي فإن روح السخط كانت كامنة في جوانبهم ، والواقع أنهم مارضخوا للحكم الفرنسي إلا إذعانا للقوة وكانوا يتحينون الفرص للمقاومة والوثبة ، وقد وقعت حادثة في يوم ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨ كادت تفضي إلى هياج عام لولا ما اتخذه الجنرال كبير من الحكمة والحزم ، فقد قتل في هذا اليوم أحد جنود مدفعية الأسطول ، ولم يعرف قاتله ، ووجدت جثته ملقاة في الشارع ، وفي الوقت نفسه ألقى في البحر خادم أحد الضباط مات غرقا ، حصلت الحادثتان في وقت واحد ، فترامى الخبر في المدينة وتحفز الناس للهياج ، فاتخذ كبير وسيلة الشدة في معالجة هذه الحادثة ، فاعتقل بعض أعيان المدينة بصفة رهائن واستدعى حاكم المدينة الوطني (السيد محمد كريم) والقاضي الشرعي وكبار الأعيان وطلب منهم البحث

(١) بتاريخ ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨

عن الجناة ومعاقبتهم طبقاً لقوانين البلاد ، وتهدد بشنق من تقع عليهم القرعة من الرهائن إذا لم يعاقب الجاني في خمسة أيام ، وتعمد السيد محمد كريم وزعماء المدينة بتعقيب الجناة ومحاكمتهم ولكن البحث لم يؤد إلى نتيجة ما ، وتبين أن القاتل واسمه السيد احمد قد نجا بنفسه وأفلت من القصاص فحُكِمَ غيائياً بالمحكمة الشرعية ، وحكم عليه قاضى الاسكندرية بالقصاص بحضور جمع من العلماء وأعيان المدينة ، وكتب بذلك إعلام شرعى

والظاهر أن الجنرال كبير قد تحقق من أخباره وأبحاثه أن الجندى القاتل هو الذى استهدف للقتل بأعتدائه على الناس ولذلك أصدر عقب الحادثة منشوراً إلى الجنود قال فيه : وأياها الجنود إنكم ستستهدفون لمثل هذه الحوادث إذا خالفتم أوامر القائد العام ولم تحترموا أملاك الأهالى وعاداتهم ودياناتهم ، وقد رأيت من واجبي حماية للأهالى وحماظة واطمئناناً عليكم أن أصدر إليكم الأوامر الآتية تفادياً من عواقب الخروج عن حدود الواجبات والنظام

أولاً : كل من يدخل مسكن أحد المسلمين فى مكان النساء يعد محرصاً على القتل والإخلال بالنظام ويحكم عليه بالإعدام

ثانياً : كل من يتسلق بيتاً من بيوت المسلمين أو غير المسلمين لأى من الأسباب يعد سارقاً ويحكم عليه بالإعدام

ثالثاً : من يصيد الحمام داخل المدينة باستعمال الآلات النارية وينشأ عن عمله تعريض حياة الأهالى للقتل والخطر كما حدث من قبل يعد قاتلاً ويحكم عليه بالإعدام

رابعاً : كل من ينتهك شعائر المسلمين الدينية فى المساجد أثناء صلواتهم أو وضوئهم يعد محرصاً على الإخلال بالنظام ويحكم عليه بالإعدام ،

## بين الإسكندرية ودمهور هزيمة الجنرال ديموى

وكانت روح الكراهية للفرنسيين تظهر ويعلنها الأهالي كلما وجدوا سبباً أو سنحت فرصة ، فمن ذلك أن الجنرال كبير أمر بتسيير كتيبة طوافة من الجنود تقوم من الاسكندرية لتجوب بعض جهات مديرية البحيرة فتعرج على دمنهور ثم تنثنى إلى رشيد فأبوقير فالاسكندرية للاطمئنان على سلامة موصلات الجيش الفرنسي بين المدن والمواقع المهمة ، وكان ذلك بأمر من نابليون الذي اختار الجنرال ديموى Dumuy لقيادة الكتيبة

قامت الكتيبة يوم ١٧ يولييه سنة ١٧٩٨ ، ولم تستطع أن تزود ما يكفيها من الماء والزاد ، لأن الأهالي علموا بعزم القيادة الفرنسية على تجريد هذه الكتيبة فهربوا الجمال لكيلا يستعين بها الفرنسيون ، ولقيت الفرقة عنتاً ومشقة بعملهم هذا ، قال الجنرال ديموى في تقريره عن طوافه : « على بعد نصف فرسخ من الكريون<sup>(١)</sup> هاجم الكتيبة عدد من العرب وكان هذا العدد يزداد كلما تقدمنا في السير وقد شتتنا هذه الجموع بالرصاص ولم نفقد سوى قتيل واحد وجريح ، وقد داخلني الشك من الاتفاق بين هجوم هذا الجمع علينا ومغادرتنا للاسكندرية ، وخيل إلى أن هناك اتصالاً بينهم وبين أهالي الاسكندرية ، تابعت الكتيبة سيرها ووصلت إلى دمنهور ، وكنا في خلال هذه المسافة محرومين من الماء حرماناً تاماً ، وكان من المستحيل علينا ونحن في الاسكندرية أن نحصل على جمل واحد أو قرية واحدة لحمل الماء على رغم أوامر الجنرال كبير ، وبلغت بنا الحال أنه في يوم تحرك الفرقة اختفت الجمال من الاسكندرية ، ثم عادت إلى الظهور في شوارع المدينة غداة مسيرنا مما يدل على أن هناك تواطؤاً بين الأهالي وأصحاب الإبل ،

لقيت الكتيبة عنتاً ومشقة في طريقها إلى دمنهور ، فقد كان الأهالي لا يزالون يذكرون اعتداء الجنود على القرى أثناء زحف الجيش إلى القاهرة فكانوا يقابلون

(١) من بلاد مركز كفر الدوار

الفرقة بما استطاعوا من أنواع المقاومة ، ولما دخلت دمنهور لقيت بها تمرداً شديداً حيث اجتمع من الأهالي نحو ستة آلاف (١) مُعدّين للقتال وقد غصت بهم الطرق والشوارع وتغطت أسطح المنازل ، فرأى قائد الكتيبة أن من الخطر الاصطدام مع هذه الجموع ، فأخلى دمنهور بعد أن قتل بعض جنوده وصدت المدافع الفرنسية هجوم الجموع الثائرة وانسحب إلى بركة غطاس وهناك استقى الجنود من الماء وهاجمهم العرب ثانية فاعتزمت الكتيبة أن ترجع إلى الاسكندرية وتعدل عن متابعة سيرها إلى رشيد وذلك لما عانته من المتاعب والغارات في طريقها. رجعت أدراجها إلى الاسكندرية مضعضة منهوكة القوى بعد أن خسرت ثلاثين بين قبيل وجريخ وشريد . واخفقت شر إخفاق فيما قصدت اليه ، وأخذ الأهالي يتعقبونها حتى وصلت الاسكندرية يوم ٢٠ يولييه ، وكانت جموع العرب والأهالي لا تفتأ تحتشد حول أسوار الاسكندرية متشجعة بما حل بفرقة الجنرال ديموى من الخسائر وقتلت بعض الجنود الممالطين بجثة عمود السوارى وجرحت جندياً آخر ، فاضطر الجنرال كليبر إلى إنشاء مخافر على الأليات المشرفة على المدينة لمنع توالى الهجمات وحماية السرايا (الدوريات) المسلحة التي كانت ترود الضواحي ، وقد فسكت هذه السرايا بقوة من العرب على مقربة من باب رشيد يوم ٢٣ يولييه فقتلت منهم ثلاثة وأربعين رجلاً

لم يكن الفرنسيون يتوقعون هذه المقاومة بل كانوا يظنون الأهالي قد أخذوا واستكانوا ، قال الجنرال ديموى في تقريره : « إنى أسف كثيراً لأنى لم أجد فى جولتى هذه مصرياً واحداً يحمل الشارة الفرنسية ! » ، واستنتج من حوادث دمنهور أن هناك مخابرات سرية بين الاسكندرية والمدن التى مرت بها الفرقة ولاحظ أن أهالى دمنهور كانوا على علم بقدوم الفرنسيين قبل وصولهم مُعدّين لحربهم ما أعدوا

(١) تقرير الجنرال ديموى المؤرخ ٣ ترميدور (٢١ يولييه سنة ١٧٩٨ )

## مسألة السيد محمد كريم والقبض عليه ومحاكمته

بدأت القيادة الفرنسية من ذلك الحين ترتاب في نيات السيد كريم حاكم الاسكندرية وتهمه بخيانتة للجمهورية وبمالاته عليها وإثارته الهياج والعصيان في نفوس الأهالي، وكانت عودة كتيبة الجنرال ديموى بالحالة التي وصفناها والخسائر التي لحقتها قد نالت من هيبة الجيش الفرنسي في الاسكندرية ، فأراد الجنرال كليبر أن يستعيد هذه الهيبة بعمل ينطوى على البأس والشدة ، فأمر بالقبض على السيد محمد كريم يوم ٢٠ يولييه ، أى يوم عودة كتيبة ديموى ، وبعث به الى ظهر السفينة « ديبوا » التي كانت بالاسكندرية ، فأقلته إلى ( أبو قير ) حيث كان الأسطول الفرنسي راسياً ، وأعتقل بالبارجة ( أوريان ) سفينة الأدميرال برويس اتهم كليبر السيد محمد كريم بأنه كان له يد في المقاومة التي لقيتها كتيبة الجنرال ديموى ، وكان السيد كريم قبيل القبض عليه قد دافع عن أهل المدينة لمناسبة وضع سلفة إجبارية على تجار الثغر يدفعونها للجيش الفرنسي ، فعارض السيد كريم في تقريره هذه السلفة وتلكأ في الموافقة عليها ومساعدة السلطة الفرنسية في تحصيلها ، فأسرهما كليبر في نفسه ، ولما عادت كتيبة الجنرال ديموى وتحقق منه ما لحق الجنود من الخسائر بسبب توالي هجوم الأهالي عليهم ساءت ظنونه في السيد محمد كريم وموقفه ، واجتمعت كل هذه العوامل فأفضت إلى القبض عليه وإبعاده عن المدينة أراد كليبر بإبعاد السيد محمد كريم عن الاسكندرية أن يقضى على نفوذه الأدبي بين الأهالي ويضعف أملهم في عودته ، كتب كليبر إلى الأدميرال « برويس » قومندان الأسطول الفرنسي بتاريخ ٢٠ يولييه سنة ١٧٩٨ يخبره بنبأ اعتقال السيد محمد كريم ويقول : « لقد رأيت أعوان هذا الرجل يقولون ما بقوا آملين عودته إذ هو ظل قريباً من المدينة ، لذلك رأيت قطعاً لهذا الأمل أن أرسل به إليك لتعتقله على ظهر البارجة ( أوريان ) ، (١) »

(١) ذكر الجبرتي في كتابه ما يشير إلى هذه الواقعة فقال :

« فلما حضر الفرنسيون ونزلوا الاسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور وطالبوه بالمال وحبسوه في مركب » ، فرواية الجبرتي صحيحة تؤيدها المراجع الفرنسية

وقد أوصى في رسالته الأميرال برويس بأن يحسن معاملة السيد محمد كريم في اعتقاله وأن يأمر إذا شاء بأن تؤدي له التحية العسكرية إلى أن يعرض أمره على القائد العام ويقرر في شأنه ما يراه ، وكتب إلى السيد كريم يوم اعتقاله خطاباً قال فيه :

« إنى لم أقصد من إرسالكم إلى بارجة فرنسية إلا أن أمكنكم من أن تلتحقوا بالقائد العام ، وعلى ذلك بعثت بكم إلى قومندان الأسطول الفرنسى ليسهل لكم الوصول إلى القاهرة من طريق النيل ، فاذا وصلتكم إلى مقابلة القائد العام أمكنكم أن تبتوا له أنكم تستحقون ما وضعه فيكم من الثقة ، وفى انتظار سفركم أرجو أن تبلغونى ما ترغبونه وسأمر بأن لا يمنع عنكم كل ما تطلبون ، وقد تلقى الأميرال برويس قومندان الأسطول الفرنسى أسيره بالاحترام وأكرم مشواه ، وكتب عنه إلى نابليون فى رسالته التى بعث بها إليه بتاريخ ٢٦ يوليه - ولعلها آخر رسالة منه قبل كارثة ( أبو قير ) - فقال : « أرسل إلى الجنرال كبير منذ ثلاثة أيام حاكم الإسكندرية الوطنى فأفردت غرفة كبيرة له ولخاشيته وأنزلته نُزلاً كريماً ، وإنى أعامله بكل رعاية واحترام معتقداً إنى بذلك أحقق رغباتكم إلى أن تصدروا أمركم فى شأنه وتبتوا فى مصيره ،

فى يوم اعتقال السيد محمد كريم جمع الجنرال كبير أعيان المدينة وأبلغهم خبر القبض عليه للريبة فى إخلاصه للجمهورية الفرنسية ، وطلب إليهم أن يختاروا حاكماً للمدينة بدلاً عنه ، فوقع اختيارهم على السيد محمد الشورى الغريانى ، ووعدوا بمعاونته فى تأديته وظيفته ، وقد كان موقف الحاكم الجديد دقيقاً حرجاً لأن السيد محمد كريم كان محبوباً محترماً من الأهالى ، وقد زاد فى احترامه اضطهاد السلطة الفرنسية له ، فاذا كان يستطيع خلفه أن يفعله فى وظيفته ؟ كتب الجنرال كبير إلى نابليون رسالة<sup>(١)</sup> تفهم منها حالة الحاكم الجديد النفسية . قال :

« أخبرنى السيد محمد الغريانى قبل أن يقبل وظيفته المحافظ ( الحاكم ) أن أهالى

(١) بتاريخ ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ بمناسبة القبض على السيد محمد كريم وتمين السيد محمد الغريانى بدله



الاسكندرية يختلفون عن سائر أهالي القطر بأنهم أصعب مراساً وأقرب إلى القلق والهياج ، وأبدى لى بعض استدراكات وملاحظات تخص إدارة المدينة ، فأجبتة على ملاحظاته بأن الرجل الذى يتنبأ بمصاعب الوظيفة جدير بأن يعرف كيف يضطلع بها ويتغلب عليها ، وبذلك أقنعتة بقبول المنصب .

وقد قبل السيد محمد الغريانى وظيفته المحافظ ، وكان الشيخ محمد المسيرى كبير علماء المدينة يعاونه فى عمله ، وكان أول عمل طلبه كبير منهما أن يساعدا على تحصيل السلفة الإجبارية التى فرضها على تجار المدينة فطلباً منه إنقاص هذه السلفة فنزل منها عن خمسة عشر ألف فرنك يحصلها من إيرادات الجمارك

عرض الجنرال كبير فى آخر رسالته أمر السيد محمد كريم على القائد العام ورغب إليه فى أن لا يأمر بعودته إلى الاسكندرية خوفاً من أن يستفحل أمره ويتضاعف نفوذه فى نفوس الأهالى . وقد أقر نابليون عمل الجنرال كبير وأرسل إليه بتاريخ ٣٠ يوليه خطاباً من القاهرة جاء فيه : « إنى لا أوافق على اعتقال كريم وحسب بل أمرت فوق ذلك باعتقال أشخاص آخرين ، ، والواقع أنه أصدر فى هذا اليوم منشوراً عسكرياً يعلن استيائه من سلوك أهل الاسكندرية وأمر بأن يطلب من جميع الأهالى على اختلاف أجناسهم تسليم أسلحتهم إل قومندان الموقع ، ومن يتأخر منهم عن تنفيذ هذا الأمر بعد ثمان وأربعين ساعة من نشره فجزاؤه الإعدام ، وأمر بهدم منزل الشخص المتهم بقتل الجندى الفرنسى ، وباعتقال خمسين شخصاً يكرونون رهائن وحبسهم على ظهر الأسطول إلى أن يستوثق من سلوك أهل الاسكندرية (١)

وفى اليوم نفسة أصدر أمراً آخر بفرض ضريبة ثلثائة ألف فرنك على تجار الاسكندرية يحسب منها الثلاثون ألف فرنك التى فرضها الجنرال كبير والباقي يجب استصفأؤه وجمعه فى ٢٤ ساعة من نشر هذا الأمر (٢) وأرسل إلى الأميرال برويس كتاباً فى شأن السيد محمد كريم ينبئه فيه بأنه قد تحقق خيائته ويأمره على ذلك أن

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٢

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٣

يكبله في الحديد ويسد عليه كل منفذ حتى لا يهرب ، وأن يسجن أتباعه وحاشيته ويرسلهم مخفورين إلى الجنرال كليبر بالإسكندرية ، وأرسل إلى الجنرال كليبر صورة هذا الكتاب ، وأمره أن يعتقل كل من بقى في منزل السيد محمد كريم من الحاشية وأن يختم على داره وعلى أملاكه ، وقال له في كتابه إنه علم ممن قدموا له الأدلة على خيانة كريم أن أمواله مطمورة في بئر بالإسكندرية وأن عنده دفترأ فيه بيان أمواله وأملاكه وأن بعض خدمه يعرفون مقادير هذه الأموال وموضعها ، وكلفه أن يقرر هؤلاء الخدم منفرداً بكل منهم وأن يتهددهم ماشاء ليوحوا بما لديهم من الأسرار ، وإذا دفع السيد كريم في ثمانية أيام مبلغ ٣٠٠ ألف فرنك فيبقى معتقلاً على ظهر إحدى بوارج الأسطول حتى لا يجد مفراً ويرسل إلى فرنسا حين تعرض فرصة قريبة ، وإذا لم يدفع بالأقل ثلث المبلغ المفروض عليه في خمسة أيام فعلى الجنرال كليبر أن يأمر بقتله رمياً بالرصاص (١)

على أن رسالة نابليون لم تصل للأميرال برويس ولا إلى كليبر لأن الرسول الذي كان يحملها وهو الكابتن جوليان Julien قتل في الطريق

وأرسل الأميرال برويس في ٣٠ يوليه السيد محمد كريم إلى رشيد ليبعث به الجنرال منو من هناك إلى القاهرة ، وكان برويس لايفتأ يعامل السيد كريم بالاحترام حتى إنه كتب إلى منو كتاباً من البارجة (أوريان) ينبئ فيه أن السيد كريم أخ عليه في أن يرسله إلى نابليون ويقول : « إنى لم أستطع أن أرفض رجاءه المتكرر البالغ نهاية التلطف وأرجوكم إذا نزل برشيد أن تعاملوه باحترام ، ، كتب هذه الرسالة إذ كان لم تصله أوامر نابليون

وصل السيد محمد كريم إلى رشيد مطلق السراح (٢) ، وكانت منزلته في نفوس

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٢٦

وجاء في يوميات أركان حرب الجنرال كليبر أن الجنرال أمر اللجنة الادارية بمجرد أملاك السيد محمد كريم وأمواله في منزله وفي مخازنه فوجدوها خالية وقد اعتقل كليبر عم السيد محمد كريم وشقيقه ويهوديا كان موضع ثقته واستحضر الاثنين الآخرين وتهددهما بالإعدام إذا لم يبوأ بموضع أموال السيد كريم (٢) هذا مستفاد من رسالة منو إلى كليبر التي يقول فيها : « لقد ألقيت القبض هنا على السيد محمد كريم الذي أطلق سراحه من البارجة (أوريان) وسأبث به عدا إلى القاهرة مخفوراً بقوة كافية »

لمصريين قد عظمت بسبب اعتقاله ، وانتشرت محبته في كل مكان ، فلم يكده يعلم أهالي رشيد بمقدمه حتى سارعوا إلى ملاقاته بالحفاوة والتكريم مما اضطر الجنرال منو إلى القبض عليه والإسراع بإرساله إلى مصر

كتب منو إلى نابليون يقول : « إن السيد محمد كريم حضر إلى رشيد يوم ٣٠ يوليه ، فحدثت حركة كبيرة في المدينة للحفاوة به وتهنئته ، وحيال هذه المظاهرة رأيت القبض عليه وإرساله إلى القاهرة ،

### الحالة في الإسكندرية

بعد اعتقال السيد كريم

أخذ الأهالي إلى السكنية بعد اعتقال السيد محمد كريم وكفوا عن المظاهرات العدائية التي كانت تبدو منهم ، فكتب الجنرال كبير إلى نابليون يقول (٣١ يوليه) : « تسود السكنية مدينة الإسكندرية بعد اعتقال السيد محمد كريم ، ولم تعد تنتشر إشاعات السوء المقلقة للخواطر والمثيرة لروح الهياج ، وأقبل كل إنسان على عمله ، وقد ازداد مركز الفرنسيين توطدا في الإسكندرية عقب ورود أخبار انتصار نابليون في معركة الأهرام ودخوله القاهرة ظافراً

وردت هذه الأنباء من طريق رشيد في رسالة بعث بها الجنرال منو إلى كبير بتاريخ ٢٧ يوليه ، فأثرت هذه الأنباء في روح الأهالي المعنوية وأضعفت فيهم روح التمرد والمقاومة ، وأقام الجنرال كبير حفلة تكريم كبيرة ابتهاجاً بهذا النصر ، على أن هذه الحالة مالبثت أن تبدلت بعد أن وقعت واقعة «أبو قير» البحرية التي تحطم فيها الأسطول الفرنسي ، فتغيرت نفسية الشعب تغيراً محسوساً على قدر ما شئت منها تضعف الفرنسيين

### إعدام السيد كريم

سافر كريم على ظهر سفينة من سفن الجيش أقلت به من رشيد يوم ٤ أغسطس وكان على ظهرها جماعة من أقطاب الحملة الفرنسية ، منهم بوسليج Poussielgue مدير الشؤون المالية ، والمسئو أستيف Esteve مدير الخزانة ، والموظفون الذين تحت رأسهم يحملون خزانة الجيش إلى القاهرة



السيد محمد كريم

حاكم الإسكندرية الوطني حين مجيء الحملة الفرنسية

أموت فلا يعصمني من الموت أن أدفع هذا المبلغ ، وإذا كان مقدرًا لي الحياة فعلام أدفعه ،<sup>(٢)</sup> وظل على إصراره إلى أن نفذ عليه الحكم رهيماً بالرصاص في ميدان الرميطة يوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨

ومن غرائب القدر أن السيد محمد كريم غادر البارجة (أوريان) يوم ٣٠ يوليه قبل أن تغرق ويموت من بها في واقعة « أبو قير » ، بيومين ، فنجا من الكارثة التي حلت بالأسطول الفرنسي يوم أول أغسطس ، ولكن القدر الذي نجاه من الموت في « أبو قير » قد أسلمه إلى يد الجلاد في القاهرة ، ولسكل أجل كتاب « وماتدرى نفس بأي أرض تموت »

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٤٧

(٢) ريبو التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الثالث ونظر كذلك مذكرات بورين سكرتير

نابليون الجزء الأول

وقد ذكره الجبرتي في وفيات سنة ١٢١٣ فقال عنه : « مات الوجيه الأجل  
الأمثل السيد محمد كريم الاسكندري مقتولا بيد الفرنسيين ، و ذكر عن منشأه أنه  
كان قبائياً في الثغر وعنده خفة في الحركة وتودد في المعاشرة فأحبه الناس واشتهر  
ذكره في ثغر الاسكندرية ورشيد ومصر ، وقلده مراد بك أمر الديوان والجمارك  
بالثغر ونفذت كلته وأحكامه ، أي أنه عينه حاكماً للاسكندرية ومديراً للجمارك بها ،  
وفصل الجبرتي خبر مقتله ، وروايته تختلف عن رواية « بورين ، و« ريبو ، التي اعتمدنا  
عليها والتي نعتقد أنها أرجح من رواية الجبرتي ، لأنها واردة في معظم المراجع الفرنسية  
ومنقولة عن شهود الواقعة من الفرنسيين ، قال الجبرتي : « ولما حضر الفرنسيين  
ونزلوا الاسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور وطالبوه بالمال وضيقوا عليه وحبسوه  
في مركب ، ولما حضر وا إلى مصر وطلعوا في قصر مراد بك وفيه مطالعة بأخبارهم  
( أي رسائل السيد كريم عن أخبارهم ) وبالحث والاجتهاد على حرهم وتهوين  
أمرهم وتنقيصهم ، فاشتد غيظهم عليه ، فأرسلوا وأحضروه وحبسوه ، فتشفع  
فيه أرباب ( أعضاء ) الديوان عدة مرار ، فلم يمكن ، إلى أن كانت ليلة الخميس حضر  
إليه مجنون Magallon وقال له المطلوب منك كذا وكذا من المال ، وذكر قدراً  
يعجز عنه ، وأجله اثني عشرة ساعة وإن لم يحضر ذلك القدر والإيقتل بعد مضيتها  
فلما أصبح أرسل إلى المشايخ وإلى السيد أحمد المحروقي ( كبير تجار القاهرة ) حضر  
إليه بعضهم فترجاهم وتداخل عليهم واستغاث ، وصار يقول « اشتروني يا مسلمين ،  
وليس بيدهم ما يفتدونه به ، وكل إنسان مشغول بنفسه ، ومتوقع لشيء يصيبه  
وذلك في مبادي أمرهم ، فلما كان قريب الظهر وقد انقضى الأجل أركبوه حملاً  
واحتاط به عدة من العسكر وبأيديهم السيوف المملولة ويقدمهم طبل يضربون  
عليه وشقوا به الصليبة ، إلى أن ذهبوا إلى الرميّة ، وكتفوه وربطوه مشبوحاً  
وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونه ، ثم قطعوا رأسه ورفعوها على  
نبوت وطاقوا بها في جهة الرميّة والمنادى يقول « هذا جزاء من يخالف  
الفرنسيين ،

فالخلاف بين رواية الجبرتي ورواية بورين وريبو هو في موقف السيد محمد  
كريم بعد الحكم عليه بالإعدام ، ولو كانت رواية الجبرتي صحيحة لما فات الفرنسيين

أن يذكروها ولما ذكروا رواية تشرف خصما لهم حكموا بإعدامه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن رواية « بوريين » ترجح رواية الجبرتي لأن الجبرتي لم يكن شاهد عيان لواقعة إعدام السيد كريم ، بل يغلب على الظن أنه كان منزوياً في بيته بالصناديقية في ذلك اليوم العصيب ، أما المسيو بوريين فقد شهد الواقعة ويقول في مذكراته إنه هو الذي أوعز إلى المسيو فاتتور أن ينصح للسيد محمد كريم بدفع الغرامة (١) ، فأبى دفعها ، فرواية « بوريين » كما ترى هي رواية شاهد عيان وهي أدعى إلى الثقة وأقرب إلى الواقع

وقد كان إعدام السيد محمد كريم قسوة لامبرر لها حتى في نظر بعض الكتاب الفرنسيين ، ذكر تيبودو Thibaudeau في كتابه (٢) خلاصة هذه الحادثة وعلق عليها بقوله : « إن إعدام هذا الشريف هو أول عمل من التصرفات العديدة التي وجهت فيها التهم إلى نابليون أثناء حملة مصر فإن النفوس الحساسة قد تأثرت للخاتمة المحزنة التي انتهت بها حياة ذلك الشريف النزية الذي أعدم بأمر القائد العام ، على أن الجنرال كليبر كان أول من اقتنع بخيائنه للجمهورية ، وهو الذي قبض عليه واتهمه لدى بوناپرت ،

### تكريم الدولة لذكرى السيد محمد كريم بعد نيف ومائة وخمسين عاماً

في سنة ١٩٥٣ وضعت لأول مرة صورة السيد محمد كريم مع صور محافظي الثغر في دار محافظة الاسكندرية تخليداً لذكراه . وأطلق اسمه على شارع من أهم شوارع الاسكندرية وهو ( شارع التتويج ) فصار اسمه ( شارع السيد محمد كريم ) وأطلق اسمه على المسجد الذي يحمل الآن اسمه والكائن بجوار سراي رأس التين وكان منشأ داخل أسوار القصر ليحمل اسم فاروق فاستبدل به السيد محمد كريم ، ووضعت في واجهة المسجد لوحة رخامية تذكارية نقشت عليها العبارة الآتية :

(١) مذكرات بوريين الجزء الأول

(٢) تاريخ نابليون حملة مصر الجزء الأول طبع سنة ١٨٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مسجد محمد كريم

د. إكباراً للبطولة وتكريماً للذكرى واعترافاً بالوطنية وإنصافاً للتاريخ رأت  
وزارة الأوقاف أن يطلق اسم السيد محمد كريم على هذا المسجد في حي رأس التين،  
والسيد محمد كريم هو حاكم الاسكندرية وابنها البار وشهيدها العظيم، اعتقله الجيش  
الفرنسي وقتله رمياً بالرصاص في مدينة القاهرة بجوار القلعة يوم ٦ سبتمبر عام  
١٧٩٨ وهو يدافع عن أمته وينود دنس الاحتلال عن شرف وطنه العزيز،  
وقد افتتح قادة الثورة هذا المسجد يوم الجمعة ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥٣ وأدوا فيه  
فريضة الجمعة إيداناً بافتتاحه للشعب، وهكذا كرمت الدولة ذكرى السيد محمد كريم  
بعد أن ظلت مغمورة في عهد الحكومات المتعاقبة قبل الثورة



مسجد السيد محمد كرم  
برأس التين - بالأسكندرية  
أطلقت عليه الحكومة سنة ١٩٥٣ هذا الاسم تكريماً وتخليداً لذكرى السيد محمد كرم  
( أنظر ص ١٩٠ )



## الفصل السادس

### في البحيرة

كانت البحيرة أول مديرية اجتازها الجيش الفرنسي في زحفه إلى القاهرة ، فلاقته من وراء اجتيازه لها شدائد وأهوالا ، ونال كثيراً من القرى التي مر بها الجيش أذى كبير من اعتداء الجنود ونهبهم القرى والمنازل ، وتعددت حوادث الاعتداء حتى اضطر الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان الحرب أن يصدر أمراً عسكرياً في ١٢ يولييه سنة ١٧٩٨ من الرحمانية يذكر الجنود فيه بمنشور نابليون الذي يعلن أن الجيش الفرنسي قدم البلاد ليحارب المماليك لا الأهالي ، وقال في أمره إن بعض الجنود اقتحم منازل الأهالي ، فالقائد العام يلقى تبعة هذه السيئات على ضباط الفرق ، وأوصى الجنرال برتييه الجنرال دوجا Dugua قائد الفرقة الزاحفة من رشيد إلى الرحمانية بأن يحظر على الجنود اقتحام منازل الأهالي أو صيد الحمام ، وكرر أمره في ١٦ يولييه بمنع صيد الحمام أو غيره من الطيور في الطرق أو في الفيضان . ونبه رجال الجيش والمساكين إلى اتباع هذا الأمر

لم تمنع هذه الأوامر تكرار اعتداءات الجنود على القرى الآمنة ، ولم يرق الضباط في كثير من المواطن بالواجب عليهم في منع جنودهم من النهب والاعتداء ، ويعزو كتاب الحملة الفرنسية ومؤرخوها هذا الإهمال إلى أن الجنود والضباط قد أنهكهم تعب السير من الاسكندرية إلى القاهرة ، وأجهدهم الإعياء والقيظ فشعروا بخيبة الأمل في مغامرتهم في بلادناحية كانوا يظنون أنها من أغنى بلاد العالم فوقعوا منها في صحراء قاحلة تختلف كثيراً عن سهول لومبارديا الجميلة التي لقوا فيها الرفاهية ورغد العيش ، فتبرمت نفوسهم بهذه الحملة الشاقة وضعف فيهم إحساس النظام العسكري والشعور بالواجب ، وتراخى الضباط في كبح جماح جنودهم فكانوا يرونهم يرتكبون النهب والسلب ولا يتحدثهم أنفسهم بمنعهم ورددتهم إلى حدود الواجبات والنظام

## معركة شبراخيت

١٣ يوليه سنة ١٧٩٨

قلنا في الفصل الثاني (ص ٨٢) خلال الكلام عن وقائع الحملة أن الجيش الفرنسي بلغ الرحمانية يوم ١٠ يوليه سنة ١٧٩٨ وعسكر فيها ينتظر قدوم فرقة الجنرال دوجا من رشيد ، فوصلت هذه يوم ١٢ يوليه ووصل معها أسطول السفن الفرنسية الخفيفة التي رافقت الفرقة في النيل بقيادة الكونت اميرال بيرى Perrée ، وهناك استعد نابليون لمهاجمة جيش مراد بك الذي جاء من القاهرة  
كان جيش مراد بك مؤلفاً من نحو ١٢ ألف رجل ، منهم ثلاثة آلاف فقط من فرسان المماليك ، والباقيون من الفلاحين وأتباع البكوات (١) ، وكان الفلاحون مسلحين بالبنادق والعصى (الشماريخ) (٢).

تحرك الجيش الفرنسي من الرحمانية وقضى ليلة ١٣ يوليه في ناحية منية سلامه (٣) واتخذها مؤقتاً معسكره العام ، وأخذ نابليون يتأهب للقتال ، فأمر الكونت اميرال بيرى أن يحمى بأسطوله ميسرة الجيش في هجومه على شبراخيت بحيث لا يتعد عن صفوف الجنود ، فتحركت السفن الفرنسية في الساعة الثامنة من صبيحة يوم ١٣ يوليه ، ولكن ريحاً عاصفة هبت على السفن فدفعتها عن موقع الجيش مسافة طويلة ، فالتقى الأسطول الفرنسي بأسطول المماليك الذي كان يحمى ميمنة جيش مراد بك بالقرب من شبراخيت

كان الأسطول الفرنسي مؤلفاً من اثنتي عشرة سفينة مسلحة وعدة مراكب نقالة تقل كتيبة من الجنود بقيادة الجنرال أندريوسى Andreossi وتحمل الذخائر

---

(١) هذا الاحصاء مأخوذ عن يوميات الكابتن ديوتون Deponthon من ضباط فرقة الجنرال ديزيه ، ويقول الجنرال برتبيه في تقريره الى وزارة الحربية بتاريخ ٢٤ يوليه سنة ١٧٩٨ إن عدد المماليك في واقعة شبراخيت كان أربعة آلاف فارس ، ويقول نابليون في مذكراته إن جيش مراد بك كان مؤلفاً من ثلاثة آلاف من المماليك ، وكان مع كل مملوك ثلاثة أو أربعة من الرجال لخدمتهم وانضم اليهم ٢٠٠٠ من العرب

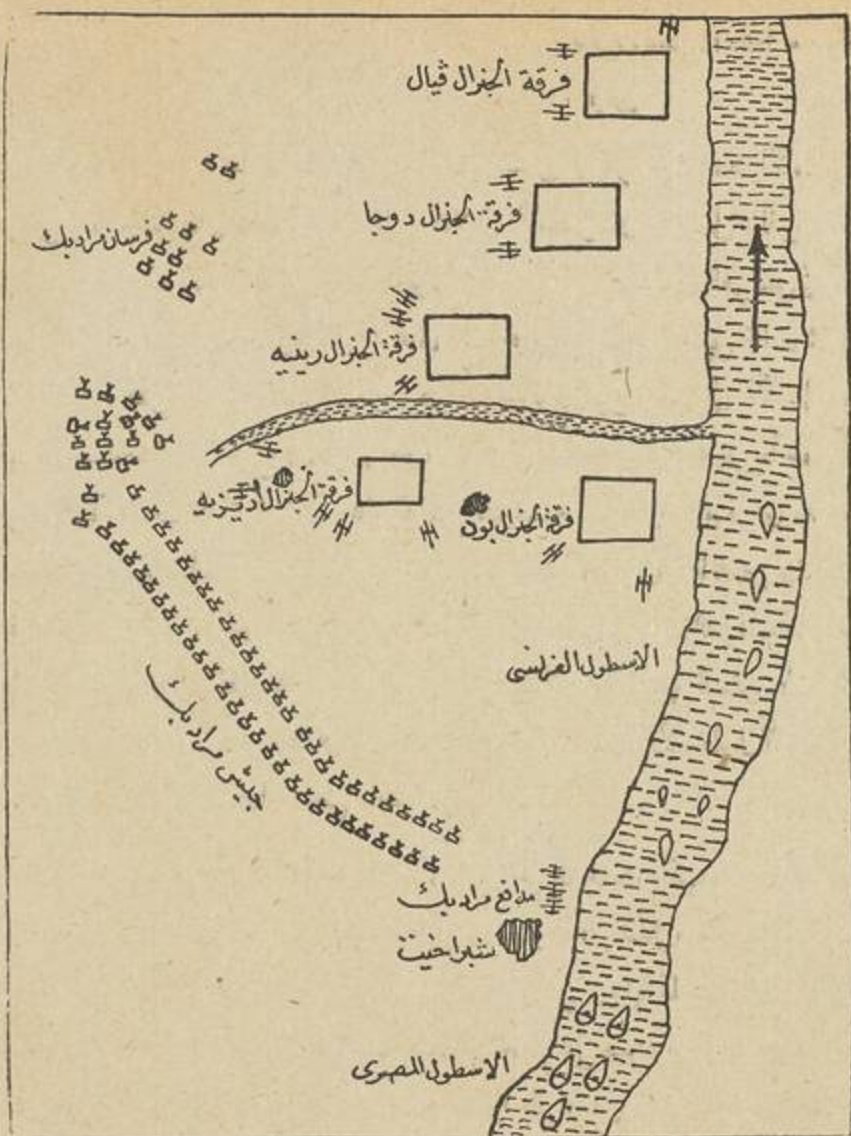
(٢) تقرير الكابتن ديوتون

(٣) بالبر الغربي للنيل جنوبي الرحمانية وشمالى شبراخيت

والاقوات ، وعلى ظهرها جماعة من أقطاب الحملة الفرنسية منهم المسيو مونج Monge والمسيو برتوليه Berthollet من علماء الحملة الفرنسية، وبورين Bourienne مسكر تير نابليون الخاص ، والمسيو سوسى Sucy مدير مهمات الجيش

أما أسطول مراد بك فؤلف من عدد من السفن لا يقل عن عدد الأسطول الفرنسى يقوده القبطان خليل السكرى ، فتلاقى الأسطولان فى النيل بالقرب من شبراخيت وأخذتا يتبادلان إطلاق القنابل ، وكان مركز الأسطول الفرنسى فى هذه المكافحة محفوفاً بالخطر لأن أوفاً من الأهالى المسلحين على شاطئ النيل كانت تهاجمه من الجانبين ، ففرقت منه خمس سفن وهوت إلى قاع النيل واستولى الأهالى على سفينتين مسلحتين ، وجرح السكرى نتراميرال يبرى Perrée فى ذراعه جرحاً خطراً ، ومرت لحظة كادت الدائرة تدور على السفن الفرنسية ، لولا إجكام مرمى مدافعها فأصابت قنبلة منها سفينة من سفن مراد بك كان بها مستودع البارود فانفجر ونسفت السفينة نسفاً ، وكان الجنرال أندريوسى على ظهر إحدى السفن الفرنسية ، فأمر بانزال جنوده إلى البر لمقاومة الأهالى الذين كانوا يطلقون النار على السفن ، فاستطاع أن يبعد عن الشاطئ جموع الفلاحين الذين كانوا يهاجمون الأسطول الفرنسى ، واستمر القتال ثلاث ساعات حتى حضر نابليون بجنوده

كان جيش مراد بك يرتكز بميمنته إلى شبراخيت حيث ركب بها عدة مدافع ، وإلى النيل حيث كان أسطولها راسياً ، فرتب نابليون جنوده على شكل مربعات ، فكانت كل فرقة من الفرق الخمس تؤلف مربعاً ، والمدافع على زوايا المربعات ، كما تراه فى الخريطة ( ص ١٩٦ ) . وهجم بهذا النظام المحكم على جنود مراد بك ، فكانوا مكشوفين أمام نيران المدافع والبنادق ، وأخذوا بالرغم من ذلك يهاجمون جناحى الجيش الفرنسى وجبهته ، وانتشر فرسانهم فى السهل ليحيطوا بالمربعات الفرنسية ، لكن نار المدافع حصدت الصفوف المتقدمة منهم ، فاختل نظامهم وانسحبوا بهزيم نظام إلى شبراخيت ، بعد أن قتل منهم نحو مائتى قتيل ، فتعقبهم نابليون بجنوده واحتل شبراخيت ، وأخلى شاطئ النيل من جموع الفلاحين الذين كانوا يهاجمون الأسطول الفرنسى



خريطة معركة شبراخيت - ١٣ يولية سنة ١٧٩٨

وبالرغم من أن الجيش الفرنسي كان ينقصه الفرسان فإنه انتصر على قوات مراد بك لجهلها أساليب القتال الحديثة، قال أحد ضباط أركان حرب نابليون في هذا الصدد: «لو كان جيش المماليك متدربا على ضروب القتال الحديثة ويقوده

ضباط متعلمون لا يمكنهم أن يهزموا الجيش الفرنسي أو لأجبروه على التراجع إلى الإسكندرية (١)

هذه هي المعركة التي سميت معركة «شبراخيت»، وتلك رواية المراجع الفرنسية عنها، ومنها يتبين أن القسط الذي احتمله الأهالي في هذه المعركة كان كبيراً، بل كان أكبر من قسط المماليك وإليك ما ذكره الجبرتي عن هذه الواقعة :

« في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم سنة ١٢١٣<sup>(٢)</sup> التقى العسكر المصرى مع الفرنسيين ، فلم تكن إلا ساعة وانهم مراد بك ومن معه ، ولم يقع قتال صحيح ، وإنما هي مناوشة من طلائع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبجبانة والآلات الحربية ؛ واحترق بها رئيس الطبجية خليل الكردي ؛ وكان قد قاتل في البحر قتالاً عجيباً ، فقدر الله أن علقته نار بالقلع وسقط منها نار إلى البارود ، فاشتعلت جميعها بالنار واحترق المركب بما فيه من المحاربين وكبيرهم وتطايروا في الهواء ، فلما عين ذلك مراد بك داخله الرعب وولى منهزماً وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره ونزلت المشاة في المراكب ورجعوا طالبين مصر ، القاهرة ، ووصلت الأخبار بذلك إلى مصر فاشتد انزعاج الناس ،

انتهت معركة شبراخيت بانتصار الفرنسيين كما قدمنا ، وانسحاب مراد بك فتابع الجيش الفرنسي زحفه قاصداً القاهرة ، فر بشابور (١٤ يولييه سنة ١٧٩٨) فكوم شريك (١٥ يولييه) ، فعلقام (١٦ يولييه) ؛ فالطرايه ، فأبى نشابه (١٧ يولييه) ، فوردان (١٨ يولييه) فأم دينار (١٩ يولييه)

وكان الأهالي والعرب يتعقبون فرق الجيش الزاحفة فيقتلون كل من يدركونه ممن يتخلفون عن قوة الجيش إعياء أو تعباً أو ممن ينتقلون بين مختلف القرى لتبليغ الرسائل إلى قواد الفرق ، حتى اضطر نابليون أن يشدد الأوامر على الجنود والرجال

(١) كتاب (مبادئ الوقائع والهجمات والمعارك التي انتصر فيها بوناپارت في إيطاليا ومصر)

(٢) يوافق ١٣ يولييه سنة ١٧٩٨

المساكين التابعين للحملة بعدم الابتعاد عن فرقهم (١) ، ولقى الجيش عناء كبيراً في اجتياز هذه المرحلة ، لأنه لم يكن يلقى في طريقه إلا بلاداً مقفرة أخلاها أهلها قبل قدوم الجيش وهاجروا منها بعيالهم ومواشيهم ، ونهب الفرنسيون عدة قرى في طريقهم إلى القاهرة

### نهب القرى

كتب الجنرال بليار في يومياته يصف نفسية الجيش في طريقه إلى شابور :  
« إن روح التذمر سائدة في الجيش ، والضباط لعدم اكتراثهم بالواجب يتكون جنودهم يجوبون القرى القريبة من طريق الجيش ونهبون كل ما تصل إليه أيديهم ، وجاء في يوميات الجنرال لوجيه Laugier :

« وصلنا يوم ٢٦ مسيدور ( ١٤ يولييه ) إلى قرية ( النجيلة ) بينما كان جنود الجزائر بون وفيال ينهبونها ، وكان صياح الأهالي وبكاء النساء ونحيبهم يصم الآذان وقد علم القائد العام بذلك فأمر الجنرال دوجا بالبقاء في هذه القرية حتى يعود النظام فيها وقد لاقى الجنرال دوجا صعوبات كبيرة في القيام بمهمته لأن الضباط كانوا يتذمرون من قلة الزاد وكانوا لا يقاومون تمرد الجنود ، وجاء فيها :

« صرنا على مسيرة نصف فرسخ من شابور ثم وصلنا إلى النجيلة في الظهر ، ولم يكن لدى الفرقة زاد ، فنهبت القرية ،

وجاء في يوميات الكابتن سافارى (٢) عما حدث في الطرانه :

« صادرتنا بعض المواشي التي وجدناها في طريقنا ، وبينما كانوا يقيدونها كان الجنود ينهبون هذه القرية ويخربونها بالرغم من وجود ثلاثة من القواد جاءوا ليمنعوا هذا النهب والتدمير ، إن فرقتنا لم تكن تعمل سوى إتمام خراب القرى التي كان يمر بها الجيش ، لأن الفرق التي تقدمتنا لم تترك فيها إلا مالا يمكن حمله أو تخريبه ،

(١) أمر ١٦ يولية سنة ١٧٩٨

(٢) ياور الجنرال ديزيه وقدارتقى في عهد امبراطورية نابليون وصار لقبه الدوق روفيجو

وفي بعض الأحيان كنا نرى النار مشتعلة في الفيضان قبل حضورنا بحيث لم نكن نعرف كيف نحصل على ما يلزم من التبن والشعير لحيولنا ،  
وكتب الجنرال بليار في يومياته :

« وصلنا إلى مقربة من النيل حيث وجد الجنود الراحة تحت ظلال النخيل  
والجيز بعد رحلتهم الشاقة في خلال الصحراء ووصلنا إلى ووردان ، وهذه القرية هي  
أغنى وأكثر عمراناً وأعز سكاناً من جميع القرى التي مررنا بها ، وبالرغم من أن  
الجنود كانوا في حاجة إلى الراحة فإن ذلك لم يردمهم عن النهب ،

وقال في موضع آخر : « خرجنا من ووردان وعدنا إلى اجتياز الجهات الرملية  
ووصلنا إلى القطا ووجدنا الأهالي قد غادروها لما علموا باقترابنا ، ولم يأسف الجنود  
لذلك لأنهم لما لم يجدوا أحداً في البيوت ووضعوا أيديهم على ما وصلت إليه من  
المتاع وأخذوا منها ما راق لهم أن يأخذوه ،

هذه أقوال واعترافات القواد الفرنسيين ، على أن من الواجب أن نقول  
تقريباً للحقيقة إن نابليون كان شديد الاستياء من صنيع جنوده ناقلاً على  
ما ارتكبه من النهب والتدمير ، تدل على ذلك أوامره التي كان يصدرها من آن  
لآخر في هذا الصدد

ففي ١٥ يولييه سنة ١٧٩٨ أصدر أمراً عسكرياً « بإعلان استيائه من سلوك  
الجنود من فرقتي الجنرال بون والجنرال منو (١) وفرقة المدفعية والاحتياط لما  
ارتكبه من الإخلال بالنظام في عدة قرى ، وأن هذا الإخلال جاء في الوقت  
الذي هو أدعى لحسن مسلك الجنود وجاء هادماً للأثر الحميد الذي تركه سلوك  
الجيش من عهد نزوله بالاسكندرية ،

وعندما وصل نابليون إلى ووردان ومعه أركان حربه كان في شدة الغضب  
والنقمة على حوادث النهب ، وأمر بمغادرة القرية في الحال وكان يبت ألمه من هذه  
الحوادث للمقربين إليه

---

(١) هذه الفرقة كان يقودها الجنرال فيال بدلا من الجنرال منو الذي بقى في رشيد ولذلك تعرف  
أحيانا بفرقة منو وأحيانا بفرقة فيال

وغنى عن البيان أن اعتماد الجنود على القرى الآمنة كان بوغر صدور الأهالي  
ويذكي فيهم نار العداوة والبغضاء للجيش الفرنسي ، فلم يتركوا وسيلة للمقاومة إلا  
اتخذوها ، ونسوا مظالم حكاهم السابقين ، بما ابتلوا من فظائع المتمدنين ، خالفوا  
الممالك وأمدوا جيش مراد بك بما لديهم من حول وقوة  
وكان معظم السكان قد سمعوا بما حدث في القرى من النهب والاعتداء ، فهجروا  
بلادهم بما شئتهم ومتاعهم

قال ريبو (١) : « لقد لقي الجنود تعباً واصباً من قلة الزاد ، فإن كل القرى التي  
على طريق الجيش كانت خالية خاوية لأن الأهالي هاجروا منها إلى داخل الدلتا ،  
ولا ندرى أهذه الهجرة من تلقاء أنفسهم أم بتحريض الممالك ، على أنهم في هجرتهم  
ساقوا مواشيهم معهم ، ولما رأى مدير مهمات الجيش القومسيير سوسى أن قرى  
الشاطيء الغربي أقفرت من الأقوات أمر بعبور النيل لمصادرة الأقوات في القرى  
والبلاد التي بالبر الشرقي وقام بهذه المهمة الجنرال فوجيير Fugieres والجنرال  
زاينشك Zayonchek ومعهما قوة من ١٤٠٠ من الفرسان ولكنهم لم يجدوا إلا  
قرى خالية خاوية ، ولم يجدوا من الأقوات إلا ما يكاد يكفي القوة التي بلغتها ،



## الفصل السابع

### في القاهرة

لما وصل الجيش الفرنسي إلى أم دينار يوم ١٩ يوليه سنة ١٧٩٨ لم يكن بينه وبين القاهرة سوى خمسة فراسخ ، وهناك شاهد نابليون أول مرة الأهرام بعظمتها الخالدة ، فأمر بإراحة جيشه يوم ٢٠ يوليه تأهباً لخوض المعركة الفاصلة ( معركة الأهرام )

### حالة الأفكار

#### في القاهرة

#### عند مجيء الحملة الفرنسية

الآن وقد أفضينا إلى الكلام عن المقاومة الأهلية في القاهرة ، يجمل بنا أن نصور الحالة فيها من يوم أن جاء نبأ نزول الفرنسيين بساحل الاسكندرية إلى أن احتلوا العاصمة كانت القاهرة في اضطراب وفزع منذ انتهى إليها نبأ رسو العمارة الفرنسية في مياه الإسكندرية ، فقد أرسل السيد محمد كريم إلى مراد بك يخبره الخبر ، وكان أسلوب رسالته يلقي الرعب في النفوس ، فقد قال فيها : إن العمارة التي حضرت هذا اليوم مراكب عديدة مالها أول يعرف ولا آخر يوصف ، فبالله ورسوله أدركونا بالرجال ، فلما تلا مراد بك الرسالة ذهب إلى زميله ابراهيم بك في قصره تجاه الروضة ( قصر العيني ) للتشاور في الأمر ، وذاع الخبر في المدينة ، فاضطربت النفوس وهاجت الخواطر وتبلبلت الأفكار ، واتفق مراد بك و ابراهيم بك على عقد جمعية عامة من البسكوات المماليك ومن كبراء البلاد وعلمائها ، وحضر الجمعية الوالى التركى أبو بكر باشا والبسكوات والكشاف الذين كان بيدهم سلطة الحكم في ذلك العهد مثل ابراهيم بك ، ومراد بك ، ومصطفى بك ، وأيوب بك ، و ابراهيم بك

الصغير ، ومراد بك الصغير ، وسليم بك أبو دياب ، وعثمان بك الشرقاوى ،  
ومحمد بك الألفى ، وعثمان بك البرديسى . وعثمان بك الطنبورجى وغيرهم ممن سترد  
أسمائهم فى فصول الكتاب ، وجاء من العلماء السيد محمد السادات ، والشيخ  
عبد الله الشرقاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ  
محمد المهدي ، والسيد خليل البكرى ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، والشيخ  
محمد الجوهري ، عدا من دون هؤلاء ممن لا يمكن حصرهم

وأخذ المجتمعون يتداولون فى الأمر ويستغربون قدوم هذه العمارة الكبيرة ،  
ويتطارحون الرأى فيما يجب عمله ، وجاشت العداوة القديمة بين المماليك والأترک ،  
فالتفت مراد بك إلى أبى بكر باشا وقال له إن الفرنسيس ماجأوا هذه الديار إلا  
ياذن من الدولة العثمانية ولا بد أن يكون عندكم علم بذلك ، ولكن الله يساعدنا عليكم  
وعليهم ، فأجابه أبو بكر باشا بأن هذا عبث فى القول إذ لا يمكن أن تسمح الدولة  
العثمانية بدخول الفرنسيس إلى مصر ، وقال له متهكاً : دعوا عنكم ذلك المقال  
وانهضوا واستعدوا للحرب والقتال ، واستقر الرأى فى هذه الجمعية على أن يرسلوا  
إلى الاستانة بخبر وصول الحملة الفرنسية وأن يجهز مراد بك جيشاً لملاقاة الفرنسيين  
فى طريقهم من الاسكندرية إلى القاهرة ، وأرسل الوالى التركى رسالة المجتمعين إلى  
الاستانة صحبة رسول بطريق البر دلياًته بالترىاق من العراق ، كما يقول الجبرقى  
سار مراد بك بجميشه فى البر وبمراكبه فى البحر لملاقاة الفرنسيين ، وكان ما كان  
من هزيمته فى واقعة شبراخيت كما تقدم فى الفصل السابق

### التطوع العام فى القاهرة

فلما وصلت القاهرة أنباء واقعة شبراخيت وتراجع جيش مراد بك إلى امبابه ،  
أحس الناس شراً مستظيراً ، أما المماليك فقد أدركوا حرج موقفهم أمام الجيش  
الزاحف ، فأخذوا يهتمون بشئونهم دون الدفاع عن المدينة وينقلون أمتعتهم من  
قصورهم المشهورة إلى بيوت صغيرة لا يعرفها أحد ، واستمروا عدة ليال ينقلون  
أمتعتهم ويستودعونها معارفهم وثقاتهم ، وأرسلوا بعضها للأقاليم ، كل ذلك حتى  
لا تصل إليها أيدي المغيرين بعد احتلال المدينة ، وبينما هم منهمكون فى هذه الصغائر

كان أهل القاهرة الذين طالما عانوا من ظلم المماليك ما عانوا ، يتطوعون للدفاع عن العاصمة في وجه الجيش الزاحف ، وظهر الشعب في ساعة الخطر أرقى نفساً وأنبى قسداً من حكامه الظالمين ، ففي يوم الثلاثاء ١٧ يولييه ، أى قبل معركة الأهرام ببضعة أيام ، نودى بالنفير العام وخروج الناس للبتاريس ، فلبى المصريون الدعوة وأغلقت الدكاكين والأسواق ، وخرج الجميع إلى جهة بولاق للدفاع عن القاهرة ، واشتركت طوائف الشعب في التطوع ، فكانت كل طائفة من أهل الصناعات تجمع المال من أفرادها اكتتاباً ويحتمعون ليرتبوا ما يصرف عليهم وما يحتاجون إليه بما جمعوا ، وتبرع بعض الناس بالإفناق على البعض الآخر ، ومنهم من جهز بالسلاح والزاد بعض المقاتلة ، بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى مقدورهم وطاقتهم ، وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم فلم يشح أحد فى ذلك الوقت بشيء يملكه (١) ، وخلت طرقات العاصمة وبيوتها من كل قادر على حمل السلاح واتجهوا جميعاً نحو بولاق استعداداً لرد الجيش الزاحف على البلاد ، ولم يبق فى المنازل أو الطرقات سوى النساء والصغار والضعفاء والمرضى الذين لا يقدرّون على الحركة ، وحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق وأقام بها من حيث نصب إبراهيم بك العرضى (٢) هناك إلى وقت الهزيمة سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكاناً ولا مأوى فى بولاق فكانوا يرجعون إلى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون إلى بولاق (٣) ،

سوء استعداد المماليك

وضعف وسائل الدفاع

تلك كانت حالة الشعب النفسية واستعداده للدفاع عن عاصمة البلاد ، ولم يكن فى الأمكان أن تنجح هذه التدابير فى رد جيش نابليون المجهز بالعلم والنظام والسلاح

(١) الجبرتي الجزء الثالث

(٢) كلمة عرضى تؤدى معنى معسكر أو جيش وهى مأخوذة من الكلمة التركية « أوردو » أى

الجيش أو الفليق

(٣) الجبرتي الجزء الثالث

والكفاءة الحربية التي أكسبته النصر في حروب أوروبا ، لكن أهل القاهرة لم يقصروا في الدفاع ، وإنما المقصر المسؤول عن ضعف المقاومة هم طائفة المماليك الذين قضوا السنين الطوال يتخبطون في الجهل والغباوة ، لا هم لهم إلا ارتكاب المظالم وابتزاز أموال الناس بالباطل ، فأهملوا شأن الدفاع عن البلاد ، وتركوا القلاع التي أنشأها أسلافهم السلاطين تهدم وتخرب ، ومن ثم سرى الخراب إلى قلاع الإسكندرية وأبو قير ورشيد ودمياط والبرلس والقرين ، وخلت من آلات الحرب والمدافع الصالحة للضرب ، وكذلك قلعة القاهرة لم تعد في عهدهم تصلح للدفاع عن المدينة بما تولى عليها من الإهمال وقلة الاستعداد ، وحسبك أن تقرأ ما كتبه عنها الرحالة الفرنسي سافارى Savary سنة ١٧٧٨ لتعرف مبلغ قوتها وحظها من الاستعداد الحربي

زار المسيو سافارى مصر وشهد الحرب التي قامت بين مراد بك وإبراهيم بك وبين حسن بك الجداوى وإسماعيل بك ، وشهد ضرب القلعة للجهة التي امتنع بها حسن بك الجداوى بالمدافع : فقال إن القلعة بها ستة مدافع عتيقة ، وكان جنود المدفعية يحشون المدفع في نصف ساعة ، فكان المدفع يطلق طلقة واحدة كل نصف ساعة ، وقال تعليقا على ذلك : يمكنك أن تقدر هل مثل هؤلاء الجنود يستطيعون أن يثبتوا لحظة واحدة في ميدان القتال يزاء عدة صفوف من الجنود الأوروبية ؟ لاجرم أن الدولة الحربية التي تهاجم مصر تستولى عليها دون مقاومة (١) ، هذا ما كتبه سافارى قبل الحملة الفرنسية بنحو عشرين سنة ، ومع ذلك لم يتنبه المماليك يوماً ما لتحصين القلاع وترميمها ، بل كانوا يملؤنها جهلاً وغروراً يظنون أنهم لما اشتهروا به من إجادة ركوب الخيل قادرون على مواجهة أقوى الجيوش المنظمة المدربة على أساليب القتال العلمية ، وإذا أردت أن تعرف إلى أى حد بلغ بهم الجهل والغرور فانظر ما رواه عنهم كلوت بك في كتابه (٢) ، فقد ذكر أنه لما استولى نابليون على جزيرة مالطة ووصلت أخبار نزول الجيش الفرنسي بها أراد

(١) رسائل عن مصر بقلم المسيو سافارى

(٢) لحة عامة إلى مصر الجزء الثاني

المسيو روسى Rosetti قنصل النمسا فى القاهرة وكان من كبار تجار الافرنج بها وموضع ثقة رؤساء المماليك أن ينهى إليهم هذا الخبر ويحذرهم عاقبته ، فقابل مراد بك وكاشفه باحتمال عزم الفرنسيين أن يهبطوا مصر ، ورغب إليه فى اتخاذ وسائل الحيلة للذود عن البلاد ، فكان جواب مراد بك على هذا التحذير أن أغرق فى الضحك وقال : « ماذا تريد من إخافتنا من الفرنسيين ، ألم يكونوا أشباه الخواجات الذين نراهم بيننا ؟ أنه ليكفينى إذا نزلوا إلى سواحل مصر فى مائه ألف من رجالهم أن أبعث للقائمهم ببعض صغار المماليك ليقطعوا رؤوسهم بحد الركاب ، فحاول المسيو روسى أن يقنعه بأن الفرنسيين الذين فازوا بالنصر المبين فى إيطاليا هم غير التجار المساكين الذين اعتاد أن يراهم فى أسواق القاهرة ، وألج عليه بتحسين الإسكندرية ، فلم يُجند تحذيره وأراد مراد بك أن يجامله ويسكن روعه فأرسل إلى هذا الثغر قنطارين من البارود فقط ذخيرة لمدافعها !! ..

وحدث بعد ذلك بقليل أن وصل الفرنسيون إلى الإسكندرية ونزلوا إلى البر واستولوا عليها وعلم مراد بك بهذا النبأ فاستدعى المسيو روسى على الفور وقال له مفضياً : إن أولئك الفرنسيين الوقحاء قد اجترأوا على النزول إلى هذا البر ، وطلب إليه أن يكتب إليهم على لسانه بالمسارعة إلى الجلاء فى أقرب وقت ، فاعترض روسى قائلاً : « ولكنهم لم يأتوا إلى هنا ليعودوا كما جاءوا ، فهم جاءوا بغير أمرك ولا يعودون بأمرك ، ، فقال مراد بك وقد تولاها الجزع : « وماذا يريد هؤلاء الخسرة ؟ ماذا يريد هؤلاء المتشردون الجائعون ؟ إن كانوا طامعين فى مال فأرسل إليهم عدة آلاف من الريالات (١) وليرحلوا ! فأجابه روسى : ولكن هذا المبلغ لا يعدل أجرة شحن أصغر سفينة أقلتهم إلى مصر ، والأجدر بك أن تأخذوا عدتكم للدفاع ،

من هذه الرواية يتبين مبلغ غرور المماليك وجهلهم وانحطاط عقليتهم ، ويدخل فى هذا السياق مارواه عنهم الجبرتي لما جاءهم الخبر بقدم أسطول الأدميرال نلسن

(١) فى الأصل الفرنسى باتاك Pataques وهى معرفة عن كلمة [ أبو طاقة ] أى [ الريال أبو طاقة ] الذى كان يتعامل به فى مصر

إلى الإسكندرية للتفتيش عن العمارة الفرنسية قال : « أما الأمرام (البكوات المماليك) فلم يهتموا بشيء من ذلك ولم يكثر ثوابه اعتماداً على قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم ... » وقال عن مبلغ استعدادهم وجهلهم في فن الخطط الحربية إن مراد بك « لما ارتحل من الجسر الأسود أرسل إلى مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد في غاية التخن (كذا) والمتانة طولها مائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً لتصب على البوغاز (بوغاز رشيد) عند برج مغيزل من البر إلى البر لتمتع مراكب الفرنسيين من العبور لبحر النيل وذلك بإشارة على باشا الطرابلسي (١) - صديق مراد بك - وأن يعمل عندها جسراً من المراكب وينصب عليها متاريس ومدافع ،

فمراد بك في الوقت الذي احتل نابليون الإسكندرية وأخذ يسير بجيشه برأ بطريق دمنهور فالرحمانية كان يظن أن الفرنسيين لا يستطيعون بلوغ القاهرة إلا من بوغاز رشيد ، فطلب إعداد سلسلة لمنع المراكب من دخول النيل .. وكانت هذه الفكرة غاية في الجهل حتى ان الجبرتي على قلته درايته بالشؤون الحربية سخر منها في كتابه وقال : « إن الأمر كان بخلاف ذلك فإن الفرنسيين عندما ملكوا الإسكندرية ساروا على طريق البر الغربي من غير ممانع ،

وندد الجبرتي بما كان من إعمال المماليك الاستعداد للقتال قبل معركة الأهرام بقوله : « هذا وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوساً أو طليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى فناء مصر ، بل جمع كل من ابراهيم بك ومراد بك وعسكره ومكث مكانه لا يلتفتل عنه ينتظر ما يفعل بهم ، وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل ، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو ، إذن كان أمراء المماليك يركبون الجهل والغرور ، وكانوا أيضاً يمثلون الحرص على النجاة والتخاذل في أشد الأوقات حرجاً ، فبينما كان الجيش الفرنسي زاحفاً على العاصمة لم يكن مراد بك و ابراهيم بك على أتم وفاق ، بل كان يساعد بينهما

---

(١) هو على باشا الجزائر الذي عينته حكومة الاستانة واليا على مصر سنة ١٨٠٣ وقتله للمماليك كما تراه في موضعه في الفصل الخامس عشر من الجزء الثاني

التنافس القديم على السلطة ، ولم يخف هذا التنافس على الفرنسيين فقد علم به نابليون وهو في أم دينار يرسم الخطط ويستطلع أخبار القوة التي سيواجهها ، فهناك وصلته أخبار الجفاء الذي بين مراد بك و ابراهيم بك (١) وعلم أن كلا منهما بقي بجيشه بعيداً عن الآخر ، فراد بك باشا طىء الغربي ( بر امبابه ) و ابراهيم بك باشا طىء الشرقى من النيل ، وكلاهما لا يثق بصاحبه ، فلم يكن ثمت تعاون بينهما في خطة الدفاع ، ولو اتحدا لاجتمعت قوات الاثنين في صعيد واحد بالبر الغربى أو البر الشرقى للنيل

قال الجبرقى يصف نفسية المماليك قبل الواقعة : « لكن الأجناد (الجنود) متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشهم ، مقترون بجمعهم ، محتقرون شأن عدوهم ، مرتبكون فى رؤيتهم ، مغمورون فى غفلتهم ، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم »

### واقعة امبابه أو معركة الأهرام

( ٢١ يولييه سنة ١٧٩٨ )

ونصيب المصريين فيها

يصور المؤرخون واقعة الأهرام قتالا دار بين الفرنسيين والمماليك وحدهم ، والواقع أن المصريين قد اشتركوا فيها بمقدار ما لديهم من قوة واستعداد ، وفى الحق ان قسطهم فيها كان أكبر من قسط المماليك فلنذكر - إثباتا لهذه الحقيقة - كيف بدأت هذه المعركة ومبلغ اشتراك المصريين فيها

بعد أن انسحب مراد بك من شبراخيت وتراجع إلى القاهرة أخذ يستعد للقتال فى امبابه بالبر الغربى للنيل ، وأقام المتاريس بين امبابه وبشتيل (٢) ، وكانت قواته

---

(١) انظر مذكرات الكولونل سلكوسكى ياور نابليون وعضو المجمع العلمى ، وهو الذى قتل فى ثورة القاهرة كما سيبنى . بيانه فى الفصل الثالث عشر  
(٢) شمالى امبابه بغرب

ممتدة من بشتيل وامبابة إلى الأهرام ، فيمينة الجيش كانت مرتكزة على شاطيء النيل وقاعدتها امبابة التي أنشأ فيها مراد بك الاستحكامات والمتاريس وركب فيها المدافع ، والميسرة تمتد قريبا من الأهرام ، وبينهما القلب

ورسا الأسطول المصرى على ساحل امبابة وكان مؤلفاً من السفن الراسية تجاه بولاق وما انضم إليها من المراكب الكبيرة والغلايين ( المراكب الحربية ) التي قدمت من دار صناعة ( ترسانة ) الجيزة

أما ابراهيم بك فقد عسكر في بولاق على الشاطيء الشرقى للنيل ، وتفاوض مع الوالى والعلماء في إعداد معدات الدفاع ، فأجمعوا رأياً على إقامة متاريس من بولاق إلى شبرا ، فصار البر الغربى والبر الشرقى للنيل مملوئين بالمقاتلة والمدافع والمتاريس

### الاستعداد للمركة

في الساعة الثانية من صبيحة يوم السبت ٢١ يوليه تحركت فرق الجيش الفرنسى كلها من أم دينار واستقرت في نحو الساعة الثانية بعد الظهر بين وراق الحضر (١) وبشتيل ، فكانت الأهرام عن يمينهم ، والنيل عن يسارهم ، وأمامهم قرية امبابة وفيها جموع المقاتلة من المصريين وعددهم نحو عشرين ألفاً تحميهم المدافع والمتاريس وتتألف منهم ميمنة جيش مراد بك ، وفي القلب والميسرة فرسان المماليك ومتطوعة القاهرة وعددهم نحو سبعة آلاف يرابطون في خط يمتد بين النيل والأهرام ، وفي أقصى الميسرة فرسان العرب

فلما شاهد نابليون عن بعد قوات مراد بك أراد أن يبعث الحماسة في نفوس جنوده ، فحاطبهم بكلمته السائرة : « تقدموا أيها الجنود واعلموا أن أربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم من فوق قم هذه الأهرام ، ، ففعلت هذه الكلمة فعل السحر في الجنود ونسوا متاعهم التي قاسوها في الطريق واطمأن نابليون لما شاهد جيش مراد بك وقابل بين قواته وقوات خصمه ،

(١) بالبر الغربى للنيل شمالى امبابة



وكيف لا يطمئن وهو قادم بجيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل مزودين بأحدث آلات الحرب والقتال مدربين على خوض غمار الحروب ممتازين بالنظام وكفاية القيادة معتزين بالانتصارات التي نالوها في ميادين القتال بأوروبا ، وأمامهم جيش يعوزه الاستعداد والنظام والسلاح وكفاية القيادة ، أى ينقصه كل ما يكفل له الفوز والظفر

### سير القتال

بدأت المعركة بعد أن رتب نابليون فرق الجيش على شكل مربعات ووضع المدافع على زوايا كل مربع ، وكانت فرقتا الجنرال ديزيه Desaix والجنرال رينيه Reynier باليمين ، وفرقتا الجنرال بون Bon وفيال Vial بالميسرة ، وفي القلب فرقة الجنرال دوجا Dugua وفيها نابليون يرسم الخطط ويصدر الأوامر ويرقب حركات الجناحين

لاحظ نابليون من استحکامات امبابه أنها لم تكن على جانب كبير من المناعة ، وأن المدافع المركبة بها وعددها أربعون مدفعاً لم تكن مركبة على عجالات بحيث تستطيع التحرك والانتقال تبعاً لتطور القتال ، بل كانت مثبتة على الأرض ، فأدرك من ذلك أن المقاتلة الذين فى امبابه لا يستطيعون التحرك بسهولة ومقادرة الاستحکامات التي كانوا ممتنعين بها ، فعزم على أن يبدأ الهجوم من اليمين بعيداً عن مرعى مدافع امبابه ، وأن يجعل أول هدف لهجومه قوات المماليك الذين يتألف منهم قلب جيش مراد بك وميسرته ليحول بينهم وبين بقية القوات المرابطة فى امبابه ، وبذلك يخترق صفوف مراد بك ويحيط بها ويدفعها أمامه إلى النيل ثم ينشئ على امبابه ليستولى عليها

وتنفيذاً لهذه الخطة أمر فرقة الجنرال ديزيه أن تتقدم من اليمين تتبعها فرقة الجنرال رينيه ، فهجمت الفرقتان فى طريق الجزيرة ، بينها وبين امبابه ، وأمر فرقة الجنرال بون وفيال (١) بالتقدم من الميسرة للاحاطة بامبابه ، وتقدمت فرقة

(١) هى فرقة الجنرال منو كما بينا ذلك بها مش ص ١٩٩

الجنرال دوجا (١) التي كان بها نابليون لتتصل بمركات الجناحين ، فكانت الفرق الخمس التي يتألف منها الجيش الفرنسي تهاجم قوات مراد بك على شكل نصف دائرة مركزها امبابه وقاعدتها النيل

أدرك مراد بك خطر هذا الهجوم الذي كان مقصوداً منه اختراق صفوفه ، فترك بامبابه ألفين من المماليك يشتركون في الدفاع عنها مع من بها من المصريين ، وهجم بنحو خمسة آلاف من فرسانه على فرقة درجا ، فصدتها نار المدافع ، ثم هجم على فرقة ديزبه ليعزلها عن باقي الفرق وكان هجوم المماليك شديداً ، لكن فرقة الجنرال ديزبه تلقت هذا الهجوم بنار كالصواعق حصدت صفوف المماليك حصداً ففكر الفرسان على فرقة الجنرال رينيه ، فتلقتها بمثل تلك النار الحامية ، وقد تزلزلت أقدام الفرنسيين من شدة هذا الهجوم لولا ان فتكت نار المدافع والبنادق بصفوف المماليك ، وكان دوى المدافع كالرعد القاصف والدخان يملأ الجو حتى حجب وجه الشمس ، وانحصر المماليك بين فرقتي ديزبه ورينيه ، واكتنفهم الموت من الجانبين ، وأرادوا الانسحاب إلى النقطة التي بدأوا بها هجومهم فتلقتهم فرقة الجنرال دوجا التي وصلت إلى النيل فخالت بينهم وبين النهر فوقع المماليك بين نارين ، من أمام ومن خلف ، ومات كثير من زعمائهم وشجعانهم ، وانفلتت بقيتهم من هذا المأزق فارتد جماعة منهم إلى امبابه وارتد معظمهم إلى البحيرة

أشار الجبرتي إلى هذا الدور من المعركة بقوله : « ولما كان وقت القائلة (الظهر) ركب جماعة من العساكر التي بالبر الغربي وتقدموا إلى ناحية بشتيل فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيين ففكروا عليهم بالخيول فضر بهم الفرنسيين ببنادقهم المتتابعة الرمي ، وأبلى الفريقان ، وقتل أبوب بك الدفتردار (مدير الشؤون المالية) وعبدالله كاشف الجرف (من البسكوات المماليك) وعدة كبيرة من كشاف محمد بك الألفي ومماليكهم ، وتبعهم طابور من الإفرنج نحو الستة آلاف وكبيرهم ديزبه الذي ولى على الصعيد بعد تملكهم وأما بونابرتة الكبير فإنه لم يشاهد الواقعة بل حضر بعد الهزيمة ، وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير ،

(١) التي كانت في الأصل فرقة الجنرال كباير

هذا مارواه الجبرتي عن هذا الدور من المعركة ، ولا يمكننا أن نمر على قوله ان بونا برته الكبير لم يشاهد الواقعة ، دون أن نبدى شيئاً من الدهشة ، لأنه كيف تصور الجبرتي أن بونا برته لم يشاهد الواقعة مع أنه قائدها ورأس خطتها ومدبر الأمر فيها؟ ولا ندري من أين جاء الجبرتي أنه لم يحضر إلا بعد الهزيمة وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير مع أن بونا بارت كان في القلب يرقب حركات القتال ويتبع كل صغيرة وكبيرة فيه؟ على أي وجه قلبنا الرواية لاتجد ثبوتاً لها وكل ما نقله فيها أنها خطأ ،

والآن فلنتقل إلى الدور الثاني من المعركة

أمر نابليون قوات الميسرة من جنود الجنرال بون والجنرال فيال بمهاجمة امبابه ، فوقع الهجوم في الوقت الذي كان فرسان مراد بك يغامرون بأنفسهم بين فرقتي دينيه ورينيه ، واشترك في الهجوم فرقة الجنرال دوجا فدار قتال شديد بينهم وبين المصريين والمماليك وكر هؤلاء على الفرنسيين لسكنهم ارتدوا أمامهم ورجعوا إلى معاقلمهم وحاولوا صد هجوم الفرنسيين باطلاق النار من المدافع المركبة في استحكامات امبابه ، لكن هذه المدافع كانت من الطراز العتيق فلم تطلق قنابلها إلا مرة واحدة ولم يستطيع رماتها أن يعيدوا الضرب بها ، فاختل نظام الجيش في امبابه وأحاط جنود الجنرال رامون Rampon ومارمون (١) Marmon بالاستحكامات لقطع خطر رجعة المصريين إلى النيل ، وتمكن الفرنسيون من تطويقها ، فوقع المصريون والمماليك بين نارين ، فكان العدو أمامهم والنيل من ورائهم والريح النكباء قد اشتد هبوبها وأمواج البحر في قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتسفها الريح في وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار ، ووقعت الهزيمة بجيش مراد بك ومات معظم رجاله قتلاً أو غرقاً في النيل ، واستولى الفرنسيون على امبابه وغنموا ماها من المدافع والاستحكامات والأسلحة والمؤن ، فلما علم مراد بك بسقوط امبابه تحقق أن الهزيمة حلت به ففر بالباقيين من جنوده وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف إلى جنوبي الجزيرة . وأغرق المماليك السفن المصرية التي

(١) من قواد فرقتي بون وفيال

كانت بالنيل حتى لا تقع في أيدي الفرنسيين ، و انتهت المعركة في نحو الساعة السادسة مساءً بانتصار نابليون وجنوده والقضاء على قوة البلاد الحربية

نقلنا عن الجبرتي العبارة التي وضعناها بين قوسين لأنها أبلغ ما كتبه عن الدور الثاني من المعركة ، ولا بأس أن نورد ما ذكره في وصف وقائع القتال حول امبابة ليقابل القارىء بين روايته والرواية التي استخلصناها من المصادر الفرنسية ، قال :

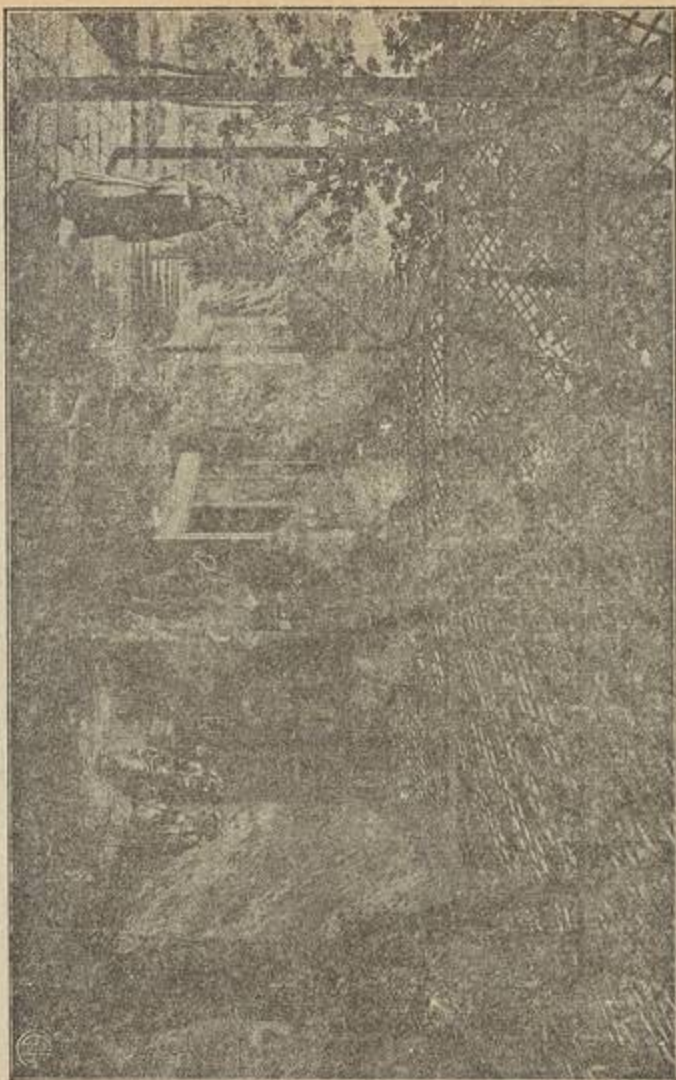
« ولما قرب طاوور الفرنسيين من متاريس مراد بك تراعى الفريقان بالمدافع ، وكذلك العساكر المحاربون البحرية (أى بحارة السفن المصرية التي كانت راسية بين امبابة وبولاق) وحضر عدة وافرة من عساكر الارناؤود من دمياط وطلعوا إلى انبابة وانضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم في المتاريس وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرضى الشرقى (١) ومنهم ابراهيم بك الوالى (٢) وشرعوا في التعدية إلى البر الغربى في المراكب ، فتزاحموا على المعادى لتكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جداً فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين ،

وقال يصف نظام المربعات الفرنسية وهجومها على امبابه وهزيمة الجيش المصرى : « ثم إن الطابور الذى تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معلومة عندهم في الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ، ودق طبوله ، وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع ، واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار ، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح وصمت الأسماع من توالى الضرب بحيث خيل للناس أن الأرض تنزلت والسماء عليها سقطت ، واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع ساعة ثم كانت هذه الهزيمة على العسكر الغربى (٣) ففرق الكثير من الخياله في البحر لإحاطة العدو بهم وظلام الدنيا ، والبعض وقع اسيراً في أيدي الفرنسيين ، وملكوا المتاريس وفر مراد بك ومن معه إلى الجزيرة ، فصعد إلى قصره وقضى أشغاله في نحو ربع ساعة ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلىة وبقيت

(١) يعنى جيش ابراهيم بك انذى كان مرابطاً بالبر الشرقى للنيل

(٢) صهر ابراهيم بك رئيس المماليك

(٣) يعنى جيش مراد بك لأنه بالبر الغربى



قصر مراد بك في الجزيرة ( التقى س ٢١٤ )

القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقاة على الأرض ببر انبابة تحت الأرجل ، وكان من جملة من ألقى نفسه في البحر سليمان بك المعروف بالأغا ، وأخوه إبراهيم بك الوالى ، فأما سليمان بك فبجاء وغرق إبراهيم بك الصغير وهو صهر إبراهيم بك الكبير ،

بلغت خسائر جيش مراد بك في معركة الأهرام نحو ألفي قتيل من المماليك وعدة آلاف لاتحصى من المصريين ، وفي مذكرات نابليون أن مجموع القتلى من جيش مراد بك من مماليك ومصريين بلغ سبعة آلاف ، وأن خسائر الفرنسيين ثلثمائة (١)

وقد سار نابليون بعد انتهاء المعركة إلى الجزيرة ، واتخذ قصر مراد بك معسكراً له واستولى على ( ترسانته ) التى أنشأها بالجزيرة وما بها من المافع والذخائر ، وفي مساء هذا اليوم احتلت فرقة من الجيش الفرنسى جزيرة الروضة

وفى مساء اليوم التالى دخل الجنرال ديبوى ، أحد قواد الجيش الفرنسى المدينة على رأس كتيبة من الجنود لاحتلالها ، فلم يلق بها مقاومة . وعسكرت ليلاً فى بيت إبراهيم بك الوالى ، فكانت هذه الكتيبة طليعة الجيش المحتل ، وفى اليوم التالى ( الاثنين ٢٣ يوليه - ٩ صفر ) تبعها بقية الفرق فاحتلت القلعة والمدينة وضواحيها ، وأصبحت العاصمة فى قبضة الجيش المحتل

### انسحاب إبراهيم بك

كان جيش مراد بك هو الذى تلقى صدمة الهجوم الفرنسى بالبر الغربى للنيل ، وما ان حلت به الهزيمة حتى انسحب إلى الجزيرة كما قدمنا واحرق سفينه كيلا تقع فى أيدي الفرنسيين ، ثم فر إلى الوجه القبلى ومعه فلول جيشه المهزوم أما إبراهيم بك الذى كان يربط فى الشاطئ الشرقى ليدافع عن القاهرة إذا اعتزم الفرنسيون عبور النيل فإنه ظل يرقب تطورات المعركة ، وبقي جامداً لا يحرك ساكناً حتى علم بهزيمة زميله مراد بك ، فأركن إلى الفرار هو ومن معه من

(١) مذكرات نابليون التى أملاها الجنرال برتران فى سانت هيلين

المماليك ، وغادروا العاصمة وقصدوا إلى بلبس ثم إلى سوريا حاملين ما وصلت إليه أيديهم من المتاع والأموال والتحف لينجوا بها ويستخلصوها لأنفسهم ، وبذلك ترك أمراء المماليك سكان القاهرة وأهل البلاد وجها لوجه أمام القوة الفرنسية



خريطة واقعة امبابة أو معركة الأهرام - ٢١ يولييه سنة ١٧٩٨ - وفيها البيانات الآتية

١ - فرقة الجنرال دوجا وفيها نابليون ومنها يتألف قلب الجيش الفرنسي

٢ - فرقة الجنرال بون

٣ - فرقة الجنرال فيال ومنها يتألف الجناح الأيسر

٤ - فرقة الجنرال ديزيه

٥ - فرقة الجنرال رينيه ومنها يتألف الجناح الأيمن

٦ - امبابة وفيها الاستحكامات والمدافع والتاريخ والقوات التي أعدها مراد بك

٧ - قوات ابراهيم بك المرابضة ببولاق ولم تشترك في القتال

٨ - قوات مراد بك تهاجم فرقة الجنرال دوجا ثم فرقتي ديزيه ورينيه

٩ - قوات مراد بك تهاجم جنود الجنرال رامبوت لرد هجمتهم على امبابة

١٠ - آخر نقطة انسحبت منها قوات مراد بك بعد الهزيمة

١١ - الأسطول المصري في النيل ومرآكب التعديية يبع امبابة وبولاق

١٢ - جزيرة بولاق

والمخطوط المزودة تمثل خط سير قوات مراد بك

وقد اقتبسنا هذه الخريطة من مجموعة رسوم المسيو فيفان دينون أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون في مصر ، وأهمية هذه الخريطة ترجع إلى أن نابليون راجعها وتقعها قبل أن تطبع في

كتاب دينون سنة ١٨٠٢

## نصيب المصريين في المعركة

وقف المصريون بحجاب المماليك في معركة الأهرام يقاثلون الفرنسيين ، هذه واقعة وإن لم يعلنها المؤرخون الفرنسيون إلا أنها حقيقة ثابتة تنطق بها أقوالهم وروايات شهودهم

ذكر المسيو تييرس Thiers في كتابه (١) ، أن جيش مراد بك أقام بمعسكره على الشاطئ الغربي من النيل في السهل الممتد ما بين النيل وأهرام الجيزة ، وكان يدافع عن قرية امبابه بقوة مؤلفة من ٢٤.٠٠٠ من الفلاحين والانكشارية ، وهذه القوة كانت تؤلف ميمنة الجيش ، وكان المماليك وعددهم عشرة آلاف فارس ومنهم يتألف القلب والميسرة يرابطون في السهل الممتد بين النيل والأهرام يشد أزهرم عدة آلاف من الفرسان العرب ،

ويقول الجنرال برتييه Berthier في كتابه (٢) :

«استولى الفرنسيون على قرية امبابه بعد أن دافع عنها نحو ألف وخمسمائة بملوك ومثل هذا العدد من الفلاحين دفاع الأبطال ورفضوا التسليم فماتوا قتلا وغرقا ، ومعلوم أن الجنرال برتييه هو رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية ، وقد شهد معركة الأهرام وكان يخوض غمارها إلى جانب نابليون ، فكلامه حجة ويقول نابليون في مذكراته عن قوة جيش مراد بك :

« كانت الميمنة ترابط شمال امبابه وتتألف من ٢٠.٠٠٠ من الانكشارية والعرب ومقاتلة القاهرة ، وتتألف الميسرة والقلب من ١٢ ألف فارس من المماليك والأغاوات ( رؤساء الجند ) والمشايخ والأعيان المصريين ومع كل منهم ثلاثة أو أربعة من المشاة لخدمتهم ، فكان مجموع هذه القوة نحو خمسين ألف رجل يضاف إليهم ثمانية آلاف فارس عربي تتألف منهم ميسرة هذا الجيش ، فكان الجيش يمتل خطاً طوله ثلاث فراسخ ، ، وقال ميو Miot وهو شاهد عيان لوقائع الحملة

(١) تاريخ الثورة الفرنسية الجزء العاشر

(٢) تاريخ حروب بوناپارت في مصر وسوريا



في مذكراته : « إن قوة مراد بك تقدر بستة آلاف من المماليك وعدد كبير من الفلاحين والعرب (١) ،

وذكر ريبو « أن مراد بك تحت إمرته ستة آلاف من المماليك رابطوا على الشاطئ الغربي للنيل وارتكزت ميسرتهم إلى الجيزة وميمنتهم إلى قرية امبابه حيث كان يدافع عنها ١٢ ألفاً من الفلاحين ومعهم أربعون مدفعاً وقد أمدته في هذا اليوم فصيلة من الانكشارية وعدد حاشد من العرب والأقباط والحباشان (٢) ، وتكلم دى لاجونكيير عن حامية امبابه فقال : « من الصعب أن تصور أن عشرين ألفاً كانوا محتشدين في قرية صغيرة كأمبابه ، والمعقول أن القوة النظامية من هذا العدد كانت مؤلفة من أربعة آلاف فقط من المشاة ، ولكن هذا العدد قد وصل إلى الضعف أو الثلاثة الأمثال بمن انضم إليهم من الفلاحين ومن متطوعة القاهرة ، وقد بلغت خسارة المماليك ألفين من فرسانهم وخيرة رجالهم ، وكانت خسائر الأهالي عظيمة ففرق معظمهم في النيل (٣) ،

وفي الجبرتي ما يدل على اشتراك المصريين في المعركة ، فقد نقلنا عنه ما ذكره عن تطوع أهل القاهرة ، ونضيف إليه ما أورده عن تطوع سكان الأقاليم قال : « أرسل إبراهيم بك إلى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا في المقدمة بنواحي شبرا وما والاها ، وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية والقيعان وأولاد على والهنادي وغيرهم ،

وقال في موضع آخر : « ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر (صفر الموافق ٢٠ يولييه) وصل الفرنسيين إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت (يوم الواقعة) فوصلوا إلى أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجنود الرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر (٤) ، يؤخذ من هذه الوثائق والمصادر المتعددة أن المصريين قد اشتروا في معركة

(١) مذكرات عن تاريخ الحملة الفرنسية في مصر بقلم القوميسير ميو Miot

(٢) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية ج ٣

(٣) تاريخ حملة مصر الجزء الثالث بقلم دى لاجونكيير

(٤) الجبرتي الجزء الثالث

الأهرام بكل ما أوتوا من حول وقوة وأنهم قدموا كل ما في استطاعتهم من رجال ومال للدفاع عن كيان البلاد ، وأن عددهم كان أكثر من عدد المماليك وقد اختلف الرواة في تقدير عدد المماليك الذين اشتركوا فعلا في المعركة ، لكن التقدير الذي هو أقرب إلى الصواب أنهم يتراوحون بين ستة آلاف وسبعة آلاف فقط ، فقد أحصى المسيو مارتان Martin أحد مهندسي الحملة الفرنسية (١) عددهم ٥٠٠٠ من مقاتل ، وقدرهم ريكاردو Richardo أحد ضباط الحملة الفرنسية بستة آلاف ، ويقول دي لاجونكيير De La Jonquiere ان إحصاء المماليك بستة آلاف موافق لتقدير الجنرال برتسيه رئيس أركان الحرب ومير وريكاردو ، ويلاحظ دي لاجونكيير تأييداً لهذا التقدير أن مجموع المماليك الصالحين للقتال كان عند مجيء الحملة الفرنسية لا يزيد عن عشرة آلاف مقاتل (٢) منهم ١٥٠٠ كانوا بالبر الشرقي للنيل بقيادة إبراهيم بك ولم يشتركوا في المعركة ، و٥٠٠ بالصعيد بقيادة حسن بك الجداوى ، ونحو هذا العدد مع قافلة الحج التي لم تكن حضرت بعد ، فإذا قدرت خسائر المماليك في الرحمانية وشبراخيت كانت النتيجة أن عدد المماليك الذين حشدتهم مراد بك بالبر الغربي إنما كان يتراوح بين ستة آلاف إلى ستة آلاف وخمسمائة ، والباقون من المصريين

وصفوة القول أنه لا يمكن لأمة عزلاء لاسلح معها أن تدافع عن كيانها بأكثر مما فعلت الأمة المصرية في عهد الحملة الفرنسية

#### بعد الواقعة

قام المصريون بقسطهم في الدفاع في واقعة الأهرام كما ترى ، وهم الذين احتملوا عواقب الهزيمة ، فقد عمّ الفرع القاهرة بعد وقوع الهزيمة وفرار قواد المماليك ،

(١) في كتابه تاريخ الحملة الفرنسية في مصر الجزء الثالث

(٢) هذا الإحصاء يوافق ما ذكره الجبرتي في الجزء الرابع على لسان إبراهيم بك زعيم المماليك وهو يخاطب مندوب محمد علي الكبير الذين قابلوه في شأن الصلح فذكر إبراهيم بك ما كان لهم من النفوذ والشوكة قبل الحملة الفرنسية قال في هذا الصدد : « اعلم أننا كنا بمصر نحو العشرة آلاف أو أقل أو أكثر ما بين مقدسي ألوف (قواد) وأمراء وكشاف ، وأكابر وحقائق ، ومماليك وأجناد وطوائف ، وخدام ، وأتباع » ، فيؤخذ من ذلك أن عدد المقاتلة من المماليك كان عشرة آلاف ما جنس المماليك من رجال ونساء وأطفال وعتق وأرقاء فيبلغ عددهم نحو خمسين ألفاً

وقضى أهلها ليلة رهيبية اكتنفتهم فيها الخطوب والأهوال، وتوقعوا أن تحل بهم الكروب إذا دخل الفرنسيون المدينة، فلاذ معظمهم بالفرار تلك الليلة إلى الأقاليم ومعهم نساؤهم وعيالهم، فكان هذا الذعر أشد هولاً من وقائع الحرب والقتال، قال الجبرتي يصف تلك المأساة :

« استمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر، البعض بحريمه، والبعض ينجو بنفسه، ولا يسأل أحد عن أحد، بل كل واحد مشغول بنفسه عن ابنه وأبيه، والناس يضحجون بالعويل والنحيب، ويبتهلون إلى الله من شر ذلك اليوم العصيب، والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت. نخرج تلك الليلة معظم أهل مصر، البعض لبلاد الصعيد، والبعض لبلاد الشرق وهم الأكثر، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه، ومن لا يقدر على الحركة ممتثلاً للقضاء متوقفاً للسكروه، وذلك لعدم مقدرته أو لقلّة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم في الغربة فاستسلم للمقدور، ولله عاقبة الأمور،

وقد زاد هذه الفاجعة هولاً أنه لما أحرق الممالك سفنهم بعد الهزيمة تصاعد لهب الحريق ودخانها من السفن المحترقة ببولاق والجيزة، وشاهد سكان العاصمة النيران المشتعلة ليلاً فظنوا أن الفرنسيين قد عبروا النيل وأحرقوا بولاق والجيزة، وشاع بين الناس أنهم وصلوا إلى باب الحديد يجرقون ويعتدون على النساء، فاشتد الفرع، وعظم الخطب، وفي ذلك يقول الجبرتي :

« إن بعض القليوبجية ( البحارة ) من عسكر مراد بك الذي كان في الغليون ( المركب الحربي ) بمرسى انبابة لما تحقق الكسرة أضرم النار في الغليون الذي هو فيه، وكذلك مراد بك لما رحل من الجيزة أمر بانجرار ( سحب ) الغليون الكبير من قبالة قصره ( قصر مراد بك بالجيزة الذي اتخذه نابليون معسكرآله بعد الواقعة ) ليصحبه معه إلى جهة قبلي، فمشوا به قليلاً ووقف في الطين لقلّة الماء، وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة، فأمر بحرقه أيضاً، فصعد لهيب النار من جهة الجيزة وبولاق ظنوا بل أيقنوا أنهم أحرقوا البلدين فاجوا واضطربوا زيادة عما هم فيه من الفرع والروع والجزع، وخرج ( من القاهرة ) أعيان الناس وأفسدية

الوجاقات وأكبرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين ، فلما عين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم ، والحال أن الجميع لا يدرون أى جهة يسلكون ، وأى طريق يذهبون ، وأى محل يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا ، وخرجوا من كل حذب ينسلون ، وبيع الخمار الأعرج أو البقل الضعيف بأضعاف ثمنه ، وخرج أكثرهم ماشياً أو حاملاً متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ؛ ومن قدر على ركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه ، وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات ، وأطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل ، واستمروا على ذلك طول ليلة الأحد وصباحها ، وختم الجبرتي وصف تلك المأساة بقوله : « وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة جرى فيها مالم يتفق مثله فى مصر ولا سمعنا بما شابهه بعضه فى تواريخ المتقدمين ، فما راء كمن سمعا ،

## الفصل الثامن

عود إلى الاسكندرية

واقعة أبوقير<sup>(١)</sup> (أول أغسطس سنة ١٧٩٨)

وتأثيرها في مركز الفرنسيين

على مقربة من الإسكندرية ، وفي منتصف المسافة تقريباً بينها وبين رشيد ، في خليج أبوقير ، وقعت يوم أول أغسطس سنة ١٧٩٨ الواقعة البحرية الشهيرة بواقعة أبوقير ، بين الأسطول الإنجليزي بقيادة الاميرال نلسن Nelson والأسطول الفرنسي بقيادة الاميرال برويس Brueys ، وانتهت بتحطيم الأسطول الفرنسي وتدمير معظم سفنه وأسر الباقي ومقتل أميراله وخيرة رجاله ونحو أربعة آلاف من بحارته ، فكانت هذه الواقعة كارثة عظيمة أصابت البحرية الفرنسية وقضت على آمال فرنسا في بسط سيادتها على البحر الأبيض المتوسط ، وكانت في الوقت نفسه أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية في مصر ، من أجل ذلك وجب علينا أن نتكلم عن هذه الواقعة مع بيان نتائجها وأثرها في تطور الأحوال في مصر

### مقدمات الواقعة

كانت ميناء الإسكندرية الغربية لا تستطيع أن تؤوى بوارج الأسطول الفرنسي

(١) الترمنا في هذه الكلمة لفظها المحكي « أبوقير » على قاعدة الحكاية ، والكلمة ليست مركبة من (ابو) و(قير) بل هي كلمة مفردة ، فلا تجرى على (أبو) قواعد الإضافة ، وفي تاج العروسى للعلامة اللغوى المشهور السيد محمد مرتضى الزبيدى (الجزء الثالث) إنها (بوقير) بالضم جزيرة قرب رشيد) وقد أوردتها تحت كلمة (بقر) فإلباء من بنيه الكلمة ، وهذا يثبت أنها كلمة مفردة ، وسواء أكانت (بوقير) أم (ابوقير) فهي ليست كلمة مركبة ، ولذلك قلنا واقعة أبوقير

الكبرى لقرب غور المياه في مداخلها ، فاختار الأميرال برويس بالاتفاق مع نابليون خليج « أبوقير » يتخذ مرسى لبوارجه ، وانتقل إليه بأسطوله يوم ٧ يولييه سنة ١٧٩٨ ، على أن يقلع منه إلى جزيرة كورفو إذا رأى المكث فيها خطراً ، وكان الكابتن بارى Barré قد كلف سبر غور الميناء ومداخلها للتحقق من عمقها ، فأجرى عدة من التجارب انتهى منها إلى أن الميناء تحتمل دخول البوارج الكبرى ، لكن الأميرال برويس بعد أن استشار قواد الأسطول رأى من المخاطرة أن يعود إلى ميناء الاسكندرية ، إذ لم يطمئن إلى التجربة التي زاو لها الكابتن بارى ، وكان متردداً في البقاء بين أبوقير والإقلاع إلى جزيرة كورفو ، لكنه آثر البقاء في أبوقير لأنه لم يكن لديه المؤونة الكافية للسفر إلى كورفو ، ثم أنه لم يشأ أن يغادر سواحل مصر قبل أن يطمئن على مصير الجيش الفرنسي بها ، فأخذ يترقب أخبار نابليون بنافذ الصبر وينتظر نتيجة محاربتة لجيش مراد بك ، فأضاع وقته في الانتظار دون أن يتخذ خطة حاسمة أو ينصب المدافع بالبر لحماية مواقع الأسطول ، وكان بشاطي\* (أبوقير) قلعة قديمة (١) لكنها لانصلح لحماية الخليج إذ كانت في حاجة إلى تحصينها بالمدافع الكبيرة ، وكذلك يوجد في مدخل الخليج جزيرة صغيرة (٢) (شرقي القلعة) وضع فيها الأميرال برويس بعض المدافع لكنها لم تستطع منع السفن الإنجليزية من دخول الخليج يوم الواقعة

وكان الأميرال نلسن قبل الواقعة لا ينفك يتجول في البحر الأبيض المتوسط ليتعرف مواقع الجيش الفرنسي ، فإنه بعد أن وصل إلى الإسكندرية يوم ٢٨ يونيه ولم يجد العمارة الفرنسية كما قدمنا ، أقلع بأسطوله إلى شواطئ الأناضول ثم عاد أدراجه إلى صقلية ليمتار منها ، ثم قصد ثانياً إلى سواحل مصر ، وفي غضون ذلك اشتد قلق الرأي العام الإنجليزي في لندن لأن الأميرال نلسن لم يستطع في بحر ثلاثة أشهر تقريباً قضاها في خوض البحر أن يدرك الأسطول الفرنسي ، وترك نابليون يستولى على مالطة ويبلغ سواحل مصر ويحتلها بجنوده ولكن نلسن لم

(١) هي المعروفة الآن بطاية البرج وهي على الراجح منشأة في عهد السلاطين البحرية

(٢) سميت بعد الواقعة جزيرة نلسن

يقصر في تعقب أسطول الأميرال برويس ، بل كانت الأقدار هي التي باعدت بينه وبين خصمه على ظهر البحار ، إلى أن حضر بأسطوله تجاه الاسكندرية صباح يوم أول أغسطس (يوم الواقعة) ثم اتجه ناحية أبوقير حيث كان الأسطول الفرنسي راسياً يتربص

### الموازنة بين الأسطولين

لم تكن قوة الأميرال نلسن تزيد عن قوة الأسطول الفرنسي لافي عدد السفن ولا في عدد المدافع والبخارة ، فإن أسطول نلسن كان مؤلفاً من خمس عشرة سفينة حربية منها أربع عشرة بارجة كبرى ، وكان عدد مدافع أسطوله ١٠٥٠ وبخارته ٨٢٤٠ من المقاتلة .

أما أسطول الأميرال برويس في أبوقير فكان مؤلفاً من سبع عشر سفينة حربية منها ثلاث عشرة بارجة كبرى وأربع فرقاطات كبيرة عدا السفن المسلحة المتوسطة الحجم أو الصغيرة التي كانت حولها (١) ، وكان سلاح هذا الأسطول ١١٨٠ مدفعاً وبخارته ٨٩٠٠ مقاتل

فيتبين من هذه المقابلة أن الأسطول الفرنسي وإن كان أقل عدداً في البوارج الكبيرة إلا أنه في مجموعه أكثر عدداً وعتاداً من الأسطول الإنجليزي ، لكن الفارق الحقيقي الذي جعل للأسطول الإنجليزي الغلبة والنصر في القتال هو كفاية القيادة والنظام وحسن الاستعداد الحربي ، ولاغرو فشخصية نلسن هي من أهم أسباب عظمة انجلترا البحرية ، كأن الرجل أسطول إنساني

لم يكن الأميرال برويس يتوقع أن يصادمه الأسطول الإنجليزي في خليج أبوقير ، فلم تسكن بوارجه على تمام من أهبتها واستعدادها ، وكان عدد كبير من ضباطها وبحارتها يتخلفون في الشواطئ . وفي الاسكندرية يمتارون منها

(١) ترك الأميرال برويس بميناء الاسكندرية بعض السفن الحربية وكثيراً من السفن الخفيفة

### بدء المعركة

ففي منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر يوم أول أغسطس بدأت بوارج الأدميرال نلسن تظهر في الأفق تجاه أبوقير، وتبينها الأدميرال برويس وهي في عرض البحر بعيدة عن الساحل، ولم يكن يعتقد أنها جاءت لمهاجمته، بل كان يظن بادىء الأمر أنها تريد محاصرة الخليج، غير أنه رآها تقترب شيئاً فشيئاً على سمت من الخليج، فتحقق أن المعركة لا محالة ناشبة

وكانت تتقدم أسطول الأدميرال نلسن عند اقترابه من الخليج سفينة مصرية (١)، ويرجح «ريبو» أن هذه السفينة كانت تقل جماعة من البحارة المصريين تقدموا ليرشدوا الأسطول الإنجليزي إلى مسالك البحر في تلك الجهة يساعده بذلك على الأسطول الفرنسي (٢)

وعند الساعة الثالثة أصدر الأدميرال برويس أمره للسفن بالتأهب للضرب، وأخذ الأدميرال نلسن يرتب مواقع بوارجه، وكان في حركته حراً، بعكس الأدميرال برويس فإن حركته كانت مقيدة لانحصاره في الخليج؛ وبالرغم من أن أركان حربيه نصحوه بالخروج في عرض البحر لملاقاة الأسطول البريطاني فإنه آثر البقاء في مرساه، وكان موقف الأسطول الفرنسي بمساعدة الأدميرال نلسن على إحكام تدبيره، لأن البوارج الفرنسية كانت مصطفة على خط يشبه القوس بعيدة عن الشاطئ الغربي للخليج، كما تراه في الخريطة، فاستطاعت البوارج الإنجليزية أن تندس بينها وبين الشاطئ، وخيّل الأدميرال برويس أن مثل هذا الحادث يستحيل وقوعه لقلة عمق البحر في هذا الموضع، فكان هذا الخطأ في التقدير وجرأة الأدميرال نلسن في الوصول إلى هذا المكان من أسباب الكارثة التي حلت بالأسطول الفرنسي

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) جاء في تقرير الضابط الفرنسي شاربيه Chuarrier الذى كان على ظهر البارجة فرنكلن من بوارج الأسطول الفرنسي ما يؤيد هذه الرواية، قال: « في منتصف الساعة الخامسة مساءً شاهدنا في عرض البحر سفينة مصرية قادمة من الاسكندرية تتصل بأحدى السفن الإنجليزية ولم تنفصل عنها بالرغم من أن السفينة (ألرت) Aierte أطلقت عليها عدة قنابل »



توصل الأميرال نلسن إلى حصر البوارج الأمامية من الأسطول الفرنسي وعددها ثمان بين صفين من البوارج ، فصارت هدفاً لنارين ، ومع أن البوارج الفرنسية الأخرى كانت حرة وخارجة عن مرمى هذه النار وكان في استطاعة قائدها الكونتيراميرال فيلنوف Villeneuve أن ينتهز الفرصة ليحيط بالبوارج الإنجليزية فإنه ظل جامداً ، وترك البوارج المحصورة عرضة للنار من الجانبين ، فكان جمود فيلنوف من اسباب انتصار نلسن

### بدء الضرب

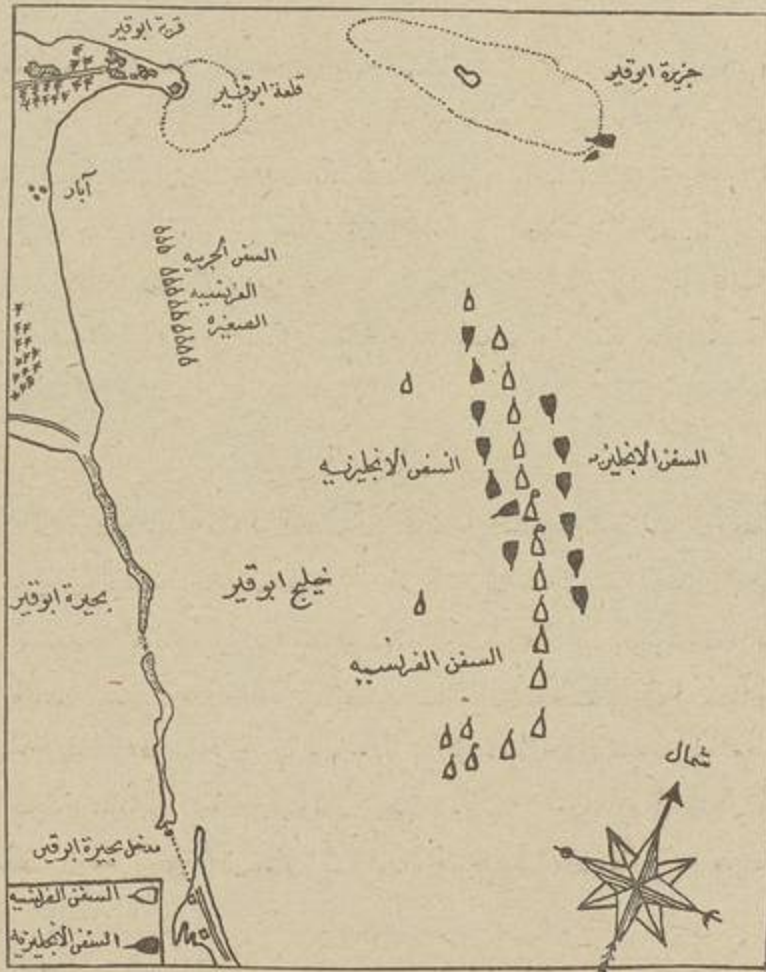
بدأ الضرب في نحو الساعة الخامسة مساءً ، (١) وكان شديداً مروعاً ، فانقلب البحر كأنه بركان من نار أو واد من أودية الجحيم ، وأبدى الفريقان بسالة في القتال ، لكن البوارج الإنجليزية كانت أرسخ في موقفها وأشد إحمكاً في الرمي ، وكانت البارجة (أوريان) بارجة الأميرال برويس هدفاً لنار شديدة ، على أن الأميرال لم يفتأ يصدر الأوامر ويحرض رجاله على القتال ويبدى شجاعة كبرى في قيادة المعركة ، وفي نحو الساعة السابعة مساءً اصيب في رأسه وفي يده ، لكنه استمر في مركز القيادة وضمد جراحه بنفسه

### مقتل الأميرال برويس

إلى أن كانت الساعة الثامنة فأصابته قنبلة مدفع فصلت عن الأيسر وقضت على حياته ، وتولى القيادة بعده الكونتيراميرال فيلنوف ، واستمر الضرب حتى كانت الساعة التاسعة مساءً ، وهناك اضطربت النار في البارجة أوريان وظلت مشتعلة فيها إلى أن اتصلت بمستودع الذخائر ، فانفجر ونسف السفينة نسفاً ، فتطايرت أجزاؤها في الفضاء ومات معظم بحارتها حرقاً وغرقاً ، وكان ذلك في منتصف الساعة الحادية عشرة مساءً ، فساد من الجانبين سكون رهيب لهول الانفجار ، ثم تجدد الضرب بعد نصف ساعة ، وكان الأسطول الفرنسي قد تضعضع بسبب ما حل به من الخسائر

(١) يوجد اختلاف في الرواية عن بدء الضرب ، ففي رواية أخرى أنه بدأ الساعة السادسة مساءً ، على أننا نرجح الرواية الأولى لأن الكاتب الفرنسي فيفان دينون كان وقت المعركة واقفاً على برج أبي مندور جنوبي رشيد عند ابتداء الضرب وسمعه هناك فقال إنه ابتداء الساعة الخامسة مساءً

ولا سيما بعد مقتل أميراله وضياع كبرى بوارجه ، واستمر الضرب إلى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ثم انقطع وخفت وطأته ، ثم تجدد في نحو الساعة الخامسة صبيحة اليوم التالي ( ٢ أغسطس ) ، وانتهت المعركة في نحو الساعة الثانية عشرة ، انتهت بالقضاء على الأسطول الفرنسي ، وانسحب الكونت إميرال فيلنوف بأربع سفن حربية هي البقية الباقية من العمارة الفرنسية ومضى بها قاصداً إلى مالطة ، ولم يتعقبه الأميرال نلسن لما أصاب سفنه من العطب ولما حل برجاله من الإعياء



خريطة واقعة أبو قير البحرية — أول أغسطس سنة ١٧٩٨  
وموقف الأسطولين عند ابتداء القتال

كان الضرب من الجانبين في خلال المعركة شديداً مروعا، وقد سمعه وقتئذ سكان الإسكندرية ورشيد؛ ففي منتصف الساعة السابعة مساء يوم (أول أغسطس) سمع في الإسكندرية قصف المدافع آتيا من أبو قير، فعلم الناس أن معركة هائلة وقعت، في الخليج، واستمر دوى المدافع إلى الساعة العاشرة ليلا، وبعد ذلك سمعوا صوت انفجار البارجة «أوريان»، وشاهد بعض الضباط الفرنسيين في منتصف الساعة الحادية عشرة ليلا لهيب النار يتصاعد في جنح الظلام، وتحققوا في اليوم التالي أنها نار البارجة «أوريان»، ساعة انفجارها، فكان المنظر رهيباً يملأ النفوس فرعاً ورعباً، وانقطع صوت الضرب عقب الانفجار مدة عشرين دقيقة، ثم تجدد بشدة وانقطع ثانية في نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل

وكذلك سمع قصف المدافع في رشيد خلال المعركة ورأى أهلها لهيب النار يخرق ظلمة الليل، فادركوا أن بارجة كبيرة تحترق (وهي البارجة أوريان) وسمعوا دوى انفجارها، وفي اليوم التالي عند آذان الفجر تجدد صوت الضرب، وفي الصباح سمعوا انفجاراً آخر وهو انفجار الفرقاطة لارتميز L'Artemise الفرنسية التي جنحت على الشاطئ، فأمر ربانها بإشعال النار فيها حتى لا تقع في يد الإنجليز

#### خسائر الفرنسيين

فقد الفرنسيون في معركة أبو قير سفنهم الكبرى ولم ينج منها إلا أربع سفن وهي التي فرت من الميدان بقيادة فينلوف أما الباقي فقد دمرت النار بعضها وغرق البعض الآخر، وغنم الإنجليز ست سفن ضموها إلى أسطولهم، فكان انتصار نسلن في موقعة أبو قير ساحقاً لأنه خرج منها وقد حطم الأسطول الفرنسي وزاد عدد أسطوله بما غنمه من السفن الفرنسية، وكانت خسارة الفرنسيين في الأرواح فادحة فقد قتل أميرال الأسطول ومعظم أركان حربه وقتل وغرق من الفرنسيين نحو أربعة آلاف ولم ينج من بحارة الأسطول سوى ثلاثة آلاف، أما الباقون فكانوا في عداد القتلى أو الأسرى، وقد أعاد الإنجليز الأسرى الفرنسيين إلى الإسكندرية تخلصاً من مؤونتهم ومنهم كثير من الجرحى، وخسر الإنجليز ٢١٨ قتيلاً و ٦٧٨ جريحاً وأصبحت بوارجهم بتلف وعطب من شدة الضرب

دامت المعركة طويلاً ، وكان الحظ فيها متايلاً بين الفريقين ، وسر وقت كان الشك في مصيرها عظيماً ، لكن أسباباً ثلاثة عجلت بهزيمة الفرنسيين ، وهي إحاطة الأسطول الإنجليزي بالبورج الأمامية ، واحتراق البارجة « أوريان » ، وجمود الكونتتراميرال فيلنوف ، وقد أصيب الأميرال نلسن بجرح في رأسه وأغمى عليه ، لكن جرحه كان خفيفاً ، ولما زال عنه الإغماء عاد إلى موقفه في القيادة حتى تم له النصر ، وخرج من المعركة رافع الرأس خالد الذكر يحمل لواء البطولة والمجد ويسمى بعض المؤرخين هذه المعركة « معركة النيل البحرية » ،

### رواية الجبرتي عن الواقعة

كتب الجبرتي ما يلي عن واقعة أبو قير :

« وفيه ( ٦ ربيع الأول سنة ١٢١٣ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ ) تواترت الأخبار بحضور عدة مراكب من الإنكليز إلى ثغر اسكندرية ، وأنهم حاربوا مراكب الفرنسيات الراسية بالمينا ، وكانت أشيعت هذه الأخبار قبل وتحدث الناس بها فصعب ذلك على الفرنسيات ، واتفق أن بعض النصارى الشوام نقل عن رجل شريف يسمى السيد أحمد الزرو من أعيان التجار بوكالة الصابون أنه تحدث بذلك ، فأمروا بإحضاره وذكروا له ذلك ، فقال أنا حكيت ما سمعته من فلان النصراني فأحضره أيضاً ، وأمروا بقطع لسانهما ، أو يدفع كل منهما مائة ريال فرانسه نكالا لهما وزجرا عن الفضول فيما لا يعنهما ، فتشفع المشايخ ، فلم يقبلوا ، فقال بعضهم أطلقوهما ونحن نأتيكم بالدرهم ، فلم يرضوا ، فأرسل الشيخ مصطفى الصاوي ( من أعضاء الديوان ) وأحضر مائتي ريال ودفعها في الحضرة ، فلما قبضها الوكيل ردها ثانياً إليه ، وقال فرقها على الفقراء ، فأظهر أنه فرقها كما أشار وردها إلى صاحبها ، فأنكف الناس عن التكلم في شأن ذلك ، والواقع أن الإنكليز حضروا في أثرهم ( أي الفرنسيين ) إلى الثغر وحاربوا مراكبهم فنالوا منهم وأحرقوا القابق الكبير المسمى نصف الدنيا<sup>(١)</sup> وكان به أموالهم وذخائرهم وكان مصفحاً بالنحاس

(١) يريد البارجة « أوريان » ( الشرق ) ولا ندرى لماذا اختار لها الجبرتي هذا الاسم ، =

الأصفر واستمر الإنكليز بمراكبهم بمينا الاسكندرية يبدون ويروحون  
يرصدون الفرنسيين ،

### نتائج المعركة

يوجد في تاريخ الحروب وقائع معدودة امتازت بعظم تأثيرها في مصير الدول  
والشعوب ، ومن هذه الوقائع واقعة أبو قير  
كانت هذه الواقعة أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية ، وظهرت نتائجها  
الخطيرة على مدى الأيام ، فإن فرنسا حينما شرعت في احتلال مصر كانت تعتمد  
على قوتها البحرية في البحر الأبيض المتوسط لإمداد الحملة وحماية المواصلات بينها  
وبين السواحل المصرية ، وكانت تأمل إذا بقيت قوتها البحرية في البحر الأبيض  
سليمة أن تتفاهم مع تركيا بشأن مصر لأن تركيا لم يكن لها سوى سيادة اسمية  
لا أهمية لها ، وكانت من جهة أخرى تؤمل أن يكون اتصالها بمصر بطريق البحر  
بما يسهل عليها اتخاذ وادى النيل قاعدة عسكرية لضرب الانجليز في الهند وإنشاء  
دولة شرقية تحقق أطماع فرنسا ، فلو أن معركة أبو قير انتهت بانتصار الأسطول  
الفرنسي لضمنت فرنسا سيادتها في البحار واستطاعت أن تضرب انجلترا الضربة  
القاضية بل أن تغزوها في جزيرتها

لكن كل هذه الاعتبارات والآمال قد تلاشت في معركة أبو قير إذ قضت  
المعركة على البحرية الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط ، وضمنت لانجلترا السيادة  
على البحار ، وقطعت الاتصال بين فرنسا وسواحل مصر ، وأحيت آمال الدول  
الملكية التي قهرتها فرنسا في ميادين القتال ، فبدأت تتأهب للأخذ بالثأر متشجعة  
بما حل بالأسطول الفرنسي من الدمار . واتهزت انجلترا فرصة انتصارها على ظهر  
البحر لتجتذب إليها الدرل المتوترة ، وانضمت الروسية إلى تلك الدول ، وعقدت

== ولعلها سميت في مصر ( نصف الدنيا ) إشارة إلى عظمها أو إشارة إلى اسمها ( الشرق ) ومن  
الشرف والغرب تتسكون هذه الدنيا ، وظاهر من رواية الجبرتي عن الواقعة أنه لم تصله عنها بيانات  
واثقة وأن الفرنسيين كانوا يتكتمون أخبارها ويتهددون كل من يذبح أنامها كما رأيت ما فعلوه  
مع السيد أحمد الزرو وصاحبه

محالفة جديدة مؤلفة من إنجلترا والنمسا والروسيا وتركيا و نابولي لمحاربة الجمهورية الفرنسية ، وتمكنت إنجلترا من أن تحمل الباب العالي على إعلان الحرب على فرنسا والانضمام إلى روسيا عدوته التاريخيه وفتح البحر الأبيض للبورج والقوات الروسية ، ولم تلبث الحرب أن تجددت بين النمسا وفرنسا ، وانضمت روسيا إلى النمسا ، وقامت الثورة في مالطه ضد الفرنسيين ، وتخرج مركز فرنسا أمام تحالف الدول الملكيه عليها ( التحالف الثاني ) ، فكانت واقعة أبو قير نذيراً بتزلزل مركزها وضياع فتوحاتها في القارة الأوروبية والبحر الأبيض

هذا من الوجهة الدولية ، أما من الوجهة المحلية فقد كانت خسائر الفرنسيين في واقعة أبو قير فادحة ، فقدوا بوارجهم الحربية الكبرى ، وفقدوا معظم ضباط و بحارة هذه البوارج بين قتيل وغريق

وكان وقعها في نفوس الجنود من الجيش الفرنسي ألماً ساحقاً ، لأنهم أدركوا أن المواصلات قد انقطعت بينهم وبين فرنسا وأنهم أصبحوا شبه منفيين في القارة الإفريقية ، وكان وقع الكارثة أشد على جنود الإسكندرية ورشيد والسواحل القريبة من مكان الواقعة ، فانهم شهدوا عن كسب آثار الكارثة ، فكانوا يرون المستشفيات غاصة بالبحارة المصابين الذين مزقت القنابل أجسامهم ، ويرون على الشاطئ بقايا العمارة المتحطمة وأشلاء الجثث التي كانت تقذفها الأمواج إلى البر ، ويشهدون في عرض البحر البوارج الإنجليزية تخرج عباب اليم فتلقى الرعب في قلوبهم

أثرت كل هذه المشاهد في روح الجنود المعنوية . فأخذت قواهم تضعف ونفوسهم تياس وعزائمهم تخور ، وكان من نتائج الواقعة انها ضعفت هيبة فرنسا في جهات الإسكندرية ورشيد والبحيرة وشجعت أهلها على الثورة ، وأخذ الأسطول الإنجليزي بعد انتصاره في تلك المعركة يشدد الحصار على الشواطئ . فقطع كل المواصلات التجارية التي كانت مصدر ثروة الإسكندرية ، ونضب معين الجمارك فضاقت الحال واشتد الكرب بأهل الإسكندرية وزاد سخطهم على الاحتلال الفرنسي ، وكان الفرنسيون يتوقعون في كل وقت أن ينزل الإنجليز قوات إلى الشاطئ . فيوقعوا الفرنسيين في الخطر وبخاصة إذا اتصلوا بالأهالي الذين كانوا على استعداد للثورة

كتب كليبر إلى نابليون بتاريخ ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ رسالة طويلة يشكو فيها حرج مركزه قال فيها : « إن مركزى هنا حرج عسير ولا سبيل لى إلى معرفة خطتكم ونهجمكم ، وإنى مضطر أن أواجه الحالة كما لو كنت أتلقى تعليانكم ، إن الإنجليز يستطيعون أن يضربوا المدينة بالقنابل وأن يقتحموا الشجر دون أن يخشوا مقاومة ، إن لدينا بطاريات تحمى الثغر ولمكن وسائلنا محدودة بالنسبة لمجهودات العدو الذى يظهر أنه مصمم على سحقنا ولوضحى فى سبيل ذلك أسطوله بأكمله ، ومن الواجب أن توجهاو اعنائتكم لضمان المواصلات بطريق البر ، ومن رأى أن كتيبة الجنرال ديموى لا تغنى بل لا تعد شيئاً بركن اليه فى تحقيق هذا الغرض ،

وكتب له رسالة أخرى يقول فيها : « لم تصانى كلبية منك منذ خمسة وثلاثين يوماً ، إن وجودكم هنا ضرورى لرفع المستوى المعنوى للجنود ، فإن كثيراً من الإشاعات تنتشر عن مركز الجيش وإنى أعمل فى إحباطها بقوة ولكن أخشى أن تترك أثراً فى النفوس فوجودكم يردُّ إلى الجنود طمأنينتهم ،

على أن نابليون قد محاً بتأثيره السحري أثر اليأس الذى تسرب إلى نفوس الجنود ، وشدد عزائمهم ، ونفخ فيهم روح الإقدام والبسالة ، وقابل الكارثة برباطة جأش ردت إلى الجنود قوتهم المعنوية ، واستمر فى مشاريعه يديرها وينفذها كأن لم يحدث حادث ولم يقع مصاب ، وكتب إلى كليبر يقول : « إن ما حدث سيضطرننا أن نعمل أعمالاً أعظم مما كان فى حساباتنا ،

وأخذ كليبر من جهته يواجه الكارثة بجلد وثبات ، وجمع فلول البحارة الذين نجوا من الهلاك وعددهم نحو ثلاثة آلاف ، فأنشأ منهم فرقة جديدة سميت «الفرقة البحرية» ، وكلف نابليون الأميرال جانتوم بأن يجمع بقايا السفن السليمة وينظمها من جديد على أن يكون قومنداناً لها ، وأوفد الجنرال مارمون إلى الإسكندرية لتحصين السواحل وحمايتها من هجمات السفن الانجليزية

### ديوان الإسكندرية

رأى الجنرال كليبر أن يستميل الأهالى ويتبع حياهم طريق المسالمة لأنه شاهد بنفسه ولاسيما بعد كارثة الأسطول الفرنسى أن هوة الخلاف تزداد اتساعاً بين

الفرنسيين والمصريين ، فأنشأ في الاسكندرية ( ديوانا ) على مثال ديوان القاهرة ،  
وعين لرأسه الشيخ محمد المسيرى ، وأصدر بذلك منشوراً إلى الاسكندريين في ٢١  
أغسطس سنة ١٧٩٨ ، فديوان الاسكندرية لم يؤسس كما ترى إلا عقب واقعة  
( أبو قير ) ، وكان كليبر هو مؤسسه

إن أغلب المؤرخين يذكرون أن نابليون هو الذى أسس الديوان بالاسكندرية ،  
وهذا خطأ كما ترى ، وقد جاء فى يوميات الجنرال كليبر بتاريخ ٤ فركتيدور  
( ٢١ أغسطس ) : « فى هذا اليوم أنشأ الجنرال كليبر ديوانا فى الاسكندرية مع أنه  
لم تصله تعليمات من القائد العام فى هذا الشأن وكان لا يعلم إذا كان القائد العام يريد  
إنشاءه ، على أنه أسسه حتى يقاوم دسائس الانجليز فى المدينة ، وما جاء فى  
يوميات كليبر من أنه لم تصله تعليمات نابليون فى شأن إنشاء الديوان فيه شئ من  
التجاوز ، لأن نابليون أرسل إلى كليبر فى ٢٨ و ٣٠ يوليه سنة ١٧٩٨ ( مراسلات  
نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٠ ) يأمره بتأسيس ديوان الاسكندرية طبقاً  
للنظام الذى رسمه لدواوين الأقاليم ، وهذه الرسالة تنفى أن كليبر أسس الديوان من  
تلقاه نفسه ، وتنفى كذلك ما زعمه أغلب المؤرخين من أن نابليون هو الذى أسس  
ديوان الاسكندرية أثناء إقامته بها وقبل رحيله عنها ، لأنه غادرها يوم ٧ يوليه ،  
ولم يصدر أمره بإنشاء دواوين الأقاليم — ومنها ديوان الاسكندرية — إلا فى ٢٧  
يوليه كما تقدم الكلام عن ذلك ( ص ١٠٠ ) وكان وقتئذ بالقاهرة

### الشيخ محمد المسيرى

قلنا إن الشيخ محمد المسيرى عين رئيساً لديوان الاسكندرية ، والشيخ المسيرى  
هذا كان كبير علماء الاسكندرية فى ذلك العصر ، وكان ابنه معتمداً مع الأهالى الذين  
قبض عليهم عقب مقتل الجندى الفرنسى فى المدينة ( انظر ص ١٧٩ ) ثم أفرج عنه  
بعد محاكمة القاتل ، وكان الشيخ تقياً ورعاً ، يؤثر العدالة والاستقامة ، وما يذكر  
عنه فى هذا الصدد ما جاء فى يوميات الجنرال كليبر أنه أوصى أعضاء الديوان الذى



أسسه بالنزاهة في عملهم والابتعاد عن الطمع في أموال الناس ، فاجاب الشيخ المسيرى محتجاً بأنه إذا لاحظ على أى من أعضاء الديوان أنه يبسط يده في أموال الناس فهو يعتزل لفوره رأسه الديوان ، فطلب منه كليبر أن يكتب بتبليغه الأمر دون أن يعتزل حتى لا يحرم قومه ولا يحرم الأفرنج خدمته وعمله ، فهذا يدل على مكانة الشيخ المسيرى في نفوس الشعب ، وما كان له من الاحترام عند المصريين والأفرنج ، ويدل على منزلته عند نابليون أنه كتب إلى الجنرال مارمون في ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ (١) يطلب إليه أن يذهب لمقابلة الشيخ المسيرى ويبلغه بالنيابة عنه كيف احتفل بالمولد النبوى بالقاهرة ، قال في رسالته : « وأبلغه عنى أنى أجمع مع كبار المشايخ ورؤساء الأشراف بالقاهرة بين حين وآخر ، وأنه لا يوجد أكثر منى اعتقاداً بطهارة و قدسية الدين الإسلامى (٢) » ، وكتب نابليون إلى الشيخ المسيرى رسالة من القاهرة يقول فيها : « لقد سر فى ما علمته من الجنرال كليبر عن مسلككم ، وإنك تعلم مبلغ احترامى لك منذ عرفتك وأنعمش أن يجىء الوقت الذى أستطيع أن أجمع عقلاء البلاد وعلماءها وأن أضع نظاماً موحداً مؤسساً على مبادئ القرآن ، تلك المبادئ الصحيحة التى تكفل للناس سعادتهم (٣) » ،

### بين كليبر و نابليون

وأخذ كليبر يختلف بالزيارة إلى محافظ المدينة ورئيس الديوان ويتودد إليهما ، ودعاهما مع أعضاء الديوان إلى مأدبة عنده لإحكام الروابط الود معهم ، كما أنه عين مرتبات شهرية لسكل من المحافظ وأعضاء الديوان وفرقة الشرطة

وظفق يرأسل بعض رؤساء العشائر فى دمنهور ليستميلهم إلى جانبه بالحسنى ويأخذ منهم عهداً بالولاء ، وكان يرى تنظيم مديرية البحيرة على قاعدة اعتبار البلاد السكائنة بين الاسكندرية ودمنهور وشابور ورشيد مديرية واحدة تدخل

(٢١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣١٤٧

(٣) مراسلات نابليون وثيقة رقم ٣١٤٨

فها هذه المدن وتخصص لها قوة من ثلاثة آلاف جندي وبذلك يمكن تنظيم جباية الأموال بطريقة تكفل نفقات الجيش والإدارة (١)

وكان كليبر شديد الرغبة في أن لا يرهق أهالي الاسكندرية بضريبة جديدة أو سلفة إجبارية تزيد في ضيقهم ، فاختلف هو ونابليون من هذه الوجهة لأن نابليون كتب إليه بضرورة فرض ضريبة جديدة لسد نفقات الجيش وتقوية معدات الدفاع عن الاسكندرية وترميم بعض البوارج البحرية التي نجت من كارثة أبوقير ، لكن كليبر أصر على رأيه وكتب إلى نابليون يقول إن طريقة المصادرة تؤول إلى حدوث مجاعة وفتنة في المدينة

وكان كليبر يرى أن ليس من الحكمة في الوقت الذي بدأ فيه يتوودد إلى الأهالي بإنشاء الديوان والمخابرة مع زعماء العشائر في دمنهور لإعادة الصفاء أن يثير سخط أهالي الاسكندرية بفرض ضريبة جديدة ، وكان من جهة أخرى لا يرى رأى نابليون في الاهتمام بإحياء القوة البحرية الفرنسية ، لأن هذه القوة محكوم عليها بالفشل مهما أنفق عليها ، فاستاء نابليون من رد أوامره ، ولا سيما في فرض ضريبة جديدة على تجار الاسكندرية ، وكتب إليه في أول سبتمبر يعاتبه ويأمره بفرض الضريبة ، فطلب كليبر من نابليون إقالته من وظيفته بالاسكندرية وإلحاقه بفرقة ، واعتذر بعدم اضطراره بالوظائف الإدارية ورشح الجنرال دوجا ليخلفه ، على أن نابليون كان يعرف مقدرة كليبر ومميزاته ، فلم يشأ أن يحرم مساعدته ، ورجا منه بإلحاح أن يبقى في مركزه ، وكتب له كتاباً يعرب له فيه عن تقديره لمواهبه ويسترضيه عما فرط منه في عبارات عتابه ، فتأثر الجنرال كليبر من لهجة الود والاحترام التي خاطبه بها نابليون ، وأذعن لرغبة القائد العام (٢) وكتب له يرجو مقابلته في القاهرة وسافر كليبر من الاسكندرية لهذا الغرض فوصل إلى القاهرة حين نشوب الثورة فيها

(١) رسالة كليبر إلى نابليون ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٨

(٢) سنعود تفصيلاً إلى هذا الموضوع في مراسلات نابليون وكليبر بالفصل السادس من الجزء الثاني

وكانت الحال في الاسكندرية تزداد حرجاً بسبب تضيق الإنجليز للحصار البحري المضروب على الثغر ، وقد بذل كبير ما في وسعه لتخفيف وطأته ، ولكن الانجليز شددوا نطاق الحصار فأسروا في يوم واحد ( ٨ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ) ٣٨ سفينة أحرقوا منها ٢٨ سفينة وأعادوا بحارتها إلى البر

### الجنرال مارمون في الإسكندرية

تولى الجنرال مانسكور Manscourt قومندانية الاسكندرية عقب سفر كبير إلى القاهرة ، لكنه لم يلبث أن استدعاه نابليون لما ظهر له من عجزه ، وعين الجنرال مارمون قومنداناً لها (١) ، وظل في هذا المركز إلى أن رحل مع نابليون إلى فرنسا في أغسطس سنة ١٧٩٩

وقد أبدى مارمون حزمًا في الاضطلاع بأعباء مركزه ، ولكن صادفته صعوبات كبيرة ، أهمها ظهور الطاعون في الاسكندرية ، فقد كان لظهوره وضرورة حصره في الثغر أثر شديد في صعوبة المواصلات بين الاسكندرية وباقي بلاد القطر المهري ، فاشتد الضيق بالاسكندرية وبأهلها

اهتم الجنرال مارمون بتحسين الاسكندرية ، وتولى الكولونل كريتان Cretin إنشاء قلعتين لصد هجمات البوارج الانجليزية ، القلعة الأولى بكوم الدكة ، والقلعة الأخرى بكوم الناضورة

وقد سميت القلعة الأولى باسم قلعة كريتان تخليداً لاسم بانها الكولونل كريتان الذي قتل في معركة أبو قير البرية كما سيجيء بيانه في الفصل الرابع من الجزء الثاني وسميت القلعة الثانية قلعة كافر يلى تذكاراً لاسم الجنرال كافر يلى الذي قتل في حصار عكا

---

(١) أمر نابليون الصادر في ٢٨ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، والجنرال مارمون كان من قواد فرقة الجنرال بون ، وهو الذي اقتحم باب رشيد يوم احتلال الإسكندرية

ونصب الفرنسيون المدافع في قلعة قايتباي وفي قلعة أبو قير، وبنوا قلعة  
بجزيرة العجمي مكان البرج القديم الذي كان بها، ووضعوا المدافع على مدخل الميناء  
في نهاية شبه جزيرة رأس التين

وقد بقيت قلعتا كافريللي وكريتان إلى عهد محمد علي باشا، وشاهدتهما الجنرال  
مارمون حينما زار الاسكندرية سنة ١٨٣٥، ويقول في رحلته (١) إنه ألفاهما كما  
كانتا في عهد الحملة الفرنسية وإن محمد علي حافظ عليهما (والصحيح أنه رممهما ووجد  
ماتخرب من بنائهما) ويقول أيضا إن محمد علي رمم سور المدينة وأصلح أبراجه  
وركب فيه المدافع وجعل الاسكندرية في حالة منيعة من الدفاع

---

(١) رحلة المارشال الدوق دي راجوز (الجنرال مارمون) الجزء الثالث

## الفصل التاسع

### في رشيد

رشيد هي الآن مركز من مراكز مديرية البحيرة ، لكنها في عصر الحملة الفرنسية وقبلها كانت مديرية قائمة بذاتها وموقعاً حربياً وتجارياً على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أنها مفتاح النيل (فرع رشيد) على البحر الأبيض المتوسط ، وطريق المواصلات النيلية إلى داخلية البلاد ، وزادت أهميتها بعد طمر ترعة الاسكندرية التي كانت تصل الاسكندرية بالنيل (١) فقد كانت هذه الترعة طريق الملاحة بين الاسكندرية والقاهرة وسائر بلاد الوجه البحرى ، فلما طمرت في عصر المماليك بسبب إهمالها صارت المواصلات بين الاسكندرية والقاهرة عن طريق رشيد (٢) ، فكانت المراكب تنقل البضائع من الاسكندرية إلى رشيد وتنزل النيل أو تفرغ شحنتها في مراكب أخرى حتى تصل إلى القاهرة ، وصارت رشيد مركزاً تجارياً عظيماً يلتقى بها جزء كبير من صادرات الدلتا وواردات أوروبا والأناضول ، وكان عدد سكانها يبلغ ١٣٠٠٠ نسمة في حين أن الاسكندرية لم يكن بها سوى عمانية آلاف ، وكان لها في نظر نابليون أهمية حربية كبرى ، لأنها صلة الاتصال للجيش الفرنسى ، وذلك أن المواصلات البرية كانت مهددة من جانب الأهالى في داخل البلاد ، فاختر الفرنسيون طريق النيل للاتصال بين القاهرة والاسكندرية ، فكانت رشيد من هذه الواجهة موقعاً حربياً عظيماً الأهمية ، لذلك بادر نابليون وهو بعد في الاسكندرية فأوفد إليها الجنرال دوجا لاحتلالها

(١) أظن الكلام عنها في الفصل الخامس

(٢) كتب المسبوق دى مايبه De Maillet فنصل فرنسا في مصر في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر في رسائله (وصف مصر) يقول أنه لما جاء مصر سنة ١٦٩٢ كانت ترعة الاسكندرية قد طمرت الرمال منذ خمس وعشرين أو ثلاثون سنة فكانت جافة في زمن الشتاء ولم تكن المراكب تسير بها قط حتى وقت القبضان وان هذه الحالة قد اكتسبت رشيد مكانة كبيرة في ذلك العصر

## احتلال رشيد

سار الجنرال دوجا من الاسكندرية براً ، واحتل في طريقه قرية أبو قير وقاعتها ، ثم احتل رشيد يوم ٦ يوليه سنة ١٧٩٨ ، ولحق به بجرأ أسطول من السفن المدفعية الخفيفة بقيادة الكونت اميرال بيرى Perrée واجتاز بوغاز رشيد ليكون تحت تصرف الجيش الفرنسى

لم يلق الجنرال دوجا مقاومة في رشيد ، ويقول المسيو دفيلييه أحد مهندسى الحملة الفرنسية (١) تعليلاً لذلك ، انه ذهب إلى رشيد بعد احتلالها فعلم أن تسليمها راجع إلى المنشورات التى أذاعها نابليون فى البلاد يوم نزوله الاسكندرية وحملها إلى الأهالى الأسرى المسلمون الذين فك الفرنسيون إسارهم من ماله و جاؤا بهم إلى مصر ، قال وكان أهالى رشيد قبل اطلاعهم على هذه المنشورات عازمين على قتل الأورويين ، فلما اطلعوا عليها رجعوا عن عزيمتهم

• كانت مهمة الجنرال دوجا بعد احتلال رشيد أن ينزل النيل بفرقة ليلتقى بباقى الفرق فى الرحمانية ، فلم يمكث برشيد أكثر من ٢٤ ساعة ، وتركها حامية من ماتى جندى بقيادة الضابط سان فوست Saint Faust استقرت بالمدينة فى انتظار قدوم الجنرال منو Menou الذى عينه نابليون حاكماً لرشيد ، وكان الحكام المماليك قد هربوا منها منذ علموا بنبأ احتلال الاسكندرية ، نقلت المدينة من حكومة تقوم على حراسة الأمن ، لكن الأهالى أنفسهم مدفوعين بفطرتهم السلمية أقاموا من بينهم حكومة أهلية اختاروا لها ثلاثة من خيارهم وأحلوه محل حكاهم الأقدمين ، فلما وصل الجنرال منو (٢) عمل بواصايا نابليون فى احترام العلماء والكبراء ، ولم تكن القوة التى تحت قيادته تزيد عن أربعائة رجل ، ومع ان أهل رشيد كانوا أسلس قياداً من أهل الاسكندرية فقد طلب الجنرال منو ان يمده كبير بقوة أخرى من الجنود ، وأوضح فى طلبه (٣) أن العرب يزعمونه على الدوام

(١) فى كتابه « يوميات وذكريات عن حملة مصر »

(٢) يوم ١٢ يوليه سنة ١٧٩٨

(٣) بتاريخ ٢٠ يوليه سنة ١٧٩٨

وأن الأهالي لم يخلدوا إلى الطاعة ولذلك فهو يشكو من قلة عدد الحامية ، وقد أجاته الحاجة لتموين الجيش إلى فرض الضرائب على الأهاليين ، فثار كامن سخطهم ، وبالرغم من مناعة مركز الحامية الفرنسية في المدينة فإن سلطة الفرنسيين لم تتجاوز ضواحيها ، يتبين ذلك من الحادثة الآتية :

أوفد الجنرال كليبر ياوره الكولونل داماس Damas برسالة إلى نابليون ، فسافر الرول من الاسكندرية إلى رشيد ، وهناك التقى بالجنرال منو ، فأعد له سفينة انحدربها في النيل يو ١٦ يوليه سنة ١٧٩٨ ليصل إلى القاهرة ، لكنه لم يسكد ببتعد عن المدينة حتى هاجمه اهالي مطوبس وادفينا فاضطر أن يعود أدراجه إلى رشيد (١) تم أعاد الكرة ثانية ، ولكن لم يسكد يتجاوزها بأثني عشر فرسخاً حتى أطلق الفلاحون على سفينته الرصاص من جانبي النيل فاضطروه إلى الرجوع مرة أخرى (٢)

كانت مهمة الجنرال (منو) في رشيد دقيقة ؛ فقد كان مطلوباً منه أن يحمي البوغاز من غارات الأسطول الإنجليزي ، ويحمي مواصلات الجيش بالاسكندرية عن طريق فرع رشيد ، ويتولى الإدارة المدنية لمنطقة رشيد ، ويخضع حركات التمرد والهياج التي كانت تظهر فيها ، وقد زاد مركز (منو) حرجاً بعد واقعة (أبو قير) لأن رشيد من أول المدن التي علمت بكارثة الأسطول الفرنسي في خليج أبو قير وأولها تأثراً من وقوعها ، فأخذت روح المقاومة تقوى في نفوس الأهالي ، كتب الجنرال (منو) إلى نابليون في هذا الصدد بتاريخ ٤ أغسطس يقول :

د لا أكلمكم عن نكبة أسطولنا ، وحسبي أن أقول إنها فظيعة ، وليس لدى للآن تفصيلات عنها لصعوبة المواصلات بين رشيد وأبو قير بطريق البر ، وصعوبة الخروج من البوغاز إلى البحر ، ولا أدري مبلغ تأثيرها في نفوس أهالي البلاد ، على أني من جهتي سأبذل كل ما في وسعي لتخفيف أثرها وسأستعمل مع الأهالي سياسة

(١) خطاب منو إلى كليبر في ٢٣ يوليه سنة ١٧٩٨

(٢) يوميات أركان حرب الجنرال كليبر بتاريخ ٢٥ يوليه سنة ١٧٩٨



أضرام الفرنسيين النار في السالمة سنة ١٧٩٨ ع انظر ص ٢٤١  
( نقلا عن مجموعة رسوم المسيو فيغان ديتون )



اللين والمجاملة والتودد ، مع الحكمة والحزم ، وبالجملة فإن أهالي هذه الجهة متصفون بالوداعة لكنهم على جانب من الدهاء والمكر ،

وكتب في اليوم نفسه رسالة أخرى إلى الجنرال برتنيه يشكو فيها من مقامه في رشيد ويقول : « إن الذي يهمني بالذات أن لا أبقى هنا طويلاً فإنك تشعر أني أؤثر مائة مرة أن أكون على رأس فرقتي على أن أدفن في هذه المدينة ، إني حضرت إلى مصر لا كسب الفخر أو أموت فيها ، لا لأجمع الضرائب ،

### حادثة السالمية

على أن الجنرال (منو) لم يكن معروفاً بالحكمة ولا بحسن السياسة ، فإنه في الوقت الذي كان يعد بمعاملة الأهالي باللين والتودد قد استعمل الغلظة والفظاظة مع أهالي السالمية ، الواقعة على الشاطئ الأيمن من النيل ( بمركز فوه الآن ) عقاباً لهم على مهاجمتهم شردمة من الجنود أرسلها منو إلى نابليون تحمل إليه البريد ، فقتلوا ثمانية من هؤلاء الجنود ، مضى على هذه الحادثة شهر ، وانتقل (منو) إلى القرية التي اتهمت بأن المهاجمين منها ، فأمر بقتل كل من يحمل السلاح فيها ومصادرة مواشيتها ، ثم أضرم النار في القرية

كتب منو إلى كليبر بتاريخ ١٣ أغسطس يقول : « لقد قتت هذا اليوم بجولة لمعاقبة قرية قتلت بعض الفرنسيين فأحرقت القرية وقتلت تسعة من الأهالي ، وسيعتبرون بهذا الدرس كما يعتبر به أهالي وادي النيل ، وقال في آخر رسالته هذه : « إن مركزه في المدينة دقيق لأن القوة التي لديه قرابة ستمائة جندي وليسوا جميعاً في الخدمة وهذا العدد لا يكفي للدفاع عن المدينة ، والعرب يناوشونها كل يوم ،

وقد أصدر منو لمناسبة هذا التشكيل منشوراً عن هذه الواقعة موجهاً إلى الأهالي الساكنين على شاطئ النيل من رشيد وفوه والقرى الواقعة ما بين رشيد وأبوقير ومن أبوقير إلى الرحمانية ، وهذا المنشور يصف ما أوقعه من العقاب بأهالي السالمية وشيخهم الشيخ سلامة العقدة ، ويتهدد البلاد بمثل هذا العقاب إن وقع اعتداء على الجنود الفرنسيين

وقد زاد في استياء الأهالي كثرة الضرائب التي كان الفرنسيين يبتزونها بالقهر

والقوة

وكان الجنرال (منو) يخشى عقب كارثة (أبوقير) البحرية أن يفكر الانجليز في إنزال قوة إلى البر ، ولكن تحقق له بعد ذلك أن هذا المشروع ليس في برناجهم ، فاطمأن نوعاً على مركزه في رشيد ، وأخذ يجتهد في توطيد مكائنه بين الأهالي بالتودد إليهم ، ولكنه لم يوفق إلى كسب قلوب الناس ، فكانت الحوادث تصدمه كلما ظن أنه وطم مركزه ، وكان من هذه الوجهة قليل الاحتياط والحذر منخدعاً في الظواهر

ومن هذه الحوادث حادثة شباس عمير

#### حادثة شباس عمير

ومحصّل هذه الحادثة أن الجنرال منو أراد أن يجوب شمال الدلتا ، ويرود بعض جهاتها ، فاصطحب معه الجنرال مارمون وبعض أعضاء لجنة العلوم والفنون منهم دينون ودلوميو (١) وبعض الضباط في كتيبة من الجنود تبلغ ٢٠٠ جندي

غادرت الكتيبة رشيد يوم ١٢ سبتمبر ، فوصلت إلى برنبال في اليوم نفسه ثم في يوم ١٣ إلى مطويس ثم في يوم ١٤ إلى فوه ثم إلى دسوق يوم ١٥

ووصل منو يوم ١٦ إلى حدود مديرية رشيد وعاد إلى دسوق ، ثم عزم على أن يكتشف شمال الدلتا ويصل إلى البرلس ، فوصل إلى سنهور المدينة ، وكانت الرحلة حتى هذه القرية هادئة لم يتخللها حادث أو مصادمة ، بيد أنه لم يكد يصل إلى شباس عمير حتى اصدمت الكتيبة بمقاومة عنيفة من الأهالي

كان الجنرال منو يتقدم الكتيبة ومعه الجنرال مارمون والمسيو فيفان دينون والمسيو دلوميو والرسام جولى ، وبعض الحاشية وترجمان ، فلم تكد تقترب هذه الطليعة من شباس عمير حتى أطلق عليهم الرصاص فاضطروا إلى التراجع ليصلوا بالكتيبة ، ولكن أحد رفقاء الجنرال منو وهو الفنان جولى لم يستطع اللحاق بهم

(١) تكلمنا عنها ص ١٢٨ و ١٣٥

وعجز عن المسير ، فتركه إخوانه وقتله الأهالي  
قصدت الكتيبة إلى كفر شباس عمير ، وكانت محصنة بسور عال يحيط بها ،  
وبهذا السور أبراج حصينه كان يحتلها الأهالي ويطلقون منها النار ، فاقتمت  
الكتيبة الفرنسية هذا السور . فلم يجد الأهالي بداً من إخلاء الأبراج ماعدا برجاً  
واحداً امتنع المدافعون عنه وأخذوا يطلقون النار على الجنود الفرنسيين وأصاب  
رصاصه جواد الجنرال منو ، فخرّ قتيلاً ، فأدرك خطورة الموقف ، وكان رجال  
البرج مستمرين على إطلاق الرصاص ، فرأى من المجازفة الاقتراب منه ، فأمر  
بإضرام النار في القرية ، وكان الليل قد أقبل وجاء كثير من سكان القرى المجاورة  
لإنقاذ إخوانهم ، فأمر منو جنوده بإطلاق الرصاص في الظلام لمقاومة المهاجمين ،  
واندلعت النيران في القرية كلها ، فاضطر الأهالي المدافعون عن البرج إلى إخلائه ،  
وكانت الجموع قد تكاثرت حول القرية حتى بلغ عددهم من ألفين إلى ثلاثة آلاف  
من الفلاحين ، فاضطر الجنرال منو إلى الانسحاب وعاد بكتيبته إلى سنهور المدينة  
ثم إلى دسوق ، بعد أن فقد بعض القتلى وتسعة عشر جريحاً ، ثم قفل راجعاً إلى رشيد  
بعد أن عدل عن متابعة اكتشافه ، وكان غرضه الوصول إلى البرلس ؛ فعاقته هذه  
الحادثة ، وكتب إلى نابليون ينبئه بخبرها ويذكر له ضمن رسالته أن التوغل في  
هذه الجهات أمر محفوف بالمخاطر لأن معظم القرى في تلك البلاد محصنة ولأن  
إخضاعها يستلزم قوة من سبعمائة إلى ثمانمائة جندي مسلحين بالمدافع  
وكتب في هذا الصدد إلى الجنرال برتنيه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية  
يعترف بأنه كان مخدوعاً في رحلته هذه وكان متأثراً من المقابلة الحسنة التي قوبل بها  
في بعض القرى ولكن هذه الحادثة جعلته أكثر احتراساً ، فلا يأخذ الأمور  
بظواهرها إن كان يظن إلا ظناً

## الفصل العاشر

### عود إلى البحيرة ورشيد

#### الاضطرابات في البحيرة

عرف القارىء ما حل بقوة الجنرال ديموى Dumoy من الهزيمة (١) وقد أوردنا ذلك في الفصل الخامس لارتباطه بحوادث الاسكندرية

رأى الجنرال كليبر وقتئذ أن مثل هذه الكتيبة لا تستطيع أن تخضع إقليماً كبيراً كالبحيرة ولا سيما القسم الشمالى منه المتصل بالاسكندرية ، وأن الاضطرابات فيه لا تؤدى إلى قطع مواصلات الجيش فحسب ، بل تفضى إلى تهديد الاسكندرية برأ ، وحرمانها الماء الذى يرد إليها من ترعة الاسكندرية (ترعة المحمودية الآن) ، فكتب إلى نابليون فى ٣١ يولييه سنة ١٧٩٨ يخبره أنه من الضرورى وضع حاميات قوية من المشاة والفرسان فى دمنهور والسكريون مسلحة بمدافع الخفيفة لتزود جوانب الترعة ، قال كليبر فى رسالته : د من العبث أن نعتمد على كتيبة الجنرال ديموى ، ومن الواجب تخصيص فرقة من الجنود لتوطيد النظام فى المثلث السكائن بين البحر والنيل وترعة الاسكندرية ، وحماية المواصلات البرية فى إقليم البحيرة ،

وكان الأهالى لا ينفكون يقطعون ترعة الإسكندرية ليمنعوا وصول المياه إلى الشجر ، فقامت كتيبة من ستمائة من الجنود وحاصرت بلدة بركة غطاس وأحرقتها ونهبها

وقد سبق القول أن نابليون كان شديد الاهتمام بهذه الترعة لأنها جزء من طريق المواصلات المأمون الذى اختاره بين الاسكندرية والقاهرة ، وزاد اهتمامه

بها بعد واقعة ( أبوقير ) ، ذلك أن الفرنسيين لم يكن في مقدورهم بعد أن ضاعت  
عمارتهم البحرية أن يسلكوا طريق البحر من الاسكندرية إلى رشيد فالنيل ، كما أن  
المواصلات البرية كانت شاقة ومعرصة لهجمات الأهالي ، فلم يكن أمام الفرنسيين  
إلا جعل ترعة الاسكندرية صالحة للمواصلات النيلية ، وقد عهد نابليون إلى بعض  
مهندسي الحملة الفرنسية في إنفاذ هذا المشروع (١)

عزم نابليون على مقاومة الاضطرابات في مديرية البحيرة وبخاصة بعد هزيمة  
الجنرال ديموى ، فعين الأدميرال جنرال بيرب Birbes قومنداناً لها وأصدر إليه  
تعليماته وأهمها أن يأخذ أهل دمنهور أخذاً شديداً بمسلكهم إزاء كتية الجنرال  
ديموى وأمره بالسير من القاهرة إلى الرحمانية ومن هذه إلى دمنهور إنفاذاً  
لمهمته بها وهي تجريد الأهالي من السلاح وإعدام خمسة من أعيان المدينة فيهم  
واحد من العلماء ممن اشتركوا في الواقعة والأربعة الآخرون من المحرضين ،  
واعتقال خمسة وعشرين رجلاً يأخذهم رهائن فيرسلهم إلى القاهرة بطريق النيل ،  
وأن يعود بعد ذلك إلى الرحمانية إذ عزم نابليون على جعلها عاصمة مديرية  
البحيرة (٢)

### مهمة الجنرال مارمون

على أن قوات الجنرال بيرب والجنرال ديموى لم تكن كافية لقمع الهياج في البحيرة  
ولا سيما بعد واقعة ( أبوقير ) التي أضعفت هيبة النفوذ الفرنسي في تلك الجهات ،  
فعهد نابليون إلى الجنرال مارمون Marmont إخضاع القسم الشمالي منها ، وتأمرين

(١) جاء في مذكرة نابليون التي أملاها على الجنرال برتران Bertrand في سانت هيلين أن  
ترعة الاسكندرية هي أهم ترعة في مصر من الوجهتين الاقتصادية والحربية ، وقد وضع السيلولوير  
Le Père كبير مهندسي الري في عهد الحملة الفرنسية مشروعاً لجعل هذه الترعة صالحة للفلاحة ، ولكن  
المشروع لم ينفذ ، وظلت الاسكندرية في عزلة عن المواصلات النيلية إلى أن أمر محمد علي باشا  
بإنشاء ترعة الحمودية مكانها

(٢) كانت الرحمانية موقفاً حربية على جانب كبير من الأهمية لوجودها على فتحة ترعة  
الاسكندرية ، فأقام الفرنسيون فيها قلعة ومستودعاً لمئات الجيش ، على أن نابليون بعد أن جعلها  
وقفاً حاضرة البحيرة عاد وجعل دمنهور حاضرتها

مواصلات الجيش بطريق ترعة الاسكندرية والنيل ، وحماية شواطئ البحر من هجمات السفن البريطانية وتحصين المواقع التي يحتمل أن تنزل بها الجنود الانجليزية من جهة العجمي ( غربى الإسكندرية ) إلى رشيد ، وتحصين بوغاز رشيد وبوغاز البراس (١) تلقى مارمون تعليمات نابليون بعد عودته من حادثة شباس عمير (٢) وكانت تعليماته تنطوي على القسوة والفظاعة فقد كتب له يقول :

« إنكم ستجدون تحت قيادتكم قوة من ١٥٠٠ جندي ، فهذه القوة ونشاطكم وكفائتكم تستطيعون أن تكسبوا غزاً جديداً وتقديرأ عاماً لخدماتكم ، فكونوا ليل نهار على تمام الأبهة ، وأغلظوا العقاب للقرى بصرامة وقسوة ،

صدع مارمون بالأمر ، فوصل إلى الرحمانية يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وسار في تاليه قاصداً إلى دمهور ، وراد شواطئ ترعة الإسكندرية حتى بلغ الثغرو أصلح ماخر به الأهالي ، وأقام المخافر العسكرية على الترعة وترك ألنى جندى لحراستها وجعل الرحمانية مركزاً رئيسياً للقوات المخصصة لهذه الحراسة . ومركزاً آخر بالقرب من العكر يشة ، عدا المخافر التي أنشأها على جانبي الترعة ، والسرايا ( الدوريات ) المسلحة التي أقامها لحراستها

تمكن الجنرال مارمون من إصلاح الترعة وتنظيم المواصلات فيها مدة الفيضان ، فأزجى فيها كثيراً من مهمات الجيش من الاسكندرية إلى القاهرة ، وانتعشت الاسكندرية لوصول الغلال بطريق الترعة ، وأخذت المواصلات تزداد نشاطاً ، فكان بالترعة نحو مائتى سفينة عاملة في النقل ليلاً ونهاراً ، على أن انخفاض النيل حال دون سير المراكب فيها ، وعطل الانتفاع بها ، ولم تستمر الملاحة فيها أكثر من بضعة أسابيع

---

(١) كانت بحيرة البراس أوسع مدى مما هي عليه الآن فكانت تمتد غرباً إلى القرب من برنبال الواقعة على البر الشرقى للنيل ، فخشي نابليون أن تدخل السفن الإنجليزية الحديقة من بوغاز البرلس وتصل إلى مقربة من برنبال ورشيد ، فأمر بأقامة قلعة على مدخل البرلس مكان القلعة القديمة التي كانت آثارها باقية إلى ذلك العصر ، وقد تم إنشاء القلعة الجديدة في عهد منو ، وكذلك أمر نابليون بأقامة برج محصن في برنبال

(٢) راجع الفصل التاسع ص ٢٤٢

وكانت السفن الإنجليزية قد استأنفت في ذلك الحين مناوراتها حول الاسكندرية وصحبتها بعض السفن التركية ، فاضطر الجنرال مارمون أن يعود أدراجه إلى الاسكندرية ليتولى حمايتها من الهجمات الطارئة

### تجدد الاضطرابات حول رشيد وفي دمنهور

كانت السفن الإنجليزية والتركية توفد بعض الرسل إلى الشاطئ لتعرض الأهالي وتشجعهم على الثورة ، وقد قويت روح الهياج في ضواحي رشيد ، وكان ذلك في شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، فسكرر الاعتداء على قوافل الفرنسيين بجبهات رشيد وأبو قير وشمال البحيرة

احتشد حول رشيد جمع من الأهالي ليلة ٢٠ نوفمبر ففاجأتهم القوات الفرنسية وأمرت منهم بعض رجالهم ، واتهم الفرنسيون مشايخ بلادادكو وادفينا بالكيد لهم وأن لهم يدا في هذه الأعمال العدائية ، فجيء بهم إلى رشيد ، وقتلوا رمياً بالرصاص بأمر الجنرال منو

وازداد الهياج كذلك في جهة دمنهور التي لم تكن خضعت من قبل للسلطة الفرنسية وكانت تابعة عسكرياً للرحمانية التي رابط بها الادمجودان جنرال لتورك Leture فأراد تجريد حملة عليها لكن قوته لم تكن كافية لهذه التجربة فضلاً عن أنها كانت منصرفه إلى صدّ مناوشات جموع الأهالي في جهة الرحمانية ، وكان الجنرال مورا Murat ذلك الوقت في رشيد فأوفده منو إلى دمنهور لقمع الحركات العدائية التي تجددت بها

سار مورا من رشيد إلى الرحمانية ومن هناك قصد إلى دمنهور يعاونه الادمجودان جنرال لتورك ، فاحتل دمنهور في أواخر نوفمبر سنة ١٧٩٨ وأعدم بعض زعماء الحركة رمياً بالرصاص وفرض على المدينة إتاوة كبيرة من الغلال والمواشي ولكن جموع العرب والأهالي الذين قاموا بالحركات الثورية بها تمكنوا من الانسحاب وأوغلوا في الصحراء ، فعزم مورا على تعقبهم وأقام عدة أيام في دمنهور لإخضاع القرى المجاورة وفرض الغرامات عليها وناط بالجنرال لتورك هذه

المهمة (١)، ثم غادر دمنهور في أوائل ديسمبر قاصداً قرية (دير أمس) إذ جاءه الشوار  
وعلى رأسهم سليم كاشف و ابراهيم الشوربجي مرابطون بها ، وصل الجنرال مورا  
ليلاً ، وعلى الرغم من أنه ضرب الحصار عليها فإن الشوار قد تسللوا منها وسط  
طلقات الرصاص وأوغلوا ثانية في الصحراء ، وكانت الجنود الفرنسية قد أنهكها  
التعب فاستراحت في دير أمس ثم استأنفت السير تفتق أثر الشوار ، لكنها لم تستطع  
اللتحاق بهم واضطر الجنرال مورا أن يعود إلى دمنهور ثم سار منها إلى الرحمانية وتلقى  
بها أوامر نابليون ، فقام من الرحمانية يوم ٥ ديسمبر قاصداً إلى شابور فوصلها  
ليلاً ، وهناك علم أن قافلة من الأهالي والعرب ضاربة في الصحراء بالقرب من الصواف  
فقام في صباح ٦ ديسمبر يتعقب هذه القوة ، ومرّ بعدة قرى فألفاها خالية قد  
هجرها أهلها فراراً بأنفسهم من تقمة الجنود الفرنسية، ووصل إلى الصواف ، ومن  
هناك سار على أثر القافلة إلى أن اقترب من مؤخرتها وكانت مؤلفة من ستائة فارس  
فأطلق عليهم الفرنسيون النار فانهزموا تاركين معسكرهم وما فيه من المتاع والعتاد  
فجدّ الجنرال مورا في تعقبهم ، ولكنه عجز عن اللحاق بهم ، فاكتفى بإلقاء النار في  
معسكرهم وأحرق كل ما كان به من المتاع والغلال  
واستأنف مورا سيره قاصداً الطرانة بالبر الغربي لفرع رشيد، ثم رجع منها  
أدارجه إلى القاهرة

(١) كتب الجنرال مورا إلى نابليون بتاريخ ٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ يصف هذه المهمة بقوله : « إن  
الجنرال لتورك جمع الخيول والأموال من جميع القرى المجاورة لدمنهور وأنه أرسل إلى الاسكندرية ستين  
جملًا حملاً غللاً مما صادره من البلاد »



## الفصل الحادي عشر

### في القليوبية والشرقية

علم القارىء أن إبراهيم بك فر بما ليكه عقب انتصار الفرنسيين في معركة الأهرام إلى جهة بلبس ، وحمل معه ما استطاع من الأموال والمتاع ، ولم تحارب القوة التي اصطحبها معه في معركة الأهرام فبقيت سليمة وإن كانت قليلة العدد ، لكن نابليون توجس من وجود هذه القوة في شرق الدلتا وعلى مسافة ٤ كيلو متر تقريباً من القاهرة خطراً يهدد مركز الفرنسيين ، فاعتزم بعد أن وطد مركزه في القاهرة أن يتعقب إبراهيم بك ليخلص له الوجه البحرى ، وكذلك أجمع أن يطارد مراد بك الذى فر بأبقية الباقية من فلول جيشه إلى الوجه القبلى وعهد بذلك إلى الجنرال ديزيه Desaix ، على أن نابليون لم يكن يرى بادىء الأمر في قوة مراد بك خطراً كبيراً لأن الهزيمة التي حاقت به في معركة الأهرام قد قلبت أظافره وهونت من أمره ، لذلك اعتزم أن يوجه معظم قوته لسحق إبراهيم بك في شرق الدلتا إذ كان لم يزل مرابطاً بجيشه في بلبس ، أضف إلى هذا اقتراب وصول قافلة الحج من الحجاز ، فرأى نابليون من مصلحته السياسية أن يتولى تأمين مواصلات الحج ليحمد أثر ذلك في نفوس المصريين والعالم الإسلامى ويكتسب عطف أمراء الإسلام ثم ليقنع شريف مكة وعرب الحجاز واليمن أن وجود الفرنسيين في مصر لا يقطع سبل الحج الذى هو مصدر أرزاقهم

وإليك ما ذكره الجبرتى عن خطة نابليون إزاء قافلة الحج : « في عشرين صفر سنة ١٢١٣ ( ٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ ) حضرت مكاتب الحجاج من العقبة فذهب أرباب (أعضاء) الديوان إلى باش العسكر (القائد العام) وأعلموه بذلك وطلبوا منه أماناً لأمير الحج (صالح بك) فامتنع ، وقال لا أعطيه ذلك إلا بشرط أن يأتى في قلة ولا يدخل معه بماليك كثيرة ولا عسكر ، فقالوا له ومن يوصل الحجاج فقال

لهم أنا أرسل لهم أربعة آلاف من العسكر يوصلونهم إلى مصر ، فكتبوا لأمير الحج مكانة بالملاطفة وأنه يحضر بالحجاج إلى الدار الحمراء وبعد ذلك يحصل الخير فلم تصل إليهم الجوابات حتى كتبهم إبراهيم بك يطلبهم للحضور إلى جهة بلبيس فتوجهوا إلى بلبيس وأقاموا هناك أياماً ،

### توزيع القوات الفرنسية في الوجه البحري

صحت عزيمة نابليون إذن على تجريد جيش للقضاء على قوة إبراهيم بك في شرق الدلتا ، وقبل أن يزحف بجيشه وزع القوات العسكرية على مديريات الوجه البحري لإخضاعها وتوطيد سلطة الفرنسيين فيها ، فعين الجنرال فيال « Vial » قومنداناً لمديرتي المنصورة ودمياط ، والجنرال زاينوشك « Zayonchek » قومنداناً للنوفية ، والجنرال فوجير « Fugieres » قومنداناً للغربية على أن يكون مقره المحلة الكبرى عاصمة المديرية في ذلك العصر ، والجنرال موراد « Murat » للقليوبية والجنرال رامبون « Rampon » لأطفيح ، وأبقى الجنرال ديزيه « Desaix » جنوبي الجزيرة يرصد حركات مراد بك ، وأمر الجنرال لكلرك « Leclerc » بالسير إلى بلبيس

### المعارك بين الخانكة وأبي زعبل

بدأت طلائع الجيش الفرنسي تزحف يوم ٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ من القاهرة بقيادة الجنرال لكلرك ، فمرت بالقبة ومنها سارت إلى المطرية ثم إلى المرج دون أن تجد مقاومة ما ، فإن الأهالي كانوا ينزحون عن بلادهم قبل قدوم الفرنسيين ، ومن المرج سارت القوة إلى الخانقاه (الخانكة) وبها استقرت واتخذها الفرنسيون قاعدة عسكرية للزحف ومركزاً لتكوين الجيش وأنشأوا بها الأفران ومخازن البقسماط والزراد والعلف

قصدت الكتيبة يوم ٤ من أغسطس قرية أبي زعبل ولكن صدم عنها جمع من العرب والفلاحين مسلحين بالبنادق والعصى (١) (الشماريخ) فعادت الكتيبة

(١) تقرير الكابتن مالوس إلى الجنرال كافاريللي

أدراجها إلى الخانكة وأخذ الأهالي من العرب والفلاحين يتعقبونها إلى مستقرها  
وفي صباح ٥ من أغسطس هاجم الأهالي المخافر الأمامية لمعسكر الخانكة بقوة  
أكبر من قوتهم الأولى إذ انضم إليهم مائتان من المماليك ، وبدأ الهجوم ، فبرزت  
من غابة أبي زعبل قوة من فرسان العرب يتبعهم عدد حاشد من الفلاحين ، ولم  
يكن هؤلاء يحملون في الغالب إلا أسلحة ضعيفة فلم يتجاوز عدد حملة البنادق منهم  
السدس ، فأحاطوا بالفرنسيين من كل جانب ، تخفيفهم الزروع والغيطان ، وانضم  
إليهم سكان القرى المجاورة (١) ، فأطلقوا النار على الفرنسيين من كل صوب ،  
ولكن نيران المدفعية والبنادق أوقفتهم بعيداً عن المعسكر ، فأعادوا الهجوم كرة  
بعد كرة ، واضطر جنود المقدمة إلى التراجع

### انسحاب الفرنسيين من الخانكة ثم احتلالها

وأدرك الجنرال لكرك الخطر من الإصرار على الدفاع عن قرية الخانكة ،  
فأجمع أن ينسحب منها ويرتد غرباً ، وفي أثناء المعركة ثارت قرية الخانكة نفسها  
فوثب أهلها برجال الحرس الفرنسيين الموجودين فجردهم من السلاح وقتلهم  
استولى الفرع على الجنود الفرنسية ولم يطبقوا البقاء معرضين للهجمات ،  
فجمع القائد ضباطه وتشاوروا في الأمر فاستقروا على إخلاء الخانكة والتراجع  
عن القرية ، فتقهقروا بعد غروب الشمس وكان عددهم نحو ستمائة مقاتل وارتدوا  
قاصدين المطرية وفي طريقهم إليها قابلهم الكولونل سلكوسكي أحد ياوران  
نابليون فأنبأهم بقرب وصول فرقة الجنرال رينيه Reynier لنجدتهم ، لكنهم  
استمروا في إدارتهم حتى وصلوا إلى المرج وقضوا بها آخره الليل ، ولما لاح الفجر  
وصلت قوة الجنرال رينيه فرجعوا يريدون استرداد الخانكة ووصلوا إليها ظهر  
يوم ٦ أغسطس وقد زاد عددهم ، فوجدوها خالية من أهلها فاحتلوها (١)

(١) تقرير السكاين مالوس

(٢) أخذنا هذه البيانات عن تقرير السكاين مالوس إلى الجنرال كافريللي ، وإليك ما ذكره الجبرتي

في هذا الصدد : « في ثالث وعشرين صفر (سنة ١٢١٣) خرجت طائفة من العسكر الفرنسيين =

كانت الخانكة من جهة موقعها ذات شأن عظيم لأنها تكاد تكون في منتصف الطريق بين القاهرة وبلبيس، لذلك وجه إليها نابليون عناية كبرى في اتخاذها نقطة ارتكاز للزحف، وكان في أوامره العسكرية يهتم بجعلها على تمام الأهبة لإقامة الجنود بها

وكان سير الجيش محفوظاً بصعوبات كبيرة لاصطدامه مع الأهالي أين توجه، كتب الجنرال لوجيه Laugier إلى الجنرال دوجا في ٦ أغسطس يقول:

« ثارت القرى التي أرسلنا إليها بعض فرسان الدراجون لأخذ الخيول منها وعاد الفرسان يخبروننا بهذه الثورات، وكل الدلائل تدل على أنه لا بد من قوة كبيرة لإخضاع هذه الجهات،

### احتلال بلبيس

ثم وصلت بقية الجيش الفرنسي بعد استرداد الخانكة، فجاء نابليون ومعه فرقتا الجنرال دوجا والجنرال لان وانضمت إليهما فرقة الجنرال رينييه فسار نابليون على رأس الفرق الثلاث قاصداً بلبيس عاصمة الشرقية في ذلك الحين ووصل إليها يوم ٩ أغسطس بعد أن أخلاها إبراهيم بك. فاعتزم نابليون أن يتعقبه قبل أن يغادر حدود مصر إلى الشام ولحق الفرنسيون في بلبيس من بقى من الحجاج بعد أن ارتحل بعضهم إلى بلادهم قبل وصول الجيش الفرنسي، وكان أمير الحج صالح بك قد لحق بإبراهيم بك وصحبته جماعة من التجار وغيرهم لأن إبراهيم بك كتب إلى أمير الحج بعد معركة الأهرام ينصح له أن لا يذهب إلى القاهرة ويرغب إليه في اللحاق به في الصالحية، وبقى في بلبيس من لم يقدر من الحجاج أن يغادروها فلم يتعرض لهم الفرنسيون بسوء وأرسلوهم إلى القاهرة تحرّسهم كوكبة من جنودهم (١)

---

== إلى جهة العادلية وصار في كل يوم تذهب طائفة بعد أخرى ويذهبون إلى جهة الشرق، فلما كان ليلة الأربعاء خرج كبيرهم يونابارت وكانت أوائلهم وصلت إلى الخانكة وأبى زعبل وطلبوا كلفة من أبى زعبل فامتنعوا فقاتلهم فقتلهم فقتلهم وكسروهم ونهبوا البلدة وأحرقوها وارتحلوا إلى بلبيس »

(١) عين نابليون بعد عودته إلى القاهرة مصطفي بك ككتخدا (وكيل الوالي) أميراً للحج بتاريخ ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ (٢١ ربيع الأول سنة ١٢١٣) كما أوضحنا ذلك في الفصل الثالث عشر

وفى ذلك يقول الجبرتي : « وفى ١٨ صفر ملك الفرنسيين بلبيس من غير قتال  
ومن بق فيها من الحجاج لم يشوشوا عليه فأرسلوهم إلى مصر ومعهم طائفة من  
العسكر ،

### معركة الصالحية ١١ أغسطس سنة ١٧٩٨

لم يضيع نابليون وقتاً في بلبيس بل أرسل قوة من فرسانه ليلة ١٠ أغسطس في  
أعقاب ابراهيم بك ، ووصل الجيش إلى ( القرين ) في ١٠ أغسطس دون أن يلحق  
بقوة ابراهيم بك الذى غادرها قبيل وصول الجيش الفرنسى قاصداً إلى الصالحية ،  
فتمتعبه نابليون بفرسانه دون أن ينتظر فرقة الجنرال لان Lannes وانضم إليه الجنرال  
مورا Murat الذى جاء من قلوب بقوة الفرسان ، فاشتبك نابليون مع قوة المماليك  
في معركة عرفت بمعركة الصالحية ( ١١ أغسطس سنة ١٧٩٨ ) لأنها وقعت على مقربة  
منها ، وقد حى وطيس القتال في هذه المعركة وكادت تدور الدائرة على قوة الفرنسيين  
لأنها كانت مؤلفة من عدد قليل من فرسانهم لا يزيد على أربعائة ، وكان فرسان  
المماليك أكثر منهم عدداً وأشد بأساً ، فكانت هذه أول معركة نشبت بين فرسان  
الجيشين ، والتقى فيها الفريقان وجهاً لوجه ، واقتتلوا بالسلاح الأبيض . فتخرج  
مركز الفرنسيين لأن فرسان المماليك اشتهروا بالمهارة والبسالة في قتالهم ، ولاغرو  
فقد كانوا أحلاس الخيل وأبناء الطعن والضرب ؛ ولم ينقذ نابليون إلا وصول  
المدد من الجنرال لكرك ، فاضطر المماليك إلى الانسحاب . وجرح في هذه المعركة  
من خاصة رجال نابليون الكولونل سلكوسكى (١) ياوره . والكولونل ديترس  
Detrés وغيرهما من الضباط جروحاً بالغة . وفى ذلك يقول الجبرتي :

« فركب صارى عسكر وأخذ معه الخيالة وقصد الإغارة على الحملة ، وعلم  
ابراهيم بك بذلك أيضاً ، فركب هو وصالح بك ( أمير الحج ) وعدة من الأمراء  
المماليك وتحاربوا معهم ساعة أشرف فيها الفرنسيين على الهزيمة لكونهم على الخيول ،  
وإذا بالخبر وصل إلى ابراهيم بك بأن العرب مالوا على الحملة يقصدون نهبا ، فعند

(١) هو الذى قتل في ثورة القاهرة ، راجع الفصل الثالث عشر

ذلك فرّ بمن معه على أثره ، وترك قتال الفرنسيين ولحقوا بالعرب فأجلوهم عن متاعهم وقتلوا منهم عدة فارتحلوا إلى قطيا ورجع صاري عسكر (نابليون) إلى مصر وترك عدة من عساكره متفرقين في البلاد ،

فالجبرتي ينسب انسحاب المماليك في معركة الصالحية إلى نهب العربان للحملة واضطرار أولئك إلى إجلائهم عنها واستعادتها منهم ، وقد انتهت هذه المعركة بانسحاب ابراهيم بك ومن معه إلى حدود مصر الشرقية

### عودة نابليون إلى القاهرة

غادر نابليون الصالحية يوم ١٣ أغسطس عائداً إلى القاهرة ، وفي طريقه إليها جاءه نبأ كارثة الأسطول الفرنسي في واقعة أبو قير ومقتل الأدميرال برويس (١) ، حمل إليه هذا النبأ الضابط لوييه Loyer ياور الجنرال كليبر في رسالة بعث بها إليه كليبر من الاسكندرية ، فلما تلا نابليون الرسالة وفيها أعظم نكبة أصابت الحملة الفرنسية، تلقاها بالجلد والصبر، ولم تبد عليه علامة الاضطراب، وأخذ يسأل الياور عن تفاصيل الواقعة مما لم يرد في الرسالة ، وبعد أن تم الياور كلامه أبلغ نابليون نبأ الكارثة إلى أركان حربه قال لهم : إن أسطولنا لم يعد له وجود ، والآن يجب علينا أن نبقى في هذه البلاد أو نخرج منها عظاماً كما فعل الأقدمون ، ثم عجل بالسير إلى القاهرة لينزل بوجوده الأثر المعنوي الذي أحدثته أخبار الكارثة في مصر ، فجاءها يوم ١٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ وهناك خاطب ضباطه قائلاً : هانحن أولاء مضطرون أن نعمل العظام ، ونسعملها ، وأن تؤسس في هذه البلاد دولة كبيرة ، وستؤسسها ، إن البحار تفصل بيننا وبين الوطن ولا سلطان لنا على هذه البحار ، ولكن ليس ثمة فاصل يفصلنا عن آسيا وأفريقية ، وعندنا من الرجال العدد الوافر ولا ينقصنا المدد لتقوية صفوفنا ولا تنقصنا الميرة والذخيرة ، وإذا احتجنا إلى

(١) يقول نابليون في رسالته إلى كليبر الواردة في مجموعة رسائله رقم ٣٠١٨ إنه تلقى نبأ الواقعة في الصالحية ، وفي تقريره إلى حكومة الديركتوار يقول إنه تلقاه بعد أن غادر الصالحية إذ كان على بعد فرسخين منها

المزيد منها فإن شامبي Chempy (١) وكوتتي Conté (٢) كفيلان بصنعها (٣) ،

### الاضطرابات في الشرقية

عادت فرقة الجنرال لان إلى القاهرة ورجع الجنرال مورا Murat بالقوة التي كانت تحت إمرته إلى قلوب لإخضاع مديرية القليوبية ، وسار الجنرال دوجا بفرقة إلى المنصورة لإخضاع القسم الشمالي الشرقي من الدلتا (٤) وبقيت فرقة الجنرال رينييه وفرسان الجنرال لكرك في الصالحية حيث أمر نابليون بتحصينها لحراسة برزخ السويس ومراقبة حدود مصر الشرقية ، واتخذ من الصالحية مركزاً لتكوين الجيش ، وعين الجنرال رينييه قومنداناً لمديرية الشرقية وعهد إليه في إقامة الطوابق والاستحكامات بالصالحية وبلبيس واستطلاع أخبار المالك الذين ارتدوا إلى حدود سوريا ، وقد اتخذ الجنرال رينييه مسجد الصالحية مركزاً عسكرياً للفرقة وأنشأ فيه الأفران والمخابز للجيش وأقام فيه المدافع ، وأقره نابليون على صنيعه المشير لحفيظة الأهالي وأمره أن يزيد عدد الأفران التي بالمسجد وعدد المدافع التي نصبوها عليه وأن يتخذ فيه مخزناً للبارود ومستشفى للجنود ويجعل منارته مرصداً لاستطلاع الحركات العدائية ، وقد صارت الصالحية وبلبيس في عهد الحملة الفرنسية من المواقع الحصينة وعلى جانب كبير من المناعة

(١ و ٢) من أعضاء المجمع العلمي ، انظر ما كتبناه عنهما في الفصل الرابع ص ١٢٩ و ١٣٠ (٣) نقلنا هذه العبارة عن مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران سانت هيلين ، وقد كتبت الجنرال مارمون في كتابه (رحلة المارشال الدوق دي راجوز) يقول إنه كان بجانب نابليون حينما جاء بنا كارتة العارة الفرنسية في معركة أبوقير وأنه تلقى هذا النبأ وهو في خيمته (خيمة مارمون) في معسكر الخانكة بين بلبيس والقاهرة (وهذا يخالف ما ذكره نابليون كما بيناه في هامش الصحيفة السابقة) قال مارمون يصف حالة نابليون عندئذ : « تلا الجنرال بوناپرت رسالة كبيرة وظل ثابتاً رابط الجأش ، وأبان عن شيء كثير من علو النفس وقوة البأس ، ولم يكتم عنا عظم النكسة وما تجره من العواقب ، ولسكنه اجتهاد في أن يخفف عنا أثر وقعها » ، وذكر الجنرال مارمون أقوال نابليون وهي لا تخرج في معناها عما جاء في مذكراته (٤) قيل أن يغادر نابليون الصالحية أصدر أمره بتعيين الجنرال دوجا قومنداناً لمديرية المنصورة وأن يقتصر الجنرال فيال على دمياط

كان مقام رينيه في الشرقية مقرونا باعتداء الجنود وجرائمهم ، فكانوا يجوبون القرى وينهبون الماشية فيضطر الناس إلى الرحيل عن قرانهم لتهديب مواشهم في الصحراء ، وعبثاً حاول الجنرال رينيه أن يرد النظام في صفوف جنوده أو يقنع الأهالي في القرى المجاورة أن يبيعوه ما يحتاج إليه من المواشى بالثمن فلم يصدقوه ولم يأمنوه وأخذوا يفرون من القرى بمواشيم نجاها بها من النهب والسلب ، وكانت صدور الفرنسيين من جهة أخرى موعرة على الأهالي لمخلمهم السلاح في وجههم ، فاضطربت الأحوال في الشرقية وظل الأهالي يناوشون الحاميات الفرنسية ويتهددون مواصلات الجيش مع القاهرة ، وقد اشتدت حركاتهم في أوائل اكتوبر سنة ١٧٩٨ عندما انبثت فكرة الثورة في القاهرة وبدأت تذيع الدعوة إليها في الأقاليم ، فأجترأ الثوار على مهاجمة المخافر الفرنسية ، وقتل الأهالي ترجمان الجنرال رينيه الخباص على مقربة من معسكر الفرنسيين في بليس ، وقاوم أهل ديشه ، الفرنسيين عندما شرعوا في مصادرة خيولهم ، وبدأ أهالي بليس وأعوانهم من العرب المجاورين لهم يهاجمون معسكر الفرنسيين في المدينة ، ولم يستطع الجنرال رينيه أن يخضع القوم لأن الفيضان قد خرب الأرض فعطل حركات الجنود في انتقالها إلى القرى ، كما أن الأمراض قد فتكت بالجنود وبخاصة الرمد الذي انتشر بينهم

وقد كان لجنود الحامية الفرنسية ولدعوة الثورة التي استطارت من القاهرة في الأقاليم أثر كبير في تشجيع الأهالي على مهاجمة معسكر بليس بقوة كبيرة ، فبدأ هجومهم فجر يوم ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ فأقبل مائة من الفرسان من قبيلة العائد قادمين من الصحراء فالتقوا بكتيبة من الفرنسيين وقتلوا منها بعض الجنود ، فرد الجنرال رينيه هجمة العرب ولكنه اضطر أن ينسحب إلى بليس ليرد هجوماً آخر كان يهدد مركزه في المدينة وقد اشترك فيه ٢٥٠ من الفرسان و ١٢٠٠ من المشاة فربط رينيه بالمدينة حتى أقبل إليه المدد ثم أخذ يهاجم الثوار إلى أن ارتدوا عنها وسار بجنوده بتعقبهم حتى غابوا في الصحراء فعاد إلى بليس ، وفي هذا الوقت كان عرب بلي قد أقبلوا من طريق القاهرة ، وهاجموا المعسكر ، فردهم الجنود



الفرنسية، ثم كروا بعد قليل ولهم قوة أكبر فكان عددهم كما قدرهم الجنرال رينيه ٥٠٠ فارس و ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ راجل، قال عليهم رينيه بجنوده ومدفعيته ففرقهم بالبنادق والمدافع وردمهم إلى قرية دغيته، (١)، وفيما هو على أثرهم هجم الجمع الحاشد من أهالي البلاد المجاورة (قدرهم رينيه بألفين من المشاة و ١٥٠ من الفرسان) على الفضاء الذي يفصل المعسكر عن بلبليس، ولكن رينيه رددهم على أعقابهم عند عودته إلى المدينة، ثم عادوا إلى الهجوم ثانية وكذلك ردتهم الجنود الفرنسية، ثم استمرت الحرب سجالاتاً بين الفريقين

لم تنقطع الحركات العدائية حول بلبليس، ولم يكن لدى الجنرال رينيه من الجنود القوة الكافية لتجريد حملة على الشوار تغزوهم في بلادهم وقراتهم فأصبحت مواصلات الجيش الفرنسي مهددة، وأرسل رينيه يطلب النجدة من نابليون، فأمره أن لا يغفل عن تحسين موقعي بلبليس والصالحية، وأن ينهك بعقوبته القبائل التي تمردت أو شاركت في الحركات الأخيرة ويأخذ منها الرهائن، وأمره كذلك بمعاينة البلاد التي اشتركت في الثورة وأن يأخذ مشايخها ويقتلهم لأنهم هم المسؤولون فهم المأخوذون بما يحدث في بلادهم (٢)

وقد علم الأهالي والعرب أن رينيه زاحف عليهم الإيقاع بهم والقصاص منهم فأوغلوا في البلاد البعيدة وأخلوا القرى المجاورة لبلبليس، فلم يستطع رينيه أن يجرد حملة لتعقبهم، وأثر أن يعدل معهم إلى المحاسنة فليجأ إلى المفاوضات مع زعمائهم لإعادة السكينة وإقرارها، ولكنه لم يوفق توفيقاً يعتد به

واستمرت الاضطرابات في الشرقية بعد ذلك لم تنقطع، قال الجبرتي في حوادث أواخر رجب سنة ١٢١٣ (ديسمبر سنة ١٧٩٨):

«حضر ساري عسكر (نابليون) من ناحية بلبليس إلى مصر ليلاً وأحضر معه عدة عربان وعبدالرحمن أباطة أخو سليمان أباطة شيخ العباددة وخلافه رهائن وضربوا أبو زعبل والمنير، وأخذوا مواشيهم وحضروا بهم إلى القاهرة وخلفهم أصحابهم،

(١) في الجنوب الغربي لبلبليس

(٢) رسالة نابليون إلى رينيه في ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨

## الفصل الثاني عشر

### عود الى القاهرة

#### سياسة الحفلات

كان نابليون يسعى بكل الوسائل إلى كسب قلوب المصريين واستئلال الضغينة منها وتخفيف حدة النفرة والكراهية التي كانت تبدو عليهم منذ احتلال الفرنسيين للبلاد ، ومن الوسائل التي ابتكرها إقامته الحفلات والأفراح لإدخال السرور إلى قلوبهم ، ولعله كان يدرك ميل المصريين الفطري إلى الابتهاج والانشراح بما كان يشاهده من تجمع الأهالي في شوارع القاهرة لسماع المغنين والناقرين على الدفوف ، فأراد أن يصل إلى قلوبهم عن طريق التفریح ، وكان له غرض آخر من إقامة المهرجانات والحفلات ، ذلك حين أراد أن يحجب عن الشعب أثر النكبة التي حلت بأسطوله في واقعة أبو قير البحرية ويتظاهر بأنه لا يكثر لها ، ويتودد إلى زعماء الشعب ليكسب ثقتهم في تلك الأوقات العصيبة بعد أن أصبح محصوراً في القارة الإفريقية ، فأخذ يتحين ما يعرض من المناسبات لإقامة الأفراح والحفلات ، ولذلك سمينا هذه السياسة سياسة الحفلات

#### مهرجان وفاء النيل

انتهز أولاً فرصة وفاء النيل ليشارك المصريين في احتفالهم بهذا اليوم السعيد ، فأمر بأن يجرى الاحتفال المعتاد وأن يشترك الجيش في المهرجان ، فاصطفت الجنود بحذاء النيل ، وحضر نابليون الاحتفال مصحوباً بقواده وأركان حربه وبجانبه كتمخدا باشا (نائب الوالي) والقاضي التركي (قاضي مصر) وأعضاء الديوان والأغا (المحافظ) وأعيان المدينة ، وازدانت السفن بالأعلام والرايات ، وأطلقت المدافع والسواريج النارية من البر والبحر ، لكن الأهالي لم يشتركوا في هذا الاحتفال ولم يخرجوا للتنزه ليلاً في المراكب كعادتهم كل عام ، وفي ذلك يقول الجبرتي : وفي

يوم الجمعة خامس ربيع الأول سنة ١٢١٣ الموافق لثالث عشر مسرى القبطى (١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨) كان وفاء النيل المبارك ، فأمر صارى عسكر بالاستعداد وتزيين العقبة كالعادة ، وكذلك زينوا عدة مراكب وغلايين (سفن حربية) ونادوا على الناس بالخروج إلى النزهة فى النيل والمقياس والروضه على عادتهم ، وأرسل صارى عسكر أوراقاً ( تذاكر دعوة ) لسكرتير الباشا والقاضى وأرباب ( أعضاء ) الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمناصب وغيرهم بالحضور فى صباحها (السبت ٦ ربيع - ١٨ أغسطس ) وركب صحبتهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره إلى قصر قنطرة السد ، وكسروا الجسر بحضرتهم ، وعملوا شنك مدافع ونفوطاً حتى جرى الماء فى الخليج ، وركب وهم صحبته حتى رجع إلى داره ، وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه فى المراكب على العادة سوى النصارى والشوام والقبط والأروام والإفرنج البلديين ونسائهم ، وقليل من الناس البطالين حضروا فى صباحها ،

هذا ما قاله الجبرتى ، ومنه تعرف الحالة النفسية للشعب ومبلغ انصراف المصريين عن الاشتراك فى الاحتفال بيوم يتهجون له كل عام ، ويدخل فى هذا الباب ما ذكره الجبرتى من أن الإشاعات عن هزيمة الفرنسيين ( فى معركة أبو قير البحرية ) قد ذاعت فى ذلك اليوم نفسه وتهدد الفرنسيون من أذاعوها بأشد أنواع العقاب (١) فكان نابليون أراد بالاحتفال بوفاء النيل إخفاء مظاهر الحزن التى كانت تحتلج فى قلوب الفرنسيين لضياح أسطولهم

### حفلة المولد النبوى

وجاءت مناسبة أخرى لمشاركة نابليون المصريين فى حفلاتهم ومحاولته إدخال السرور إلى قلوبهم ، وهى حفلة المولد النبوى الشريف ، فأمر أن يحتفل به كالمعتاد وبالغ نابليون فى الاحتفال وعين لهذه المناسبة السيد خليل البكرى نقيباً للأشراف

(١) انظر الفصل الثامن س ٢٢٩

بدلاً من السيد عمر مكرم<sup>(١)</sup> وخلع عليه خلعة ثمينة وأقيمت الليلة الكبيرة للمولد في منزل السيد خليل البكري، وحضر نابليون هذه الحفلة، ويقول ريبو<sup>(٢)</sup> إن ونابرت أظهر أناة وصبرا في شهود حفلة الذكر من بدئها إلى تمامها، ومد السيد البكري الموائد تكريماً للمولد النبوي، فبسطت خمسون مائدة على الطراز الشرقي - ول كل مائدة خمسة أوستة من الضيوف جالسين أرضاً على الوسائد، وكانت المائدة التي جلس حولها ونابرت والسيد البكري في الوسط، وهي من الفضة وقد صفت عليها أطباق الطعام، ويتبين من رواية الجبرتي أن نفوس المصريين كانت في شاغل وقتئذ عن الحفلات والمسرات، وأن نابليون هو الذي أوجب الاحتفال، قال الجبرتي:

سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم، فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال، فلم يقبل وقال لا بد من ذلك وأعطى له ثلثمائة ريال فرنساوي معاونة وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل، واجتمع الفرنسيون يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبابتهم وأرسل الطبليخانة الكبيرة (موسيقى الجيش) إلى بيت الشيخ البكري، واستمروا يضربونها طول النهار والليل (ليلة ١٢ ربيع الأول سنة ١٢١٣ - ٢٤ أغسطس سنة ١٧٩٨) بالبركة (ميدان الأزبكية) تحت داره، وهي عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة، وعملوا في الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريج تصعد في الهواء، وفي ذلك اليوم ألبس الشيخ خليل البكري فروة وتقلد نقابة الأشراف ونودي في المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها إلى النقيب،

---

(١) كانت نقابة الأشراف قبل أن يتولاها السيد عمر مكرم في يد السيد محمد البكري، وهو ابن عم السيد خليل البكري، ولما توفي السيد محمد البكري سنة ١٢٠٨ هجرية تولى النقابة السيد عمر مكرم إلى أن جاء الفرنسيون فغادر الديار المصرية وماجر إلى سوريا عقب واقعة الأهرام، فخلت نقابة الأشراف من النقيب فتولاها السيد خليل البكري كما ترى في سياق الكلام

(٢) التاريخ العلمي والحربي للعملة الفرنسية الجزء ٣٠

## تعيين أمير الحج

كانت إمارة الحج من المناصب العالية التي يعهد بها إلى كبار الأمراء المماليك ، وكان أمير الحج عند قدوم الحملة الفرنسية صالح بك وهو من أتباع مراد بك ، فلما قدم بالحجاج من الحجاز استدعاه نابليون إلى القاهرة ، ولكنه رفض وانضم إلى إبراهيم بك وسافر معه إلى سوريا وتوفي بها في تلك السنة ( ١٢١٣ هجرية ) ، وكانت التقاليد المتبعة في ذلك العصر أن يعين أمير الحج في حفلة حافلة ، فأراد نابليون أن يتبع هذه السنة فعين مصطفى بك كتخدا الباشا ( وكيل الوالي ) أميراً للحج يوم ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢١٢ ( أول سبتمبر سنة ١٧٩٨ ) وخلع عليه خلعة خضراء بحضور أعضاء الديوان (١) وأهداه جواداً كريماً ، وأراد أن يكتسب قلوب الأهالي وقلوب المسلمين في الشرق فأبلغ أمر هذا التعيين رسمياً إلى الدول الإسلامية وكتب إلى شريف مكة يعده بإرسال أوقاف الحرمين كما كانت ، واستكتب مشايخ القاهرة رسالة بعث بها إلى السلطان وأخرى إلى شريف مكة فيها إطرار لسياسة وتنويه بما بذله في تأمين طريق الحج واشترائه في الاحتفال بفتح الخليج والمولد النبوي وتعيين أمير الحج الجديد واحترامه للشعائر الإسلامية

فنا بليون قد استعمل سياسة الحفلات ، ليجتذب إليه قلوب المصريين من جهة ، وليعلن عن نفسه في العالم الإسلامي بأنه صديق الإسلام والمسلمين ، ويظهر أن الفرنسيين كانوا يعلقون أهمية كبيرة على تعيين أمير الحج ، فقد كتب المسير جوفروا سان هيلير (٢) عضو المجمع العلمي المصري رسالة إلى أخيه بتاريخ ٣ سبتمبر سنة ١٧٩٨ يقول فيها :

« لقد نجح القائد العام في حمل كتخدا الباشا ( وكيل الوالي ) على قبول منصب

(١) يقول الجبرتي في هذا الصدد : « وفي عشرين ربيع الأول قد دوا مصطفى بك كتخدا الباشا إمارة الحج فحضروا إلى المحكمة عند القاضي ولبس هناك الخامة بحضرة مشايخ ( أعضاء ) الديوان والتزم بونا بارتته بتشبهل مهمات الحج وعمل محلاً جديداً »

(٢) انظر ترجمته بالفصل الرابع من ١٢٧

إمارة الحج ، وأمير الحج الجديد رجل ذو نفوذ كبير ، وقد أطلقت المدافع إيذاناً بهذا التعيين وبادر الديوان إلى إبلاغه للأمم العربية مع دعوتهم إلى إجراء مراسم الحج كالمعتاد (١) ،

### عيد الجمهورية الفرنسية

انتبهز نابليون فرصة عيد الجمهورية الفرنسية الأولى ( أول فنديمير (٢) — ٢٢ سبتمبر ) وأقام بميدان الأزبكية احتفالاً عسكرياً مبهماً دعا إليه العظماء والقاضى التركى وكتخدا الباشا وأعضاء ديوان القاهرة ودواوين الأقاليم والأعيان ، وأبدع الثنانون الفرنسيون فى تنسيق هذا الاحتفال وظلوا عدة أيام يقيمون أقواس النصر وينصبون الساريات وعددها ١٠٩ بعدد المقاطعات الفرنسية ، رفعت عليها الرايات موشاة بأسماء مقاطعات فرنسا ، ونصبوا فى وسط الميدان سارية عظيمة سموها شجرة الحرية ، وأقاموا تماثيل من الخشب كالهياكل الكبيرة نقش عليها أسماء قتلى الفرنسيين فى مصر ، وأقاموا بوابتين كبيرتين ( أقواس نصر ) الأولى قبالة باب الهواء والثانية بناحية قنطرة الدكة التى كان يدخل منها ماء الخليج إلى الأزبكية ، نقش على إحداها صورة معركة الأهرام ، وكتب على الأخرى ( لا إله إلا الله محمد رسول الله ) ، وجرى الاحتفال يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ فعرض نابليون كتاب الجيش يحف به أركان حربه ، وبعد انتهاء العرض تلا الادجودان جنرال وييه Boyer خطبة لنابليون من خطبه الساحرة التى كانت تملأ قلوب جنوده حماساً وإقداماً (٣)

وبعد تمام خطبته دعا ضيوفه المصريين والفرنسيين إلى الغداء على مائتته ، وأضىء ميدان الأزبكية ليلاً بالأنوار ، واستمرت الموسيقى تعزف إلى ما بعد منتصف الليل

(١) «رسائل من مصر» بقلم المسيو جوزفروا سان هيلير

(٢) يبدأ التقويم الجمهورى بأول فانديمير من السنة الأولى الموافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ غداة

اليوم التى قررت فيه الجمعية الوطنية إلغاء الملكية فى فرنسا

(٣) تجد نص هذه الخطبة فى قسم الوثائق التاريخية

وإليك خلاصة مذكره الجبرتي في وصف، هذا الاحتفال :

« في يوم السبت حادى عشر ربيع الثانى سنة ١٢١٣<sup>(١)</sup> كان يوم عيدهم الموعود به ، فضربوا فى صيخته مدافع كثيرة ووضعوا على كل قائم من الخشب بندرة من بنديراتهم الملوثة ، وضربوا طبولهم واجتمعت عساكرهم بالبركة (بركة الأزبكية) ، الخيالة والرجالة ، واصطفوا صفوفاً على طرائقهم المعروفة بينهم ، ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبط والشوام فاجتمعوا ببيت صارى عسكر بونا بارتة وجلسوا حصّة من النهار ثم نزل عظاماؤهم وصحبته المشايخ والقاضى وكتخدا الباشا فركبوا وذهبوا عند الصارى الكبير الموضوع بوسط البركة (الميدان) وقد كانوا فرشوا فى أسفله بسطاً كثيرة ، ثم ان العساكر لعبوا ميدانهم وعلّوا هيئة حربهم وضربوا البنادق والمدافع ، فلما انقضى ذلك اصطفت العساكر صفوفاً حول ذلك الصارى وقرأ عليهم كبير قسوسهم<sup>(٢)</sup> ورقة بلغتهم لا يدري معناها إلا هم ، وكأنها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ ، ثم قاموا وأنفض الجمع ، ورجع صارى عسكر إلى داره فد سماطاً عظيماً للحاضرين ، فلما كان عند الغروب أوقدوا جميع القناديل التى على الجبال والتماثيل والأحمال التى على البيوت ، وعند العشاء عملوا حراقة بارود وسوارىخ ونفوط وشبه سواقى ودواليب من قار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل ، واستمرت القناديل موقدة حتى طلع النهار ، ثم فكوا الجبال والتعاليق والتماثيل المصنوعة وبقيت البوابة المقابلة لباب الهواء والصارى الكبير وتحتة جماعة ملازمون الإقامة عنده ليلاً ونهاراً من عساكرهم لأنه شعارهم وإشارة إلى قيام دولتهم فى زعمهم ،

وعلى الرغم مما بذله الفرنسيون ليجعلوا احتفالهم حافلاً بمظاهر السرور والبهجة فإن نفوس الأهالى كانت متقبضة عن تلك المظاهر ، ومن أظف ما قاله فى هذا نيقولا الترك الذى شهد هذا الاحتفال ووصفه فى كتابه<sup>(٣)</sup> أن الفرنسيين كانوا

(١) يوافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

(٢) هذا خطأ والصواب أن الذى تلا خطبة نابليون هو الأجدودان جنرال بويه Boyer وهو

ليس بكبير القسس وم يكن مع الجيش الفرنسى فسس

(٣) ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والديار الشامية ؛ لتعلم نيقولا الترك

يقولون إن هذه شجرة الحرية وأما أهالي مصر فكانوا يقولون إن هذه إشارة  
الحازوق الذي أدخلوه فينا واستيلائهم على مملكتنا، واستمر هذا العمود نحو  
عشرة أشهر وحينما رفعوه استبشرت أهل مصر وابتهجت بالفرح ،

وقال الدكتور ديجننت كبير أطباء الجيش الفرنسي في مذكراته : لقد تكلموا  
كثيراً حتى في أوروبا عن حفلات أول فنديمير وتأثيرها في نفوس المصريين ،  
على أن كاتب هذه المذكرات يؤكد أنها لم يكن لها أثر ما في سكان القاهرة بالرغم  
من مظاهر الفخامة التي أحيطت بها ، ويقول دي لاجونكيير<sup>(١)</sup> إن الجنرال  
برتييه Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية أصدر أمره في ٢١ سبتمبر إلى  
الجنرال ديبيوى قومندان القاهرة بأن يضع حرساً بناحية قنطرة الدكة التي كان  
يدخل منها ماء الخليج إلى ميدان الأزبكية خيفة أن يعتمد بعض أهل السوء فتح  
السد فتطغى المياه على مكان الاحتفال فتعكر صفوه

فهذه البيانات تدل على نفسية أهل القاهرة وانصرافهم عن مشاركة الفرنسيين

في حفلاتهم

---

(١) تاريخ حملة مصر الجزء الثالث



## الفصل الثالث عشر

### ثورة القاهرة

احتل الفرنسيون القاهرة ، ووطدوا سلطتهم بها ووضعوا أيديهم على كل شيء فيها ، لكنها لم تكن في يوم من الأيام راضية عن الاحتلال الفرنسي أو مستسلمة له ، وما فتئت تتحين الفرص للتخلص منه ، وعبثاً حاول نابليون بعد انتصاره الحربى أن ينتصر على ثورة النفوس وأن يحتمدب إليه قلوب المصريين ، ولم يكن إنشاؤه الديوان ، ولا تودده إلى الزعماء ، ولا اشتراكه في حفلات الشعب ، ليحل الصفاء والوثام محل الجفاء والحصام ، والواقع أن يد الفرنسيين الباطشة قد ضربت على الديوان فجعلته محدود السلطة مشلول الإرادة ، وكان أعضاء الديوان أنفسهم يظهرون الطاعة للفرنسيين مداراة ومجاملة ، وقلوبهم منكرة نافرة ، اعتبر ذلك فيما رواه الجبرقى عن المشادة التي حصلت بين نابليون وأعضاء الديوان ، فقد طلبهم إلى داره ذات يوم (١) ولما استقر بهم المقام أراد أن يلبسهم طيلسان الجمهورية الفرنسية ذا الثلاثة الألوان (٢) ووضع بيده الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى

(١) ٣٠ ربيع الأول سنة ١٢١٣ (أول سبتمبر سنة ١٧٩٨)

(٢) أصدر نابليون أمراً في سبتمبر سنة ١٧٩٨ بأن يحمل جميع سكان مصر شارة الجمهورية (السكرودارد) وأن ترفع المراكب في النيل الراية الفرنسية وأمر بانه ابتداء من أول فندمبير (٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨) لا يصرح للسلطة الفرنسية بان تسمم أى شكوى من أى شخص من الأهالى إذا لم يكن حاملاً تلك الشارة ولا يسمح للسفن بالملاحة في النيل ابتداء من ١٥ فاندمبير إذا لم ترفع الراية الفرنسية ، وأمر أن تنصب الراية الفرنسية بأعلى منارة في القاهرة وأعلى منارة في كل حاضرة من حواضر المديریات

ويقول الجبرقى ما خلاصته ان الفرنسيين أمروا بان يضم الناس الشارة الفرنسية (السكرودارد) فأوقف غالب الناس من وضعها ، ثم نادوا بإبطالها بالنسبة لعامة الناس وألزموا بعض الأعيان ومن يريد الدخول صندهم لحاجة من الحاجات بوضعها فكانوا يضعونها إذا أحضروا عندهم ويرفعونها إذا انفصلوا عنهم ؛ وذلك أياماً قليلة ثم تركت

رئيس الديوان تكريماً له وتعظيماً ، فرمى به الأرض محنقاً غاضباً ، واستعفى من الديوان ، وعبثاً حاول الترجمان أن يقنع المشايخ أن إلباسهم هذا الطيلسان هو تكريم لهم فلم يلق منهم قبولا ، وغضب نابليون على الشيخ الشرفاوى وقال إنه لا يصلح للرأسة

لم يعمل إذن أعضاء الديوان على تمكين علاقات نابليون بالشعب ، وما كان في استطاعتهم ذلك لو أرادوا ، فأخذ سخط الأهالي يستفحل ، وزاد فيه أعمال كثيرة أخرجت صدورهم وانتهت بنشوب الثورة في العاصمة

ثارت القاهرة في وجه الفرنسيين يوم الأحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ -  
١١ جمادى الأولى سنة ١٢١٣

لم يكن مألوفاً ولا منتظراً أن تثور القاهرة ، تلك المدينة الهادئة الوديدة التي احتملت ظلم حكامها السنين الطوال ، ولم يكن الفرنسيون يتوقعون أن تثور في وجههم وهم الذين فتحوا العواصم ودوخوا الممالك في القارة الأوروبية لكن ثورة القاهرة جاءت عنواناً لنفسية جديدة في الشعب المصرى ، ولاغرو فإن الحملة الفرنسية كما قلنا قد استفزت في نفوس الشعب روح المقاومة الأهلية ، وكانت القاهرة مسرحاً لتلك المقاومة كما كانت مصدراً لسريان الهياج والثورة إلى أنحاء البلاد

### لماذا ثارت القاهرة

من الواجب قبل أن نسرده وقائع تلك الثورة أن نتساءل لماذا ثارت القاهرة ، ما هي الأسباب التي أشعلت نار الثورة في تلك المدينة العظيمة التي اشتهرت من قبل بالإخلاق إلى السكينة ؟

ذكر الجبرتي أن تقرير الضرائب الفادحة التي فرضها الفرنسيون في أوائل جمادى الأولى هو الذى أدى إلى نشوب الثورة ، وهذا صحيح إذا اعتبرنا تلك الضرائب كالشرارة التي أشعلت النار ، لكن فكرة الثورة كانت محتمة في الرؤوس من قبل ، فلنبحث إذن عن أسبابها ومقدماتها

## الأسباب المالية

ان سلوك نابليون مع المصريين خالف في كثير من المواطن ما وعدهم به في منشوراته وبياناته ، لقد كان ينعى على المماليك ظلمهم واعتسافاتهم ، فانظر ماذا فعل هو في إرهاب الأهالي بالضرائب والمغارم

لما دخل الفرنسيون القاهرة فرضوا على سكانها ضريبة فادحة في شكل سلفة إجبارية ، ولم يستطع الديوان ، أن يمنعها على الرغم من تدخله في الأمر وتوسطه في تخفيفها

فقد روى الجبرتي أنه في يوم السبت ١٤ صفر سنة ١٢١٣ (٢٨ يولييه سنة ١٧٩٨) أي عقب أن استقر نابليون في العاصمة بأيام معدودة وعقب تأسيس (الديوان) بثلاثة أيام واجتمعوا بالديوان وطلبوا سلفة خمسمائة ألف ريال (مائة ألف جنيه) من التجار المسلمين والنصارى القبط والشوام وتجار الأفرنج أيضاً فسألوا (أي أعضاء الديوان) التخفيف فلم يجابوا فأخذوا في تحصيلها ،

فترى من ذلك أن الديوان لم تكن له سلطة ما في منع الغرامات والقروض الإجبارية التي يفرضها الفرنسيون ، ولعل ذلك كان من أهم الأسباب التي دعت إلى سقوط منزلته في نظر الشعب

وذكر دى لاجونكيير (١) بعض ما فرضه نابليون في أنحاء البلاد على مختلف الطبقات من القروض الإجبارية في الأيام الأولى للحملة ، فن ذلك أنه فرض على تجار الإسكندرية ثلثمائة ألف فرنك وعلى تجار رشيد مائة ألف فرنك ، وتجار دمياط ١٥٠ ألف فرنك ، وعلى تجار المنسوجات بالقاهرة ٦٠ ألف ريال نقداً و ٤٠ ألف ريال عروضاً (ملابس وأحذية للجنود) وعلى تجار البن والبهار بالقاهرة ٢٠٠ ألف ريال ، وعلى الأقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب في الأقاليم ١٠٠ ألف ريال ، ثم فرض على تجار خان الخليلي عشرة آلاف ريال ، ووكائل الصابون عشرة آلاف ريال ، ووكائل الفاكهة ستة آلاف ريال ، والسقائين ١٥ ألف ريال ،

(١) تاريخ حملة مصر الجزء الثاني . وانظر كذلك مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم

وتجار السكر عشرة آلاف ريال ، وتجار الأقمشة الهندية بالغورية ١٥ ألف ريال ،  
فهذه غرامات فادحة تنوء بها البلاد ولا سيما إذا لاحظنا ما كانت تعانيه وقتئذ من  
الضنك والفاقة

وقد تفنن الفرنسيون في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل ،  
فن ذلك أنهم أذنوا للنساء البسكوات المماليك أن يفتردين أنفسهن بالمال ليسكن في  
بيوتهن ، وإن كان عندهن شيء من متاع أزواجهن يبذلنه ، فإن لم يكن عندهن شيء  
منه يصالحن على أنفسهن ويأمن في دورهن

فهذه طريقة بلغت حد الإعانت والارهاق في جمع الأموال من النساء تلقاء أن  
يأمن على أنفسهن ! وهي أشد وطأة من الغرامات الحربية ، قال الجبرتي : وإن الست  
نفيسة زوجة مراد بك ظهرت وصالحت عن نفسها وأتباعها من نساء الأمراء  
والكشاف بمبلغ قدره مائة وعشرون ألف ريال فرنساوي وأخذت في تحصيل ذلك  
من نفسها وغيرها ووجهوا عليها الطلب ( أي طالبوها ) وكذلك بقية النساء  
بالوسائل المتداخلين في ذلك فصاروا يعملون عليهن إرهابات وتخويات (١) ،

ويقول ريبو (٢) إن مجموع ما فرضه الفرنسيون على نساء المماليك بلغ  
٦٠٠ ألف فرنك ، وإذا رجعنا إلى نص الأمر الذي أصدره نابليون بتاريخ  
١٤ ترميدور (أول أغسطس سنة ١٧٩٨) في شأن ما فرض على السيدة نفيسة زوجة  
مراد بك نجد أنه يقضى بأن تدفع هي وحدها ٦٠٠ ألف فرنك عن نفسها وعن نساء  
المماليك من أتباع مراد بك ، فيفهم من ذلك أن المبلغ الحاصل من نساء المماليك  
يزيد على ستمائة ألف فرنك . ويقول دي لاجونكيير إن ما أخذ من زوجة مراد بك  
خاصة ٤٩٢٠٨٥٧ فرنكا ، وما أخذ من باقي نساء المماليك ٣٢٤٠٧١٧ فرنكا ،  
وذلك إلى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، ولا شك أن هذه مبالغ جسيمة إذا قيست  
بثروة البلاد في ذلك العهد ، ويقول ريبو أيضاً إن السيدة نفيسة زوجة مراد بك  
اضطرت لدفع حصتها في الغرامة الحربية أن تنزل عن حايها وجواهرها ومنها

(١) الجبرتي الجزء الثالث

(٢) التاريخ العلمي والحربي للجملة الفرنسية الجزء الثالث

ساعة مرصعة بالجواهر كان أهداها لها القنصل مجالون باسم الجمهورية الفرنسية  
تقديراً لخدماتها ورعايتها للتجار الفرنسيين ، فكان اضطرابها للزول عن هذه  
الهدية للفرنسيين احتجاجاً شريفاً منها (١) ،

### استطـراد

#### إلى ترجمة نفيسة المرادية

«نفيسة المرادية، هي أكبر شخصية ظهرت بين سيدات مصر في ذلك العصر ،  
لذلك رأينا أن نسترد إلى الكلام عنها ونترجم لها

كانت نفيسة المرادية شركسية الأصل ، تزوج بها علي بك الكبير ، فصارت  
بمثابة ملكة مصر ، وبني لها قصرأ عظيماً بالأزبكية بدار عبد الحق ، ولما مات علي بك  
تزوج بها مراد بك ، فاحتفظت بمكاتها ونفوذها ، وكانت على جانب كبير من  
الثقيف والتهديب ، إلى روعة في الجمال وسمو في العواطف ، تعلمت العربية قراءة  
وكتابة وأقبلت على الكتب العلمية تطالعها وتدرسها ، فارتقت مداركها واكتسبت  
احترام العلماء والبكوات المماليك الذين كان بيدهم الحل والعقد وكذلك اجتذبت  
قلوب الشعب بما اشتهرت به من البر والأحسان ورفع المظالم وحماية الضعفاء ؛  
فعظمت مكاتها بين طبقات الشعب ، وسرت شهرتها إلى الأوساط الأوروبية إذ عرف  
عنها الميل إلى تنشيط التجارة والصناعة ومعارضة البكوات المماليك في سلب اموال  
التجار ، وقد أهدتها حكومة فرنسا قبل الحملة الفرنسية ساعة مرصعة بالماس قدمها  
لها القنصل مجالون Magallon اعترافاً لها بمبراتها وبخدماتها للتجارة ، وكانت تتبرع  
بإعانات شهرية لكثير من العائلات التي أخنى عليها الدهر ، واستمرت تؤدي هذه  
الإعانات حتى في أيام حنتها ، ولما جاءت الحملة الفرنسية وأنهزم مراد بك في واقعة  
الأهرام بقيت هي في القاهرة فاستهدفت للاناوات والفرامات الحربية كما تراه في  
سياق الكلام ، على أن قواد الجيش الفرنسي كانوا يعاملونها بالاحترام ، ولما جلا  
الفرنسيون عن البلاد استهدفت كذلك لمظالم الأتراك ، ذكر الجبرتي ما وقع من  
خورشد باشا من إساءة معاملتها فقال ماخلاصته : إن الباشا أمر بإحضارها إلى

(١) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الثالث

القلعة واتهمها بأن جارية لها تسعى في الاتفاق مع المماليك العصاة لتحريض الجند على التمرد ، فأنكرت هذه التهمة وطلبت الدليل على مانسب إلى جارتها وقالت : « إذا ثبت أن جارتى قالت ذلك فأنا المأخوذة به دونها ، فأخرج خورشيد باشا من جيبه ورقة وتظاهر بأنها تثبت ذلك ، فطلبت السيدة نفيسة الورقة فأعادها إلى جيبه فوبخته نفيسة على عمله وقالت له : طول ما عشت بمصر وقدرى معلوم عند الأكبر وخلافهم ، والسلطان ورجال الدولة وحرهم يعرفوننى أكثر من معرفتى بك ولقد مرت بنا دولة الفرنسيين فأرأيت منهم إلا التكريم ، وكذلك محمد باشا ( خسرو ) كان يعرفنى ويعرف قدرى ولم نر منه إلا المعروف ، وأما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم ، فقال : ونحن أيضاً لا نقبل غير المناسب ، فقالت له وأى مناسبة فى أخذك لى من بيتى بالوالى ( رئيس الشرطة ) مثل أرباب الجرائم ؟ فقال أنا أرسلته لسكونه أكبر أتباعى فأرسله من باب التعظيم ، قال الجبرتى : « ثم اعتذر لها وأمرها بالتوجه إلى بيت الشيخ السحيمى بالقلعة وأجلسوها عنده بجماعة من العسكر ، ( أى جعلوها تحت الحفظ ) فتدخل العلماء فى أمرها حتى توصلوا إلى إطلاق سراحها

يتبين من هذه الحادثة مقدار ما كان لنفيسة المرادية من المكانة بين الناس ، وقد أدركت عصر محمد على بعد أن أدبرت عنها الدنيا وفقدت أملاكها ولم يبق لها سوى النزر اليسير منها فعاشت فى قلة وفاقة إلى أن توفيت سنة ١٢٣١ هجرية ( ١٨١٦ م ) ، وقد ذكرها الجبرتى غير مرة ووصفها بالشهيرة الذكر بالخير ، ونعاها فى وفيات ذلك العام وقال فى ترجمتها إنها عمرت طويلاً مع العز والسيادة والحكمة النافذة ، وأكثر نساء الأمراء من جوارىها ، ولم يأت بعد الست شويكار من اشتهر ذكره وخبره سواها ، وقال إنها كانت من الخيرات ولها على الفقراء بر وإحسان ، ولها من المآثر الخان الجديد والصهرىج داخل باب زويلة توفيت يوم الخميس لعشرين من شهر جمادى الأولى بمنزلها المذكور بدرب عبد الحق ودفنت فى القرافة الصغرى بجوار الإمام الشافعى ، وأضيف الدار إلى الدولة وسكنها بعض أكابرها وسبحان الحى الذى لا يموت ،

### رجع ما اتقطع

ذكر الجبرني ما وقع على الناس من المغارم الأخرى ، فمن ذلك أن الفرنسيين طلبوا الخيول والجمال والأبقار والثيران والسلاح ، فحصلت عليها مصالحات ، أي أخذوا مقابلها نقداً ، وكانوا يفتشون المنازل ويكسرون الدكاكين بسوق السلاح وغيره ويأخذون ما يجدون فيها من الأسلحة ، وفي كل يوم ينقلون على الجمال والحمير من الأمتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك ما لا يحصى ، ويستخرجون الحبايا والودائع ، ويطلبون البنائين والمهندسين والخدام الذين يعرفون بيوت أسيادهم ليدلوهم على أماكن الحبايا ومواضع الدفائن ، وطلبوا أهل الحرف من التجار والأسواق وفرضوا عليهم نقوداً على سبيل القرض والسلفة مبلغاً يعجزون عنه وحددوا لدفعها أجلاً مقداره ستون يوماً ، فضجوا واستغاثوا وذهبوا إلى الجامع الأزهر والمشهد الحسيني وتشفعوا بالمشايخ ( أعضاء الديوان ) فتكلموا لهم فأنزلوها إلى نصف المطلوب ووسعوا لهم في أيام المهلة

هذا ما ذكره الجبرني من مظالم الفرنسيين ومغارمهم في الأيام الأولى من احتلالهم ، وذكر أيضاً أنهم قطعوا رواتب الأوقاف الخيرية عن مستحقيها الفقراء ، فبمثل هذه المغارم الفادحة لا يمكن أن تجتذب القلوب وتسترضى النفوس ولم تقتصر هذه المغارم على الأيام الأولى من الاحتلال بل استمر الفرنسيون في فرص الضرائب وجمع الأموال ولا سيما بعد أن تحطم أسطولهم في معركة أبو قير وأصبحت الحملة الفرنسية منقطعة عاجزة عن تلقي الأمداد والمساعدات من فرنسا متروكة لمواردها وموارد البلاد ، فأخذ الفرنسيون من ذلك الحين يتفنون في استخراج الأموال من البلاد وأهلها وتذرعوا إلى ذلك بوضع النظام الذي ابتدعوه لإثبات الملكية وتسجيل السندات والعقود وما تبعه من فرض الاتاوات الجديدة كما بينا ذلك في الفصل الثالث

كانت تلك المغارم الفادحة تناقض عهود نابليون في منشوراته وبياناته ، وهي وحدها كافية لصرف قلوب المصريين عن الثقة به وبوعوده ، لأن الشعب رأى أن الضرائب التي كانت تثقل كاهله في عهد المماليك قد بقيت كما كانت وزادت عليها

ضرائب جديدة ابتكرها الفرنسيون ، فصارت الحالة من الوجهة المالية أسوأ مما كانت في عهد الماليك ، والمسائل المالية كانت في مختلف العصور والبلدان من أهم أسباب تدمير الشعوب وشكواها

### مصادرة الأملاك وهدم المباني

ومن مظالم الفرنسيين التي أخرجت الصدور أنهم أخرجوا كثيراً من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم هم إليها ، وهدموا كثيراً من المباني والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة

قال الجبرتي في هذا الصدد : وفيه (شهر ربيع الثاني سنة ١٢١٣) أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول بالمدينة ليسكنوا بها فنزلوا وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة ، وشرعوا في بناء حيطان وكرانك وأسوار، وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة وبنوا على بدئات باب العزب (من أبواب القلعة) بالرميّة ، وغيروا معالمها وأبدلوا محاسنها ، وحوّما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء وما كان في الأبواب العظام من الأسلحة والدرق والبلط والحوادث والحرب الهندية واكر الفداوية ، وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحاسن الملوك والسلاطين ذوات الأركان الشاهقة والأعمدة الباسقة،

هذه رواية الجبرتي ، ويعترف نابليون في مذكراته أن ترميم القلعة استوجب هدم كثير من البيوت القريبة منها وامتد الهدم إلى المسجد المجاور للصور ، وأن سكان القاهرة قد ساورهم قلق شديد من رؤيتهم ضباط فرقة الهندسة يتولون الهدم وينصبون المدافع في الأماكن المهدومة (١)

(١) مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين



## هدم أبواب الحارات

وأمروا كذلك بهدم أبواب الحارات والدروب ، وكانت هذه الأبواب تغلق في الليل فتصير كل حارة في مأمن من اعتداء اللصوص ، فاشتد قلق الناس من هدمها وتظنوا بالفرنسيين أنهم عازمون على قتل الناس وهم في صلاة الجمعة ، ولم يكن الناس واهمين في ظنونهم ومخاوفهم فإن الفرنسيين كانوا يقصدون من هدم الأبواب إخضاع المدينة ومنع كل محاولة للقاومة . قال السكولونيل ديترو (١) Detroye في يومياته بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ : « إن شوارع القاهرة مفصولة بعدد كبير جداً من الأبواب الكبيرة التي تفصل الحارات والأحياء بعضها عن بعض ، ولقد رأى القائد العام أن هذه الأبواب قد تعطل انتقال الجنود في حالة الفتنة أو الهياج ، لذلك أمر بهدمها ، على أن هذه الوسيلة إذا كانت نافعة من هذه الوجة فلها عواقب وخيمة من جهة أخرى فإن الأبواب كانت تعزل الأحياء التي تظهر فيها الأوبئة ، فإذا أغلقت منعت سريان العدوى إلى الأحياء الأخرى وقامت حداثاً في الاختلاط بين الناس ، فبأى طريقة يمنع انتشار الأوبئة بعد هدم هذه الأبواب ؟ ، وجاء في يوميات الجنرال لوجيه Langier عما أحدثه هذا العمل من التذمر والسخط في نفوس الأهالي ما يلي :

« كان لكل شارع أو حارة باب كبير يقفل عليها ويمكن استخدامه كتاريس في حالة الثورة ، لذلك أمر القائد العام بنزع هذه الأبواب ، وقد تذمر الأهالي وجعلوا يصيحون ويسخطون ، ولكنهم بعد ذلك أذعنوا وأخذوا للسكينة ، وبعد أن أقفل التجار دكاكينهم احتجاجاً على هذا العمل عادوا وفتحوها ، والمعروف أن نابليون أصدر أمره بهدم أبواب الشوارع والحارات في شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ وقد انتهز فرصة اجتماع الديوان العام لإنفاذ فكرته ، ففي الوقت الذي كان الديوان منعقداً كان ضباط فرقة الهندسة يطوفون أحياء القاهرة ويباشرون هدم الأبواب ، واجتمع هدم الأبواب وتحصين الفرنسيين للقلعة

(١) السكولونيل ديترو هو من قواد الحملة الفرنسية ، كان رئيساً وكان حرب الجنرال كافريللي ، ويومياته على جانب عظيم من الأهمية دون فيها الحوادث التي شاهدها إلى حصار عكا إذ قتل أثناء الحصار

وفرضهم الضرائب الجديدة فكانت هذه العوامل المجتمعة من أسباب الهياج الذي أعقبته الثورة

### القتل والإرهاب

ومن المظالم التي أثارَت نغمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الوطني والحكم عليه بالإعدام وتنفيذ الحكم فيه مما رأته مفصلاً في الفصل الخامس ، وكذلك وصول أخبار الفظائع التي ارتكبتها الجنود في المديرية وحضور الرهائن الذين قبض عليهم من البلاد وحبسهم بالقلعة (١) ، والواقع أن الفرنسيين كانوا يسرفون في قتل الناس ليدخلوا الرهبة في قلوب الأهالي ويحملوهم على الخضوع والإذعان ، وهذا مستفاد من بعض رسائل نابليون إلى قواد الجنود الفرنسية في الأقاليم ، ففي رسالته إلى الجنرال زاينوشك Zayonchek قومندان المنوفية يقول (٢) : « لا بد أن تكون جاءتك تعليماتي لتنظيم مديريتك (المنوفية) ، يجب أن تعاملوا الترك بمنتهى القسوة ، وإني هنا أقتل كل يوم ثلاثة وأمر بأن يطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة وهذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح ،

وظاهر أن نابليون يقصد من عبارة «الترك» الأهالي ، ولا يمكن أن يقصد الأتراك العثمانيين لأنه في تاريخ هذه الرسالة كان يتوود إليهم كثيراً ويتظاهر بحبته لسلطان تركيا ، وكلمة «ترك» كثيراً ما يستعملها الكتاب الفرنسيون للتعبير عن الأهالي المصريين ، وهذا مفهوم من رسالة أخرى لنابليون إلى الجنرال منو Menou قومندان رشيد (٣) يقول فيها :

« إن الترك لا يمكن إخضاعهم إلا بالقسوة وفي كل يوم أمر بقتل خمسة أو ستة

(١) كتب نابليون إلى الجنرال كافاريلي بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٧٩٨ يبينه بأنه سيحضر إلى القاهرة نحو خمسين من الأهالي من مختلف بلاد القطر المصري وكلفه أن يهيئ لإقامتهم سجن القلعة

(٢) بتاريخ ٣٠ يولييه سنة ١٧٩٨ ، مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٠١

(٣) بتاريخ ٣١ يولييه سنة ١٧٩٨ ، مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٠٧

في القاهرة ، لقد كنا نتفادى التعرض لهم حتى نزيل عن سمعتنا وصمة الإرهاب ، تلك التهمة التي كانت تسبقنا إلى أذهان الناس ، أما الآن فيجب علينا أن نستعمل الوسائل التي تؤدي إلى إخضاع هؤلاء القوم ، وإخضاعهم معنا تخويفهم ،

• • •

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت فكرة الهياج تختمر في الأذهان ، وجاءت الضرائب الجديدة فأشعلت بركان الثورة ، ومهما اختلف المؤرخون الفرنسيون في بيان أسباب ثورة القاهرة وعزاها بعضهم إلى الدعاية الدينية التي كان يبثها رجال الدين فإنهم يعترفون بأن فداحة الضرائب كانت من أهم العوامل التي عجلت بها ، قال دي لاجونكيير (١) : « كانت الدعوة إلى الثورة تختلط علناً بأذان المؤذنين فيدعون إلى الله وإلى الثورة على المآذن صباح مساء فبلغ تهيج النفوس أشده حتى لتكفي حادثة واحدة أن تضرم بركان الهياج القومي ، ولقد كان فرض الضرائب على المنازل سبباً كافياً استغله دعاة الثورة لإثارة الهياج في نفوس من لم تستفزهم الدعاية الدينية ،

### لجنة الثورة

كان للثورة لجنة تديرها وتشر دعوتها وتنظم صفوفها ، ومقرها في الأزهر وفي ذلك يقول ريبو :

« لقد اجتمع إلى جانب تدمير الأهالي واستيائهم نشر الدعاية إلى الثورة ، فكان في الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدبير الثورة تعمل على إثارة الكراهية في نفوس الناقلين (٢) ، وقال الجبرتي بعد أن ذكر احتشاد الجماهير في الطرقات : « ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عاقبة الأمور ، ولم يتفكر أنه في القبضة مأسور ، وظاهر أن الجبرتي يقصد بأولئك المتعممين الداعين إلى الثورة

(١) حملة مصر الجزء الثالث

(٢) التاريخ العملي والحربي للحملة الفرنسية في مصر الجزء الرابع

ويقول نابليون في مذكراته إن الشعب قد انتخب (ديوانا) للثورة ونظم المتطوعين للقتال واستخرج الأسلحة المخبوءة ، وإن الشيخ السادات انتخب رئيساً لهذا الديوان (١) ، وذكر في تقريره إلى حكومة الديركتوار عن ثورة القاهرة أن (لجنة الثورة) كانت تتعقد بالأزهر

فالأزهر إذن كان مركز الثورة في أواخر القرن الثامن عشر ، وقد شغل هذا المركز بعد أكثر من مائة عام ، فإن الأزهر خلال سنة ١٩١٩ كان في فترة من الزمن المعسكر العام للثورة القومية التي قامت في مصر عقب انتهاء الحرب العالمية (الأولى) ، والتاريخ يعيد نفسه

### وقائع الثورة

أخذ دعاة الثورة يحرضون الناس على التمرد والانتفاض على الفرنسيين ، وشرعوا في الوقت نفسه يثيرون الشكوك والريب حول أعضاء الديوان ويتهمونهم بمالأة الفرنسيين حتى لا يستمع الجمهور لنصائحهم في الإخلاء إلى السكينة ، وقد أفلحوا في إحراج مركز أعضاء الديوان فأخذت منزلتهم تتضعض في نفوس الشعب

وكانت الدعوة إلى الثورة تتردد على ألسنة الأهاالي لكنها لم تقابل في مبدأ الأمر إلا بعطف الناس وميلهم دون أن تقترن بإعلان الثورة فعلا ، حتى جاءت الضرائب الجديدة فزادت عدد الناقين على الحكم الفرنسي ، وسرت روح الثورة إلى طبقة الملاك والتجار وأصحاب الصناعات وجاء تنفيذ نظام الضرائب الجديدة على طريقة مثيرة للخواطر ، لأن تقييد الأملاك في دفاتر الضرائب اقتضى معاينة المنازل والدخول فيها لتقدير قيمتها ، وهذا أمر يستفز الملاك ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « وعينوا (الفرنسيون) المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى (من العقارات) وشرعوا في الضبط والإحصاء وطاقوا بالجهات لتحرير قوائم الأملاك وضبط أسماء أربابها ،

(١) مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين

وقد بدأ ذوو اليسار يتذمرون لأن الضرائب الجديدة أثقلت كاهلهم ، وهؤلاء وإن لم يشتركوا فعلاً في الثورة إلا أن إقرارهم لها أمدتها بالمساعدات المادية والمعنوية ، وبذلك اشتركت طبقات الشعب كلها في ثورة القاهرة ، واغتمت دعاة الحركة فرصة تدمير الشعب من الضرائب الجديدة فبدأوا يعملون لاهتياج الخواطر وإشعال النار ، وتعاهدوا على الاجتماع ليلة الأحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ لرسم الخطة الواجب اتباعها ، فاجتمعوا وكان عددهم في ذلك الاجتماع ثلاثين ، فانفقوا رأياً على البدء بالعمل في اليوم التالي ، وأزمعوا إقفال الدكاكين ودعوة أكبر عدد من التجار والصناع للذهاب بجمع كبير من الشاكين إلى مركز القيادة العامة لرفع الصوت احتجاجاً على الضرائب الجديدة ، وبذلك يحدث في المدينة حركة يكون منها الشعب واليهاب فتكون مقدمة للثورة

### اليوم الأول للثورة

٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨

وقد وقع مارسموا ، في اليوم الموعود - ٢١ أكتوبر - كانت القاهرة في حالة لم يألها الناس من قبل ، فكان الناس يتألبون في الشوارع زرافات ، يشكون ، ويتهددون ، ويخطب بعض المعممين هذه الجموع فيشعلون نار الحماسة في قلوبهم فتقابلهم الجماهير بالتأييد والتحميد ، وكان الناس يتلاقون على غير تعارف ، فيتبادلون الشكوى ويتعاهدون على المقاومة ، وأخذت سمات الغضب تبدو على الشعب الهادي\* الوديع ، وظهرت الأسلحة في أيدي المتجمهرين في الشوارع والميادين بعد ما كانت محجوبة عن الأنظار ، وأقبل الفلاحون وأهل الضواحي إلى القاهرة ، فاشتركوا في هذا التجمهر ، وأخذت صيحات السخط واللعنات تنصب على الضرائب الجديدة وعلى الفرنسيين

قال ريبو يصف هذه الحالة : «سادت الجلبة ، واختلطت الأصوات ، وعلت الصيحات ، فكان هذا المنظر يبعث الرهبة في نفوس أشجع الناس . ولم يعد هناك شك في أن الثورة قد بدأت ،

وهرعت جموع الناس إلى بيت القاضي التركي إبراهيم أدهم أفندى ( ويسميه الجبرتي بمقمشي زاده ) وكان رجلاً وقوراً يحترمه الناس وله في نفوسهم مكانة ومنزلة ، وتقدم عشرون من المتجمهرين فقابلوا القاضي وقالوا له إنهم يريدون الذهاب إلى بونابارات ليلغي نظام الضرائب الجديدة ، وطلبوا منه أن يركب معهم ، فاستجاب لهم ، ولكنه لم يكدهم يتخطى عتبة داره حتى رأى الثائرين وجموعهم تزحف زحفاً ، فأدرك خطورة الأمر وقال للجمع إن هذه الطريقة ليست مما يتبع لتقديم شكوى ، واعتذر من مصاحبتهم وانكفأ إلى بيته ، فثارت نفوس الجماهير ونادوا : إلى بونابارات ! إلى بونابارات ! القاضي معنا إلى بونابارات ! ولما لم يقبل القاضي مصاحبتهم انهلوا عليه وعلى رجاله ضرباً بالعصى ورجماً بالأحجار

تلك رواية المراجع الفرنسية عن بدء الثورة ، وهي تقرب من رواية نابليون في تقريره الذي أرسله إلى حكومة الديركتوار بتاريخ ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ عن وقائع الثورة ، وقد كان تقريره موجزاً اجتهد فيه أن يقلل من خطورتها ، ولكنه وصف ابتداءها وصفاً دقيقاً بقوله : « ... في الساعة السابعة صباحاً احتشد جمع كبير من الناس على باب القاضي إبراهيم أدهم أفندى ، وهو رجل محترم بأخلاقه وصفاته ، واختار الجمع عشرين من زعمائهم لمقابلة القاضي في داره والزموه أن يركب معهم ويحضروا إلى ، وقد طأوعهم القاضي وركب معهم إلى أن قابله رجل بصير بالأمور فأفهمه أن الجمع الذي يسير معه كبير جداً ، وسواده من الدهماء بحيث لا يمكن أن يكون مقصده ما يزعم من الشكوى وحديثها ، فأدرك القاضي وجهة هذه الفكرة ونزل عن جواده ورجع إلى منزله فاستاء الجمهور وانهلوا على القاضي وحاشيته رجماً بالأحجار وضرباً بالعصى ونهبوا منزله ،

كانت هذه الحادثة كإعلان للثورة ، فاحتشدت الجموع في الجامع الأزهر يضحجون ويصيحون ويهتفون بالقتال ، وامتلات الطرق والشوارع بالناس حاملين الأسلحة قاصدين إلى أحياء الفرنسيين لمهاجمتها

حدث كل ذلك والسلطات الفرنسية لم تحسب حساباً لهذه الجموع أو تتوقع

حدوث ثورة ما ولم تتخذ التدابير لمنع احتشاد الجماهير المسلحة ، فعمت الثورة مدينة القاهرة كلها في أسرع من لمح البصر ، وأخذ الثوار طريقهم إلى مركز المخافر الفرنسية فقتلوا الجنود والحراس

### مقتل الجنرال ديپوى Dupuy

لم يقدر الجنرال ديپوى قومندان القاهرة (١) في مبدأ الأمر خطورة الحالة ، وجاءته أنباء غامضة عن الهياج ، فلم يحسب له حساباً ، ولم يره أمراً ذا بال ، واكتفى بإنفاد بعض دوريات من الجند ، ولكنه لم يلبث أن حُبر الخبر بما يدل على اشتداد الأمر وتفاقم الثورة ، فزم على مواجهتها ، وكان الرجل معروفاً بالجرأة والإقدام فاصطحب ياوره الكابتن موري Maury والمسيو بودوف Baudeuf التاجر الفرنسي ليكون ترجماناً له في مخاطبة الجماهير ، وسار يقصد بيت القاضي ليمتعرف أسباب الهياج ، وأصدر في الوقت نفسه أمره إلى الجنود المرابطة في بركة الفيل (٢) بأن تحمل السلاح وتأهب للقتال ، ومضى في كتيبة من الفرسان قاصداً مركز الهياج ، فسار من بركة الفيل إلى الموسيقى واتجه إلى شارع الغورية وأراد أن يذهب إلى بيت القاضي ( بين القصرين ) ، ولكن الشوارع ازدحمت بالجموع حتى صارت كأنها بحر يخر بالناس ، فأخذ الجنرال ديپوى يشق لنفسه طريقاً بين هذه الجموع الصاخبة ، وتساقطت الأحجار على الكتيبة من الناس ومن المنازل ، فخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وهناك لقي جمعاً من الثوار أخذوا الطريق عليه ، فحاول بودوف أن يخاطب الناس فأجابوه بالسخط واللعنات ، ولم يحسب ديپوى حساباً لعواقب مواجهته هذه الجموع الثائرة ، فهجم عليها على رأس فرسانه ، فارتدت أول وهلة ، لكن الهجوم كان في زقاق ضيق بحيث لم يستطع الفرسان أن ينطلقوا في حركتهم ، فأطبق الناس على الجنرال ديپوى من كل جانب ، وفي هذا الوقت

(١) كان بمثابة حاكم القاهرة ولتلك بلقب ( شيخ البلد ) وهو اللقب الذي كان يعطى لرئيس المماليك في القاهرة كما بينا ذلك في الفصل الأول ، والجنرال ديپوى من قواد الجيش الفرنسي الذي حارب في إيطاليا تحت قيادة نابليون قبل مجيئه إلى مصر وكان قومنداناً لميلان حينما اختاره نابليون ضمن قواد الحملة الفرنسية

(٢) كان الجنرال ديپوى يسكن بيت إبراهيم بك ببركة الفيل

جاء برتلبي الرومي (١) في شردمة من رجاله انجدة الجنرال ديبوى ، وكان برتلبي هذا مشهوراً بالقوة والفضاعة ، فأطلق رصاصه على الجموع المحتشدة ، فكانت هذه الرصاصه شؤماً على الجنرال ديبوى أثارت غضب الجماهير ، فهجموا على الفرنسيين وبينهم ديبوى وانهاوا عليهم ضرباً بالعصى ، ورجماً بالأحجار ، وأخذوا بالسيوف ، وطعنوا بالرمح ، ورشقوا بالسهم ، فأدرك ديبوى حرج الموقف ، ولكنه لم يجد لنفسه ولا لجنوده مفرأ ، وفيما هو كذلك أصابته طعنة رمح في ثديه الأيسر فقطعت شريانه ، وأراد ياوره الكابتن موري أن يدافع عن قائده ، فسقط عن جواده ، وبالرغم مما أصاب ديبوى فإنه مد يده إلى ياوره يحاول رفعه عن الأرض فتفجر الدم من طعنته وخرَّ صريعاً ، وهناك خف الهياج والتجمهر في الشوارع ووصل الدكتور لارمى Larrey كبير جراحي الجيش ليضمد جراح الجنرال ونقلوه إلى دار صديقه الجنرال جونو Junot بالأزبكية ، بيد أنه لم يفده إسعاف ولم ينفعه علاج ، وأسلم الروح متأثراً من جراحه

ذاع خبر مقتل ديبوى في أنحاء المدينة كالبرق ، فحمى الثوار وامتلاوا حماسه ، وظنوه سهلاً عليهم وقد قتلوا قومندان المدينة أن يقتلوا القواد والجنود في الشارع ، وانحازت الجموع الهادئة إلى صفوف الثورة متشجيعين بهذا النصر الأول ، فزاد عدد الثائرين وتضاعف ، واشتدت حمية القتال في نفوسهم ، واستولوا على المواقع المحيطة بمعظم خطط القاهرة ، كباب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشعرية إلى جهة البندقيين ، واتخذوا من مساطب الخوانيت متاريس أقاموها في الشوارع والحارات يستدفعون بها الجنود ويعرفلون سيرهم ، وأخذوا يطلقون النار من خلالها ، وزادت جموع الثائرين بمن انضم إليهم من أهل الضواحي الذين أقبلوا من طريق الأهرام وبلبيس

(١) يسميه الجبرتي برتلبي الرومي وكان العامة يسمونه « فرط الرمان » ، وهو كما يقول الجبرتي من أسافل الأروام العسكرية القاطنين بمصر ، وكان من الطوبخية عند محمد بك الأتقي وله حانوت بخط الموسيقى يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة ، وكان مشهوراً بالقوة والفضاعة وكرهته الأهالي ، عينه الفرنسيون ( كتحدا مستحفظان ) أى وكيل المحافظة فكانت له سطوة كبيرة في عهدهم وسفك دماء كثيرة وضح الناس من فظائمه وشروره



ولما بلغت الثورة هذا المبلغ أطلق مدافع الخطر وضرب التفير العام صائحاً بالجنود الفرنسية إلى القتال ، فأخذوا يتجمعون ويطلقون النار على الثوار في الشوارع وخلفا المتاريس ، وطفقت جموع الثوار تحتشد في حي الأزهر ، وامتنع بالجامع الأكبر خمسة عشر ألفاً من أشد الثوار حماسة وأقاموا المتاريس في الطرق والأزقة الموصلة إليه

وهنا حضر نابليون إلى القاهرة ، فإذا هي كالشعلة يضطرم نارها ، حضر وصحبه الجنرال كافاريللي Caffarelli ودومارتان Dommartin والكولونل ديتروا Detroye ، وأخذ يعد ما استطاع لمواجهة الثورة

### وصف الثورة

بقلم شاهد عيان

للكولونل ديتروا يوميات كان يدون فيها وقائع الحملة الفرنسية فوصف الثورة كما شاهدها ، قال :

٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ - الساعة السادسة صباحاً ، احتشدت الجموع في عدة أحياء من القاهرة ، وعلت أصوات السخط والاستياء ، وأخذ الناقدون يعددون أسباب سخطهم ، وصاح المؤذنون على مآذهم ينادون نداءات مثيرة للخواطر ، وانثال الناس مسلحين بالبنادق والعصى يقصدون الاجتماع في صعيد واحد ، ثم أقفلت الدكاكين ، وفي نحو الساعة الثامنة صباحاً علم الجنود الفرنسية بهذا الشر فتأهبت للقتال ، وكان القائد العام مطمئناً لموقفه فركب جواده وصحبه من القواد كافاريللي ودومارتان ، وكنت معهم ، وذهبنا نتفقد استحكامات مصر القديمة وجزيرة الروضة ، وفي نحو الساعة العاشرة جاءه الخبر أن القتال قد بدأ في المدينة (١) وأن أناساً قتلوا من الفريقين وأن الجنرال دييوى قومندان القاهرة

(١) جاء في مذكرات نابليون أنه غادر القاهرة في شروق ذلك اليوم لزيارة ترسانة ( دار صناعة ) الجزيرة قبل نشوب الثورة وأنه عاد إلى القاهرة في الساعة التاسعة صباحاً ، على أن شهادة الجنرال ديتروا تدل يقيناً على أن نابليون كان وقت نشوب الثورة في القاهرة ولكنه غادرها إذ لم يساوره =

ضمن القتلى صرعه الثائرون برمية سهم نفذت إلى ثدييه وكان في كتيبة من الفرسان  
ذهب القتل بكثير منهم

• رجعنا إلى المدينة ولما دخلنا من جهة مصر القديمة أمطرنا الثائرون مطراً من  
الحجارة فعدنا أدراجنا وقصدنا باب بولاق ، ودخلنا منه فرأينا المدينة في أفضع  
حالة ، سمعنا طلقات البنادق في كل مكان ، فرأينا الجثث ملقاة على الأرض هنا  
وهناك ، وسرايا ( دوريات ) الجنود يهاجمها الثائرون في كل جهة فيضطر الجنود  
غالباً إلى التقهقر راجعين إلى مواقعهم الاحتياطية ، وفي حى الفرنسيين نفسه قريباً  
من المعسكر العام بينما كنت على رأس جماعة من حرس القائد العام هاجمى ١٥٠  
من الثائرين ، ولم أستطع إنقاذ حياقي إلا بعد أن قتلت من تفرست أنه رئيسهم  
وفتحت ثغرة في صفوفهم ، وكان الفرنسيون وقتئذ يحتلون المواقع الآتية :

• القلعة ( قلعة الجبل ) حيث كانت لنا مدفعية قوية ، وميدان بركة الفيل حيث  
كان يعسكر معظم الجنود ، ثم ميدان الأزبكية مقر القيادة العامة وكان يحميه ١٥  
مدفعاً ، وقد أمكننا بعد جهد وصعوبة أن نمد الاتصال بين هذه المواقع المختلفة  
• أما المعسكر العام للثائرين فكان الجامع الكبير المسمى بالأزهر ، ذلك  
المسجد الجميل الذي طارت شهرته في أنحاء المشرق ، وقد أقام الثائرون المتاريس  
على منافذ الشوارع المفضية إليه ، فأصبح من المستحيل أن تفتح المدفعية  
أو الجنود المشاة

• أدرك القائد العام خطر الحالة واستفحال الثورة وإقبالها بوجهها المرعب  
الخيف ، وأغضبه انتصار الثائرين على عدد كبير من الجنود وهجومهم على دار فرقة  
الهندسة (١) ونهبهم أدواتها ، ثم بخاصة قتلهم الجنرال ديوى ، فأمر الجنرال دومارتان

---

= بدء الأمر قلق من وقائعها الأولى . ورواية ديبروا أدق وأدعى إلى الثقة لأنه كان بدون مذكراته  
يومياً وقد مات في حصار عكا ، أما نابليون فأمل مذكراته على الجنرال برتران في منفاه بسانت هيلين  
بعدا أكثر من ستة عشر عاماً مضت من وقوع هذه الحوادث .

(١) بيت مصطفى كاشف بالدرب الأمر وكان يسكنه الجنرال كافاريللى رئيس فرقة الهندسة

قومندان المدفعية أن ينصب المدافع على رُبِّي المقطم إلى شرقي القلعة لتعاون  
مدافع القلعة في إطلاق القنابل على الجامع الأزهر ،

هذا ما رواه السكولونل ديتروا في يومياته عما شاهده من حوادث اليوم  
الأول للثورة وعن الاستعداد لليوم الثاني ، ونزيد عليه أن نابليون أمر بأن يتولى  
الجنرال جونو Junot قيادة الجنود المعسكرة في الأزبكية وإقامة مخافر من الجنود  
لمراقبة الجهات المجاورة لها ، وتسيير طلائع مسلحة لاكتشاف جهات القاهرة  
ووضع مدافع على منافذ الشوارع المهمة ، وأمر بتعيين الجنرال بون Bon قومنداناً  
للقاهرة خلفاً للجنرال ديوي ، وكلفه « اتخاذ اللازم لإعادة النظام في المدينة ،  
( أمر ٣٠ فاندسمير - ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ) ، وعهد إلى الجنرال لان Lannes  
الذي كان معسكراً في مصر القديمة أن ينتقل بجنوده في فجر اليوم التالي ليحتل  
المرتفعات القائمة خارج المدينة ومعه من المؤونة ما يكفي الجنود مدة يومين  
وقد أرسل الجنرال بون بعد تعيينه التقرير الآتي إلى نابليون يصف فيه حالة  
المدينة الثائرة :

٢١ أكتوبر الساعة العاشرة مساءً ، إن مركز الثورة لا يزال في حى العرب  
حيث يوجد الجامع الأكبر - الأزهر - وقد أحاط الثائرون هذا المعسكر  
بالمباريس التي سدت جميع الشوارع المفضية إليه ، ولم نستطع كشف هذه الشوارع  
لأن الظلام يخيم عليها ، وقد أطلق الرصاص على طلائعنا . والمظنون أن الغد  
كالיום ، فلا سبيل غداً إلى تشتيت الجموع المسلحة التي تتدفق من هذا المعسكر  
الثوري ، لذلك أرى في هذه الحال أن تقرر اتخاذ وسائل الشدة والصرامة ،

### اليوم الثاني للثورة

يوم الاثنين ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨

انقضى الليل في سكون ، والفريقان يتأهبان للغد ، وانتقل الجنرال دومارتان  
ليلاً ونصب المدافع على سفح المقطم بالقرب من القلعة ، أما دعاة الثورة فقد  
ذهبوا في جنح الليل إلى القرى المجاورة يستصرخون الناس للقتال ، وفي الفجر

كان أهالى هذه الضواحي يتوافدون على المدينة وكان معظم أبواب القاهرة لم تزل في أيدي الثوار ففتحوها لهم ودخلوا المدينة وجابوا شوارعها حاملين أسلحتهم من عصي ورماح وبنادق

وبدأ النهار بتجمهر الناس في الشوارع ، وكانت صيحات المتجمهرين تشق إلى السماء ، وأخذ نابليون ينفذ الخطة التي وضعها في ليلته ، فوجه إلى كل جماعة من الثوار القوة الكافية للتغلب عليهم ، وعلم أن حشداً من الثوار قدرهم في مذكراته بين سبعة آلاف وثمانية آلاف خرجوا من باب الفتوح يرمون إلى الهجوم على المرتفعات المركبة فيها المدافع ، فصدتهم الجنود الفرنسية وفرقت شملهم ، وصعد جموع من الثوار على أسطحة جامع السلطان حسن ومناراته لضرب القلعة ومن فيها من الجنود ، فلم يفوزوا بطائل ، وكانت كتيبة من الجنود الفرسان ومعها مدفعان تحتل مدخل الحارة الموصلة إلى ميدان الأزبكية ، فعزم الثوار على مهاجمة هذه الكتيبة ولكنهم لم يستطيعوا أن يهاجموها من الشارع ، فتسلقوا المنازل وعلوا الأسطحة القريبة واحتلوا جامعاً صغيراً يشرف على موقع الكتيبة وأصلوها ناراً حامية قتلت الكثير من الجنود ، فهجم العسكر على المسجد وحطموا أبوابه وقتلوا معظم الثوار بنار البنادق والمدافع ، وتنفيذاً لتعليمات نابليون وزع الجنرالات لان Lannes وفو Vaux والكسندر دوماس Dumas جنودهم بعد الفجر في ضواحي القاهرة لمنع سكانها أن ينحازوا إلى ثوار العاصمة ، وقد صدت القوات الفرنسية جموعاً كثيرة من الأهالي وحالت بينهم وبين العاصمة ، وبذلك تمكن نابليون من حصر الثورة في المدينة وعزلها عن البلاد المجاورة

### مقتل الكولونل سلكوسكى

وكان الكولونل سلكوسكى Sutkowski ياور نابليون من عهد إليهم إنفاذ هذه المهمة ، فركب في الصباح ومعه كتيبة من حرس القائد العام ومضى على طريق بليس ليصد الأهالي منه ، وفيما هو عائد إلى القاهرة من (باب النصر) تلقاه الثوار وأرادوا منعه هو وكتيبته من دخول المدينة ، فهاجمهم سلكوسكى

بشرذمة من الجنود ، وفي أثناء القتال كبا جواده وألقاه على الأرض ، وكان لم يزل يشكو من جراحه التي أصابته في معركة الصاخية ، فهجم عليه الثوار وقتلوه ، وكان هذا الضابط بولوني الأصل سليل بيت من البيوت العريقة ، هاجر من بلاده فراراً من الظلم وتطوع في الجيش الفرنسي ، وكان من قبل مجاهداً في سبيل حرية بلاده تحت لواء كوشيسكو بطل بولونيا الشهير ، فلما هزم كوشيسكو تطوع في الجيش الفرنسي وعينه نابليون ياوراً له تقديراً لكفائته وإعجاباً بعواطفه النبيلة ، وكان على جانب من العلم والذكاء ، فجعله عضواً بالمجمع العلمي بمصر ، وكان لكل ذلك موضع عطف واحترامه ، فلما جاءه نبأ مقتله حزن عليه حزناً شديداً ونعاه إلى حكومة الديركتوار في التقرير الذي بعث به إليها عن ثورة القاهرة

### وساطة أعضاء الديوان

وفي ضحوة هذا اليوم جاء أعضاء الديوان لمقابلة نابليون يسألونه الكف عن الضرب ، فتلقاهم بفتور ورمهم بالتهاون في منع الثورة ، وبعد مناقشة بينهم أمهلهم حتى يعودوا إلى الثوار ويدعوهم إلى إلقاء السلاح والإخلاق إلى السكينة ، وفي الوقت نفسه أمر الجنرال دومارتان قومندان الطوبجية بأن يمسك عن ضرب المدينة بالمدافع إلى أن تصله أوامره

و كانت كتائب الجنود قد تغلبت على الثوار في معظم أحياء المدينة وانحصرت الثورة في حي الجامع الأزهر وما حوله ، فذهب أعضاء الديوان إلى الأزهر لينصحوا الثوار بالكف عن القتال فلم يأبهوا لهم ، ومنعهم الثوار أن يتخطوا المتاريس وأبوا عليهم الدخول إلى الأزهر . ولم يبلغ المشايخ إلى نابليون ما انتهى إليه سعيهم ، وكان نابليون يرقب حركات الأزهر من الصباح ويصدر تعليماته إلى القواد على ما يقتضيه تحول الحال

ففي الصباح أرسل له الجنرال بون قومندان القاهرة يطلب منه أوامره ، ويقول في رسالته : « إن الدوريات التي اكتشفت في فجر يومنا هذا حي الأزهر أبلغتني أن السكينة سائدة عليه ، لكن دوريات أخرى أنبأتني بعد ذلك أن الحال غير

هذا ، ومن الواجب التذرع بالشدة لتفريق الجموع المسلحة التي تحتشد في هذا الحى ،  
وإني منتظر أمركم ، ومن رأي أن نميل بقوتنا على هذا المسجد ، ولكن من الصواب  
أن نزحف عليه من كل الجهات التي تفضى إليه ،

فأنفذ الجنرال برتويه Berthier رئيس أركان الحرب في الساعة الثانية بعد  
الظهر إلى الجنرال بون تعليمات القائد العام وهي :

« عليكم أن تهاجموا الفوركم معسكر الثائرين ، وأن تضربوا الأزهر بالمدافع ،  
ولتكن المدافع في أصلح موقع ليكون الضرب أشد أثراً ، بلغوا الجنرال  
« دومارتان ، أن يفعل مثل ذلك وأن يستولى على مدخل الأزهر والمنازل الموصلة  
إليه ، وعليكم أن تقتحموه بجنودكم تحت حماية المدافع ، والقائد العام يأمر أن  
تقتلوا كل من تلقونه في الشوارع المسلحة ، وعليكم أن تعلنوا الأهالي بأن كل  
المنازل التي تلتقي منها الحجارة تحرق حالاً بالنار ويعنى عن المنازل الأخرى وعليكم  
أن تقتلوا كل من في المسجد وأن تضعوا فيه حرساً قوياً من الجنود ،

### ضرب المدينة بالمدافع

وبينما كان الثائرون مجتمعين في الأزهر قذفت أول قنبلة من المدافع القائمة  
على ربي المقطم ، فانفجرت في المسجد ، وكانت هذه القنبلة نذيراً بابتداء حرب  
المدينة بالمدافع

يقول ريبو<sup>(١)</sup> إن إطلاق القنابل بدأ في الساعة الرابعة تماماً ، لكن الكولونيل  
ديتروا يقول في يومياته إن الضرب ابتدأ في الظهر واستمر إلى الليل ، وروايته  
أدعى إلى الثقة لأنه شاهد لتلك الحوادث شهادة عيان

أخذت آلاف القنابل تنال على الأزهر وتترامى في الأحياء المجاورة له ،  
كالصناديق والغورية والفحامين ، وتنفجر بهول لم يعهده سكان القاهرة من قبل ،  
فألقت الرعب في نفوس الناس ، وفي الوقت نفسه أقبلت كتائب الجنود فاحتلت  
الشوارع الموصلة إلى الأزهر بحيث أصبح الشوارع محصورين بين نارين ، نار

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

المدافع من فوقهم ، ونار الجنود من حولهم ، وأحدثت المدافع تخریباً في الجامع الأزهر والبيوت القائمة في الأحياء المجاورة له ، فأصبح منظر هذه الأشياء فظيلاً لما شوها من آثار الخراب ، قال (ريبو) يصف تأثير الضرب :

« أوشك الجامع الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب فتدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه ، وأصبح الحى المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير ، فلم يكن يرى فيه إلا بيوت مدمرة ودور محترقة ، وماتت تحت الأنقاض آلاف من السكان الأمنيين كان يسمع لهم أنين موجه وصيحات مرعبة ، وكانت الجهات القريبة من الأزهر ولاسيما شوارع الغورية والصناديقية مسرحاً لهذه المشاهد الفظيعة .

ويقول الجبرتي في هذا الصدد : « تتابع الرمي من القلعة والكيان ، حتى تزعت الأركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور وسقطت في بعض القصور ونزلت في البيوت والوكائل ، وأصمت الأذان بصوتها الهائل ، فلما عظم الخطب ، وزاد الحال والكرب ، ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره من الرمي المتراسل ، فلما ذهبوا إليه عاتبهم في التأخير واتهمهم بالتقصير ، فاعتذروا إليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم فقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان في المسالك ،

قال ريبو إن الضرب انتهى في نحو الساعة السادسة مساءً ، ويقول المسيو مارتان Martin أحد مهندسي الحملة الفرنسية وهو شاهد عيان لتلك الحوادث إن الضرب انتهى الساعة الثامنة مساءً<sup>(١)</sup> ، فوقع الاختلال في صفوف الشوار وطلبوا الهدنة والتسليم ، وانتهت المفاوضات بإلقاء السلاح ورفع المتاريس فدخل منها الجنود حتى وصلوا إلى الجامع الأزهر ، فعسكروا فيه طول الليل ، وبذلك انتهت ثورة القاهرة ، وباتت المدينة تلك الليلة غارقة في لجة من الظلام ولجة من الفرع

(١) تاريخ الحملة الفرنسية في مصر تأليف المسيو مارتان

## قع الثورة

تغلّبت قوة الحديد والنار مرة أخرى على مقاومة شعب أعزل لاسلح معه ،  
واستهدف سكان القاهرة بعد إخماد الثورة لأشد ضروب الانتقام ، ونزلت بهم  
النوازل بخطوبها وأهوالها

قدر الكولونل دبتروا في يومياته قتلى الأهالي بسبعائة إلى ثمانمائة رجل ،  
لكن هذا التقدير دون الحقيقة بمراحل ، فضلا عن أنه لم يحص الذين ماتوا تحت  
أنقاض الدور المتهدمة والمنازل التي خربت أو احترقت

أما نابليون فأحصاهم في تقريره إلى حكومة الديركتوار بعدد يتراوح بين  
٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ قتيل ، وقدر ريبوعدد ضحايا الثورة بأربعة آلاف ، ولعله اعتمد  
في هذا العدد على تقدير الجنرال «بليار» Belliard في مذكراته . فإنه قدرهم بهذا  
العدد وهو أقرب إلى الثقة

وبلغت خسارة الفرنسيين ٢٠٠ قتيل منهم جنرال وهو (ديبوى) ، وكولونل  
(سلكومسكى) ، وبعض الضباط والمهندسين ، والباقي من الجنود ، وقد يكون قتل  
بعض المهندسين مدعاة للتعجب ، إذ ما شأنهم بثورة قامت بين الأهالي والجنود ،  
على أن نابليون في مذكراته يبين لنا السبب فهو يقول إن ضباط فرقة الهندسة  
كانوا هدفاً للشعب لأنهم هم الذين كانوا يتولون اقتلاع أبواب الدروب والحارات  
ونبش القبور وهدم البيوت وتحصين القلعة . ولعل هذا من أهم أسباب مهاجمة  
الثوار لبيت الجنرال كافاريلى رئيس فرقة الهندسة الذى كان يسكن بيت مصطفى  
كاشف بالدرج الأحمر وقد هجم العامة على داره وكان غائبا عنها صحبة نابليون في  
الروضة ، وكان بها اثنان من مهندسى القناطر والجسور وهما تيفنو Thevenot  
ودوفال Duvat فقتلتهما الثوار وأتلفوا ما كان بالدار من الآلات الفلكية والهندسية  
نفس العلم بإتلاف هذه المجموعة خسارة كبيرة

قال الجبرتى في هذا الصدد : « وكان بتلك الدار شيء كثير من آلات الصنائع  
والنظارات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية والعلوم الرياضية وغير ذلك



نما هو معدوم النظير كل آلة لا قيمة لها عند من لا يعرف صنعها ومنعتها ، فبدد العامة كل ذلك وكسروه قطعاً ، وصعب ذلك على الفرنسيين جداً ، وقاموا مدة طويلة يفحصون عن تلك الآلات ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجعالات ، وخسر العلم كذلك بقتل المسيو تستفيود Testevuide كبير المهندسين الجغرافيين وكان يشتغل بوضع خريطة مصر فعاجلته المنية قبل أن يتمها ، خرج صبيحة يوم الثورة ( ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ) من دار المجمع العلمي بالناصرية وذهب إلى دار الجنرال كافاريللي بالدرب الأحمر فقتله الثوار في الطريق ، وقتل كذلك الرسام دوبرى Duperrès والجراحان روسل Roussel ومانجان Mangin

### مروءة سكان القاهرة

ويعترف الكتاب والمؤرخون الفرنسيون أنه لا يصح نسبة شيء مما يعد من الفظائع في ثورة القاهرة إلى المصريين وأنه إذا كان ثمة فظائع ارتكبت فهي من عمل المغاربة الذين كانوا بالقاهرة ، وفضلاً عن ذلك فانهم يعترفون بأن الطبقة المتوسطة من سكان العاصمة قد برهنت في خلال الثورة على مروءة كبيرة وعواطف نبيلة بأيواء الفرنسيين العزل من السلاح ، قال (ريبو) في هذا الصدد : « إن جميع الفرنسيين الذين التجأوا إلى بيوت الطبقة المتوسطة قد اطمأنوا فيها على حياتهم وألفوا بها النجدة والمروءة » (١)

وكتب المسيو فيفان دينون Vivant Denon وهو شاهد عيان لحوادث ثورة القاهرة يصف مروءة الطبقة المتوسطة من السكان : « لئن كان العامة وبعض الكبراء والأثقياء قد ظهروا قساة في ثورة القاهرة فإن الطبقة المتوسطة من سكان المدينة برهنت على أسمى عواطف الانسانية والمروءة رغم فوارق العادات والأخلاق والدين واللغة التي كانت تفصل بيننا ، فبينما كانت صيحات التحريض على القتل تسمع من المسآذن وبينما كان شبح الموت والدم ينتقل في الشوارع فإن أصحاب المنازل التي كان يسكنها الفرنسيون قد آوهم وأظلوهم بحمايتهم وأمدوهم بما يحتاجون

(١) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الثالث

فن ذلك أن عجوز آكانت تسكن بالحي الذي كنا نقيم به (١) فأخبرتنا أنه لا يفصل بيننا وبينها إلا حائط مشترك وأنها مستعدة لأن تؤويننا في بيتها وصرحت لنا في حالة الهجوم علينا أن نهدم الحائط المشترك لنكون في دارها ، وحدث أن جاراً لنا أمدنا بالموثونة التي تكفيينا دون أن نطلب منه ذلك مع أنه لم يكن يبيع ولا شراء في تلك الأوقات العصيبة إذ كانت المجاعة تهدد العاصمة ، ومحاذ الجار كل المعلومات التي ترشد إلى مكاننا ، وجلس أمام دارنا بدخن الشبك كأنها داره ليصرف عنا أنظار الثوار ، وحدث أن اثنين من الفرنسيين كانا يسيران في الشوارع فاخطفتهما أناس مجهولون وذهبوا بهما إلى دار لا يعرفانها ، فخيّل إليهما أنهما وقعا في كمين ولم يشكأنهما صارا فريسة القتل والتعذيب ، فثارت ثائرتهما ، ورأى المسكون بهما أنهم لم يستطيعوا إقناعها بحسن نيتهم وأنهم لا يريدون إلا إنقاذهما ، فأودعهما أطفالهم ليطمئننا على حياتهما ، ويمكن إيراد وقائع أخرى كثيرة من أشباه هذه الحوادث تدل على رقة الشعور وتبرهن على أن عواطف الإنسانية تتجلى في أشد الساعات بأساً (٢) ،

### فضائع الفرنسيين

#### في إخماد الثورة

أسلفنا أن عدد من قتلهم الفرنسيون من سكان العاصمة في إخماد الثورة بلغ على أرجح الروايات أربعة آلاف ، ولا جدال في أن قمع الثورة في مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعو إلى إفناء هذا العدد الكبير من السكان ، على أن قواد الفرنسيين لم يكن همهم إلا قمع الثورة بكل وسائلهم في الصرامة والإرهاب ولم يحسبوا حساباً لتضميد جراح النفوس واجتذاب قلوب الشعب بعد هذه الضربة ، والواقع أن ثورة القاهرة وما تخللها وأعقبها من الفضائع قد باعدت بين المصريين والفرنسيين ، فالدماء التي سالت في شوارع العاصمة في أيام

(١) حي الباصرية حيث كان المجمع العلمي

(٢) رحلة في الوجه والبحري مصر العليا للدسيو فيفان دينون

٢١ و ٢٢ و ٢٣ أكتوبر وما بعدها قضت نهائيا على آمال نابليون في اكتساب قلوب الشعب المصرى ، على أنك إذا تأملت في الفظائع التي ارتكبتها الفرنسيون بعد تسليم المدينة وإخلائها إلى السكينة وجدتها أبعد ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال ، وهى أجدر أن تعتبر من ضروب التنكيل والانتقام

وحسبك أن ترجع إلى مارواه الجبرقى عن تلك الفظائع وبخاصة انتهاكهم حرمة الأزهر لتحكم أنها فوق ما توصف به من الفظاعة

قال الجبرقى : وبعد هجعة من الليل ( ليلة الثلاثاء ٢٣ أكتوبر ) ، دخل الافرنج المدينة كالسيل ، ومروا فى الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم مانع ، كأنهم الشياطين أو جند إبليس ، وهدموا ما وجدوه من المتاريس ، ودخلت طائفة من باب البرقية ، ومشوا إلى الغورية ، وكرروا ورجعوا ، وترددوا وما هجعوا ، وعلوا باليقتين ، أن لا دافع لهم ولا كمين ، وتراسلوا أرسلوا ، ركبانا ورجالا ، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأواني والقصاع ، والودائع والمخبات ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها . . . وكسروا أوانيه ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه . . . ومن ثيابه أخرجوه ،

هذا بعض ما كتبه الجبرقى وصفا لتلك المأساة التي أعقبت تسليم القاهرة ، على أن الفظائع لم تقتصر على اليوم الذى أخذت فيه الثورة بل استمرت بعد ذلك ولا ضرورة إليها من حرب ولا من سياسة

ففى يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر غداة إخماد الثورة بعد أن سادت السكينة واستولى الفزع على النفوس كانت الجنود لم تزال مرابطة بالأزهر وما حوله . فكانوا يمنعون الناس من دخول الجامع ، وشردت الجنود فى الأحياء المجاورة للأزهر ونهبوا بعض البيوت بحجة التفتيش على السلاح حتى اضطرت سكان تلك

الجهة إلى التحول عن دورهم والنجاة بأنفسهم ، وأخذ الجنود يتسكعون في الأسواق ويقفون صفوفا ، فإن مر بهم أحد قتشوه وأخذوا ما معه ، وربما قتلوه ، وصاروا يقبضون على الناس جزافاً بحجة أنهم كانوا يخبئون السلاح أو أنهم اشتركوا في الثورة فوقع الفزع وكثرت الوشايات ، وراجت الدسائس ، وتغالت المقتريات ، وتعددت المظالم ، واستبيحت الحرمات ، وامتألت السجون بالأبرياء ، وذاق الناس فيها أنواع الأذى والهوان ، وقتل منهم الكثير بلا محاكمة ولا حساب ، قال الجبرتي في هذا المعنى :

« وانتدب برطالين (١) للعسس ، على من حمل السلاح أو اختلس ، وبث أعوانه في الجهات يتجسسون في الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم... فيحكم فيهم بمزاده ، ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم الكثير ، ويركب في موكبه ويسير ، وهم موثقون بين يديه بالحبال ، يسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجون وتبطلونهم بالمنوبات ، ويقرر ونهم ( يكرهونهم على الإقرار ) بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن آلات السلاح والحرب ، ويدل بعضهم على بعض ، فيضعون على المدلول عليهم أيضاً القبض ، وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين الأغا (٢) ، وتجبر في أفعاله وطغى ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفي بحر النيل قذفوهم ، ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله ،

وكانت التعليمات التي أصدرها الجنرال برتیه Berthier رئيس أركان الحرب (وهي صادرة بأمر القائد العام) بعد إخمد الثورة تأمر بالصرامة والغلظة والقسوة ، انظر إلى الأمر الذي أصدره إلى الجنرال بون Bon بتاريخ ٢٣ أكتوبر :

(١) هو برتلي الرومي الذي سبق الكلام عنه بهامش من ٢٨٠

(٢) هو مصطفي أغا وقد عينه الفرنسيون محافظاً للمدينة بعد أن عزلوا محمد المهدي الذي كان معنا بإشارة أعضاء الديوان كما سبق بيان ذلك بالفصل الثالث ، ويقول الجبرتي عن مصطفي أغا إنه كان تابع (خادم) عبد الرحمن أغا مستحفظان (محافظ المدينة) سابقاً

« يهدم الجامع الأكبر ليلاً إذا أمكن ، وترفع الحواجز والأبواب التي كانت تسد الشوارع ،

تجد أن أعمال الفرنسيين تجاوزت الغرض من إخماد الثورة إلى الانتقام والإرهاب ، ويعترف المؤلفون الفرنسيون بأن إعدام كثير من المتهمين في الثورة تم سرّاً في القلعة (١) من غير محاكمة ، فقتلوا بحمد السنك ، ويعترف القواد الفرنسيون في رسائلهم التي تبادلوها بالفظائع التي ارتكبت في قمع الثورة ، كتب الجنرال برتييه ٢٣ أكتوبر سنة ١٧٩٨ إلى الجنرال دوجا Dugua قومندان مديرية المنصورة وقتئذ يخبره بحوادث الثورة قال :

« لقد نكلنا بالثائرين في مذبحه رهيبة فسادت السكينة مساء أمس ، وقد قتلنا منهم ألفين أو ثلاثة آلاف ،

وأمر نابليون الجنرال برتييه بتاريخ ٢٣ أكتوبر أن يصدر تعليماته إلى قومندان المدينة ، بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أخذوا ومعهم أسلحة ، وعلبكم إرسال الجثث في هذه الليلة إلى شاطئ النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها في النهر ،

وأرسل نابليون بتاريخ ٢٦ أكتوبر إلى الجنرال رينييه Reynier قومندان الشرقية يقول :

« عادت السكينة إلى القاهرة ، وفقد الثائرون نحو ألفي قتيل ، وفي كل ليلة نقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الأهالي ، وأظن أن هذا سيكون درساً قاسياً لهم ،

وفي مذكرات نابليون رواية مخففة لهذه الفظائع ، قال : « إن رجال الشرطة قبضوا على ثمانين من أعضاء لجنة الثورة وسجنوهم بالقلعة ، وإن نحو أربعة آلاف من سكان العاصمة هاجروا منها قبل شروق الشمس قاصدين إلى السويس ليلتجئوا إليها ( وكان الفرنسيون لم يحتلوها بعد ) وإن أعضاء لجنة الثورة ( أي

(١) دي لاجونكيير الجزء الثالث

الثمانين) قد أخذوا بذنهم وثبتت إداتهم فأصدر المجلس العسكرى يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ قراراً بإعدامهم جميعاً ونفذ فيهم الحكم (١)، ولعل هؤلاء هم الذين أعدموا سرّاً بدون محاكمة كما يقول دى لاجونكيير

وقد أسرف الفرنسيون فى القتل ، ولم تأخذهم رحمة حتى بالنساء ، فقتلوا كثيراً منهم ، وهذا من أفظع ما سمع فى التنكيل وسفك الدماء ، قال المسيو بورين سكرتير نابليون الخاص فى مذكراته : « سيق المسجونون إلى القلعة ، وكنت أتولى فى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام إثني عشر سجيناً كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع فى زرائب وتغرق فى النيل ، واستمر ذلك ليالى عديدة وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهم أحكام الإعدام الليلية (٢) ،

وفى مذكرات نابليون أيضاً أن الشيخ السادات الذى انتخب رئيساً للجنة الثورة نفي عن نفسه تهمة التحريض على الثورة بأنه كان مريضاً ، وقد تردد نابليون فى شأنه وقال فى مذكراته إنه مع قيام البيئات على أنه زعيم الثورة فقد عفا عنه ورأى أن الضرر من قتله أكثر من نفعه لما كان له من المنزلة الرفيعة فى الشرق ولأن قتله يجعله شهيداً فى نظر الشعب (٣)

أما الذين حوكموا رسمياً من المقبوض عليهم باعتبارهم زعماء الثورة فهم شيخ إسماعيل البراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ سليمان الجوسقى (شيخ طائفة المكفوفين) ، والشيخ أحمد الشرفاوى ، وكلهم من أواسط علماء الأزهر ، حبس هؤلاء المتهمون فى من قبض عليهم بعد إخماد الثورة ولم يكن أحد يعلم التهمة التى أخذوا بها

وفى يوم الأربعاء ٢٤ أكتوبر ذهب إلى نابليون وقد كبير من الشيوخ يسألونه العفو من أهل المدينة لتطمئن قلوب الناس ويسكن روعهم ، فوعدهم كما يقول الجبرتى « وعداً مشوباً بالتسويق ، وطالبهم بإرشاده عن تسبب من

(١) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين

(٢) مذكرات بورين الجزء الأول

(٣) مذكرات نابليون

المعممين في إثارة العوام ، فلم يهتموا أحداً ، فقال لهم القائد العام على لسان الترجمان : ونحن نعرفهم واحداً واحداً ، ثم طلبوا منه إخراج الجنود من الجامع الأزهر فأجابهم إلى ذلك وأمر بإخراج الجنود على أن يبقى سبعون جندياً أسكنوهم في خط الأزهر للحفاظ على النظام ، فكان الأزهر بقي محتلاً من ليلة الثلاثاء إلى يوم الأربعاء ، ويقولون نيقولا الترك في كتابه (١) إن نابليون رفض طلب كبار العلماء إخراج الجنود من الأزهر ، وقبل شفاعة الشيخ محمد الجوهري الذي جاءه متوسلاً وكان في حياته لم يقابل حاكماً قط ، فلما دخل على نابليون قال له ما قابلت حاكماً عادلاً كان أو ظالماً ، والآن قد أتيت متوسلاً إليك أن تأمر بإخراج العسكر من الجامع الأزهر ، فقبل نابليون رجاءه وأمر بإخراج الجنود من الأزهر

ولما علم الشيوخ باعتقال المتهمين بالتحريض على الثورة شفعوا لهم واختلفوا إلى ولاية الأمور من الفرنسيين لإطلاق سراحهم ، فلم يتلقوا جواباً صريحاً ، وقبض كذلك على إبراهيم أفندي كاتب جمر ك البهار واتهم بأنه ألب الجموع وكان يوزع عليهم السلاح والمسأوق وأنه كان يؤوي عدة من المماليك والرجال المعدودين وقد تردد الشيوخ غير مرة للإفراج عنه وعن باقي المتهمين ، أما إبراهيم أفندي فقبل نابليون فيه شفاعة الشيخ محمد المهدي ورجاء المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية ، فأطلق سراحه ونقل إلى بيته ، وأما باقي المشايخ المتهمين فقد بقوا في السجن ، وهناك حكم عليهم بالإعدام يوم ٣ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، وكانت محاكمتهم في السر فلم يعلم بها أحد ، ونفذ فيهم الحكم يوم ٤ نوفمبر ، ففي الساعة الثامنة صباحاً جرى بهم إلى القلعة مخفورين بشر ذمة من الجنود ، وهناك تلى عليهم حكم الإعدام وأعدموهم بالرصاص (٢) وتولى تنفيذ حكم الإعدام فيهم برتلي الرومي ، وغيب

(١) ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية تأليف المعلم نيقولا الترك (الذي شهد الحملة الفرنسية)

(٢) نشرت جريدة (كورييه دليجيت) بالعدد الصادر في ٢٠ برومير (١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٨) نبأ إعدام هؤلاء المشايخ وذكرت أنهم ستة لخمسة كما يقول الجبرتي ونشرت أسماءهم كما ذكرها الجبرتي وأضافت إليهم السيد عبد الكريم وقالت أنهم أعدموا في ميدان القلعة وقطعت رؤوسهم

حالمهم عن أكثر الناس أياماً ، ويقول الجبرتي إنهم سجنوهم بالقلعة إلى الصباح ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبندق وألقوهم من السور خلف القلعة ، وقد ذكرهم في وفيات سنة ١٢١٣ هجرية ؛ فقال عن الشيخ أحمد الشرفاوى أنه تولى التدريس بالجامع الأزهر بدلا من والده واجتمع عليه طلبة أبيه وغيرهم واشتهر ذكره وكان فصيح اللسان عظيم الجسم ولم يزل يدرس بالأزهر حتى أتته في ثورة القاهرة وقال عن الشيخ عبد الوهاب الشبراوى إنه تولى التدريس بالمشهد الحسينى وكان يقرأ كتب الحديث كالبخارى ومسلم ويحضر درسه الجم الغفير من العامة وكان حسن الإلقاء سلس التقرير جيد الحافظة جميل السيرة

وقال عن الشيخ يوسف المصيلحى إنه كان يتولى التدريس بجامع الكردى وإنه كان مذهب النفس لطيف الذات ، حاو الناطقة ، مقبول الطلعة ، خفيف الروح ،

وقال عن الشيخ سليمان الجوسقى أنه كان شيخ طائفة العميان تولى هذه المشيخة بعد وفاة الشيخ الشبراوى شيخها السابق ، وسار فيهم بشهامة وصراحة وجبروت وصار من أعيان الصدور المشار إليهم في المجالس ، تحشى سطوته ، وتسمع كلمته ، ويقال قال الشيخ كذا وأمر الشيخ بكذا ،

وقال عن الشيخ إسماعيل البراوى إنه ابن أخى الشيخ عيسى البراوى الشهير الذكر ، تصدر بعد وفاة والده مكانه ، وكان قليل البضاعة ، تغلب عليه النباهة واللسانة والسلطة والتدخل ، وذلك هو الذى أوقعه في حبال الفرنسيس ،

وقال الجبرتي عن أولئك المشايخ إنهم لم يعلم لهم قبر بعد مقتلهم وذكر الشيخ عبد الله الشرفاوى رئيس الديوان في كتابه (تحفة الناظرين) :  
« إن الفرنسيس قتلوا من علماء مصر ثلاثة عشر عالما ، ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر ومكثوا فيه يوماً وبعض الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض علماء ، ونهبوا منه أموالا كثيرة وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لا يدخله فحولوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوا ونهبوا أكثر البيوت التى حول الجامع الأزهر ودشتوا السكتب التى فى الخزان يعتقدون أن بها أموالا ، وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتباً ومصاحف نفيسة ،



وأمر الفرنسيون الأهالي الساكنين حول ميدان الأزبكية - حيث كان معسكر القائد العام وقواد الجيش - أن يتحولوا من بيوتهم ليسكن بها رجالهم العسكريون والملسكيون الذين كانوا متوزعين من قبل في القاهرة حتى يجتمعوا في حي واحد إذ لم يعودوا يأمنون على أنفسهم بين الأهالي ، وقد استيقنوا أن الشعب معاد لهم ساخط عليهم يترصد بهم الدوائر

وأصدر نابليون أمراً عسكرياً في ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، أذاعه بين الجنود يدل على مبلغ توقعه الوثبة من الشعب ، يأمرهم فيه أن لا يتعدوا عن معسكراتهم ويستنكر حوادث الاعتداء والنهب التي وقعت من الجنود ، قال في هذا الأمر :

« لقد قتل بعض الفرنسيين يوم الثورة ، وهؤلاء من الذين لم يتبعوا الأوامر الصادرة إليهم ودعاهم الطيش إلى الابتعاد عن معسكراتهم والمغامرة بأنفسهم غير حاملين سلاحاً ، فعلى رؤساء الفرق ورؤساء الأقسام الإدارية مراقبة الجنود لكيلا يتعدوا ولا يضعوا عنهم السلاح وعليهم أن يراقبوا إتباع النظام والأوامر العسكرية بين الجنود ، وعلى كل فرنسي أن يكون شاكي السلاح تام الذخيرة ، وإذا قامت قائمة في المدينة فعلى كل فرد أن يلحق بفرقته أو الإدارة التي يستتبع لها منتظراً ما يؤثر به ، ولا يمتنع الأمان من الحذر ، ولتكونوا في وقت السكنة معدين لوقت الهياج ، فإن عدم الإغراق في الاطمئنان أدعى للاطمئنان ، ولقد علم القائد العام أن بعض الجنود يستبيحون التسلل إلى المنازل ونهبها ، فعلى قومندان موقع القاهرة وقواد الفر أن يتخذوا التدابير الفعالة ليلزم الجنود حدود واجباتهم حتى لا يصم بعض الجنود سمعة إخوانهم ولا يكذبوا صفوف النظام والسكنية ،

وأصدر أمراً يحظر فيه على الجنود والضباط إصلاح أسلحتهم عند صناع الأسلحة ( البندقية ) الوطنيين وأن يترجعوا منهم كل الأسلحة التي لديهم وانتزعت الثقة مما بين الجنود والأهالي ، فكانت ثورة القاهرة كالثورة العميقة التي باعدت إلى الأبد بين الأمة المصرية والجيش الفرنسي ، وراح كل جندي لا يمشي إلا بسلاح بعد أن كانوا لا يمشون به أصلاً من حين دخولهم القاهرة ، وصار من

لم يكن معه سلاح من الفرنسيين يحمل في يده عصاً أو سوطاً أو نحو ذلك، ونفرت قلوبهم من المصريين ، وكف هؤلاء من جبهتهم عن الخروج والمرور بالأسواق من العشية إلى طلوع النهار ، وعامل الفرنسيون الشعب بالشدّة والقسوة ، وشرعوا في إحصاء الأملاك والمطالبة بالضرائب الجديدة التي كانت سبباً في نشوب الثورة فلم يعترضهم في ذلك أحد ، وساد حكم الإرهاب في مدينة القاهرة ، فلا عدل ولا أمن ولا طمأنينة

### إبطال الديوان

#### وإنشاء القلاع لإخضاع القاهرة

أبطل نابليون اجتماع الديوان عقب إخماد الثورة عقاباً لسكان القاهرة على ثورتهم ، وانصرف إلى تحصين المدينة وجعلها بآمن من وقوع ثورة أخرى ، فأقام الفرنسيون القلاع على التلول المحيطة بالمدينة ونصبوا فيها المدافع ، وهدموا كثيراً من الأماكن بالجيزة ومصر القديمة وشبرا وحصنوها تحصيناً مميحاً ، وأقاموا المعازل في أهم شوارع القاهرة ، وأصلحوا قلعة الجبل وزادوها مناعة ، وهدموا عدة مساجد منها المساجد المجاورة لقنطرة امبابية ومسجد المقس المعروف الآن بجامع أولاد عنان ، وقطعوا كثيراً من النخيل والأشجار لعمل الحصون والمتاريس ، وهدموا جامع الكازروني بالروضة والجامع المجاور لقنطرة الدكة غربي الأزبكية ، وخرّبوا دوراً كثيرة ، وكسروا شبائيكها وأبوابها وأخذوا أخشابها ليجعلوها في بناء الحصون الجديدة ، ولم يمض ستة أسابيع على إخماد ثورة القاهرة حتى أصبحت محاطة بسلسلة من القلاع والاستحكامات (١) .

وأهم هذه القلاع طابية (ديبوى) سميت باسم الجنرال ديبوى Dupuy الذي قتل في ثورة القاهرة وأقيمت على رابية من بني الجبل بالمسكان الذي ركب به الجنرال دومارتان مدافعه قرب القلعة ، والغرض من إقامتها في هذا الموقع

(١) بعض هذه القلاع أمر نابليون بإقامتها قبل ثورة القاهرة لسكنها أقيمت فعلا بعد الثورة .

استهداف حتى الأزهر للضرب ، وكانت تعرف في القاهرة باسم قلعة الغريب لقربها من مقام الشيخ الغريب .

وطايبية ( سلكوسكى ) Sulkowski أنشأوها في جامع الظاهر (١) فحولوا المسجد إلى قلعة ، وانخذوا مأذنته مرصداً للاستكشاف وبنوا بداخله عدة مساكن وأمكنة تسع ٦٠٠ فارس بخيولهم ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية قلعة ؛ ومنارته برجا ، ووضعوا على أسواره مدافع وأسكنوا به جماعة من العسكر وبنوا في داخله عدة مساكن تسكنها العسكر المقيمة به ، والجبرتي يسمي هذه الطايبية قلعة جامع الظاهر ويسمياها في بعض المواطن القلعة الظاهرية ، أما الفرنسيون فسموها طايبية سلكوسكى باسم الضابط البولوني الذي قتل في ثورة القاهرة على مقربة من المسجد وقد روينا خبر مقتله ص ٢٨٤ وطايبية «كامان» (٢) Camin بالقرب من قنطرة الليمون بالطريق الموصل لبولاق يسمياها الجبرتي قلعة قنطرة الليمون .

وطايبية ( مويرور ) (٣) أقاموها في حي طولون لإخضاع الحي .  
وطايبية ( الناصرية ) أقاموها فوق تل العقارب قريبا من دار المجمع العلي ويسمياها الفرنسيون طايبية المجمع العلي ، وكانت تعرف في مصر بطايبية قاسم بك .

وحصن نابليون جزيرة الروضة ، ووضع بطاريات من المدافع في كل طرف من طرفها ، وجعل من المقياس شبه قلعة ، وحصن شاطئ النيل في مقابل الجزيرة لحماية الملاحة في النيل ، وجعل فم المجراة طايبية حصينة سميت طايبية المجراة ( أوطايبية السبع السواقي ) ، وجعل قصر إبراهيم بك ( قصر العيني ) تجاه جزيرة الروضة مستشفى عسكرياً حصيناً يسع ألف مريض وجريح وألحق به البيت الذي

(١) الكائن بالميدان المعروف الآن بميدان الظاهر وكان وثقث خارج مباني القاهرة أنشأه الملك الظاهر بيبرس البندقدارى .

(٢) هو ضابط فرنسي كبير ( أددودان جنرال ) فتسله العرب على سواحل الاسكندرية جهة مريوط بالقرب من برج العرب .

(٣) مويرور Muireur هو اسم جنرال فرنسي قتل في أوائل الحملة الفرنسية .

بحواره وكان معروفًا وقتئذٍ ببيت محمد كاشف الأرنؤوطي وجعله مخزناً ومصنعاً لفرقة الهندسة وحصن السور المحيط بهما وركب عليه المدافع فصار حصناً منيعاً . قال الكولونل ديتروا في يومياته : « إن الغرض من إقامة هذه الحصون هو استهداف مدينة القاهرة إذا قامت ثورة فيها ، وقد وصل بينها بطرق خارجة عن المدينة ، ولما كانت نية القائد العام متجهة إلى جعل المستشفيات ومخازن الجيش معزل عن المدينة وإسكان الفرنسيين في حين من أحيائها فن المحقق أننا نستطيع أن نتغلب على كل هياج في القاهرة ،

وحصن نابليون الجيزة وكانت من عهد المماليك محاطة بسور منيع أقيمت عليه الأبراج وبها دار صناعة ( ترسانة ) كبيرة من عهد مراد بك ، فجعلها نابليون مركزاً للدفعية ومخازنها ومستودعاً للذخائر ، واختار الجيزة لهذا الغرض لموقعها على النيل وسهولة النقل منها وإليها بواسطة المراكب

### كلمة عن ترسانة الجيزة

ذكر الجبرتي هذه الترسانة في ترجمة مراد بك فقال عنها ما خلاصته إن مراد بك لما رجع من الصعيد (١) جعل إقامته بقصر الجيزة وأنشأ ترسانة عظيمة وطلب صناعات الحرب من المدافع والقنابر والبنب ( كذا ) والجلل والمكاحل واتخذ بها أيضاً معامل للبارود بخلاف المعامل التي في البلد ، وأحضر أناساً من القليوبجية ( البحارة ) الأروام وصناعات المراكب فأنشأوا له عدة مراكب حربية وغلايين وجعلوا بها مدافع وآلات حرب على هيئة مراكب الروم وصرف عليها أموالاً عظيمة ورتب بها عساكر وبحرية وأدرج عليها الرواتب والأرزاق الكثيرة وجعل عليهم رئيساً يقال له « نقولا » ، (٢) بنى له داراً عظيمة بالجيزة وأخرى بمصر وله عزة وأتباع من نصارى الأروام المرتبين عسكرياً ، (٣) .

(١) بعد عودة حسن باشا الجزائري إلى الآستانة وموت إسماعيل بك سنة ١٧٩٦ كما سبق بيان

ذلك في الفصل الأول من ٢٢

(٢) ٤٥٠ نقولا بابا زوغلو

(٣) الجبرتي الجزء الثالث

ويقول بعض المؤرخين إن حسن باشا الجزائرلى الذى أرسلته تركيا لمحاربة إبراهيم بك ومراد بك هو الذى بنى هذه الترسانة بعد عودته من محاربة المماليك بالصعيد وقبل سفره إلى الأستانة ، ولكن رواية الجبرتى أصدق لأنه شاهد عيان لحوادث مصر فى ذلك العهد ، ومنطق الحوادث يؤيده لأن حسن باشا الجزائرلى هبط القاهرة فى شهر شوال سنة ١٢٠٠ ، وعاد إلى الأستانة فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٠١ للشغب الحرب بين تركيا والروسيا ، فلم يكن لديه الوقت ولا التفكير فى إنشاء دار صناعة بالجيزة أو غيرها ، والظاهر أن مراد بك بعد عودته من الصعيد وتخلصه من حسن باشا الجزائرلى بنى هذه الترسانة لتكون عدة له إذا عادت تركيا لمحاربتة ، وإلى ذلك يشير الجبرتى بقوله :

« واختلف آراء الناس فى ذلك فمن قائل إن ذلك خوفا من خشداشيينه (رفاقه) وقائل مخافة من العثمانية كما تقدم فى قضية حسن باشا ، والبعض يظن خلاف ذلك ، وليس غير الوهم والتخيل الفاسد ، وبقية آلات الحرب جميعها والبارود بجواصله حتى أخذ جميعه الفرنسيس ، ويقال إنه كان بجواصل الترسانة أحد عشر ألف جلة ،

وقال الجبرتى عن « نيقولا ، رئيس الترسانة إن الفرنسيين بعد أن اعتقلوه ضمن بحارة مراد بك أفرجوا عنه فى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٣ ( أبريل سنة ١٧٩٩ )

### عدد القلاع التى أنشأها الفرنسيون بالقاهرة

لم يكتب الفرنسيون بالقلاع التى تكلمنا عنها بل أخذوا يزيديونها كلما اشتد قلقهم من مقاومة الأهالى أو أوجسوا خيفة من نشوب نار الثورة ، حتى بلغ عدد القلاع التى أنشأوها فى خلال الحملة الفرنسية ١٩ ( تسع عشرة ) قلعة كما ذكر ذلك المسيو جومار أحد مهندسى الحملة وذلك بخلاف استحكامات جزيرة الروضة (١) وقد اجتهدنا أن نحصى تلك القلاع بأسمائها ومواقعها ، فرجعنا إلى خريطة

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

القاهرة المفصلة التي خططها مهندسو الحملة الفرنسية ، فرأينا القلاع الآتية مرسومة على الخريطة وإليك بيانها مسماة بأسمائها الفرنسية التي اختاروها لها عند إنشائها ( انظر مواقعها بالخريطة الموجودة أمام ص ٣٠١ ) ، وهي أسماء بعض القواد والضباط ومعظم من لقوا حتفهم في خلال الحملة

طايبية ( دبوى ) Dupuy أو طايبية الغريب

طايبية ( سلكوسكى ) Solkowsky أو قلعة جامع الظاهر بيبرس

طايبية ( مويرور ) Maireur بجى طولون .

طايبية ( كامان ) Camin أو قلعة قنطرة الليمون

طايبية المجمع العلمى Fort de l'institut أو طايبية قاسم بك بالناصرية .

طايبية ( ربو ) Reboul بين قلعة الجبل و طايبية دبوى

طايبية ( فنو ) Venoux شمالى طايبية دبوى بشرق

طايبية ( مارتنيه ) Martinet و طايبية ( سورنيه ) Sornet و طايبية ( لامبير )

Lambert وهذه الطوابى الثلاث تقع شمالى قلعة الجبل

طايبية ( جرزيو ) Grezieux على السكوم القائم بالقرب من باب الحسينية

طايبية ( لوجيه ) Augier أو طايبية أبى الريش الكائنة بكوم أبى الريش بالفجالة

طايبية ( كونزو ) Conroux غربى الأذربكية على طريق بولاق

طايبية ( دنزولو ) Douzetot ببولاق .

طايبية ( سبترز ) Spizer ببولاق

هذه هى القلاع المرسومة فى خريطة مهندسى الحملة الفرنسية ، وهى خمس عشرة قلعة لاتسع عشرة ، ومن الواجب أن نضيف اليها طايبية المجراة ( السبع السواقى ) وقصر العبنى ، وقد أسلفنا أن الفرنسيين حصنوهما فوجب عددهما ضمن القلاع ، يؤيد ذلك ما جاء فى تقويم الجمهورية الفرنسية عن السنة الثامنة من الحساب الجمهورى ( سنة ١٧٩٩ - ١٨٠٠ ) وهو التقويم الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وفيه أنهما معدودان ضمن قلاع القاهرة ، وجاء فى كتاب نقولا الترك الذى عاصر الحملة الفرنسية أنهم أنشأوا قلعتين فوق باب النصر وباب الفتوح ، فمع إضافة هذه

القلاع الأربع إلى الخمس عشرة قلعة المرسومة في خريطة مهندسى الحملة الفرنسية  
يكون ذلك تمام التسع عشرة قلعة بحسب إحصاء المسيو جومار  
وهذا العدد من القلاع يدل على مبلغ المقاومة التى لقيها الفرنسيون من  
المصريين فى عهد الاحتلال الفرنسى

### ص - دى الثورة

#### فى الأقاليم

ما فتئت القاهرة فى خلال العصور مصدر كل حركة ومنبع كل تطور فى الديار  
المصرية ، ولا غرو فهى بمثابة الرأس المفكر الذى يرسم الخطط ويدبر البرامج  
ويبتكر الأفكار ، وهى بمثابة القلب يوزع دم الحياة فى شرايين البلاد ، وهى  
أبدأ حافظة لمنزلتها بين سائر البلدان التى تظلمها سماء مصر ، تلك المنزلة التى جعلت لها  
الزعامة الفكرية والسياسية فى البلاد بلا منازع ولا مزاحم ، وجعلتها دائماً مصدر  
كل تطور سياسى ، فلا تحدث فيها حركة إلا ويتردد صداها فى الأقاليم  
فالثورة التى شبت فى القاهرة خلال شهر اكتوبر سنة ١٧٩٨ كان لها صدى  
فى سائر البلاد ، والمقدمات التى سبقت تلك الثورة والحالة الفكرية التى كانت عليها  
القاهرة من أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر عمت الأقاليم ، حتى اعتقد الفرنسيون  
أن هناك تديراً سابقاً لقيام ثورة عامة فى كل أنحاء القطر ، والواقع انك اذا تتبعمت  
الحركات التى قامت هنا وهناك من أقصى البلاد الى أقصاها أخذتلك الدهشة من  
تقارب تلك الحركات وتشابهها ، على أنه ليس ثمة تديير ولا اتفاق ، بل هى القاهرة  
عاصمة القطر السياسية والفكرية ، تغذى البلاد بأفكارها وعواطفها ، وتفيض  
عليها من أمانها وآمالها ، وتشركها فى أفراحها وأحزانها ، فكان البلاد مرآة تنعكس  
عليها صورة القاهرة ، أو كأنها الأفاق يتردد فيه صدى نداء العاصمة  
بهذا التفسير نفهم الحوادث التى وقعت فى الوجه البحرى فى شهر سبتمبر  
وشهر أكتوبر من تلك السنة ، ولا نريد أن نذكر تفاصيل تلك الحوادث فى مختلف  
المديريات ، فقد أفردنا لها الفصول الخاصة بها

لكننا نكتفى في هذه النبذة بذكر الحوادث التي ارتبطت بثورة القاهرة وكانت جزءاً منها ، فإن البلاد الواقعة على مقربة من القاهرة أو على طريقها قد اشتركت فعلاً في الثورة وأمدتها بالرجال والعتاد ، وإنك لتقدر مبلغ اشتراكها في الثورة بما وقع عليها من القصاص بعد إخمادها ، فقد أمرت القيادة العامة بعض كتائب من الجيش بالطواف في القرى التي اشتركت في الثورة للبحث عن الأعيان ومشايخ البلاد الذين كان لهم ضلع فيها (١) وعهدت إلى ضباط هذه الكتائب بمواجهة مشايخ البلاد (العمد) وتكليفهم تسليم الرسائل التي وردت عليهم ليلة الثورة تدعوهم إلى الانضمام لصفوف الثائرين بالقاهرة وشد أزهم (٢)

وقد ألقت القوة الفرنسية في طوافها القبض على جماعة من الأعيان ومشايخ البلاد بتهمة الاشتراك في الثورة ، وعادت بهم إلى القاهرة فأعدم بعضهم واعتقل البعض الآخر ، ويدخل في هذا الصدد ما رواه الجبرتي عن حوادث شهر رجب سنة ١٢١٣ (نوفمبر - ديسمبر سنة ١٧٩٨) قال : « إن كبير الفرنسيين الذي بناحية قليوب حضر وصحبه سليمان الشواربي شيخ الناحية وكبيرها ، فلما حضر حبسوه بالقلعة وقيل إنهم عثروا على مكتوب أرسله وقت الفتنة السابقة (ثورة القاهرة) إلى سرياقوس لينهض أهل تلك النواحي في القيام ،

وقال نابليون في رسالته إلى الجنرال لسكرك في ١٢ ديسمبر سنة ١٧٩٨ (٣) إنه أعتقل الشواربي لما تبينه من أنه كان يوم ثورة القاهرة يحرص أهالي البلاد المجاورة إلى الانضمام للشوار ، وذكر الجبرتي في حوادث شهر رجب ، أنهم قتلوا الشيخ سليمان الشواربي ومعه ثلاثة من عرب الشرقية ، قطعوا رؤوسهم بالرميلة ونقلت رفات الشواربي إلى قليوب ودفن هناك مع أسلافه ،

---

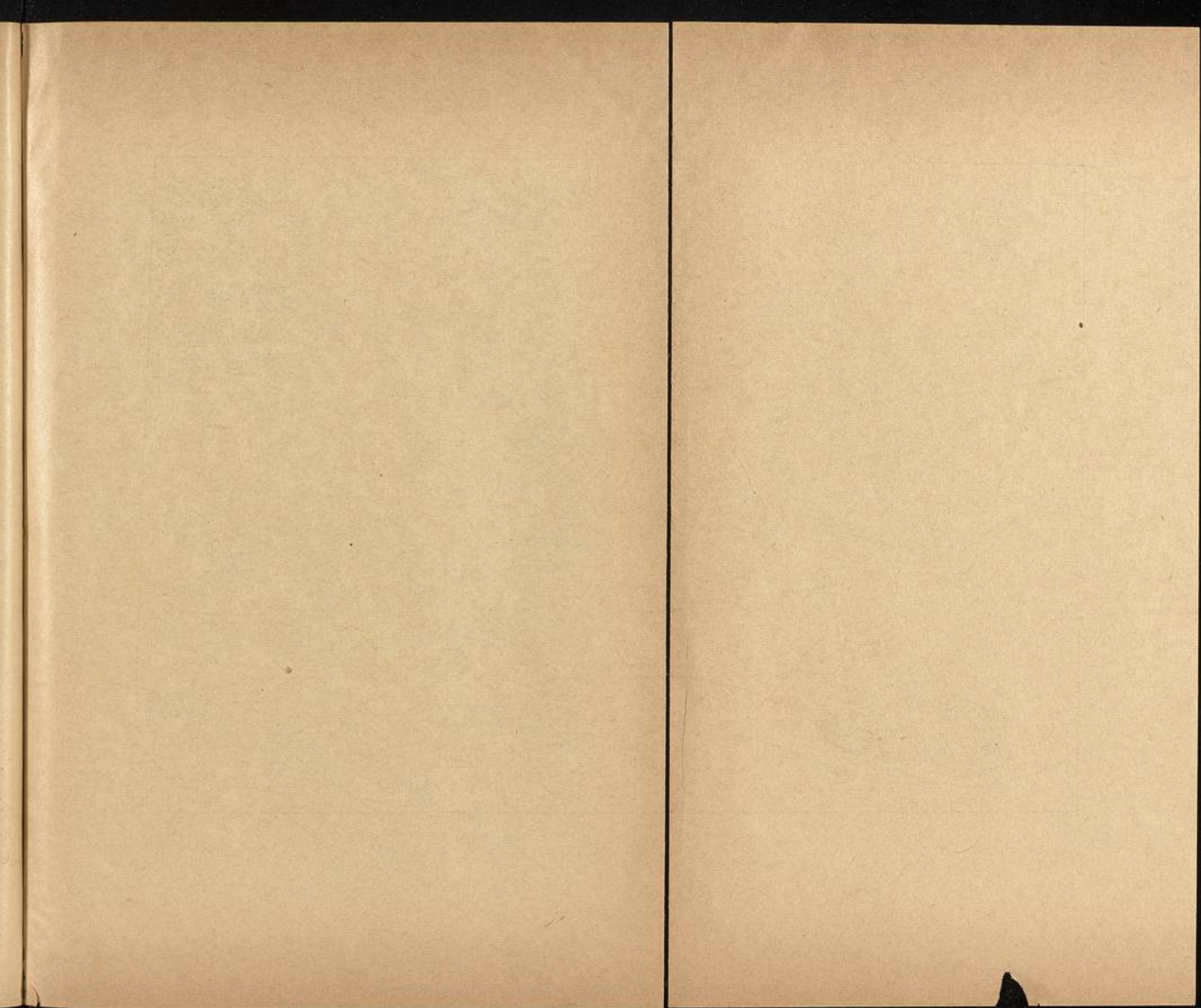
(١) أصدر الجنرال برتنيه أمراً إلى الجنرال داماس Damas في ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ بتجريد كتيبة من الفرسان وإفادها إلى القبة والطارية والمرج وأصدر أمراً آخر في هذا اليوم لبرتني بإرسال كتيبة أخرى إلى الخانقاه (الخانكة)

(٢) دي لاجونكبير الجزء الثالث

(٣) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٥٧







وفي أول نوفمبر أصدر نابليون أمره بقيام الجنرال لان Lannes على رأس كتيبة من الجنود إلى القطا (١) واعتقال بعض الزعماء ليكونوا رهائن ، ثم أمره بالتوجه إلى النجيلة وكفر غرين (٢) لمعاينة أهلها ، وكانت تهمة هذه القرى الثلاث انها أطلقت الرصاص على السفن الفرنسية الجارية في النيل وهددت الملاحاة بين القاهرة والرحمانية ، ويقول القومندان دي لاجونكيير ان الجنرال ( لان ) اعتقل الرهائن من هذه القرى وأندز الأهالي بأنه إذا وقع أى اعتداء على أى من السفن الفرنسية تحرق القرية بالنار وتقطع رؤوس الرهائن ، وتقول جريدة ( كوربيه دليبيجت ) بعدد ٢٠ برومير ( ١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ) إن الجنرال لان هاجم القطا في ١٣ برومير ومعها قوة من أربعائة جندي وأحرق القرية فعلاوا إن أهلها هاجروا منها قبل إحراقها

وقد أصدر نابليون أمره بتأليف كتيبة من الأروام المقيمين في ذلك العهد بالقاهرة ورشيد ودمياط وعهد إليها حراسة السفن الفرنسية أثناء مرورها بالنيل ، وأراد نابليون من هذا الأمر أن يوفر بعض الجنود الفرنسية وأن يستخدم في هذه المهمة الأروام الذين أظهروا ولائهم للجيش الفرنسى ، لكن الأروام لم يتطوعوا لهذه المهمة بالعدد الذى كان ينتظره الفرنسيون ، وكانت المهمة في ذاتها خطيرة لكثرة حوادث مهاجمة السفن إذ كانت هذه الحوادث لا تفتأ تتكرر منذ انحدار أسطول السفن الفرنسية بقيادة الكونت راميروال بيرى Perree من بوغاز رشيد إلى القاهرة ، أى في أوائل عهد الاحتلال الفرنسى ، فكانت جموع الأهالي تعطل سيره وتطلق عليه الرصاص باستمرار من الشاطئين ، وقد شهد مدير مهمات الجيش المسيو سوسى Sucey إحدى هذه الحوادث فإن السفينة التى كانت تقله مع ضباط أركان الحرب جنحت بالقرب من كوم شريك فهجم عليهم الأهلون وقتلوا

(١) من بلاد مركز امبابه الآن بالبر الغربى لقرع رشيد بين أم دينار ووردان

(٢) بلدتان واقعتان على البر الغربى للنيل من بلاد مركز كوم حماده الآن

بعض ركاب السفينة وأصيب سوسى بجرح بالغ في ذراعه اليمنى (١) وجرح قبطان السفينة والضابط لاكوى Lacuè

وحدث للكابتن جوليان Julien (٢) ياور نابليون ما هو أشد وأدهى ، فقد أوفده نابليون من القاهرة إلى الإسكندرية برسالة منه إلى الجنرال كليبر وأخرى إلى الأميرال برويس Brueys في أبو قير ، فاستقل سفينة ومعه بعض الجنود وجنحت به على الشاطئ الغربى لفرع رشيد ، فما كاد ينزل هو وجنوده إلى الشاطئ حتى هجم عليهم أهالى « علقام » (٣) فقتلوهم عن آخرهم ، فلما علم نابليون بنبا هذه الحادثة أمر بإحراق القرية عقاباً لها على اعتدائها فأحرقها الجنود وخربوها ولم يبقوا منها بيتاً قائماً (٤) ثم فكر نابليون فى اتخاذ طريقة فعلية لحماية المواصلات النيلية ، فشرع فى إنشاء أسطول نيلى مسلح ألفه من السفن الصغيرة الحربية التى نجت من كارثة أبو قير ومن المراكب المصرية التى استولى عليها الفرنسيون وساحوها بالمدافع وجعل قواعد هذا الأسطول وسفنه فى موانئ بولاق ومصر القديمة ورشيد ومياط والوجه القبلى

وفى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ أصدر أمره بتسيير دوريات من السفن الحربية فى فرعى النيل تتولى كل منها حراسة الملاحة فى قطاعات محدودة ، ففى فرع رشيد ثلاث منهن جعلت الأولى بن رشيد والرحمانية والثانية بين الرحمانية والطرانة (٥) والثالثة بين الطرانة وبولاق

(١) لم يطل بقاء سوسى بمصر بعد هذه الإصابة وصرح له نابليون بمغادرتها للاستشفاء بأوروبا ، فسافر على ظهر سفينة افلنت من مراقبة الأسطول البريطانى ولسكنها اضطرت إلى الرسو على شواطئ جزيرة صقلية فقتل أهل الجزيرة ركاب السفينة ومنهم سوسى ، وقد عين نابليون بدله القومسيودور Daure مديراً لمهمات الجيش

(٢) هو الذى أشرنا إليه فى الفصل الخامس ص ١٨٦

(٣) من بلاد مركز كوم حمادة الآن

(٤) جاء فى جريدة ( كوربيه دليجت ) بالعدد الصادر فى ٣٠ فركتيدور ( ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ) بآ هذه الواقعة وقالت الجريدة إن الجنرال لانوس Lanausse هو الذى تولى إحراق علقام وإن عدد الجنود الذين قتلوا مع السكاكين جوليان خمسة عشر جندياً

(٥) من بلاد مركز كوم حمادة الآن

وفي فرع دمياط ثلاث أخرى ، الأولى من دمياط الى المنصورة ، والثانية من المنصورة الى ميت غمر ، والثالثة من ميت غمر إلى بولاق ، وكل دورية مؤلفة من ثلاث أو أربع سفن مسلحة بقيادة ضابط بحري نيظت به حراسة المواصلات في القطاع الذي هو فيه ، وعليه أن يطوَّف بسفنه وأن يرسل للقيادة البحرية في كل فرصة تقريراً عما يحدث في قطاعه ، وهو مسؤول عن الحوادث التي تقع في ناحيته ، وخصص عدة سفن مسلحة لتجوب النيل في الوجه القبلي وتحمي مواصلات الجنرال ديزيه Desaix وتحرس نقل الغلال إلى القاهرة وقد لقي الفرنسيون أشد الجهد في استخدام النوتية المصريين في مراكزهم لامتناع الكثير منهم واستعصائهم أن يخدموا المحتلين في ناعة أو ضارة

### تدخل العلماء وبياناتهم للشعب

في خلال المدة التي ساد فيها حكم الإرهاب وأبطل الديوان تدخل كبار العلماء ( أعضاء الديوان ) وتوسطوا لدى نابليون ليعيد الطمأنينة إلى النفوس ، فطلب إليهم نابليون كتابة بيان للأهالي ينكرون فيه الثورة ويذكرون عواقبها من قتل المصريين ونهب بيوتهم وتدميرها وينصحون الأهالي بالإخلاء إلى السكينة تفادياً من الهلاك

### البيان الأول

وإليك نص هذا البيان كما ورد في الجبرتي :

« نضيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة ؛ نعوذ بالله من الفتن ، ماظهر منها وما بطن ، ونبرأ إلى الله من الساعين في الأرض بالفساد ، نعرف أهل مصر المحروسة أن طرف الجعيدية وأشرار الناس حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنسية ، بعد ما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية ، وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ، ولكن حصلت أطفاف الله الخفية ، وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونا بارتة وارتفعت

هذه البلية ، لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين . ومحنة إلى الفقراء والمساكين ، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر ، فعليكم أن لا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين ، ولا تسمعوا كلام المنافقين ، ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرءون العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم ، فإن الله سبحانه وتعالى يوتى ملكه من يشاء ويحكم ما يريد ، ونخبركم أن كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ، ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، واشتغلوا بأسباب معاشكم وأمور دينكم ، وادفعوا الخراج الذى عليكم ، والدين النصيحة والسلام ،

كتب هذا البيان بتاريخ ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ ، وهذا يوافق ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، لكن الجبرتي يقول إن تاريخه أول جمادى الثانية ، وهذا خطأ ، لأن أول جمادى الثانية يوافق ١٠ نوفمبر ، ولا يمكن أن يكون تاريخ المنشور ١٠ نوفمبر لأنه مطبوع في جريدة ( كوربيه دليجيت ) بالعدد الصادر في ١٠ برومير من السنة السابعة ( ٣١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ أى قبل ١٠ نوفمبر بعشرة أيام ) ومذكور في الصيغة الفرنسية للبيان المنشور في جريدة ( كوربيه دليجيت ) أن تاريخه الهجرى ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ ، وهذا يوافق ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، فتاريخ المنشور هو إذن ١٤ جمادى الأولى لا أول جمادى الثانية كما يقول الجبرتي

والظاهر أن هذا البيان لم يكن له الأثر المطلوب في تهدئة الخواطر وإقرار النفوس ، لأن فكرة الثورة والمقاومة كانت قد عمت الأقاليم ، وذاعت الإشاعات وتواترت الأنباء بأن سلطان تركيا قد جاهر الفرنسيين بالعداء وأعد جيشاً لإخراجهم من مصر ، ووردت مكاتبات من أحمد باشا الجزائر والى عكا وأبي بكر باشا الوالى وإبراهيم بك تؤيد هذه الإشاعات وتحرض المصريين على الثورة فطلب نابليون من علماء القاهرة أن ينشروا بياناً ثانياً يوزع فى الأقاليم لتهدئة

الخواطر وتكذيب تلك الإشاعات ( التي كانت في الواقع صحيحة ) فأذاع العلماء هذا البيان في اليوم الثامن من شهر جمادى الثانية ( الموافق ١٧ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ) وأرسلت منه نسخ كثيرة للبلاد وألصقوا منها بالخطط والأسواق وظهر من البيان الثاني أن العلماء ينسبون هذه الإشاعات إلى المماليك الذين يذيعونها لإثارة القلاقل بعد ما طردوا من الديار المصرية ، وقد أطرى العلماء في بيانهم نابليون وصفاته ، وصوروه صديقاً لسلطان تركيا عدواً لخصومه ، ثم نصحوا للصريين في بيانهم أن لا يقاوموا الجنود الفرنسية فيستهدفوا لأنواع الأذى والانتقام ، ورجعوا إليهم في دفع الخراج وأعلنوا الناس أنهم اتفقوا مع نابليون على أن لا ينازع أحداً في دينه ولا يعارضهم في شريعة الإسلام وأن يرفع المظالم والمغارم عن الناس ويقتصر على أخذ الخراج

### البيان الثاني

وهذا نص البيان الثاني كما ورد في الجبرتي :

« نصيحة من علماء الإسلام بمصر المحروسة ، نخبركم يا أهل المدائن والأمصار من المؤمنين ، وبساكن الأرياف من العربان والفلاحين ، أن ابراهيم بك ومراد بك وببقية دولة المماليك أرسلوا عدة مكاتبات ومخاطبات ، إلى سائر الأقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة بين المخلوقات ، وادعوا أنها من حضرة مولانا السلطان ، ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان وبسبب ذلك حصل لهم شدة الغم والكرب الزائد واغتاضوا غيظاً شديداً من علماء مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم وبتروا عيالهم وأوطانهم ، فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنسية ، لأجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية ، وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية ولو كانوا في هذه الأوراق صادقين ، بأنها من حضرة سلطان السلاطين ، لأرسلها جهاراً مع أغرات ( رؤساء جند ) معينين ، ونخبركم أن الطائفة الفرنسية بالخصوص عن بقية الطوائف الأفرنجية دائماً يحبون المسلمين وملتهم ، ويبغضون المشركين وطبيعتهم ، أحباب لمولانا السلطان قائمين بنصرته ، وأصدقاء له ،

ملازمون لمودته وعشرته ومعوته ، يحبون من والاه ، ويبغضون من عاداه ،  
ولذلك بين الفرنسيات والمسكوف غاية العداوة الشديدة من أجل عداوة المسكوف  
القبيلة الرديئة ، والطائفة الفرنسية يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلادهم إن  
شاء الله تعالى ولا يقون منهم بقية ، فنصحكم أيها الأقاليم المصرية ، إنكم لا تحركوا  
الفتن ولا الشرور بين البرية ، ولا تعارضوا العساكر الفرنسية بشيء من أنواع  
الأذية ، فيحصل لكم الضرر والهلاك ، ولا تسمعوا كلام المفسدين ، ولا تطيعوا  
أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، فتصبخوا على ما فعلتم  
نادمين ، وإنما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين ، لتكونوا بأوطانكم  
سالمين ، وعلى أموالكم وعيالكم آمنين مطمئنين ، لأن حضرة صارى عسكر الكبير  
أمير الجيوش بونا بارتته اتفق معنا على أنه لا ينازع أحداً في دين الإسلام ،  
ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الأحكام ، ويرفع عن الرعية سائر المظالم ، ويقتصر  
على أخذ الخراج وينزل ما أحدثه الظلمة من المغارم ، فلا تعلقوا آمالكم بإبراهيم  
ومراد ، وارجعوا إلى مالك الملك وخالق العباد ، فقد قال نبيه ورسوله الأكرم  
الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الأمم ، عليه أفضل الصلاة والسلام ،

هذه بيانات كبار العلماء للشعب عقب إخماد ثورة القاهرة ، ولا حاجة إلى  
تبيان ما بها من الأغلط والعبارات الركيكة ، والأفكار السخيفة ، فإن مجرد  
تلاوتها يغني عن البيان ، وإذا كان المراد منها إسداء النصح للشعب بالتزام السكينة  
السا نزل به من الأحوال في خلال الثورة وبعد إخمادها فإن النصح والإرشاد  
أساليب أرقى من تلك البيانات المملوءة نفاقاً وسخفاً ، ولقد نشرناها بنصوصها  
لأنها من الوثائق التاريخية لذلك العصر ، ولتعرف منها الفرق بين موقف كبار  
العلماء في بياناتهم للشعب وموقف أواسط العلماء في قيادتهم للثورة

ومن الواجب تقريراً لحقيقة واقعة أن نقول إن هذه البيانات وغيرها إنما نشر خلال  
الحملة الفرنسية على لسان العلماء قد أمليت تحت تأثير الضغط والإرهاب ، وهذا ظاهر  
كما ذكره الجبرتي عن طريقة تحريرها ، فقد قال عن البيان الأول : « واستهل شهر  
جمادى الثانية بيوم السبت ( سنة ١٢١٣ ) وفيه كتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ  
وأرسلوها إلى البلاد وألصقوا منها نسخاً بالأسواق والشوارع ، وظاهر أنه



يقصد الفرنسيين بكلمة « كتبوا » ، كما هو سياق العبارة في الكتاب ، وقال عن البيان الثاني : « وفيه كتبوا عدة أوراق وأرسلوا منها نسخاً للبلاد وألصقوا منها بالأخطاط والأسواق وذلك على لسان المشايخ أيضاً » .

وقال عن البيانات التي نشرت باسم الديوان أثناء الحملة على سوريا (١) لما وردت الأخبار باحتلال الفرنسيين يافا وجاءت رسالة نابليون بتفاصيل هذا الاحتلال : « اجتمع أعضاء الديوان فقرأ عليهم تلك الرسالة بعد تعريبها وترصيفها على هذه الكيفية وهي عن لسان رؤساء الديوان إلى الكافة وذلك بالزامهم وأمرهم بذلك » ، وعبارة الجبرتي هنا صريحة في الإلزام والأمر

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى ما ورد في المراجع الفرنسية من أن الشيخ محمد المهدي سكرتير الديوان كان يتولى صوغ المنشورات التي يريد نابليون إذاعتها على لسان الديوان في قالب عربي مسجع ، ولعل هذا هو السبب في امتداح نابليون للشيخ المهدي وتفضيله على باقي الأعضاء فقال عنه في مذكراته : « إنه أذكي علماء الأزهر وأفصحهم لساناً وأكثرهم علماً وأصغرهم سناً (٢) » ، وقد ذكر الجبرتي عن المنشور الذي أذاعه نابليون على لسان الديوان عقب عودته من الحملة على سوريا « إنه من ترصيف وتمييق بعض الفصحاء » ، والإشارة هنا إلى الشيخ المهدي لا محالة ، لأنه باتفاق المراجع الفرنسية هو الواضع للمنشور نابليون في قالبه العربي ، ولأن الثابت في رسالة نابليون التي بعث بها من يافا بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ إلى المسيو بوسياج مدير الشؤون المالية بالقاهرة أثناء الحملة على سوريا قوله فيها : « عليكم أن تأمروا بطبع كل المنشورات التي يبعث بها فانتور Venture إلى الديوان وأن تضيفوا إليها المحسنات والتنميقات التي يرى الشيخ المهدي إدخالها عليها وأن تنشرها في أنحاء مصر (٣) » ، فلم يبق شك في أن الشيخ المهدي هو الذي كان يتولى كتابة المنشورات التي يوعز بها الفرنسيون (٤)

(١) راجع الفصل الثاني من الجزء الثاني من الكتاب

(٢) مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين

(٣) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٠٢٨

(٤) بسطنا الكلام في ترجمة الشيخ المهدي والأفراد النابيين من أعضاء الديوان ودراسة

شخصياتهم في الفصل الرابع عشر من الجزء الثاني

## الفصل الرابع عشر

### في المنوفية والغربية

عرفت مما كتبناه في الفصل الحادى عشر أن نابليون عين الجنرال زاينوشك Zayonehek قومنداناً للمنوفية ، والجنرال فوجيير Fugières قومنداناً للغربية ليتوليا إخضاع المديريتين ، فلننظر كيف أديا مهمتهما

سبق الجنرال زاينوشك زميله إلى مقر وظيفته ، وكانت تعليمات نابليون تقضى بأن يسافر الجنرال فوجيير إلى محل عمله من طريق قليوب فنوف فالمحلة الكبرى ، وأن يكون على اتصال مستمر بالجنرال زاينوشك بمنوف والجنرال فيال بالمنصورة والجنرال بيرب بالرحمانية ليتعاونوا على توطيد سلطة الجمهورية الفرنسية في هذه المديريات ، وأصدر تعليماته بأن يجردوا الأهالى من السلاح وبصادروا خيلهم ويعتقلوا أعيانهم رهائن ، كل ذلك لإخضاع البلاد وإلقاء الرهبة فيها ، وإذا تأملت رسائل نابليون إلى قواده رأيت فيها معنى الشدة والصرامة يأمر بهما في إخضاع البلاد ، فلا يعسر علينا أن نفهم لماذا تأججت نار الكراهة في نفوس الأهالى ، كتب نابليون إلى الجنرال زاينوشك بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ ينبئه بسفر الجنرال فوجيير ويقره على إعدام خمسة من الأهالى في كل قرية من القرى الثائرة ويقول في رسالته : « اصدروا أوامركم بأن تقدم لكم كل قرية جوادين من خير الجياد ، وأيما قرية لم تفعل ومضت خمسة أيام من إعلانها بالأمر ضربت عليها غرامة ألف ريال ، وإن هذه هى الطريقة الفعالة للحصول على خمسمائة من الجياد تسد من حاجتكم ، وعليكم عند طلب الخيل أن تطلبوا كذلك عدتها من الركاب والليجاء لتوافر لكم في الحال فرقة من الخيالة ، فإنها الوسيلة الوحيدة لإخضاع هذه البلاد (١)

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٧١

## المقاومة في غمرين وتتا

سار الجنرال فوجيير من القاهرة مساء ٥ أغسطس سنة ١٧٩٨ وقصد إلى منوف ثم غادرها قاصداً الغربية يوم ١٣ أغسطس ؛ وبعد مسير ساعة اصطدم بقريتي غمرين وتتا (١)

ثار أهل القريتين ، وحملوا السلاح ، وأغلقوا الأبواب في وجه الجنود ، فحاول الجنرال فوجيير عبثاً أن يكره البلدين على فتح أبوابهما فلم يستطع ، ولما أعيته الحيل طلب المدد من الجنرال زاينوشك الذي كان مرابطاً بمنوف ، فأمدته بقوة من جنوده ، وتعاونت القوتان على إخضاع القريتين بعد ما دافع أهلها دفاعاً شديداً ، واشتد القتال بخاصة في غمرين ، واشتبك الأهالي والجنود في طرقاتها ، فانهمرت فيها الدماء وغطيت الأرض ببحث القتلى . قال الكابتن فيروس Feros (٢) يصف هذا الدفاع : « جاءنا المدد ، وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية غمرين ، فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين ، وقتلنا من الأعداء (الأهالي) من أربعمئة إلى خمسمئة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة وإقدام ؛ أما خسائر الفرنسيين فكانت قتيلاً واحداً واثني عشر جريحاً ، ولم تكن عندنا فووس ، فكان ذلك من الأسباب التي أخرتنا عن اقتحام أبواب القرية ،

فانظر إلى هذا الوصف ، وتأمل كيف كان النساء يشاركن الرجال في مقاتلة الفرنسيين ودفاعهم ، وهذا لعمري من أبلغ ما يذكر عن استبسال شعب في الدفاع عن كيانه ، وأبلغ منه أن الشهادة به جاءت من عدو ، وسترى في خلال الوقائع التي نأتى عليها في الفصول التالية أن النساء كن في بعض البلاد يشاركن الرجال في مقاومة الفرنسيين

(١) بلدتان متجاورتان شمال منوف

(٢) من رسالة له إلى الجنرال كافاريلي في ١٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وقد ذكر نابليون في رسالته إلى الديركتوار بتاريخ ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ واقعة ( غمرين ) بإيجاز ونشرت رسالته في مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٢٤٨٨

استولى الفرنسيون أولا على غمرين ثم قصدوا إلى تسا فاستولوا عليها  
وأضرموا النار في القريتين عقابا لها على الثورة  
ونفذت ذخيرة الجنرال فوجيير في محاربتة لبلدتي غمرين وتسا ، فعاد  
إلى منوف ينتظر المدد وبقى هناك ثمانية أيام ، ولما كان الفيضان قد بدأ يغرق  
الطرق فقد نزل بجنوده في السفن ووصل إلى المحلة الكبرى من طريق ترعة مليج  
واستقر بها

### المحلة الكبرى

كانت المحلة الكبرى عاصمة الغربية ، وهي يومئذ أكبر بلاد الدلتا في اتساعها  
ومركزها الصناعي ، واشتهرت في ذلك العصر (كشهرتها الآن) بنسيج الأقمشة  
الحريرية والقطنية ، فكان الحرير الخام يرد إليها من سوريا عن طريق دمياط  
ثم يغزل خيوطا وتنسج منه الأقمشة الحريرية المختلفة ألوانها ، كتب المسيو جالوا  
Jallois أحد مهندسي الحملة الفرنسية رسالة عن رحلته في الدلتا وصف فيها المحلة  
الكبرى وذكر صناعة الحرير بها فقال : « إن معظم الحرير الذي يلبسه النساء  
في مصر ينسج في مصانع المحلة الكبرى ، ويصنع فيها أيضا المناديل التي يغطي بها  
النساء رؤوسهن والقمصان والبشاكير (١) » ، وقال المسيو جيرار Girard وكيل  
إدارة الري في عهد الحملة الفرنسية إن منسوجات المحلة الكبرى يتخذ منها ستائر  
الشبابيك وأغطية المقاعد والأرائك والوسائد وأغطية الموائد الموشاة بأسلاك  
الذهب والفضة ، والأحزمة الحريرية ، والملاءات المسناة ( بالملس ) وكانت هذه  
المنسوجات تصدر عن المحلة إلى سائر أنحاء القطر المصري وبلاد السلطنة العثمانية ،  
قال : وكانت تنسج فيها الأقمشة القطنية ، وكان عمال نسيج القطن قبل الحملة  
الفرنسية يبلغ عددهم فيها ألفي عامل فنزل عددهم مدة الحملة إلى خمسمائة (٢) ، وهذا  
يدل على تهقر البلاد من الوجهة الاقتصادية في عهد الحملة الفرنسية

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس عشر

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء السابع عشر

وقد رابط الجنرال فوجيير في المحلة الكبرى ، ثم انتقل منها في خلال الحملة إلى سمنود التي اتخذها الفرنسيون عاصمة لمديرية الغربية وفضلوها على المحلة الكبرى لوقوعها على النيل ، وسهولة اتخاذها مركزا للواصلات النيلية والحركات العسكرية

### الثورة في طنطا

كانت طنطا كما هي الآن أكبر بلاد الدلتا من الوجهة التجارية ، بلغ عدد سكانها في ذلك العصر عشرة آلاف نسمة كما قدرهم المسيو جالوا (١) ، وترجع مكانتها إلى مركزها التجارى وإلى ضريح السيد أحمد البدوى ومواسمه المعروفة ، فكان يزورها سنويا في أيام المولد الأحمدي نحو مائة ألف زائر من مختلف المدن والأقطار

ظهرت أعراض الهياج والثورة في طنطا أوائل اكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وأجمع أهلها على الامتناع عن دفع أى ضريبة أو غرامة تفرض عليهم فأبلغ الجنرال فوجيير إلى نابليون حالة المدينة في رسالة له بتاريخ ٦ أكتوبر وقال إن امتناعهم راجع إلى نياتهم العدائية وكرهيتهم للحكومة وإنهم يؤرون بعض المماليك فيستترون بينهم ويحرضونهم على التمرد والثورة وكان الفرنسيون ينظرون إلى طنطا كمدينة مقدسة عند المسلمين تلى مكة والمدينة في الأهمية ويستشعرون احترامها محافظة على إحساس الأهالى ، فتحاشوا أول أمرهم أن يرسلوا إليها قوة من الجنود كيلا يصطدموا بالأهالى أو يعتدوا على الشعائر الدينية فتتورث أثارهم ، ولكن الجنرال فوجيير رأى روح الهياج والتمرد تقوى وتشتد ، فأرسل إليها كتيبة من الجنود بقيادة الكولونيل لوفيفر وعهد إليها اعتقان زعماء المدينة وأخذهم رهائن ، وكلفها كذلك أن تخضع الأهالى فيما جاورها وفي البلاد الواقعة على طريق الجنود وأخذ الرهائن منها ، وكان دعاة الثورة في القرى يحرضون الأهالى على عصيان الفرنسيين

(١) تخطيط مصر الجزء الخامس عشر

وصل الكولونل لوفيفر تجاه طنطا يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ورابط بجنوده وكلف حاكمها سليم الشوربجي أن ينفذ إليه أربعة من كبراء المدينة يكونون رهائن ، فجاءه بأربعة من أئمة مسجد السيد احمد البدوي ورفض أكبر المشايخ أن يحضروا معه ليعطوا القائد الفرنسي موثقاً بالمحافظة على السكينة في طنطا ، وكان المولد قائماً في ذلك اليوم ، وقد تجمع فيه خلق كثير من أرجاء البلاد ، فلم يكده لوفيفر ، ينزل الرهائن الأربعة إلى المراكب ليعبث بهم إلى القاهرة ، حتى هرعت الجماهير مسلحين بالبنادق والحرا ب يصيحون صيحات الغضب والسخط ، رافعين الرايات والبيارق ، فلما رآها أهالي البلاد المجاورة أقبلوا من كل حذب وانضموا إلى الثائرين وفيهم ١٥٠ من فرسان العرب فاندفعت هذه الجموع على كتيبة الجنرال لوفيفر ، وكادت تأخذ المراكب التي معها فقابلتها الكتيبة بنار شديدة من البنادق الحديثة فانهمزمت الجموع إلى المدينة ، وعادت غير مرة تهاجمها ثم تردت إلى داخل البلد ، ورأى الكولونل لوفيفر أن لاسيدل إلى تعقب الثائرين في مدينة كبيرة كطنطا لقلة عدد جنوده وافتقاره إلى المدفعية ، فلزم خطة الدفاع واقتصر على منع الثائرين أن يحيطوا بجنوده ، وعلى الدفاع عن مراكبه ، وتمكن من إنزال معظم قوته بالسفن ومعهم الرهائن ، ثم أقلعت سفنه وترك قوة من رجاله على شاطئ الترعَة بعد معركة دامت أربع ساعات ، وقد قدر الجنرال فوجيير عدد الثوار بعدة آلاف وقدر خسائرهم بثلاثمائة بين قتيل وجريح ، وطلب من نابليون معاقبة أهالي طنطا لأن معظم الثوار كانوا منهم وألح في طلب المدد من الرجال والمدافع لإخضاعهم

ولكن نابليون جنح إلى الحكمة وآثر أن يأخذ الثائرين بالحسنى لأنه كان يخشى عاقبة انفجار الهياج في مدينة لها حرمتها عند الأهلين فلم يوافق الجنرال فوجيير على طلبه وأرسل إليه بتاريخ ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ يقول :

« لقد علمت بمزيد الأسف ما حدث في طنطا ، على أني راغب في احترام هذه المدينة ، وأعتبر تحريب هذا المسكان المقدس في نظر الشرف كارثة كبرى ، على أني سأكتب إلى أهالي طنطا ، وسأطلب من الديوان العام أن يكتب إليهم ، وإني راغب في أن تنتهي الحادثة بالمفاوضة على صلح ووثام ،

وكان الجنرال فوجيير قد نبه نابليون إلى أن الثوار قد استعانوا بالعرب ، فسكفه نابليون أن يأخذ الرهائن منهم لإخضاعهم ، وإن لم يدعنوا فليشكل بهم وقد عزم نابليون على تجريد الحملة عليهم بقيادة الجنرال لانوس Lauausse الذى عين قومنداناً لمديرية المنوفية ، خلفاً للجنرال زاينوشك (١) فناط به قيادة الحملة وفيها جنوده وجنود الجنرال فوجيير ، وأمره أن يسير إلى العرب فى سبباط حيث يرا بطون بها ويحاربهم ، وينتزع منهم الرهائن والأسلحة

### احتلال عسما

كان الجنرال لانوس يهاجم حينئذ قرية عسما (٢) لإخضاع زعيمها المشهور فى ذلك العهد بسطوته وشدة بأسه ، واسمه « أبو شعير ، وقد اتهمه الفرنسيون بعدائه لهم ، وبمآلاته على الجنود ، فجرد الجنرال لانوس حملة عليه ، وسار ليلة ٣٠ اكتوبر سنة ١٧٩٨ قاصداً قرية عسما فى كتيبة من الجنود ، فوصلها الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وفاجأ مخفرين من المخافر التى وضعها أبو شعير حول القرية لحراستها ، فتخطاهما حتى وصل إلى مدخل البلد ، وهناك التقى بمخفر ثالث أطلق رجاله الرصاص على الفرنسيين ، لكن الجنرال لانوس تمكن من تطويق القرية بالجنود ، ومحاصرة منزل أبى شعير الذى وصفه لانوس بأنه قصر محصن تحصيناً تاماً بالنسبة لحالة البلاد ، وقد علم أبو شعير بوصول الفرنسيين ، فركب فى رهط من رجاله استعداداً للقتال ، وسعى لانوس فى أخذه بالحسنى ، ولكنه أجاب بإطلاق الرصاص على الفرنسيين ، فأمر الجنرال لانوس رجاله باقتحام أسوار القصر ، وأدرك ( أبو شعير ) أنه واقع لا محالة فى أسر الفرنسيين ، فأمر جنوده أن يطلقوا النار على الجنود ليشغلهم عن نفسه ويلوذ بالفرار ، وقد تمكن من تساق الأسوار ثم ألقى بنفسه فى الترعة وقطعها سباحة ، ولكنه لم يكد يصل إلى عُدّها الأخرى حتى أصابته رصاصة جندلته ، والظاهر أن الفرنسيين عدوا قتل أبى شعير انتصاراً

(١) نقل زاينوشك قومنداناً لى سوبف

(٢) من بلاد مركز شين الكوم

كبيراً ، فقد ابتهج له الجنرال لانوس ، وأرسل إلى نابليون بتاريخ ٢٣ أكتوبر  
يبنئه بمصرعه ، ويذكر عنه أنه لحق الجيش الفرنسي منه أذى كبير ، وأنهم وجدوا  
بمنزله بعض شارات للضباط الفرنسيين ، ولعل هذا هو سبب اتهام الفرنسيين إياه  
بالسطو ، وهى تهمة ينسبونها لمعظم من حاربوهم أو قاوموهم ، وقد ذكر لانوس  
عن أبي شعير أنه كان واسع الثروة ، وأن له مزارع واسعة ، وأنه يمتلك عشرين  
قربة ، وأنه كان فى سطوة ، وإذا مشى سار معه ألف ومائتا رجل فى سلاحهم ،  
واعترف لانوس فى رسالته لنابليون أنه لولا مفاجأته لأبى شعير فى قريته لما  
استطاع أن يظهر عليه ، ولو هو علم بمقدم الفرنسيين وأعد لملاقاتهم لأصابهم منه  
جهد وشدة وأذى ، وقد استولى لانوس على ما وجدته فى القصر من الأسلحة ،  
ومنها ثلاثه مدافع وعدد كبير من البنادق (١) ، وأحصى ممتلكاته فى عسما والقرى  
الأخرى ، ولكنه لقى مقاومة شديدة من الأهالى فى سلامون وسرسنا ، وكادوا  
يقتلون مترجم الجنرال والمباشر الذى كان يرافقه ، وألقى لانوس القبض على اثنين  
من إخوة أبى شعير وبعض حاشيته ، وأرسلهم إلى نابليون ليقررهم عن المكان  
الذى خبأ فيه أبو شعير أمواله إذا لم يعثر عليها ، وأشار على نابليون فى رسالته  
بأن يقتلهم بعد ذلك لما ارتكبوه من الاعتداء ، وطلب منه أن يمدده بقوة من  
الفرسان ، وقد أشار الجبترى إلى واقعة احتلال عسما بقوله :

« وفى ١٨ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ (٢) ضربوا كفر عسما وقتلوا كبيرهم المسمى  
بابن شعير ، ونهبوا داره ومناعه وبهائمته ، وكان شبيهاً كثيراً جداً ، وأحضروا إخوته  
وأولاده وقتلوه ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير جعلوه شبيهاً عوضاً عن أبيهم (٣) ،  
ويلاحظ على رواية الجبترى أنه جعل تاريخ الواقعة ١٨ جمادى الأولى أى  
٢٨ أكتوبر ، والواقع أن مهاجمة كفر عسما كانت ليلة ٢٠ أكتوبر كما يؤخذ من  
رسالة الجنرال لانوس إلى نابليون

(١) رسالة لانوس إلى نابليون فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨

(٢) يوافق ٢٨ أكتوبر سنة ١٧٩٨

(٣) الجبترى الجزء الثالث



وكانت الملاحه في الترع بدأت تتعطل لنقص مياه النيل ، على حين أن  
المواصلات في البر متعذرة ، فتأخرت الحملة التي كلف بها الجنرال لانوس إلى أوائل  
نوفمبر حتى جاءه المدد من القاهرة بقيادة الجنرال فو Veaux

سار الجنرال د فو ، ومعه كتيبة من الجنود من القاهرة يوم ٧ نوفمبر فوصل  
إلى منوف من طريق قليوب وترعة الفرعونية ، وكان في أعمال حملة لانوس  
إخضاع مدينة طنطا ، وقد كرر نابليون لهذه المناسبة وصاياه باحترام مساجد هذه  
المدينة ، فأرسل الجنرال برتييه رئيس أركان حربه إلى الجنرال لانوس بتاريخ  
٦ نوفمبر لمناسبة سفر الجنرال د فو ، يقول : يجب المسير بقوات كبيرة إلى طنطا  
ولما كان لهذه المدينة حرمة كبيرة عند المسلمين فمن الواجب أن لا تمس المساجد  
والمقامات التي بها ،

ولما وصل المدد إلى الجنرال لانوس سار بجنوده وأوقع بكثير من القرى  
المحاذية للنيل بحجة مهاجمتها للسفن الفرنسية على فرع رشيد ، وبلغ طنطا دون أن يلقى  
مقاومة وأمكنه أن يحصل بعض الضرائب وشتت قوات العرب التي كانت تشد  
أزر الثوار ، لكنه لم يستطع أن يقهرها أو يتغلب عليها ، ثم عاد إلى منوف

## الفصل الخامس عشر

### في الدقهلية<sup>(١)</sup> ودمياط

على أثر تعيين الجنرال فيال Vial قومنداناً لمديرتي المنصورة ودمياط في أوائل أغسطس سنة ١٧٩٨ (٢) مضى بفرقته إلى المديرتين لإخضاعهما ، فقصداً أولاً إلى المنصورة ومكث بها قليلاً وترك بها حامية تحتلها ، ثم تابع سيره إلى دمياط ليجعلها مقراً لفرقته ، فاحتلها واحتل عزبة البرج

#### واقعة المنصورة

اتمر أهالي المنصورة والبلاد المجاورة بجنود الحامية وانفقوا على الفتك بهم ، فبينما كان الجنود في معسكرهم يوم ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ دخلت المدينة جموع كثيرة من أهالي البلاد المجاورة ، وكان اليوم يوم السوق العامة ، فاختلطوا بأهل المدينة ، ووافقهم على الفتك بجنود الحامية ، فهاجموا الجند ، ونادت المدينة كلها بالثورة رجالاً ونساء ، وكان النساء يحرضن أزواجهن على أن يشوروا بالفرنسيين (٣) ، ولما شعر الجنود بالخطر امتنعوا في معسكرهم فحاصره الثائرون وشرعوا في دكه وأشعلوا فيه النار فاضطر الجنود إلى إخلائه هاربين وانحدروا

(١) كانت مديرية الدقهلية تعرف بمديرية المنصورة ، ولم يكن اسم الدقهلية شائعاً في ذلك العصر ، ومع ذلك فهو الاسم الذي عرفت به قديماً ، فقد سميت باسم الدقهلية في خطط القرينزي (الجزء الأول) ، وذكرها بهذا الاسم القاضي يحيى بن الجيعان في كتابه (التحفة السنية بأسماء الديار المصرية) الذي يتضمن تخطيط مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، وذكرها كذلك الرحالة فانسليب Vansleb الذي جاء مصر سنة ١٦٧٢ باسم كاشقية (مديرية) الدقهلية ، فبوخذ من ذلك أن تسميتها باسم (مديرية المنصورة) لم يكن مألوفاً إلا في القرن الثامن عشر ، ولم يذكرها الجبرتي باسم الدقهلية إلا مرة واحدة . وقد جربنا في سياق الكلام على ما كان معروفاً في ذلك العصر وهو (مديرية المنصورة) .

(٢) انظر ص ٢٥٥ .

(٣) التاريخ العلمي والجزئي للحملة الفرنسية . ريبو . الجزء الثالث .

إلى السفن قاصدين الفرار ، ولكن الجموع تكاثرت عليهم وأبى رجال السفن أن يحملوهم ، فالتجأوا إلى البر وقصدوا إلى دمياط ولكن الثوار أخذوا عليهم الطريق ثم قتلوهم عن آخرهم (١) وكان من الناجين امرأة أحد الضباط وابنتها فأبقى عليهما الثوار ولم يمسوهما بسوء ، ويقول ريبو (٢) إن الفتاة قد اشتراها شيخ العرب ( أبو قوره ) وتزوج بها فلبثت عنده حتى مات عنها سنة ١٨٠٨ في عهد محمد علي باشا وبقيت حافظة عهده قائمة على تربية أولادها منه بعد وفاته ، وقد أيد كلوت بك هذه الرواية في كتابه (٣) مع اختلاف في بعض وقائعها . وهو يقول إن هذه الواقعة حصلت عندما شرع الفرنسيون في الجلاء عن مصر ، على أنه لم تحصل وقائع في المنصورة عند جلاء الفرنسيين ، وكلوت بك يرجع إليه فيما حققه وشاهده بنفسه ، ويقول إنه سمع نبأ هذه الواقعة حينما كان كبير أطباء الجيش المصرى في عهد محمد علي باشا فزار دار أبي قورة بميت العامل (٤) سنة ١٨٣٤ ، أى بعد أكثر من خمس وثلاثين سنة من الواقعة ونزل بها ، وكان قصراً فسيحاً قائماً بالقرب من مساكن العرب ، وقابل زوجة أبي قورة الفرنسية وابنها ، قال يصف هذه المقابلة : « ولقد أحسن ابنها ثقافى وأكرم مشواى ، ولما عرف أننى فرنسى الجنس ذكر لى والدته وقال إنها فرنسية ، فكشفته رغبتى فى لقاتها ، وكانت ذريعتى إلى ذلك مهنة الطب التى أقوم بها ، فلما بلغت خدرها تلمقتى بحبيرة باللغة الفرنسية ، وتبينت أنها إيطالية الجنس ، وعلمت منها فعلا أنها ولدت بمدينة البندقية ، وأن

(١) جاء فى يوميات الجنرال ( لوجيه ) Laugier أنه عثر على جندى جريح من جنود حامية المنصورة كان محتفياً فى إحدى القرى فقص عليه الحادثة وكتب لوجيه بها تقريراً وهو لا يخرج فى مجموعه عما ذكرناه ويقول المسيو « شابرول » Chabrol أحد مهندسى الحملة الفرنسية فى بحته المشهور بكتاب تخطيط مصر الجزء الثانى عشر إن عدد جنود حامية المنصورة كان ١٣٠ مقاتلاً وأن العرب أسروا اثنين منهم وفر ثلث وهؤلاء الثلاثة هم الذين نجوا من القتل ، ويقول السكاپتن ساباتييه Sabatier أخذ ضباط فرقة الجنرال فيال التى زحفت على المنصورة ثم تابعت سيرها إلى دمياط إن عدد جنود حامية الذين تركهم الجنرال فيال بالمنصورة ١٦٠ مقاتلاً

(٢) التاريخ العلمى والجغرى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٣) كلوت بك . لحة عامة إلى مصر الجزء الثانى

(٤) من بلاد مركز أجا الآن

والدها كان تاجر قبعات اسمه بارتولى ، وأن والدتها كانت تسمى مرجريت ، وأن اسمها هي جوليا ، وأن العربان سبّوها وهي خارجة من المنصورة إذ أركبوها جواداً وانطلقوا يطوون بها الفدائد والسباسب حتى بلغوا بها في المساء داراً كبيرة التقت فيها برجل يغطيه من الرأس إلى القدمين حرام أبيض ، وأن هذا الرجل بذل لها من مظاهر العطف والميل ما لا يوصف ، وأنه جردها من ثيابها الأوروبية ليلبسها بدلاً منها ثوباً شرقياً فضفاضاً ، ثم سلبها من الحلى والجواهر ما قيمته ستمائة كيس ، أى ما يعدل مائة ألف فرنك تقريباً ، وجعل في خدمتها عدداً كبيراً من العبيد والجواري ، وذلك الرجل هو الزعيم (أبو قوره) الذى كان مشهوراً بالشوكة والجاه الطويل ، ولكن هذا الالتفات وهذا العطف كانا يضجرانها ، فكانت لا تكف عن البكاء وتعرب بالقول والإشارة والصياح عن رغبتها فى العودة إلى ذوبها ؛ ومع هذا فلم ينقض أحد عشر شهراً حتى رزقت غلاماً ، فهدأ شعور الأمومة نحو وليدها نائرة التذمر والاستياء ولطف من أسرها فى هذا المكان فلم يسعها إلا احتمالته والرضاء به ، ولما مات زوجها ، وكانت توليه الحب الصادق وتعيش معه فى بحوحة الهدوء والنعيم ، أكرهت على الزواج بأخيه فلم تجد منه ما كانت تلقاه فى أخيه المرحوم من حسن الرعاية وجميل العطف ، (١)

وذكر كلوت بك ما كان عليه (أبو قورة) من الجاه والثراء فقال إنه كان يقاوم سلطة المماليك مدة حكمهم وكانت له السيادة فى إقليم المنصورة وقتئذ وكان يملك أربعاً وأربعين قرية وبضعة آلاف من الجمال وقطعاناً لا عداد لها من الأغنام وأكثر من خمسمائة عبد وجارية من الأرقام

والآن نعود إلى الكلام عن واقعة المنصورة ونتائجها

أشعلت هذه الواقعة نار الثورة والهباج فى البلاد المجاورة ، وكادت الثورة تستفحل ويتسع مداها ، لولا وصول الجنرال دوجا Dugua الذى عينه نابليون قومنداناً لمديرية المنصورة (٢)

(١) كلوت بك . لحة عامة إلى مصر . الجزء الثانى

(٢) راجع ص ٢١٦ وهامشها

وصل دوجا وجنوده جنوبي المنصورة يومى ١٧ و ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ ،  
فعلم عند وصوله بما حل بجنود الحامية ، وكان أهل المدينة يتوقعون انتقاماً شديداً ،  
فكتب الأعيان رسالة إلى ديوان القاهرة يبرؤون من الاعتداء على الجنود ،  
وينسبون ذلك إلى الفلاحين والعرب الذين اقتحموا المدينة يوم الواقعة ، وذهب  
قاضى المنصورة خصيصاً إلى القاهرة ليدافع عن مسلك سكان المدينة ، وقد علم  
نابليون بنبأ الحادثة وجاءته رسالة أعيان المنصورة التى كتبوها إلى الديوان ،  
فبعث إلى الجنرال دوجا يطلب منه عقاب أهالى المنصورة عقاباً شديداً ، ويأمره  
أن يقتل تسعة أو عشرة من أعيانها (١)

وكان الجنرال دوجا معروفاً بين قواد نابليون بالحكمة والأناة وحسن السياسة ،  
فاستعمل الحكمة فى توقيع العقاب وإعادة النظام فى المدينة ، وأراد أن يتحقق من  
المعتدين حتى لا يأخذ بريئاً بمذنب ، وقد تبين من الفحص عن أمرهم أن معظم  
المعتدين من البلاد المجاورة ، وأن زعماء المحرضين على قتل الحامية قد غادروا  
المنصورة ومنهم رجلان كانت لهما شهرة فى تلك الجهات بالسطوة والجاه وشدة  
البأس ، وهما الأمير مصطفى ، وعلى العديسى ، فاكتفى الجنرال دوجا بالحكم على  
اثنين من أهالى المنصورة بالإعدام ، لثبوت اشتراكهما فى القتل ، وأنفذ الحكم  
فيهما وطافوا برأسيهما فى شوارع المدينة عبرة وإرهاباً ، وأخذ الجنرال دوجا  
يتأهب لتعقب المعتدين فى بلاد البحر الصغير والقبض على الأمير مصطفى ، وعلى  
العديسى ، وتجريد حملة عسكرية لمعاينة القرى التى اشتركت فى الاعتداء على الجنود  
وكان الذعر قد استولى على المنصورة وهاجر كثير من أهلها فراراً بأنفسهم  
من اتهامهم فى واقعة قتل الحامية ، وتعطلت التجارة ، وركدت أسواق المدينة ،  
فطلب الجنرال دوجا من نابليون أن يأذن له إذا لم يظفر بالمعتدين فى إعلان  
العفو ، ليعود الأهالى إلى أعمالهم ، بشرط أن لا يتناول العفو أهل القرى المجاورة  
الذين اشتركوا فى الواقعة ، وكان غرض الجنرال دوجا أن يؤخر معاينة سكان

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٧٢

هذه القرى إلى أن تصل القوة الكافية ، وينحسر الفيضان الذي كان يتلف الطرق ،  
ويعطل المواصلات

أقر نابليون الجنرال دوجا على خطته وأرسل له في ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨  
يأذنه أن يمنح المدينة العفو ، وطلب إليه أن يستخدم ما يراه لإقرار الطمأنينة  
وإعادة الأعمال سيرتها الأولى ، وكلفه في الوقت نفسه أن يكتب إلى أعيان  
البلاد المجاورة التي اشترك أهلها في قتل الحامية الفرنسية يطلب أن يسلبوا المعتدين  
منهم وإلا استهدفوا لإحراق قراهم بالنار

وطلب إليه إخضاع بلاد مديرية المنصورة وأخذ رهائن من كل قرية اشترك  
أهلها في الاعتداء على الجنود ، ثم إحراق القرى التي يرى أنها كانت أبلغ  
في الاعتداء ، وأمر نابليون بفرض غرامة ثلاثة آلاف ريال على أعيان  
المنصورة عقاباً لهم على سوء صنيعهم ، وفرض ألفي ريال خاصة على السيد  
على الشناوي أحد أعيان المدينة ، ثم ألفي ريال على القرى التي اعتدت  
على الجنود (١)

وقد اتى الفرنسيون عناء كبيراً في إخضاع مديرية المنصورة ، فقد اشتدت  
فيها المقاومة وامتنع كثير من البلاد عن دفع الضرائب ، ويقول ريبو (٢) إن  
محصلي الأموال الأميرية كانوا إذا ذهبوا إلى القرى لجباية الضرائب أو مصادرة  
أموال الممالك يقابلون بالرصاص رمياً ، أو بالعصى ضرباً ، وفي بعض الأحيان  
كانوا يصحبون بعض الخفراء لحراستهم ، فلا يعصمهم ذلك أن يلقوا مثل هذه  
المقابلة ، وعطل الفيضان حركات نقل الجنود في البر ، فساعد هذا العامل على  
فيضان روح الثورة في القرى ، واضطر الجنرال دوجا إلى تأخير ما عهد إليه من  
إخضاع ذلك الإقليم ومعاقبة القرى التي ثارت في وجه الجيش أو التي اشتركت  
في قتل الحامية الفرنسية بالمنصورة

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٠١

(٢) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الرابع

### الحملة على سنباط وميت غمر

كانت مهمة الجنرال دوجا أن يكتشف الجهات التي عزم على تجريد الحملة عليها قبل أن يغامر فيها ، وكانت بلدة ( سنباط ) (١) من القرى التي شاركت بلاد الدقهلية في الثورة ، فاتخذها الجنرال دوجا أول هدف له ، وهي وإن كانت في مديرية الغربية إلا أنه رأى أن يبدأ بمهاجمتها لسهولة الوصول إليها بطريق النيل ، وكانت أوامر نابليون تقضى بإحراق هذه البلدة . وكان الجنرال مورا Murat قومندان القليوبية مكلفاً بمعاونة الجنرال دوجا في إخضاع إقليم المنصورة فانتقل من بنها إلى ميت غمر في أواخر أغسطس سنة ١٧٩٨ لمعاينة العرب النازلين في تلك الجهة وبخاصة في دنديط (٢) ممن توجهت عليهم تهمة الاشتراك في واقعة المنصورة ، وكان منوطاً به كذلك تجريد الأهالي من السلاح ، على أنه لم يستطع إنفاذ هذه المهمة وكتب إلى نابليون في ٤ سبتمبر يسأله العدول عن هذه المهمة الشاقة ويقول في خطابه : « انى أعتقد أن سياسة تجريد الأهالي من السلاح طريقة ضارة وغير حكيمة إذ أرى أن العرب المزارعين مسلحون وتسليحهم مفيد لأنهم يحمون البلاد من سطوات البدو الرحل ، ويحفظون الأمن في هذه الجهات ، وصعب من الآن إلى وقت لايزال بعيداً أن نسلبهم السلاح دون أن نوقع الحرج في صدورهم ونندفعهم إلى الثورة كما حدث في مديريات أخرى ، لذلك أعتقد أنكم ترون ما أراه في الانتظار بهم حتى يستقر نظام الحكم الجديد ، وما هو الآن خطأ يكون يومئذ صواباً ،

هاجم الجنرال مورا في شهر سبتمبر قوة من العرب في دنديط بالقرب من ميت غمر فهزمهم وشنت جمعهم بعد أن قتل بعضهم وجرح رئيسهم واستولى منهم على ٢٠٠٠ رأس من الغنم

أما في سنباط فقد أنفذ الجنرال دوجا الجنرال فردييه Verdier لمعاينة العرب النازلين بها ، فغادر فردييه المنصورة يوم ١٢ سبتمبر بطريق النيل في ٥٥ جندياً ،

(١) بمرکز زفتى الآن

(٢) من بلاد مركز ميت غمر

فالتقى على مقربة من سنباط بقوة من العرب فهزمهم واستولى على خيامهم وماشيهم ومتاعهم (١) ، غير أن العرب تمكنوا من الإفلات فلم يقعوا في أيدي الفرنسيين ولاذوا بالتلال القائمة حول سنباط وأرادوا أن يقاوموا القوة الفرنسية لكنهم نكصوا أمامها وألقوا بأنفسهم في النيل وذهبوا يسبحون ونجا منهم من نجا ، وعادت القوة الفرنسية إلى المنصورة

ثم تجددت الاضطرابات في منطقة ميت غمر وندديط وميت الفرماوى في شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وباتت المواصلات النيلية في فرع دمياط مهددة ، فعهد نابليون إلى الجنرال مورا والجنرال لانوس بالتعاون على إخماد حركة الثورة في تلك المنطقة

التقى القائدان بالنيل عند بنها (٢) وسارت قواتهما من الجنود بالمراكب قاصدين إلى ميت غمر ، فأرسوا على شاطئ النيل بالقرب منها ، وساروا قاصدين مهاجمة الثوار الذين احتشدوا في (ندديط) ، وكان الجنرال مورا يتولى قيادة الميمنة والجنرال لانوس يقود الميسرة ، فسار الجنود الفرنسية بنظامهم الحربى لمهاجمة الثوار في معقلهم ، وكان السير متعذراً لأن الثوار قطعوا جسور الترغ فغمرت المياه الأراضي ، ورحل الجنود في الطرق والمستنقعات ، ولما باهت جموعهم نديط انسحب منها الثوار إلى (ميت الفرماوى) وهناك امتنعوا بها وكان معهم مدفعان فقاوموا هجوم الفرنسيين مقاومة شديدة ثم اضطروا إلى الارتداد عن القرية فاستولى عليها الفرنسيون وعلى المدفعين اللذين كانا بها ، واعتصم الثوار بالتلال القريبة منها ، فمتعقبهم الفرنسيون وأجلوهم عنها ، ثم استمر الثوار في انسحابهم حتى بلغوا (الحوابر) وعجز الفرنسيون عن متابعتهم لما لحقهم من الإعياء ، ولما غمر الأرض من مياه الفيضان ، فرجعوا أدراجهم إلى ميت غمر

(١) كتبت جريدة (كورييه دليجيت) بالعدد الثامن أن معركة سنباط انتهت بإحراق القرية وخسر العرب فيها خمسمائة قتيل عدا من غرق منهم واستولى الفرنسيون على ستة آلاف رأس من الفئ

(٢) يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٩٨



### فيضان الثورة

كان طائف الثورة يطوف في مختلف البلاد بحيث كانت كلها أخدمت في جهة انبعثت في جهة أخرى ، قال ريبو في هذا الصدد : « كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين وفرض الغرامات على البلاد ، لكن الثورة كانت كحيّة ذات مائة رأس كلها أخدمها السيف والنار في ناحية ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلها ارتحلت من بلد إلى بلد آخر ،

وقال في موضع آخر يصف حالة الشعب النفسية ومركز الفرنسيين : « إن مصر قد فوجئت بالحملة الفرنسية ، فأخذت تنتفض وتجادب للتخلص من قبضة الفاتح الحديدية ، لقد كنا نرابط في مصر ونحتلها احتلالاً عسكرياً ، وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محريه فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الإقناع ، وكان اختلاف الدين واللغة والطباع والعادات مما يجعل الامتزاج بين الغالب والمغلوب عسراً بعيد الاحتمال ، فكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الإذعان بالحزم مرة وبالقوة مرة ووقع كل ثورة ومكافأة من يخدم السلطة الفرنسية ، ولإدراك هذه الغاية وزع بونايرت الجيش على مختلف أنحاء القطر لإخضاعها وجعلها موضع مراقبة دقيقة ، وكان قواد الفرق فضلاً عن اختصاصاتهم الحربية ، يتولون الإشراف على الأعمال الإدارية والمالية في مديرياتهم ويراقبون جباية الأموال والغرامات ويشرفون على مجالس الدواوين في الأقاليم حتى لا تتعدى اختصاصها (١) ،

### الحملة على البحر الصغير

اهتم نابليون بإخضاع بلاد البحر الصغير ، السكّانة بين المنصورة وبحيرة المنزلة وارتباد الجهات الموصلة إلى البحيرة ، وكان يرمي من جهة إلى إخضاع تلك البلاد ، ومن جهة أخرى إلى تأمين المواصلات بين دمياط والمنصورة والصالحية وبلبيس

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

حتى يطمئن على حدود مصر الشرقية ، وقد بعث إلى الجنرال دوجا في هذا الصدد  
بعده رسائل تظهر مبلغ اهتمامه بهذا القطاع (١)  
جرد الجنرال دوجا حملة عسكرية لإخضاع البحر الصغير ومعاقبة القرى الثائرة  
في هذا الإقليم ، وأنفذ لهذا الغرض الجنرال داماس Damas والجنرال دستنج  
Destaing في قوة من الجنود الفرنسية ، ورسم لها الخطة التي يتبعانها ، فكان أمره  
للجنرال داماس أن يمضى رأساً إلى بحيرة المنزلة لارتياحها وإخضاعها ، وعهد إلى  
الجنرال دستنج معاقبة بلدتي منية محلة دمنة ، و القباب الكبرى ، الواقعتين على  
بحر أشمون (٢) إذ جاهر أهلها بالعصيان والامتناع عن دفع الضرائب والغرامات  
التي فرضت عليهم

#### حسن طوبار

وكان لهذه المهمة شأن وخطر في تلك الجهات ، لما امتد في انحائها من أسباب  
الثورة والهياج ، ولظهور جماعة من زعماء الأهالي يحرضون الناس على مقاومة  
الفرنسيين ، وقد تكرر في كثير من رسائل وتقارير القواد الفرنسيين في مديرتي  
المنصورة ودمياط اسم حسن طوبار ، شيخ بلد المنزلة في ذلك الحين كزعيم  
للمحرضين ، وخصم عنيد لا يستهان به ، ومدبر لحركات المقاومة في هذه الجهات  
كما تردد اسم الأمير مصطفى وعلى العديسي كمرشحين في واقعة الاعتداء على حامية  
المنصورة

كان حسن طوبار زعيماً لإقليم المنزلة ، وكان هذا الإقليم جيشاً بمتاعب كثيرة  
للفرنسيين ، كتب ريبو في كتابه يصف سكان هذه الجهات بقوله : « إن مديرية  
المنصورة التي كانت مسرحاً للاضطرابات ، تتصل ببحيرة المنزلة ، وهي بحيرة كبيرة

---

(١) كتب نابليون في ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ إلى الجنرال دوجا يقول : « أرجوك يا مواطني الجنرال  
أن تخبرني بالطريق الذي أزمعت السير فيه للوصول من المنصورة إلى بلبس ومن المنصورة إلى الصالحية  
وبأية طريقة يمكن نقل المدفعية والفرسان في هذه الجهة ، وما هي أسماء القرى الواقعة على النيل في  
إقليم المنصورة وما هي نتيجة اكتشافكم للقرع الثلاث التي تأخذ من النيل وتصب في بحيرة المنزلة »  
(٢) هو الاسم الذي كان يطلق على القرعة الكبيرة المعروفة الآن بالبحر الصغير

تقع بين دمياط وبيروز القديمة ( الطينة ) والجهات المجاورة لهذه البحيرة ، وكذلك الجزر التي بها ، يسكنها قوم أشداء ذوو نخوة ولهم جلد وصبر ، وهم أشد بأساً وقوة من سائر المصريين ، ثم هم أغنياء بما ينالون من الصيد ، ولهم في البحيرة خمسمائة أو ستمائة مركب (١) تجعل لهم السيادة في البحيرة ، ولطؤلاء الجزائريين أربعون رئيساً منهم ، وكل هؤلاء الرؤساء يتبعون حسن طوبار شيخ بلد المنزلة وهو الزعيم الأكبر لهذه المنطقة (٢) ،

ويقول الجنرال أندريوسى Andreossi (٣) الذي ارتاد بحيرة المنزلة وقدم عنها تقريراً إلى المجمع العلمي بمصر (٤) : « إن لسكان هذه الشواطئ أربعين رئيساً يتبعون الشيخ حسن طوبار الذي احتكر الصيد في البحر لقاء جعل للحكومة ، وحسن طوبار من أكبر أغنياء القطر المصرى ، وربما كان أغناهم ، وهو من المنزلة ، وفي أسرته مشيخة البلد يتوارثونها من أربعة أو خمسة أجيال ، وله سلطة واسعة تقوم على مكانته في النفوس ، و ثروته وعصبيته ، من ذوى قرباه ، وأتباعه ، وعلى مؤازرة العرب الذين يقطعهم الأراضى ليزرعوها ويغدق على رؤسائهم بالهدايا والتحف ،

#### سير الحملة على البحر الصغير

بدأت تتحرك الحملة على البحر الصغير من المنصورة يوم ١٦ من سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، ويهمننا قبل أن نصف خط سيرها أن ننقل هنا بعض التعليمات التي أصدرها الجنرال دوجا لكل من الجنرالين داماس وديستنج ليتبعاها ، فإن في هذه التعليمات صورة حية لحالة البلاد في ذلك العصر وحالة الشعب النفسية ، قال دوجا فيما عهده : « منية محلة دمنه والقباب الكبرى - هاتان القريتان واقعتان تحت تأثير رجلين يجب أمرهما ، وهما على العديسى من المنية والأمير مصطفى من القباب ، وقد وصلتني

(١) يقول الجنرال لوجيه Langier في يومياته إن عدد المراكب التي يبحر بها المنزلة في ذلك العصر يبلغ الألف

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع

(٣) أحد قوات الحملة الفرنسية انظر ما كتبناه عنه بالفصل الرابع من ١٣٢

(٤) كتاب تخطيط مصر الجزء الحادى عشر

رسالة من الجنرال فيال (Vial) (قوماندا مديرية دمياط) ينسب إليهما تهمة الاتصال بالشيخ حسن طوبار شيخ بلد المنزلة وانتظارهما النجدة منه ، فيجب أن لا يترك له الوقت لإمدادهما ، ومن ثم يجب مهاجمة المنية والقباب أسرع ما تمكن السرعة ثم احتلال موقع عسكري بين القباب ودموه السباخ (١) يحول بين الرجلين وبين كل مدد يأتيهما ، وإذا قاوم الأهالي وجب سحقهم وسحق قراهم ، وإذا سلموا بدون إطلاق النار فيجب عليهم أن يسلموا في الحال عشرين رهينة منهم ، وأن يسلموا على العديسي والأمير مصطفى ، ويسلموا كذلك جميع أسلحتهم وعشرين جواداً وثلاثين من المشاة ، ويغرموا ثلاثة أمثال الضريبة المفروضة عليهم ، وإذا رأيتم بعض القرى تتخذ السلاح لمؤازرة المنية والقباب ، فاضربوا في أهلها ، وخذوهم أخذ الأعداء أعداءهم ، وإذا انتهت الحملة على المنية والقباب بإعادة السكينة والخضوع فعلى الجنرال دستنج أن يعود إلى المنصورة فيمن معه من الجنود ، أما إذا ظهرت الثورة في بلاد أخرى فعليكم أن تتابعوا سيركم لإخضاعها ،

د تعليمات خاصة للجنرال داماس — إن مهمة الجنرال داماس هي أولاً مساعدة الجنرال دستنج في معاقبة منية محلة دمنة والقباب الكبرى ، وعلى ذلك يتبع التعليمات السابقة فهي لها جميعاً ، وثانياً عليه أن يمر في بحر أشمون (البحر الصغير) إلى بحيرة المنزلة ويقيس عمقه على طول البحر ، ويخضع البلاد الواقعة على شاطئيه ، وينزع رهائن من كل البلاد التي لم تدفع الضرائب المفروضة عليها ، أو تسلم الخيل المطلوبة منها

د إن الجنرال فيال منزعج من مقاصد الشيخ حسن طوبار شيخ بلد المنزلة ، ومن حشده عدداً كبيراً من المراكب في المطرية ، فإذا كان هذا صحيحاً فمن الواجب أسر الشيخ حسن طوبار وتحطيم أسطوله ، وعلى الجنرال داماس أن يجمع كل ما يمكن العلم به من غور بحيرة المنزلة والترع التي تصب فيها ، والبلاد الدانية من مصبها ، والفتحات التي تصل البحيرة بالبحر الأبيض ، وعمقها وعرضها ،

(١) منية محلة دمنة ، والقباب الكبرى . ودموه السباخ من بلاد مركز دكرنس وهي واقعة على البحر الصغير (بحر أشمون)

وطبيعة الجزر الكائنة بالبحيرة وسكانها ، ثم يعود إلى المنصورة في طريق أشمون ( البحر الصغير ) ، وعليه أن يتبين طريق الصالحية ( جنوبي بحيرة المنزلة ) ، والطريقة التي يمكن بها جمع السفن في بحيرة المنزلة لنقل فرقة عسكرية إلى صان ، تنفيذ هذه التعليمات تحرك الجنرالان دماس و دستنج على رأس الجنود الفرنسية من المنصورة يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ الساعة السادسة مساء ، وساروا بالبحر الصغير على ظهر السفن ، فأرسوا ليلا على مقربة من منية محلة دمنة ، وشعر أهالي المنية باقتراب الحملة فأخلوا بلدتهم ، وفي فجر اليوم التالي أنزل القائدان الجنود إلى البر وزحفوا على المنية فكانت خالية من السكان ، فتابعوا السير إلى القباب الكبرى ، فإذا هي كذلك خالية من أهلها ، وقد كلف الجنرال دماس مشايخ بعض القرى المجاورة أن يبلغوا أهالي القريتين أن يعودوا فإن القوة لاتألم بشر إذا دفعوا الضرائب المفروضة عليهم ، وهنالك افترق القائدان الفرنسيان ، فرجع الجنرال دستنج إلى المنصورة من طريق بحر أشمون ، ومضى الجنرال دماس إلى المنزلة تنفيذاً للهمة التي كلف القيام بها ومعه من الجنود نحو ثلاثمائة جندي بأسلحتهم وذخيرتهم ، ولما بدأ الجنرال دماس سيره جاءت رسالة من الجنرال دوجا أنه موافيه بمدد من الجند ، فانتظر دماس في المرساة (١) حتى جاءه المدد ليلاً ، وفي اليوم التالي سسار بجنوده وواصل السير وانتظر غير قليل في ميت السودان (٢) فالدراسة (٣) لتكوين جنوده ، ثم وصل مساء إلى برنبال الجديدة (٤) وكان الجنرال دستنج قد وصل في صباح هذا اليوم إلى المنصورة .

معركة الجمالية (٥)

عسكر الجنود ليلاً في برنبال الجديدة ، وغادروها قبل شروق الشمس فوصلوا بجزر آتجاه (الجمالية) في نحو الساعة العاشرة صباحاً ، فوحلت سفنهم في بحر أشمون من قلة المياه ، واتهزها الأهالي فهاجموا السفن الفرنسية وكانوا يتبعونها من بعيد ، واشترك في هذا الهجوم أهالي الجمالية . فأطلقوا النار على السفن وأمطروها وأبلا

(١) و (٢) و (٣) و (٤) من بلاد مركز دكرنس على البحر الصغير

(٥) من بلاد مركز دكرنس على البحر الصغير

من الحجارة من أعلى سور بلدتهم . فأمر الجنرال داماس بإنزال الجنود إلى البر لرد هجوم الأهالي . وأمكنه أن يفرق الجموع التي أحذقت بالقوة الفرنسية ، ولكنه بعد قتال أربع ساعات انسحب من الموقع الذي نزل به ورأى أنه لا يستطيع الثبات به ولا متابعة السير في بحر أشمون ، فأضرم النار في الجمالية وعاد أدراجه إلى المنصورة ومعه جرحاه وقتلاه .

### خريطة معركة الجمالية



- ١ — الجمالية والسور الذي كان يحيط بها
- ٢ — بحر أشمون (البحر الصغير) وفيه السفن المقلدة للجنود
- ٣ — المواقع الأولى التي نزل بها الجنود الفرنسية لمقاومة هجمات الأهالي
- ٤ — هجوم الأهالي الذين هاجموا الجنود الفرنسية
- ٥ — انسحاب الأهالي بعد كسر هجمتهم الأولى
- ٦ — انسحاب التوار من الجمالية والتجاؤهم إلى المستنقعات
- ٧ — انسحاب الفرنسيين إلى المنصورة بعد انتهاء المعركة
- ٨ — ترعة الجمالية
- ٩ — ميت شريف
- ١٠ — المواجد
- ١١ — بركة المياه

عن خريطة مودعة في محفوظات وزارة الحربية الفرنسية سنة ١٨٠٠ نشرها القومندان دي لاجونكبير سنة ١٨٩٩

سلك الجنرال داماس في عودته إلى المنصورة طريق البحر الصغير ومر في طريقه بميت سلسيل (١) فأمر بإحراقها وكان أهلها قد تمردوا وأخلو بلدتهم وأوغلوا بعيداً عنها بحيث كانت تفصلهم مياه الفيضان والمستنقعات عن خط سير الحملة فلم يستطع داماس اللحاق بهم

(١) من بلاد مركز دكرنس على البحر الصغير

كانت معركة الجمالية ذات شأن وخطر . وصفها الضابط جازلاس Gazlas من ضباط كتيبة الجنرال داماس في تقريره عنها قال :

لما وصلنا بحراً تجاه الجمالية . وهي قرية كبيرة قوية على الشاطئ الغربي من بحر أشمون . فوجئت السفن التي كانت تنقل الجنود بعاصفة من الأحجار والرصاص انهالت من أسوار البلدة وبيوتها . وفي الوقت نفسه رأينا جموعاً كثيرة من العرب والمماليك والفلاحين مسلحين بالبنادق والسيوف والعصى ( الشماريخ ) تهرع من الجهات المجاورة مسرعة إلى مهاجمتنا . وكان بعضهم راكبين الخيل وأكثرهم مشاة . فدهشنا لهذه الهجمة العنيفة . ولكننا لم نؤخذ على غرة . ونزلت الجنود حاملة سلاحها إلى البر الشرقي المقابل للقرية وتأهبوا للقتال منتظرين قدوم الأعداء ( الأهالي ) . فرأينا أكثرهم شجاعة يغامرون بأنفسهم ويهجمون إلى أن يصبحوا في وسط جنودنا . لكن الجنود حاربوهم ببسالة . وقد رأيت بنفسى جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصى يهاجموننا بحماسة فيستشهدون بين أسنة رماحنا . وصدر لي الأمر بإطلاق النار على الأعداء المهاجمين . فأطلقنا النار عليهم وفرقنا هذه الجموع بعد أن تركت الميدان مغطى بجثث القتلى . ولقد تمكن بعضهم أن يعبروا الترعة ثانية ويمتنعوا في الجمالية . وهي قرية محاطة بالأسوار تحميها ترعة أشمون ( البحر الصغير ) من جهة والمستنقعات التي تغمرها المياه من جهة أخرى . فأمرني الجنرال داماس أن آخذ القوة الكافية واستولى عنوة على القرية . فعبرنا الترعة بجسر أقناه على عجل . ووزعت جنودي . فعهدت إلى جزء منهم رد الهجمات الآتية من خارج القرية . وهجمت بقوتي على القرية . واقتحمنا الباب الكبير رغم مقاومة أهلها الذين دافعوا عنها دفاعاً قوياً . فاستولينا على جزء من القرية . ولكن الأهالي ظلوا يدافعون عن الجزء الآخر ممتنعين في البيوت والشوارع . وهجم الثوار على القوة التي دخلت القرية ولكن صدتهم البنادق والحراب ، وحصر جزء منهم في القرية وتمكن جماعة آخرون أن يتسللوا منها فتلقتهم القوة المرابطة حولها ونجا منهم من ألقوا بأنفسهم في المستنقعات وذهبوا سباحة يحملون أسلحتهم ،

وقد قدر جاز لاس خسائر الفرنسيين في هذه المعركة بخمسة قتلى وخمسة عشر جريحاً ، وقد رخصت الأهلالي بخمسة مائة (١)

انتهت معركة الجمالية بإحراق البلدة وانسحاب الفرنسيين ، وعادت قوة الجنرال داماس إلى المنصورة يوم ٢١ سبتمبر بعد أن مرت وهي راجعة بالكردي ومنية محلة دمنة ، وكان الأهلالي في معظم القرى التي مر بها الجيش يخلون بلادهم خوفاً من انتقام الفرنسيين بحيث كان الجيش يصلها فلا يجدها إلا خالية

### عود إلى حسن طوبار

لم توفق الحملة الأولى على البحر الصغير في إتمام مهمتها ، وبقي حسن طوبار قوياً يثير البلاد ويستفز الناس للمقاومة ، وكان الفرنسيون يحسبون له حساباً كبيراً ويسعون بمختلف الوسائل أن يخضعوه أو يجتذبه إلى صفوفهم ، وقد تصل به الجنرال فيال *vial* في دمياط وأظهر له حسن طوبار استيائه بما بلغه من إحراق الفرنسيين للجمالية وقال إن هذا العمل سببه عليه في هذه الجهات ، لأن أهالي الجمالية يعتبرون أنفسهم في حمايته ، وقد أبلغ حسن طوبار الجنرال فيال أن ما أحدثه في نفسه إحراق الجمالية من القلق والهم يمنعه من مقابله ، وأرسل نابليون من القاهرة بعض الهدايا إلى الجنرال فيال ليقدمها باسمه إلى حسن طوبار يستميله بها ، فنكتب فيال إلى الشيخ حسن يدعو إلى الحضور لتسلم هذه الهدايا فأبى حذراً من أن تكون الهدايا وسيلة للقبض عليه

وكان حسن طوبار يخادع الفرنسيين عن خططه ومقاصده ، فقد أرسل له الجنرال داماس أثناء حملته بالبحر الصغير يدعو إليه ، فأجاب الرسول أنه لا يأبى دفع الضرائب العادية على أن يتركه الفرنسيون حراً ولا يعرضوا له بسوء ، وفي الوقت نفسه كان حسن طوبار يستعد للقتال ويرسل عياله وأمواله

(١) أشار نابليون إلى واقعة الجمالية في رسالته إلى الديركتوار بتاريخ ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ بقوله : « بلغ الجنرال داماس الجمالية فهجمت قوة من العرب منضمين إلى الفلاحين على جنودنا ، فاتخذت التدابير الحربية التي انتهت برد هذا الهجوم ، وامتاز الضابط جاز لاس في هذه الواقعة »



إلى غزة (١) ، وبما زاد الفرنسيين ريباً في مقاصده أنهم علموا نبأ حركة يقوم بها الأتراك في عكا بسواحل سوريا إذ يجمعون هناك السفن بقصد الإغارة على بحيرة المنزلة من طريق فم الديبة (٢) ، وأن هذا هو السبب في حشد الشيخ حسن طوبار كل ما نالته يده من السفن في بحيرة المنزلة ليشارك في تلك الحملة البحرية ، وتواترت الأخبار في ذلك الحين بأنه متفق مع إبراهيم بك زعيم المماليك الذي كان مرابطاً بفول جيشه في جنوب سوريا ، وأنهما على اتصال مستمر لمقاومة الفرنسيين ، فحسن طوبار كان يشعل نار الثورة في مختلف البلاد الواقعة بين دمياط والمنزلة والمنصورة ، وبينما كان يثير الأهالي في بلاد البحر الصغير ، كان في الوقت نفسه يجمع مراكبه في بحيرة المنزلة لمهاجمة دمياط ، وكان الرجل في نظر الفرنسيين عنواناً للمقاومة والعصيان

جاء في يوميات الجنرال لوجيهيه : « لقد تأكدنا أن حسن طوبار كان يجوب بنفسه البلاد الواقعة على بحر أشمون يحرض الأهالي على الثورة ، وكان يرسل إلى بعض البلاد الأخرى رسله وأتباعه لتنظيم المقاومة ضد الفرنسيين ، وأنه هو الذي دبر واقعة الجمالية ، وير أنه من الصعب أن نلقى يدنا على هذا الرجل مع نفوذه العظيم بين الأهالي . وأن في استطاعته أن يحشد علينا قوات كبيرة جداً . وقد جاءتنا الأخبار أن أهالي بعض القرى الواقعة على النيل أطلقت النار على السفن المقلدة للجنود الفرنسية . وأن الدلائل تدل على أن الثورة عامة . ومن المحقق أننا كنا نستهدف لأخطار بالغة لو تشجع الثوار بانتصار يضرهم في قلوبهم نار الحماسة ،

#### في دمياط

كانت دمياط ( كما هي الآن ) من أهم بلاد القطر المصري من الوجهتين الاقتصادية والحربية . وكانت مركزاً تجارياً وصناعياً كبيراً . تصدر منها متاجر البلاد وترد إليها وارداتها القادمة من سوريا وقبرص والأناضول وتركيا واليونان

(١) يوميات الجنرال داماس بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨

(٢) من فتحات بحيرة المنزلة على البحر الأبيض المتوسط

وفرنسا . وبها كثير من الوكائل والخانات القائمة آثارها إلى اليوم . واشتهرت  
بتجارة الأرز والأقشة والمنسوجات والخشب . وكانت تزاحم الإسكندرية  
في مركزها التجاري . واشتهرت هي والقرى المحيطة بها بصناعة الأقشة إذ تنسج  
بها أحسن منسوجات القماش والحرير والتيل بالقطر المصري

قدر ريبو ، عدد سكان دمياط في ذلك العصر بستين ألف نسمة<sup>(١)</sup> . ويلوح  
لنا أن هذا التقدير فيه شيء من المبالغة . لأن المسيو جومار أحد مهندسي الحملة  
الفرنسية يقدرهم بعشرين ألفاً<sup>(٢)</sup> . وإحصاؤه أقرب إلى الثقة لأنه جاب أنحاء  
مصر ودرس أحوالها عن كثب بخلاف المسيو ريبو ، . ويقول كلوت بك  
في كتابه<sup>(٣)</sup> إن عدد سكان دمياط في عصر محمد علي كان يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ ألفاً  
في الوقت الذي وضع فيه كلوت بك كتابه . أي حوالي سنة ١٨٤٠ . ومن المحقق  
أن دمياط كانت إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ثاني بلد  
في القطر المصري بعد القاهرة في عدد السكان . ويقول الدكتور ديجنت كبير  
أطباء الحملة الفرنسية في كتابه<sup>(٤)</sup> إن عدد سكان دمياط كان وقتئذ يزيد عن ضعف  
سكان المنصورة

امتدت شعلة الثورة إلى دمياط وظهرت علام الاضطراب والهياج حولها  
من أوائل سبتمبر سنة ١٧٩٨ . فأرسل الجنرال فيسال إلى الجنرال دوجا ينذره  
بقرب هجوم الثوار على المدينة ويطلب المدد . وينبهه بأن حسن طوبار يحشد  
أسطولا كبيراً في بحيرة المنزلة لمهاجمة المدينة

وقع الهجوم المنتظر ليلة ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ واشترك فيه أهالي البلاد  
المجاورة لدمياط . واشترك فيه أيضاً أسطول حسن طوبار الذي تحرك في بحيرة  
المنزلة قاصداً شطوط دمياط . فوصل إلى ( غيظ النصارى ) شرقي المدينة . والتقى

(١) التاريخ العلمي والحرثي للعملة الفرنسية الجزء الرابع

(٢) تخطيط مصر الجزء التاسع

(٣) لمحة عامة إلى مصر الجزء الأول

(٤) التاريخ الطبى لجيش الشرق

الأهالى القادمون من القرى بالنازلين من السفن ، وكانوا مسلحين بالبنادق والرماح ، وساروا قاصدين دمياط لمهاجمة قوة الجنرال فيسال ، فقتلوا الحراس الفرنسيين المرابطين فى المخافر الامامية للمدينة ، وظل القتال متواصلا ليلة ١٦ سبتمبر إلى أن رتب الجنرال قواته فتحول موقفه من الدفاع إلى الهجوم ، وتمكن من التغلب على الثوار ، وردهم على أعقابهم بعد ما كبدهم خسائر جسيمة ، وانسحب معظمهم إلى شاطئ البحيرة ، فركبوا السفن التي كانت تنتظرهم ، واتجهت فرقة منهم إلى قرية ( الشعراء )<sup>(١)</sup> فتحصنوا بها ، وهذه القرية من دمياط على مرمى المدفع ، فاتخذها الثوار معسكراً لهم ، وجاءهم المدد من بحيرة المنزلة ، وفى خلال ثورة دمياط قام أهالى عزبة البرج وثاروا بالحامية الفرنسية فقتلوا من أنزكروهم من رجالها ، ولما علموا فى اليوم التالى أن ثورة دمياط أخدمت وأن الفرنسيين لا بد آتون للاقتصاص منهم أخلوا البلدة بعيالهم ونسائهم وانحدروا فى المراكب قاصدين إلى سواحل سوريا ، وقد أنفذ الجنرال فيسال حملة على تلك البلدة فوجدتها خالية من السكان فنهبتها وأحرقتها وعادت إلى دمياط

#### واقعة الشعراء

تشجع الجنرال فيسال بالمدد الذى جاءه من المنصورة ، وبحضور الجنرال اندريوسى الذى أوفده نابليون ليوطد سلطة الجمهورية فى تلك الأصقاع ، فتقدم الفرنسيون يوم ٢٠ سبتمبر للاستيلاء على الشعراء ، وكان يدافع عنها نحو ١٥٠٠ من الثوار تحميمهم البحيرة من جانب ، والنيل من جانب آخر ، فاقتم الجنود القرية واستولوا عليها عنوة ، ونهبوها وأضرموا فيها النار ، واستولوا على مدفعين للأهالى وعلى السفن التى كانت على مقربة من الشعراء ، ويقول الجنرال لوجييه فى يومياته إن الثوار خسروا فى هذه المعركة نحو خمسين قتيلاً ، ويقول ريبو

(١) جنوبي دمياط على مقربة من البحيرة والآن على ترعة الشرفاوية

إن الفرنسيين خسروا اثني عشر قتيلاً وثلاثين جريحاً (١)

تفاقم الثورة وفضائح الجنرال فيال

تفاقت الثورة في البلاد الواقعة بين المنصورة ودمياط ، وتعددت حوادث مهاجمة الثوار للسفن الفرنسية المقلدة للجنود في النيل ، وقتل في خلال هذه الحوادث بعض الجنود والبحارة ، وكانت قرية ميت الخولى الواقعة على النيل أكثر القرى اعتداء على السفن ، فقام الجنرال فيال من دمياط في خلال شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ ونزل بطريق النيل ومعه القوة الكافية من الجنود لمعاينة البلاد التي هاجمت السفن ، ولكنه أسرف في التتكيل ولم يفرق بين القرى الثائرة والقرى الآمنة الهادئة ، وأوقع بها كلها نهياً وإحراقاً ، مر أولاً بالظاهرية (٢) فوجدها خالية من السكان لأن أهلها أخلوها قبل أن تصل إليهم الجنود الفرنسية كي لا يستهدفوا للانتقام ، ثم بلغ كفر المياسرة فوجدها كذلك خالية من سكانها ، ومر بالزرقا فوجد مشايخ البلد قد لاذوا بالفرار ، ووصل إلى ميت الخولى التي كان أهلها أكثر اشتراكاً في الاعتداء على الجنود فإذا هم قد أخلوا بلدهم وكانت قرية كبيرة محصنة محاطة بسور يحيط به خندق ، فاستولى الجنرال فيال على المدينة وعلى ما وجد فيها من الأسلحة ، ومنها ثلاثة مدافع قديمة وأمر جنوده بنهب البلدة وإحراقها

(١) ذكر نابليون في منشور من منشوراته العسكرية ( بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ) واقعة الشعراء ولكنه بالغ في وصفها إذا ذكر أن عدد الثوار فيها كان عشرة آلاف وأن خسائرهم بلغت ١٥٠٠ قتيل وغريق ، وهذا المنشور وارد في مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٨٠ ، وليس من المقول أن يحدث في ( الشعراء ) عشرة آلاف نائر مهما كان عدد المدد الذي جاء من البلاد المجاورة أو من بحيرة المنزلة ، وبالتالي لا يعقل أن تبلغ خسائر الأهالي ١٥٠٠ قتيل والظاهر أن هذه المبالغة راجعة إلى الإحصاء المسكذوب الذي أورده الجنرال فيال في رسالته إلى نابليون عن المعركة ليتجمل لنفسه نظراً لاستحقاقه ولتعتظم منزلته عند نابليون ، على أن فيال هنا ذكر في رسالة له إلى الجنرال دوجا عن هذه الواقعة أن عدد قتلى الثوار فيها لم يزد عن ثلثمائة ، وفي هذا أيضاً مبالغة ، والواقع أن الجنرال فيال كان معروفاً عنه المبالغة والإغراق في رسائله وتقاريره ، وقد أشار الجنرال ( لوجيه ) في يومياته إلى مبالغته وذكر بالذات أرقامه عن واقعة الشعراء فقال في هذا الصدد : « إن الجنرال فيال بالغ في تقريره مبالغة مدهشة فجعل خسائر الأعداء ( الأهالي ) ١٥٠٠ قتيل في حين أن خسارتهم لم تبلغ خمسين قتيلاً » ، وهذا الإحصاء هو الذي اعتمدا عليه

(٢) بمدينة الغربية على الشاطئ الغربي لفرع دمياط شمال شربين وتسمى الضهيرية

واستمر في طريقه بالنيل وأراد أن يفاجئ بقوته قرية الأحمدية الواقعة بالبر الغربي ولكن أهلها أخلوها قبل مجيئه ، ثم أتجه إلى شرمساح بالبر الشرقي وعاد منها إلى كفر الزعاترة وهي آخر بلدة حطّ بها أثقاله في هذه الرحلة ، فوجد فيها بعض الأهالي الأمنيين بعد أن هجرها معظمهم ، ثم عاد إلى دمياط فوصلها ليلة ١٤ أكتوبر ومعه بعض الرهائن من أعيان البلاد ، فأرسلهم مخفورين إلى القاهرة اعترف الجزال فيال في رسالته إلى الجزال دوجا بأنه الأمر بنهب ميت الخولى انتقاما من الأهالي لاعتدائهم على الجنود الفرنسيين ، وقد لامة نابليون على هذا الأمر وأرسل له يقول : « لقد استأت من نهب قرية ميت الخولى وكان يكفي تجردها من السلاح ، (١) »

وكتب الجزال لوجييه في يومياته يصف المساوى التي ارتكبها الجزال فيال في اقتصاصه من ميت الخولى والقرى المجاورة :

« في اليوم الذي عاد فيه الجنود إلى دمياط بعد هذا النهب كانت مدينة دمياط أشبه بسوق أو مولد باع فيه الجنود الفرنسية إلى الأروام ما نالته أيديهم من النهب والسلب ، فكانوا يعرضون المواشى والطيور والثيران والبقر والخيول والحمر والغنم والدجاج والأوز . . . وكثيراً من قطع الذهب والفضة التي كانت حلياً للنساء . »

وقد أمر نابليون الجزال دوجا بالانتقال إلى دمياط لمواجهة الحالة الثورية فيها ، وكانت فظائع الجزال فيال وجنوده قد أوججت في النفوس نار الكراهية واستفزت الأهالي للأخذ بالثأر ، والاستماتة في مقاومة الفرنسيين وأرسل نابليون إلى دمياط بعض السفن المسلحة لتكون عند أمر الجزال دوجا في بحيرة المنزلة ، ولتضمن بسط سيادة الفرنسيين فيها ، على أن مركز الفرنسيين في جهات دمياط والمنزلة ظل مزعزعا وسلطتهم مردودة في معظم البلاد ، كتب الجزال لوجييه في يومياته يقول :

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٤٧٦

لم تتحسن الحالة كثيراً عما كانت عليه حينما جاء الجنرال دوجا لأول مرة إلى دمياط ، والسلطة الفرنسية ما زالت منكورة في معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المديرية ، وفي دمياط نفسها التي تعتبر من أعظم بلاد القطر المصري لا يأمن الجندي الفرنسي على حياته إذا هو ذهب إلى حى الوطنيين ، والحامية الفرنسية مقصاة في حى الأروام ،

### الحملة الثانية على البحر الصغير

رأى نابليون أن نفوذ حسن طوبار يخلق للفرنسيين كثيراً من المصاعب ويزعزع سلطتهم في جهات البحر الصغير والمنزلة ويثير في نفوس الأهالي روح الثورة ، فعزم أن يجرّد عليه حملة ثانية لإخضاعه والاستيلاء على المنزلة ، وكان لا يفتأ يهتم بتوطيد سلطة فرنسا في البلاد الواقعة بين النيل ( فرع دمياط ) وبرزخ السويس لأنها الجهة الشرقية للقطر المصري ، لذلك كان يفكر في تحصين بعض المواقع في تلك الجهات لحماية حدود مصر وتأمين مواصلات الجيش ، ولكن حوادث الثورة التي شبت في تلك البلاد عطلت وقتاً ما تنفيذ مشروعه

على أن نابليون أدرك عواقب هذا التأخير ، فأوفد الجنرال اندريوسى Andreossi ليقوم بتحسين مصب النيل واتخاذ دمياط موقعاً حربيّاً منيعاً ودراسة بحيرة المنزلة ليتعرف إلى أى حد يمكن استخدامها في حالة الهجوم على مصر من جهة سوريا أو الهجوم على سوريا من مصر ، وطلب منه أن يمضى في اكتشافه لبحيرة المنزلة حتى آثار مدينة بيلوز القديمة الواقعة في نهاية البحيرة شرقاً ودراسة فتحاتها على البحر الأبيض المتوسط والتحقق مما إذا كانت السفن الإنجليزية أو العثمانية تستطيع الدخول إلى بحيرة المنزلة وإنزال الجنود على شواطئها ، وتقدير المسافة بين بيلوز والصالحية ، وأصحبه ببعض المهندسين في مهمته بدمياط وبحيرة المنزلة ، ثم أرسل إلى الجنرال رينيه قومندان الشرقية بأن يعاون الجنرال اندريوسى في مهمته

وصل الجنرال اندريوسى إلى دمياط فألقى مركز الفرنسيين مزعزعاً وتعذر عليه أن يرتاد بحيرة المنزلة لأن الثورة التي شبت في القرى المجاورة لها كان من نتائجها

أن أوغل أصحاب المراكب في عرض البحيرة بحيث لم يجد مركباً منها ، وكتب إلى نابليون يخبره أن لا سبيل إلى تسلط الفرنسيين على بحيرة المنزلة إلا بعد سحق حسن طوبار والقضاء على قواته الكبيرة ، فبالاستيلاء على مدينة المنزلة التي يسكنها تصبح مركزاً حروبياً للحركات العسكرية في البحيرة وتكون ملتقى المواصلات الحربية بين المنصورة ودمياط وميت غمر والصالحية وبيروز

أرسل نابليون المدد إلى الجنرال دوجا وكلفه بتجريد حملة عسكرية على مدينة المنزلة للاستيلاء عليها وإرسال كتيبة أخرى إلى الجنرال أندريوسى للاستيلاء على جميع الجزائر الواقعة في بحيرة المنزلة ، وشدد عليه في هذه الرسالة أن يأخذ حسن طوبار ولو بالخدعة (١) وأن يرسله إلى القاهرة ، وأوصاه كذلك بالقسوة على الثائرين وإخضاع البلاد السكانية بين المنصورة ودمياط إخضاعاً تاماً وأوصاه بتجريد القرى من السلاح وقطع الروس وأخذ الرهائن (٢) ،

التقى الجنرال اندريوسى في دمياط بالجنرال دوجا الذي جاءها من المنصورة بعد ما نصبه نابليون قومنداناً للمديريتين ، فتبين له أن مركز الفرنسيين مضطرب وأن سوء إدارة الجنرال فيال وقسوته كان لها أثر في اضطراب الحالة واختلالها ، فقد ثبت أنه كان يهاجم القرى الآمنة وهي مطمئنة لم ترفع السلاح في وجه الفرنسيين ولا يفرق بينها وبين القرى الثائرة ، وكان يصادر الأهالي ويرهقهم بالإتاوات والغرامات ، ونسب إليه بعض زملائه أنه احتكر تجارة الخمر في دمياط

### سير الحملة والاستيلاء على المنزلة

وضع الجنرال دوجا أثناء تعهده لدمياط خطة الحملة التي أمر نابليون بتجريدها على جهات المنزلة لإخضاع حسن طوبار ، فاتفق مع الجنرال اندريوسى على أن يقصد هذا الأخير إلى مدينة المنزلة بطريق البحيرة على ظهر المراكب التي جمعها

(١) رسالة نابليون إلى الجنرال دوجا في ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ . مراسلات نابليون الجزء

الخامس وثيقة رقم ٣٣٧٤

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٧٤

لهذا الغرض ، وأن تسير إليها قوة أخرى بقيادة الجنرال داماس Damas بطريق البر من المنصورة فتطبق القوتان على المدينة من البر والبحر وبذلك يقضى على مقاومة حسن طوبار ، وكانت الخطة المرسومة تقضى بأن يبدأ الجنرال اندريوسى بالإقلاع بسفنه وجنوده قبل أن تتحرك القوة الأخرى من المنصورة بأربع وعشرين ساعة

تحركت قوة الجنرال داماس من المنصورة يوم ٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ الساعة السادسة صباحاً ، فأقلت السفن قسماً من الجنود وسار القسم الآخر براً محاذياً المراكب ، ثم عرجت على بحر أشمون ( البحر الصغير ) الذى كان يتفرع من النيل على مقربة من المنصورة (١)

وصف الجنرال لوجييه Laugier أحد قواد هذه التجربة في يومياته تفاصيل هذه الحملة ، قال يصف البلاد التى مر بها :

« دخلت السفن ترعة أشمون ، وهذه التربة واسعة وعميقة جداً ، على أنها تضيق كلها اقتربت من مصها ببحيرة المنزلة ، وهى تحترق بلاداً غاية فى الخصوبة ، وعلى شاطئها غرست أشجار الجوز الباسقة ، وأشجار أخرى تدانها فى العلو ، ولم نجد فى القطر المصرى جهة كثيرة الشبه بفرنسا مثل هذه الجهة ، فبعثت فينا هذه المشابهة الشجوة والحنين إلى الوطن ، والمسافة بين المنصورة والمنزلة تبلغ عشرين فرسخاً عدداً بها خمساً وأربعين قرية كلها آهلة بالسكان ،

سارت الكتيبة حتى وصلت إلى منية محلة دمنة ولم تلق فى طريقها مقاومة تذكر لأن القسوة التى استعملها الجنرال داماس فى حملته الأولى وما أصاب أهالى الجبالية من الخسائر قد أضعف روح المقاومة ومال بهم إلى الإخلاء ودفع الضرائب المطلوبة منهم ، فكانت كل قرية دفعت ما عليها من الضريبة ترسل من أهلها رجلاً يحمل الوصل بالدفع فينتظر مرور الحملة فإذا أقبلت رأت هذا الرجل واقفاً لا يتحرك وقد جعل الوصل فى رأسه ، نبوت ، رفعه لهم ليروه ، والقرية التى لم تدفع ما عليها تبادر إلى الدفع

(١) الآن يتفرع من ترعة المنصورة



ثم وصلت الحملة إلى أشمون (١) في منتصف الساعة السابعة مساءً فعسكرت ليلاً ، وفي اليوم التالي (٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨) قبل شروق الشمس تابعت سيرها بعد أن أرجع الجنرال داماس إلى المنصورة تسعة من مراكبه الكبيرة التي لم تستطع مواصلة السير لأن التزعة بدأت من هذه النقطة تضيق ويقل عمقها ويتعذر سير المراكب فيها ، ثم وصلت إلى الكردى ، وهناك جاء وفد من المنزلة يقصد مقابلة قائد الحملة للمفاوضة مع الفرنسيين ويطلب ضماناً بأن لا يعاملهم الجيش الفرنسي معاملة الأعداء ؛ ويظهر أن هذا الوفد جاء بإيعاز من الشيخ حسن طوبار لما استيقن بأنه هو المقصود بهذه الحملة العسكرية ، وبالرغم من أن الوفد يعلم مبلغ كراهية الفرنسيين لحسن طوبار فإنه لما سئل عن مقاصده أثنوا عليه أحسن الثناء ، وقد كتب لهم الجنرال داماس تصريحاً بضمانه أهالي إذا سلكوا مع الجيش مسلك الولاء.

قال الجنرال لوجييه في يومياته : « في كل جهة مررنا بها من المنصورة إلى المنزلة كنا نسمع ثناء الأهالي على حسن طوبار وهو محبوب منهم جداً شديداً وهو غني تقدر ثروته بالملايين (من الفرنكات) ، يملك الأراضي الواسعة ومصانع نسج القطن ومصانع الصباغة والمتاجر الكثيرة ،

#### احتلال المنزلة

وفي يوم أكتوبر سمع جنود الحملة قبيل الفجر أصوات طلقات البنادق آتية من مدى بعيد ، وتبين لهم من اتجاه الصوت أن معركة نشبت على مقربة من دمياط ، فسارعت الحملة إلى المنزلة (٢) فوصلت تجاهها الساعة العاشرة صباحاً ، وكان الأهالي ومعهم حسن طوبار قد أخلوها ولم يبق بها إلا الشيوخ الذين لا يقدرون على السير ، والعجائز من النساء ، فدخل الجنود المدينة دون مقاومة

(١) من بلاد مركز دكرنس ومعروفة الآن بأشمون الرمان

(٢) يبلغ عدد سكان المنزلة في ذلك العصر نحو ألفي نسمة كما قدرهم الجنرال اندريوس في تقريره الذي قدمه إلى المجمع العلمي وذكر عنها أن بها مصانع لنسيج الحرير والكريشة والملايات وبها بعض مصانع الأقمشة

وجابوا طرقاتها وأزقتها ، واستوقف نظرهم منازل حسن طوبار التي كانت تسترعى النظر لسعتها وجمال منظرها وبنائها على الطراز الشرقي ، وكانت مقفلة الأبواب خالية من السكان ، وقد أراد بعض الضباط ومنهم الجنرال لوجيه أن يدخلوها فقبل لهم من الأهالي إن مفاتيح الأبواب غير موجودة ففتحوا مدخل أحدها ، ولكنهم لاحظوا أن انتهاك حرمة مساكن حسن طوبار يثير غضب الأهالي فانسحبوا منها<sup>(١)</sup> واحتلوا داراً جعلوها المعسكر العام للحملة ، وبالرغم من الضمانة التي كتبها الجنرال داماس لوفد المنزلة فإن الجنود قد نهبوا البيوت واشتد الصخب وعلت الشكوى ، فاضطر الجنرال داماس إلى إصدار أوامره المشددة لمنع النهب ، ورد الجنود إلى النظام ، وبذلك تم للجنرال داماس احتلال المنزلة

أما أسطول الجنرال اندريوسى فقد أخفق في مهمته إخفاقاً شديداً ، ذلك أن مراكبه أقلعت من دمياط يوم ٣ أكتوبر قبيل الفجر تقل جنوده المجهزين بالأسلحة والمدافع وكان عدد هذه المراكب ١٦ سفينة منها ثلاث سفن حربية خرجت السفن من بوغاز دمياط ثم عرجت على فم الديبة فرت منه إلى بحيرة المنزلة وقطعت هذه المرحلة في ثمانى ساعات ، ثم اتجه الجنرال اندريوسى بقوته صوب المطرية ، ولكنهم شاهدوا في نحو الساعة الثالثة مساءً أسطولا من المراكب الشراعية متجهاً نحو الشرق ، تحجبه عن القوة الفرنسية الجزائر التي فى البحيرة ، فواصلت سفن الجنرال اندريوسى المسير حتى اقتربت من المطرية ، وقبل أن تصل إليها خرجت مراكب الأهالي فجأة من خلف الجزر التي تحجبها وأقبلت على السفن الفرنسية قاصدة الاصطدام بها وإغراقها ، فأدرك الجنرال اندريوسى خطورة الموقف ، وخشى عواقب الاصطدام لأن المراكب المصرية كانت تبلغ مائة مركب ، فنكص راجعاً إلى دمياط وأطلقت المراكب المصرية النار على السفن الفرنسية ، فأجابت هذه بإطلاق الرصاص من البنادق والمدافع

---

(١) يوميات الجنرال لوجيه

التي بها ، وأخذت في الوقت نفسه تتراجع تفاعياً من الاصطدام بمراكب الأهالي ، وكانت هذه تتعقب السفن الفرنسية قاصدة احتلال دمياط ، ورسست بالقرب من المنية ، (١) ، لكن القوة الفرنسية أطلقت النار عليها فنبهت الدوريات الفرنسية التي كانت تتولى حراسة ضواحي دمياط ، فأقبلت لنجدة الجنرال اندريوسى وظل بحارة المراكب الأهلية يناوشون السفن الفرنسية إلى أن انسحبوا في نصف الليل وتركوا سفينة تراقب حركات الفرنسيين ، وظلت هذه السفينة على مرأى من سكان دمياط طول يوم ٤ أكتوبر ، وفي يوم ٨ أكتوبر أعادت المراكب الأهلية كرة الهجوم على دمياط ، ولكن نار المدفعية الفرنسية والسفن الحربية ردتها عن المدينة

كانت حركة المراكب المصرية خطيرة واسعة المدى ، وكادت تكون وخيمة العواقب على الفرنسيين لو لم يحبطها احتلال الجنرال داماس لمدينة المنزلة ، فقد كانت الخطة الموضوعية بالاتفاق بين أهالي المطرية والمنزلة أن يحتلوا دمياط بحراً بطريق بحيرة المنزلة ، والظاهر أن المائة سفينة التي شاهدها الجنرال اندريوسى في البحيرة كانت تحمل المتطوعين من الأهالي لهذا الغرض ، لكن القوة الفرنسية ردتهم عن دمياط ثم جاء احتلال الفرنسيين للمنزلة فأحبط خطة الحملة البحرية التي نظمها أهالي المنزلة والمطرية ، وقد كان الفرنسيون جادين في احتلال هاتين المدينتين لأنهما يضمندان لمن يستولى عليهما السيادة في البحيرة ، فالمطرية بأسطولها المؤلف من المراكب الشراعية والمنزلة بقوة حسن طوبار ونفوذه كانتا مفتاح هذه السيادة ، فسقوط المنزلة في يد الفرنسيين شل خطة المقاومة التي وضعها حسن طوبار وأشياعه ، على أن هذه الخطة كانت محكمة التدبير لدرجة أن الجنرال اندريوسى كتب عنها كثيراً في رسائله لنا بليون ، ومما قاله في هذا الصدد : « إن استبسال العدو في الهجوم على دمياط يثبت أهمية هذا الموقع ، ويظهر أن الأبناء التي كانت وصلتنا عن قرب هجوم أهل المطرية والمنزلة على دمياط وانتظار حسن

(١) جنوى دمياط بغرب

طوبار المدد من سوريا لم تكن بعيدة عن الحقيقة لأنى لا أعتقد أن الهجوم الذى فوجئنا به فى البحيرة يستطيع أن يقوم به جماعة من الصيادين فلا يمكن لمثل هؤلاء أن ينظموا مثل هذا الهجوم ويحكموه بمثل الحالة التى شاهدناها (١).

### احتلال المطرية

وبعد أن تم للفرنسيين احتلال المنزلة سقطت المطرية فى أيديهم واحتلتها قوة الكولونل جازلاس Gazlas ، ثم وصلت إليها السفن الفرنسية من طريق بحيرة المنزلة بعد أن أخلاها أهلها وغادروها على ظهر مراكبهم

قضى احتلال المنزلة والمطرية على قوة المقاومة التى كان يديرها حسن طوبار ، فلم يجد أمامه سوى الهجرة إلى غزة ، وبذلك انتهت تلك الحركة الواسعة المدى ، التى أقلقت بالفرنسيين زمناً ، وطويت صحيفة مقاومة ذلك الرجل الذى أزعج قواد الجيش الفرنسى ، وتردد اسمه فى تقاريرهم ورسائلهم ، وورد اسمه غير مرة فى رسائل نابليون الخالدة كعنوان للمقاومة الأهلية القوية ، وقد ظل بعد هجرته إلى غزة مصدر قلق للفرنسيين ، وخشوا أن يفكر فى الرجوع إلى شواطئ دمياط وبحيرة المنزلة ويستأنف مقاومته ، وجاءتهم أنباء بأنه يعد فعلاً قوة من المشاة فى غزة عزم على نقلها فى خمسين سفينة يحتل بها دمياط ، ولكن لم يتحقق شئ من هذا العزم ، كتب الجنرال دوجا إلى نابليون فى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ ينتقل إليه هذه الأخبار ، ولكن نابليون لم يعرها اهتماماً وكتب إلى الجنرال دوجا يقول له :

« أما عن مشروع حسن طوبار فى الإقلاع بسفنه لاحتلال دمياط فمن المستبعد أن يفكر فى إنفاذ هذا المشروع بسفنه ورجاله المشاة دون فرسان ولا مدفعية ، وإذا أقدم على ذلك فهذا هو الطيش بعينه ، وقد عاد حسن طوبار إلى مصر بعد انتهاء الحملة الفرنسية على سوريا وتعهد

(١) رسالة الجنرال اندريوسى إلى نابليون فى ٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨

بالتزام السكينة والهدوء في منطقته (١) ، ولكن يؤخذ من رسائل الجنرال كليبر أن السلطات الفرنسية لم تكن تثق به ولا تطمن إليه وكان كليبر في عهد قيادته العامة يوصى الجنرال فردييه Verdier بمداراته ومراقبة حركاته (٢) إلى أن مات سنة ١٨٠٠ ، ونشرت جريدة (كورييه دليجيت) نبأ وفاته في العدد ٧٥ الصادر في ٩ تميدور من السنة الثامنة (٢٨ يولييه سنة ١٨٠٠) وقالت عنه ما خلاصته « في ١٠ مسيدور (٢٩ يونيه) مات فجأة حسن طوبار كبير مشايخ إقليم المنزلة مصاباً بالسكتة القلبية ، وكان هذا الرجل عظيم المسكينة لأصله العريق وغناه الواسع ، وقد هاجر من بلاده في الأشهر الأولى من الحملة وعاد إليها بعد الزحف على سوريا ، وأذن له الجنرال بوناپارت في الرجوع إلى مصر ، فأذعن من يومئذ وأخذ للسكون وقد خلفه في شياخه إقليم المنزلة أخوه شلبي طوبار ، هذا ولا يزال حسن طوبار يذكره كبار السن إلى الآن في جهات البحر الصغير والمنزلة ويسمونه « حسن طوبار الكبير الذي حارب الفرنسيين »

#### تحصين منطقة دمياط

عنى الفرنسيون بتحصين منطقة دمياط ، فأنشأوا قلعة بعزبة البرج (٣) ، وقلعتين على مدخل البوغاز شرقاً وغرباً ، وأقاموا كذلك طابية بالديبة على مدخل بحيرة المنزلة غربى أشتوم الجميل ، وأخرى على فتحة أم مفرج من فتحات البحيرة ، وطابية ببوغاز البرلس

ويظهر لنا أن قلاع عزبة البرج والبوغاز أقامها الفرنسيون على انقاض القلاع القديمة التي كانت بها ، فقد ذكر الرحالة فانسليب Vansleb أنه لما جاء إلى مصر

(١) جاء في جريدة (كورييه دليجيت) وهي الجريدة شبه الرسمية للحملة الفرنسية بالعدد الصادر في ٢٦ مسيدور من السنة السابعة للجمهورية ( يولييه سنة ١٧٩٩ ) أن حسن طوبار قدم خضوعه في أوائل شهر مسيدور ( يونيه ) وأبقى ابنه رهينة لدى الفرنسيين ليضمن إذعانه ، وجاء في رسالة نابليون إلى الجنرال كليبر ( حاكم منطقة دمياط وقتئذ ) بتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٧٩٩ أن حسن طوبار ترك ابنه بالقاهرة في مساء ذلك اليوم رهينة على أن يسافره إلى دمياط

(٢) رسائل كليبر إلى الجنرال فردييه بتاريخ ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٩ و ٢٢ مايو سنة ١٨٠٠

(٣) الواقعة بالبر العرقى للنيل تجاه رأس البر الآن

ونزل بدمياط سنة ١٦٧٢ شاهد عند مدخل البوغاز قلعة قديمة مقامة بالبر الشرقي للنيل كانت في حالة تهدم وأبراجها متخرّبة وفيها بعض مدافع لحماية البوغاز وأن هذه القلعة على بضع خطوات من بلدة سماها فانسليب قرية البوغاز ، وحقيقة اسمها قرية (عزبة البرج) لأنه يقول إن هذه البلدة يسكنها قباطين السفن والبحارة الذين يصحبون المراكب في دخولها النيل وأخروجها منه ، والمعروف أن هذه البلدة هي عزبة البرج ، ويقول فانسليب أيضاً إنه شاهد في هذه القرية أساس قلعة لم تتم ، وشاهد بالبر الغربي قلعة أخرى لحماية البوغاز (١) ، وفي خريطة المسيو بول لوكاس Paul Lucas التي خطتها سنة ١٧١٧ رسم حصنين قائمين على جانبي بوغاز دمياط شرقاً وغرباً (٢) ، وقال السائح الفرنسي جرانجيه Granger الذي جاء مصر سنة ١٧٣٠ إنه شاهد هذين الحصنين في تلك السنة (٣) ، وتكلم عنهما المسيو تيبودو Thibaudet في كتابه فقال إنهما كانا موجودين قبل الحملة الفرنسية ورسمهما الفرنسيون ونصبوا فيهما المدافع (٤) ، وكذلك يقول الجنرال رينيه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية (٥) إنهما كانا قائمين قبل الحملة ويقول عنهما : « إن هذين الحصنين أعدّ الحماية مدخل البوغاز وإن الغرض من قلعة عزبة البرج منع السفن من دخول النيل ومنع العدو من التقدم إلى دمياط برأ إذا رسي على البر الشرقي ، وإليك ما ذكره العلامة على باشا مبارك عن هذه الحصون والاستحكامات وما زاد عليها في عهد محمد علي وعباس الأول واسماعيل :

وقد أنشأ المرحوم عباس باشا سكة عمكورية من المدينة (دمياط) إلى البوغاز عرضها اثنا عشر متراً في طول ستة عشر ألف متر تمر في وسط المزارع على جملة قرى منها عزبة الخياطة وعزبة اللحم والحملة وعزبة الشيخ ضرغام حتى تصل إلى قلعة البوغاز الكبرى التي أنشئت زمن دخول الفرنسيين أرض مصر في القرية

(١) رحلة في مصر للرحالة فانسليب

(٢) رحلات المسيو بول لوكاس في مصر

(٣) رحلة في مصر للمسيو جرانجيه

(٤) تاريخ نابليون بوناپارت ، حملة مصر الجزء الثاني طبع سنة ١٨٢٨

(٥) في كتابه ( مصر بعد معركة عين شمس )

القديمة المسماة بقريّة البرج التي هدمها بنو بارت سر عسكر فرنساوية لقيام أهلها ليلاً على عساكره وذبحوا منهم جملة ، وبني بأنقاضها تلك القلعة ، ولم يبق من آثارها إلا الجامع الذي بوسطها ومنزل صغير به الآن حكمدارها ، ومن إنشاء المرحوم عباس باشا أيضاً القشلاق الكبير الذي هناك على شاطئ النيل وجملة مخازن للبارود والمهمات العسكرية وصهر بيج كاف لشرب العساكر المرابطين بتلك القلعة مع أهل عزبة البرج الجديدة التي في شمال القلعة ، ومن إنشائه أيضاً عمارة الكرتينة وحل الخمر في جنوب القلعة على شاطئ النيل ، وفي جهتي البوغاز شرقاً وغرباً قلعتان أنشئت في زمن فرنساوية بصورة الاستحكامات الدائمة الموافقة لأسلحة ذلك الوقت القريّة المرمي الضعيفة التأثير ، وكانت قلعة الغرب مبنية بشكل سور مستدير يحيط بالبرج القديم المستدير الذي به مقام الشيخ يوسف في محل يعرف برأس البر ، ثم إن ساحل البر من بوغاز دمياط إلى بورت سعيد لم يكن به قلاع سوى قلعة (الديبة) القديمة التي بنيت في زمن فرنساوية بشكل بلائقة مربعة وفي وسطها برج مربع شاهق يرى من مسافة بعيدة وبينها وبين بوغاز دمياط اثنتان وثلاثون ألف متر ، وكانت على شريط الساحل القليل العرض الفاصل بين المالح وبحيرة المنزلة للحماية من دخول المراكب من أشتوم الديبة القديم ، وكذا الساحل الغربي من بوغاز دمياط لبوغاز بحيرة البرلس لم يكن به قلاع سوى قلعة بوغاز البرلس الغربية المحاذية لسراية طبوزاغلي حاكم البرلس سابقاً ، وهي أيضاً أنشئت في زمن فرنساوية بشكل بلائقة مربعة ذات أبراج مستديرة ، وكان إنشاؤها بمعرفة الأمير (الجنرال) مينو الذي تقلد إمارة مصر بعد موت الأمير (الجنرال) كمبر كما دلت عليه النقوش التي وجدت على بابها ، وقد حفظ مع أنقاضها التي وضعت في بناء القلعة الجديدة ، وكانت أما كن تلك القلاع قبل دخول فرنساوية مراكز المرابطين للمدافعة ، فلما رأوا أن مواقعها هي أعظم النقط اللائقة للاستحكامات بنوا فيها تلك القلاع فحيت معالمها القديمة ما عدا برج ولي الله الشيخ يوسف المرابط فإنه لم يزل إلى الآن ؛ وفي زمن المرحوم محمد علي باشا قد رمت تلك القلاع وأجرى فيها بعض عمارات ؛ وكذلك في زمن المرحوم عباس باشا فإنه أنشأ أربعة

ابراج في غربي بوغاز دمياط بينه وبين أشتوم الجمعة وهو مصب فرع بحر شبين ،  
وأنشأ أيضاً برجاً فوق أشتوم الجميل في شرقي قلعة الديبة ، وجميع ذلك كان بمعرفة  
جليس بك مدير عموم الاستحكامات المصرية ؛ وفي زمن الخديوي اسماعيل باشا  
قد أوصلت السكة الحديد والتلغرافات إلى السنانية وأنشأ بها جملة مباني عسكرية  
ومنها قشلاق الفوريقة الجديدة المنشأة مع جملة فوريات في زمن العزيز محمد علي  
باشا جعل لإقامة ألاي بيادة بعد ما أضاف إليه جملة مباني كافية للوازمه ، ثم أنشأ  
قشلاقاً آخر بجهة السنانية قريباً من محطة السكة الحديد ، وأنشأ في غربيه استبالية  
للعسكر تسع خمسمائة سرير ، وأوصل خط التلغراف إلى قلعة العزبة الكبرى وإلى  
قلاع البوغاز ، وأجرى بقلعة العزبة الكبرى جملة عمارات وترميمات بداخلها  
وخارجها مع تجديد استرات خنادقها وبناء خطوط نيرانها القديمة وتسميك دوراتها  
حسب أصلها حتى صارت تقاوم مقذوفات العدو ، وعمر الجامع القديم الذي في  
وسطها والمنزل الذي هناك ، وأنشأ حول كل من القلاع القديمة والأبراج قلاعاً  
حصينة أقوى من تلك القلاع القديمة بأوضاع مغايرة لها كما أنشأ جملة قلاع من  
هذا القبيل على عموم السواحل وجعلها من أعظم القلاع الحصينة لأجل مقاومة  
الأسلحة الجديدة البعيدة المرمى الشديدة التأثير ، وجعل لها قشلاقات لإقامة  
العساكر المرابطين بها ، ومخازن عظيمة للبارود والجلال والمهمات ، ولزيادة تحصينها  
جعلها في أسفل الدراوى السميكة بحيث تأمن من تأثير مقذوفات العدو ، كما أنه  
وضع في جميع هذه القلاع المدافع العظيمة الكافية ذات العيار الكبير والمرمى  
البعيد المعروفة باسم مخترعها «ارمسترنج» الانكليزي ؛ وجميع هذه الاستحكامات  
والعمائر جار على حسب التصميمات المعمولة بمعرفة أمير اللواء محمد باشا المرعشلي  
باشمهندس عموم الاستحكامات وقتئذ ، (١)

(١) الخطط التوقيفية للعلامة علي باشا مبارك الجزء الحادي عشر



## الفصل السادس عشر

### المقاومة في الوجه القبلي

فر مراد بك من معركة الأهرام منهزماً أمام الجيش الفرنسي ، وكان نابليون يحسب لقوته حساباً كبيراً ، فعهد بعد انتهاء المعركة وقبل أن يدخل القاهرة إلى الجنرال دينيه Desaix احتلال المنطقة الواقعة جنوبي الجيزة وإقامة الاستحكامات والمواقع اتقاء لهجوم مراد بك ، ولكن مراد بك لم يفكر في الهجوم بل اتجه بفلول جيشه إلى الصعيد ليكون بعيداً عن هجمات نابليون ، وقصد إلى الفيوم واستقر عند ناحية بهنسا ، ولحق به المماليك الذين لم يرضوا أن يتبعوا إبراهيم بك في فراره إلى سوريا

لم يفكر مراد بك في مقاومة الجيش الفرنسي مقاومة جدية ، بل معظم مالقي الفرنسيون في الصعيد إنما نالهم من الأهالي الذين شذوا أزر المماليك في مقاومة الجيش الفرنسي ، ولولا هذا التأييد وتلك المؤازرة لما سمع للماليك صوت ولا انبعث لهم حركة بعد هزيمة امبابه

اعتزم نابليون إخضاع الوجه القبلي إذ رأى أن بقاء قوة معادية في الصعيد يهدد سلطة الحكومة المركزية ويكون مثابة للمقاومة الأهلية ويعطل الملاحة في النيل ويحبس الغلال عن الوجه البحري فيستهدف سكان القاهرة والدلتا وجنود الحملة للمجاعة ، وقد تعطلت الملاحة في النيل فعلا في الشهور الأولى من احتلال القاهرة ، وحبس مراد بك في الوجه القبلي السفن المحملة غلالاً إلى القاهرة ، فاعتزم نابليون احتلال الصعيد ، على أنه أراد قبل تجريد جيشه أن يسعى إلى الاتفاق مع مراد بك على أن يترك له مديرية جرجا وما يليها إلى الشلال ، ويكون تابعاً للحكومة الفرنسية فيؤدى الخراج الذي كان يخرج من هذه الجهات ، وكان المسيو روسي Rosetti قنصل النمسا في مصر رسول المفاوضات بينهما ، فبعث إليه نابليون بتعليماته في الرسالة الآتية :

د المعسكر العام بالقاهرة في ١٤ ترميدور من السنة السادسة ( أول أغسطس

سنة ١٧٩٨ )

د إلى المواطن روستي ، عليك أن تذهب سراً إلى مراد بك ، وتخبره بأنك قدمت لي الرسول الذي أوفده إلي ، وأن هذا الرسول قد ترك في نفسي أثراً سيئاً بثرثته وأقواله الطائشة ، على أنني أدركت أنه قد يجيء الوقت الذي أرى فيه من مصلحتي أن أنتفع بخدمات مراد بك ، وأن أتخذ عضداً أميناً لي ، فلتخبره أنني أقبل إذا تم الاتفاق بيننا أن تبقى مديرية جرجا في حيازته على أن ينسحب إليها في مدى خمسة أيام وأن لا أرسل إليها من ناحيتي أيًا من الجنود ، وعليك أن تبلغه كذلك أنه إذا تم الاتفاق مبدئياً على هذه الشروط فمن المحتمل إذا ازددت معرفة به وثقة بمقاصده أن أعاهده على مزايا أكبر ، وعليك أن توقع وإياه على معاهدة اتفاق تكتب باللغتين الفرنسية والعربية وتكون مؤلفة على وجه التقريب من الشروط الآتية :

المادة الأولى - يستبقى مراد بك معه خمسمائة أو ستائة من الفرسان تكون عدته في حكم مديرية جرجا من شلال أسوان إلى مايلي جرجا شمالاً بنصف فرسخ وعليه أن يجعلها في مأمن من هجمات العرب

المادة الثانية - يعترف مراد بك بأن يكون في حكم المديرية المذكورة تابعاً لفرنسا وأن يدفع لحزاة الجيش الخراج الذي كان يجبي منها

المادة الثالثة - يتعهد القائد العام من ناحيته بأن لا تحتل جنوده أي جهة من مديرية جرجا وأن يترك إدارتها لمراد بك

المادة الرابعة - على مراد بك أن يمضى برجاله إلى ما وراء حدود مديرية جرجا في مدى خمسة أيام ، ولا يسوغ لأحد من أتباعه أن يتخطى هذه الحدود إلى مديرية أخرى إلا بإذن من القائد العام (١)

تلك هي التعليمات التي عهد بها نابليون إلى القنصل روستي ، ومنها يتبين أن نابليون كان راغباً في الاتفاق مع مراد بك ، وهذا يناقئ ما أعلنه في منشوراته

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٢١ .

وبياناته للمصريين من أنه إنما جاء مصر لمحاربة المماليك وثل عرشهم وأنه لا يستريح ولا يهدأ له بال إلا إذا قضى على دولتهم ومحامهم من الوجود . ولنا أن نستنتج من ذلك أنه كان يخاطب المصريين بلغة . والمماليك بلغة أخرى . ولعمري ان اللغتين مشتقتان من نبعة واحدة . هي نبعة الفتح ولغة الاستعمار . تلك اللغة التي مهما اختلفت أساليبها فإنها تؤدي معنى واحداً لا يتغير وهو إخضاع مصر وجعلها مطية للمطامع الاستعمارية

وقد زوّد نابليون القنصل روسي بتفويض كتابي يخوله حق توقيع المعاهدة مع مراد بك . وإليك نص التفويض :

وإن القائد العام مدفوعاً بعواطف الإنسانية التي كانت على الدوام رائده في أعماله يخول للمواطن روسي سلطة المفاوضات مع مراد بك والاتفاق معه على شروط معاهدة تنهى حالة الحرب بينهما والتوقيع على هذه المعاهدة (١) ،

والظاهر أن مراد بك كان معترفاً بقوته ، معتقداً أنه باعتماده في الوجه القبلي لا يستطيع الفرنسيون أن ينالوا منه منالاً وبخاصة إذا وثق من معاضدة الأهالي وتأيدهم ، فرفض شروط الصلح أو بعبارة أخرى رفض التسليم ، فعزم نابليون على تجريد الجيش للقضاء على قوته من جهة وإخضاع سكان الوجه القبلي من جهة أخرى ، وإذا تبعت خطوات الجيش الفرنسي في الحملة على الصعيد وجدت أنه أفلح في القضاء على قوة مراد بك ، ولكنه أخفق في الغرض الثاني وهو إخضاع الأهالي

جعل نابليون الجنرال ديزيه قائداً للحملة على الوجه القبلي ، وكانت الحملة مؤلفة من نحو خمسة آلاف (٢) من المشاة والفرسان والمدفعية والمهندسين مزودين بالأسلحة والذخائر والمدافع الحديدية والسفن الحربية ، وقد ظل الجنرال ديزيه مرابطاً في الجزيرة يترقب الفرصة للبدء في القتال ، فلما بلغ الفيضان حداً مناسباً صدرت له الأوامر بالزحف ، وكانت مهمته عسرة شاقة ، فقد دلت وقائع الوجه

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٢٢

(٢) هذا الإحصاء مأخوذ من مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين

القبلي على أن المقاومة التي لقيها الجيش الفرنسي في أنحاءه كانت أشد ما أصاب الفرنسيين في مصر ، لأن طبيعة البلاد في الصعيد ، وبعد المسافات ، وصعوبة المواصلات ، وأخلاق السكان ، جعلت الجيش الفرنسي يقابل حركات ثورية ذات صبغة حربية منظمة ، قال القومندان دي لاجونكيير في هذا الصدد : إن المقاومة التي لقيتها الجنود الفرنسية في الوجه البحري كانت في الغالب ذات صبغة محلية ، ولكن فرقة الجنرال ديزيه هي التي اضطرت أن تواجه حركات حربية حقيقية (١) ،

### تحرك الحملة - احتلال بني سويف

أقلعت السفن بالحملة من مصر القديمة والجيزة في أواخر أغسطس سنة ١٧٩٨ تحرسها بعض السفن المسلحة ، وسار جزء من الحملة على شاطئ النيل ، فوصلت إلى ( أطفيح ) واستراحت قليلاً وهناك انضمت إليها كتيبة الجنرال رامبون Rampon الذي كان يربط بأطفيح من قبل ، ثم أقلعت السفن من أطفيح ووصلت يوم ٣١ أغسطس إلى بني سويف واحتلتها بدون مقاومة ، وبقي بها الجنرال ديزيه عدة أيام يستطلع أخبار المماليك ويبتظر وصول الذخائر والمؤونة من القاهرة ، وهناك علم أن مراد بك مرابط في ناحية البهيسا بين بحر يوسف والجبل وأنه جمع أسطوله في هذا البحر يحمل زاده وموته وذخيرته

وكان لابد للوصول إلى موقع مراد بك على بحر يوسف والاستيلاء على أسطوله أن تنضم الحملة في النيل إلى ديروط ، وهي مأخذ بحر يوسف (٢) ومن ثم تنحدر فيه إلى أن تلتقي بقوة المماليك ، فتحركت من بني سويف يوم ٤ سبتمبر صباحاً ووصلت في مساء يوم ٥ تجاه ( أبو جرج ) . وكانت أهم مدينة في المديرية بعد بني سويف (٣)

(١) تاريخ حملة مصر الجزء الثالث

(٢) يتفرع الآن بحر يوسف من الترع الإبراهيمية عند ديروط

(٣) كانت ( أبو جرج ) تقع مديرية بني سويف ، وهي الآن من بلاد مركز بني مزار بمديرية المنيا

## احتلال البهنسا

عزم ديزيه على أن يكشف مواقع مراد بك وأن يفاجئه برأ في البهنسا ، فنزل إلى البر تجاه ( أبو جرج ) ومعه جزء من الجيش ، وسارت القوة برأ حتى وصلت إلى البهنسا الواقعة على بحر يوسف ، وقبل أن تصل إليها شعر مراد بك بأقترابها ، فأمر بانسحاب أسطوله إلى أسيوط حتى لا يقع في أيدي الفرنسيين ، وأخلى البهنسا ، فاحتلها ديزيه واستولى فيها على عدة مراكب للماليك لم تستطع اللحاق بالأسطول ، وأخذ ما بها من الذخيرة والغلال ، وعلم أن مراد بك انسحب إلى اللاهون (١) ورابط بها ، وأن محمد بك الألباني يرابط في منتصف الطريق بين البهنسا واللاهون ، وأن أسطول مراد بك سار إلى أسيوط

عادت فرقة الاستطلاع إلى ( أبو جرج ) يوم ٧ سبتمبر ، ثم تحركت الحملة كلها صاعدة في النيل ، ووصلت إلى المنيا في مساء ٩ سبتمبر ، وفي يوم ١٠ منه وصلت تجاه ملوى وتابعت طريقها حتى وصلت يوم ١٢ سبتمبر تجاه ديروط ، حيث يتفرع بحر يوسف

### تعقب أسطول الماليك إلى أسيوط

عزم ديزيه أن يستمر جنوباً حتى أسيوط ليستولى على أسطول مراد بك ، وقد علم أن معظم بحارته من الأروام الذين يمكنه استئثارهم إليه ، فدمس إليهم رسله لهذا الغرض (٢)

ترك الجنرال ديزيه قسماً من قوته في ديروط على مدخل بحر يوسف لاحتلال هذا الموقع ومراقبة الملاحه في النيل وانتظار السكتيبة التي استولت على مراكب الماليك في بحر يوسف ومضى إلى الجنوب ومعه جزء من جيشه في السفن قاصداً إلى أسيوط.

فوصل إليها يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ فلم يجد أسطول الماليك ولم يوفق إلى

(١) عند مدخل مديرية الفيوم حيث القناطر المنشأة باسمها عند فئحة الجبل التي يمر منها بحر يوسف

(٢) رسالة ديزيه إلى نابليون في ١٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

الاستيلاء عليه ، إذ تمكن قبل وصول ديزيه من الإفلات قاصداً جرجا ، ولم ير ديزيه من الصواب أن يمضى فى زحفه ، مخافة أن يبتعد عن بقية جنوده الذين كانوا يرابطون على مدخل بحر يوسف .

### رجوع ديزيه إلى الفيوم

عزم ديزيه على أن يرجع إلى ديروط ، فكانت رحلته الأسيوطية عقيمة لأنه لم يظفر بأسطول المماليك ولا واجه قوتهم ، وأضاعت عليه هذه الرحلة ثمانية أيام اغتنتها مراد بك ليقوى صفوفه فى الفيوم ، وانحاز إليه عدد كبير من الأهالى وحالفوه على الفرنسيين ، واتخذ هو وحلفاؤه معسكرهم فى اللاهون

ثم وصل ديزيه إلى ديروط يوم ٢١ سبتمبر وبقى بها ثلاثة أيام ينظم الحملة على الفيوم ، وألقت السفن الفرنسية مراسيها فى النيل ولم تستطع السير فى بحر يوسف ، وأخذت سفينتان منها تتبعان فى النيل عن بعد سير الحملة الفرنسية فى بحر يوسف إلى بنى سويف ، وبقيت السفن الأخرى تجوب النيل ما بين منفوط وملوى والمنيا لتراقب تصدير الغلال من هذه البلاد إلى القاهرة

لم تكن الحملة على الفيوم سهلة التنفيذ ، فإن الملاحة فى بحر يوسف كانت شاقة لضيق البحر ، فضلا عن استهداف المراكب الفرنسية من الجانبين لهجمات الأهالى والمماليك

وقد بدأت المراكب الفرنسية تسير فى بحر يوسف يوم ٢٤ سبتمبر قبيل شروق الشمس ، وكان سيرها محفوفاً بالمصاعب لكثرة تعاريج بحر يوسف ، ولهبوب الرياح من الصحراء ، وقلة غور المياه فيه ، فكان الجنود يضطرون إلى جر المراكب بالجبال

وصلت فرقة الجنرال ديزيه إلى البهنسا يوم أول أكتوبر ، وهناك علموا أن مراد بك مرابط بجهة اللاهون ، فتابعت السفن سيرها حتى اشتبكت بطلائع المماليك والأهالى فى ٣ أكتوبر بناحية ( القايات ) ، وكانت هذه الطلائع مكونة من ١٥٠ من العرب و ١٥٠ من المماليك ، فاضطر الجنرال ديزيه إلى إنزال كتيبة

من جنوده إلى الشاطيء ، ونزل هو بنفسه لمحاربة المهاجمين وتشتيتهم ، ثم أخذت  
الكتيبة تسير على الشاطيء . حذاء السفن لحراستها  
وفي اليوم التالي كانت قوة من الأهالي والمماليك تترقب السفن على شاطيء .  
البحر لتطلق عليها النار ، ولم يستطع الجنرال ديزيه إنزال جنوده إلى الشاطيء . لأن  
مياه الفيضان كانت تغمر الأرض هناك ، فاضطر إلى التراجع على مسافة نصف  
فرسخ ، ليتمكن من اختيار مكان ينزل به جنود الفرقة جميعها ، وسارت الفرقة  
بطريق البر بعيداً عن الشاطيء ، واتجهت صوب المماليك والأهالي ، فانسحب  
هؤلاء وكانوا تحت قيادة محمد بك الألفي

#### واقعة سدمنت

٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨

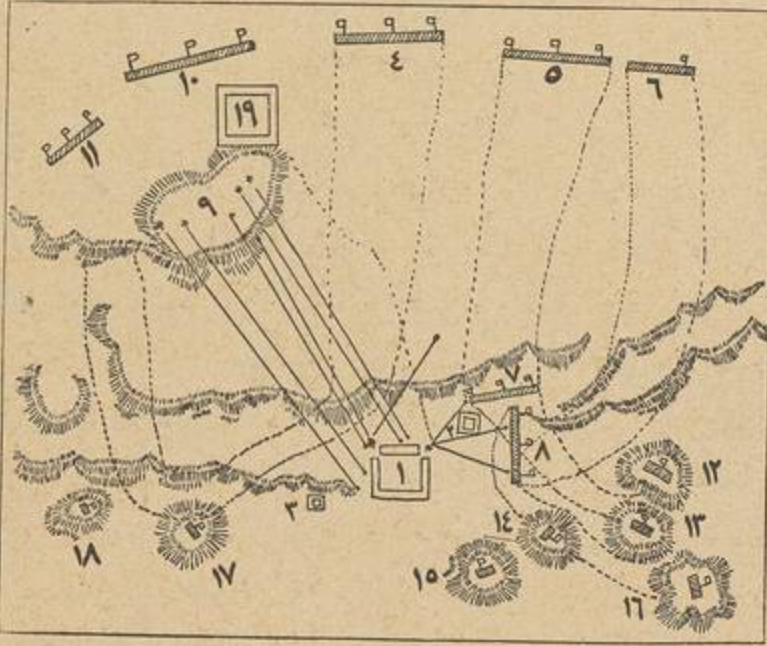
واصلت الفرقة سيرها برآ في اليوم التالي - ١٥ أكتوبر - فشهد الجنرال  
ديزيه عن بعد جيش مراد بك مرابطاً في المرتفعات المشرفة على بحر يوسف ،  
فأراد أن يهاجمه ، لكن مراد بك تقهقر شمالاً ، وتعبه ديزيه طول النهار فلم  
يستطع اللحاق به إذ كان جنوده قد أنهكهم التعب من سيرهم في رمال الصحراء .  
وفي يوم ١٦ أكتوبر بدأ الأهالي والمماليك يناوشون طلائع الجيش الفرنسي ،  
فأقبل الجيش يهجم عليهم ولكنهم انسحبوا ليرابطوا في مواقع حصينة ، وفي  
صباح اليوم التالي (١٧ أكتوبر) أخذت الفرقة تتابع سيرها حتى اقتربت من  
« سدمنت » وهي بلدة صغيرة واقعة غربي بحر يوسف (١) وهناك التقى الجمعان على  
مقربة من هذا البلد ، ودارت معركة من أشد المعارك هولاء ، كادت تسحق فيها  
قوات ديزيه لولا قوة المدفعية الفرنسية

كان مراد بك قد جمع قوة كبيرة من أهالي الفيوم فرساناً ومشاة ، وتحصن  
في آكام سدمنت ، وكان هو وحلفاؤه المصريون قد أعدوا معدات الهجوم

(١) في الجنوب الغربي للاهون وهي متصلة بالجلال الغربي وتابعة الآن لمركز بني سويف وتسمى  
( سدمنت الجبل )

وقوى أملهم في سحق الجيش الفرنسي لقلعة عدد جنوده بالنسبة إليهم ولمغامرته في الصحراء وفي بلاد معادية بعيداً عن قواعده الحربية كان عدد المماليك والمصريين في هذه الموقعة يزيد على ضعف الجيش الفرنسي، وكانوا يحتلون مرتفعات حصينة ، ولكن فرقة ديزيه امتازت بالنظام الحربي وكفاية القيادة وقوة المدفعية وكثرة الذخيرة ، فلما اقتربت الفرقة هجم عليها الأهالي والمماليك منحدرين من المرتفعات التي كانوا يعتصمون بها ، وكان عدد الفرسان من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف فارس هجموا على قرع الطبول بحماسة عظيمة ،

خريطة معركة سدمنت



قتلا عن خريطة قديمة مودعة في محفوظات وزارة الحربية الفرنسية منذ سنة ١٨٠٠ نشرها

القومندان دي لاجونكيير سنة ١٨٩٩

(١) موقف جيش الجنرال ديزيه عند التأهب للقتال

(٢ و ٣) طلائع جيش ديزيه

(٤ و ٥ و ٦) موقف جيش مراد بك عند تأهبه للهجوم

(٧ و ٨) هجوم جيش مراد بك على طلائع المينة

(٩) مدافع مراد بك

(١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨) هجوم جيش مراد بك على الجيش الفرنسي

(١٩) موقف جيش ديزيه بعد استيلائه على مدافع المماليك وانسحاب قوات مراد بك





معركة سدمنت — ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ — كارسها للسيوفيقان دينون في حينها ، وهذه الصورة  
تمثل هجوم الفرسيين على الأكمة التي بها مدافع مراد بك واختراقهم الوادي الذي يفصل بين الجبشين  
وتركهم جرحا على الأكمة التي كانوا يراطلون بها ، وهجوم المصريين على تلك الأكمة ، وترى في الصورة  
جرحى الفرسيين وقد تولام الرعب لاقترب الفرسان المصريين من الأكمة ، وأحد الجرحى يحاول عبثا أن  
يحمل زميلا جرحا ، وآخر ينطفي وجهه بسترته حتى لا يشهد هجوم الفرسان المصريين ولا يرى الموت بعينه

وأحاطوا بجيش الجنرال ديزيه من كل صوب وكانوا أكثر عدداً وأشد حماسة من الأعداء ، لكن نار المدافع الفرنسية فتكت بهم فتكا ذريعاً وكسرت هجمتهم ، فأعادوا الكرة ثانية وثالثة بمثل الحمية التي هجموا بها أول مرة ، ودامت الموقعة عدة ساعات لا تخمد حماسة المهاجمين ولا يضعف أملهم في النصر ، وكان مراد بك قد نصب على أكمة تشرف على ميدان القتال ثمانية مدافع أخذت تطلق النار على الجنود الفرنسية فأوقعت بهم خسائر جسيمة ، وكادت تدور الدائرة على الجيش الفرنسى لولا أن أمر ديزيه بالهجوم العام على مصدر الخطر فهجم جنوده على موقع المدافع وانقضوا على رجالها وقتلوا بعضهم وأجلوا البعض الآخر ، وهجمت جموع الأهالى والمالِك مرة أخرى على الجيش الفرنسى وأنزلوا بالفرنسيين خسائر فادحة ، لكنهم اضطروا إلى التقهقر بعد ما أفنت نيران المدافع والبنادق عدداً كبيراً منهم وتركوا في الميدان أربعة مدافع غنمها الفرنسيون ، وانهت الواقعة بانتصار الجرال ديزيه ، وبلغت خسائر الفرنسيين كما قدرها الجنرال برتية Berthier ٣٤٠ قتيلًا و ١٥٠ جريحاً ، ويقدر الجنرال ديزيه خسائر المصريين بأربعمائة قتيل سميت هذه المعركة واقعة « سدمنت » ، وهى تعد في تاريخ الحملة الفرنسية من المعارك المهمة التي كان لها أثر كبير في سير القتال وتطور الأحوال ، وهى تلى واقعة الأهرام في الأهمية ، لأنها قضت على آمال مراد بك في أن ينتصر في معركة منظمة ، وفتحت أمام ديزيه إقلم الفيوم الغنى بمزروعاته

تغير وجه القتال بعد هذه المعركة فصارت الحرب مقاومات محلية تتجدد تبعاً للأحوال والمفاجئات ، وكان هذا النوع من المقاومة أشد خطراً على الجيش الفرنسى من المعارك المنظمة

قال ( ريبو ) يصف هذا التطور : « إن مراد بك قد أخذ عن العرب حرب المناوشات والمعارك المتفرقة ، فلم يهدأ للفرنسيين بال ولم يستقر لهم قرار خلال الحملة على الصعيد بل كانوا هدفاً للمفاجئات والمعارك غير المنتظرة ، وكان هذا النوع من الحرب أشد خطراً على الفرنسيين من المعارك المنظمة لأنهم فقدوا الراحة والطمأنينة ، واضطرتهم هذه المقاومة إلى مداومة الحملات والرحلات المنهكة للقوى ، دون أن يتمكنوا من التغلب على خصم لا ينال ،



منظر آخر لمعركة سلميت - ٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ - (نقل عن مجموعة رسوم السيوفيين ديتون)  
منظر الأكمة التي اضطر الفرنسيون أن يخلوها ويتركوا بها جرحاهم ليهجموا على مواقع  
مراد بك ، وترى في الصورة أحد الجنود الفرنسيين يترك زميله جريحاً وقد تفادى بسترته غلماً ينجو  
بنفسه من الموت ، وترى عن بعد موقع الأكمة التي بها مراد بك

انسحب مراد بك وحلفاؤه غربا ، وأوغلوا في الصحراء حتى استقروا وراء  
بركة (الفرق) وهي بركة كبيرة واقعة جنوبي الفيوم بغرب (١) ، واحتل ديزيه في  
اليوم نفسه قرية سدمنت ، وتكبد الفرنسيون فتاعب شاقة في هذه المعركة ،  
وأضنهم السير في الرمال ، وعلى التلال والآكام القائمة بتلك الجهات ، فلم يفكر  
ديزيه في اللحاق بمراد بك ، وعزم على إراحة جنوده من الأهوال التي كابدوها ،  
وسار بهم إلى اللاهون ، وقرّ هناك ينتظر الفرصة ليعاود كرة الهجوم على الأهالي  
والماليك

وعسكر هو وجنوده في اللاهون من ٩ إلى ١٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ،  
واستراحوا في خلالها ، وأرسل الجرحى منهم إلى القاهرة ، ثم سار قاصداً مدينة  
الفيوم عاصمة المديرية ، فوصلها يوم رحيله ولم يبق بها إلا بضعة أيام ، ثم أخلاها  
خوفاً على مواصلات جيشه أن تنقطع إذا ابتعد كثيراً عن النيل ، ولأنه علم أن  
الماليك والعرب لما تحققوا وجوده في مدينة الفيوم ، عزموا على الرجوع إلى  
معقلهم الأول في سدمنت على بحر يوسف ، وبذلك يهددون مواصلات الجيش  
الفرنسي ، فعاد ديزيه إلى اللاهون يوم ١٦ أكتوبر ، واعتزم أن يعاود تعقب  
الماليك والأهالي ، لكنّه وجد صعوبة كبرى في تعقبهم لأن ماء الفيضان كان في ذلك  
الحين يغمر البلاد فيحول دون تقدم الجيش واتصاله بالقرى ، وكانت المؤون  
والزاد قد نقصت ، والأمراض فتكت بالجنود ولاسيما الرمد

### فتك الرمد بالجنود

فتك الرمد بعدد كبير من الجنود ، وكانت مياه بحر يوسف ورداءة الطقس  
والمتاعب التي لقيها الجنود من السير في الرمال أهم الأسباب في انتشار هذا المرض  
بينهم ، وقد فتك بهم فتكا ذريعاً ، وأصيب به لأول مرة ثمانمائة جندي ضربة  
واحدة ، وأخذ يستفحل حتى أصبح خطراً على الجيش الفرنسي أعظم من خطر

(١) في الجنوب الغربي لقرية (الفرق السلطاني) بمركز امسا الآن

المعارك والحروب ، كتب الجنرال ديزيه إلى نابليون في رسالة له من اللاهون بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ يقول :

« إن أمراض العيون هنا كارثة فظيعة حلت بالجيش ، فقد حرمتني الانتفاع بألف وأربعمائة من رجالي ، واضطرت أن أسحب منهم وراء الجيش مائة فقدوا بصرهم تماماً ، ولا يمكنني أن أتعقب مراد بك إلا إذا سد النقص في صفوف جيشي وبلغ عدد الفرقة ثلاثة آلاف مقاتل ، وقد انشأت هنا مستشفى لثلاثمائة مريض ، وأرسلت إلى النيل أربعمائة مريض آخرين ، ومن الواجب الإسراع في سد النقص كما أستطيع تعقب مراد بك ، فإن بحر يوسف بعد قليل من الأيام لا يعود صالحاً للملاحة إذ تجف المياه فيه ، وإن مركزنا هنا محفوف بالمتاعب ، ولو كانت الحملة التي أقودها على ضفاف النيل لهان الأمر ، ولكنني أحارب في الصحراء حيث لا توجد طرق للمواصلات ، ولا وسائل للنقل حتى ولا للجنود المرضى ، وبقى ديزيه في اللاهون ينتظر تعليمات نابليون

### الموقف الحربى فى بنى سويف والفيوم والمنيا

لم يكن انتصار الفرنسيين فى واقعة سدمنت ليوطد مركزهم فى الوجه القبلى ، وبالرغم من أن الجيش الفرنسى قد فتح فى طريقه ثلاث مديريات ، وهى بنى سويف والمنيا والفيوم ، وهزم مراد بك هزيمة كبرى . فإن الحالة ظلت مضطربة فى تلك المديريات وسلطة الفرنسيين تكاد تكون مجهولة عند الأهالى . ولم يستطع الفرنسيون لاضطراب الأحوال أن يحصلوا من تلك المديريات على مايلزمهم من الغلال والجياد . فقد حدث أن الجنرال ديزيه ترك بعض رجاله فى بنى سويف للقيام على شحن الغلال ، وفى أثناء حملته النبيلية إلى اسيوط هجم الثوار على بنى سويف وأسروا هؤلاء الرجال واستولوا على الغلال التى وجدوها ، وعين نابليون الجنرال ( زايونشك ) قومنداناً لمديرية بنى سويف فى أوائل اكتوبر ، وأرسل معه كتيبة من الجنود وكلفه تنظيم هذه المديرية ، وكلف الجنرال ديزيه تنظيم مديرتى المنيا والفيوم

أما في المنيا فكانت الحالة أكثر اضطراباً وأقل استقراراً ، وكانت سفينة فرنسية حربية تجوب هذه الجهات وتحمي القوة التي بالشاطئ . من هجمات الأهالي ، ونزلت بالمنيا فصيلة من الجنود ليتزودوا منها وأبوا أن يدفعوا ثمن ما اشتروه ، فثار الفلاحون الذين كانوا بالسوق وقتلوا من الجنود خمسة وجرحوا منهم ثمانية ، وكاد يستشرى الهياج لولا الحكمة من سكان البندر ، وأصدر الجنرال ديزيه لمناسبة هذه الحادثة أمراً مشدداً بقمع كل نهب يقع من الجنود ، وإحالة كل من يثبت عليه أنه اغتصب شيئاً من الأهالي على مجلس عسكري لمحاكمته طبقاً للقوانين العسكرية

ولم تكن حملة الجنرال ديزيه في بحر يوسف على اتصال بالسفن الفرنسية التي بقيت في النيل ، فقد انقطعت المواصلات بينهما منذ نزل الفرنسيون بسفنه من ديروط ، ولم تتصل إلا بعد أن استقرت الحملة في اللاهون حيث شرع الجنرال ديزيه في إيجاد الصلة بالنيل ليتمكن من إرسال الجرحى والمرضى إلى القاهرة ، ومن تلقى المدد والمؤن والذخائر ، وليستطيع الاتصال بالقوات الفرنسية في بنى سويف والمنيا

وكان نابليون شديد الرغبة في أن يتعقب ديزيه قوات الأهالي والمماليك للقضاء عليها ، وقد حمل ياوره ديروك Duroc أمره إلى ديزيه بأن يهاجم مرادبك ويقضى على جيشه قبل نهاية الفيضان ، لكن ثورة القاهرة التي نشبت في ٢١ أكتوبر حالت دون سفر ديروك ، وفي خلال ذلك وصلت رسالة ديزيه المؤرخة ٢٠ أكتوبر ، فأدرك نابليون مبلغ ما عاناه الجنود الفرنسيون من المتاعب والمشاق ، وحاجتهم إلى الراحة ، فأرسل إليه يطلب منه اختيار موقع صالح ليعسكر فيه الجنود ، وكلفه إخضاع مديريات بنى سويف والمنيا والفيوم

وكانت مهمة الجنرال ديزيه شاقة ، لأن المماليك والأهالي قد را بطوا في الصحراء فلا تستطيع القوات الفرنسية أن تحيط بهم ، وكان الأهالي لا ينفكون يناوشون هذه القوات في اللاهون

فتكثت المعارك والأمراض بالجنود الفرنسية فتكا ذريعاً ، فنزل عددهم إلى

الألفين ، ولم يكن في استطاعة ديزيه أن يخضع بنى سويف والمنيا والفيوم بهذا العدد ، لبعده المسافات بين البلاد ، وما غمر الأرض من الفيضان ، فلا يسهل أن يلتقل الجنود من بلد إلى بلد ، ولأن الجنود قد أنهكهم التعب ، فاختار مدينة الفيوم ليستقر فيها مع فرقته

### احتلال مدينة الفيوم

#### وإخماد الثورة في القرى المجاورة

انتقلت فرقة الجنرال ديزيه إلى مدينة الفيوم في أواخر أكتوبر سنة ١٧٩٨ طلباً للراحة من عناء المعارك والمناوشات (١) وعسكر الجنود في حديقة كبيرة شمالي المدينة ، وأقاموا على بحر يوسف جسراً من المراكب المتلاصقة لانتقال الجنود بين الشاطئين

وأخذ الجنرال ديزيه ينتظر المدد من نابليون ويستعد لاستئناف الهجوم على مراد بك ، وشرع ينظم الإدارة في مديرية الفيوم ويجمع الخيول من القرى ، لأن الحملة كانت تنقصها قوة الفرسان ، لكن مياه الفيضان كانت تعطل حركات الجنود في هذه المديرية فلقى ديزيه عنتاً شديداً في تحصيل الضرائب ومصادرة الغلال وجمع الخيول من القرى ، وزاد في متاعبه أن معظم القرى قد أمسك أهلها فلم يبذلوا شيئاً مما كان يطلب منهم ، واجس ديزيه روح التمرد والعصيان ، فعزم على تجريد حملة عسكرية لإخضاع القرى وإكراهها على تسليم ما يفرض عليها ، وقد عزا الفرنسيون هذه الحالة الثورية إلى تحريض مراد بك ، وقال الجنرال دونزلو Donzelot في رسالته إلى الجنرال برتديه (٢) إنه تحقق أن مراد بك أوفد

(١) كانت مدينة الفيوم كما هي الآن من أمهات مدن القطر ، بلغ عدد سكانها في ذلك العصر خمسة آلاف نسمة ، ويقول كلوت بك إن عدد سكانها في عصر محمد علي بلغ ١٢٠٠٠ واشتهرت بنسيج الصوف والقطن والسكتان ، وامتازت بجودة سرفها الأبيض وتفوقت به في صناعة شيلان الصوف البيضاء التي كانت ترسل منها كميات كبيرة إلى القاهرة والوجه البحري ، ويقول السيوجومار Jomard أحد مهندسي الحملة الفرنسية إن القوافل التي كانت تسير من الفيوم إلى القاهرة كانت تحمل معها كل أسبوع ألفي شال مما يصنع في مدينة الفيوم

(٢) رسالة دونزلو إلى برتديه في ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨

على كاشف ومعه ١٥٠ من المماليك لتحريض البلاد على الثورة وتنظيم المقاومة ،  
وسواء أحمّت رواية دنزلوا وكان التحريض أو كانت البلاد مستعدة للمقاومة من  
تلقاها نفسها ، فما لا جدال فيه أن روح الثورة قد سرت في القرى ، والأقرب إلى  
الواقع أن هذه الروح الطبيعية ، ولولاها لما وجد المماليك ذلك العدد الجرم من الأهالي  
يدأبون على مناوشة الحملة الفرنسية والسكيد لها

ولما بدأت مياه الفيضان تنحسر عن البلاد وأرخست عن حركات الجنود ، اعتمز  
ديزيه أن يجرّد حملة على القرى النائرة ، فترك في مدينة الفيوم كتيبة من الجنود  
تقوم على حراسة معسكر الفرقة وسار بباقي العسكر يوم ٦ نوفمبر لإخماد حركات  
الهباج والثورة ، فأخضع في طريقه (مطر طارس) (١) و (سيه) (٢) و (سرسنا) (٣) ،  
ولقى الفرنسيون مقاومة شديدة من أهالي سرسنا فقد تأهبوا للقتال وعلى رأسهم  
على كاشف ولكنهم لم يجدوا القوة على مقاومة نيران الفرنسيين فانسحبوا من  
القرية واستولى الفرنسيون عليها ، وتجمع الأهالي بعيداً عنها على مرمى المدفع  
وانضم إليهم جماعة من العرب ، فأمر الجنرال ديزيه بإطلاق النار عليهم فشنت  
جمعهم وتبادل الفريقان الضرب وأطلق الأهالي بنادقهم فجأوبهم الفرنسيون  
بضرب المدافع فانسحبوا وأوغلوا في الصحراء ونهب الفرنسيون القرية وأضرموا  
فيها النار (٤) ثم تابعت الحملة سيرها فوصلت تجاه قرية الروضة (٥) وكان الليل قد  
أقبل فمسكرت الحملة بالقرب من الروبيات (٦)

أذعنّت هذه القرى وسلمت الإتاوات المطلوبة منها ، ولكن الأهالي والمماليك  
رأوا انشغال الفرنسيين بإخضاع هذه القرى فهاجموا مدينة الفيوم يوم ٨ نوفمبر  
سنة ١٧٩٨ مهاجمة شديدة ، فاضطرت الحملة أن ترجع إلى عاصمة المديرية

(١) و (٢) من بلاد مراكز سنورس

(٣) بمركز الفيوم

(٤) رسالة دنزلو إلى الجنرال برتنيه في ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨

(٥) و (٦) بمركز سنورس



### هجوم الثوار على مدينة الفيوم

وتفصيل هذا الهجوم أن الأهالي من الفلاحين والعرب ثاروا في القرى وعزموا أن يستولوا على مدينة الفيوم ، ففي يوم ٨ نوفمبر الساعة الثامنة صباحاً ظهرت أمام المدينة طلائع الثوار ، وفي نحو الساعة الحادية عشرة أقبلت جموعهم وهجموا على معسكر الجنود ، فتأهبت القوة الفرنسية للقتال ، وكان قائدها الجنرال روبان Robin مصاباً بالرمد فأناوب عنه الكولونل هبلر Happler ، وفي منتصف الساعة الثانية عشرة هجم الثوار على أسوار المدينة تتقدمهم طبول الحرب وعلى رأسهم قواد من المماليك ، وكانت الدوريات الفرنسية تحرس بعض مداخل المدينة فدافعت عنها دفاعاً شديداً ، لكنها انثنت على أعقابها إلى الداخل ، واقتحم الثوار الشوارع يريدون منزل على كاشف وفيه الجنود الفرنسيون ، وكان عدد المهاجمين كثيراً قدرهم الجنرال ديزيه في تقريره بثلاثة آلاف مقاتل ، ويقول ريبو (١) : « إنهم خمسمائة من المماليك ومعهم فصيلة من فرسان العرب وألفان من الفلاحين ، فلما وصلوا إلى المنزل تقاذف الرصاص بين الفريقين وكان موقع الفرنسيين منيعاً لأن هذا المنزل كان محكم التحصين ، فكان الجنود يطلقون النار من النوافذ ومن الأسطحة ، وبذلك أصلوا المهاجمين ناراً شديدة ردتهم على أعقابهم فانسحبوا تاركين عدداً كبيراً من القتلى ، ثم جاءهم المدد فاستأنفوا الهجوم في الساعة الرابعة بعد الظهر ولكنهم ارتدوا ثانية أمام نار الجنود الفرنسية ، وأخفق الهجوم وغطيت الشوارع بحشث القتلى والجرحى ، وبلغ عدد القتلى من الأهالي نحو مائتين وكان عدد الجرحى كبيراً ، أما المماليك فإنهم لم يخسروا غير أربعة قتلى وعشرة جرحى ، وكانت خسائر الفرنسيين قليلة ، فإنهم لزموا خطة الدفاع وكانوا متحصنين لا مكشوفين ، فخسروا أربعة قتلى و ١٦ جريحاً

يتبين من هذه المقابلة أن الأهالي هم الذين تحملوا معظم الخسائر وكان منهم أكثر الضحايا ، في حين أن المماليك لم يخسروا إلا عدداً ضئيلاً جداً ، وقد ثبت

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

من هذه الواقعة وغيرها أن هؤلاء المماليك كانوا يضمنون بأنفسهم ويحرصون على أرواحهم في ميدان الحرب والقتال (١)

ولم تكن هذه المقاصد لتخفى على الأهالي فإنهم أدركوا أن القوم لا يريدون إلا أن يتخذوهم مطية لقضاء لباناتهم ، فأسقطوا الثقة فيهم ، وكانت هذه الحالة النفسية من أهم الأسباب التي قضت على نفوذ المماليك وسلطتهم في البلاد ، فلم تقم لهم بعد الحملة الفرنسية قائمة

### موقف ديزيه في الوجه القبلي

رجع ديزيه إلى مدينة الفيوم بعد أن أخفق هجوم الثوار عليها ، على أن هذا الهجوم كان دليلاً على استهانة الثوار بالقوة الفرنسية وتجربتهم عليها ، فأدرك ديزيه أن قلة جنوده كانت من أهم أسباب الحالة الثورية التي ذاعت في البلاد ، ورأى أن لا سبيل إلى المغامرة في فتح الوجه القبلي إلا إذا جاءه المدد الكافي للقيام بهذه الحملة الطويلة المدى ، فأثر الانتظار ووضع الحاميات الكافية في البلاد التي يحتلها لإخضاع وقع الثورات التي عسى أن تشبّ فيها ، وكانت المعارك والأمراض قد أفرغت من صفوفه ، فكان لا بد له من سد هذا النقص الكبير

كان ديزيه يلح قبل هجوم الثوار على الفيوم في طلب المدد من نابليون ، فكلف نابليون الجنرال بليار الذي كان في ذلك الحين قومنداناً للجيزة أن يسير بقوته إلى الفيوم ، وكان الجنرال أندريوسى قد عاد من مهمته بالمنزلة فجعله قومنداناً للجيزة

وسار بليار من الجيزة بالقوة التي كانت معه فوصل يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٧٩٨ إلى (الزاوية) (٢) وهناك وصلته أنباء انتصار فرقة الجنرال ديزيه على القرى الثائرة

(٢) جاء في تقرير الجنرال ديزيه عن هذه الواقعة « أن المماليك على جانب عظيم من الحذر والحرس فهم لا يستهدفون للقتل بل يعرضون غيرهم للخطر »

(١) شمالى بنى سويق

فاستراح في الزاوية ينتظر تعليمات الجنرال ديزيه ، فأمره أن يبقى في بني سويف ليعاون الجنرال زاينوشك في مهمته ، ذلك أن ديزيه قد تلقى من بني سويف أبناء تدل على أن فيها استعداداً لشورة كالثورة التي شبت في الفيوم ، فرأى من الحكمة أن يبقى الجنرال بليسا في بني سويف لتوطيد سلطة الفرنسيين بها ، على أن مركزهم في بني سويف كان أقوى منه في الفيوم لوجود السفن الفرنسية الحربية في النيل

وكان ديزيه لا يفتأ يطلب المدد والمدفعية والذخائر والمهمات من نابليون ، وقد ألح في طلب قوة كبيرة من الفرسان ، لأنها الوسيلة الوحيدة للتغلب على قوات المقاومة في الوجه القبلي ، وبدونها لا يزال يستطيع الأهل والممالك يفلتون من الجيش الفرنسي ، فلا يستطيع اللحاق بهم ولا تعقبهم في الصحراء ، وتبقى قوتهم تتحين الفرص لمناوشة الفرنسيين وإرهاقهم وتكبيدهم ما يستطيعون من الخسائر ، وكان إخضاع الصعيد من أهم المقاصد التي وجه إليها نابليون اهتمامه ، وبخاصة بعد أن شحت الغلال في القاهرة والوجه البحري ، فإن انقطاع المواصلات مع الصعيد منع ورود الغلال وكان سبباً في ارتفاع أسعارها ارتفاعاً أدى إلى تدمير الناس وهياج الخواطر في مصر

كتب المسيو ( بوسليج ) مدير الشؤون المالية في ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨ إلى نابليون رسالة عن أزمة القمح في القاهرة قال فيها : « من الضروري إرسال المراكب إلى الصعيد لجلب القمح ، وأقل ما في هذه الطريقة من الفوائد أنها تهدى خواطر الجمهور ، لأن من الواجب أن لا تستهدف مدينة كبيرة مثل القاهرة لأزمة الأقوات وأن لا ترتفع فيها أسعار القمح ليستطيع الفقراء أن يعيشوا ويجدوا قوتهم » ؛ وكتب إليه المسيو ( سوسى ) مدير مهمات الجيش في ١٤ نوفمبر يقترح جلب الغلال من مديرية بني سويف إلى أن يصل القمح من المديرية الأخرى في الصعيد ، لأن حالة الهياج فيها قد توخر كثيراً ورود الغلال منها ، من أجل ذلك عنى نابليون بإرسال المسدد إلى الجنرال ديزيه ، وعين الجنرال بليسا قومنداناً لمديرية بني سويف بدلا من الجنرال زاينوشك الذي مرض وعاد إلى

القاهرة ، وأمر باتخاذ بنى سويف نقطة ارتكاز للجيش الفرنسى ، وإنشاء مستشفى  
للجنود وتحصينها لتكون بمنجاة من هجمات الأهالى والعرب (١)

اعتزم الجنرال ديزيه بعد إخماد ثورة الفيوم أن يعود إلى بنى سويف والمنيا  
لقمع حركات الهياج فيها . وجباية الضرائب من البلاد . فانتقل بفرقته إلى  
بنى سويف ووصل إليها فى ٢٢ نوفمبر . حيث ضم إليه قوة الجنرال بليار . وغادر  
مديرية الفيوم دون أن يصنع شيئاً فيها من جهة إدارتها أو تنظيمها . واعترف  
فى رسالته لنابليون قبل أن يغادر الفيوم أنه لم يمشى فيها ، دبوأناً ،  
طبقاً للتعليمات التى أصدرها نابليون لقواد المديريات لأنه لم يترك فيها القوة  
الفرنسية الكافية لمراقبة هذا الديوان . وأنه ترك الحالة فيها كما كانت (٢) . وأنفذ  
إليها نابليون الأجدودان جنرال بوييه Boyer ومعه كتيبة من الجنود لمراقبة  
الأحوال فى مديرية الفيوم وتنظيمها . وجباية الخراج فيها

تلقى المدد واستئناف الحملة على الوجه القبلى

بقيت الفرقة فى بنى سويف نحو أربعة أسابيع فى انتظار المدد وإتمام الاستعداد  
لاستئناف الحملة على الصعيد . وقد اضطر الجنرال ديزيه أن يقوم فى خلال هذه  
المدة (٣) إلى القاهرة ليتعجل النجدة . وكان نابليون فى ذلك الحين منهمكاً فى إعداد  
المعدات للحملة على سوريا (٤) . على أنه قد أمده بقوة من ١٢٠٠ من الفرسان  
بقيادة الجنرال دافو Davout (٥) وبضع مئات من المشاة وزوده بالمدافع والذخائر  
وست سفن حربية منها السفينة (إيطاليا) سفينة نابليون الخاصة التى كان  
يركبها فى النيل

(١) أمر نابليون فى ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٨

(٢) رسالة ديزيه إلى نابليون فى ١٩ نوفمبر سنة ١٧٩٨

(٣) كان سفره يوم أول ديسمبر سنة ١٧٩٨ وقد أناب عنه فى قيادة الفرقة الجنرال بليار

(٤) انظر الفصل الثانى من الجزء الثانى

(٥) الذى صار فيما بعد مارشالاً واشتهر فى حروب الامبراطورية النابليونية

عاد الجنرال ديزيه من القاهرة مزوداً بهذا المدد وعازماً على أن يكتسح الصعيد بقوته ، فوصل إلى بنى سويف يوم ٩ ديسمبر على ظهر السفينة « إيتاليا » ، وفي اليوم التالى وصلت قوة الفرسان بطريق البر ، ثم وصلت السفن التى تحمل مهمات الحملة وذخايرها ، وفي يوم ١٥ ديسمبر كانت الحملة على تمام الاستعداد للزحف ، فكان عددها أربعة آلاف مقاتل مزودين بالمدافع والذخائر ومعهم أسطول من السفن الحربية المسلحة بالمدافع الحديثة الطراز ، وكان القائد العام لهذه الحملة الجنرال ديزيه ، ومن خيرة قوادها الجنرال فريان Friant والجنرال بليار Belliard والجنرال دافو Davout قائد الفرسان والكولونل لاتورنرى Latournerie قومندان المدفعية والأدجودان جنرال دنزلو Donzelot والسكولونيل راباس Rabasse

سير الحملة من بنى سويف إلى جرجا

تحركت الحملة من بنى سويف براً على الشاطئ الأيسر للنيل واتخذت المراكب سبيلها فى النهر حذاً. الحملة تحمل الأقوات والذخائر والمهمات وقد كان توغل الجنود فى الوجه القبلى محفوفاً بالمتاعب والأخطار، لأن الجيش كلما سار جنوباً ابتعد عن القاهرة التى كانت مركز القوة الفرنسية وتغلغل فى بلاد مجهولة منه وبين أقوام يكرهونه ويتربصون به ريب المنون قال الجنرال دافو فى مذكراته عن الحملة على الصعيد : « إننا نستهدف لأخطار كثيرة كلها أوغلنا فى بلاد يحمل جميع أهلها السلاح ، سارت الحملة من بنى سويف يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٧٩٨ بعد أن تركت فيها قوة من ماتى جندى وبعض السفن المسلحة لحراسة المواصلات مع القاهرة ، ووصلت ليلاً إلى ( البرانقه ) على البر الغربى للنيل وفى الصباح استأنفت السير فبلغت ( بيا ) وسارت منها قاصدة ( الفشن ) ، وقبل أن تصل إليها استراحت لتنتظر قدوم المدفعية ، وكانت طلائع الفرقة ترابط على مقربة من قرية ( الفقاعى ) (١)

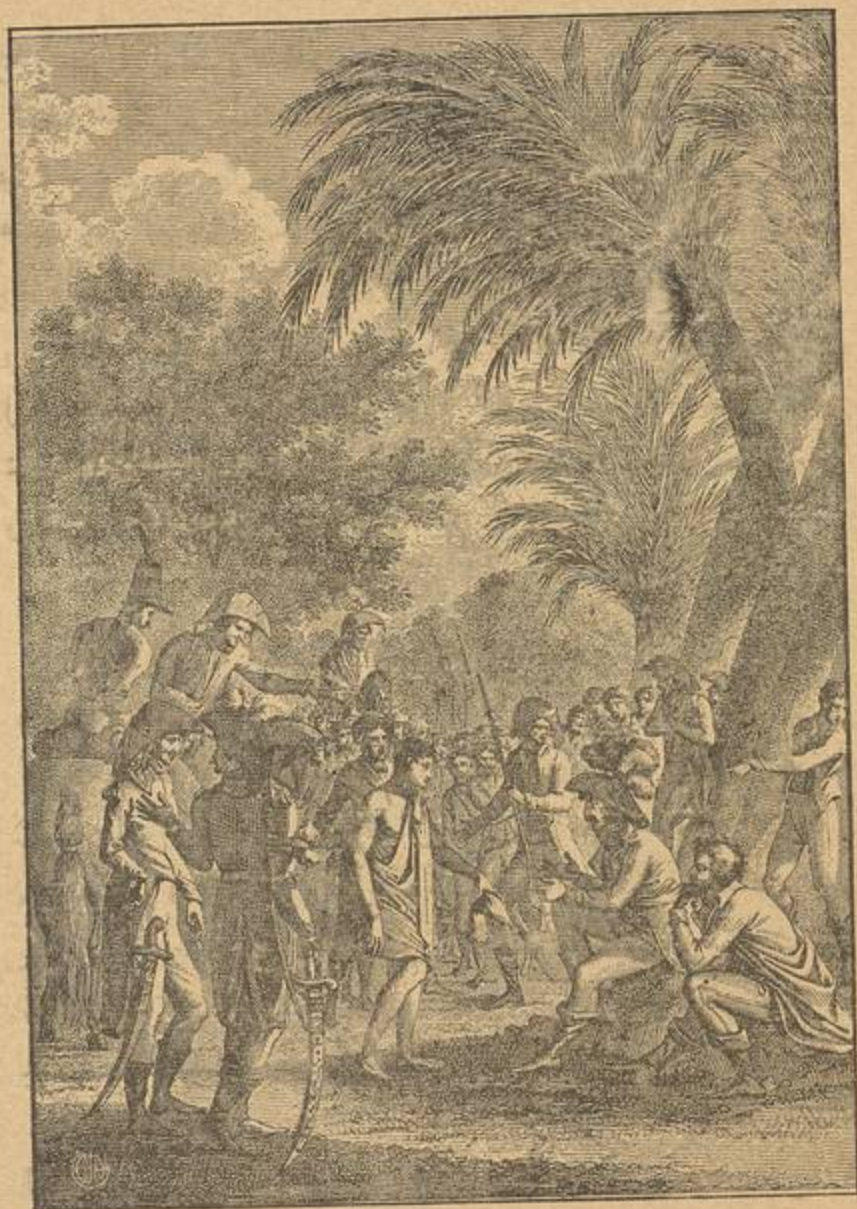
(١) من بلاد مركز بيا بالبر الغربى للنيل

حادثة (الفقاعي)

وقد حدث بقرب (الفقاعي) حادث دهش له الجنرال ديزيه وكبار الضباط الفرنسيين ، ذلك أنه بينما كان الجنود ينتظرون وصول بقية الجيش تقدم أحد غلمان القرية وتغفل بعض جنود الدراجون فاستولى على بنادقهم ، فرآه جندي آخر وتعقبه وهو يعدو حاملا بندقية إلى أن أدركه وضربه بالسيف على ذراعه ، وساقه جريحا إلى الجنرال ديزيه للاقتصاص منه ، فسأله الجنرال عما دعاه إلى ارتكاب هذا العمل ، فأجاب الغلام رابط الجأش ناظرا إلى السماء : إن الله القادر على كل شيء قد أمره بذلك ، فسأله الجنرال عن حرضه على فعلته ، فقال لم يحرضني أحد وإنما ألهمني الله أن أفعل ما فعلت ، ثم رفع رأسه ونظر إليه وقال له في هدوء وثبات : دونك رأسي فاقطعوه ، فدهش الجنرال من شجاعته واكتفى بأن يجلد بالسوط ثلاثين جلدة ، فجلد الغلام لا يتأوه ولا يتململ حتى استوفى الثلاثين سوطا ، ولم تكن سنه تتجاوز الثانية عشرة ، وقد قص الجنرال بليار حكايته في يومياته قائلا إن هذا الغلام إذا عني بتربيته كان ذا شخصية نادرة المثال ، وروى المسيو فيغان دينون حكاية هذا الغلام في رحلته ، وهي تتفق في جوهرها مع رواية الجنرال بليار وإن اختلفت في بعض التفاصيل ، غير أنه قال إن الجنرال ديزيه عني عن الغلام ولم يأمر بعقابه ، ورواية الجنرال بليار في يومياته أدعى إلى الثقة لأنها قاصرة على سرد الواقعة وخالية من عبارات التصور والتخيل التي وردت في رواية المسيو دينون ، وقد رسم هذه الحادثة في كتابه (١) ونقلنا عنه هذا الرسم (ص ٣٧٣)

وصل الجيش إلى (الفشن) يوم ١٧ ديسمبر ثم ابتعد عن النيل وقصد شاطئ بحر يوسف يتعقب المماليك وحلفاءهم الأهالي ، لكن مراد بك استطاع أن يتراجع قبل أن يدركه الجيش الفرنسي ، وظل الجيش يتعقبه ثلاثة أيام يتنقل من قرية إلى قرية دون أن يفوز منه بطائل ، فعاد إلى شاطئ النيل ووصل إلى المنيا يوم

(١) رحلة في الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حرب الجنرال بوناپارت المسيو فيغان دينون



حادثة الفقاعى ( كما رسمها فى حينها المسيحو فى سان دينون )  
وترى الجنرال ديزره جالسا تحت الشجرة يستجوب غلام القرية لحما كتمه والقلام يحببه بشجاعة ورباطة جأش

٢٠ ديسمبر وكان المالك قد غادروها قبل قدومهم ببضع ساعات تاركين بها سفنهم وكانت واحدة منها مسلحة بثلاثة من المدافع ، والمراكب الأخرى بها بعض المدافع القديمة وبعض الأقوات والذخائر فغضبها الفرنسيون

ثم سار الجيش من المنيا مبتعداً قليلاً عن النيل فر بنى أحمد ، فريدة ، فكوم الزهير ، ثم عرج على النيل ووصل إلى ( ساقية موسى ) ثم إلى ( ملوى ) وكانت كما هي الآن من أهم مدن الوجه القبلي ، وصفها الجنرال بليار في يومياته بأنها مدينة كبيرة وأنها أجمل ما رآه من المدن في رحلته ، ذات شوارع واسعة مستقيمة وبيوت منتظمة وقد وجد الفرنسيون فيها ثمانية مدافع كان الأهالي يقذفون منها الجلال على المراكب الفرنسية حيث شرعوا في تحصين المدينة وإقامة سور لحمايتها ، فاستولى الفرنسيون على تلك المدافع ، واستمر الجيش في زحفه فسر بطوخ ، فتانوف ، فديروط ، فالقوصية

### احتلال أسيوط

وفي صباح يوم ٤ ديسمبر قام الجيش من القوصية يريد أسيوط فاحتلها يوم

٢٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨

كانت أسيوط ، ولم تزل ، أهم مدن الوجه القبلي ؛ بها القصور المشيدة ، والأبنية الجميلة والقيساريات والمتاجر الواسعة ، وهي عاصمة مديرية أسيوط التي كان عدد سكانها في ذلك الحين نحو مائتي ألف نسمة (١) ، وكانت تبعد عن شاطئ النيل بنحو ١٢٠ متر ، وميناؤها ( الحمراء ) متصلة بها بجسر يعلو مياه الفيضان ، وكان في غربها تل عالقة تقع بينها وبين الجبل وهي آثار مبان قديمة وعليها بيوت المالك ، فكانت تلك البيوت مرتفعة عن المدينة تشرف عليها ، لذلك اختارها الفرنسيون لإقامة جنودهم واتخذها الجنرال ديزيه معسكراً للجيش . وكان في الجهة البحرية المدينة حدائق ذات بهجة . وقد اشتهرت أسيوط بنسيج أقشة الكتان ومصنوعات الخشب والعاج والأبنوس والخزيت والفخار وصناعة الجلد

(١) الآن ٩٨١٠٠٠ نسمة



وعصير السيرج وتصدير النطرون . وكانت مركزاً لتجارة السودان والواحات وبلاد المغرب . يرد إليها التبر وريش النعام وشن الفيل والتبر الهندي والجلود وملح الصودا . وتصل إليها في كل سنة قافلة من دارفور على مسيرة أربعين يوماً تشتمل على نحو ألف وخمسمائة من الإبل بأحمالها من بضائع تلك الجهات فيبيعونها ويستبدلونها من البضائع المصرية فيحصل بذلك رواج عظيم لآسيوط . هذه نظرة عامة إلى المدينة وقت أن احتلها الجيش الفرنسي

انسحب المماليك من آسيوط بعد أن أغرقوا سفينة مسلحة من أسطولهم وتركوا راست سفن أعجلهم عنهما كما كانوا فيه فلم يأخذوها ولم يعرقوها . فاستولى الفرنسيون عليها وعلى ما فيها من الأقوات والذخائر . ثم سار الجيش من آسيوط يوم ٢٦ ديسمبر وانقسم إلى فرقتين : فرقة بقيادة الجنرال فريان أخذت طريق سفح الجبل . والفرقة الأخرى المؤلفة من الفرسان ومن كتيبة الجنرال بليار أوغلت في السهل ثم التقتا ( في الغنائم ) فاحتلتها ونهبها الجنود (١)

غادر الجيش ( الغنائم ) ووصل في زحفه إلى ( فزارة ) وعسكر في غابة على مقربة منها وفي يوم ٢٨ ديسمبر وصل إلى ( بلصفورة ) وفي يوم ٢٩ غادرها وحاذى النيل عند ( المشاة ) ثم مر بالخارفة ، فالنوبرات ، فطوخ العسيرات ، فأولاد حمزة إلى أن وصل إلى جرجا في اليوم نفسه ، فعسكر حول المدينة وكان أسطول مراد بك قد غادرها قبل أن يصل الفرنسيون

وهكذا قطع جيش الجنرال ديزيه المسافة من بني سويف إلى جرجا في ثلاثة

(١) قال الجنرال بليار في يومياته عن الغنائم :

« إنهما قرية كبيرة جدا تحيط بهما غابة من التخليل ، وهي على مسيرة خمس دقائق من القرعة السوهاجية ، وقد نهبها الجنود نهباً تاماً ودافعهم الأهالي عن أنفسهم وقتلوا بعض الجنود ، وقد أرسلت قوة لإعادة النظام في القرية فأطبق عليها الفلاحون واشتبك الفريقان فقتل واحد من الأهالي وجرح اثنان من الجنود »

وقال بليار عن قرى الوجه القبلي بمقارنتها بالوجه البحري :

« يظهر أن بلاد الوجه القبلي أكثر تنظيماً من بلاد الوجه البحري فالطرق معتنى بها وكذلك الترع ، وفي مفاوز الطرق أسبلة على مسافات معينة يقوم عليها بعض الأهالي يسقون الناس من مائهم ، والقرى من المنيا إلى ما بعد ملوى لا تكتنفها المزابل والقاذورات بمقدار ما رأينا حول غيرها »

عشر يوماً (من ١٦ إلى ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٨) كان في خلالها يطارد جيش مراد بك من بلد إلى بلد دون أن ينال منه منالاً

حطّ الجيش الفرنسي أثقاله بمجرد ليستريح الجنود من عناء تلك الرحلة التي أنهكت قواهم ولينتظر وصول المراكب التي بها ذخائره ومهمات ومؤناته ، وقد تعطل سيرها وتأخرت عن متابعة الجيش لهبوط المياه ، واختلاف الريح ، ومرض من الجنود نحو ٢٠٠ جندي وأمر الجنرال دينيه بترحيل من لا يرجي شفاؤهم إلى القاهرة لكيلا يكونوا عالة على الجيش

ورأى دينيه أن لا يغامر بحيشه فيما وراء جرجا لأنه أصبح بعيداً عن القاهرة ووجد في جرجا مدينة كبيرة في وسط مديرية خصبة تصلح لتكوين الجيش فرأى من الحكمة أن يستقر بها حتى يصل أسطول له ويتأهب لاستئناف الإيغال في الصعيد (١)

#### الثورة فيما بين أسيوط وجرجا

كان دينيه يتوقع قدوم أسطوله إلى جرجا بعد أيام معدودات ، ولكنه تأخر في الوصول ، فاضطر أن يبقى بها مدة ثلاثة أسابيع دون أن يزحف أو يعمل عملاً ، وكان تأخره مدعاة لتنظيم قوة المقاومة في البلاد التي لم يفتحها ، وسريان روح الثورة في المدن التي فتحها . فصارت البلاد فيما بين أسيوط وجرجا شعلة من الهياج والثورة

سبت الثورة في نحو أربعين بلداً ، وانضوى إلى عليها نحو سبعة آلاف من الأهالي ، فانتهم مراد بك هذه الفرصة ليلم شعته ويضم إليه الأعوان والأمنار من أهل البلاد ، وأرسل يستنجد بأشراف مكة وعرب ينبع وجدة وأنفذ رسله إلى النوبة يستنقرون الناس لمقاومة الفرنسيين ، وأرسل إلى حسن بك الجداوى الذي كان مقيماً في إسنا وكان بينهما من قبل عداوة قديم يعرض عليه الصلح ليتحداً

(١) كانت جرجا من أهمها أصغر من أسيوط تعتبر في ذلك العصر عاصمة الصعيد لأنها قاعدة مديرية جرجا أكبر مديريات الوجه القبلي وكانت الغلال فيها وافرة والأسعار منخفضة وموقعها في منتصف المسافة بين القاهرة وأسوان يجعلها مركزاً تجارياً على جانب كبير من الأهمية

على محاربة الفرنسيين ، فلبى الجداوى دعوة الصلح وانضم إلى خصمه القديم لمحاربة العدو الجديد

واجه الفرنسيون فى الصعيد فيما بين جرجا وأسيوط ثورة واسعة النطاق بعيدة المدى ، ولكنهم عاجلواها قبل أن تجتمع قواها وتتحد عناصرها ، وغلبوا قواتها المبعثرة معتمدين على نظامهم الحربى ومدافعهم القوية وبنادقهم الحديثة ، فكانت المعارك التى نشبت بينهم وبين الأهالى أشبه بمذابح فتسكت فيها نيران المدافع والبنادق بمجموع من الأهالى محرومين من النظام غير مزودين إلا بأسلحة قديمة

### معركة سوهاج

٣ يناير سنة ١٧٩٩

كلف ديزيه الجنرال دافو فتح هذه الثورة ، فقام من جرجا على رأس فرسانه ووصل إلى سوهاج يوم ٣ يناير سنة ١٧٩٩ حيث كانت تحتشد قوة من الثائرين قدرهم الجنرال دافو بأربعة آلاف من الفلاحين مسلحين بالبنادق والحراب يشد أزهم سبعائة من الفرسان ، ونشب القتال بين الفريقين ولكن الأهالى على كثرة عددهم لم يكونوا معتادين خوض المعارك الحديثة فأصلتهم فرقة الفرسان ناراً حامية تراجعوا أمامها تاركين ثمانمائة من القتلى كما يقدرهم الجنرال ديزيه ، وعاد الجنرال دافو إلى جرجا

كانت هذه الواقعة كارثة أصابت الأهالى ، وكان طبيعياً أن تفضى إلى إرهاب البلاد الأخرى وإخماد الثورة فيها ، لكنها على العكس لم تكسر شوكة الثائرين ، ولم تنهم عن عزمهم ، واحتشدت جموعهم المسلحة على مقربة من أسيوط قادمين رجالاً وركباناً من مديريات المنيا وبنى سويف والفيوم ، فكلف ديزيه الجنرال دافو التوجه ليهاجم هذه الجموع وليطمئن على الأسطول الفرنسى الذى انقطعت أخباره وتأخر وصوله إلى جرجا ، وكان مركز هذا الأسطول محفوفاً بالمخاطر لأنه كان يتسحب فى النيل بين بلاد نائرة وجموع هائلة

### معركة طهطا

٨ يناير سنة ١٧٩٩

سار (دافو) على رأس فرقة الفرسان فوصل تجاه طهطا يوم ٨ يناير، فوجد عدداً من الأهالي يبلغون نحو ثمانمائة فارس يقصدون مهاجمة الفرنسيين فاقترب منهم جيش الجنرال دافو يتحداهم للقتال، فتقهقروا وأخلوا له الطريق، فترجل الجنود الفرنسيون تجاه طهطا واستراحوا ساعتين ثم استأنفوا سيرهم فتبعهم فرسان الأهالي عن بعد، وأخذت جموع الثوار تخرج من القرى مشاة وركبانا وتنضم إليهم فازداد عددهم حتى بلغ عدد الفرسان منهم ألفي فارس كما يقدرهم الجنرال دافو، وهجم الثوار على مؤخرة الجيش الفرنسي. فأمر الجنرال دافو بإطلاق النار عليهم ففتكت بهم فتكا ذريعاً وخسر الأهالي عدداً كبيراً من القتلى قدرهم الضابط راباس Rabasse (١) ١٥٠ قتيلاً من الفرسان وثمانمائة من المشاة (٢) وانسحبوا من ميدان القتال وانتقم الفرنسيون انتقاماً فظيماً من القرى التي أطلقت عليهم النار فقتلوا من أهلها خمسمائة رجل وأحرقوها (٣)

تابع الجنرال دافو سيره فوصل بفرسانه إلى أسيوط يوم ١١ يناير ووجد السفن الفرنسية راسية تجاه المدينة ولم تكن وصلت إلا صباح ذلك اليوم، ثم قفل راجعاً إلى جرجا

وصل الأسطول إلى جرجا يوم ١٨ يناير حاملاً الذخائر والأقوات لفرقة الجنرال ديزيه ومدداً من ١٥٠ جندياً فاعتزم ديزيه أن يسير بجنوده جنوباً ليشتبك مع مراد بك في معركة فاصلة

### معركة سمهود

٢٢ يناير سنة ١٧٩٩

زادت قوة مراد بك بانضمام الأهالي الثائرين إليه وقدم عرب جدة وينبع

(١) رئيس أركان حرب الجنرال دافو

(٢) قدر نابليون في رسالته إلى الديركتوار خسائر المصريين في معركة سموهاج وطهطا بألفين

من القتلى

(٣) رسالة دافو إلى نابليون في ١٢ يناير سنة ١٧٩٩

الذين أتوا من سواحل البحر الأحمر لنجدته . وانضم إليه كذلك عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى من البكوات الماليك ذوى النفوذ والعصبية كان مع مراد بك من المقاتلة ١٥٠٠ مملوك والباقون من الأهالى الذين انضموا إليه من جميع البلاد ، ويقدر نابليون عددهم فى مذكراته بسبعة آلاف من الفرسان المصريين وثلاثة آلاف من المشاة ، وألفين من عرب ينبع وجدة بقيادة الشريف حسن ؛ فحش مراد بك كان اذن مؤلفاً من نحو ١٢٠٠٠ مقاتل ، وهى قوة لا يستهان بها لو كان لها قيادة صالحة مدبرة

علم ديزيه أن هذه القوة مرابطة فى سمهود (١) الواقعة على ترعة بهجورة فانتقل إليها بجيشه وكان عدده نحو خمسة آلاف مزودين بالمدافع والبنادق الحديثة، وهناك التقى بجيش مراد بك فى صبيحة يوم ٢٢ يناير ونشبت معركة حامية الوطيس بين الفريقين استعد لها الجنرال ديزيه استعداداً عظيماً ليضمن لجيشه الفوز فيها ، فرتب المشاة وجعل منهم مربعين تحميها المدافع وتتألف منهما ميمنة الجيش وميسرته ، فكانت الميمنة بقيادة الجنرال فريان والميسرة بقيادة الجنرال بليار (٢) وفرقة الفرسان فى القلب على شكل مربع بقيادة الجنرال دافو ، فهجمت المربعات الثلاثة تحميها المدافع من زواياها

بهذا الترتيب قابل الجيش الفرنسى قوات مراد بك التى كانت أكثر عدداً ولكن ينقصها النظام والمدفعية ومقدرة القيادة ، فلا غرو أن انتهت الواقعة بهزيمة مراد بك وانسحابه بقول جيشه جنوباً قاصداً فرشوط ، وترى فى الرسم ص ٣٨١ صورة معركة سمهود كما رسمها المسيو فيفان دينون الذى شاهدها ، وتجد فى الصورة المربعات الثلاثة التى تتألف منها القوات الفرنسية تهاجم قرية سمهود حيث كان يرابط جيش مراد بك ، وهذه الصورة تمثل نظام جيش نابليون وطريقة هجومه فى معارك مصر

(١) بلدة بمركز فرشوط بمدربة قنا واقعة بقرب الجبل الغربى

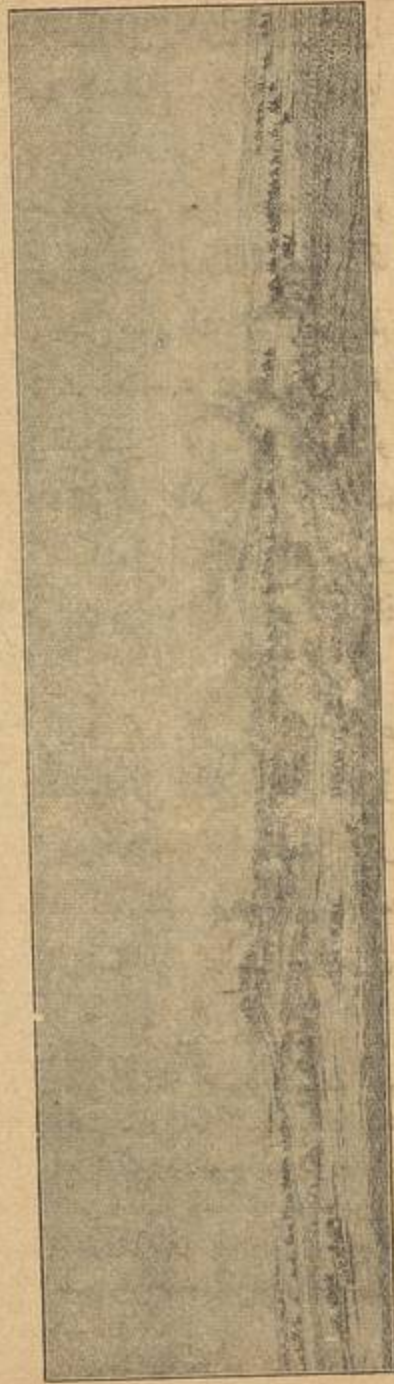
(٢) اختلفت روايه المراجع الفرنسية فى قائدى الميمنة والميسرة ، على أننا أعتدنا على التقرير الذى كتبه الجنرال ديزيه عن المعركة وبعث به إلى نابليون وفيه يقول إنه جعل على الميمنة الجنرال فريان وعلى الميسرة الجنرال بليار ، وكذلك يقول نابليون فى رسالته إلى الديركتوار عن واقعة سمهود

## الوصول إلى سوان

أول فبراير سنة ١٧٩٩

لاقتل واقعة سمهود شأنا عن معركة سدمنت ومعركة الأهرام في كونها  
أكسبت الجيش الفرنسي النصر في ميدان القتال وفتحت أمامه الطريق لاحتلال  
البلاد ، فاستطاع الجيش الفرنسي بعد هذه المعركة أن يستأنف زحفه جنوباً ،  
وأخذ يطارد جيش مراد بك حتى وصل إلى فرشوط ، وهناك اضطر إلى الوقوف  
قليلاً حتى يستريح الجنود الذين أجهدهم السير ، ثم غادر ( فرشوط ) متابعاً سيره  
حتى وصل إلى ( هو ) ثم ( الوقف ) ، وبلغ ( دندره ) في ٢٤ يناير ، ومر قريباً من  
أطالها ، وكان المسيو فيغان دينون ( الذي نقلنا عنه بعض رسومه ) يرافق الحملة  
فشاهد مع ليف من ضباط الجيش آثار دندره القديمة ، فبهرتهم عظمتها ، ووقفوا  
مبهوتين أمام جمالها وجلالها ، وفي ذلك يقول الكولونل لاتورنري Latournerie  
قومندان المدفعية في تلك الحملة بعد أن شاهد معبد دندره : « من يوم أن قدمت  
إلى مصر وأنا أعيش مريضاً حزيناً ، ولكن دندره قد شفنتني من سقامي ، والآن  
لا آسف على شيء . وأنا في مصر ، ومهما لقيت فيها منذ اليوم فإن هذه المشاهد  
ترد إلى الحياة والسرور ،

واصلت الفرقة سيرها مارة بالقرى الواقعة على البر الغربي للنيل ، فلم تلق بها  
مقاومة ، وعسكرت من ٢٥ إلى ٢٦ يناير في ( دنفيق ) ، ثم وصلت إلى ( طيبة )  
ذات الآثار الخالدة ، التي أشاد بذكراها هوميرو وهيرودوت ، وحدثت عن جلالها  
سترابون Strabon وديودور الصقلي ، وتعنى بعظمتها الشعراء والمؤرخون ، على  
تعاقب الأجيال والعصور ، فشاهد ديزيه وأركان حربه والمسيو فيغان دينون آثار  
الفرعنة ومقابر الملوك المائلة فيها دلائل عزهم وعظمتهم ، والنيل ينساب وسط تلك  
الآثار الناطقة بما كان لبلادنا في الزمن السالف من مدينة عظيمة ، ومجد أثيل  
غادر الجيش طيبة ، وأسرع يتعقب المماليك ، فوصل إلى ( أرمنت ) يوم



ممركة سمهود (٢٢ يناير سنة ١٧٩٩) كما رسمها الميبر فيفان دينون وكان من شهودها  
وترى في الصورة الكتاب الثلاث التي يتألف منها الجيش الفرنسي تهاجم القرية على شكل مربعات  
تحميها المدافع من زواياها ، فالباح الأيمن بقيادة الجنرال فريان والجنح الأيسر بقيادة الجنرال بليار  
وبينهما كتيبة الفرسان بقيادة الجنرال دافو ، وجنود مراد بك يحاولون الإحاطة بالمربعات فتصدم  
فريان المدافع الفرنسية

٢٦ يناير وغادرها في اليوم التالي محاذياً النيل ووصل يوم ٢٧ يناير إلى إسنا (١) ، وكان مراد بك غادرها قبل وصول الجيش الفرنسي فترك فيها ديزيه الجنرال فريان وكتيبة من الجنود لإخضاع البلاد وسار جنوباً حتى وصل إلى (ادفو) يوم ٢٩ يناير ثم وصل يوم أول فبراير (٢) نجاه أسوان ، فاجتاز الفرنسيون النيل ووصلوا إلى البر الشرقي حيث توجد أسوان فاحتلوها ، واستولوا فيها على مراكز المماليك وبذلك تم للجيش الفرنسي احتلال الصعيد بأكمله

لكن فلول جيش مراد بك أفلتت من تطويق الجيش وانسحبت إلى ماوراء الشلال ، وعسكرت طلائعه على مسيرة أربعة فراسخ من أسوان ، فكان وجودهم من بواعث قلق الفرنسيين على سلطانهم في الوجه القبلي ، فاعتزم الجنرال بليار مطاردتهم في بلاد النوبة وإقامة الحصون في أسوان

لم يطل ديزيه مكثه في أسوان أكثر من يومين ، ثم غادرها تاركاً بها الجنرال بليار ووصل إلى إسنا يوم ٩ فبراير وعزم على اتخاذها مؤقتاً معسكراً لجيشه ليرقب حالة الوجه القبلي

لم يكد الجنرال ديزيه يستقر في إسنا حتى عاد جماعة من المماليك بقيادة عثمان بك حسن واستقروا على شاطئ النيل الشرقي في منتصف المسافة بين أسوان وإسنا ، وكاد وجودهم يهدد مواصلات الجيش الفرنسي ، فأرسل الجنرال بليار كتيبة من جنوده لمطاردتهم ، فاستقرت هذه الكتيبة في دراو (٣) ، بالبر الشرقي للنيل شمالي أسوان ثم عادت إلى أسوان بعد أن ابتعد رجال عثمان بك عن شاطئ النيل

(١) كانت إسنا من أهم مدن الصعيد تقصد إليها القوافل القادمة من السودان ودارفور وسنار وتتخذها سوقاً لها ومحطة تنزل بها فاكنتبت بذلك مكانة كبيرة ، وكان بها أكبر سوق للجمال ، وكانت ( ولم تنزل ) مركزاً صناعياً لنسيج الصوف والظنن وصنع الملاءات وعصير الزيت وعمل الفخار ، وكانت بسبب بعدها عن العاصمة كاللجأ للمماليك المضروب عليهم من ولاية الأمور بالقاهرة وسكن بها وقتئذ حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن وصالح بك خصوم مراد بك القدماء ، وكان بأقصى المدينة حديقة جميلة لحسن بك الجداوى اتخذها الفرنسيون مقراً لاجتماعهم كما اتخذوا منزل حسن بك الجداوى مقراً لاقامتهم

(٢) اعتمدنا في بيان هذا التاريخ على تقرير الجنرال ديزيه عن حركات الجيش الفرنسي في الصعيد

(٣) من بلاد مركز أسوان



كانت مهمة الجنرال بليار في أسوان أن يمنع عودة المماليك من وراء الشلال ويضطرهم إلى البقاء في بلاد النوبة حيث يتسرب اليأس إلى نفوسهم في تلك البلاد النائية ، فظل بليار يرقب حركاتهم . وبقيت فلول المماليك في حالة ضنك شديد مشتتين بالقرب من النيل قريباً من الدرّ و ابريم (١) وعلى بعد نحو مائتي كيلومتر من جنوب أسوان

على أن طلائع المماليك أخذت تناوش المخافر الفرنسية على مقربة من أسوان فذهب بليار لمطاردتهم مع كتيبة من جنوده وتعقبهم حتى انسحبوا جنوب دهميت (٢) وأوغلوا ثانية في بلاد النوبة ، ورأى الجنرال بليار أن يحول دون رجوعهم بتخريب تلك المنطقة لكيلا يستطيع المماليك أن يقيموا بها ويتخذوها مركزاً لمناوشة الفرنسيين ، فاقتلع مزرعاتها ونهب ما فيها من المشايخية ، واعتزم أيضاً احتلال جزيرة (أنس الوجود) والجزر الواقعة في شلال أسوان ليأمن على سلامة الجيش الفرنسي

#### المقاومة في جزيرة فيله

في ٦ فبراير سنة ١٧٩٩ قصد بليار إلى جزيرة فيله (أنس الوجود) في كتيبة من مائتي جندي ، فرست عند الشلال وسارت على الشاطئ الأيمن للنيل ، ولما صارت تجاه جزيرة فيله ، أراد الفرنسيون أن يعبروا النيل إليها على مراكب الأهالي فلم يقبل أحد منهم أن يسلم في مركبه ، وعاد بليار أدراجه إلى أسوان ، وبعد بضعة أيام استأنف تحقيق عزمه فلقى مقاومة شديدة من النوبيين في جزيرة فيله (أنس الوجود) وجزيرة الحساح ، قال الجنرال بليار في يومياته يصف هذه المقاومة :

حمل الأهالي أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ، ورأينا النساء ينشدون أناشيد الحرب والهيجاء ويحشون التراب في وجوهنا ، أما الرجال فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر ، وكنت قد أحضرت معي مدفعاً لإخضاعهم .

(١) من بلاد مركز الدر الآن بمديرية أسوان

(٢) بمركز أسوان

فدعوتهم إلى الصلح والسلام ، فكان جوابهم أنهم لا يقبلون منا كلاماً وأنهم لا يفرون من أمامنا كما يفرون المماليك ، واستأنفوا إطلاق الرصاص ، فخرج ثلاثة من رجالنا ، ولم يكن لدينا مراكب نصل بها إلى الجزيرة ، وحاولنا أن نتخذ من جذوع النخل طوقاً ينقل الجنود ولكن المياه غمرته ، فاضطررنا أن نرجى احتلال الجزيرة وبقية الجنود ترابط يوم ١٩ فبراير على شاطئ النيل تجاه الجزيرة ، واستجلبت من أسوان بعض ألواح الخشب للعبور عليها

« وفي اليوم التالي وصلنا إلى الجزيرة ، فأطلق علينا الفلاحون الرصاص ولكن لم يصب أحداً من الجنود ثم فروا تاركين مواشيهم ومؤوتهم واحتلنا الجزيرة .

« وفي ٢١ فبراير احتلنا الجزر الأخرى المجاورة لجزيرة فيلة والتي اشترك أهلها في الثورة ، ثم عاد الجنود وبقية فصيلة منهم لتستولى على مؤونة الأهالي من التمر ، وكانت نتيجة هذين اليومين أن قتل من الأهالي ثلاثون رجلاً واستولينا على ٢٠٠ بندقية و ٢٠٠ طبنجة وسيف ، وشيء كثير من التمر واللحم والمؤونة ،

تم للفرنسيين احتلال الجزر الواقعة في شلال أسوان واطمانوا على حدود مصر ، وأخذ الجنرال بليار يحصن أسوان وعزم على إقامة قلعة فيها

تجدد القتال بين جرجا وأسوان

كانت خطة الفرنسيين الحربية اتخاذ أسوان موقعاً حصيناً لقطع الطريق على المماليك إذا هموا بالخروج من مكنهم في بلاد النوبة ومعاودة الهجوم على الجيش ، لكن المماليك أحبطوا هذه الخطة باحتيازم الصحراء هرباً ومواصلة السير شمالاً إلى أن صاروا حذاء جرجا وأسيوط ، واعتزموا الهجوم على الجيش الفرنسي هناك وتهديد المواصلات بين كتائب الجيش فيما بين أسيوط وأسوان . كما أن بعض فلوك المماليك بقيادة حسن بك الجداوى ومحمد بك الألفي بعد أن فروا أمام جيش ديزيه لم يواصلوا السير إلى ماوراء الشلال وانفصلوا في الطريق ضارين في الصحراء يترقبون الفرص ليعودوا إلى شاطئ النيل

علم الجنرال بليار بهذه الحركة فاعتزم أن يتعقب المالك في البر الغربي . فأخلى أسوان ليلة ٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩ وسار بجنوده بالبر الغربي للنيل يتعقب مراد بك . ولكنه لم يدركه لأن المالك كانوا أسرع منه في السير

وصل بليار إلى إسنا يوم ٢٨ فبراير . وهناك تلقى تعليمات ديزيه لمواجهة هذه الحركة الهجومية التي قام بها المالك ، وفيما كان ديزيه في إسنا علم أن جماعات من عرب الحجاز جاموا لنجدة المصريين وأنهم ينوون احتلال قنا لقطع مواصلات الجيش الفرنسي . وأن عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى ورجالهما تحركوا بالبر الشرقى قبالة ( ادفو ) . فعهد إلى الجنرال فريان احتلال قنا للامتناع بها ومنع اتصال العرب بالنيل . وجعله قومنداناً لمديرية جرجا . وأنفذ كذلك الجنرال دافو لمطاردة قوات حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن قبالة ادفو

### معركة الرديسية

١١ فبراير سنة ١٧٩٩

عبر الجنرال دافو النيل وسار بالبر الشرقى قاصداً مهاجمة جموع الأهالي والمالك الذين يقودهم حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن ، فالتقى بهم يوم ١١ فبراير بالرديسية (١) ، واصطدم الفريقان وكلاهما من الفرسان في معركة شديدة دامت ثلاث ساعات اشتبك فيها المقاتلون وجها لوجه ، فكانت هذه المعركة قريبة الشبه بمعركة الصالحية ، استعمل فيها السلاح الأبيض فحسر الفرنسيون خسارة جسيمة وبلغ عدد قتلاهم ٣٧ قتيلاً من بينهم الضابط فوتنت Fontette ، وبلغ عدد جرحاهم ٤٤ كما قدرهم الأجدودان جنرال دنزلو ، وكانت خسائر المالك والأهالي لا تقل عن خسارة الفرنسيين ، وكان من جرحاهم عثمان بك حسن . وانتهت المعركة بانسحاب المالك إلى الصحراء في طريق القصير . واستطاع حسن بك الجداوى أن ينقذ رجاله ومؤوته من الوقوع في قبضة الفرنسيين . فلم يكن الفوز لأحد الفريقين على

(١) بلدة واقعة بالبر الشرقى لنيل جنوبى ادفو الواقعة على البر الغربى

الآخر . وبقيت قوة المالك والأهالي سليمة تترقب الفرصة لمعاودة الكرة (١)

### معركة قنا

١٢ فبراير سنة ١٧٩٩

أما في جهة قنا فقد سار إليها الجنرال فريان قاصداً الامتناع بها لأن موقعها على جانب عظيم من الأهمية . وإليها يفضى الوادي المعروف بوادي القصير . وهي مر القوافل الذاهبة من القطر المصري إلى الحجاز أو التي ترد منه عن طريق القصير . وقد سبقه إليها طلائع جنود بقيادة الضابط كونرو Conroux وعددهم نحو خمسمائة مقاتل . ولم يكديعلم عرب الحجاز والأهالي باحتلال الفرنسيين لها حتى هجموا عليها قبيل منتصف ليلة ١٣ فبراير ، ولكن الفرنسيين ردوا هجومهم على المدينة وأوقعوا بهم خسارة جسيمة . وجرح الضابط كونرو في هذا القتال جرحاً بليغاً فتسحى عن قيادة الجنود للضابط دروسن Drosen . فثاله ما نال صاحبه وصل الجنرال فريان بعد انتهاء المعركة فأقام المخافر حول المدينة وعلى مداخل الطرق الموصلة إلى النيل لمنع الثوار من استئشاف هجومهم . واستطاع الشريف حسن الذي كان يقود عرب الحجاز أن يلم شعثه وانضم إليه الأهالي المسلحون من سكان البر الشرقي للنيل فربطوا بالقرب من ( أبو مناع ) (٢)

### معركة (أبو مناع)

١٧ فبراير سنة ١٧٩٩

ولم تكنهم هزيمة ١٢ - ١٣ فبراير عن عزمهم على مواصلة القتال . فسار إليهم الجنرال فريان بجنوده . فأدركهم في قرية ( أبو مناع ) . وهناك دارت معركة أخرى

---

(١) يقول زينو إن هذه المعركة وقعت بالقرب من الأقصر يوم ١٢ فبراير ويسمونها معركة الأقصر ، ويسمونها ديزيه معركة طيبة ، ويقول أيضاً إنها وقعت يوم ١٢ فبراير وكذلك النسيو (شواني) في خريطة مهندسي الحملة الفرنسية ، على أنه يرجعوننا إلى بيانات الجنرال دافو الذي قاد المعركة وبيانات الكولونيل لاسال Lassale الذي اشترك فيها تبين لنا جلياً أن المعركة وقعت بالردسية يوم ١١ فبراير (٢) شمال دشنا بغرب بالقرب من الجبل الشرقي تبعد عن النيل مسيرة ساعة ونصف

تغلبت فيها المدفعية على البنادق والأسلحة القديمة التي كان يستعملها الأهالي  
وعرب الحجاز ، فقتل عدد كبير منهم واستولى الفرنسيون على ( أبو مناع )  
وأضرموا النار فيها وفي القرى المجاورة لها ونهبوها  
وقصد الجنرال فريان بعد هذه المعركة إلى جرجا تنفيذاً لتعليمات الجنرال  
ديزيه فوصلها يوم ٢١ فبراير سنة ١٧٩٩

### معركة إسنا

٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩

وفي غضون ذلك أخذ مراد بك يتأهب للحملة على مواقع الفرنسيين على  
النيل ، ففي ٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩ أقبل ومعه قوة من سبعمائة من الفرسان وعدد  
حاشد من النوبيين قاصدين مهاجمة الحامية الفرنسية في إسنا ، فاشتبك الفريقان في  
معركة دامت ساعة من الزمن وانتهت بتقهقر مراد بك ورجاله إلى ( أرمنت )

## الفصل السابع عشر

### استمرار المقاومة

#### في الوجه القبلي

لم يتم للفرنسيين إخضاع الوجه القبلي على الرغم من انتصاراتهم العسكرية واحتلالهم معظم بلدانه . بل ظل مركزهم مضطرباً ونفوذهم مزعزعا . وتخرج موقفهم من الواجهة الحربية لأنهم بعد أن احتلوا مدن الصعيد أصبح جيشهم مبعثراً على طول النيل ولم يكن سلطانهم يتعدى المدن التي لهم بها حاميات . ولم يكن من السهل على الجيش الفرنسي إخضاع بلاد متباعدة تفصلها المسافات المترامية كبلاد الوجه القبلي

كانت روح المقاومة تسود سكان القرى والمدن . فلم يكن الأهالي يدعون فرصة تمر دون أن يشوروا في وجه السلطة الفرنسية . وكانوا من هذه الواجهة متصلين بالبقية الباقية من جيش المالك تعاونهم طوائف العرب القادمين من القصير ، فاجتمعت هذه القوى الثلاث واتحدت على مهاجمة الحاميات الفرنسية في المدن وقطع مواصلات الجيش الفرنسي في النيل بمهاجمة السفن التي تحمل الجنود والذخائر والأقوات . ولذلك تخرج مركز الجيش الفرنسي وتعددت المناوشات والمعارك والمفاجآت . وبكل ذلك لم يستقر له قرار في تلك الجهات

كان الجنرال ديزيه مقبلاً في إسنا التي اتخذها معسكره العام من اليوم التاسع من شهر فبراير سنة ١٧٩٩ (١) وظل بها يرقب الحال ويتتبع حركات الاضطرابات في الصعيد ، ثم غادرها قاصداً إلى (قوص) ، وقد شعر بخرج الموقف وأفضى إلى نابليون قبل ارتحاله إلى سوريا بالمصاعب التي تسكتنفه وطلب منه المدد ليتمكن من إخضاع الوجه القبلي ، قال في رسالة له كتبها في قوص يصف فيها دقة موقفه :

(١) أنظر ص ٣٢١ الفصل السابق

« إننا نسير بلا انقطاع ، وقد ساءت حالة الجنود في ملابسهم وأحذيتهم ، ولم نستطع للآن أن نجتمع إلا النزر اليسير من أموال الميرى على الرغم من الجهود التي بذلناها ، وان دعاة الثورة مثابرون على نشر دعايتهم . وان علينا أن نحارب ثلاث قوات مجتمعة وهم العرب القادمون من القصير ، والماليك ، والأهالي ، فليس من السهل إخضاع هذه البلاد ، ومن الضروري لنجاح الحملة على الوجه القبلي أن ترسلوا لنا أولا ذخيرة كبيرة من الرصاص وكثيراً من الأحذية ، وأرجو أن تنفذوا إلى أسبوط القوات التي في الفيوم وبنى سويف (١) مع إيجساد حامية مستديمة في المنيا وبذلك يتم لنا احتلال أهم المواقع على النيل فلا يستطيع أعداؤنا أن يصلوا إلها ، ويضطرون إلى الشرود في الصحراء حيث لا يستطيعون العيش ، إننا هنا كأننا في أقصى الدنيا ، وإن حالتنا محزنة ، والملاحاة في النيل تكثفتها الأخطار ، وهاءنذا في قوص أنتظر مراكب قامت من إسنا منذ ستة أيام ، ولم تستطع الوصول إلى هنا ، ولو كان لدينا من السفن الحربية والذخائر أكثر مما عندنا لتحسنت حالتنا ،

هذا ما كتبه ديزيه إلى نابليون ، ومن قبل كتب إليه غير مرة يطلب المدد . ولكن نابليون كان مشغولاً بالحملة على سوريا فأخذ معه ما استطاع أخذه من القوات والذخائر ولم يرسل لديزيه إلا النزر اليسير منها ، فاعترض ديزيه أن يكتبني بقواته لاستمرار الحملة على الوجه القبلي ومواجهة الاضطرابات فيها . ولم يجد ما يسد به النقص الذي وقع في صفوفه من المعارك والأمراض

### موقف الماليك

بقي الجنرال ديزيه عدة أيام في قوص يرسم الخطط التي تقتضيها ضرورات الموقف العسكري ، وترك لسكل من الجنرال بليار والجنرال فريان حرية العمل

(١) أرسل ديزيه إلى الجنرال برتنيه في ٢٤ فبراير سنة ١٧٩٩ من قوص بنصح بإرسال حاميات جديدة إلى الفيوم وبنى سويف لتحل محل الجنود التي ترسل إلى أسبوط حتى لا تخلو هذه المواقع من جنود فيجتها الماليك وحلفاؤه ( الأهالي )

كل في جهته لمواجهة الهجمات التي استهدفت لها جهة القتال الطويلة ، ثم اعتزم أن يواصل سيره شمالاً قاصداً إلى جهات جرجا وأسيوط ليقمع الثورات التي ظهرت فيها ، وكان يعتقد أنه سيواجه قوات كبيرة من مماليك مراد بك ومحمد بك الألفي ، على أن المماليك كعادتهم لم يستهدفوا لمواجهة الجيش الفرنسي ، وتركوا عبء القتال على عاتق الأهالي ، فقد بق مراد بك في الواحة بعيداً عن ضربات ديزيه وجنوده وانسحب محمد بك الألفي إلى انخيم ولحق به عثمان بك حسن ، وأخذ المماليك من أتباعهم يبحثون عن ملجأ لهم في القرى والمدن وباع كثير منهم سلاحهم للأهالي ، وعرض بعضهم نفسه على الفرنسيين ليضموهم إليهم ، وقد ذكر ريبو (١) حوادث معينة لهذا التحول ، منها أن أحد مماليك عثمان بك حسن طلب من ضباط الجيش الفرنسي أن يأخذوه إليهم ، وحثته أنه قبل أن يكون مملوكاً كان مجرباً ( من سكان الحجر ) ومن فرسان الجيش النمساوي فأسره الأتراك في بعض حروبهم مع النمسا وصار بعد ذلك مملوكاً ، فقبل الفرنسيون خدمته وانضم إلى صفوفهم ، ودخل آخرون في الجيش الفرنسي زاعمين أنهم كانوا جنوداً في الجيش النمساوي وأسروهم الأتراك وأرسلوا إلى الأستانة ثم نقلوا إلى مصر وصاروا في عداد المماليك ، ويقول ريبو ، إن الفرنسيين قد قبلوهم في صفوفهم وصاروا من رجالهم الأمناء الشجعان !! ويدخل في هذا السياق أن نابليون جند في صفوف الجيش الفرنسي جميع المماليك الفتيان الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والسادسة عشرة ، وألحقهم بالجيش ليتدربوا على القتال في صفوفه

فقاومة المماليك قد تلاشت إذن أمام الجيش الفرنسي ، وتنفس الفرنسيون الصعداء للقضاء على خصم كان يخاق لهم المتاعب ، على أن مقاومة الأهالي كانت أشد وأنكى وأعظم أثراً في إضعاف مركز الفرنسيين في الوجه القبلي تحرك ديزيه من قوص يوم ٢ مارس سنة ١٧٩٩ وانتقل إلى الشاطيء الأيسر للنيل قاصداً أسيوط وضم إلى جيشه في الطريق الوحدات التي كانت موزعة على

(١) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الخامس



طول النهر وترك وراءه أسطول السفن الفرنسية بقيادة القومندان موراندى Morandi تتبعه عن بعد ، وتسير مبطئة لاختلاف الريح  
ناط الجنرال ديزيه قبل سيره من قوص بالجنرال بليار مهمة إخضاع مصر العليا من قنا إلى أسوان ، وطلب منه إبقاء خمسمائة جندي في إسنا واتخاذها مركزاً عسكرياً حصيناً لمراقبة البلاد شمالاً وجنوباً ، وتوزيع الوحدات المتحركة على البلاد الواقعة على النيل ، وكلفه التقدم إلى قنا وجعلها مركزاً حصيناً لمراقبة طريق القصير وطريق النيل

### معركة الصوامعة

٥ مارس سنة ١٧٩٩

علم ديزيه في طريقه إلى أسيوط أن الأهالي ثاروا بقيادة مشايخ البلاد بالقرب من طهطا. فعد إلى الجنرال فريان مهاجمة الثائرين، فالتقى بهم في الصوامعة (١) يوم ٥ مارس ، وألغى نار الثورة مشتعلة بها ووجد نحو ثلاثة آلاف من الفلاحين يحتلونها ، فهجم على المدينة بجنوده واحتلها ، ودفع الثوار إلى النيل فقتل منهم عدد كبير قدره الجنرال ديزيه بألف قتيل وغريق  
وصل ديزيه إلى أسيوط يوم ٨ مارس بعد أن وزع قواته على طول النيل في إسنا وقنا وفرشوط وجرجا وطهطا وأسيوط ، فاتخذ من هذه المدن مراكز للحاميات الفرنسية ، ورتب وحدات متحركة تجوب البلاد الواقعة بينها لإخضاعها ووقع حركات الثورة التي تبدو فيها

### كارثة السفن الفرنسية في النيل

٣ مارس سنة ١٧٩٩

سبق الجنرال ديزيه عند سفره من قوص أسطوله الذي كان يسير ببطء في النيل ليلحق بالجيش في أسيوط ، وبعدت الشقة بينهما ، فاتهم الأهالي هذه الفرصة

(١) الصوامعة جنوبي طهطا وهي واردة بهذا الاسم في تقرير الجنرال ديزيه عن معارك الوجه القبلي

لمهاجمة الأسطول وكان عدده نحو ١٢ سفينة حربية تقل ذخائر الجيش ومؤوته ،  
تتقدمها السفينة الحربية « إيتاليا » ،

هاجم الأهالي هذه السفن يوم ٣ مارس سنة ١٧٩٩ على مقربة من قرية  
« بارود (١) » ، وأطلقوا عليها الرصاص فأجابت السفينة الحربية « إيتاليا » على  
هجمات الأهالي بإطلاق المدافع فقتلت منهم عدداً كثيراً ، لكن الأهالي ومعهم  
العرب القادمون من القصير تجمعوا وازداد عددهم ونزلوا النيل سباحة وهجموا  
على السفن فاستولوا عليها عنوة وأفرغوا شحنها من الذخائر على شاطئ النيل ،  
ثم ركبوها وقصدوا إلى السفينة الحربية « إيتاليا » للاستيلاء عليها ، وكان يقودها  
القومندان موراندى Morandi ، فضاغف إطلاق الرصاص على المهاجمين ، ولكنه  
رأى رجال مدفعيته قد أنقنهم الجراح على ظهر السفينة ورأى من جهة أخرى  
جموع الأهالي من الشاطئ الأيسر يتحفزون للهجوم عليه ، ففكر فى الانسحاب  
ولكن الريح عاكسته فخنقت سفينته ، وإذ ذلك هرع إليها الأهالي والعرب من  
كل صوب وحدث وصعدوا على ظهرها ، فتحقق موراندى الخطر المحقق به ،  
ولكنه أبى التسليم ، فأشعل النار فى مستودع البارود وألقى هو ورجاله بأنفسهم  
فى اليم فاصدين النجاة ، وانفجر مستودع البارود فنسف السفينة نسفاً وتفجرت  
شظايا القنابل على الشاطئ فقتلت عدداً كبيراً من الأهالي ولكن الباقين منهم  
قاتلوا موراندى ورجاله فى اليم فمات مشخناً بجراحه ، وقتل جميع الفرنسيين الذين  
كانوا على ظهر السفينة « إيتاليا » ، وعلى ظهر السفن الأخرى ، وكانت خسارة  
الفرنسيين جسيمة فبلغ عدد قتلاهم من البحارة والجنود خمسمائة قتيل ، وهى  
أكبر خسارة منى بها الجيش الفرنسى فى الحملة على الوجه القبلى

كانت السفينة « إيتاليا » قبل أن تستخدم فى الحملة على الوجه القبلى سفينة  
نابليون الخاصة التى كان يركبها فى النيل بالقاهرة ، وقد وصلت إليه أنباء هذه  
الكارثة وهو فى حملته على سوريا أثناء حصاره لعكا ، فزن حزناً شديداً على

(١) على الشاطئ الشرقى للنيل جنوبى قنا بالقرب من قوس وتسمى ( نجم البارود )

ما أصاب الفرنسيين فيها ، وبما يؤثر عنه أنه تشام من فقد السفينة ، إيتاليا ، وتوقع أن تكون الكارثة نذيراً بتقلص ظل فرنسا عن البلاد الإيطالية لنشابه الاسم ، فقال لمن حوله متأثراً : « إن فرنسا قد فقدت إيتاليا ، إن شعورى لا يكذبني ،

### من أسوان إلى قوص

كانت مهمة الجنرال بليار في القطاع الذي كلف حمايته شاقه محفوفة بالمكاره ، فقد أخلى أسوان يوم ٢٤ فبراير سنة ١٧٩٩ لإخضاع الحركات العدائية التي ظهرت على شاطئ النيل شمالاً ، فوصل إلى إسنا يوم ٢٨ فبراير ، وبعد أن تلقت تعليمات ديزيه سافر من إسنا يوم ٢ مارس بعد أن ترك بها قوة من أربعائة جندي بقيادة الضابط فاليت Valette وكلفه تحصين منزل حسن بك الجداوى ليكون معقلاً للحامية الفرنسية

وكان يرافق بليار في مسيره بعض السفن تحمل الأقوات والذخائر والجنود والجرحى والمرضى فوصل مساء ٢ مارس إلى ( الرزيقات ) (١) وعسكر تلك الليلة هناك ، وفي اليوم التالي وصل إلى ( أرمنت ) وعسكر بها إلى اليوم السادس . وفي هذا اليوم سار قاصداً إلى قنا ليدفع مناوشات الأهالي على طول النيل . وقد وصلته الأنباء بأنهم يتجمعون على مقربة من بارود . ولما وصل إلى قرية « قولاً » (٢) عبر النيل بجنوده وأخذ طريقه بالبر الشرقي ووصل إلى ( قوص ) يوم ٨ مارس . وهناك تحقق من الكارثة التي حلت بأسطول السفن الفرنسية ببارود وعلم أن الأهالي وعرب الحجاز ( والمماليك ) يستعدون لملاقاته بعد أن تزودوا من الذخائر والمدافع التي استولوا عليها في معركة بارود النيلية

### معركة قفط

٨ مارس سنة ١٧٩٩

سار بليار قاصداً موقع الأهالي والعرب على مقربة من قفط وهناك التقى

(٢) شمالي الأقصر

(١) جنوبي أرمنت بغرب

بمجموعهم الذين كانوا يرابطون في السهل وعددهم نحو ثلاثة آلاف من الأهالي وعرب الحجاز و٣٥٠ إلى ٤٠٠ من المماليك ، والتقى الجمعان في سهل قفط يوم ٨ مارس سنة ١٧٩٩ فكانت معركة حامية الوطيس اشتبك فيها المقاتلون وجهاً لوجه وانتهت بهزيمة الأهالي والعرب وانسحابهم إلى أبنود

### معركة أبنود

٨ - ٩ - ١٠ مارس سنة ١٧٩٩

واصل الأهالي والعرب انسحابهم وهم يدافعون دفاعاً شديداً عن كل قرية وكل مكان ارتدوا إليه ، فلما وصلوا إلى أبنود تحصنوا فيها ونصبوا بها المدافع الفرنسية التي غنموها في واقعة بارود النيلية ، وأخذوا يطلقون النار منها ففتكت بالفرنسيين فتكا شديداً ، وكانت هذه أول مرة واجه فيها الفرنسيون مدفعية حديثة في صفوف المصريين ، وقد أدرك الجنرال بليار لفروره أن موقفه أصبح محفوفاً بالخطر وأن منشأ الخطر وجود المدافع الفرنسية في يد المصريين ، فوجه قوة جيشه كلها للاستيلاء على هذه المدافع ونجح في خطته فاسترجع الفرنسيون مدافعهم وجردوا المصريين من أقوى سلاح كان في أيديهم

واشتد القتال بين الفريقين وانسحب الأهالي والعرب إلى منازل القرية فتجدد القتال في طرقاتها وبيوتها ولم يتمكن الفرنسيون من التغلب عليهم إلا بعد أن أضرموا النار في منازل القرية كلها ، فأصبحت البلدة شعلة من الجحيم ، وتصاعد اللهب إلى عنان السماء واستحالت القرية إلى أكوام من الخرائب ، وبالرغم مما حل بها من الحريق والدمار فقد امتنع الأهالي والعرب في قصر حصين كان فيما مضى مقراً لكشاف المماليك . وفي مسجد يجاوره ، جمعوا فيه الذخيرة التي غنموها من الفرنسيين ، فاشتد القتال حول هذا المنزل والمسجد المجاور له وتبادل الفريقان إطلاق النار إلى أن جن الليل ، وتكبد الفرنسيون خسائر جسيمة فكفوا عن الضرب بعد أن أحرقوا المسجد وأخذوا يحاصرون المنزل طول الليل ويستعدون لاستئناف القتال في اليوم التالي ، ونصبوا المدافع بحيث تشرف عليه ، أما المماليك



معركة أبود ٨ - ٩ - ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ - ( قلاع عن مجموعة رسوم الميوسو فيغان دينون )  
والصورة توضح إصرام الفرنسيين النار في أبود أثناء المعركة ، وترى النار مشتتة في القصر الحصين  
التي كان الثوار يمتنعين فيه ، وفي المسجد المجاور له ، بعد أن أحرق الفرنسيون بيوت القرية

فقد لبثوا يشاهدون هذه المجزرة بعيداً لم يأتوا شيئاً ولم يعملوا عملاً ما ، وعسكروا في الصحراء ، ذلك كان شأنهم في كل المعارك التي اشتد فيها القتال فكانوا يرضون بأرواحهم ويعرضون الأهالي فداءً وضحية

استؤنف القتال في اليوم التالي ( يوم ٩ مارس ) ، فأعاد الفرنسيون ضرب القصر بالمدافع ، وهنا أقبل مدد من الأهالي والمماليك لرفع الحصار عن هذا القصر ، فردم الفرنسيون على أعقابهم وشددوا الحصار والضرب إلى أن تمكنوا من دخول إحدى ساحاته فأضرموا النار في بنائه ليكرهوا من فيه على التسليم ، فاشتعلت النار في غرف القصر وأوشك لهيها ودخانها أن يخنق المحصورين فنزلوا إلى ساحته واستمروا يقاتلون الفرنسيين بشجاعة اعترف بها بليار في رسالته إلى الجنرال ديزبه إلى أن جن الليل ، وكان قد قتل كثير منهم ، وتمكن بعضهم أن ينسأوا تحت الظلام فأفلتوا من الحصار ونجوا بأنفسهم من النار المشتعلة

وفي صباح اليوم الثالث للمعركة ( يوم ١٠ مارس ) اقتحم الفرنسيون القصر فوجدوا الباقين به نحو ثلاثين قد أقعدهم الإعياء ونالتهم الجراح ، ومع ما كانوا فيه من الهلاك فإنهم استمروا على المقاومة إلى أن قتل الفرنسيون معظمهم وبعد انتهاء المعركة تظاهر نماليك عثمان بك حسن بالرغبة في القتال كذبا ودعوى ، وكانوا أثناء القتال جامدين ، فسار إليهم الجنرال بليار قاصداً مهاجمتهم ، وما أسرع ما فروا في الصحراء فتركهم وعاد إلى أبود

وجد الفرنسيون في القصر جانباً من الذخائر التي فقدوها في معركة بارود النيلية ، وكان الأهالي والعرب قد استنفدوا جزءاً منها ، وكذلك استرد الفرنسيون المدافع التي كان الأهالي قد انتزعوها من السفن الفرنسية واستولوا على ست رايات منها اثنتان للحجازيين

وقدر بليار خسائر الأهالي وحلفائهم الحجازيين بخمسمائة أو ستمائة قتيل وثمانية إلى عشرة من المماليك وكثير من الجرحى ، وقدر خسائر الفرنسيين بنحو ٣٥ قتيلاً و ١٣٤ جريحاً ، وكانت هذه المعركة من أشد معارك الحملة الفرنسية هولاً وأطولها مدة ، فلقد كانت سلسلة معارك دموية دامت ٧٢ ساعة ، وكان

حريق أبنود وما أصابها من الدمار أفضع مأساة وقعت في معارك الحملة الفرنسية  
وتجد صورة حريق أبنود ص ٣٩٥ كما رسمه المسيو دينون الذي شاهد المعركة  
حالة الشعب النفسية

بالرغم من انتصار الفرنسيين في معركة أبنود فقد أنهكهم القتال ونالتهم  
الخسائر الجسيمة ونفدت ذخائرهم ، وأصبح من المتعذر على الجنرال بليار متابعة  
القتال لفداحة الخسائر ، وبما زاد موقفه حرجاً الروح العدائية التي سادت الأهالي  
في تلك الجهات بحيث كان الفرنسيون يشعرون أنهم محاطون بالأعداء من كل  
جانب وأن لا سبيل إلى استبقاء سلطتهم إلا بقوة السيف والنار ، وقد شعر قواد  
الجيش بتلك الحالة النفسية وأفضوا بها إلى القيادة العليا في رسائلهم وتقاريرهم ،  
ودونوها في مذكراتهم

قال الجنرال بليار في يومياته : « إن كل القرى التي نجتازها نجدتها خالية من  
السكان لأنهم يخلون قراهم قبل أن نصل إليها ،  
وفي رسالة إلى الجنرال ديزيه عن معركة أبنود : « إننا نعيش هنا عيشة ضنكا  
فإن جميع القرى تقفر من السكان كلها اقتربنا منها ولا نجد فيها شيئاً من القوات  
ولا نرى فلاحاً واحداً يدلنا أو يأتينا بالأخبار أو يحمل رسائلنا ، ولا أدري  
السبب في هذه الحالة ، على أننا مع ذلك لانعمل عملاً ضاراً في البلاد التي نجتازها ،  
وقال ديزيه في رسالة إلى نابليون (١) :

« ليس لدى معلومات ولا أخبار عن الجنرال بليار ولكنهم يؤكدون لي أنه  
حارب الأهالي والماليك وعرب مكة وهزمهم واسترد الذخائر والسفن التي اضطرت  
جنودنا إلى التخلي عنها ، إن البلاد في ثورة ، وليس من السهل أن نتبادل الرسائل  
بسرعة ، وإنني أطلب الذخائر من القاهرة ، فقد نفدت ذخائرنا ، وسأزحف على  
شاطئ النيل الأيمن لاكتساحه وطرده الماليك وحلفائهم ، على أني لا أكتفيكم  
الحقيقة وهي أننا مع ذلك لانكون سادة البلاد لأننا إذا أخلينا بلدة لحظة واحدة  
من الجنود عادت إلى حالتها القديمة ،

(١) رسالة ديزيه إلى نابليون من أسيوط في ١٧ مارس سنة ١٧٩٩

وكتب الأجدودان جنرال دنزلو إلى الجنرال برتويه من أسيوط في ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ رسالة يستعجل بها المدد قال فيها :

« إذا لم تفضلوا بإرسال الأدوية إلينا فإن مرضانا الذين يزداد عددهم كل يوم ميموتون من البؤس والعذاب ، ويحق لي أن أتساءل هل نحن في منفي صحيح بالصعيد فلا يذكرنا أحد ؟ إنى أكرر لكم أننا في بلاد أصعب مراساً من مديرية المنصورة، وإذا سرنا إلى جهة من الجهات ظهرت الثورات في الأماكن التي يخلفها الجنود ، فعلينا أن نكون دائماً على أهبة الزحف والتدمير ، فتمى تنتهى هذه الحالة ؟ »

ورجع بليار بعد معركة أبنود قاصداً إلى قنا فوصلها يوم ١٢ مارس سنة ١٧٩٩ وأخذ في تحصينها ، واختار منزلاً كبيراً لأحد المماليك فاتخذه حصناً يشرف على المدينة وعلى النيل وجعله معسكراً للجنود وأخذ يبعث بالرسائل إلى الجنرال ديزيه لينبئه بموقفه ، ولكن رسله جميعاً قتلهم الأهلالي في الطريق ولم ينج منهم إلا واحد بلغ أسيوط برسالته

### رجوع ديزيه إلى قنا

أما الجنرال ديزيه فكان في أسيوط يرقب الحالة وينتظر رسائل بليار التي أبطأت عليه كثيراً ، إلى أن وصلتته يوم ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ رسالة منه ينبئه فيها بكارثة السفن الفرنسية في بارود ثم انتصار الفرنسيين في معركة أبنود ، ولم يخفف هذا الانتصار شيئاً من عظم الكارثة التملية ، فإنها فضلاً عما لحق الفرنسيين فيها من خسارة الأرواح والأرواح قد أفقدتهم أعظم مستودع للذخيرة التي كانت تحملها السفن ، فأرسل ديزيه يستعجل المدد والذخيرة من القاهرة ، واعزم أن يسير جنوباً إلى قنا ليشد أزر الجنرال بليار ويقمع حركات الثورة التي ظهرت في البلاد وبخاصة الواقعة على الجانب الأيمن للنيل

ترك ديزيه حامية في أسيوط وغادرها يوم ١٨ مارس بجنوده ، وجعل طريقه على البر الشرقي ، وحمل مؤونته وذخيرته في النيل وسارت الجنود على الشاطئ



فوصل قبالة طهطا يوم ٢٠ مارس ، ثم إلى أخميم يوم ٢١ ، ثم قبالة جرجا يوم ٢٣ مارس ، وبقي عدة أيام في بلاد أحد المشايخ الذين اشتهروا بمقاومة الفرنسيين وهو الشيخ ( عبد المنعم ) للتسكيل به ، فأمر بقطع نخيله وإضرار النار في القرى التابعة له

ووصل يوم ٢٧ مارس إلى قنا فالتقى بالجنرال بليار ، وأخذوا يعدان العدة لاستئناف القتال وإخضاع البلاد

معركة ( بئر عنبر )

٢ ابريل سنة ١٧٩٩

وصل ديزيه إلى قنا فشدد وصوله عزائم الجنود وأخذ يتأهب لسحق المقاومة التي كانت تغلق الفرنسيين

إن انتصارات الفرنسيين لم تكسر شوكة البلاد ولم تضع حداً للمقاومة الأهلية فإن الأهالي وحلفاءهم من العرب والماليك كانوا يجمعون فلولهم بعد المعارك التي هزمهم فيها الجيش الفرنسي ، ثم يعودون لإثارة المقاومة واستئناف الهجوم ، وكل معركة تترك لهم ناراً على الفرنسيين ، وذلك لا تنقضى معركة إلا ولدت معركة جديدة

كتب الجنرال ديزيه يصف هذا التطور : « إن طبيعة الحرب في الوجه القبلي قد تغيرت ، لقد هزمنا الأعداء ( الأهالي وحلفاءهم ) في كل مكان ، ولكننا لم نسحقهم ، ومن الواجب أن نصل إلى هذا الغرض ، وللوصول إليه سأنظم وحدات متحركة لإكراه الأعداء على أن يظلوا منقطعين في الصحراء المقفرة أو على الأقل نضطرهم لقطع مسافات شاسعة ليصلوا إلى المناطق المزروعة ،

شرع ديزيه بوجه قواته لسحق رجال حسن بك الجداوى الذين انسحبوا بعد معركة أبنود إلى جهة ( الجطة ) في طريق القصير ، فجمع في هذه الحملة كتيبة من ١٥٠٠ من خيرة جنوده واتجه جنوباً محاذياً البر الشرقي للنيل ضارباً في الصحراء ، فوصلت الفرقة إلى ( كفر اسما ) وهي قرية صغيرة في سفح الجبل ، ثم وصلت

إلى (المقربية) (١) وعسكرت تجاهها ، وكان ديزيه يرمى إلى قطع الطريق على رجال حسن بك الجداوى حتى لا يصلوا إلى النيل بأحد الطريقين الموصولين إليه من (الجطة) ، وهما طريق بئر عنبر وطريق (حجازه) (٢) الواقعة جنوبى قوص بقرب الجبل الشرقى ، فاحتل بئر عنبر وعهد إلى بليار باحتلال حجازه فاحتلها ، وبذلك تم للفرنسيين احتلال رأسى الطريقين الموصولين إلى النيل ، وأخذ الجنرال بليار وهو فى حجازه يستطلع حركات المماليك وحلفائهم الذين كانوا فى (الجطة) يتحفظون للتقدم يريدون النيل ، فلما علم ديزيه بمقصدهم سار بجنوده فى صباح يوم ٢ أبريل لمنازلتهم

فلما كان على مسير ساعة من (بئر عنبر) التقت طلائع جيشه من الفرسان بقوة المماليك والأهالى يقودهم حسن بك الجداوى ويعاونه عثمان بك حسن وكان عددهم نحو خمسمائة من المماليك وألف من الأهالى كما يقدرهم الجنرال ديفيرنوا (٣) Desvernois فى مذكراته

فدارت معركة شديدة بين الفريقين بالقرب من (بئر عنبر) تلتق فيها كتيبة الفرسان صدمة الهجوم وتأخر المشاة عن المعركة لوعورة الطريق وصعوبة السير فى الرمال ، وكان يتولى قيادة الجيش الفرنسى الجنرال ديزيه يعاونه الجنرال دافو ، وقتل فى المعركة عدد من الضباط الفرنسيين ، منهم الكولونل دوبليسى Duplessis والضابط بوفانديه Bouvatier وبلغت خسائر الفرنسيين ٤٤ قتيلًا و ٢٠ جريحًا وهى خسارة كبيرة تدل على اشتداد القتال فى تلك المعركة

ويقول الجنرال ديفيرنوا فى مذكراته إن ديزيه قد استهدف للخطر وكاد يقضى عليه لو لا أن افتداه الكولونل دوبليسى بحياته . وانتهت المعركة بانسحاب المماليك وحلفائهم إلى (الجطة) فى طريق القصير بقيادة حسن بك الجداوى لكن حسن بك لم يبق بالجطة طويلا وارتد جنوباً قاصداً إلى أسوان

(١) جنوبى قفط

(٢) وهناك طريق ثالث يصل من الجطة إلى الرديسة ولسكنه طريق بعيد الشقة وعر المسالك

قليل الآبار

(٣) من ضباط جيش ديزيه



مقتل السكولونال دوبلسى فى معركة بئر عنبر - ٢ ابريل سنة ١٧٩٩ - ( نقلا عن مجموعة رسوم  
السوي فنان دينون ) ، وترى فى الصورة السكولونال دوبلسى يهجم على عثمان بك حسن وكلاهما  
راكبا جواده فمواجهه أحد فرسان عثمان بك بطعنة رمح أودت بحياته

وترى في الرسم ( ص ٤٠١ ) صورة معركة ( بئر عنبر ) ومقتل الكولونيل  
دوبلسي كما رسمها المسيو فيفان دينون ، وكان من شهودها  
أما الجنرال بليار فقد كان مرابطاً في ( حجازه ) ليقطع طريق الانسحاب على  
المماليك وحلفائهم ، ولكن هؤلاء مضوا في طريق الرديسية يقصدون إلى النيل .  
فتبعهم بليار بجنوده ووصل إلى الرديسية يوم ٨ ابريل . غير أنه لم يدرکہم وكانوا  
غادروها قبل قدومه قاصدين إلى أسوان ، وهذه هي المرة الثانية التي انسحب فيها  
المماليك إلى أسوان، وخشى بليار أن يغامر بمن معه من الجنود في متابعتهم في الصحراء  
فعدل عن اللحاق بهم ، واستدعا الجنرال ديزيه ليرابط في قنا التي كانت موقعاً  
عسكرياً على جانب عظيم من الأهمية

#### تجدد الثورة بين قنا وجرجا

عاد بليار إلى قنا بعد أن ترك حاميات من الجنود في قوص وإسنا . وقبل أن  
يصل إلى قنا غادرها الجنرال دافو إلى جهات جرجا وأسيوط ليقمع الحركات  
الثورية التي تجددت فيها ، ذلك أن الجنرال ديزيه قد وصلته الأنباء أن الأهالي  
والمماليك قد اتهموا فرصة خلو البلاد من القوات الكافية فاستأنفوا حركاتهم  
الثورية في مديرية جرجا . وأن جموع الثائرين من الأهالي وحلفائهم العرب  
والمماليك احتشدوا بالبر الشرقي لقطع مواصلات الجيش الفرنسي . فأنفذ الجنرال  
دافو بفرسانه لإخضاع البلاد النائرة فيما بين قنا وجرجا . وعهد إلى الكولونيل  
موران Morand قومندان مديرية جرجا بأحتلال الآليات المشرقة على النيل قبالة  
جرجا ليأخذ الطريق على الثائرين إذا أرادوا عبور النيل

#### واقعة برديس

٦ ابريل سنة ١٧٩٩

تحرك الجنرال دافو ووصل إلى دشنا ، فشعر الأهالي بخطر الإحداق بهم ،  
فعبروا النيل شمالي برديس وصاروا بالبر الغربي . فسار إليهم موراند والتقى بهم  
في ٦ ابريل على مقربة من برديس وكانوا جموعاً كثيرة من الأهالي والعرب تجمعوا

في برديس متاهبين للقتال ، وانضم إليهم سكان القرى المجاورة ، فتبادل  
القريقان إطلاق الرصاص بشدة ، وهجم الأهالي والعرب على جنود موراند  
مرتين ، فعجز موراند عن اقتحام هذه الجموع وتقهقر إلى جرجا ليحتمي مواقع  
الفرنسيين بها

### واقعة جرجا

٧ ابريل سنة ١٧٩٩

شجع تقهقر موراند الأهالي والماليك ، فتابعوا هجومهم ومضوا قاصدين  
احتلال جرجا ، وتضاعف عددكم في الطريق بمن كان ينضم إليهم من سكان البلاد  
التي مروا بها ، فقدر الجنرال دافو عددكم بثلاثة آلاف من الفلاحين تجمعوا من  
القرى المجاورة يعاونهم جماعة من الماليك وعرب الحجاز ، وهجموا على جرجا  
يوم ٧ ابريل ، وتمكن فريق منهم من الدخول فيها ، لكن الحامية الفرنسية  
بقيادة موراند صدتهم عنها بعد قتال عنيف ، وخسر المهاجمون عدداً من القتلى  
قدره الجنرال دافو بمائة وخمسين قتيلا ، كما قدر خسائر الفرنسيين بستة من القتلى  
و ١١ جريحاً

### واقعة جهينة

١٠ ابريل سنة ١٧٩٩

امتدت الثورة إلى طهطا فاستولى الثوار عليها ، وسرت إلى القرى المجاورة ،  
فأقبل الضابط لاسال Lassale بجنوده قادما من أسيوط ، والتقى بالثوار يوم  
١٠ ابريل في جهينة (١) وحاصرها الفرنسيون وضربوها بالمدافع ، ودار قتال  
شديد داخل البلد وامتنع الثائرون في دار حصينة بها اتخذوها معقلا وقاموا بها

---

(١) جنوبي طهطا ، ذكر المرحوم علي باشا مبارك في خططه التوفيقية موقعا في مديرية جرجا  
وقال عنها : « إن أهلها أكثر من عشرة آلاف نفس من عرب جهينة القبيلة المشهورة ولهم كرم  
زائد وشهامة وفصاحة لسان وذكاء وفطنة وثبات جنان » ، وهي واقعة على التربة السوهاجية

عدة ساعات ، ثم اقتحم الفرنسيون تلك الدار واستولوا عليها وقتلوا من صادفهم  
بها من الأهالي والعرب وقدر دافو عددهم بثلاثمائة من القتلى  
الثورة في بني عدى

وصل الجنرال دافو إلى جرجا ثم إلى طهطا ، وعلم بنبا هاتين المعركتين ،  
فتابع سيره إلى أسيوط ووصلها يوم ١٦ ابريل ، وهناك رأى أن الثورة امتدت  
إلى أسيوط وسرت إليها من فلول الأهالي والعرب الذين انهزموا في جرجا وجيبنة  
وانسحبوا شمالا يجمعهم أهالي القرى التي في طريقهم حتى وصلوا قريبا من أسيوط ،  
ومعهم نحو مائتين من المماليك ، فأخذوا يحرضون الناس على الثورة ويستحثونهم  
لقتال الفرنسيين ، وكانت خطتهم محكمة التدبير واسعة المدى كما اعترف بذلك  
ديزيه في تقريره إلى نابليون ، واتخذ الثوار ( بني عدى ) معسكراً للثورة ، وهي  
بلدة كبيرة واقعة على طرف الصحراء غربي منفلوط وعلى طريق الواحة التي كان  
مراد بك لاجئاً إليها ، وكان لهذه البلدة أهمية كبيرة بالنسبة لموقعها وعدد سكانها  
وثروتها (١) ، واشتهر أهلها من قديم الزمن بالقوة وشدة البأس ، فكانوا في عهد

(١) يقول دافو في رسالته إلى الجنرال دوجا عن ( بني عدى ) « إنها من أكبر بلاد الوجه القبلي  
سكانا وأغناها وأعظمها مكانة ، وإن الثورة عمت فيها من أقصاها إلى أقصاها وأن أهلها كانوا  
يرسلون جماعات منهم إلى شاطيء النيل لمهاجمة السفن الفرنسية » وذكر العلامة على باشا مبارك  
بني عدى في الجزء السابع من خطه فقال عنها : « إنها بلدة كبيرة من قسم ( مركز ) منفلوط  
بحافة بساط الجبل غربي منفلوط وهي ثلاث قرى القبلي والوسطى والبحرية ، وأبنتها بالأجر واللبن  
وبها جوامع كثيرة عامرة ، وهي طريق الواحات وعلى مسيرة ثلاثة أيام وإليها ترد محصولاتها من  
التمر والأرز والنبيلة ومنها يرسل إلى القاهرة وفيها تنسج أحزمة الصوف والأقشعة الصوفية الجيدة » ،  
وهي مشهورة إلى اليوم بصناعة الأكلة المتينة والأحزمة الجيدة ، وقال علي باشا مبارك عن أهلها  
« لهم قوم كرام ذوو همم عائلية وذكاء وفضل وفصاحة قيل إنهم من قبيلة بني عدى المشهورة القرشية ،  
وهي أيضاً مشهورة بالعلماء من قديم الزمن والأزهر لا يخلو أبداً منهم ومنهم المدرسون والمؤلفون  
قدما وحديثا » وذكر من بينهم الشيخ علي العدوي المالكي وأورد ترجمته نقلا عن الجبرتي في وفيات  
سنة ١١٨٩ هجرية قال عنه الجبرتي « إنه كان شديد الشكيمة يصدع بالحق ويأمر بالمعروف ويحب  
الاجتهاد في طلب العلم ، وكان ينهى عن شرب الدخان ويمنع من شربه بحضرتة ، وكان إذا دخل  
منزلا من منازل الأمراء ورأى من يشرب الدخان نهاه عن شربه فينتهي في الحال وشاع عنه ذلك  
حتى ترك الناس شربه بحضرتة ، ودخل يوما على علي بك الكبير ( وهو على ماتعرف من السطوة  
وشدة البأس ) فأخبروه قبل وصول الشيخ إلى مجلسه فرغم الشك من يديه وأمر بإخفائه من وجهه  
ولما مات علي بك الكبير واستقل بإمارة مصر محمد بك أبو الذهب كان يعظمه ويحبه ولا يرد شفاعته »

الماليك يقاومون مظلهم فاتخذها الثوار مركزاً لهم واجتمع بها ثلاثة آلاف من الأهالي المسلحين وانضم إليهم ٤٥٠ من العرب المصريين وثلثمائة من الماليك

كانت هذه القوة لا يستهان بها ، فسار دافو بجنوده قائداً بني عدى للاستيلاء عليها ووقع الثورة فيها ، فلما وصل إليها ( يوم ١٨ ابريل سنة ١٧٩٩ ) ألقي أهلها جميعاً يحملون السلاح ويتحفزون للوثبة والقتال ، وكان الماليك لم يزالوا في الصحراء بعيداً عن بني عدى ، فعهد دافو إلى الكولونل بينون Pinon باحتلال غابة تحصدت بها طلائع الأهالي ، فتمكن من إجلائهم عنها وارتدوا إلى المدينة ، فتعقبهم الكولونل بينون ، ولما اقترب من المدينة أطلق الأهالي الرصاص على الجنود من المنازل فأصيب بينون برصاصة أردته قتيلاً ، فعين دافو الضابط راباس Rabasse بدلًا منه ، فاستمر الجنود بقيادة راباس يقاومون الأهالي ، وهنا حضر الماليك لنجدتهم ، ولكن لم يكدر راباس يتحول إليهم ليمنع اتصالهم بالأهالي حتى ارتدوا لأول صدمة وانسحبوا راجعين إلى الواحة التي قدموا منها وتركوا الأهالي وحدهم يتلقون هجمات الجيش الفرنسي ، فاشتبك الفريقان في معركة حامية دارت رحاها في طرقات بني عدى وفي بيوتها التي حصنها الأهالي وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينال منها على الجنود ، فلقى الجيش الفرنسي ببني عدى من المقاومة ما لم يلق مثله في كثير من البلاد

استمر القتال إلى الليل وانتهت المعركة بغلبة المدافع والذيران الفرنسية على مقاومة الأهالي ؛ ذلك أن الفرنسيين لما عجزوا عن الاستيلاء على بني عدى لجأوا إلى وسيلة الحريق التي اتبعوها في أبنود وغيرها ، فأضرموا النار فيها ، فامتدت إلى بيوتها كافة ، وأصبحت البلدة كأتون من نار ، وبهذه الوسيلة غلب الجيش الفرنسي على مقاومة بني عدى واحتلها الجنود وأمعنوا في أهلها قتلاً ونهباً

قال الجنرال برتييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في مذكراته : « أصبحت بني عدى أكواما من الخرائب ، وتكدست القتلى في شوارعها ، ولم تقع مجزرة أشد هولاً مما حل ببني عدى ،

وقدر الجنرال دافو عدد القتلى من الأهالي بألفي قتيل ، ويقدرهم دينيه

في تقريره إلى نابليون بنحو ثلاثة آلاف ، والواقع أن معظمهم مات من الحريق الذي أضره الفرنسيون في البلدة ، وقد احتل الجنود البيوت بحجة التفتيش عن الثائرين فنهبوا ما تصل إليه أيدي اللصوص ، وكانت بنى عدى مشهورة بما كان يأتيها من أموال القوافل القادمة إليها وما كان يحفظه فيها أعيان البلاد المجاورة من الودائع ، فنهبها الفرنسيون واستولوا على صناديق كاملة مملوءة بالذهب والمال

قال دافو عن النهب الذي وقع في بنى عدى : « إن الغنائم التي استولى عليها الجنود قد عوضتهم ما فقدوه ، وكثير منهم كان نصيبه ١٥ ألف فرنك وبعضهم ٢٠ ألف فرنك ذهباً ،

وقال ديزيه : « إن غنيمة جنودنا كانت عظيمة وكثيرون استولى الواحد منهم على عدة آلاف ريال ،

#### رواية الجبرتي عن ثورة بنى عدى

وصلت أخبار فظائع الفرنسيين في بنى عدى إلى القاهرة ، فكتب عنها الجبرتي ما يلي ( في حوادث شهر ذى القعدة سنة ١٢١٣ ) :

« حضر إلى مصر الأكثر من عسكر الفرنسيين الذين كانوا بالجهة القبليّة ، و ضربوا في حال رجوعهم بنى عدى بلدة من بلاد الصعيد مشهورة وكان أهلها تمتنعين عليهم في دفع المال والكلف ( الغرامات ) ويرون في أنفسهم الكثرة والقوة والمنعة ، فخرجوا عليهم وقاتلوهم ، فملك عليهم الفرنسيين تلاً عالياً و ضربوا عليهم بالمدافع فأتلفوهم وأحرقوا جرونها ثم كبسوا عليهم وأسرفوا في قتلهم ونهبهم ، وأخذوا شيئاً كثيراً وأموالاً عظيمة وودائع جسيمة للغز ( المماليك ) وغيرهم من مساتير أهل البلاد القبليّة لظن منعهم ، وكذلك فعلوا بالميمون ،

ولهذه المناسبة نقول إن الجبرتي لم يعن كثيراً بحوادث المقاومة في الصعيد ، ولم يذكر عنها إلا نبذاً ضئيلة متقطعة حكى فيها ما كان يسمعه من أفواه بعض المسافرين ، وهي ليست ذات قيمة ، وليس فيها الدقة والاستقراء اللذان امتاز بهما الجبرتي في سرد حوادث القاهرة



على أنه لا يفوتنا التنويه بأن الجبرتي في إشارته إلى موقف المماليك في الوجه القبلي رماهم بالجبن وعدم الثبات في ميادين القتال ، فقد ذكر في حوادث شعبان سنة ١٢١٣ أن السفار ( المسافرين ) أخبروا ، بأن مراد بك ومن معه ترفعوا ( ابتعدوا ) إلى قبلي ووصلوا إلى عقبة الهواء ، وكلما قرب منهم عسكر الفرنساوية انتقلوا وقبّلوا ، ولقد داخلهم من الفرنساوية خوف شديد ، ولم يقع بينهم ملاقة ولا قتال ، ، وذكر في موطن آخر في حوادث شعبان أيضاً : « وركب الغز وحاربوا الفرنسيين فلم يثبت الغز كهادتهم وانهمزوا ، ، وقال عن مراد بك : « انه يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة ولم يعهد عنه أنه انتصر في حرب باشرها أبداً على ما فيه من الإدعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور كما قال القائل : أسد على وفي الحروب نعامة (١) ،

### في المنيا وبني سويف

امتدت الثورة إلى مديرتي المنيا وبني سويف فسار دافو إلى المنيا لإخمادها ومر الجيش في طريقه ببعض القرى فكان الأهالي يمتنعون البتة عن مساعدته أو إمداده بالأقوات التي يطلبها ، فأخذ ينكّل بالقرى والبلاد بحجة أنها في حالة ثورة ، وكان أكثرها استهدافاً لانتقام الفرنسيين في هذه الرحلة بلدة ( أبو جرج )

### واقعة ( أبو جرج )

وصل الجيش إلى ( أبو جرج ) فأرسل الجنرال دافو من قبله رسولا إلى أهلها ليقدموا المؤونة للجنود ، فرفض شيخ البلد ( العمدة ) أن يقدم شيئا ، فأرسل دافو رسولا آخر فرده الأهالي خائباً ، فأمر بمحاصرة البلدة وإضرام النار فيها انتقاماً من أهلها وأقبل الأهالي من القرى المجاورة يحملون السلاح لنجدة

( أبو جرج ) ، فامتلات بهم المزارع وتبادل الفريقان إطلاق الرصاص ، واستمر القتال ساعتين وأضرم الجنود النار في البلدة فالتهمت مساكنها واحترق بها كثير من أهلها ، ويقدر الجنرال ديزيه عدد القتلى من أهالي أبو جرج بألف قتيل

### الثورة في المنيا

كان الجنرال ديتريس (١) قائداً للحامية الفرنسية في المنيا ، وقبل أن يصل الجنرال دافو إليها شبت الثورة في البلاد المجاورة لها ، فواجهها الجنرال ديتريس بالقوات التي تحت قيادته ونشبت معارك ثلاث في ثلاثة أيام متوالية تحت أسوار مدينة المنيا

اليوم الأول - ففي ٢٣ ابريل سنة ١٧٩٩ تجمهر نحو ٤٠٠ من الأهالي ومثلهم من عرب الحجاز في قرية ( طهنشا ) (٢) جنوبي المنيا واستعدوا للهجوم على الحامية الفرنسية في المنيا وأرسل زعيمهم إلى شيخ بلد المنيا يطلب مظاهرتهم على عدوهم ، فلما علم الجنرال ديتريس بنبأ هذا الهجوم عزم على أخذهم قبل أن يهاجموه ، فترك في المنيا فصيلة صغيرة من العسكر وخرج بباقي الجنود وقصد إلى معسكر الثائرين بالقرب من ( تلّه ) (٣) التي تبعد عن المنيا غرباً بنحو ثلاثة كيلو مترات ، فلما اقترب منهم الجنرال ديتريس برزوا من معسكرهم لمقاتلته فدارت معركة بين الفريقين بدأت بالإحداق بالجنود الفرنسية ، ولكن الجنرال ديتريس جعل من قوته مربعاً على الطريقة الفرنسية وسلط مدافعه على جموع الثائرين واستمر القتال أربع ساعات ، ثم انسحب الفرنسيون فتعقبهم الثائرون قاصدين المنيا ، ولكنهم لم يستطيعوا اقتحام أسوار المدينة ، وكان الليل قد أقبل فارتدوا إلى ( تلّه ) واتهن الجنرال ديتريس فرصة الليل فرتب مخافره واستعد لليوم الثاني

(١) من قواد الجنرال ديزيه

(٢) و (٣) من بلاد مركز المنيا

اليوم الثاني - وفي اليوم الثاني وقف الجنرال ديتريس بجنوده خارج المدينة في موقع منيع تحميه المقابر والحدائق ، وأوقف الرماة خلف أكبات عالية ، وأقبل الثائرون يصيحون صيحات القتال ويتقدمون بشجاعة وإقدام ، وكان عددهم قد زاد بمن انضم إليهم من سكان القرى الواقعة على شاطئ النيل ومن رهط من المماليك قدموا من الجنوب ، فامتلاً السهل المجاور للمدينة على مسافة فرسخ بالمقاتلين ، ودارت المعركة من جديد ، وكان الفرنسيون متخذين خطة الدفاع ، فاستمروا يدفعون الهجمات مدة ساعتين ، ولكن الفصيلة التي كانت تدافع عن الباب الشمالي للمدينة اضطرت تحت ضغط الثائرين إلى الارتداد داخل البلد والالتجاء إلى معسكر الحامية ، فاضطر الجنرال ديتريس إلى اللحاق بهم ، وفي هذا الوقت تمكن الثائرون من اقتحام باب آخر من أبواب المدينة فدخلوها يتدفقون من كل صوب وملأوا الشوارع ، لكن الجنرال ديتريس جمع رجاله وأمرهم بإطلاق النار وأرسل فصائله إلى أهم شوارع المدينة لاحتلالها فتمكن بذلك من رد الثائرين بعد أن حلت بهم الخسائر الجسيمة ، وفي نحو الساعة الأولى بعد الظهر عادت السلطة إلى قبضة الفرنسيين وانسحب الثائرون

اليوم الثالث - ظن الفرنسيون أنهم أصبحوا في مأمن من هجومهم ، ولكن في صباح اليوم التالي ( يوم ٢٥ أبريل ) أقبل أربعائة فارس من العرب يظاهروهم جماعة من المماليك وهاجموا الفرنسيين ، وكادت تدور الدائرة عليهم لولا وصول الجنرال دافو بقواته فهزم الثوار وعادت السكينة إلى المدينة

ومما ساعد الجنرال ديتريس على رد هجمات الثائرين أن معظم أهالي البندر ومشايخه لم ينضموا إليهم ، ويقول ديتريس في رسالته إلى الجنرال دوجا إن حامية المنيا سلمت من القتل بفضل مشايخ البلد في المنيا والفريق الأكبر من أهلها ، وأنهم لو حملوا السلاح في وجه الفرنسيين لما بقي منهم أحد (١) ، ويؤخذ من ذلك أن طائفة من أهالي المنيا قد انضموا إلى الثائرين وبقي الفريق الأكبر منهم على الحياد ، وقد أعلن الجنرال ديتريس مكافأة أهل المنيا بانقاص المال المفروض عليهم في ذلك

(١) رسالة ديتريس إلى الجنرال دوجا في ٢٧ أبريل سنة ١٧٩٩

العام بمقدار الثلث ، وقرر حمل هذا الثلث على قرى ثلاث من البلاد التي اشتركت في الثورة

### الثورة في أطفيح

وصل الجنرال دافوا بفرسانه إلى المنيا كما قلنا وتابع سيره إلى بني سويف ، ومن هناك عزم على عبور النيل لقمع الثورة التي ظهرت في مديرية أطفيح، ولكن الجنرال دوجا أرسل يستدعيه على عجل إلى القاهرة إذ بدأت الحالة تضطرب فيها من أجل حركات الهياج التي ظهرت في بعض أنحاء الوجه البحري (١) ، وكانت القوات الفرنسية قد نقص عددها في القاهرة والوجه البحري عامة لما أخذه معه نابليون من الجنود في حملته على سوريا ، فاضطر دافوا أن يعود من فورهِ إلى القاهرة فأحدثت عودته نقصاً في صفوف الجنود الفرنسية في الصعيد

وأرسل الجنرال ديزيه إلى الجنرال دوجا يشكو من عواقب استدعاء الجنرال دافو وفرسانه إذ كان أكثر اعتماده في قمع الحركات الثورية في الصعيد على فرقة الفرسان هذه ، وقد نبهه في رسالته إلى الخطر الذي يتهدد الفرنسيين في بني سويف وأن وجود الجنرال دافو ضروري لهذه المديرية

### حركات الجنرال ديزيه

كان ديزيه مقيماً في قنا حينما أنفذ الجنرال دافو لقمع الثورة في مديريات جرجا وأسيوط والمنيا ، فلما وصلت أخباره أنباء معركة برديس وجرجا ورأى فيها خطورة الثورة عزم على مغادرة قنا وللحاق بدافو ليساعده في مهمته ، فناط بالجنرال بليار قيادة الحركات العسكرية في قنا وإدارة مديرية طيبة (قنا) وغادر هو قنا يوم ١٣ ابريل سنة ١٧٩٩ فسار بجنوده برأ ونقل المؤن والذخائر على السفن، ومشت الفرقة متتدة لترافق السفن ولا تبعد عنها ، ويظهر أن الجنرال ديزيه قد اعتبر بما حل بالسفن الفرنسية من قبل إذا هي تخلفت عن جنود البراء فأثر أن يحاذيها بجنوده على الشاطئ. ولم يصل إلى جرجا إلا يوم ١٧ ابريل مساء فأرسل منها تعليماته إلى

(١) انظر الفصل الثالث من الجزء الثاني

الجنرال بليار كلفه فيها مواصلة العمل على سحق حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن ورجالهما ، ونصح إليه أن يجمع ثلثمائة هجين لنقل جنوده إلى الجهات التي تظهر فيها الحركات الثورية ، وبذلك تطوى له المسافات طياً ، وأمره أن يحتل القصير وبوطد السلطة الفرنسية على سواحل البحر الأحمر وأن ينظم مديرية طبية تنظيمياً بالغاً ويجمع أموال الميرى وينظم الشرطة بها ، وأوصاه بالصرامة والقسوة في إخضاع الأهالي ، قال في رسالته في هذا الصدد : إن هذه هي الوسيلة التي نحصل بها على شيء من النفوذ والسلطة والطمأنينة ، وعليك أن تأمر بقطع رأس كل من لا يطيع أوامر من مشايخ البلاد (العمد) وقطع النخيل وإحراق القرى الشائرة وأن تتحرى وتبحث لمعرفة القرى التي اشتركت في الهجوم على سفننا وفي المذبحة التي أودت برفاقنا التعساء ( في بارود ) وأن تعاقبهم بأشد ما يمكن من القسوة ، وأن تفرضوا عليها غرامة لا تقل عن عشرة آلاف ريال ،

#### مشروع الحملة على القصير

وعنى ديزيه أشد العناية بالحملة على القصير ، فكتب عدة رسائل يستحث فيها الجنرال بليار لإنفاذها إذ يرى فيها طريقة فعالة في إرساخ قدم الفرنسيين في الوجه القبلي ، فالقصير هو الثغر الوحيد الواقع على البحر الأحمر الذي يصل منه المدد إلى بلاد الوجه القبلي ، فنه جاء عرب الحجاز الذين شدوا أزر الأهالي في مقاومة الفرنسيين ، وكان الانجليز بترددون من آن لآخر على هذا الثغر فانزعج الفرنسيون من هذه الحركات وعزم ديزيه على احتلال هذا الموقع لسد المدخل إلى الوجه القبلي

#### تنظيم البريد

ورأى ديزيه وهو في جرجا أن ينظم البريد بين الحاميات الفرنسية ليجعل بينها اتصالاً مستمراً يقمها المفاجآت ، وناط حمل البريد بفرسان مسلحين يقطعون مراحل محدودة ويتغيرون عند كل مرحلة إلى أن تصل الرسائل إلى الجهة المقصودة ، وأمر أن يسافر البريد كل يوم من جرجا حتى يصل إلى قنا ، وقسم المسافة بين جرجا وقنا إلى المراحل الآتية :

من جرجا إلى برديس ، ومن برديس إلى فرشوط ، ومن فرشوط إلى هو ، من هو إلى دشنا ، من دشنا إلى السمطا ، من السمطا إلى قنا ، وطلب ديزيه من بليار أن ينظم البريد على هذه الطريقة من قنا إلى إسنا ، وكلفه أن يأمر ( قائممقام ) كل بندر أن يكون معداً لنقل البريد يومياً في منقطته

### اعتقال الرهائن

سار ديزيه من جرجا يوم ١٨ ابريل قاصداً إلى أسيوط فر بالمدشاة فسوهاج فظها فالغنايم ، وقضى أياماً يتفقد أحوال تلك البلاد ويدبر الوسائل لإخضاعها ثم وصل يوم ١٥ مايو إلى أسيوط فاتخذها مركزاً لقيادته وقضى عدة أسابيع في إعداد الوسائل والتدابير لإخضاع البلاد وتنظيم قوات الشرطة ، وقد رأى في رحلته الأخيرة بمديرتي جرجا وأسيوط أن الحاميات الفرنسية لا قبل لها بإخضاع الأهالي ، فلجأ إلى اعتقال بعض الأعيان بصفة رهائن من كل بلد ليكونوا مسؤولين عن الحوادث والاضطرابات في بلادهم وبلغ عدد هؤلاء الرهائن الذين اعتقلهم من جرجا وما يليها إلى أسيوط مائتي رجل من الأعيان أبقاهم أسرى في أسيوط ، وكتب الى الجنرال بليار يوصيه باعتقال الرهائن من منقطته وأن يكون عددهم أكثر ما يبلغه الإمكان

وقد كان لدى ديزيه من التدابير الحربية الهامة احتلال القصير وتجريد حملة من الهجانة لمحاربة مراد بك وكان لا يزال مرابطاً في الصحراء ، ومطاردة بماليك حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن في جهات أسوان ، ومع أن مراد بك لم يكن معه من فلول المماليك سوى عدد يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة مملوك فإن ديزيه لم يكن لديه القوة الكافية لغزوه في معقله ، وكان استدعاء الجنرال دافو وفرسانه إلى القاهرة قد أضعف ، قوة الجيش الفرنسي في الصعيد وآل بها إلى النقص

### واقعة اسوان

١٦ مايو سنة ١٧٩٩

انسحبت فلول حسن بك الجداوى بعد معركة بئر عنبر (١) جنوباً إلى ما وراء

الشلال ، ولما آنتست من الجنود الفرنسية ضعفاً اقتربت من إسوان مترقبة الفرصة لاحتلالها ومناوشة الحاميات الفرنسية على النيل ، وكان الضابط إبلى Eppler مرابطاً في إسنا بكتيبة من خمسمائة جنسدى يراقب حركات حسن بك الجداوى ويمنع عودته من وراء الشلال ، على أن حسن بك تقدم برجاله واحتلوا أسوان وامتنعوا بها وتقدمت طلائعهم شمالاً فوصلوا إلى ( دراو ) فسار إليهم الكابتن رينو Renaud من ادفو بكتيبة من الجنود ولكنه لم يدركهم بدرأو فتعقبهم إلى أن التقى بهم على بعد فرسخين إلى جنوبي أسوان فنشبت بين الفريقين يوم ١٦ مايو معركة شديدة جرح فيها حسن بك الجداوى جرحاً بالغا وأصيب عثمان بك حسن وانتهت المعركة بهزيمة المماليك بعد أن فقدوا خمسين قتيلاً وستين جريحاً ، وفاز الفرنسيون عليهم فوزاً عظيماً وصفه نابليون في مذكراته التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين بأنه ، أجل انتصار في حملة مصر ، ويقول نابليون إن الفرنسيين قد حاربوا في هذه المعركة جمعاً مؤلفاً من ١٨٠ من المماليك و ٢٠٠ من العرب و ٣٠٠ من الأهالي ، ويقول الجنرال بليار في رسالة عن هذه المعركة إن الفرنسيين خسروا فيها ثلاثة قتلى و ١٥ جريحاً

انسحبت فلول المماليك بعد هذه المعركة إلى ما وراء أسوان على مسيرة يومين مضضعة القوى ، وهذه هي المرة الثالثة التي انسحب فيها المماليك إلى ما وراء الشلال منذ ابتداء الحملة على الوجه القبلى ، ولم يبق من رؤساء المماليك بعد هذه الهزيمة سوى مراد بك وحده بلا حول ولا قوة معتصماً بالواحة الخارجة التي تبعد عن اسيوط ثلاثة أيام

### احتلال القصير

٢٩ مايو سنة ١٧٩٩

اطمان الفرنسيون بعد هذه المعركة على موقفهم الحربى فانهز الجنرال بليار هذه الفرصة لتجريد حملة على القصير بعد أن أعد لها المعدات الكافية ، فسار من قنا يوم ٢٦ مايو ومع الجنود والمدافع والجمال لنقل الجنود والمؤونة والذخائر

فوصلت الحملة إلى القصير واحتلتها يوم ٢٩ مايو سنة ١٧٩٩ ( ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢١٣ ) واحتلت قلعتها بدون مقاومة (١)

غادر الجنرال بليار القصير يوم أول يونيه وتركها الجنرال دنزلو Donzelot ومعه قوة من الجنود في عتادهم من المدفعية والذخائر وعاد هو إلى قنا وقد طرب الفرنسيون لاحتلال ميناء القصير التي تعد مفتاح الوجه القبلي من طريق البحر الأحمر ، واعتبروا احتلالها ختام الحركات الحربية التي تم بها فتح الصعيد ، وكافأ نابليون كلا من الجنرال ديزيه والجنرال بليار والجنرال فريان على حسن بلائهم في الحملة على الصعيد ، فأهدى الجنرال ديزيه سيفاً جميلاً مكتوباً على صفحته : فتح مصر العليا ،

وأهدى الجنرال بليار سيفاً مكتوباً عليه : معركة أبنود - فتح القصير ، وأهدى الجنرال فريان سيفاً آخر ، وعزم ديزيه أن يجرّد حملة من أسيوط على الواحة التي كان مراد بك مرابطاً بها ، لكن مراد بك غادرها مخترقاً الصحراء شمالاً عازماً على اللحاق بالمهدى في البحيرة لما علم بانتصاراته الأولى (٢) ، فعدل ديزيه عن تجريد حملة على الواحة واطمأن على سلطته في الصعيد

#### الحالة النفسية للشعب

على أن هذه السلطة كانت على الدوام مهددة، وكان الأهالي متحفزين للاقتراض على الحاميات الفرنسية كلها سنحت لهم الفرصة ، بحيث لم ترسخ دعائم السلطة الفرنسية في تلك الأصقاع بالرغم من انتصارات ديزيه وجنوده وبالرغم من وسائل القسوة والإرهاب التي اتبعوها في إخضاع البلاد

---

(١) كتب الجنرال بليار من القصر إلى الجنرال ديزيه رسالة بتاريخ ٣٠ مايو سنة ١٧٩٩ عن احتلال القصير قال فيها : « إن القصير واقعة على البحر الأحمر وعلى طرف الصحراء وهي قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها من أربعائة إلى خمسمائة نسمة . وقد قابلنا بها مباح البلد وكان من بين سكانها من اشترك في واقعة أبنود ففروا إلى الصحراء ، أما قلعة القصير فهي لا بأس بها وهي متسلطة على البلدة وبعده عن البحر بحيث لا تصل إليها مدافع البوارج الإنجليزية التي تستطيع أن ترسو تجاهها والقلعة محتاجة إلى ما يصلحها وقد تكفل بذلك الجنرال دنزلو وسيبذل في القصير غاية جهده لجعلها موقعا حصينا في مأمن من الطواريء »

(٢) انظر الفصل الثالث من الجزء الثاني



كتب نابليون إلى حكومة الديركتوار تقريراً عن الحملة على الوجه القبلي أرسله من القاهرة بتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٧٩٩ عقب عودته من سوريا ، قال فيه :

د ان احتلال القصير والسويس والعريش قد أقفل طريق الوصول إلى مصر من جهة البحر الأحمر وسوريا إقفالاً محكماً ، كما أن تحصين الإسكندرية ورشيد ودمياط يحبط كل هجوم من البحر الأبيض المتوسط ويضمن إلى ما شاء الله للجمهورية الفرنسية امتلاك مصر تلك البقعة الجميلة في العالم التي سيكون للحضارة أكبر أثر في إهائها وإحياء عظيمها القومية ، ولا غرو فهي أقدم بلاد عرفها التاريخ ، لقد انسحب مراد بك مع البقية الباقية من رجاله إلى الواحة ، وسنطرده من هناك ، وحسن بك الجداوى هو الآن على مسيرة ١٥ يوم جنوبى الشلال ، وقد أخضعنا معظم القبائل وأخذنا منها الرهائن وبدأ الفلاحون يدركون الحقائق ولا يستمعون لتحريض أعدائنا ، على أن القلاع العديدة التي أنشأها ما بين مرحلة وأخرى كفييلة ياخضعهم إذا تنكرت منهم النية أو ساءت مقاصدهم ،

فنا بليون يعترف في تقريره بأن القوة المسلحة هي الأداة التي يعتمد عليها في توطيد السلطة الفرنسية في تلك الأصقاع ، وهذا ينطبق تماماً على رأى الجنرال ديزيه في رسائله إلى نابليون وإلى الجنرال دوجا ، فقد كتب إلى نابليون يقول :  
واننا دائماً نحاطون بالأعداء ، وان صعوبة المواصلات المهتدة غالباً بالانقطاع ، وبعد المسافات ، تمنعنى من أن أكتب لك عن أخبارنا بتقدير ما أرغب ، اننا في حاجة إلى الجنود لأن فرقتى قد أنهكها التعب واجتاحها الأمراض وبخاصة الرمد الذي انتشر بين الجنود انتشاراً فظيلاً ، وإن من الخطر أن نترك جهة واحدة في مصر العليا دون أن نحتلها بجنودنا ، واننا لم نستطع أن نشنت أعداءنا إلا بمتاعب وحملات شاقة لاهوادة فيها ، والبلاد مع ذلك مستعدة للثورة إذا بدر منا ضعف أو تراجع ، وإنى مضطر إلى إرهاب الجنود وجعلهم دائماً على سفر ، لأنهم الوسيلة التي نستطيع بها تحصيل الضرائب ،

وكتب إلى الجنرال دوجا (١) يقول : د إن الحالة لم تتغير ، والبلاد من إسنا

(١) رسالة ديزيه إلى دوجا من أسبوط في ١٩ مايو سنة ١٧٩٩

إلى أسيوط هي في الوقت الحاضر هادئة ، ولكنني لم أبلغ هذا الهدوء إلا من وسائل القسوة ومتابعة الحملات المستمرة المنهكة للقوى ، وسأجوب البلاد من أسيوط إلى المنيا وأجمع ما انكسر من الضرائب ، وانتزع الرهائن من جميع القرى كما فعلت في مديرتي أسيوط وجرجا ، ولا يداخلني أشك في أن هذه الطريقة والقوة المسلحة هما الدعامتان اللتان قامتا بالهدوء الحالي ،

فالقوة المسلحة ، والقسوة ، والإرهاب ، والفظائع ، هي الوسائل التي تدرع بها الفرنسيون لمكافحة قوات المقاومة في الصعيد ، وهكذا ظل جيش الجنرال ديزيه يطارد قوات شتى لاعداد لها ، ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتم جمع وتعود ثانية للقتال ، وصار ديزيه يحارب حرباً لا نهاية لها ، في ميدان واسع مترامى الأطراف ، يمتد من الجزيرة شمالاً إلى أسوان جنوباً ، ومن القصير شرقاً إلى واحات الصحراء الكبرى غرباً ، دون أن يصل إلى إخضاع البلاد إخضاعاً تاماً أو إقرار السلطة الفرنسية فيها

والآن ، وقد انتهينا من الكلام على المتناومة في الوجه القبلي ، فلنتقل إلى القاهرة والوجه البحري لتبين الحوادث التي وقعت بعد إخماد ثورة القاهرة الأولى (٢) ، وموعدنا الجزء الثاني من الكتاب

---

(٢) عبرنا عنها بالأولى تمييزاً لها عن ثورة القاهرة الثانية التي شبت في مارس سنة ١٨٠٠ والتي بسطنا الكلام عنها في الفصل التاسع من الجزء الثاني

## الفصل الثامن عشر

### وثائق تاريخية

وثيقة رقم ١

أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين استصبحهم نابليون في مصر

إحصاءهم وبيان أسمائهم ( انظر ص ٧٩ )

### علماء الرياضيات

المسيو مونج Monge ، فوريه Fourier ، كوستاز Costaz ، مالوس Malus ، ساي Say ، شاربو Charbaud ، موري Moret ، كورانسر Corancez ، فوزو Fuzeau ، برنجيه Bringuet ، بوشار Bouchard

### الفلك

نوي Nouet ، بوشان Beauchamp ، كينو Quesnot ، ميشين الصغير Mechain fils

### الميكانيكا والطيران

كوتتي Conté ، كوتل Coutelle ، هاسنفرتز Hassenfratz ، لومون L'Homont ، أدنيس الكبير Adnès père ، أدنيس الصغير Adnès fils ، سيرو Sirop ، كوفورور Covureur ، أيمي Aimé ، كولان Collin ، هيرو Hérault ، بلازانيه Plazanet

### الكيمياء

برتوليه Berthollet ، ديكوتيل Descotils ، شامي الكبير Champy père

صامويل برنار Samuel Bernard ، بوتيه Potier ، شامبي الصغير  
Regnault ، رينو Champy fils

### طبقات الأرض والمعادن

دولوميو Dolomieu ، كورديه Cordier ، روزير Rozières ،  
فكتور ديويي Victor Dupuy

### النباتات

نكتو Nectoux ، دليل Delile ، كوكبير Coque bert

### حياة الحيوان

جفروا سان هيلير Geoffroy Saint Hilaire ، سافيني Savigny ،  
جيرار Gérard

### الطب والجراحة

ديبوا Dubois ، بوكفيل Pouqueville ، لابات Labate ، لاسيير  
Lacipière ، ديموا الصغير Dubois fils ، بيسيير Bessières ، دايرون  
Daburon ، دويفر Dewèvré (١)

### الصيدلة

روييه Royer ، بوديه Boudet ، روجان Roguin

### الاقتصاد السياسي

بورين Bourienne ، دانجلي D'angely ، جلوتيه Gloutier ، تاليان Tallien

### العاديات والآثار

بورليه Pourlier ، ريبول Ripault ، بانوزن Panuzen

---

(١) لم يرد في هذا البيان بعض الأطباء الذين ذكرهم الدكتور ديمونت كبير أطباء الحملة  
في كتابه ( التاريخ الطبي لجيش الشرق ) وهم برويان Bruant ، سيريزول Ceresole ،  
باربيس Barbès ، رناتي Renati ، سافاريزي Savaresi ، فوتيه Vautier ،  
فرانك Frank ، سالز Saize ، بونيه Pugnet

## هندسة المعمار

بروتان Protain ، نوري Norry ، بالزاک Balzac ، لويير Le Père ،  
ديمولان Demoulin

## التصوير

ريجو Rigo . ردوتيه Redouté . جولى Joly

## الرسم

فيفان دينون Vivant Denon ، دوترتر Dutertre ، بورتال Portal ، كاكي  
Caquet ، بيرى peré

## هندسة الرى والقناطر والطرق

لويير الكبير Lepère ainé ، جيرار Girard ( والاثنان كبيرا المهندسين ) ،  
فاى Faye ، جالوا Jalois ، جراتيان لويير Gratien Le père ، سان جنيس  
Saint-Genis ، لانكرى Lancret ، فيفر Févre ، شابرول Chabrol ، رافينو  
Raffeneau Delile ، ارنوليه Arnolet ، فافيه Favier ، دييوا إي  
Dubois-Aymé ، دفليه Devilliers ، مولين Moline ، مارتان Martin ، بودار  
Bodard ، ديفال Duval ، تيفينو Thevenot

## الهندسة الجغرافية

تستفيود Testevuide ( كبير المهندسين الجغرافيين ) ، جاكوتان Jacotin ،  
سيمونل Simonel ، شوانى Schouani ، لاتويل Lathuille ، لفياد Lafeuillade ،  
برتر Bertre ، لسين Lecesne ، بورجوا Bouregois ، لدوك Le Duc ، دليون  
Dulion ، فورى Faurie ، ليفيك L'Evêque ، لاروش Laroche ، جومار  
Jomard ، كورابوف Coraboef

## الهندسة البحرية

بوشيه Boucher . شومون Chaumont . جر سليه Gresté ، فانسان Vincent

بونجان Bonjean

الهندسة الميكانيكية البحرية

Cecile سيسيل

هندسة الآلات الرياضية

Lenoir fils لنوار الصغير

صناعة الساعات

Lemaitre لومتر

النقش

Casteix كاستي

الحفر

Fouquet فوكيه

الآداب

برسفال دجرانميزون Parseval de Grandmaison عضو الأكاديمية  
الفرنسية . أرنو Arnault عضو الأكاديمية الفرنسية (١) ، لروج Lerouge .  
بنابن Bénaben

الموسيقى

فيلوتو Villoteau ، ريجيل Rige

طلبة مدرسة الهندسة (٢)

كارستي Caristie ، دشانوا Duchanoy . بوتيه Pottier ، جومار الصغير  
Jomard jeune ، فانسان Vincent ، فيار Viard ، اليبير Alibert

---

(١) تخاف في الطريق ولم يحضر الى مصر .

(٢) انتظم بعض طلبة مدرسة الهندسة في سلك لجنة العلوم والفنون ونال بعضهم الإجازة النهائية  
للمدرسة وهم في مصر بعد أن أدوا الامتحان أمام لجنة ألفهانابليون في القاهرة لهذا الغرض من العلماء مونتج  
وبرتوليه ، وفرويه

الترجمة

فاتتور Venture ، ماجالون Magallon ، لوماكا L'Homaca ، أميدي  
جوير Amedée Jaubert ، دلابورت De Loport (والاثنان من تلاميذ مدرسة  
العلوم الشرقية بباريس) ، ريج Raige ، براسرفيش Bracervich ، بلتيت Belleteste ،

الطباعة العربية والفرنسية

مارسل Marcel مدير المطبعة ، بونتيس Puntis ، جالان Galland ، بودوان  
Bouduin ، بسون Besson من موظفي المطبعة<sup>(١)</sup>

وقد اعتمدنا في هذا البيان على إحصاء المسيو (ريبو) في كتابه «التاريخ العلمي  
والحربي للحملة الفرنسية» ، بعد أن أضفنا إليه اسم (لومتر) في صناعة الساعات ،  
فصار عدد الأعضاء ١٤٦ عضواً ، ولم يدخل في هذا البيان بعض رجال العلوم ممن  
شغلوا مناصب في جيش الحملة ، كالمسيو بوسليج مدير الشؤون المالية ، والمسيو  
استيف مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية في أواخر عهد الحملة الفرنسية ،  
والدكتور ديچنت كبير أطباء الحملة ، والدكتور لاري كبير الجراحين ، وقد أوردنا  
ترجمة طائفة من هؤلاء الأعضاء بالفصل الرابع<sup>(٢)</sup>

وتمَّ إحصاء آخر يزيد عن الإحصاء المتقدم ورد في «يوميات» المسيو  
دفيليه أحد مهندسي الحملة<sup>(٣)</sup> ، ذلك أنه أضاف إلى الأعضاء المتقدم ذكرهم نحو  
ثلاثين من القواد والضباط الذين اشتركوا في العمل مع أعضاء لجنة العلوم والفنون  
وكان بعضهم أعضاء في المجمع العلمي ، وبحسب إحصاء المسيو دفيليه يبلغ عدد  
الأعضاء ١٧٥ عضواً . وذلك عدا العمال الفنيين

(١) عدانحو ١٨ عاملاً من جامعي الحروف

(٢) ص ١٢٠ وما بعدها

(٣) انظر ما كتبناه عنه ص ١٢٥

وثيقة رقم ٢

شكر (الديوان) للسيو (لوبيز) كبير المهندسين

على تعمیر مقياس الروضة

( انظر ص ١٢٣ )

« من محفل الديوان العالى بمصر المحروسة ،

« خطاباً إلى حضرة الستويان،<sup>(١)</sup> الخواجا لوبيز رئيس المهندسين وفقه الله تعالى إلى الخير آمين

« أما بعد الدعاء لكم بخير أنه بلغ الناس حسن صليحكم وصواب تدبيركم وإتقان هندستكم في تشييد وتعمير مقياس النيل السعيد الذى يعم نفعه ويشمل خيره فى القريب والبعيد ، فإن إقليم مصر أجل الأقاليم وأبهج الأراضى أجمعين ، وخيره وزروعه تم سائر الأقطار وينتفع بها الأدميون والمواشى والطيور والوحوش فى القفار ، ومعين خيره وأساس نعمته هذا النيل المبارك الذى هو أفضل البحار والأنهار ، فقد هندستم وأتقنتم محل رحاله وأساس قياسه وبنيانه ، فكانت هذه مزية منكم وثمرة ونتيجة من نتائج أفكاركم العزيرة فرحت بها الناس أجمعين ، وشكروا احسان حضرة سر العسكر الكبير<sup>(٢)</sup> ، وعلوا كمال عقلكم بسبب ما أتقنتموه وأحكمتموه فى هذا المحل الشامل نفعه والمشهور فى سائر الأقطار ، شكر الله معروفكم والسلام ختام ،

مسجل بالديوان فى ٧ شعبان سنة ١٢١٥<sup>(٣)</sup>

الفقيه عبد الله الشراوى رئيس الديوان الفقير محمد المهدي كاتب سر الديوان<sup>(٤)</sup>

(١) مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Citoyen ومعناها « مواطن » كما بينا ذلك بهامش

س ١٠٠

(٢) الجنرال منو

(٣) يوافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٠ وهذا التاريخ يعم فى عهد قيادة الجنرال منو

(٤) نقلنا هذا الخطاب بنصه العربى عن كتاب (تخطيط مصر) الجزء الخامس عشر

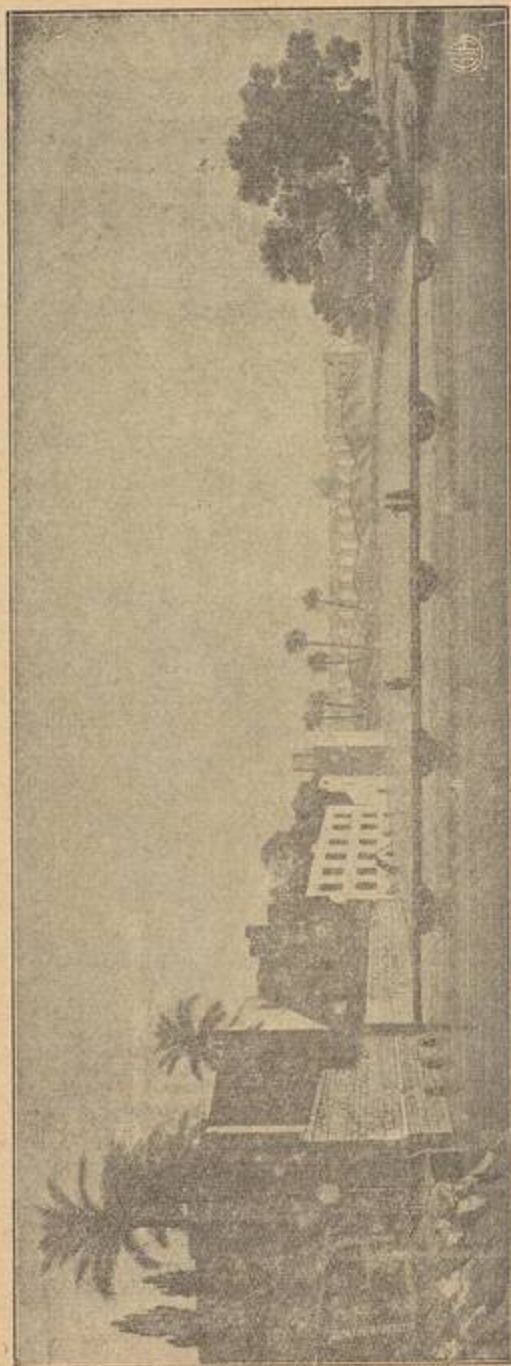


وثيقة رقم ٣

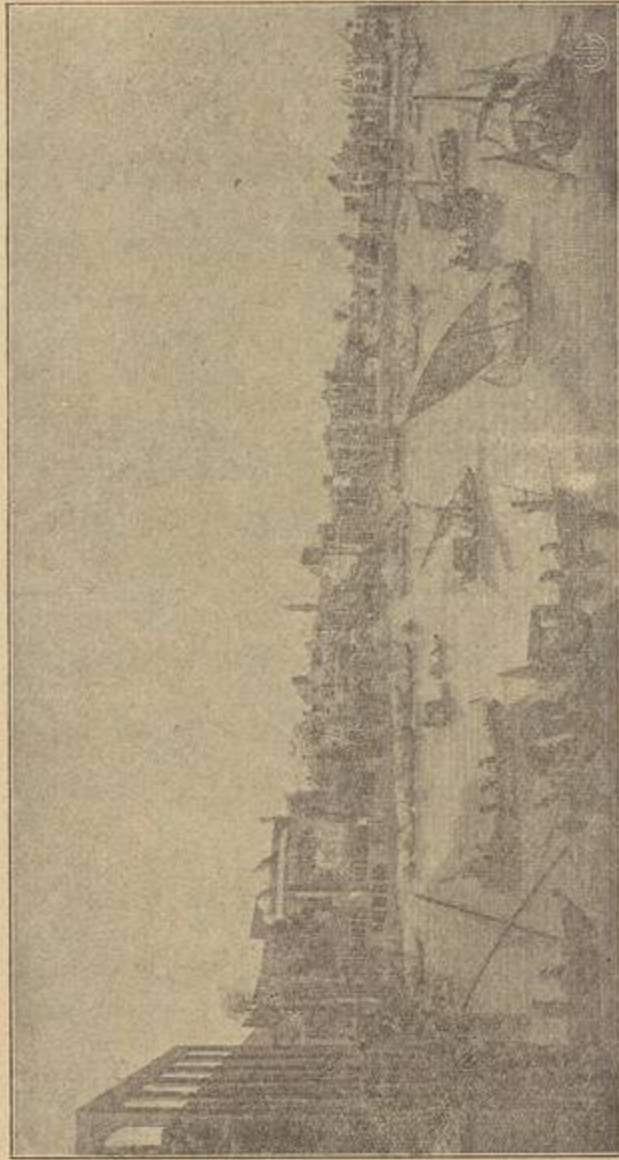
رسالة نابليون إلى أبي بكر باشا والى مصر  
قبل رسو العهارة الفرنسية بالاسكندرية  
( انظر ص ١٧٢ )

« على ظهر البارجة ( أوربان ) في ١٤ مسيدور من السنة السادسة ( ٣٠ يونيه  
سنة ١٧٩٨ )

« إن حكومة الجمهورية الفرنسية قد طلبت غير مرة من الباب العالى عقاب  
بكوات مصر الذين كانوا يرهقون التجار الفرنسيين بمختلف أنواع الإيذاء  
والاعتداء ، وصرح الباب العالى بأن أولئك البكوات قد تمادوا فى أطاعهم وأهوائهم  
وتسكبوا سبيل العدالة والاستقامة ، وأنه لا يقرهم على إساءة معاملة أصدقائه  
الفرنسيين الأوفياء ، ولا يراهم جديرين بعطفه وحمايته ، وعلى ذلك قد اعترفت  
الجمهورية تجريد جيش جرار للقضاء على مظالم البكوات المماليك ، كما اضطرت أن  
تجرد حملات فى خلال القرن الحالى على بكوات تونس والجزائر ، ويقينى أنك  
وأنت الذى يجب أن يكون حاكم البلاد ومع ذلك قد سلب منك  
البكوات كل حول ونفوذ وجعلوك فى القاهرة رهن إرادتهم لا بد أن تقابل  
حضورى إلى هنا بالسرور والارتياح ، ولعله قد وصل إلى عليك أنى ما حضرت  
بنيات عدائية نحو القرآن أو نحو السلطان وأنت تعلم أن الأمة الفرنسية هى الخليفة  
الوحيدة للسلطان فى أوربا . فبادر إلى مقابلتى واشترك معى فى استنزال اللعنات  
على طائفة المماليك الممقوتة ،  
« بونا بارت (١) ،



جسر المراكب (السكرتوري) الذي أنشأه الفرنسيون بين القصر العيني والروضة (أقطر من ١٤٣)



ميدان الأزبكية في أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت مياه النيل تنعمره في أيام الفيضان فيصير لجة يتنزه فيها الناس بالزوارق في النهار والليل ( انظر ص ٦٢ )

وثيقة رقم ٤

رسالة نابليون

إلى إدريس بك قومندان السفينة التركية في الاسكندرية

( انظر ص ١٧٢ )

« على ظهر البارجة ( أوريان ) في ١٣ مسيدور من السنة السادسة ( أول يوليه سنة ١٧٩٨ )

« إن البكوات قد أرهقوا تجارنا بمختلف أنواع الإيذاء والتعدي ، وقد جئت لأطلب منهم حسابا عما فعلوا

« وسأكون غدا في الإسكندرية ، ولا يساورك أى قلق من حضوري فإنك تابع لصديقنا الكبير السلطان ، فعليك أن تسلك الخطة التي تتفق مع هذه الصداقة ، أما إذا أتيت عملا عدائيا ضد الجيش الفرنسي فسأعاملك معاملة الأعداء أعداءهم ، وهناك تقع التبعة عليك وحدك لأن ذلك أبعد ما يكون عن رغبتى وعواطفى ، «  
« بونابارت (١) »

وثيقة رقم ٥

منشور نابليون إلى الجنود قبل رسو العارة الفرنسية

( انظر ص ١٧٥ )

« المعسكر العام على ظهر البارجة ( أوريان ) في ٤ مسيدور من السنة السادسة ( ٢٢ يونيه سنة ١٧٩٨ ) (٢) »

« أيها الجنود

« إنكم ستخوضون غمار حملة لها آثار لا تحصى في حضارة العالم وتجارته ، وستنالون من انجلترا بضربة هي أشد ما يصيبها في الصميم إلى أن تتمكنوا من ضربها الضربة القاتلة

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٧٢١

(٢) أذيع على الجنود يوم ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨

« سنجتاز في هذه البلاد رحلات متعبة ، وسنخوض فيها معارك عدة ، على أن النصر سيكون حليفنا في كل خطواتنا لأن العناية تلحظنا

« ولا تنقضى أيام معدودات على نزولنا إلى البر حتى نمحق الممالك الذين يناصرون التجارة الإنجليزية ويخصونها بالمساعدة ويرهقون تجارنا بمختلف الأتاوات والإهانات ويسومون سكان وادي النيل الظلم والاضطهاد

« إن الشعب الذي سنتصل به يدين بدين الإسلام وأول أركانه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فلا تعارضوهم في دينهم وعاملوهم كما عاملتم اليهود وكما عاملتم الإيطاليين ، واحترموا مشايخهم ومفتيهم وأئمتهم كما احترمتهم الربانيين والأحبار والقساوسة ، وليكن شعاركم في معاملة المساجد والشعائر الدينية التي يأمر بها القرآن ذلك التسامح الذي كان رائدكم حيال الكنائس والصوامع والبيع والتعاليم الموسوية والمسيحية ، فإن الجيوش الرومانية كانت تحمي الأديان كلها على السواء

« وستجدون هنا عادات تختلف عن عادات أوروبا ، فعليكم أن تألفوها ، وإن الشعب الذي سنقيم بينه يعامل النساء على غير عادتنا ، ولكن الاعتداء على أعراض النساء في كل بلد جريمة لا يقدم عايبها إلا الوحوش

« واعلموا أن النهب لا يعود بالنفع إلا على طائفة قليلة من الناس ولكنه يدنس شرفنا ويقضى على مواردنا ويجلب علينا كراهية الشعوب التي تقضى مصلحتنا بأن نكسب ودها

« وإن أول بلدة تنزل بها قد بناها الإسكندر ، وسنجد عند كل خطوة نخطوها بها آثاراً مجيدة جديدة بأن تشير إعجاب الفرنسيين وغيرتهم ،

« بونا بارت (١) ،

وثيقة رقم ٦

خطبة نابليون بالأزبكية

في الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

( انظر ص ٢٦٢ )

« أيها الجنود

« نحتفل اليوم بمسئلة السنة السابعة للجمهورية

« منذ خمس سنوات خَلَّتْ كان استقلال الشعب الفرنسي مهدداً ، ولكنكم

جاهدتم فاحتلتم ( طولون ) فكان هذا الاحتلال فاتحة انهيار صرح الأعداء .

« ولم ينقض عام حتى هزمت النمسيين في ( ديجو )

« وفي السنة الثالثة رفعت علم النصر فوق قمم جبال الألب

« ومنذ عامين كنتم تهاجمون ( ماتو ) وحزمت ذلك النصر الباهر في ( سان

جورج )

« وفي العام الماضي بلغتم منابع نهري ( الدراف ) و ( الايسونزو ) بعد أن

انصرتم في ألمانيا ، فن كان يظن يومئذ أنكم ستكونون اليوم على ضفاف النيل

في بطن القارة القديمة ؟

« إن الشعوب شاخصة إليكم ترمقكم بأبصارها على اختلاف أجناسها ، يستوى

في ذلك الانجليزى الذى ثقفته التجارة والفنون ، والبدوى الذى يعيش عيشة

الغلاظة والوحشية

« أيها الجنود

« إن مستقبلكم مجيد لأنكم جديرون بما فتم به من جلائل الأعمال وبما حزتم

من الثناء ، ولئن كتب عليكم الموت فستنالون موتاً شريفاً كدأب أولئك الأبطال

الذين نقشت أسماؤهم على هذا الهرم . وإذا عدتم إلى الوطن فإنكم ستعودون

مكللين بتاج الفخار حائزين إعجاب الشعوب جميعاً

« مضى علينا ستة أشهر منذ برحنا القارة الأوروبية ومن يومئذ ونحن

مغمورون على الدوام بسيل لا ينقطع من عواطف مواطنينا الذين ترمقنا أبصارهم

في كل آن ، فاليوم يشارككم في هذا الاحتفال أربعون مليوناً من المواطنين يحتفلون بإقامة الحكم الدستوري ويتجهون إليكم بأفكارهم وعواطفهم ، ويذكرون في احتفالهم أنهم مدينون لجهادكم ودمائكم بما يتمتعون به من السلام والطمأنينة ، والرخاء والحرية الوطنية ،  
« بونا برت (١) »

وثيقة رقم ٧

واقعة المنصورة

( انظر ص ٣٢٠ )

نشر هنا نص الأمر الذي أصدره نابليون بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨  
بفرض الغرامات على بعض البلاد وبخاصة المنصورة وأهلها

أمر

المعسكر العام بالقاهرة في ١٤ فركتيدور من السنة السادسة ( ٣١ اغسطس  
سنة ١٧٩٨ )

بونا برت القائد العام يأمر بما هو آت

المادة الأولى — توقف الغرامات التي ضربت على بلاد مديرية المنصورة  
المادة الثانية — تدفع مدينة المنصورة غرامة قدرها ثلاثة آلاف ريال تفرض  
على الأغنياء من أهلها عقاباً لهم على سوء صنيعهم نحو جنودنا  
المادة الثالثة — يدفع السيد على الشناوى أحد أهالي المنصورة غرامة قدرها  
٢٠٠٠ ريال ، وفي مقابل ذلك يُعطى أماناً على نفسه وعلى أملاكه وأمواله  
المادة الرابعة — تفرض غرامة قدرها ٢٠٠٠ ريال على أسوأ البلاد سلوكاً في  
مديرية المنصورة

المادة الخامسة — تفرق غرامة ٤٠٠٠ ريال بشكل سلفة على أغنياء التجار  
والأعيان في المحلة الكبرى  
المادة السادسة — تدفع هذه المبالغ إلى أمين خزانة فرقة الجنرال دوجا

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٦٥

وتكون تحت تصرف مدير مهمات الجيش وعليه أن يخصصها لبناء أفران الجيش وإدارتها واستئجار المراكب والنفقات المطلوبة للفرقة

المادة السابعة - على كبير المباشرين تنفيذ هذا الأمر بوبارت (١)

هذا ، وقد بحثنا عن اسم ( السيد على الشناوى ) الوارد فى أمر نابليون وعن أسرته ، فتحققنا بعد الاطلاع على مستندات ووثائق خطية وحجج قديمة أنه الجدد الثانى لعلى أفندى حسن الشناوى أحد أعيان المنصورة الحاليين ، وقد أطلعنا حضرته على ( فرمان أمان ) صادر لجده المذكور فى أوائل عهد محمد على باشا وبمهور بخت محمد على ( والى مصر ) ومؤرخ ١٧ صفر سنة ١٢٢١ هجرية ، وهذا التاريخ يوافق ٧ مايو سنة ١٨٠٦ ، أى أن السيد على الشناوى المذكور نال ( عهد الأمان ) من نابليون ، ثم من محمد على ، والمدة بين العهدين لا تتجاوز ثمانى سنوات ، وقد آثرنا أن ننقل هنا عهد الأمان الصادر له من محمد على ، لأنه من مقارنة تاريخ الوثيقتين يتبين أنه هو المقصود بأمر نابليون المؤرخ سنة ١٧٩٨ ، وإليك نصه بألفاظه وعباراته القديمة المألوفة فى ذلك العصر :

« إعلاماً بها بالأمان الكافى إلى السيد على الشناوى بالمنصورة تحيطون علماً إننا قد عفونا عنكم وأعطيناكم الأمان الكافى أمان الله تعالى وأمان رسوله الكريم ثم أماننا السعيد ولم نخش من شىء جملة كافية وتكون مشغول بأسبابك وأحوالك ولم لك من طرفنا ومن طرف خلافنا إلا كل الحماية والصيانة ولم أحد يتعرض لك ولا يعارضك وتكون مطمئن القلب وال خاطر اعلم واعتمده غايت الاعتماد  
« ١٧ ص سنة ٢٢١ محمد على والى مصر ( ختم ) »

واطلعنا على حجج أوقاف قديمة ترجع إلى عهد يقرب من تاريخ أمر نابليون ورد فيها اسم السيد على الشناوى المذكور موصوفاً « بفخر الأشراف المعظمين السيد الحاج على الشناوى من أعيان التجار بالمنصورة »



## الفصل التاسع عشر

### مراجع البحث

وصلنا إلى فصل من أهم فصول الكتاب ، وهو بيان مراجع البحث ، ونقصد منها المصادر الأصلية التي رجعنا إليها ، ونريد بالمصادر الأصلية الكتب والرسائل التي وضعها شهود العيان المعاصرون للحوادث التي أثبتناها ، وكذلك الوثائق التاريخية الخاصة بهذه الحوادث ، وسنذكر هذه المصادر مرتبة بحسب ترتيب الحوادث والفصول في الجزئين الأول والثاني من الكتاب ، لأن هذين الجزئين يؤلفان حلقة واحدة ولها مصادر واحدة

### عن نظام الحكم في عهد المماليك

- تاريخ ابن إياس المعروف ببدائع الزهور ووقائع الدهور ، الجزء الثالث ، وابن إياس قد شهد الفتح العثماني والسنوات الأولى من حكم الأتراك
- الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة ، لمحمد بن أبي سرور البكري الصديقي ، ويحتوى أخبار ولاية مصر في عهد الحكم العثماني إلى سنة ١٠٥٤ هجرية ومن وليها من قضاة العسكر ، وقد أدرك المؤلف القرن السابع عشر وشهد الحكم التركي وكتب عنه لغاية سنة ١٠٥٥ هجرية ( ١٦٤٥ ميلادية )
- دعيون الأخبار ونزهة الأبصار ، له ، ويحتوى تاريخ مصر مع فذلك من تاريخ الخليقة ، ونبذة من تاريخ الفرس والروم والخلفاء فالدول التي تعاقبت في مصر إلى انتهاء الدولة الجركسية
- المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، له ، في تاريخ سلاطين آل عثمان إلى غاية سنة ١٠٢٩ هجرية

### رحلات الأفرنج

كذلك رجعنا إلى رحلات الإفرنج في عهد الحكم العثماني وما كتبوه في

وصف مصر، ومعظمهم قد تكلم عما شهدوه من نظام الحكم فيها، وإليك أهم الرحلات التي رجعنا إليها وبيان تواريخها

— رحلة بيير بيلون Pierre Belon وهو طبيب فرنسي ساح في مصر والشرق من سنة ١٥٤٦ إلى ١٥٤٩ وهي أول رحلة في الفتح العثماني طبعت سنة ١٥٥٣

Singularité et choses memorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie et autres pays etranagers

— رحلة سينار لامبرت Cesar Lambert وهو تاجر فرنسي هبط إلى مصر سنة ١٦٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ١٦٣٢ ، وقد وصف في رحلته ما شهدته في الاسكندرية والقاهرة وبعض البلاد الأخرى ، وتكلم عن تجارة مصر ومالية الحكومة المصريه

— رحلة جاك البرت Jacques Albert سنة ١٦٣٤ ، نشرت في كتابه ( حالة مصر والحكومات التابعة لها )

Etat de 'LEgypte et des Gouvernements qui en depepent

— رحلة سانتو سيجويزي Santo Seguezzi سنة ١٦٣٥ وهو سائح إيطالي

كتب عن ( حالة مصر المالية وإيراداتها ) Etat des revenus De L'Egypte

— رحلة تيفنو Thevenot في الشرق

Relation d'un voyrge fait au Levent p. Thevenot

تتضمن مشاهداته في الأستانة وبعض بلاد السلطنة العثمانية والديار المصرية وكانت زيارته لمصر سنة ١٦٥٧ ، ورحلته من أهم الرحلات وأدقها

— رحلة بروتي وشارل فرانسوا دورليان Protais et Charies-Fancois

d'Orléans في الصعيد سنة ١٦٦٨

— رحلة نيبور Niebhur وهو رحالة دانمركي جاء مصر سنة ١٦٧١ - ١٦٧٢ بأمر ملك الدانمرك وطبعت رحلته بعنوان - رحلة في بلاد العرب والبلاد المجاورة

— رحلة فانسليب Vansleb وهو سائح ألماني المولد فرنسي التبعة زار مصر

مرتين أهمهما سنة ١٦٧٢ - ١٦٧٣

Nouvelle relation d'un voyage fait ent Egypte

وصف مصر للمسيو دي مايه De Maillet قنصل فرنسا في مصر، وهذا الكتاب

ليس برحلة وإنما هو مجموع رسائل كتبها المسيو دي مايه في وصف مصر حينما كان

قنصلا لفرنسا بها سنة ١٦٩٢ ، وبقى متولياً هذا المنصب ست عشرة سنة تعلم في خلالها العربية ودرس أحوال البلاد واتصل بعلمائها وأعيانها وكتب رسائل عنها نشرها القس لوماسكرييه Le Mascrier طبعت سنة ١٧٣٥

— رحلات المسيو پول لوкас Paul Lucas وهو رحالة فرنسي زار مصر ثلاث مرات وله فيها ثلاث رحلات وله خريطة دقيقة عن مصر رسمها سنة ١٧١٧ ، واثنان من هذه الرحلات بأمر الملك لويس الرابع عشر — رحلة السائح الفرنسي جرانجيه Granger في مصر سنة ١٧٣٠

Relation d'un Voyage fait en Egypte

— رسائل الأب سيكار Père Sicard الجزء الثاني وهو قسيس أقام بمصر عدة سنين عضواً في إحدى البعثات الدينية ومات بها سنة ١٧٢٦ وله خريطة عن مصر رسمها بالقاهرة سنة ١٧٢٢

— رحلة نوردن Norden في مصر والنوبة Voyage d'Egypte etd Nubie وهو قبطان في البحرية الدانمركية ساح في مصر من سنة ١٧٣٧ - ١٧٣٨ بأمر ملك الدانمرك وكتب عنها ثلاثة أجزاء ، وتعد رحلته من أهم الرحلات وأدقها وأوفها ولها مصور ملحق بها ، فيه رسوم مدينة الاسكندرية والميناء الشرقية وقلعة قايتباي وقلعة ( أبو قير ) ورشيد والبحيرة ومصر القديمة وغيرها من مواقع مصر المهمة — رحلة ريشار بوكوك Richard Pococke وهو رحالة إنجليزي جاء مصر سنة ١٧٢٧ أثناء سياحة نوردن

— الجزء الرابع من ( مذكرات البارون دي توت عن الترك والتتار )

Memoires du baron de Tott sur les Turcs et les Tartares

وقد زار مصر موفداً من قبل الحكومة الفرنسية لدرس أحوالها ، ووصفها في الجزء الرابع من كتابه المذكور ، وفي هذا الجزء بيان رحلته إلى مصر في أوائل عهد مراد بك وابراهيم بك

— رحلة المسيو سونيني Sonnini سنة ١٧٧٧ وهو مهندس بالبحرية الفرنسية جاء مصر بأمر حكومة الملك لويس السادس عشر وطبعت رحلته بعنوان « رحلة في مصر العليا والوجه البحري » Voyage dans la Thaupe et Bosse Egypte

— رحلة المسيو سافارى المطبوعة باسم «رسائل عن مصر» ،  
L'Egypte par Savary في ثلاثة أجزاء ، وهو سائح فرنسي زار مصر سنة ١٧٧٧  
وقضى بها ثلاث سنوات

— رحلة فولني الكاتب الفرنسى الشهير ، ساح فى مصر وسوريا سنوات، ١٧٨٢

و ١٧٨٥ Voyage en Syrie et en Egypte par Volney فى جزئين

— كتاب تخطيط مصر — شهد علماء الحملة الفرنسية نظم الحكم فى عهد  
المماليك وأدركوا بعضها وهو قائم وبعضها فى دور الاحتضار وأمكنهم أن يحققوا  
هذه النظم بما درسوه من وثائقها ، وما تلقوه من أفواه الذين عرفوها ومارسوها ،  
ودونوا نتائج تحقيقهم ومباحثهم فى كتاب تخطيط مصر ( وسنعود إلى الكلام عنه  
فيما يلى ) وإليك مواضع هذه المباحث من أجزاء الكتاب المذكور

١ — نظام الضرائب العقارية فى أواخر عهد حكومة المماليك للمسيو لانكرى  
Lancret أحد مهندسى الحملة ( الجزء الحادى عشر )

٢ — خلاصة تاريخ المماليك فى مصر من عهد ظهورهم إلى الحملة الفرنسية  
للمسيو دلابورت Delaporte أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ( الجزء  
الخامس عشر )

٣ — مالية مصر من عهد السلطان سليم إلى الحملة الفرنسية للمسيو استيف  
Estève مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية فى عهد الحملة الفرنسية ( الجزء  
الثانى عشر )

٤ — عادات سكان مصر الحاليين للمسيو شابرول Chabrol وفيه بحث عن  
نظام الحكومة ( الجزء الثانى عشر )

— تاريخ مصر من الفتح العربى إلى الحملة الفرنسية للمسيو مارسل ، أحد علماء  
الحملة الفرنسية

#### عهد الحملة الفرنسية

أول مرجع اعتمدنا عليه هو كتاب الجبرتى مؤرخ مصر فى ذلك العهد ، وهو  
الكتاب الفذ المسمى «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» فى أربعة أجزاء .

ولايسعنا إلا أن نفرّد للجبرتيّ وكتابه كلمة تفي بأهمية هذا الكتاب :

### الجبرتيّ وتاريخه

هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتيّ بن الشيخ حسن الجبرتيّ ، وكلاهما من نوابغ علماء الأزهر ، والشيخ حسن الجبرتيّ والد المترجم كان عالماً بالعلوم الرياضية وما إليها ، فوق تبحره في علوم الأزهر ، وكانت إليه الرحلة من الأقطار البعيدة في علم الفلك والعلوم الرياضية ، وقد كان لهذه العلوم أثر كبير في تثقيف عقل الجبرتيّ ، ولولاها لما وفق إلى تأليف كتابه العظيم ، لأن دراسة التاريخ وتدوين الحوادث من الأمور التي لم تكن مألوفة في ذلك العصر ولا يتجه إليها إلا عقل راصد قد أُلّف أن يرصد ويدون

والجبرتيّ من أسرة يرجع أصلها إلى جبرت ، من بلاد زيلع بأراضي الحبشة ، ارتحل جده السابع ، الشيخ عبد الرحمن ، إلى مصر أوائل القرن العاشر للهجرة وجاور بالأزهر وتولى مشيخة رواق الجبرتيّة ، واستوطنت أسرة الجبرتيّ مصر من ذلك العهد واشتهرت بخدمة العلم فكان أبوه وأجداده من العلماء وتتابعوا على مشيخة رواق الجبرتيّة نحو ثلاثة قرون

ولد الجبرتيّ سنة ١١٦٨ هجرية ( ١٧٥٦ ميلادية ) ، وهذا التاريخ مستفاد بما ذكره هو في ترجمة أبيه ، فقد روى أنه كان لأبيه زوجة صالحة توفيت سنة ١١٨٢ هـ وأنه كان في وقت وفاتها ابن أربع عشرة سنة ، وعلى ذلك يكون مولده سنة ١١٦٨ هـ

وقد أخذ العلم عن أبيه وعن غيره من علماء عصره ، وحضر دروس السيد مرتضى الزبيدي العالم اللغوي المشهور صاحب تاج العروس في شرح القاموس ، وكان الجبرتيّ على فطنة وذكاء وواعية ، كما يدل على ذلك تاريخه ، ويقول هو إنه وعى الحوادث في سن التمييز ، وأخذ يدون كتابه وهو في سن الأربعين ، وقد أدرك أواخر القرن الثاني عشر الهجريّ وأوائل الثالث عشر ( النصف الثاني من القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلاديّ ) وهو العصر الذي روى وقائمه رواية معانية ونظر ، وإلى ذلك يشير بقوله في فاتحة كتابه : : إني كنت سوّدت

أوراقاً في حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه ، وأوائل الثالث عشر الذي نحن فيه ، جمعت فيه بعض الوقائع إجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها نحن أدركناها ، وأمور شاهدناها ،

وقد مهد لذلك بنظرة عامة إجمالية في تاريخ مصر بعد ضعف الخلافة العباسية وانفراد الحكام والولاة بنواحي المملكة ( بعد قتل المتوكل ) وألحى إلى عهد الطولونيين فالأخشيديين فالفاطميين فالأيوبيين فالملاليك البحرية فالملاليك الشراكسة ويسمهم ملوك الشراكسة

وبدأ بذكر حوادث مصر من ابتداء القرن الثاني عشر الهجرى ( حوالى ١٦٨٩ ميلادية ) ، ولما كانت الحوادث التي وقعت في النصف الأول من القرن الثاني عشر لم يدركها بنفسه فقد رجع فيها إلى رواية من أدركهم من عاصروا تلك الحوادث ، وفي ذلك يقول : « واستطردت في ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخة تلقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين ، من العلماء والأمراء المعترين ، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم ، وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم ، وقد جمع مادونه من الحوادث مرتبة على السنين والشهور والأيام ، وإلى ذلك يشير بقوله : « فأجبت جمع شملها وتقيد شواردها في أوراق متسقة النظام . مرتبة على السنين والأعوام . ليسهل على الطالب النبيه المراجعة . ويستفيد ما يرومه من المنفعة ، ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية فيتأسى إذا لحقه مصاب ، ويتذكر بحوادث الدهر إنما يتذكر أولو الألباب ، فإنها حوادث غريبة في بابها ، متنوعة في عجائبها ، وسميته « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ،

والحق ان الجبرتي عانى كثيراً في جمع الحوادث ، وبخاصة التي وقعت من أوائل القرن الثاني عشر إلى الزمن الذي وعى فيه الحوادث ، لقللة المراجع ، ولم يجد كما يقول لتاريخ هذه المدة الطويلة سوى كتاب واحد لأحمد بن جلبي بن عبد الغنى ، يبتدىء من تاريخ الفتح العثماني إلى سنة ١١٥٠ هجرية ( ١٧٣٧ ميلادية ) ، ومع ذلك لم يستطع الرجوع إليه لضياح هذا الكتاب ، فاضطر أن يرجع إلى النقل من أفواه الشيوخ المتقدمين في السن ، وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين ، وما نقش

على أحجار مقابر المتوفين ، من أول القرن الثاني عشر إلى سنة ١١٧٠ ( أى من سنة ١٦٨٩ إلى سنة ١٧٥٦ ميلادية ) ، وأما الحوادث التي وقعت من سنة ١١٧١ ( ١٧٥٧ ميلادية ) إلى سنة ١١٩٠ ( ١٧٧٦ ميلادية ) فقد شهدها الجبرتي ، ودون وقائعها بعد حدوثها بعدة سنين ، وفي كل ذلك يقول : « فرجعنا إلى النقل من أفواه الشيخة المسنين ، وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين وما انتقش على أحجار ترب المقبورين ، وذلك من أول القرن ( الثاني عشر ) إلى السبعين ، وما بعدها ( أى بعد سنة ١١٧٠ ) إلى التسعين أمور شاهدناها ، ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنها إلى وقتنا أمور تعلقناها ، وقيدناها وسطرناها ،

وكذلك شهد الحوادث التي وقعت من سنة ١١٩١ إلى ١٢٣٦ هجرية ( ١٧٧٧ - ١٨٢١ ميلادية ) ودونها في كتابه

فالجبرتي إذن شاهد عيان للحوادث التي وقعت بمصر من سنة ١٧٥٧ ميلادية إلى سنة ١٨٢١ ، وهي السنة التي ختم بها كتابه ، أما الحوادث التي سبقت هذه المدة فقد اعتمد فيها على النقل من كبار السن والرجوع إلى الوثائق المخطوطة

وتاريخ الجبرتي هو التاريخ الوحيد الذي يعول عليه لمعرفة أخبار مصر في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ولا يوجد مؤرخ غير الجبرتي كتب عن هذه الحوادث بمثل إسهابه وتحقيقه ، أما رجال الحملة الفرنسية وعلمائها فقد دونوا ما شهدوه من الحوادث ، لكن مشاهداتهم واقعة على فترة وجيزة من الزمن لا تتجاوز في الأرجح سنة واحدة ( وهي السنة التي قضاها نابليون في مصر ) أو ثلاث سنوات على الأكثر ، ومع ذلك فكتابتهم في الغالب مقتضبة يري القارىء عليها مسحة العجالة ، بخلاف الجبرتي فإن كتابته تدل على الاستقراء والتحيص ، وقلمها يوجد كتاب فرنسي في تاريخ الحملة الفرنسية لم يرجع إلى الجبرتي ولم ينقل عنه ، فهو مرجع متفوق على أهميته إجماعا ، وكتابه يسمى في معظم الكتب الفرنسية « يوميات عبد الرحمن ،

وفضيلة الرجل في تدوينه للحوادث أنه كان يتحرى الدقة والصدق ، ويتوخى الحق ، ولم يكن يتحيز لطائفة أو لدولة أو لآى إنسان مهما عظم نفوذه ، وإنك

لستطيع أن تتحقق نزاهة الجبرتي من مطالعة كتابه وإمعان النظر فيه ، وبخاصة في تراجمه ، فإنك تراه يورد الحقائق غير متأثر بجاه من يكتب عنهم ، ذا كراً لكل منهم ماله وما عليه ، وقد صدق في قوله عن كتابه : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مبين للأخلاق ، لميل نفساني أو غرض جسماني ،

ويعد الجبرتي من كبار علماء الأزهر النابيين ، لذلك اختاره الجنرال ( منو ) لعضوية الديوان ضمن الأعضاء التسعة الذين عينهم في أواخر عهد الحملة الفرنسية كما بسطنا ذلك مفصلاً في الجزء الثاني ، وقد ورد اسمه صراحة ضمن هؤلاء الأعضاء التسعة في الوثائق الرسمية للحملة ، وذكر الجبرتي اسمه في كتابه محوطاً بالإبهام. ضمن هؤلاء التسعة ، لأنه عبر عن نفسه بقوله ( وكاتبه ) ، ومن هنا جاء الإبهام ، ذلك أن عبارة ( وكاتبه ) ، وردت محشورة ضمن أسماء أعضاء الديوان وجاءت بعد اسم الصاوي ، مما يدعو إلى الظن بأن المقصود كاتب الصاوي ، ولولا أننا رأينا اسم الجبرتي في الوثائق الفرنسية للحملة لفاتنا أنه هو المقصود بكلمة ( كاتبه ) ، ولا ندرى هل اكتنى الجبرتي بالإشارة إلى نفسه بقوله ( وكاتبه ) تواضعاً أم إبهاماً ، ولو أراد الإيضاح لقال ( وكاتب هذه السطور ) ، وقد رأينا توقيعه ضمن أسماء أعضاء الديوان في عهد ( منو ) بذييل رسالة ودية بعثوا بها إلى نابليون حينما كان قتيلاً أول ونشرتها جريدة ( الكوريه دليجبت ) في العدد ٩١ الصادر في ١٥ فريير من السنة التاسعة (ديسمبر سنة ١٨٠٠ ) ، ولم نر لهذه الرسالة أثر في كتاب الجبرتي ، والمعروف أن الفرنسيين كانوا يختارون لعضوية الديوان أشهر العلماء وأنهم في مصر ليجعلوا له شيئاً من المكانة ، ولم تمنع الجبرتي لعضويته للديوان أن يكتب باستقلال ونزاهة عن الفرنسيين وحكمهم ، ولو علموا أنه يقيد الحوادث والفظائع التي ارتكبها عمالهم ويدونها في مسودات كتابه وأن هذا الكتاب سيكون أعظم مرجع في وقائع الحملة الفرنسية ، لما فاتهم مصادرة هذه المسودات وإعدامها ، وظاهر من أسلوبه في الكتاب أنه كان يكتب حسب ما يميل عليه اعتقاده ، ولم يفته أن يذكر للفرنسيين ما فعلوه من خير ، فقد مدح اعتدالهم وعدالتهم في محاكمة



قتلة كبير ، و ذكر الإصلاحات التي أحدثوها في مصر ، وعدد مساوي . الحكم التركي كما ذكر مساوي . الحكم الفرنسي ، ولم يفته شيء من سيئات حكم الأتراك ، ويكفيك في بيانها ما ذكره عن مظالمهم بقوله إنها جعلت المصريين وخصوصاً الفلاحين يتمنون أحكام الفرنسيين

على أن من يتأمل في كتاب الجبرتي لا يفوته ملاحظة أنه مع عدم تحيزه في ذكر الحوادث يميل بعض الميل إلى الأمراء المماليك ، وهذه الميول تبدو من خلال بعض أقواله بالرغم من أنه يحاول كتمانها ، ولعل هذه الميول البريئة ناشئة عن أنه كان على صلوات من الود مع بعض البسكوات المماليك ، وكان هو موضع احترامهم وإجلالهم ، وكان يسميهم « الأمراء المصريين » ، وقد أدرك مذبحة المماليك في القلعة سنة ١٨١١ وكان له بين القتلى أصدقاء اتصل بهم بروابط الود ، فكان لهذه المذبحة أثر أليم في نفسه ، وكان من جهة أخرى صديقاً لمحمد بك الألفي أحد زعماء المماليك ومعجباً به ، وترى دلائل إعجاب به في ترجمته له ، ومحمد بك الألفي هو خصم محمد علي الآلد ، فكل هذه الاعتبارات كان لها أثرها في حكم الجبرتي على أوائل عصر محمد علي باشا ، على أن حكمه هذا لا يمكن أن يؤخذ حجة في مجموعه ، لأن من شروط صحة الحكم على عصر من العصور أن يتناوله المؤرخ بأمله ، والجبرتي لم يدرك إلا أوائل حكم محمد علي

ورغم تلك الملاحظة فإنه لا يسع من يدرس كتاب الجبرتي إلا الاعتقاد بنزاهته وبعده عن الهوى ، وتحريه الصدق فيما دونه ، وهذه الفضيلة هي أعظم مميزات الجبرتي ، وميزته الثانية هي كفايته في تدوين الحوادث ، وما بذله من الجهد والصبر في البحث والاستقراء

وللجبرتي الفضل الأكبر في تدوين تاريخ مصر وحوادثها وتراجم رجالها في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ولولاه لغابت عنا حوادث مصر في تلك الحقبة الطويلة من الزمن ، ولصرنا منها في ظلمة وحيرة

وليس كتابه مرجعاً للحوادث التاريخية وحسب ، بل تجد في خلال عباراته ومشاهداته صورة حية لحالة مصر الاجتماعية في ذلك العصر ، ولولاه لكان مرجعنا في ذلك أقوال الأفرنج الذين ساحوا في مصر في فترات مختلفة ، وهؤلاء لا يمكن

التعويل على أقوالهم ، لأنهم لم يدرسوا الوسط الذي كتبوا عنه ، وأغلب كتاباتهم مبنية على المشاهدات الفجة والآراء السطحية والروايات التي يلتقطونها من أفواه التراجمة ، ولذلك نرى كتبهم مملوءة بالأغلاط والسخافات ، ولا يصح أن يقام لها وزن بجانب كتاب الجبرتي الذي نشأ وقضى حياته في مصر ودرس أحوالها وعرف دقائق الأمور في حوادثها السياسية وأحوالها الاجتماعية ، وحسبك أنه شاهد عيان لحوادث خمسين عاماً أو نحوها ، وأنه استقرأ حوادثها في نحو خمسين علماً أخرى ، ولم يتوفر مثل هذا الاستقرار وهذه المشاهدة لعالم آخر ، ويكفيك أيضاً أنك تستطيع أن تجد تراجم رجال مصر في العصر الذي كتب عنه الجبرتي ، وقبلها تستطيع أن تقف على تراجم الوفيات بعد انتهاء كتابه ، ولو أن مؤرخاً قام بعد الجبرتي ودون حوادث مصر وترجم لرجالها من سنة ١٨٢٢ لما انقطعت سلسلة التاريخ بعد وفاته ، ولكان لدينا صورة حية لحوادث مصر وأحوالها الاجتماعية وتاريخ رجالها من ذلك العهد إلى نهضة الصحافة المصرية التي صارت بمثابة سجل لحوادث البلاد ، فهذا النقص الذي نشعر به هو من أعظم الأدلة على فضل الجبرتي على التاريخ المصري

#### أسلوب الجبرتي ولغته

يضرّبون المثل على انحطاط الكتابة في ذلك العصر بأسلوب الجبرتي ولغته ، على أن الجبرتي لا يزعم أنه كاتب أديب ، وقد كانت الكتابة صناعة أدبية يقوم بها من توفروا على أسبابها من حفظ الرسائل والشعر وفنون الأدب المعروفة ، ومع أن الجبرتي من تلاميذ السيد مرتضى شارح القاموس فلم يفده السيد أكثر مما كان يفيدوه أعطاه كتاباً من أمهات كتب اللغة ، فوقفت في تاريخه الأغلاط الكثيرة في المفردات وفي العبارة وفي الأسلوب ، ويرجع كل ذلك إلى أنه لم يفرغ للأدب ولا مهراً فيه ، بل درس العلوم الشرعية والفلك والرياضة ثم عمد إلى التاريخ ، فسبيله الدقة والتحصيل ، والرصد والتوقيت ، والصبر والمعاناة ، والقيام أحسن القيام على تدوين الوقائع ، وذلك كله قد وفي الرجل به ، أما اللغة وتراكيبها وبدائعها فصناعة أخرى تحتاج إلى مثل الوقت الذي ألف كتابه فيه ، وأكبر الظن

أنه مات عن مسودات كتاب لاعن كتاب، فلو كان العمر قد امتد به لنقح وهذب ، وبحث وفتش ، وأضاف إلى صناعة التاريخ صناعة الكتابة ، على أن الرجل لم يكن قليل البضاعة في الأدب ، فإن عباراته في بعض المواضع تدل على أنه ضرب بسهم في اللغة وأوضاعها ، ولكنه لم يعن بالإنشاء والبلاغة ، فأسلوب الجبرتي أسلوب تقريرى لاشأن له بصناعة الترسل ولا يفنون الأدب ، وما يتفق فيه من محاسن اللغة والتعبير فرجعه إلى المصطلحات والألفاظ الشرعية الجارية في الفقه والحديث والتفسير والمعاملات ، والعبارات المحفوظة المتلقاة عن كتب الأدب ، وهذه المراجع هي مادة العلم واللغة في ذلك العصر ، وظاهر لمن يحقق النظر في كتاب الجبرتي من الوجهة اللغوية أنه لو لا العلوم الشرعية وما يجري فيها من اللغة وأوضاعها لبادت الكتابة العربية في ذلك العصر ، ولكان تاريخ الجبرتي قد جاءنا في لغة ليس فيها من العربية إلا حروفاً

#### ترجمة كتابه

وقد ترجم كتاب الجبرتي للفرنسية مرتين، الأولى بقلم الميسو كاردان Cardin مترجم القنصلية الفرنسية بمصر المتوفى سنة ١٨٣٨ ، وهذه الترجمة قاصرة على الجزء الخاص بالحملة الفرنسية وهي تحوى أغلظاً كثيرة ، وقد طبعت سنة ١٨٣٨ ، أما الترجمة الصحيحة الوافية فهي لنخبة من أدباء مصر برآسة المرحوم شفيق بك منصور يكن، وقد ظهرت في تسعة أجزاء من سنة ١٨٨٨ إلى سنة ١٨٩٦ وترجم الجزء الخاص بالحملة الفرنسية أيضاً إلى التركية

#### وفاة الجبرتي

اختلف الرواة في تاريخ وفاة الجبرتي ، ففي بعض الروايات أنه توفي سنة ١٢٤١ هجرية ، على أن رواية المرحوم شفيق بك منصور يكن أقرب إلى الثقة لأنه حقق مسألة وفاته وتحرى عن ذريته لمناسبة ترجمة الكتاب إلى اللغة الفرنسية ، فكتب في مقدمة الترجمة أنه توفي يوم ٢٧ رمضان سنة ١٢٣٧ هجرية ( ١٨ يونيو سنة ١٨٢٢ ) وقال عن ذريته : « انه توفي تاركا غلاما وبنثا وان الغلام مات عقب وفاة والده بسنوات قليلة وان البنث كانت لم تزل على قيد الحياة بالقاهرة حتى

ظهور الترجمة الفرنسية للكتاب لكنها كانت تعيش نسيا ملسيا ، ولم يرو لنا أحد من معاصريها ماذا صارت إليه ، وهكذا درست عائلة الجبرتي بعد ما أحيا عميدها تاريخ مصر

ويستفاد من رواية شفيق بك منصور يكن أن كتاب الجبرتي ينتهي عند حوادث سنة ١٨٢١ وأنه لا يوجد جزء خامس كما يروي البعض دون فيه حوادث السنوات التي أعقبت سنة ١٨٢١ ، إذ أن تاريخ وفاته سنة ١٨٢٢ يقرب إلى الذهن أن مادونه ينتهي بنهاية الجزء الرابع من الكتاب

° ° °

- كتاب « ذكر تملك جمهور فرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية ، تأليف المعلم نقولا الترك من أدياب لبنان

ترجم المسيو ديجرانج Desgranges هذا الكتاب إلى الفرنسية ونشر الأصل العربي مع الترجمة في كتاب واحد طبع في باريس سنة ١٨٣٩ ، وذكر المسيو ديجرانج أنه قابل المعلم نقولا الترك المذكور وتعرف به وذكر عنه أنه ولد في دير القمر سنة ١٧٦٣ ، وتوفي بها سنة ١٨٢٨ وأبوه يوسف الترك ، وأصل عائلته من الأستانة وأنه كان في خدمة الأمير بشير الشهابي الذي أوفده إلى مصر على عهد الحملة الفرنسية وقضى بها ثلاث سنوات شهد في خلالها وقائع الحملة إلى جلاء الفرنسيين وجمع مشاهداته التي ألف منها كتابه ، فروايته من هذه الناحية رواية شاهد عيان ، وقد نقلنا عنه بعض مشاهداته وملاحظاته

- ( تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين )

هي رسالة صغيرة ليس لها قيمة من الوجهة التاريخية ، وضعها الشيخ عبد الله الشرقاوي رئيس الديوان في عهد الحملة الفرنسية ، ويقول في مقدمتها عن سبب وضعها أنه لما حضر يوسف باشا الصدر الأعظم إلى بلبس في شهر رمضان المعظم سنة ١٢١٤ هـ بعد حصول الصلح بينه وبين طائفة فرنساوية في قلعة العريش ودُهِبَت مع بعض علماء مصر لملاقاته طلب مني بعض الاخوان من أتباع ذلك الصدر أن أجمع كتابا متضمنا لواقعة الحال المذكورة فأجبتة إلى ذلك ، وليس في الرسالة عن واقعة الحال المذكورة سوى صحائف قليلة لا تغني شيئا ، وقد نقلنا عنها بعض فقرات مما شاهده الشيخ الشرقاوي بنفسه

### الوثائق الفرنسية للحملة

— مراسلات نابليون Correspondances de Napoleon وهي مجموعة تحتوي جميع المراسلات والأوامر والقرارات والمنشورات والوثائق التي صدرت من نابليون في جميع أدوار حياته ، وهي مرجع على جانب عظيم من الأهمية ، طبعت بأمر الإمبراطور نابليون الثالث في اثنين وثلاثين مجلداً

— مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران Bertrand في سانت هيلين ، القسم الخاص بمصر عنوانه ( حروب مصر وسوريا ) في جزءين  
Campagnes d'Egypte et de syrie

طبعت هذه المذكرات سنة ١٨٤٧ ، وهي مصدر كبير القيمة يحتوي على معلومات دقيقة عن حروب نابليون وسياسته ، ولكن فيها ملاحظة لا تفوت القارىء . وهي أنها كمذكرات العظماء ورجال السياسة لا تخلو من نقطة ضعف مشوها أنهم في بعض المواطن يكتبون ليدافعوا عن أنفسهم أمام التاريخ وأمام الأجيال المقبلة فيحرفون بعض الوقائع في سبيل هذه الغاية ، فمذكراتهم من هذه الناحية يجب أن تقابل بالتحفظ وأن تكون رواية الوقائع فيها محلا للبحث والتحقيق

— مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال جورجو Gourgaud ، وهي مذكرات أخرى أملاها على الجنرال المذكور أحد رفاقه في المنفى نشرت سنة ١٨٢٣ وفيها معلومات لم ترد في مذكرات برتران ، لكن هذه أوفى بيانا  
— ذكر حروب الجنرال بونابارت في مصر وسوريا

Relation des campagnes du Général Bonaparte en Egypte et en Syrie  
وهو كتاب للجنرال برتية Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية ، ضمنه تاريخ المعارك والحوادث التي وقعت في مصر وسوريا من يوم وصول الحملة الفرنسية إلى انتهاء معركة ( أبو قير ) البرية ، طبع قبل انتهاء الحملة الفرنسية ، والجنرال برتية هو من رفاق نابليون في حياته الحربية والسياسية وكان رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في إيطاليا ثم في مصر ، وقد عاد إلى فرنسا صحبة نابليون بعد واقعة أبو قير البرية قبل انتهاء حوادث الحملة وتقلد وزارة الحربية

عند ما صار نابليون قنصلاً أول ولازمه في حروبه وكان موضع ثقته ورفاه  
مارشالاً ثم دو قائم أميراً لكنه تخلى عنه سنة ١٨١٤ بعد أن أقل نجمه ومات سنة  
١٨١٥ ويقال إنه مات منتحراً

— مذكرات المارشال برتبيه وهي مذكرات أكثر تفصيلاً من كتابه

— تاريخ الحملة الفرنسية في مصر للسيو (مارتان) في جزئين طبع سنة ١٨١٥

Histoire de l'Expedition Francaise en Egypte p. Martin

والسيو مارتان هو أحد مهندسي الحملة الفرنسية وأحد أعضاء لجنة العلوم  
والفنون ومن اشتركوا في وضع كتاب (تخطيط مصر)

— مذكرات بوريين

Memoires de Bourienne sur Napoleon . le Consulat, l'Empire et  
la Restauration.

وبوريين هو سكرتير نابليون الخاص ، نشر مذكراته سنة ١٨٣١ في عشرة  
أجزاء (١) ، وما يجدر ملاحظته أن هذه المذكرات مع أهميتها ودقة بياناتها يجب  
أن تقابل (في بعض المواطن) بالتحفظ ، لأن المعروف عن بوريين أنه تنسك  
لنابليون لما أقل نجمه في حروبه الأخيرة التي انتهت بأسره في واقعة واترلو وانضم  
في هذا العهد إلى خصومه من الملكيين وكافأوه على تنكره لسيده

— مذكرات الجنرال كليبر Carnet du general Kleber

— يوميات الجنرال كليبر Journal du general Kleber

مذكرات الجنرال موران عن أعمال كليبر

Notes du general Morand sur les operations de general Kleber

مذكرات (ميو) عن تاريخ حملة مصر وسوريا

Memoires pour servir à l'histoire des expeditions en Egypte et en  
Syrie p. j. Miot

وميو هذا كان قومسيراً في إدارة مهمات الحملة

مصر بعد واقعة عين شمس

L'Egypte après la bataille d'Heliopolis

(١) أعيد طبعها في خمسة أجزاء كل جزء يتناول جزئين من الطبعة الأولى

تأليف الجنرال رينيه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية ، طبع سنة ١٨٠٢ ، وهذا الكتاب يحتوي تاريخ حوادث مصر من نقض معاهدة العريش إلى جلاء الفرنسيين عن مصر ، وفيه فذلك عن الحوادث التي وقعت في عهد قيادة الجنرال كايبر ، فهو من هذه الجهة يعتبر مكملاً لكتاب الجنرال برتنيه ، لأن كتاب برتنيه ينتهى بأخر عهد نابليون في مصر ، وبدراسة الكتابين تتمثل لديك بمجموعة حوادث الحملة الفرنسية كما يرويهما قائدان من أهم قواد الحملة ، والمعروف عن الجنرال رينيه أنه كان خصماً لدوداً للجنرال منو Menou وكان بينهما خلاف شديد أشار إليه الجبرتي في كتابه ، وقد أمر منو بطرده من الإسكندرية في آخر عهد الحملة الفرنسية ( وقد ذكرنا تفصيل ذلك في الجزء الثاني ) ، فوضع رينيه كتابه ليدافع عن وجهة نظره وخططه الحربية التي عارض فيها منو ، على أن رينيه كان معتدلاً في شرح آرائه متحرياً الصدق في سرد الوقائع معتمداً في كتابه على الوثائق والبيانات الرسمية ، ويعتبر كتابه هذا من أهم وثائق الحملة الفرنسية ، وقد مات الجنرال رينيه سنة ١٨٠٤ وأعيد طبع الكتاب سنة ١٨٢٧ باسم مذكرات رينيه  
Memoires de Reynier

— جريدة (كورييه دليجبت) Courier de l'Egypte وهي الجريدة شبه الرسمية للحملة الفرنسية وقد تكلمنا عنها ص ١٤٠

— جريدة (لاديكاد اجيسيين) La Decade Egyptienne وقد تكلمنا عنها ص ١٤٠

— رحلة في الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال (بونابارت) ،  
للسيو فيفان دينون

Voyage dans La Basse et La Haute Egypte pendant les campagnes  
du general Bonaparte p. Yivant Denon

وقد تكلمنا عن هذا الكتاب ومؤلفه ص ١٣٥

— التاريخ الطبى لجيش الشرق للدكتور ديجنيت كبير أطباء الحملة الفرنسية

Histoire médicale de L'Armée d'Oreint p. Desgenettes

ذكريات ديجنيت Souvenirs de Desgenettes

— رسائل من مصر بقلم المسيو جوفروا سان هيلير أحد علماء الحملة وقد  
تكلّمنا عنه ص ١٢٧

Lettres ecrites d'Egypte p. Geffroy Saint Hilaire

— مذكرات دفيلييه أحد مهندسي الحملة ( يوميات وذكريات عن حملة مصر )

Jourcial et Souvenirs sur l'Expedition d'Egypte وقد تكلّمنا عنها ص ١٢٥

— مذكرات جالوا أحد مهندسي الحملة ( انظر ص ١٢٥ )

Journal d'un ingenieur attaché à l'Expedition D'Egypte p. Jalloies

— تاريخ حملة مصر Histoire de l'Expedition d'Egypte للمسيو نوري

Norry أحد مهندسي الحملة وقد تكلّمنا عنه وعن كتابه ص ١٢٦

— يوميات مالوس Agenda de Malus ( انظر ص ١٣٣ ) وهو ضابط كبير

في جيش الحملة وعضو بالمجمع العلمي ، ومذكراته تتناول الحوادث من فبراير

سنة ١٧٩٨ إلى يولية سنة ١٨٠١ لكنها طبعت سنة ١٨٩٢

— وللجنرال مارمون Marmont أحد قواد الحملة رحلة في بعض بلاد أوروبا

والشرق ، وكانت رحلته إلى عصر في عهد محمد علي باشا وقد دون فيها مشاهداته

وذكرياته عن الحملة الفرنسية طبعت باسم ( رحلة المارشال الدوق دي راجوز )

voyage du Marechal duc de Raguse وهو بذاته الجنرال مارمون الذي رقاها

نابليون إلى لقب دوق فصار يعرف بالدوق دي راجوز ومنحه رتبة مارشال ثم

غدر بسيدته لما أقل نجمه وانحاز إلى أعدائه فمد عمله مضرب الأمثال في الغدر

ونقض العهد ، وقد طبعت رحلته سنة ١٨٣٧

— مذكرات دي نيلو سارجي أحد ضباط الحملة . مات سنة ١٨٠٢ ونشرت

مذكراته سنة ١٨٢٥

Memoires secrets et inedits pour servir à l'histoire contemporaine  
sur l'Expedition d'Egypte p. De Niello-Sargy

— صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسي للمسيو جالان

Tableau de l'Egypte pendant le séjours de l'armee française p.  
Galland.

طبعت سنة ١٨٠٤ في جزين ، والمسيو جالان هو أحد أعضاء لجنة العلوم

والفنون وكان أديباً وموظفاً في جريدة ( الكورييه دليجيت )



- جيش بونا بارت في مصر للقومندان جتري  
L'Armée de Bonaparte en Egypte p. Guitry  
— بونا بارت في مصر للسكابتين تورمان أحد ضباط الحملة  
Bouaparte en Egypte p. Thurman  
— يوميات الجنرال لوجيه  
Jornat du Général Laugier  
— يوميات الكونتير أميرال بلانكي دي شايللا أحد قواد العمارة الفرنسية  
Journal du contre—Amiral Blanquet du Chyata  
— يوميات الجنرال بليار  
Journal du general Belliard  
— مذكرات الجنرال ديفرنوا  
Memoires du general baron Desvernois  
— مذكرات سلكوسكي  
Notes de Sutkowsky  
— مذكرات حربية للكولونيل فيجوروسيليون  
Memoires militaires du colonel Vigo Roussillon  
— مذكرات تاريخية عن حركات ومواقع فرقة الجنرال ديزيه للسكابتين جاربيه  
من ضباط فرقة الهندسة  
Memoires historiques des marches et positions de la division de  
general Desaix p. le capitaine de genie Garbé  
ذكريات عن حملة مصر للفارس بيميه  
Souvenirs de la campagne d'Egypte p. le chasseur pierre millet  
— يوميات فارس عن مصر ، وهو أحد ضباط الحملة الفرنسية لم يذكر  
اسمه في كتابه  
Journal d'un dragon d'Egydte  
— تاريخ حملة مصر وسوريا لدمسيو أدير ، وهو ليس بشاهد عيان لكن  
كتابه راجعه الجنرال بوفيه Beauvais رئيس أركان حرب الجنرال رينيه  
Histoire de l'Expebition d'Egypte et de syrie p. Ader  
— مذكرات جديدة عن الجيش الفرنسي في مصر وسوريا لريكاردو ، نشرت  
سنة ١٨٤٨ بعد عهد طويل من الحوادث التي دونت فيها  
Nouveaux memoires sur l'armée française en Egypte et en syrie  
p. Richardo

بمجموعة ميادين الوقائع والهجمات والمعارك التي فاز فيها بونا بارت في إيطاليا

ومصر

Recueil de plans de batailles, attaques et combats agagnés p. Bonaparte en Italie et en Egypte

وهو كتاب لاثنين من ضباط أركان حرب نابليون بمن شهدوا وقائعه ولم يذكر

اسمهما في الكتاب

— يوميات سافاري Cranet du Chef d'escabron Savary أحد ضباط

الحملة الفرنسية (وهو غير المسيو سافاري صاحب كتاب رسائل عن مصر)،

والضابط سافاري هو الذي صار في عهد الامير اطورية نابليونية الدوق روفيجو

Duc de Rovigo وله مذكرات طبعت باسم مذكرات الدوق روفيجو

Memoires du duc de Rovigo

— يوميات عن الحملة الانجليزية في مصر للكبتن ولش Walsh أحد ضباط

تلك الحملة

Journal of the late Campaign in Egypt

يتضمن حوادث الحملة الانجليزية التي اشتركت مع الحملة العثمانية لإخراج

الفرنسيين من مصر، ويبدأ بسرد وقائع الحملة من يوم احتشاد الجيش الانجليزي

في جبل طارق (نوفمبر سنة ١٨٠٠) إلى جلاء الفرنسيين عن مصر وقد ترجم

الكيباب إلى الفرنسية

\* \* \*

ولعلك تشعر معي بأسف عظيم عندما تقارن بين ما تركه رجال السيف والقلم في أوروبا من المذكرات والوثائق في مختلف العصور، وبين نقص تاريخنا من هذه الناحية، ويزيدنا أسفا أن هذا النقص يلقي ظلما حالكا على كثير من وقائع تاريخنا ويحول دون تعرف الحقائق في كثير من أمهات الحوادث، ولو عني رجالنا بتدوين مذكراتهم وخواطرهم ومشاهداتهم وجمع الوثائق والمخطوطات التي توفرها عليها وعينت سلاتهم بالمحافظة عليها ونشرها كعناية القوم في أوروبا لكان في ذلك أكبر خدمة لتاريخ مصر ولا اكتسبت الآداب التاريخية في بلادنا مادة تعد من أصول الفقه التاريخي

## كتاب تخطيط مصر

Description De l'Égypte

هو الكتاب الخالد الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية ، يحتوى مجموعة أبحاثهم ومذكراتهم وخرائطهم ورسومهم واكتشافاتهم في خلال السنوات الثلاث التي قضوها في مصر ، وهو أعظم كتاب ظهر في العصر الحديث عن تخطيط مصر ، أو هو دائرة معارف لمصر القديمة والحديثة إلى انتهاء عهد الحملة الفرنسية ، يتناول تخطيط آثارها وبلدانها القديمة والحديثة وثغورها وسواحلها ونيملها وترعها ونباتها وحيوانها وطيورها وأسماكها وحشرتها ومعادنها وأحجارها وزراعتها وصناعاتها وتجارتها وعلومها وفنونها وأخلاقها وعاداتها ، وهو وإن لم يكن تاريخاً لقائع الحملة الفرنسية لكن بعض حوادثها وردت فيه خلال أبحاثه العلمية ، على أن الكتاب لعظم قيمته لا يمكن أن يستغنى عن دراسته كل من يريد الكتابة في تاريخ مصر من أى ناحية من نواحيه

بدأ علماء الحملة الفرنسية في وضع هذا الكتاب وتبويبه من عهد رجوعهم إلى فرنسا ، فأخذوا يجمعون المباحث التي أتوها أثناء إقامتهم بمصر وينقحونها ويبنون عليها ، فقصوا في تأليف الكتاب سبعة عشر عاماً ، ومات بعض مؤلفيه أثناء تأليفه وكان وضع الكتاب وطبعه بطلب من الحكومة الفرنسية ، فقد أمر نابليون بعد عودة الحملة الفرنسية من مصر أن تجمع الأبحاث والخرائط والرسوم وجميع المذكرات الخاصة بالعلوم والفنون مما انتهى إليه علماء الحملة في كتاب واحد يطبع بنفقة الحكومة ، وألفت لجنة من ثمانية من أكبر علماء الحملة اختارهم جماعة المؤلفين لتبويب الكتاب وجمع مواده وإخراجه ، وأعضاء هذه اللجنة هم برتوليه Berthollet ومونج Monge وكوتتي Conté وكوستاز Costaz وديجنيت Desgenettes وفورييه Fourier وجيرار Girard ولانكري Lancret ، وضم إليهم في خلال العمل دليل Delite وديفيليه Devillier وجومار Jomard وجالوا Jallois ، وتولى برتوليه رئاسة اللجنة وتداول سكرتاريتها على التعاقب المسيو لانكري ثم جومار ثم جالوا

وكان للجنة قوميسير في مندوب عن الحكومة يتولى تنظيم العمل وإنفاذه وهو المسيو كوتى Conté، وبعد وفاته خلفه المسيو لانكرى، وبعد وفاة الأخير خلفه المسيو جومار إلى أن تم ظهور الكتاب

وقد ظهرت الأجزاء الأولى من الكتاب سنة ١٨٠٩ واستمرت تظهر تباعاً إلى سنة ١٨٢٦، وأعيد طبع الكتاب من سنة ١٨٢١ إلى سنة ١٨٢٩، وهي الطبعة الثانية، وقد درسنا الكتاب في طبعته الثانية للمسيو بانكوك وبلغ عدد ما بها من الخرائط والرسوم الكبيرة والصغيرة ثلاثة آلاف

والكتاب ينقسم إلى وضعين، قسم النصوص وقسم الخرائط والرسوم، فالأول يحتوي مذكرات علماء الحملة وتقاريرهم ومشاهداتهم ويقع في ستة وعشرين مجلداً، والقسم الثاني في أحد عشر مجلداً كبيراً تحتوي رسوم الآثار القديمة ورسوم مصر الحديثة ومدنها ومبانيها وصناعاتها وزراعتها وطبقات سكانها، وكذلك رسوم حيوانها وطيورها وأسماكها وحشراتنا ونباتها ومعادنها وأحجارها، والخرائط الجغرافية عن مصر ومديرياتها وسواحلها وترعها وبحيراتها وصحاريها وجبالها ومدنها وثغورها وأسماء البلاد الكبيرة والصغيرة بالفرنسية والعربية وينقسم من جهة الموضوعات إلى ثلاثة أقسام

(١) وصف مصر القديمة إلى عهد الفتح الإسلامى وفيه تخطيط دقيق مفصل لآثار مصر القديمة والبلاد القائمة بها تلك الآثار أو القرية منها وحالتها القديمة والحديثة

(٢) وصف مصر الحديثة من الفتح الإسلامى إلى مشاهداتهم خلال الحملة الفرنسية

(٣) التاريخ الطبيعى لمصر ولا يسع المطلاع على هذا الكتاب العظيم إلا أن يقر بمقدرة علماء الحملة الفرنسية في استيعاب الحقائق العلمية واستقصاء المشاهدات والمعلومات والبيانات الدقيقة التي جمعوها في الفترة القصيرة التي قضوها في مصر، ويعجب بما تذرعوها به من الصبر والجلد لإتمام عملهم الجليل

مؤلفات جامعة

مستندة إلى الوثائق الرسمية وروايات شهود العيان

وتمّ كتب لم يسكن أصحابها من شهدوا الوقائع التي دونوها، إلا أنها أهم من كثير من المراجع المتقدمة ( عدا كتاب تخطيط مصر ) إذ كانت مستندة إلى وثائق رسمية ذات قيمة كبيرة وإلى روايات شهود العيان وإليك بيان هذه الكتب

— التاريخ العلى والحربى للحملة الفرنسية فى مصر ( فى عشرة أجزاء )

Histoire scientifique et militaire de l'Expedition française en Egypte

طبع من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٣٦

وهو كتاب جامع اشترك فى وضعه جماعة من علماء فرنسا بإدارة الميسو مارسل Marcel أحد علماء الحملة الفرنسية والميسو ريبو Reybaud أحد كتاب فرنسا السياسيين والميسو سانتين Santine، واستعانوا على وضعه بالوثائق والمستندات والمخطوطات والمذكرات التى جمعها لفيث من قواد الحملة الفرنسية وعلمائها ( وبعضهم ممن بقى على قيد الحياة حين وضع الكتاب ) كذكرات الجنرال بليار ومراسلات الجنرال كليبر، ووثائق الميسو دور D'Aure مدير مهمات الحملة، ووثائق الطبيين الشهيرين لارى Larrey وديجيمت، ومذكرات العالم جوزفروا سان هيلير عن تاريخ مصر الطبيعى، ومذكرات بعض قواد الحملة، والمخطوطات التى جمعها الميسو مارسل، ووثائق الميسو بيروس Peyrusse سكرتير الجنرال كليبر الخاص، ووثائق الميسو بوسيلج Poussielle مدير الشؤون المالية فى عهد الحملة وغير ذلك، وكل هذه المصادر على جانب عظيم من الدقة والأهمية، والكتاب فى عشرة أجزاء الجزء الأول خاص بمصر القديمة وقد تولى تحريره ريبو ومارسل والمركيز فورتيا دوربان، والجزء الثانى خاص بتاريخ مصر من عهد الفتح الإسلامى إلى الحملة الفرنسية وتولى تحريره ريبو ومارسل، والأجزاء الستة التالية خاصة بالحملة الفرنسية وقد تولى تحريرها ريبو وحده، ولذلك جعلنا الإشارة فى كتابنا إلى هذه الأجزاء بكلمة ريبو، والجزءان التاسع والعاشر عن تاريخ مصر من جلاء الفرنسيين وتولى تحريرهما فولابل

وقد وضع ريبو مقدمة الكتاب وهو صاحب القسط الأكبر فيه فيصح أن ينسب إليه

والكتاب فضلا عن مكانته باعتباره أول وأكبر كتاب جامع لوقائع الحملة الفرنسية فإنه مستند إلى وثائق شهود العيان ، والمسيو مارسل أحد الذين اشتركوا في تحريره كان فعلا شاهد عيان لحوادث الحملة ، وقد قدم المسيو جوفروا سان هيلير الكتاب إلى المجمع العلمي الفرنسي

— رحلة مصر تأليف الكابتن ( ثم القومندان ) دى لاجونكيير

L'Expedition d'Egypte p. Le C. De La Jonquière

وهو في خمسة مجلدات كبيرة نشر فيها المؤلف الوثائق الرسمية للحملة الفرنسية المودعة في محفوظات وزارة الحربية الفرنسية ووزارات البحرية والخارجية، وهو من أهم مراجع هذا العصر ، ولكنه قاصر على مدة إقامة نابليون في مصر ، وينتهي الجزء الخامس منه برحيله إلى فرنسا. وقد ظهر الكتاب من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٠٧ ويوجد كتاب عن عهد الجنرال كليبر والجنرال منو إلى نهاية الحملة الفرنسية يصح أن يكون تكملة لكتاب القومندان دى لاجونكيير وهو

— كتاب ، الجنرال عبدالله منو والفترة الأخيرة لحملة مصر ، ( ١٧٩٩ —

١٨٠١ ) مؤلفه المسيو جورج ريجو

Le general Abidallah Menou et la dernière phase de l'Expedition d'Egypte p. George Rigault

ظهر هذا الكتاب سنة ١٩١١ في جزء واحد واستند فيه مؤلفه إلى بعض الوثائق الرسمية وحاول أن يكون مكملا لكتاب القومندان دى لاجونكيير ، ولكنه ليس بالتعمق ولا بالإسهاب اللذين نراهما في كتاب دى لاجونكيير فضلا عن أنه ظاهر من أسلوب مؤلفه أنه كان يكتب مدفوعا بروح الانتصار لمنو والتحامل على كليبر، فكتابه يعوزه الاعتدال الذي يكفل النصففة عند تحرى الحقائق

— كتاب الكونت باجول عن كليبر واسمه ( كليبر - حياته ومراسلاته )

Kleber, sa vie' sa correspondance p. le general comte Pajol

كليب و منو في مصر للمسيو روسو

Kleber et Menou en Egypte p. Fr Rousseau

وهو مجموعة من الوثائق الخاصة بعهد قيادة الجنرال كليبر والجنرال منو في مصر

عن المدة التي انقضت بعد جلاء الفرنسيين

إلى إسناد ولاية مصر إلى محمد علي باشا

(المراجع العربية)

— الجبرتي وهو أهم مرجع ويفوق في دقته جميع المراجع الفرنسية ، وقد

سبق الكلام عنه

(المراجع الأوربية)

— تاريخ مصر في حكم محمد علي للمسيو فيليكس مانجان

Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohamed Aly p.  
Felix Mengin

والمسيو فيليكس مانجان هو شاهد عيان للحوادث التي دونها في كتابه من جلاء الفرنسيين إلى سنة ١٨٢٨، وكان مقياً بمصر موظفاً سياسياً في الوكالة الفرنسية بالقاهرة ، وكان صديقاً لمحمد علي باشا واشترك في بعض الحوادث التي دونها في كتابه ، وكتابه من هذه الوجهة له قيمة كبيرة وهو من أهم مراجع تلك الحقبة من الزمن ، ويقع في ثلاثة أجزاء سرد في الأول والثاني حوادث مصر من جلاء الفرنسيين إلى سنة ١٨٢٣ وهما اللذان يعتبران من مراجع الفترة التي بسطناها في الجزء الثاني من كتابنا هذا ، أما الثالث من كتابه فجاء خاصاً بالحوادث التي وقعت

من سنة ١٨٢٣ إلى سنة ١٨٢٨

— لمحة عامة إلى مصر للدكتور كلوت بك

Apercu general sur l'Egypte p. Clot bey

في جزئين وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ محمد مسعود بك

— ورجعنا كذلك في بعض المواطن إلى ( الخطط التوفيقية ) للعلامة علي باشا

مبارك في عشرين جزءاً ، وإلى كتاب ( التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ  
المصرية بالسنين الأفرنجية والقبطية ) لمؤلفه اللواء المصري محمد مختار باشا طبع سنة

١٣١١ هجرية

### كلمة شكر

ولمناسبة مراجع البحث أرى واجباً على أن أقدم جزيل شكرى لحضرات  
رجال دار الكتب الملكية بمصر على جميل الحفاوة وعظيم المساعدة والمعاونة  
التي لقيتها منهم في البحث والمراجعة، وأخص بالذكر منهم الأستاذ أسعد بك برادة  
مدير دار الكتب، والأستاذ توفيق بك اسكاروس رئيس القسم الأفرنجي،  
والأمين الأول الأستاذ على بك فكري، والأستاذ الفاضل الشيخ محمد عبدالرسول  
رئيس القسم العربي، ومساعدته الأديب المهذب محمد افندي جبر، والأمينين  
الفاضلين خليفه افندي قنديل وسيد افندي عمر، وأقدم مثل هذا الشكر إلى الأستاذ  
الألمعي، الشيخ أحمد أبي علي، أمين مكتبة الإسكندرية، فلم جميعاً مني عظيم  
الشكر والثناء (يناير سنة ١٩٢٩)



## فهرست

صفحة		صفحة	
٨	مقدمة الطبعة الأولى	٣	مقدمة الطبعة الرابعة
١٣	إهداء الكتاب	٤	مقدمة الطبعة الثالثة
		٥	مقدمة الطبعة الثانية

## الفصل الأول

نظام الحكم في عهد المليك		نظام الحكم في عهد المليك	
١٤		١٤	من هو الواضع لهذا النظام
٣٢	نظام الملكية والضرائب	١٤	نظام الحكم السياسي - السلطات الثلاث
٣٢	أنواع الملاك	١٧	الوالى
٣٢	نظام الالتزام	١٧	رؤساء الجند
٣٥	الضرائب وأنواعها	١٧	الديوان الكبير والديوان الصغير
٣٦	الكشوفية والميرى	١٨	الماليك
	الضرائب الأخرى ومقدار دخل الحكومة	٢٠	تطور هذا النظام وانفراد المليك بالحكم
٣٧	النظام القضائى	٢٢	موظفو الحكومة في عهد المليك
٣٨	نتائج نظام الحكم في حالة مصر السياسية والعمرانية	٢٤	سياسة على بك الكبير
٤٥	في الحالة الاقتصادية	٢٥	مظاهر الحكم في ذلك العصر كما وصفها شهودها
٤٥	في الحالة الصحية	٢٧	كيف يعين الولاة
٤٦	في العلوم والآداب	٢٧	وصف استقبال الوالى
٤٧	الحالة الاجتماعية والاقتصادية في مصر عند مجيء الحملة الفرنسية	٢٨	سلطة الوالى
٥٠	طبقات الشعب	٣٠	عزل الوالى
٥١	العلماء	٣٠	انعقاد الديوان
٥١		٣١	

صفحة		صفحة	
٥٦	الصناعات والصناعات	٥١	الملاك والتجار
٥٨	للمسلمون والأقباط	٥٢	مركز مصر التجارى
٦٠	التقسيمات الإدارية	٥٤	الجمارك
٦٠	كلمة عن القاهرة وأمها مدن مصر	٥٤	طبقة المزارعين « الفلاحين »

### الفصل الثانى

تطور نظام الحكم فى عهد الحملة الفرنسية			
٦٥	نابليون وإفناذ الحملة وموقف إنجلترا	٦٥	أسباب الحملة الفرنسية
٧٥	معدات الحملة ووقائعها الأولى	٦٦	نابليون بونابارت
٧٨	سياسة نابليون إزاء الشعب وقاعدة	٧٠	فكرة الحملة الفرنسية فى خلال العصور
٨٢	الحكم التى وضعها فى منشوره	٧٠	فى عهد لويس التاسع
٨٤	منشور نابليون إلى المصريين	٧٠	فى عهد لويس الرابع عشر
	المفاوضات بين نابليون وزعماء		فى عهد لويس الخامس عشر
٨٨	الشعب غداة معركة الأهرام	٧١	والسادس عشر

### الفصل الثالث

نظم الحكم التى أسسها نابليون فى مصر			
٩٣	رأسه الديوان العام	٩٣	ديوان القاهرة
١٠٦	قرارات الديوان	٩٣	تأليف الديوان
١٠٧	المسألة الأولى — نظام مجالس الديوان	٩٧	اختصاص الديوان
	المسألة الثانية — النظام القضائى	٩٩	نظام الديوان
١٠٨	المدنى والجنائى	١٠٠	دواوين الأقاليم
	المسألة الثالثة — التشريع الخاص	١٠١	الديوان العام
١٠٨	بالموارث	١٠٢	رسالة نابليون فى الغرض من الديوان
	المسألة الرابعة — تسجيل عقود	١٠٣	اجتماع الديوان العام وقراراته
١٠٩	الملكية والضرائب العقارية	١٠٤	خطبة الافتتاح

الفصل الرابع	
صفحة	المجمع العلمي
١١٥	المجمع العلمي
١٣٠	شامي — ديكوتيل
١٣١	روزير
١٣١	الاقتصاديون
١٣١	بوسليج — استيف — تاليان
١٣٢	القواد والضباط
١٣٢	الجنرال كافريللي — الجنرال اندريوسى
١٣٣	هوراس ساي — مالوس
١٣٣	الأطباء والجراحون
١٣٣	ديجنت
١٣٤	لارى — ديوا
١٣٥	الأدباء والمترجمون والفنانون
١٣٥	فيفان دينون — فاتور — مارسل
	جووير — برسفال دجرنيزون —
١٣٦	رفائيل — فيلوتو
١٣٧	ريجو — ردوتيه — دوترز
١٣٧	أعمال المجمع العلمي
١٣٩	الطباعة
١٤٠	الصحافة
١٤٠	الأعمال الصحية
١٤٢	أعمال أخرى
	زيارة الجبوتي للمجمع العلمي ومقاله
١٤٦	في وصفه
صفحة	
١١٥	تأسيس المجمع
	الغرض من المجمع — أقسام المجمع
١١٦	انعقاد المجمع — مكتب المجمع
١١٧	أعضاء المجمع العلمي
١١٨	دار المجمع العلمي
	طائفة من أعضاء المجمع العلمي ولجنة
١٢٠	العلوم والفنون
١٢٠	علماء الرياضيات والمهندسون
١٢٠	موج
١٢١	كوستاز
١٢٢	لوير
١٢٣	جراتيان لوير
١٢٣	جيرار — جومار
١٢٤	فوربيه — لانسكرى
١٢٥	كورانسز — جالوا — دفيليه
١٢٥	السكرولونل جا كوتان وخريطة مصر
١٢٦	ديوا إيمى — نوى — نورى
١٢٧	لوير
١٢٧	علماء الطبيعيات
١٢٧	برتوليه — جوفروا سان هيلير
١٢٨	سافيني — دولوميو — دليل
١٢٩	كونتى

صفحة	صفحة
نظرة عامة في نظام الحكم الذى أسسه نابليون في مصر	١٤٦
١٥١	١٤٨
	١٤٩

### الفصل الخامس

المقاومة الأهلية في عهد الحملة الفرنسية	
١٥٥	١٥٥
دفاع أهالى الثغرواحتلال الاسكندرية	١٥٦
رواية الجبرتي عن احتلال الاسكندرية	١٥٧
١٧٣	١٥٩
سياسة نابليون في الاسكندرية	١٦٠
أوامر نابليون وتعليماته قبل مغادرته الاسكندرية	١٦١
١٧٧	١٦٤
موقف الجنرال كليبر في الاسكندرية	١٦٥
١٧٨	١٦٦
بين الاسكندرية ودمهور—هزيمة الجنرال ديموى	١٦٧
١٨١	١٦٨
مسألة السيد محمد كريم والقبض عليه ومحاكمته	
١٨٣	
الحالة في الاسكندرية بعد اعتقال السيد كريم	
١٨٧	
إعدام السيد كريم	
١٨٧	
تكريم الدولة لذكرى السيد محمد كريم	
١٩٠	

### الفصل السادس

في البحيرة	
١٩٣	١٩٤
١٩٨	١٩٧

## الفصل السابع

صفحة		صفحة
٢٠١	في القاهرة	
٢٠٧	ونصيب المصريين فيها	
٢٠٨	الاستعداد للمعركة	حالة الأفكار في القاهرة عند مجيء
٢٠٩	سير القتال	٢٠١ الحملة الفرنسية
٢١٠	رواية الجبرتي	٢٠٢ التطوع العام في القاهرة
٢١٤	انسحاب ابراهيم بك	سوء استعداد المماليك وضعف
٢١٦	نصيب المصريين في المعركة	٢٠٣ وسائل الدفاع
٢١٨	بعد الواقعة	واقعة إمبابة أو معركة الأهرام

## الفصل الثامن

	عود إلى الاسكندرية	
٢٢١		واقعة ( أبو قير ) وتأثيرها في مركز
٢٢٧	خسائر الفرنسيين	الفرنسيين
٢٢٨	رواية الجبرتي عن الواقعة	٢٢١ مقدمات الواقعة
٢٢٩	نتائج المعركة	٢٢١ الموازنة بين الأسطولين
٢٣١	ديوان الاسكندرية	٢٢٣ بدء المعركة
٢٣٢	الشيخ محمد المسيري	٢٢٤ بدء الضرب
٢٣٣	بين كليبر ونابليون	٢٢٥ مقتل الأميرال برويس
٢٣٥	الجنرال مارمون في الاسكندرية	٢٢٥

## الفصل التاسع

	في رشيد	
٢٣٧		
٢٤٢	حادثة شباس عمير	٢٣٨ احتلال رشيد
		٢٤١ حادثة السالمية

## الفصل العاشر

صفحة

٢٤٤ عود إلى البحيرة ورشيد

٢٤٧	تجدد الاضطرابات حول رشيد وفي دمنهور	صفحة ٢٤٤ ٢٤٥	الاضطرابات في البحيرة مهمة الجنرال مارمون
-----	--	--------------------	--

## الفصل الحادى عشر

٢٤٩	في القليوبية والشرقية		
٢٥٢	احتلال بلبيس		توزيع القوات الفرنسية في الوجه البحرى
٢٥٣	معركة الصالحية	٢٥٠	المعارك بين الخانكة وأبي زعبل
٢٥٤	عودة نابليون إلى القاهرة	٢٥٠	انسحاب الفرنسيين من الخانكة ثم احتلالها
٢٥٥	الاضطرابات في الشرقية	٢٥١	

## الفصل الثانى عشر

٢٥٨	عود إلى القاهرة		
٢٦١	تعيين أمير الحج	٢٥٨	سياسة الحفلات
٢٦٢	عيد الجمهورية الفرنسية	٢٥٨ ٢٥٩	مهرجان وفاء النيل حفلة المولد النبوى

## الفصل الثالث عشر

٢٦٥	ثورة القاهرة		
٢٧١	رجع ما انقطع	٢٦٦	لماذا ثارت القاهرة
٢٧٢	مصادرة الأملاك وهدم المباني	٢٦٧	الأسباب المالية
٢٧٣	هدم أبواب الحارات	٢٦٩	استطراد إلى ترجمة (نقيسة المرادية)

صفحة		صفحة	
٢٨٩	مروءة سكان القاهرة	٢٧٤	القتل والإرهاب
٢٩٠	فضائح الفرنسيين في إخماد الثورة	٢٧٥	لجنة الثورة
	إبطال الديوان وإنشاء القلاع	٢٧٦	وقائع الثورة
٢٩٨	لإخضاع القاهرة	٢٧٧	اليوم الأول للثورة
٣٠٠	كلمة عن ترسانة الجيزة	٢٧٩	مقتل الجنرال ديوي
	عدد القلاع التي أنشأها الفرنسيون	٢٨١	وصف الثورة بقلم شاهد عيان
٣٠١	بالقاهرة	٢٨٣	اليوم الثاني للثورة
٣٠٣	صدى الثورة في الأقاليم	٢٨٤	مقتل الكولونل سلكوسكى
٣٠٧	تدخل العلماء ويأنتهم للشعب	٢٨٥	وساطة أعضاء الديوان
٣٠٧	البيان الأول	٢٨٦	ضرب المدينة بالمدافع
٣٠٩	البيان الثاني	٢٨٨	قع الثورة — خسائر الفريقين

### الفصل الرابع عشر

٣١٢	في المنوفية والغربية		
٣١٥	الثورة في طنطا	٣١٣	المقاومة في غمرين وتتا
٣١٧	احتلال عسما	٣١٤	الحملة الكبرى

### الفصل الخامس عشر

٣٢٠	في الدقهلية ودمياط		
٣٣١	معركة الجمالية	٣٢٠	واقعة المنصورة
٣٣٤	عود إلى حسن طوبار	٣٢٥	الحملة على سنباط وميت غمر
٣٣٥	في دمياط	٣٢٧	فيضان الثورة
٣٣٧	واقعة الشعراء	٣٢٧	الحملة على البحر الصغير
٣٣٨	تفاقم الثورة وفضائع الجنرال فيال	٣٢٨	حسن طوبار
٣٤٠	الحملة الثانية على البحر الصغير	٣٢٩	سير الحملة على البحر الصغير

صفحة		صفحة	
٣٤٦	احتلال المطرية	٣٤١	سير الحملة والاستيلاء على المنزلة
٣٤٧	تحصين منطقة دمياط	٣٤٣	احتلال المنزلة

### الفصل السادس عشر

#### المقاومة في الوجه القبلي

٣٥١	مقدمات الحملة	٣٥١	سير الحملة من بني سويف إلى جرجا
٣٧٢	تحريك الحملة - احتلال بني سويف	٣٥٤	حادثة الفقاعي
٣٧٤	احتلال الهنسا	٣٥٥	احتلال أسيوط
٣٧٦	تعقب أسطول الماليك إلى أسيوط	٣٥٥	الثورة فيما بين أسيوط وجرجا
٣٧٧	رجوع ديزيه إلى الفيوم	٣٥٦	معركة سوهاج
٣٧٨	واقعة سدمنت	٣٥٧	معركة طمطا
٣٧٨	قتك الرمد بالجنود	٣٦٢	معركة ممهود
٣٨٠	الموقف الحربي في بني سويف والفيوم	٣٦٣	وصول الفرنسيين إلى أسوان
٣٨٣	والنيل	٣٦٣	المقاومة في جزيرة فيله
٣٨٤	احتلال مدينة الفيوم وإخماد الثورة	٣٦٥	تجدد القتال بين جرجا وأسوان
٣٨٥	في القرى المجاورة	٣٦٥	معركة الرديسة
٣٨٦	هجوم الثوار على مدينة الفيوم	٣٦٧	معركة قنا
٣٨٦	موقف الجنرال ديزيه في الوجه القبلي	٣٦٨	معركة (أبو مناع)
٣٨٧	تلقي المدد واستئناف الحملة على الوجه القبلي	٣٧٠	معركة إسنا

### الفصل السابع عشر

#### استمرار المقاومة في الوجه القبلي

٣٨٨	موقف الماليك	٣٨٩	من أسوان إلى قوص
٣٩٣	معركة الصوامع	٣٩١	معركة فقط
٣٩٣	كارثة السفن الفرنسية في النيل	٣٩١	معركة أبنود
٣٩٤			



صفحة		صفحة	
٤٠٧	واقعة (أبو جرج)	٣٩٧	حالة الشعب النفسية
٤٠٨	الثورة في المنيا	٣٩٨	رجوع ديزيه إلى قنا
٤١٠	الثورة في أطفيح	٣٩٩	معركة بئر عنبر
٤١٠	حركات الجنرال ديزيه	٤٠٢	تجدد الثورة بين قنا وجرجا
٤١١	مشروع الحملة على القصير	٤٠٢	واقعة برديس
٤١١	تنظيم البريد	٤٠٣	واقعة جرجا
٤١٢	اعتقال الرهائن	٤٠٣	واقعة جهينة
٤١٢	واقعة أسوان	٤٠٤	الثورة في بني عدى
٤١٣	احتلال القصير	٤٠٦	رواية الجبري عن ثورة بني عدى
٤١٤	الحالة النفسية للشعب	٤٠٧	في المنيا وبني سويف

## الفصل الثامن عشر

### وثائق تاريخية

٤١٧

وثيقة رقم ١ — أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين استصحهم نابليون في مصر —

٤١٧

إحصاؤهم وبيان أسمائهم

وثيقة رقم ٢ — شكر (الديوان) للمسيو لوير كبير المهندسين على تعميم مقياس الروضة ٤٢٢

وثيقة رقم ٣ — رسالة نابليون إلى أبي بكر باشا وإلى مصر قبل رسو العبارة الفرنسية بالإسكندرية

٤٣٢

وثيقة رقم ٤ — رسالة نابليون إلى إدريس بك قومندان السفينة التركية في الإسكندرية ٤٢٦

وثيقة رقم ٥ — منشور نابليون إلى الجنود قبل رسو العبارة الفرنسية ٤٢٦

وثيقة رقم ٦ — خطبة نابليون في الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية ٤٢٨

وثيقة رقم ٧ — واقعة المنصورة ٤٢٩

## الفصل التاسع عشر

٤٣١

مراجع البحث

٤٣١

عن نظام الحكم في عهد المماليك | ٤٣١ | رحلات الإفرنج

صفحة		صفحة	
٤٤١	وفاة الجبرتي	٤٣٤	عهد الحملة الفرنسية
٤٤٣	الوثائق الفرنسية للحملة	٤٣٥	الجبرتي وتاريخه
٤٤٩	كتاب تخطيط مصر	٤٤٠	أسلوب الجبرتي ولغته
		٤٤١	ترجمة كتابه
مؤلفات جامعة مستندة إلى الوثائق الرسمية وروايات شهود العيان عن المدة التي انقضت بعد جرح الفرنسيين إلى إسناد ولاية مصر إلى محمد علي باشا			
٤٥١		٤٥٤	كلمة شكر
٤٦٤	فهرست الخرائط والرسوم	٤٥٥	فهرست

### فهرست الخرائط والرسوم

١٨٠١-١٧٩٨	خريطة القاهرة سنة ١٧٩٨-١٨٠١	١١٩	دارالمجمع العلمي بالقاهرة سنة ١٧٩٨
	وفيها مواقع القلاع التي أنشأها		سراي قاسم بك بالناصرية حيث كان
٣٠١	الفرنسيون لإخضاع المدينة مقابل	١٢١	يسكن أعضاء لجنة العلوم والفنون
٣٣٢	خريطة معركة الجمالية		الإسكندرية — الميناء الشرقية سنة
٣٥٨	خريطة معركة سدمنت	١٦٢	١٧٩٨
٣٥٩	صورة معركة سدمنت		خريطة الإسكندرية سنة ١٧٩٨
٣٦١	منظر آخر لمعركة سدمنت	١٦٦	مقابل
٣٧٣	حادثة الفقاعى		السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية
٣٨١	صورة معركة سمهود	١٨٨	الوطني حين مجيء الحملة الفرنسية
٣٩٥	صورة معركة أبود		مسجد السيد محمد كريم برأس
٤١١	صورة معركة بئر عنبر	١٩٢	التين — بالإسكندرية
	جسر المراكب (الكوبري) الذي	١٩٦	خريطة معركة شبراخيت
	أنشأه الفرنسيون بين قصر	٢١٣	قصر مراد بك في الجزيرة
٤٢٤	العبي والروضة		خريطة واقعة إمبابه أو معركة الأهرام
	ميدان الأزبكية في أواخر القرن	٢٢٦	خريطة واقعة (أبو قير) البحرية
٤٢٥	الثامن عشر		إضرام الفرنسيين النار في (السالمية)
		٢٤٠	سنة ١٧٩٨

## للمؤلف

### حقوق الشعب

كتاب وضعناه سنة ١٩١٢ ، يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان ، في قالب محاضرات لتعليم الشعب حقوقه

### تقابات التعاون الزراعية

كتاب بسطنا فيه تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته ونظمه فى أوروبا ، والثمرات التى عادت منه على البلاد الأوروبية ، وتناولنا فيه نشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه وتقاباته ومنشآته ومزاياه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤

### كتاب الجمعيات الوطنية

يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان ، مع شرح أصول الدساتير والنظم البرلمانية فيها ، والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢

### تاريخ الحركة القومية

#### وتطور نظام الحكم فى مصر

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية ، ومن جلاء الفرنسيين إلى ارتقاء محمد على أريكة مصر بإرادة الشعب

## عصر محمد علي

يتناول تاريخ مصر القومي في عهد محمد علي

## عصر اسماعيل

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد اسماعيل

الجزء الثاني : وفيه ختام الكلام عن عهد اسماعيل

---

## الثورة العرابية

## والاحتلال الإنجليزي

---

## مصر والسودان

## في أوائل عهد الاحتلال

تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢

---

## مصطفى كامل

## باعت الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨

---

## محمد فريد

## رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩

## ثورة سنة ١٩١٩

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١

الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية لثورة سنة ١٩١٩ ، وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ، ثم وقائع الثورة في القاهرة والأقاليم

الجزء الثاني : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة ، واستمرارها . ومحاولات الثورة . ولجنة ملنر والحوادث التي لاقتها . ومفاوضات ملنر . واستشارة الأمة في مشروع ملنر . والتبليغ البريطاني بأن الحماية علاقة غير مرضية، ونتائج ثورة سنة ١٩١٩

## في أعقاب الثورة

الجزء الأول : تاريخ مصر القومي من ابريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة المغفور له « سعد زغلول » في ٢٣ اغسطس سنة ١٩٢٧

الجزء الثاني : تاريخ مصر القومي من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك أحمد فؤاد سنة ١٩٣٦

الجزء الثالث : تاريخ مصر القومي من ولاية فاروق عرش مصر في ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١

---

## مذكراتي

١٨٨٩ — ١٩٥١

خواطري ومشاهداتي في الحياة

---

## شعراء الوطنية

في مصر

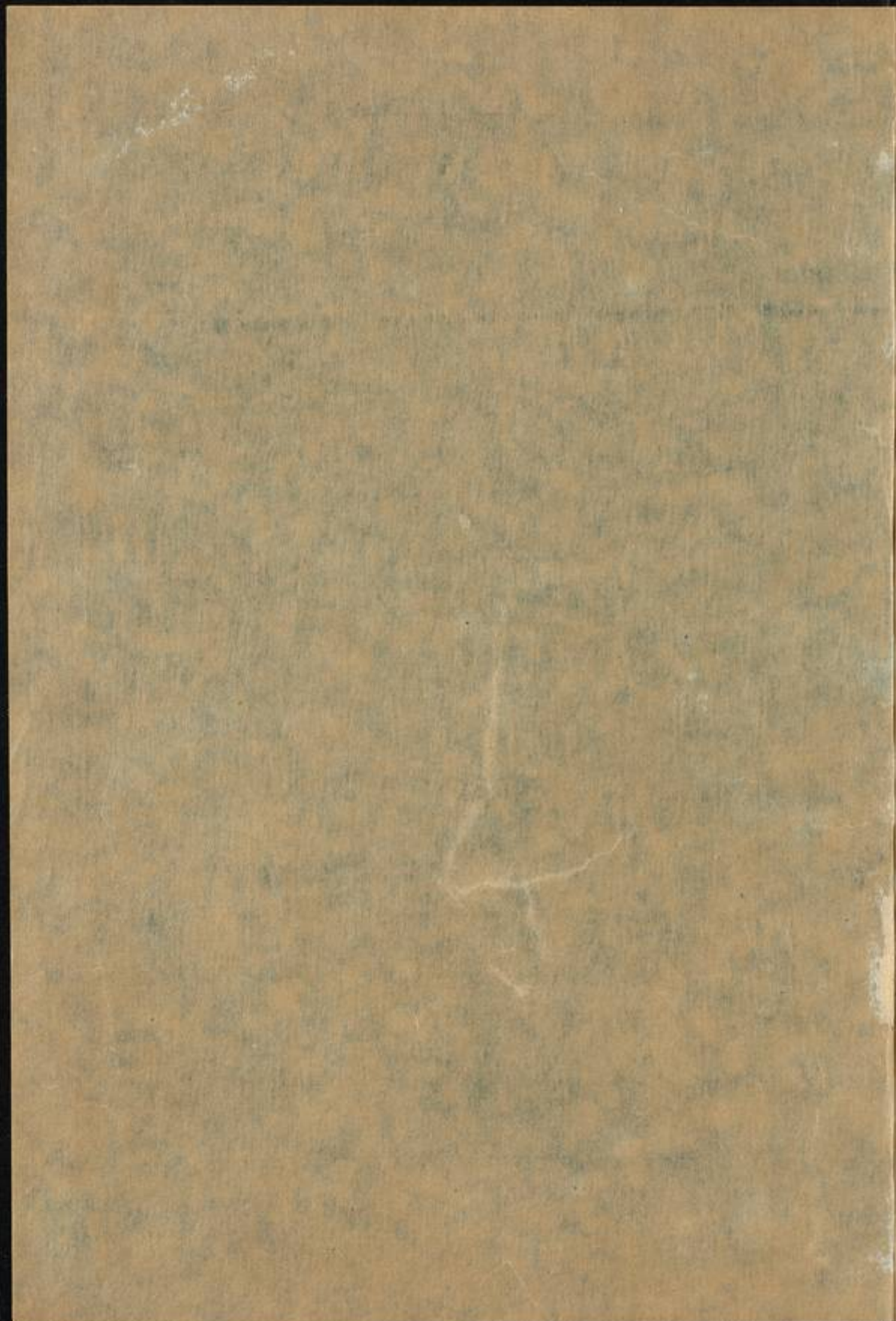
تراجمهم ، وشعرهم الوطني

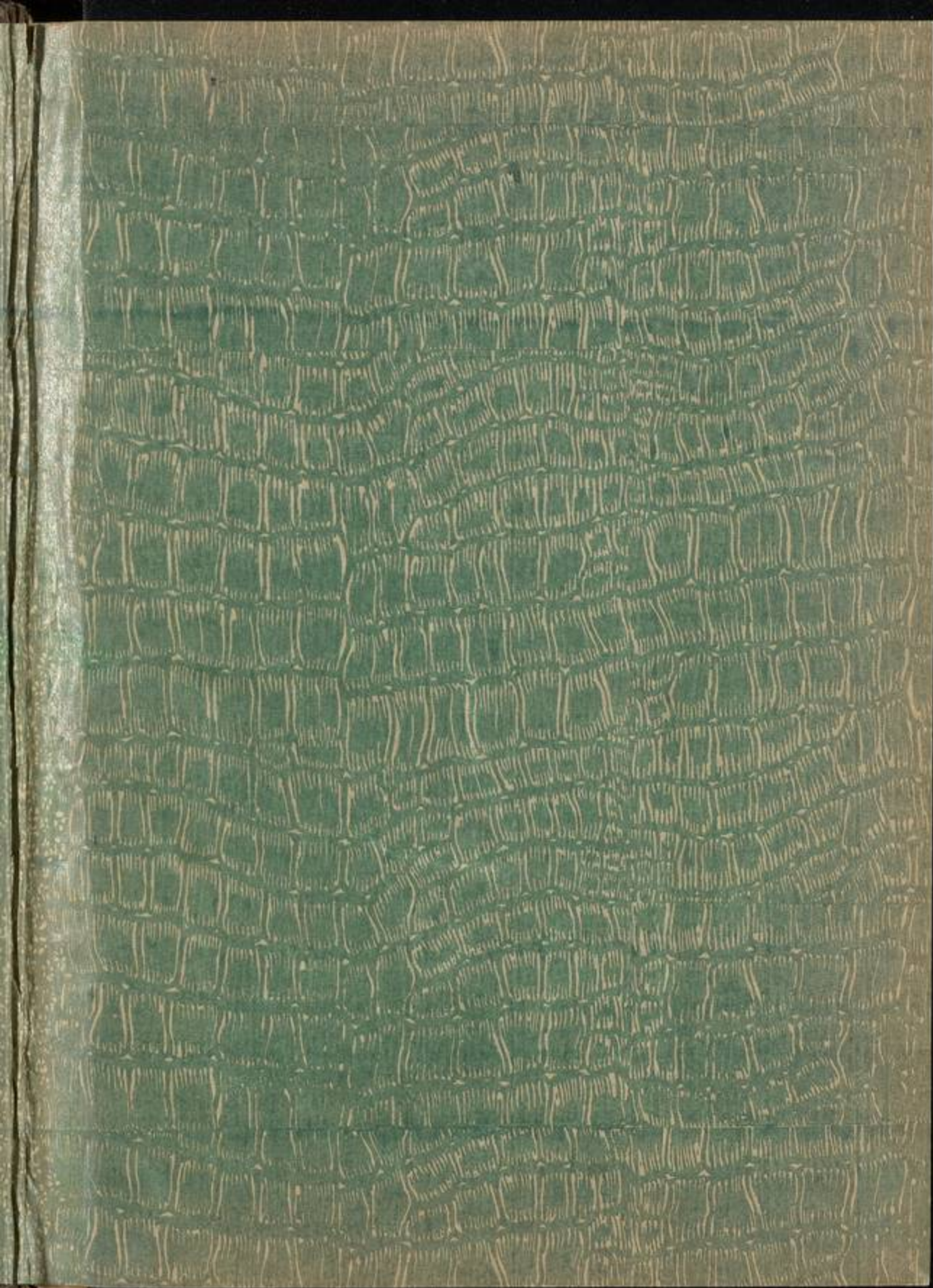
والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم

تصحيح خطأ

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
وأربعون	وأربعين	هامش الصفحة	١٥٧
بنية	بنيه	هامش الصفحة	٢٢١

vol I







COLUMBIA UNIVERSITY



0026812355

DATE DUE

DATE DUE

07146795

ALHARAKA

IT EN 17

INSERT



BOOK CARD

PLEASE DO NOT REMOVE.  
A TWO DOLLAR FINE WILL  
BE CHARGED FOR THE LOSS  
OR MUTILATION OF THIS CARD

07146795

962.

R123 V1 C1

TARIKH ALHARAKA

00 01 02 03 04 05 06 07 08 09 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96 97 98 99  
PRINTED IN U.S.A.

